منشورات اتحاد
المؤرخين العرب
القاهرة
١٤١٧هـ/١٩٩٦م

إقليم الخليج على مر عصور التاريخ

حصاد
(٤)
ندوة
عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة
١٢-١٤ رجب ١٤١٧هـ
٢٣-٢٥ نوفمبر ١٩٩٦م

رقم الإيداع

١٩٩٦/٤٥٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

لقطات سريعة من الندوة

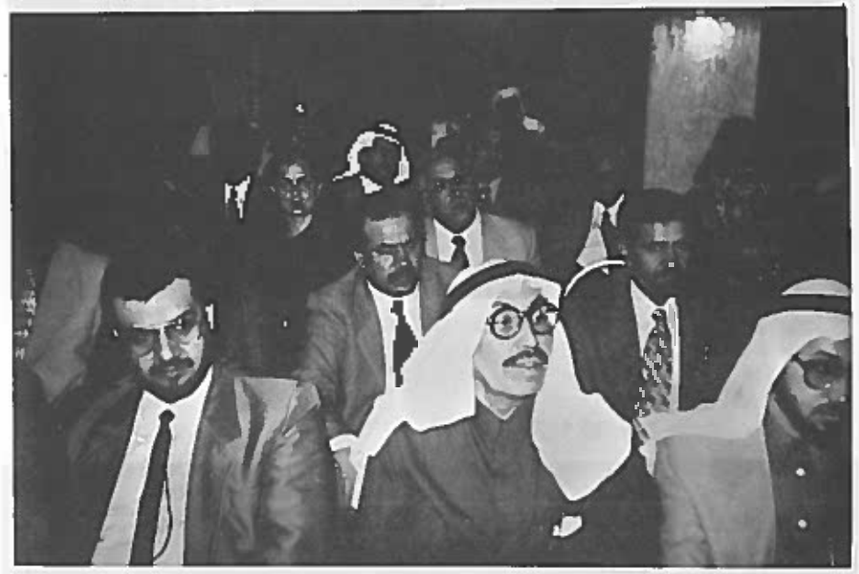

عقدت هذه الندوة بمشاركة

مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية

بجامعة الكويت

جمعية

اتحاد المؤرخين العرب

بالقـــاهرة

نـــــدوة

إقليم الخليج على مر عصور التاريخ

برنامج الندوة

أيام ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦

اليوم الأول

السبت ٢٣ نوفمبر ١٩٩٦م – ١٢ رجب ١٤١٧هـ

الجلسة الأولى : الساعة التاسعة صباحًا

(رئيس الجلسة : أ. د. أحمد مختار العبادى)

– كلمة الافتتاح يلقيها رئيس الاتحاد

– أ. د. محمود السيد عبد الغنى :

الجرهاء ودورها فى الحضارة العربية القديمة .

– أ. د. عبد الرحمن الأنصارى :

جرهاء ميناء قرية الفاو .

– أ. د. منيرة محمد عنتر الهمشرى :

السياسة الشرقية لتدمر تجاه إقليم شمال الخليج .

– أ. د. سهيل زكار :

دول القرامطه فى البحرين .

– مناقشة

(استراحة وتناول الشاى)

الجلسة الثانية : الساعة الحادية عشر صباحًا

(رئيس الجلسة : أ. د. حسنين محمد ربيع)

– أ. د. عبد المنعم ماجد :

خمس وثائق نادرة تبين ارتباط إقليم الخليج بمصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله .

– أ. د. رجب محمد عبد الحليم :

كاظمة فى الجاهلية والإسلام .

- أ. د. حسون على العمرى :

رجال الحديث فى البحرين من الصحابة والتابعين .

- مناقشة

(الساعة الواحدة دعوة للغداء وستراحه)

الجلسة الثالثة : الساعة الرابعة مساء

(رئيس الجلسة أ. د. عبد الرحمن الريمى)

- د. عبد الرحمن الحيد الفتى :

موقع الكويت فى التاريخ الإسلامى .

- د. سحر عبد العزيز سالم :

العلاقات بين إقليم الخليج وبلاد شرق أفريقية فى ظل الإسلام .

- أ. د. ابراهيم زعرور بن محمود :

العلاقات بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية فى مصر .

- مناقشة

اليوم الثانى

الأحد ٢٤ نوفمبر ١٩٩٦م - ١٣ رجب ١٤١٧هـ

الجلسة الرابعة : الساعة التاسعة صباحًا

(رئيس الجلسة أ. د. جمال زكريا قاسم)

- أ. د. أحمد عبد الحميد الشامى :

العلاقات التجارية بين إقليم الخليج وسواحل الهند الغربية .

- د. عبد الله كامل مرسى عبده :

عمان فى كتابات الرحالة فى العصور الوسطى .

- د. عمر بن صالح بن سليمان العمرى :

أثر الغوص على المجتمع فى الخليج .

- مناقشة

(استراحة وتناول الشاى)

الجلسة الخامسة : الساعة الحادية عشر صباحًا

(رئيس الجلسة : أ. د. إبراهيم زعرور بن محمود)

- أ. د. محمود سعيد عمران :

المغول فى إقليم الخليج وعلاقتهم بمغول القفجاق (١٢٦٠ - ١٢٧٠).

- أ. د. شوقى عطا الله الجمل :

دور البرتغال الاستعمارى فى إقليم الخليج (١٥٠٧ - ١٥١٥) .

- أ. د. محمد محمود السروجى :

المقاومة العربية للبرتغاليين فى الخليج .

- د. عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل :

موقف الأعراف السائدة فى الاحساء من الأنظمة العثمانية .

- مناقشة

(استراحة وتناول الغذاء)

الجلسة السادسة : الساعة الرابعة مساء

(رئيس الجلسة : أ. د. بنيان سعود تركى)

- أ. د. عبد الله عبد الرازق أحمد :

موقف بريطانيا من التنافس الاستعمارى فى الخليج فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

- د. عبد القوى فهمى محمد :

الاعلام : مظهر للتنافس الإنجليزى الفرنسى فى الخليج .

- أ. م. عبد الله سراج منسى :

العلاقات الكويتية المصرية (١٩٤٤ - ١٩٥٨) .

- مناقشة

(دعوة للعشاء)

اليوم الثالث

الاثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦م - ١٤ رجب ١٤١٧هـ

الجلسة السابعة : الساعة التاسعة صباحًا

(رئيس الجلسة : أ. د. آمال السبكي)

- أ. د. فاروق عثمان أباظة :

القضايا المعاصرة للحدود السياسية على الساحل الغربي للخليج .

- أ. د. جمال زكريا قاسم :

الانسحاب البريطاني ومشكلات الأمن الإقليمي في الخليج .

- أ. د. عايض بن خزام الروقي :

علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية في العراق والشام

- كلمة الختام :

(دعوة للغداء)

المحتويات

- كلمة الافتتاح ... رئيس الاتحاد ١٧
- الاسم ... والمسمى ٢١
  أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- الامتزاج الحضاري بين الشمال والجنوب في إقليم الخليج في ضوء النقوش القديمة ٢٧
  أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- الجرهاء ودورها في الحضارة العربية القديمة ٣٥
  أ. د. محمد السيد الحبد الغني
- حول تحديد موقع الجرهاء ٩٣
  د. رشاد محمود بغدادي
- العلاقات التاريخية والحضارية بين إقليم الخليج العربي وشرق أفريقية في العصر الإسلامي ٧٩
  د. سحر السيد عبد العزيز سالم
- العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى ١٠٧
  أ. د. أحمد عبد الحميد الشامي
- الدولة القرمطية في البحرين ١٣٥
  أ. د. سهيل زكار
- قرامطة البحرين والاحساء في العصر العباسي ١٥٩
  د. علي منصور
- العلاقات بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية في مصر ٢٠١
  د. ابراهيم زعرور
- رجال الحديث في البحرين من الصحابة والتابعين ٢٢٩
  د. حسين علي المصري
- عاطفة في الجاهلية والإسلام ٢٦٧
  أ. د. رجب محمد عبد الحليم
- الحياة في هرمز في العصور الوسطى ٣٢٣
  أ. د. ليلى عبد الجواد إسماعيل
- إقليم الخليج بين الماضي والحاضر ٣٧١
  د. مصطفى عقيل الخطيب

• الحياة الاجتماعية فى دول شرق شبه الجزيرة العربية ٣٨٣
أ. سهيلة زين العابدين حماد
• دور البرتغال الاستعمارى فى إقليم الخليج ٤٤٧
أ. د. شوقى الجمل
• المقاومة العربية للبرتغاليين فى الخليج ٤٦٩
أ. د. محمد محمود المروجى
• الوجود المصرى فى الخليج العربى فى عهد محمد على ٤٨٧
أ. د. عبد الحميد البطريق
• محمد على والخليج العربى ٥١١
أ. د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
• دور بريطانيا فى التنافس الاستعمارى فى الخليج العربى ٥١٩
أ. د. عبد الله عبد الرازق أحمد :
• مشكلة الأعلام الفرنسية فى عمان ٥٤٧
د. عبد القوى فهمى محمد :
• القواسم ومواجهة الأطماع الأوربية فى الخليج العربى ٥٨٦
د. عبد الوهاب بن صالح بابعير
• القضايا المعاصرة حول الحدود السياسية السعودية
على الساحل الغربى للخليج ٦٠٩
أ. د. فاروق عثمان أباظة
• موقف الأعراف السائدة فى منطقة الأحساء
من الأنظمة العثمانية ٦٦٣
د. عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل :
• الانسحاب البريطانى ومشكلات الأمن الإقليمى فى الخليج ٧٠٧
أ. د. جمال زكريا قاسم :
• العلاقات الكويتية المصرية ٧٣٩
د. عبد الله سراج عمر ملعبى
• الغزو العراقى للكويت (دراسة وتحليل) ٧٦١

كلمة الافتتاح

- حضرات الإخوة الزملاء والزميلات ... أعضاء اتحاد المؤرخين العرب ...

حضرات الضيوف الكرام ...

مرحبًا بكم جميعًا فى القاهرة ؛ فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب ... إنه اللقاء السنوى الذى ينظمه الاتحاد لتلتقى فيه الوجوه ، وتتلاقى القلوبُ والأفئدة ، وتتبادل الآراءُ والأفكار . الكُل يسعى لتحقيق هدفٍ واحد ، هو عرض التاريخ عرضًا سليما نقيًا ، مجردًا من الشوائب والمنعطفات والنزعات ، بعيدًا عن الميول والأهواء .

- حضرات الزملاء والزميلات

إن عنوان ندوتنا اليوم قد يبدو فى ظاهره محدود الأبعاد ، ولكنه يحمل فى الواقع بين طياته الكثير من المعانى والدلالات . ذلك أن جذوره التاريخية تتصف بالتنوع ، وهى ممتدة بعيدًا فى أغوار التاريخ ، ترمز فى جوانبها إلى العديد من المظاهر الحضارية فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا .

فإقليم الخليج كان دائمًا على امتداد العصور – شريانًا عالميًا من الشرايين التى تصل الشرق بالغرب . وعبر هذا الشريان انتقلت الثروات والغلات والمنتجات، مما أدى إلى ظهور وانتعاش العديد من المدن التى تقع على هذا الطريق التجارى بين الشرق والغرب . وبذلك غدا إقليم الخليج مركزًا هامًا من مراكز الاحتكاك الحضارى ، والتبادل الاقتصادى ، والنشاط الاجتماعى والفكرى .

ثم أن هذه الجذور الحضارية ظلت ضاربة فى أرض الخليج ، قد تنكمش فى بعض حلقات التاريخ وفقًا لسنة التطور التاريخى ، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى

الظهور والانتعاش ، فالشجرة أصلها ثابت ، وعوامل بقائها راسخة تتمثل فى الثروة البشرية والاقتصادية من جهة ، وفى خطورة الموقع الجغرافى من جهة أخرى .

وهكذا حتى نشب الاستعمار الغربى أظافره فى إقليم الخليج ؛ ولكنه لم يستطع أن يغير من طبيعة الإقليم وإن كان قد عبث ببعض مظاهر الحياة فيه . وبدخول العالم عصر النفط ، برز إقليم الخليج على مسرح التاريخ البشرى لينهض نهضة مباركة ويؤدى دوره كاملاً لخير البشرية بوجه عام ، ولخير العرب والعروبة بوجه خاص . هذا مع ملاحظة أن تلك المسيرة التاريخية - قديمًا وحديثًا - لم تخل من تيارات سياسية وعقائدية وعنصرية ، أسهمت بدرجات متفاوتة فى تشكيل تاريخ الإقليم ، وإكسابه طابعه الخاص المميز .

- حضرات الزملاء والزميلات

لعلنا لمسنا جميعًا أن اللقاءات التى تتم فى إطار نشاط اتحاد المؤرخين العرب تتصف دائمًا باتساع الأفق وتغلب روح المحبة والأخوة والتعاون .

وإن لقاء اليوم الذى يضم جمعًا من صفوة المشتغلين بالدراسات التاريخية فى العالم العربى يستهدف الوفاء بعهد كان مسئولاً ، والنهوض بأمانة ترفع من شأن العرب وأمة العرب . فلنبدأ مسيرتنا فى هذه الندوة على بركة الله ، سائلين إياه - عز وجل - أن يطهر قلوبنا ، ويزكى نفوسنا ، وأن يوفقنا جميعًا لما فيه خير العرب ، وأمة العرب ، وتاريخ العرب ، ومؤرخى العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

شكر .. وعرفان

حضرات الإخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات ...

أرى من واجبى - كرئيس لهذا الاتحاد - وقبل أن نبدأ الجلسة الأولى لهذه الندوة ، أن أقدم الشكر باسمكم لحكومتى الكويت والمملكة العربية السعودية - فضلاً عن الحكومة المصرية - لما أسهمت به هذه الحكومات جميعًا من عون لدعم اتحاد المؤرخين العرب ، إيمانًا منها بسمو رسالته العلمية والقومية .

* * *

أما على الصعيد الفردى ، فإننى باسمكم أيضًا نكرر الشكر لنائب رئيس الاتحاد - معالى الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، مدير جامعة الإمام محمد بالرياض - لما قدمه ويقدمه للاتحاد من دعم أدبى ومادى . وكان بودنا - ووده - أن يكون جالسًا بيننا اليوم ، ولكنه اعتذر لارتباطات مسبقة .

كذلك نكرر الشكر للزميلة الفاضلة للأستاذة الدكتورة ميمونة الصباح - أستاذة التاريخ ومديرة مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية بجامعة الكويت - لما قدمته من عون ودعم لهذا الاتحاد .

* * *

أما رجل الأعمال السعودى معالى الشيخ عبد الرحمن بن على الجريسى رئيس مجلس الغرف التجارية والصناعية فى المملكة العربية السعودية فله منا تحية خاصة مقرونة بالشكر والتقدير لمعونته الصادقة . إن أمة العرب تظل بخير طالما أن فيها رجالاً على مثل هذه الدرجة من الوعى والنضج ، يقدرون العلم وأهل العلم .

الاسم ... والمسمى

عندما يتردد اسم " الخليج العربى " على الألسن تتعدد الصور وتتابع الأفكار وتتزاحم الذكريات أمام المؤرخ تحت تأثير اعتبارات - وسياسية وحضارية اجتماعية واقتصادية - وغيرها . ذلك أن إقليم الخليج الذى تعنيه له وضعه الخاص الذى جعل منه على مر العصور محورًا من المحاور الرئيسية التى يرتبط بها الكثير من أحداث الماضى والحاضر .

ومن المعروف أن خريطة العالم تزخر بالعديد من الخلجان ، ما بين صغيرة وكبيرة ، بعضها حافل بالنشاط البشرى منذ القدم ، والبعض الآخر ظل محدود الشهرة ، ضائل الذكر ، لا مكان له فى حوادث الدهور ، وإنما هو مجرد علامة جغرافية على خريطة الأرض ، لا يعدو فى أهميته أن يكون ظاهرة طبيعية من الظواهر التى حفلت بها صورة العالم .

أما خليجنا العربى ، الذى عقدنا هذه الندوة التاريخية لإلقاء الأضواء على بعض جوانبه ، فحسبه أنه كان دائمًا - طوال العصور القديمة والوسطى - شريانًا يربط الغرب بالشرق ، ومنفذًا أطل منه عالم الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط على جنوب آسيا وشرقها وغرب القارة الأفريقية ، ولذلك غدا ملتقى تيارات متنوعة ، لارتباطه بالقارات الثلاث التى تألف منها العالم القديم. وهكذا حتى هلت العصور الحديثة ، فظهر على مسرح التاريخ ما عرف باسم " العالم الجديد " ليسهم بدوره فى الإفادة مما حبا به الله هذا الإقليم من إمكانات طبيعية متعددة .

ولا يقلل من عروبة هذا الخليج أن يكون حديث العهد بلقب " العربى " ، وأنه نُسب إلى الفرس فى مراحل التاريخ القديم والوسيط . ذلك أن الفرس والعرب هما العنصران الرئيسيان اللذان وقفا على مر العصور وجها لوجه على جانبى الخليج : أحدهما على جانبه الشرقى والآخر على جانبه الغربى . هذا من

ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن التاريخ يشهد على أن أسماء البلاد والأقاليم والمدن والقرى ، كثيرًا ما تعرض بعضها للتغيير والتبديل على مر العصور ، مع احتفاظها بجذورها وأصولها وهويتها ، وهذه سمة من سمات التطور التاريخي . فالجزيرة الكبرى الواقعة في غرب القارة الأوربية عرفت في حلقة من حلقات التاريخ باسم بريطانيا ، حيث غلب عليها عنصر البريطانيين Britons في العصور السابقة حتى إذا غزاها الإنجليز Angles وغلبوا عليها في القرن السادس الميلاد - وهم من قبائل الجرمان - اتخذت البلاد اسمًا جديدًا هو إنجلترا - أي بلاد أو أرض الإنجليز (Angles Terra) . وكذلك البلاد التي تعرف اليوم باسم فرنسا ، كان اسمهما قديمًا أيام قيصر " غاليا أو بلاد الغال " لأن السيادة عليها كانت للعنصر الغالي أو الغاليين Gauls حتى إذا ما غزاها الفرنجة Franks في فجر العصور الوسطى ، تحول اسمها تدريجيًا من غاليًا Gaul " إلى فرنسا France " وهو اللفظ المشتق من Franks .

فإذا اقتربنا من وطننا العربي ، نجد أن يثرب تبدل اسمها إلى مدينة الرسول ﷺ وعرفت بالمدينة ، وكذلك بلدة " أبو حماد " في مصر كان اسمها الأصلي " بانوب " وهو الاسم القديم الذي عرفت به في قوانين اللواوين وفي تحفة الارشاد وغيرهما ، ثم تبدل الاسم إلى " أبو حماد " نسبة إلى أحد الصالحين وهو الشيخ أحمد أبو حماد " صاحب المقام الكائن بها " ...

ومن يرجع إلى الخريطة السياسية لقارتي أفريقية وآسيا - بوجه خاص - في النصف الأخير من القرن العشرين ، يجد العديد من الأسماء الجديدة أطلقت على وحدات وبلاد كانت تحمل أسماء أخرى من قبل ، مما يضيق المقام على الإسهاب فيه . ولا داعي لأن نذهب بعيدًا وأمامنا بلاد الفرس ذاتها التي تخلت عن اسم "فارس" الذي عرفت به منذ القدم وأختارت لنفسها في العصور الحديثة اسم "إيران" ، ربما طمعًا في توسيع دائرة نفوذها لتشمل بعض الأقاليم المجاورة التي تدخل جغرافيا في نطاق الهضبة الإيرانية(١) .

* * *

وكان اليونانيون القدماء هم أول من أطلق اسم الخليج الفارسي Sinus Persicus على ذلك الشريان عندما رأوا غلبة الفرس - أيام عظمة دولتهم - على مياهه ، في عصر لم يكن للعرب دولة وإنما كانوا قبائل متناثرة داخل شبه الجزيرة وخارجها ، مما أضعف من شأنهم أمام قوة الفرس . وفي تلك العصور البعيدة ، نظر العرب أنفسهم إلى الكيان الكسروي الساساني نظرة إكبار ، فأطلقوا على الخليج اسم " بحر فارس " ، وهو المطلع الذي ظل سائدًا - بحكم العرف والتقاليد المتوارثة - حتى بعد أن دار التاريخ دورته ودالت دولة الفرس على أيدي العرب في القرن السابع للميلاد ، وصارت السيادة للعرب على الفرس : أرضهم وبحرهم.

ولكن الفرس لم يرضوا بهذا التحول التاريخي المحتوم . ولم يخف من وطأة الإنقلاب أنه تم تحت مظلة الإسلام ، الديانة الجديدة التي دخل فيها الفرس . فقد عز عليهم - وهم اصحاب السؤدد الراسخ والسيادة التليدة - أن يخضعوا لحكم العرب أو أن يعترفوا بأن للتاريخ دورة . وهكذا أدار الفرس ظهورهم للعملاق الكبير الذي نادى به الإسلام والذي جعل من المؤمنين إخوة ، وأخذوا يترحمون على مجد أديرت أيامه وسيادة تحولت إلى استسلام وخضوع . وتحت تأثير هذه المشاعر اتجهوا نحو العودة بالتاريخ إلى الوراء بمعنى العمل لتكون لهم السيادة على العرب في ظل الإسلام مثلما كانت لهم السيادة أيام الجاهلية . ولتحقيق ذلك لجأ الفرس إلى اختلاق المبادئ والأفكار الهدامة ، وبثها في الدولة الإسلامية - مذهبيًا وعقائديًا وسياسيًا واجتماعيًا . وبعض هذه المبادئ والأفكار مستقى من حضارة الفرس وفكرهم الوثني القديم قبل الإسلام، مما أنزل بدولة الإسلام أبلغ الضرر على مر القرون ، وترك جرحًا عميقًا في جسد الدولة الإسلامية مازالت تعاني منه حتى اليوم . ولم تغب هذه الحقيقة عن فكر المعاصرين من العلماء والمؤرخين ، إذ يقول المقريزي - شيخ مؤرخي القرن التاسع الهجري - الخامس عشر للميلاد - مانصه(٢) :

[واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام ، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر في أنفسها ، بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدًا لهم . فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا - تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، ورأوا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى ...] .

* * *

أما فيما يتعلق بالخليج فالواقع أنه منذ سقوط دولة الفرس في القرن السابع للميلاد أمام الفتح العربي الإسلامي غدا الخليج عربيًا بالفعل ، فارسيًا بالاسم . وهكذا حتى اكتشف البرتغاليون الخليج في القرن السادس عشر للميلاد ، فلم يجدوا في جعبتهم إلا الاسم الأوربي القديم الذي عرف به ، وأطلقوا على ذلك الإقليم اسم "الخليج الفارسي" وهي التسمية التي شاعت في الأطالس الحديثة ، وبذلك عاد البرتغاليون بالتاريخ أكثر من عشرين قرنًا إلى الوراء . ولكن العرب أدركوا في صحوتهم اليوم أن هذه التسمية التقليدية المتوارثة لا تغير من الواقع ، وأن هذا الخليج غدا عربيًا منذ أمد بعيد . ولئن طال السكوت على هذا الحقيقة قرونًا طويلة ، فإنه لا يجوز الآن تشويه الواقع ومجاملة أحد الأطراف على حساب الحقيقة والواقع . لقد كان الخليج بحرًا فارسيًا عندما كان الفرس يمثلون الكفة الراجحة في محيطه ، وعندما كان الفرس أولى حضارة وبأس في مياهه وعلى ضفته الشرقية ، في حين كان العرب على الضفة المقابلة أشتاتًا لا رابط يربطهم ، ولا حول لهم ولا قوة ، ولاحضارة لهم يفاخرون بها الحضارات المعاصرة . أما بعد أن دخل أمر الفرس وذبلت حضارتهم وتحولوا إلى مصدر لحركات إرهابية تسيء إلى الإسلام وأهله ، في الوقت الذي نجح العرب في إرساء دعائم حضارة أجمع الباحثون على أنها أعظم حضارة عرفها العالم في العصور الوسطى ، فإن راية العروبة ارتفعت فوق الخليج لتعلن على الملأ أن الخليج عربي وأن البحر عربي .

وفي هذا تصحيح لوضع خاطئ ، وتدارك لحقيقة طال السكوت عليها ، وتعبير عن ظاهرة من ظواهر المسيرة التاريخية ، قوامها تعديل الأسماء وفقًا لتبدل الظروف التي تحيط بالمسميات .

والآن ، فليشكر عرب الخليج ، الله عز وجل على كريم نعمائه ، ولينهجوا نهج وحدة الصف بنفوس راضية وعقول واعية ، وليعملوا على الإفادة من النعم التي أنعم الله عليهم ، وذلك بالعمل النافع الذي يعود عليهم وعلى أمة العرب جميعًا بالنفع والخير :

[رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحًا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين] .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الامتزاج الحضارى بين الشمال والجنوب فى إقليم الخليج

فى ضوء

" ملامح اللغة العربية الفصحى فى النقوش القديمة فى شرق الجزيرة العربية "

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد (*)

من المعروف أن اللغة العربية الفصحى تنتمى إلى مجموعة اللغات العربية الشمالية التى تشمل أيضًا اللحيانية والثمودية والصفوية . وهذه المجموعة تختلف فى كثير من الخصائص عن اللغة العربية الجنوبية التى تشمل اللهجات السبئية - الحميرية والمعينية والحضرمية والقتبانية . والنقوش القديمة فى شرق الجزيرة العربية التى نعتمد عليها فى هذه الدراسة أغلبها شواهد قبور من الحجر محفور عليها كتابات بالخط المسند الجنوبى الذى كتبت به اللغة العربية الجنوبية بلهجاتها الأربع المذكورة . وكان من المنتظر أن تكون لغة النقوش القديمة فى شرق الجزيرة العربية هى اللغة العربية الجنوبية ما دامت قد كتبت بخط هذه اللغة أى بالخط المسند ، ولكن بدراسة هذه النقوش تبين أن بها خصائص عربية شمالية وتظهر فيها ملامح اللغات العربية الشمالية التى بقى الكثير منها فى اللغة العربية الفصحى سواء فى أسماء الأشخاص أم فى التراكيب اللغوية . وقد عثر على أغلب هذه النقوش فى منطقة " ثاج " الواقعة على خطى ٢٧° شمالاً و٤٩° شرقًا تقريبًا ، كما وجدت نقوش أخرى فى مناطق " القطيف " و" رأس تنورة " و"عين جاوان" و" ابقيق " . (أطلال ع ٥ ص ٧٩ /p.86) .

ويرجع تأثير اللغات العربية الشمالية (التى بقيت خصائصها فى العربية الفصحى) فى لغة هذه النقوش إلى ما كان هناك من اتصالات بين منطقة شرق

(*) أستاذ بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

الجزيرة العربية وبين والمناطق الواقعة في شمال غرب الجزيرة العربية ، حيث سادت اللغات العربية الشمالية وذلك عبر طرق التجارة التي كانت تمتد بين هذه المناطق .

ولا شك في أن المستوطنة التجارية المسماة عند الكتاب الكلاسيكيين "جرهاء" Gerrha ومركزها في إقليم " الخسا " والتي كان مجالها يمتد على الساحل من ميناء " العقير " جنوبًا حتى رأس تنورة شمالاً ، وفي الداخل من الخفوف والحسا جنوبًا حتى تاج شمالاً ، ولدت في القرن الرابع قبل الميلاد واستمر ازدهارها حتى القرن الثالث الميلادي ، وكانت تنصب فيها التجارة القادمة من سائر مناطق الجزيرة العربية . وقد أفاض الكتاب الكلاسيكيون في وصف ثروة الجرهائيين من تجارة البخور والعطور التي كانت تحمل إلى جرهاء من هذه المناطق وخاصة من جنوب الجزيرة العربية (أطلال ٥ ص٩٥ / p97) ونتيجة لهذه العلاقات صاوت الحضارة في شرق الجزيرة العربية مزيجًا من حضارة جنوب الجزيرة العربية (وبخاصة السبئية والمعينية) . وظهر ذلك في استخدام الخط المسند الجنوبي في كتاباتها ، بالإضافة إلى بعض الخصائص العربية الجنوبية في لغة هذه النقوش . أما التأثيرات الشمالية الغربية فقد ظهرت في صبغ هذه اللغة بخصائص عربية شمالية ، تعرفها من اللغة العربية الفصحى .

ولما كانت لغة هذه النقوش تجمع بين خصائص اللغة العربية الجنوبية التي سادت في اليمن وبين خصائص اللغة العربية الشمالية التي سادت في الحجاز ونجد، فإنه لا يمكن تصنيفها ضمن النقوش الجنوبية أو الشمالية، ولذا اعتبرها العلماء مجموعة قائمة بذاتها أطلقوا عليها تسمية " النقوش الحسائية " نسبة إلى منطقة الحسا في شرق الجزيرة العربية . (Ja. S. p66) .

وبناء على ذلك فإنه يمكن القول إن النقوش الحسائية تتميز بثلاث خصائص:

١ - خصائص عربية جنوبية صرفة .

٢ - خصائص عربية شمالية صرفة (كما تظهر في العربية الفصحى) .

٣ - خصائص مشتركة بين اللغتين العربية الجنوبية والعربية الشمالية مع ملامح قليلة من اللغة الآرامية أو اللغة النبطية (المتطورة عن الآرامية رغم اصطباغها بالصبغة العربية) .

أما عن الخصائص العربية الجنوبية الصرفة التي توجد في هذه النقوش فهي:

١ - ضمير الغائب في المعينية -𐩣 (س هـ) كما في كلمة 𐩣𐩱𐩲𐩣 (ا خ س هـ) بمعنى " أخوه " Ja. S. p. 67) .

٢ - الصيغة السحرية المعينية 𐩱𐩣𐩲𐩨 (ود/اب) ومعناها " الاله ود (اله القمر المعيني) هو الأب " ، وكان الغرض من هذه الصيغة دفع الشرور عن المكان الذي تنقش على جدرانه أو عن الشخص الذي يعلقها كتميمة حول رقبته .(Ibid) .

٣ - الاسم الموصول السبئي 𐩺𐩱𐩲 (ا ل هـ ت) بمعنى " الذين " .(Ibid).

٤ - الضمير المتصل السبئي (للمفرد المذكر الغائب) -𐩲 (- هـ) فيقال 𐩺𐩱𐩲𐩲 (ا خ ت هـ) (Ja. S. p. 72) بمعنى " أخته " ولكن غالبًا يضاف إليه في النقوش العربية الجنوبية حرف 𐩧 (و) فيقال 𐩧𐩺𐩱𐩲𐩲 (ا خ ت هـ و) بمعنى " أخته " .

٥ - ورود اسم القبيلة السبئية 𐩦𐩱𐩨 (ش و ذ ب) (Ja. M. p. 61) .

٦ - ورود اسم القبيلة المعينية 𐩧𐩠 (ع و ر) (Ibid) .

٧ - ورود أسماء الأعلام الجنوبية " " شهام " ، وجرة " ، ويغمن " (أطلال ٥ ص ٨٢ - ٨٥ / p. 91) .

ورغم هذا التأثير الجنوبي في النقوش الحسائية فقد احتفظت من الأسماء الحسائية خاصتان من أهم الخصائص المميزة للغة العربية الجنوبية ، وهما (ميم التنوين " أو التميم ") والنون النهائية ، وهي أداة التعريف في هذه اللغة .

أما عن الخصائص الشمالية الصرفة كما تظهر في اللغة العربية الفصحى فهي:

١ – صيغة المبنى للمجهول للفعل الماضي وتظهر في كلمة عربية فصحى هي

(ف ق د ت) وهي نفس كلمة " فُقِدَت " العربية أي

" ماتت " (إطلال ٥ ص ٩٠ / p. 100) .

٢ – صيغة الفعل الماضي في كلمة (م ت ت) وهي نفس كلمة "ماتت"

العربية أي " توفيت " : (نفس المصدر السابق ص ٩١ / p. 100) .

٣ – صيغة الفعل الماضي في كلمة (ت ر ض و) بمعنى ترضون .

٤ – صيغة المثنى في كلمة (ب ن ت ى) بمعنى " ابنتَيْ " (Ja.s p. 72)

وإن كانت هذه الصيغة تستخدم أحياناً في اللغة الجنوبية ولكن تغلب عليها صيغة

أخرى أضيف فيها حرف النون إلى حرف الياء . فصارت – (ن ى)

كما في كلمة (م ع ل ى ن ى) بمعنى " العاليان " . كذلك

تستخدم صيغة ثانية يضاف فيها للاسم حرفا الهاء والنون فيقال

(ن خ ل ت هـ ن) بمعنى " نخلتان " .

٥ – ياء النسبة – (– ى) كما في كلمة (هـ ج ر ى) بمعنى

" مَدَني " (أي من المدينة) (اطلال ٥ ص ٨١ / p. 88) .

٦ – أسماء الأعلام الشمالية الصرفة مثل : حبيل ، حميدة ، جمعة ، حمرة ، غذبة ،

ملكة ، بذلة ، غسانة (اطلال ٥ ص ٨٠ – ٨٢ ، ٦ص ١٣٨) .

ويلاحظ عدم ظهور أداة التعريف " ال " المميزة للعربية الفصحى بينما

ظهرت الهاء وهي أداة التعريف في سائر لهجات اللغة العربية الشمالية (اللحيانية

والثمودية والصفوية) وذلك في كلمة (هـ ن ا ل ت) أي " اللات "

(اطلال ٥ ص٨٣ / Ja. S. p. 69) .

أما الخصائص المشتركة بين اللغتين العربية الجنوبية والعربية الشمالية فتظهر :

١ – في الاسم الموصول للمفرد الغائب (ذ (و)) كما في كلمة

(ذ (و) ا ى ل) بمعنى " من آل " أي " الذي من قبيله " (Ja. S. p. 70).

٢ – وفي مؤنثه (ذات) كما في كلمة (ذات / ا ى ل)

بمعنى " التي من قبيلة " (Ja. M. p. 61) .

٣ – في الضمير المتصل المؤنث الغائب (– هـ) كما في كلمة

(ا خ ت هـ) بمعنى " أختها " (Ja. S. p. 72) .

٤ – في العبارة التي يبدأ بها النص المحفور على شواهد القبور هذه ، وهي :

أما : (و ج ر / و ق ب ر) ومعناها " كومة وقبر "

(Biella, p. 120)

أو : (ن ف س / و ق ب ر) ومعناها " شاهد وقبر "

(OP. cit. p. 310)

وإلى جانب التأثيرات العربية الشمالية (كما تظهر في العربية الفصحى)

التي ذكرناها ، توجد تأثيرات شمالية أخرى هي التأثيرات الآرامية النبطية ، ولاشك

أنها كانت نتيجة الاتصال بين شرق الجزيرة العربية وبين دولة الأنباط في شمال

غرب الجزيرة العربية التي امتدت من البتراء شمالاً (على بعد ١٤٠ كيلو مترًا شمال

خليج العقبة) حتى مدائن صالح جنوبًا ، وهذه التأثيرات تظهر فيما يلي :

١ - في عبارة 𐩱𐩣𐩨𐩩𐩡𐩠𐩧 (ت ى م / م ن ت ا) بمعنى " تيم مناة " والألف في آخر كلمة " متا " (مناة) لتركيد في اللغة الآرامية وكذلك في اللغة النبطية التي تطورت عن الآرامية مع اصطباغها بالصبغة العربية الشمالية. (اطلال ٥ ص ٨١ - Cantineau. p. 165) .

٢ - في عبارتي 𐩣𐩨𐩩𐩡𐩠𐩧 (و ج ر / و ق ب ر) .

𐩣𐩨𐩩𐩡𐩠𐩧 (ن ف س / و ق ب ر) .

وهما نفس العبارتين المشتركتين بين اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية كما سبق القول ، وإن كانت كلمة " وج ر " تنطق في الآرامية " ى ج ر " (Biella, p. 120) وكذلك كلمة " ق ب ر " تنطق في الآرامية والنبطية " ق ب ر ا " بزيادة ألف التركيد . أما كلمة " ن ف س" فتنطق في النبطية كما هي (Cantineau, p. 141, 121) .

٣ - في الجملة 𐩱𐩣𐩨𐩩𐩡𐩠𐩧

م ت ت / ب ر ت / ا ر ب ع / و ث ل ث ن / س ن ت

بمعنى " ماتت " (صاحبة المشاهد والقبر) بنت أربع وثلاثين سنة (أطلال ٥ ص ٩١ p.100) ففي هذه الجملة وردت الكلمة النبطية " ب ر ت " بدلاً من كلمة " ب ن ت " المشتركة بين اللغتين العربية الجنوبية والعربية الشمالية، (وخاصة في الفصحى) وذلك رغم أن الجملة تبدأ بكلمة عربية فصحى هي الفعل الماضي " ماتت " ، كما أن نطق الأرقام يطابق نطقها في اللغتين العربية الشمالية والعربية الجنوبية . وفي آخر الجملة وردت كلمة " سنة " وهي مشتركة في اللغات العربية الشمالية (ومنها الفصحى) والعربية الجنوبية والنبطية .

وهكذا في جملة واحدة تظهر الامتزاج بين اللغات الثلاث في النقوش الحسائية .

اختصارات المصادر والمراجع :

- Biella = Biella. J. C; Dictionary of Old South Arabic, Sabaen Dialect, Harvard, 1982
- Cantineau = Cantineau, J; Le Nabatéen, Paris, 1930. Repr 1972
- Ja. M = Jamme ,A.; Miscellanées d'ancien arabe, Vol. XIV, Washingten, 1985
- Ja.S = Jamme, A; Sabaean and Hasaean Inscriptions from Saudi Arabia. Rome, 1966 .

– إطلال ، حولية الآثار العربية السعودية ، الرياض ، العدد الخامس ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م والعدد السادس ١٤٠٢هـ/١٩٨٣م . نشر في هذين العددين من الحولية المذكورة بحثان باللغة الانجليزية عن هذه النقوش وترجمتهما العربية . والأصل الانجليزي منشور في الصفحات التالية :

Vol. 5pp. 86 - 108 , Vol. 6, pp. 139 - 140

والترجمة العربية منشورة في الصفحات التالية :

العدد الخامس ص ٧٨–٩٥ والعدد السادس ص ١٣٧–١٣٨ والأفضل لمن يرغب في الرجوع إلى هذه البحوث ، مطابقة الترجمة العربية على الأصل الإنجليزي .

صورة لأحد النقوش الحسائية لبيان شكل الخط المسند الحسائي الذي يتميز حرف الواو به (الدائرة التي يتصفها خط رأسي) بأنه بنفس ارتفاع الخطوط الرأسية التي تفصل بين الكلمات

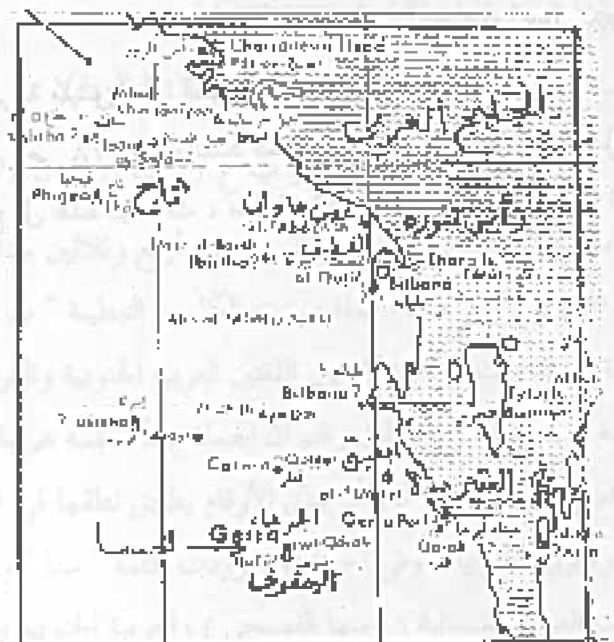

خريطة لمنطقة النقوش الحسائية في شرق الجزيرة العربية

الجرهاء ودورها في التجارة العربية القديمة

أ.د. محمد السيد العبد الغني *

تعد الجرهاء أهم مركز تجاري في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية خلال الفترة السلوقية(١) . وقد ظل أصل الجرهاء وموقعها الدقيق على ساحل الخليج العربي في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية (حاليًا) موضوعًا للجدال والنقاش منذ ما يزيد على قرنين من الزمان(٢) . وكان أن تفاوتت الآراء حول التحديد الدقيق لموقع الجرهاء القديم والمكان الذي يمثله حاليًا : فمن الباحثين من حدد موقعها على ساحل الخليج مباشرة في القطيف(٣) ، ومنهم من قال بأنها في العقير(٤) ، ومنهم من ذكر أنها سلوى(٥) (من الشمال إلى الجنوب بالترتيب على الساحل السعودي حاليًا للخليج العربي) ، ومنهم من جعل موقعها في هذه المنطقة ولكن إلى الداخل إما في الهفوف(٦) إلى الجنوب الغربي من العقير ، أو في ثاج(٧) إلى الشمال الغربي من القطيف .

على أن هذه الآراء الخاصة بتحديد موقع ما للجرهاء على ساحل الخليج أو في الداخل لا تنسجم بدقة مع وصف كل من سترابون وبلينى الجغرافي لموقع الجرهاء . فالوصف الجغرافي لسترابون لهذه المدينة نصه كالتالي :

" وبعد الإبحار بمحاذاة ساحل (الجزيرة) العربية لمسافة ألفين وأربعمائة ستاديون يصل المرء إلى الجرهاء وهي مدينة تقع على خليج عميق ... " ثم يذكر بعد ذلك :

" وتقع المدينة على بعد مائتي ستاديون من البحر (يقصد الخليج)"(٨) .

(*) أستاذ بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

أما بلينى الأصغر : فيتحدث عن " خليج الجرهاء ومدينة الجرهاء التى يبلغ محيطها خمسة أميال " ثم يذكر منطقة إلى الداخل فى شبه الجزيرة قبالة الجرهاء تسمى " أتينى " تبعد خمسين ميلا عن الساحل ، وعلى الجانب الآخر فإن جزيرة تيروس (البحرين) تبعد عن الساحل (ساحل الجرهاء) بنفس المسافة "(٩) .

هذا الوصف من قبل سترابون وبلينى يشير إلى أن موقع مدينة الجرهاء لم يكن على الساحل مباشرة بل يقع إلى الداخل قبالة ميناءها الواقع على خليج الجرهاء . وربما كان أول من تنبه لهذا الوضع وحاول أن يحدد موقع الجرهاء الداخلية وميناءها الساحلى هو شيرخر الذى حدد موقع الجرهاء فى الداخل بأنها منطقة " الجرهاء " فى تميم وميناءها بأنه " العقير " على الخليج(١٠) ، وحذا حذوه فى ذلك العالم " تكاك "(١١) ثم أعقبهم بعد ذلك بمدة طويلة فون فينسمان الذى رجح الموقعين بأنهما جبل القرين فى الداخل والقطيف على الخليج(١٢) . وأخيرًا جاء العالم بوتس الذى رجح بأن يكون موقع مدينة الجرهاء الداخلية القديمة هو موقع تاج وأن يكون ميناؤها على الخليج هو مدينة الجبيل(١٣) .

ولنبدأ بترجيح رأى العالم بوتس لموقع الجرهاء بأنها مدينة تاج الداخلية ، وميناءها على الخليج وهو " الجبيل " باعتبار الأخيرة هى منفذ تاج على الخليج حيث أنها قبالتها . لقد بنى بوتس هذا الترجيح على أساسين يمكن إثارة الشك حولهما : الأول هو أنه رجح أن يكون الميناء البحرى للجرهاء القديمة على الخليج هو " الجبيل " على أساس المسافة التى ذكرها سترابون من رأس الخليج من شماله الغربى (الساحل العربى) حتى موقع الجرهاء ، وحددها بألفين وأربعمائة ستاديون (ما يعادل ٣٨٤ كم) . وقد افترض أن هذه المسافة تبدأ من منطقة تسمى " تيريدون " (رجح أن تكون موضع البصرة الحالية) حتى الموقع المفترض لميناء الجرهاء على البحر . وبقياس هذه المسافة من البصرة إلى الجنوب توصل إلى أنها منطقة " جبيل " . ولكن إذا عدنا إلى نص سترابون نجده فى الفقرة السابقة

مباشرة على الفقرة التى ذكرت بها الجرهاء يذكر - نقلاً عن اراتو ستنيس - " ان اندرو ستيس الذى أبحر بأسطوله حول الخليج ذكر بأنه عند الرحلة بمحاذاة الساحل - واليابسة عن يميننا - من تيريدون (أى فى الخليج العربى من الشمال إلى الجنوب وشبه الجزيرة إلى اليمين) يرى المرء جزيرة إيكاروس (فيلكا الحالية شرقى الكويت) ، ومعبدًا مقدسًا لأبوللو فى الجزيرة ، ومحرابًا لأرتميس تاوروبولس"(١٤) ثم نأتى بعد ذلك الفقرة الخاصة بالجرهاء . ومعنى هذا أن المسافة المذكورة عند سترابون ٢٤٠٠ ستاديون (٣٨٤كم) لا تبدأ من تيريدون (البصرة) بل من جنوب الكويت حاليًا : ويؤدى ذلك إلى أن الموقع المفترض للجرهاء ينتقل بالتبعية جنوبًا إلى أبعد من جبيل بمسافة تساوى طول الساحل الكويتى تقريبًا . أما عن " تاج " كموقع مقترح لمدينة الجرهاء الداخلية فإن بوتس يستند فى ذلك إلى ما ورد عند سترابون من أن " سكان الجرهاء يعيشون على أرض ملحية ولديهم منازل من الملح " وما ورد عند بلينى الأكبر من أن " مدينة الجرهاء يبلغ محيطها خمسة أميال وأبراجها بنيت بقوالب مربعة من الملح "(١٥) . وقد ربط بوتس بين هذه القرائن عند سترابون وبلينى وبين أسوار من الحجر الجيرى الأبيض عثر عليها حول تاج ذكرته بمنازل وأبراج الملح فى الجرهاء القديمة . ويبدو تفسير العالم " جواد على " حول بناء منازل الجرهاء من حجر الملح مقنعًا ، إذ يقول تعليقًا على وصف سترابون وبلينى - " يتبين من ذلك أنها بنيت فى أرض سبخة وأن هذا السبخ هو الذى أوحى لمخيلة (الكلاسيكيين) ابتداع قصة حجر الملح الذى بنيت به دور المدينة وسورها "(١٦) .

ولكن سترابون وبلينى تحدثا عن منازل وأبراج من حجر الملح (الحجر الجيرى) ولم يتحدثا عن أسوار ، فى حين تحدث بوتس فى معرض الحديث عن الأدلة الأثرية فى تاج عن سور حول المدينة على شكل متوازى أضلاع غير منتظم يبلغ محيطه ٢٥٣٥ متر (الضلع الشمالى ٧٢٥م ، الجنوبى ٦٨٥م ، والشرقى

٥٣٥م ، الغربي ٥٩٠م) وفي كل جنب من الجوانب برج أساسي الشكل . (Potts II, pp. 44 - 45) ويؤرخ هذا بالفترة السلوقية في حوالي القرن الثالث ق.م بسبب وجود شقف سوداء مصقولة ذات نمط إغريقي (Greek black - glazed sherds P. 47) . وإذا صح تاريخ بوتس لهذا السور شابه فربما شابه ما جاء عند سترابون وبليني من استخدام أهل الجرهاء لحجر الملح (ربما الحجر الجيري الأبيض) . ولكن رغم ذلك يبقى السؤال : ألم تبق ولو بضعة منازل من هذه المدينة القديمة ؟ ثم أن المحيط الذي ذكره بوتس لأسوار تاج (٢٥٣٥ مترًا) يقل كثيرًا عن محيط الجرهاء كما ورد عند بليني (خمسة أميال) .

وفي ضوء تلك الشكوك في نظرية بوتس ، أتصور أن ما ذهب إليه شيرنجر ومن بعده تكاك من أن مدينة الجرهاء القديمة كانت تقع في موضع "الجرعاء" وأن ميناءها على الخليج كان " العقير " هو الترجيح الصحيح . ومما يدعم هذا الافتراض بالنسبة للموقعين هو أننا إذا قسنا مسافة الألفين وأربعمائة ستاديون (٣٨٤ كم) التي وردت عند سترابون من جنوب جزيرة إيكاروس (فيلكا الحالية) – وليس من حدود نيريلون أو البصرة كما أفترض بوتس – فربما نصل على ساحل الخليج العربي إلى منطقة " العقير " . أما فيما يتصل بالجرعاء وكونها هي مدينة الجرهاء القديمة التي وردت في المصادر الكلاسيكية ، فيرجح ذلك أولاً تشابه الاسمين إلى درجة كبيرة ربما توحي بأن التسمية اليونانية اللاتينية ربما كانت نطقًا يونانيًا لاتينيًا للاسم العربي (حيث لا يوجد حرف العين في هذه اللغات) ومن ناحية ثانية فإن الجرهاء وردت عند بطليموس الجغرافي مع اسم منطقة أخرى هي Thacmae (١٧) التي هي على الأرجح " ثميم " . وفي المصادر العربية – مثل الهمداني – اقترن اسم الجرعاء بثميم إذ يقول " ثم ترجع إلى البحرين فالإحساء منازل ودور لبني ثميم ثم لسعد من بني ثميم . وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب "(١٨) . هذا إلى أن المنطقة المقابلة – في هذا الوصف

الجغرافي – لمنطقة ثميم والجرعاء من ناحية ساحل الخليج ، هي البحرين ، وبالتالي فالأقرب منطقيًا أن تكون العقير هي الميناء والمخرج للجرهاء على ساحل الخليج العربي باعتبارها أقرب موانئ تلك المنطقة لجزيرة البحرين . ويؤيد ذلك أن الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث بعد حملته على الجرهاء سنة ٢٠٥ ق.م . – انطلق كما يحدثنا عنها بوليبيوس وكما سنتناولها فيما بعد – نحو البحرين (جزيرة تيلوس) ومنها إلى سليوقية (١٩) . وكذلك جاء في نص بليني الأكبر (ملحوظة رقم ٩ أعلاه) أن جزيرة تيلوس كانت تبعد نحو خمسين ميلاً من ساحل الجرهاء على الخليج العربي . كل هذه القرائن القوية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن مدينة الجرهاء التجارية القديمة كانت هي الجرعاء التي ورد ذكرها عند الهمداني ، والتي ظلت سوقًا تجاريًا لقرون عديدة بعد هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين من إغريق ورومان ، وإن تفاوتت مكانتها التجارية خلال تلك القرون . كما تكاد تقطع بأن منفذ هذه المنطقة على الخليج وميناءها كان العقير قبالة جزيرة البحرين (تيلوس القديمة) .

يضاف إلى ذلك أن منطقة الجرهاء في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية لم تكن – فيما يبدو – قاصرة على مدينة الجرهاء التجارية (أو الجرعاء كما تطلق عليها في العربية) وميناءها على الخليج الذي ربما كان العقير ، بل شملت قدرًا لا بأس به من الأراضي المجاورة . والدليل على ذلك أن بوليبيوس حين تحدث عن حملة أنطيوخوس الثالث على أرض الجرهائيين ذكر أن منطقة هي تدعى Χατταμία ثالث منطقة في أرض الجرهائيين . وتحدث عن قرى وأبراج فيها شيدت لصالح الجرهائيين الذين يقومون على زراعة هذه المنطقة رغم افتقار هذه المنطقة إلى موارد أخرى "(٢٠) ، كذلك ذكر بليني في حديثه عن أرض الجرهائيين منطقة أتنه Attene التابعة لأرض الجرهاء والتي ربما كانت أقصى حدودها الداخلية على مسافة خمسين ميلاً إلى الداخل من الخليج(٢١) . أقصد من

ذلك أن الجرهائيين كانوا يسيطرون على بقعة كبيرة فى منطقة الأحساء الحالية فى شمال شرق شبه الجزيرة العربية (٢٢) ، وهذه البقعة الكبيرة كانت عاصمتها وأهم مدنها - فى تقديرى - هى مدينة الجرهاء (الجرعاء) وكان أهم موانيها أو منافذها على الخليج هو موقع العقير الحالى .

* * *

أما عن الدور التجارى الهام الذى لعبته الجرهاء فيتجلى فى المصادر الكلاسيكية منذ وقت ميكر فى بداية العصر الهيللينيستى . يذكر أريستوبولوس الذى كان معاصرًا للإسكندر فى أواخر القرن الرابع ق.م. - كما ورد عند سترابون - أن " الجرهائيين ينقلون الكثير من بضائعهم بالقوارب إلى بابل ، ومن هناك يصعدون بها الفرات إلى ثابساكوس حيث يحملونها برًا إلى كافة الأرجاء"(٢٣) . لكن أراتوستنيس فى القرن الثالث ق.م . (٢٨٤-٢٠٢ ق.م) يذكر - كما أورده سترابون كذلك فى نفس الفقرة السابقة - أن "الجرهائيين تجار يسلكون الطرق البرية فى الأغلب ويتاجرون فى السلع العربية والطيوب"(٢٤) .

ثم نجد أجاثار خيديس فى القرن الثانى ق.م (حوالى ٢٠٠ إلى ١٣١ ق.م.) يذكر " ... البناء وفلسطين حيث يأتى الجرهائيون والمعينيون وكافة العرب الذين يقطنون المنطقة ومعهم البخور من الأراضى المرتفعة وكذلك - يقال - " منتجات الطيوب "(٢٥) . ونفس هذه العبارات تنقلها ديودور الصقلى (٢٦) فى القرن الأول ق.م عن أجاثار خيديس .

أما بلينى الأكبر فى القرن الأول الميلادى فيقول فى كتابه " التاريخ الطبيعى : " ومن أجل هذه التجارة (تجارة إيليمايس (ربما عيلام) وكارمانيا فى بلاد البارثيين) فتحوا مدينة كاراى (هناك شبه اتفاق بين العلماء على أن المقصود بها

الجرهاء)(٢٧) التى كانت سوقًا لتلك المناطق . ومن هناك اعتاد الجميع من قبل إن يذهبوا إلى " حابا " فى رحلة تستغرق عشرين يومًا ثم إلى فلسطين وسوريا . ثم فى مرحلة لاحقة - حسب رواية جوبا (ملك موريتانيا) بدأوا يسلكون طريقهم نحو خاراكس ومملكة البارثيين من أجل تجارة الطيوب . ولكن - من وجهة نظرى - فإنهم اعتادوا على أن يحملوا تلك السلع إلى بلاد فارس قبل أن يذهبوا بها إلى سوريا أو مصر ، وذلك وفق رواية هيرودوت الذى يسجل أن العرب اعتادوا على تقديم هدية سنوية مقدارها ألف تالنت من البخور إلى ملوك الفرس "(٢٨) .

ويرجع الفضل الأكبر فى تحديد تلك المراحل الزمنية المتعاقبة لتجارة الجرهائيين كما وردت بالمصادر الكلاسيكية إلى العالم بوتس الذى حاول تفسير هذه المراحل بأنها انتقالات مختلفة لها مبررات وأسباب سياسية واقتصادية(٢٩) . وقد جاءت محاولته مقنعة فى بعض النقاط وأقل إقناعًا فى البعض الآخر . فهو مثلاً يرى أن الجرهائيين كانوا يشحنون بضائعهم إلى بابل بحرًا أيام الإسكندر فى أواخر القرن الرابع ق.م. كما ورد فى رواية أريستوبولوس ، وهى رواية يرى بوتس - ويتفق فى ذلك مع سترابون فى كلمة παράπλους - أنها تتناقض مع رواية أراتوستنيس من القرن الثالث ق.م. التى يصف فيها الجرهائيين بأنهم كانوا - فى الأغلب - تجارًا يسلكون الطرق البرية . هذه الرؤية من جانب بوتس تبدو غير دقيقة إذا أمعنا النظر فى نص رواية كل من اريستوبولس وأراتوستنيس. فمثلاً يذكر أريستوبولوس - كما نقله سترابون - أن الجرهائيين كانوا ينقلون الكثير من سلعهم بالقوارب إلى بابل ، وهذا يعنى أنهم كانوا ينقلون بعضًا من سلعهم برًا إلى طرق أخرى غير الطريق البحرى إلى بابل . ومن جهة أخرى فإنه حتى السلع التى كانت تنقل بحرًا إلى بابل من الجرهاء لم تكن بابل بالنسبة لها نهاية المطاف بل كانت محطة تراتزيت بالنسبة لهؤلاء الجرهائيين الذين كانوا يصعدون بسلعهم فى الفرات حتى ثابساكوس (وهى فى تفسير جواد على الدير أو المبادين على

الفرات)(٣٠) وبعد ذلك ينقلونها "بالبر إلى كافة الأرجاء" كما ورد في النص . معنى هذا أن نصيب بابل من سلع الجرهائيين وتجارتهم كان محدودا وأنها كانت مجرد محطة على الطريق وأن معظم السلع كانت تنقل بالنهر ثم البر إلى كافة الجهات غربي وشرقي الفرات في شمال بلاد الشام .

ومن خلال هذا التفسير لا يبدو أن هناك تناقض بين كلام أريستوبولوس السالف الذكر وبين عبارة ارتوستيس التي يقول فيها أن الجرهائيين كانوا - في الأغلب - تجارًا يملكون الطرق البرية . ومن قبيل المبالغة القول بوجود نقلة كبيرة في التجارة الجرهائية بين القرنين الرابع والثالث ق.م أو أنها تحولت خلال تلك المدة من تجارة بحرية مزعومة إلى تجارة برية . وربما ازدادت تجارة الجرهائيين مع المناطق التي كان يسيطر عليها البطالمة في جوف سوريا وفلسطين ، كما يتضح من الأدلة والوثائق البردية ، بل ربما وصلت مبكرًا في القرن الثالث إلى بعض مناطق بلاد اليونان(٣١) ، ولكن ليس معنى ذلك أن تجارة الجرهائيين مع بلاد الرافدين وسوريا قد توقفت تحت حكم السليوقيين خلال القرن الثالث إذ ليس هناك ثمة أدلة أو قرائن على ذلك(٣٢) . والأكثر منطقية أن نفترض أن هذه التجارة مع المناطق التي يسيطر عليها السليوقيون في القرن الثالث قد تأثرت بعض الشيء من جراء الزيادة المطردة لتجارة الجرهائيين مع المناطق الواقعة تحت حكم البطالمة الأوائل الأقوياء . ومن المنطقي كذلك أن يستغل الجرهائيون هذه المنافسة بين الحكام البطالمة وأقرانهم السليوقيين لجني أكبر مكاسب اقتصادية ممكنة لأنفسهم من الطرفين المتنافسين .

وخلاصة القول أن شهادة أراتوستيس من القرن الثالث ق. م. لا تعني أن نقل سلع الجرهائيين إلى بابل بالقوارب - كمحطة من محطات التجارة الجرهائية - قد توقف ، وإن كانت هذه التجارة ربما تأثرت بعض الشيء من جراء توسع التجارة الجرهائية نحو الغرب مع البطالمة . هذا إلى

أن شهادة أراتوستيس لم تلح بأن " الجرهاء بدأت في تصدير سلعها عن طريق البر "(٣٣) كما يستخلص بوتس من كلام أراتوستيس ، لأن تجارة الجرهائيين بالبر ثابتة في نص اريستوبولوس بعد نقل السلع الجرهائية بالقوارب في الخليج والفرات كمراحل أولية تبدأ بعدها رحلة الجرهائيين مع التجارة بالبر في كافة الأرجاء .

* * *

وفي سياق هذا الترتيب التاريخي لمراحل التجارة الجرهائية نأتي لفقرة هامة وردت عند المؤرخ بوليبيوس اختلفت حولها التفسيرات والاجتهادات ، هذه الفقرة هي : " توسل الجرهائيون إلى الملك ألا يحرمهم من النعم التي منحتهم إياها الآلهة ألا وهي السلام الدائم والحرية . ولما ترجمت مطالبهم للملك استجاب لهذه المطالب .... وحين اطمئن الجرهائيون إلى حريتهم أصدروا مرسومًا بتكريم الملك انطيوخوس فورًا بخمسمائة تالنت من الفضة وألف من البخور ومائتي تالنت مما يسمى بالـ " مناكني " (زيت المُرّ) .

ἐστεφάνωσαν παραχρῆμα τὸν Ἀντίοχον τὸν βασιλέα πεντακοσίοις ἀργυρίου ταλάντοις , χιλίοις δὲ λιβανωτοῦ καὶ διακοσίοις τῆς λεγομένης στακτῆς ,

وبعد ذلك أبحر إلى جزيرة تيلوس ومنها غادر إلى سيليوقية . وكانت هذه البهارات من البحر(٣٤) .

ومن المتفق عليه بين العلماء أن الملك أنطيوخوس المذكور هنا في نص بوليبيوس هو الملك السليوقي أنطيوخوس الثالث ، وأن الحادثة المذكورة وقعت حوالي عام ٢٠٥ ق.م. ولكن تباينت آراء هؤلاء العلماء حول مغزى ذهاب الملك السليوقي للجرهاء وهل كان يقصد من هذه الرحلة الغزو أم كان

ذهابه إلى هناك مجرد استعراض للقوة يقصد به تخويف وإرهاب الجرهائيين . فمن قائل بأن رحلة الملك أنطيوخوس الثالث للجرهاء كانت محاولة منه لغزوها والاستيلاء عليها(٣٥) ، ومن قائل بأن غرضه كان الحصول على الغنائم والأسلاب(٣٦) ، ومن مرجح بأن غرضه كان فرض إتاوة عليهم(٣٧) ، ومنهم من ذهب إلى أن ما فعله أنطيوخوس كان بمثابة " استعراض للقوة على نطاق واسع ولكنه لم يصل لمرحلة الغزو بل أصاب الجرهائيين بالهلع وجعلهم يزيدون من حجم السلع والبضائع التي يرسلونها إلى سلبوقية ، على حساب الأنباط والبطالمة"(٣٨).

في تقديري أن مسيرة أنطيوخوس نحو الجرهاء ربما كان القصد منها أن تكون استعراضًا للقوة فعلاً ، ولكن ما الغرض من هذا الاستعراض للقوة إذا كانت سلع الجرهائيين لم تنقطع – كما أسلفنا – عن الدولة السلوقية ، وكانت العلاقات بينهما طبيعية ؟ الأرجح – من وجهة نظري – أن تلك " الهدية " النقدية والعينية من بخور وطيوب التي قدمها الجرهائيون إلى الملك أنطيوخوس الثالث لكي يبقى لهم على حريتهم وسلامهم كانت رمزًا لإظهار خشيتهم وبالتالي ولاءهم أو علاقتهم الخاصة مع الدولة السلوقية تحت حكم ذلك الملك السلوقي القوي أنطيوخوس الثالث ، أي كانت أقرب لمفهوم الإتاوة – وهو الأمر الذي ربما قصده أنطيوخوس بهذا الاستعراض للقوة .

ومما يدفعني إلى ذلك التفسير دفعًا هو أن أنطيوخوس الثالث ربما فكر في أن برغم العرب – وأقربهم إليه الجرهائيون – على أن يعودوا إلى سالف عهدهم حين كانوا يؤدون إتاوة سنوية – كانت تسمى تجاوزًا " هدية " – إلى ملوك الفرس ، وكان مقدارها ألف تالنت من البخور سنويًا كما ذكر عند هيرودوت(٣٩) . ويبدو أن الجرهائيين وبقية عرب الجزيرة كانوا قد اعتادوا دفع هذه الإتاوة للملوك الفرس قبل أن يطيح الإسكندر بآخر ملوكهم داريوس الثالث . ولما كان الإسكندر قد انشغل بإكمال فتوحاته في الشرق حتى الهند ، فإنه بعد أن فرغ من هذه المهمة

ربما فكر في غزو بلاد العرب . وكان من بين أهدافه الحصول على بعض خيراتهم من الطيوب والبخور والمنتوجات ، ولكن عاجلته المنية وحالت دون تحقيق ذلك(٤٠) . ولما انقسمت امبراطورية الإسكندر الكبيرة بين قواده الطموحين بعد صراعات مريرة بينهم ، وتمخض عن هذا الصراع قيام ممالك هلينيستية تولى الحكم فيها قادة الإسكندر السابقون ، وأبرزها في الشرق مملكتا البطالمة في مصر وفلسطين وحوف (وربما جنوب) سوريا ، والسلوقيين في سوريا وبلاد الرافدين ، فإن التجارة العربية في الطيوب والتوابل والبخور – سواء كانت من الجزيرة العربية أو من الهند – مع هذه الممالك ، ربما كان يحكمها نظام واعتبارات السوق والمنافسة التجارية أكثر من الاعتبارات السياسية . وقد تعامل تجار الجرهاء مع مملكتي السلوقيين والبطالمة المتنافستين خلال القرن الثالث ق.م. وكانوا يدفعون المكوس والضرائب التي تفرضها الإدارة المالية في المملكتين على تجارتهم الواردة إلى حدود السلوقيين أو البطالمة .

لكن يبدو أن أنطيوخوس الثالث – خصوصًا بعدما تعاظم دوره التوسعي ، وقمع بعض حركات التمرد الخطيرة من بعض ولاته في المناطق الشرقية من الدولة السلوقية ، واستيلائه على أرمينيا ، واستعادته لبارثيا وباكتريا كممالك موالية له ، وعبوره مناطق الهندو – كوش حتى نهر إيندوس حيث لقب نفسه بأنطيوخوس الأكبر تشبها بالإسكندر ، وذلك في الفترة من ٢١٢ إلى ٢٠٦ق.م – يبدو أنه لم يقنع بأن تكون اعتبارات وعناصر السوق هي وحدها التي تحكم علاقته بالجرهائيين فأراد إما إخضاعهم أو إجبارهم – من خلال استعراض قواته المنتصرة – على دفع إتاوة نقدية وعينية له على أقل تقدير . وهذه الإتاوة (الهدية) التي عرضها الجرهائيون على الملك بعد توسلهم إليه ألا يطيح بأمنهم وحريتهم ، لاقت قبولاً في نفس الملك لأنها حققت عدة أغراض في آن واحد ، فهي رمز الولاء والخضوع للملك المظفر ، وفائدة مادية تنعش الخزانة الملكية المرهقة من الحروب ،

كما أنه بهذا المسلك جعل الجرهائيين يستمرون في التجارة مع مملكته وتزويدها بما تحتاج إليه من سلع الجزيرة والهند ، مما يدل على بعد نظر من جانب الملك . وربما كانت تجارة الجرهائيين قد ازدادت بعض الشيء مع مملكة السليوقيين بعد تلك الواقعة(٤١) ، ولكن مرد ذلك يعود إلى المعاملة الخاصة التي ربما أصبح الجرهائيون ينعمون بها من قبل الدولة السليوقية بعد أن عبروا عن خضوعهم وولائهم للملك السليوقي بتلك الإتاوة (الهدية) التي ربما صارت أمرًا منتظمًا بعد ذلك .

* * *

وبعد ذلك في خلال القرن الثاني ق.م. - كما يتضح من شهادة إجاثيار خيديس - كان جميع العرب - وخصوصًا الجرهائيون والمعينيون - يذهبون بتجارتهم من طيوب شبه جزيرة العرب وبخورها إلى البتراء وفلسطين كأحد الأسواق الهامة لهؤلاء التجار العرب . وكان هذا الوضع استمرارًا لوضع كان موجودًا في القرن الثالث حين كانت سلع الجرهائيين والمعينيين تصل إلى تلك المناطق كما رأينا من قبل . ولكن الجديد في الأمر هو أن السيادة السياسية والكلمة العليا في هذه المناطق كانت للبطالمة طيلة القرن الثالث ق.م. تقريبًا ، ثم انتقلت للسليوقيين في خلال القرن الثاني ق.م. بعد انتصار الملك السليوقي أنطيوخوس الثالث عام ٢٠٠ ق.م في موقعة " بانيون " في فلسطين على القوات البطلمية التابعة للملك بطليموس الخامس وطردها من جنوب سوريا وفلسطين . وهذه السيطرة السليوقية على مناطق تحت حكم أنطيوخوس الثالث (٢٢٣-١٨٧ - ق.م.) كانت أمر مقبولاً وطبيًا للجرهائيين ، خصوصًا بعد أن عبروا عن ولائهم للملك أنطيوخوس الثالث بتلك الهدية من النقود والبخور والطيوب عام ٢٠٥ ق.م. حين هدد منطقتهم . وهكذا بعد أن كانت تجارة الجرهائيين في آسيا في القرن الثالث موزعة بين مناطق نفوذ السليوقيين والبطالمة أصبحت في القرن الثاني تتم في أملاك السليوقيين ومناطق نفوذهم .

وقد ورد ذكر تجارة الجرهائيين مع سوريا وفلسطين كذلك في كتاب "التاريخ الطبيعي" لبليني الأكبر (الفقرة المقتبسة عن بليني12.40.80) حيث ذكر:

" ومن هنا (من كارا " الجرهاء ") اعتاد الجميع قبل ذلك المضي نحو "حابا" في رحلة تستغرق عشرين يومًا ونحو سوريا وفلسطين " .

ربما يقصد بليني من هذه الجملة الإشارة إلى وضع التجارة الجرهائية البرية مع تلك المناطق الغربية والشمالية الغربية خلال الفترة السابقة على عصره (كما يشير استخدام زمن الماضي المستمر في فعل solebant omnes petere) خلال الفترة بين القرن الثاني والقرن الأول ق.م. لكن لابد من وقفة أمام " حابا " هذه التي كان الجرهائيون يقطعون الطريق إليها في مسافة عشرين يومًا كما ورد في نص بليني . أين تقع " حابا " هذه ؟ ربما كان المفتاح نحو إجابة هذا السؤال هو فقرة وردت عند سترابون يذكر فيها : " تنتج قنبان البخور بينما تنتج حضر موت المرّ وهمًا يقومان بمقايضة هاتين السلعتين وغيرهما من الطيوب الأخرى مع التجار. ويصل هؤلاء التجار من إيلانا إلى معين في سبعين يومًا (تقع مدينة إيلانا " العقبة الحالية " على التجويف الآخر للخليج العربي " مقصود به هنا البحر الأحمر الحالي " وهو التجويف المسمى الإيلاتيتي بالقرب من غزة " يقصد خليج العقبة الحالي " كما سبق أن ذكرت) أما الجابايون (٤٢) (أهل " حابا " كما هو واضح من الاشتقاق) فإنهم يصلون إلى حضر موت في أربعين يومًا .

ومن الجدير بالتنويه هنا - واتفق في ذلك مع رأي العالم بيستون(٤٣) - أن كل مخطوطات هذا النص ورد بها اسم Rabaia ، ولكن ناشري هذا النص بلا استثناء قد عدلوا قراءة الكلمة وجعلوها Sabaioi (أي الجرهائيون) بدلاً من القراءة الأصلية الواردة في المخطوطات - وذلك استنادًا إلى ملحوظة هامشية وردت في مخطوط واحد من هذه المخطوطات ترجح قراءة الاسم بـ Sabaia

وهذا التعديل كما يرى بيستون من المؤكد أنه يفتقر إلى أى مبرر But the emendation is certainly wholly unjustified - ولكننى أختلف مع بيستون تمامًا فى تحديد موقع هؤلاء الجابيين الذى ورد ذكرهم فى كل مخطوطات النص . فهو يرى أن الجابيين المقصودين هنا وربما كانوا هم الـ Gebbanites (القتبانيين) الذيـن ورد ذكرهم فى أكثر من موضع عند بلينى الأكبر فى كتاب " التاريخ الطبيعى " ، والذين أفرد لهم بيستون مقالة عام ١٩٧١ خلاصتهـا أنهـم كـانوا شعبًا ينتج المر وربما كان موطنهم تقريبًا منطقة نصاب الحالية (فى اليمن إلى الجنوب الغربى من شبوة فى الطريق المؤدى من شبوة إلى عـدن) ، ولكنهـم كـانوا فى الوقـت ذاتـه يفرضون إحتكارا عبر كل المنطقة الجنوبيـة الغربيـة من الجزيـرة العربيـة فـى تجـارة البخور والمر والقرفة ، وكانوا يديرون شبكة تجارية واسعة ذات منشآت فـى عـدد من المدن خارج موطنهم . وتأسيسًا على فرضية أن الـ Gabaioi الذيـن وردوا فـى نص سترابون هم أنفسهم الـ Gebbanites عند بلينى ، قدم بيستون تفسيرًا لعبـارة سترابون ذات القراءة الأصلية فـى المخطوطـات ، واقـترض تفسيرًا مختلفًا لعبـارة سترابون عن تجارة أهل إيلاثا مع قتبان ومعين وتجارة الجابيين مع حضـر موت ، والمدة التى يستغرقها كل منهما فى الوصول إلى هدفه فـى معين وحضـر موت . ولقد خرج بيستون عن نص سترابون واعتبر الرحلتين اللتين ذكرهما سـترابون فـى واقع الأمر مختلفتين لرحلة واحدة . وهذه الرحلـة يقطـع تجـار إيلاثـا المرحلـة الأولى منها فى ٧٠ يومًا إلى أقصى مناطق انتشار المعينين شمالاً فى تلك الفترة فـى القـرن الأول ق.م. وهى قرب منطقة أبيها – خميس مشيط شمال نجران – (بعـد أن كـان للمعينيين من قبل فى الفترة من القرن الرابع حتى القرن الثانى ق.م. مركـز تجـارى فى ديدان (العلا) تقلصت منطقة نفوذهم كثيرًا خلال القرن الثـانى ق.م. مركـزًا تجاريًا فى ديدان (العلا) تقلصت منطقة نفوذهم كثيرًا خلال القرن الأول) وهنـاك كان الجابيون يقطعون الرحلة إليهم فى أبيها وخميس مشيط من موطنهم فى نصاب قرب شبوة فى حوالى أربعين يومًا ليسلموهم سلع جنوب الجزيرة من البخور والمـر

وغيرها وبذلك تكون الرحلة التى قطعتهـا تجـارة البخـور من موطنـه فـى جنـوب الجزيرة وحضر موت حتى إيلاثا (العقبة) فى ١١٠ يومًا على مرحلتين(٤٤) .

هكذا كان تفسير بيستون للجابـيين وموقعهم ودورهـم ، وبالتـالى لعبـارة سترابون حول تجارتهم مع حضرموت . وهذا التفسير ينعد – فى نظرى – كثـيرًا عما قصده كل من سترابون ومن بعده بلينى . فمن ناحية سـترابون يبدو واضحًا فى نصه أنه يتحدث عن طريقين تجاريين ، كل منهما له خط بداية وخـط نهايـة وليس عن مرحلتين لطريق واحد . فتجار إيلاثا كان هدفهم هو معين ويقطعون الرحلة من أيلاثا إلى معين فى سبعين يومًا . والتجار الجابايون كان هدفهم وخـط النهاية لرحلتهم هذه هى قتبان ويقطعون رحلة سفرهم من موطنهـم إلى قتبـان فـى أربعين يومًا . ويمكن القول بأن " الجابايين " كانوا يقطنون موطنًا يدعى " جابـا " كما يرجح ذلك الاشتقاق اللغظى ، لا سيما وأن " جابا " هذه قد وردت فى نص بلينى حين ذكر بأن التجار إعتادوا على أن يعشوا من كارا (اخرهاء) نحو "جابا" فى رحلة تستغرق عشرين يومًا ثم (يعشون نحو) سوريا وفلسطين . ويتضـح إذن من نص بلينى أن " جابا " (التى كانت على الأرجح هى موطن الجابايين) كانت تقع فى الطريق التجارى المؤدى من الجرهـاء على الخليج العربى فى الطريق إلى سوريا وفلسطين . وربما كـانت محطة هامة على هـذا الطريـق ، حتى أن بلينى خصها بالذكر دون غيرها من محطات ذلـك الطريـق . ومعنى ذلـك أن " جابـا " كانت تقع – من حيث المبدأ – فى نقطة ما شمال شبه الجزيرة العربية ولم تكن تقع على الإطـلاق فى جنوب الجزيرة العربية كما افترض بيستون ، الـذى جانبه الصواب حين افترض أن الجـابايين الذين أوردهـم سترابون فى نصه هـم أنفسهم " الجبيانيين Gebbanites " الذين أوردهم بلينى فـى مواضع عديـدة . وإذا ألقينـا نظرة على خريطة شبه الجزيرة العربية وطرق التجارة المعتقد استخدامها قديمًا قبـل الإسلام (كما ورد فى كتاب العـالم عبـد الرحمن الأنصـارى عن حضائر قرية

الفار)(٤٥) نجد محطة على طريق التجارة من الجرهاء إلى وسط شبه الجزيرة العربية المتجه شمالاً إلى سوريا وفلسطين ، هذه المحطة تسمى " جبة " إلى الجنوب من دومة الجندل . وعلى خريطة المملكة العربية السعودية(٤٦) نجد " جبة " هذه بالقرب من حائل (شمال غرب حائل) قرب منطقة شمر ، وبالقرب منها إلى الجنوب (جنوب غرب حائل) نجد على الخريطة منطقة باسم " شمر جابا " . والأرجح أن هذه المسميات الحديثة هي استمرار للمسمى القديم لذلك المركز التجاري الذي ورد عند بليني وورد ذكر تجاره عند سترابون بوصفهم تجارًا يجلبون طيوب الجزيرة - لا سيما المر - من قتبان .

إن صح ما ذهبت إليه من أن الجابايين وليس الجرهائيون هم المقصودون في نص سترابون بالتجارة مع قتبان ، ومن أن " الجابايين " المذكورين يختلفون عن الجيبانيين من سكان جنوب غرب الجزيرة الذين أوردهم بليني ، ومن أن الجابايين هم من سكان شمال شبه الجزيرة قرب حائل وإلى الجنوب من دومة الجندل - إن صح هذه كله فإنه سوف يؤدي إلى استنتاجات مغايرة لما جرى العرف العلمي عليه . ولعل أبرز هذه الاستنتاجات أن الجرهاء لم يكن لها تجارة مع مناطق جنوب غرب الجزيرة - على الأقل في ضوء ما لدينا من نصوص حالية - أو أن هذه التجارة بين الإقليمين - إن وجدت - فإنها إما كانت غير مباشرة أي عن طريق وسيط ثالث ، أو أنها كانت محدودة وذات طابع غير منتظم . ومهما يكن الأمر فإنني أجد نفسي أكثر ميلاً للقبول بالترجيح الأول وهو أن طرفًا ثالثًا ربما كان يزود الجرهائيين بطيوب جنوب وجنوب غرب الجزيرة . وهذا الطرف ربما كان على الأرجح هم " الجابايون " الذين كان موطنهم " جابا " وهي محطة على طريق القوافل الجرهائية من الجرهاء إلى سوريا وفلسطين ، والذين كانوا يجلبون سلع جنوب الجزيرة - لا سيما قتبان - حسبما فهمت من نص سترابون . وهكذا فإنني أتفق مع بيستون في القول بأنه لا يمكن أن نصدق بأن البخور المنتج في

جنوب الجزيرة العربية كان يصل إلى فلسطين عن طريق الجرهاء أي من خلال طريق ملتو يخترشبه الجزيرة مرتين . وإن " الطيوب " التي كان يجلبها الجرهائيون إلى فلسطين لابد أنها كانت منتجات هندية في المقام الأول - كخشب الصندل مثلاً ، وكانت تصل إلى ساحل الخليج بحرا (٤٧) . ويبدو أن الجرهائيين لم يكونوا يتاجرون فقط في السلع الهندية بل كانوا يجلبون كذلك السلع الفارسية المميزة من الطيوبوالبخور منذ عصور قديمة من أيام حكم الفرس - كما نستشف من حديث هيرودوت عن هدايا العرب السنوية لملوك الفرس ، التي ربما كان أحد أغراضها تسهيل تجارتهم مع تلك المناطق - مرورًا بعهد السيادة السلوقية ، وأخيرًا حين آلت هذه المناطق إلى البارثيين(٤٨) ورثة الفرس . وعن تلك المرحلة الأخيرة - عصر سيادة البارثيين على إيران - يتحدث بليني حديثًا بالغ الدلالة عن هذه التجارة الإيرانية العربية في تلك الفترة وذلك كمقدمة للحديث عن الجرهاء كمركز لهذه التجارة . وها هو نص حديث بليني :

" وهناك إقبال مذهل في الجزيرة العربية على العطور (النباتات العطرية) الأجنبية المستوردة من الخارج ، وهكذا شأن البشر إذ يملون ما لديهم ويشتهون ما لدى الآخرين . لذلك فهم يرسلون إلى أهل عيلام في طلب خشب البراتوس وهي شجرة أشبه بشجرة السرو الوارقة وهي ذات أغصان ناصعة البياض وتعطي - عند إحراقها - رائحة طيبة مقبولة . وقد امتدح كلوديوس قيصر هذه الشجرة في تواريخه باعتبارها تتمتع بخاصية رائعة إذ يقرر أن البارثيين ينثرون أوراقها في مشروباتهم وأن لها رائحة أشبه ما تكون بشجر الأرز وأن دخانها شفاء ضد تأثيرات الأخشاب الأخرى . وتنمو تلك الشجرة وراء نهر كارون في حدود مدينة سوستراتا على جبل سكاندروس . كما يستوردون (العرب) من الكرمانيين شجرة الـ Stobrus بغرض التبخير حيث تنقع في نبيذ الملح ثم يشعل فيه النيران فيرتد بخاره من السقف إلى الأرضية فيصدر رائحة طيبة لكنها تسبب صداعًا خفيفًا .

ومن أجل هذه السلع افتتحوا (العرب) مدينة كاراى (الجرهاء) كسوق لهذه المناطق "(٤٩) .

ويبدو إذن أن الجرهاء قد " تخصصت " فى تجارة السلع الهندية والإيرانية - لاسيما الطيوب والبخور - إذ كانوا يجلبون هذه السلع من مواطنها الأصلية فى تلك البلاد الشرقية ثم يتجهون بها شمالاً وغربًا لبيعها فى أسواق سوريا وفلسطين. أما طيوب جنوب الجزيرة فكان المعينيون هم الذين ينقلونها إلى تلك الأسواق الشمالية وكانوا يسيرون فى قوافلهم بمحاذاة الساحل للبحر الأحمر حتى يصلوا إلى مملكة الأنباط ومنها إلى سوريا وفلسطين . وكان " الجابايون " يحصلون من قبائل على بعض طيوب جنوب الجزيرة . ولما كان الجرهائيون يمرون بمنطقتهم وهم فى طريقهم إلى سوريا وفلسطين فربما كانوا يتبادلون معًا بعضًا من الطيوب الهندية والإيرانية ببعض الطيوب العربية . كذلك يبدو أن هذه الطيوب العربية التى كان الجرهائيون يحصلون عليها بالمقايضة من أهل " جابا " كانوا يبيعونها بدورهم فى أسواق لهم شمال الخليج العربى قرب منطقة البصرة الحالية حيث كانت السلع الهندية والإيرانية تأتى من الشرق فى حين تأتى طيوب العرب من الغرب على يد الجرهائيين . ويقول أريان فى مؤلفه عن حملة الإسكندر " ... عند مصب الفرات قرب قرية تابعة لأرض بابل تسمى " ديريدوتيس " وهنا يجمع التجار البخور من أرض الجرهاء وبقية البخور العطرية الأخرى التى تنتجها أرض العرب "(٥٠) .

* * *

وهكذا فإن التصور العام للتجارة الجرهائية هو أن التجار الجرهائيين كانوا على درجة عالية من المهارة فى معرفة قوانين واحتياجات السوق ، لا سيما قانون العرض والطلب ، فحيثما يقل وجود سلعة فى منطقة ما ويزداد الإقبال عليها بأثمان مرتفعة يتاجر فيها الجرهائيون : فكانوا يحملون الطيوب والبخور الهندية والإيرانية إلى سوريا وفلسطين حيث كان تجار جنوب الجزيرة من المعينيين

والسبئيين يأتون بطيوبهم المنتجة فى مناطقهم ، ويحملون طيوب الجزيرة - عن طريق الجابايين . وربما كانوا هم أنفسهم ينتجون بعض الطيوب العربية كما يتضح من عبارة أريان أعلاه - ويحملونها إلى جنوب بلاد الرافدين وشمال الخليج حيث يفترض توافر الطيوب والبخور والتوابل الهندية والإيرانية .

ومن خلال هذه الحركة التجارية النشطة وبصفتهم " وكلاء عن كل شئ يقع تحت اسم النقل من آسيا وأوربا " كون السبئيون والجرهائيون ثروات ضخمة، وتسببوا فى إثراء الأمم الأخرى التى كانوا يتاجرون معها مثل البطالمة والفينيقيين. ويذكر أجاثار خيديس - أنه " لا يبدو أن ثمة شعبًا أغنى من السبئيين والجرهائيين . فقد كانوا وكلاء عن كل شئ يقع تحت اسم النقل بين آسيا وأوربا. وهم الذين جعلوا سوريا البطلمية غنية بالذهب ، وأتاحوا للتجار الفينيقيين تجارة رابحة والافا من أشياء أخرى "(٥١) .

وفى فقرة أخرى ينقل سترابون عن أرتيميدوروس - من القرن الأول ق.م. - ما يدل على مدى ثراء الجرهائيين إذ يذكر : " وعن طريق تجارتهم فإن هؤلاء (السبئيين) وكذلك الجرهائيين هم أغنى من جميع (العرب) ، ولديهم أثاث وأوانى كثيرة من الذهب والفضة مثل الأرائك والحوامل الثلاثية القوائم والأوعية وأوانى الشرب والمنازل الفخمة ذات الأثمان المرتفعة : فالأبواب والحوائط والأسقف مزينة بالعاج والذهب والفضة ومطعمة بالأحجار الكريمة "(٥٢) .

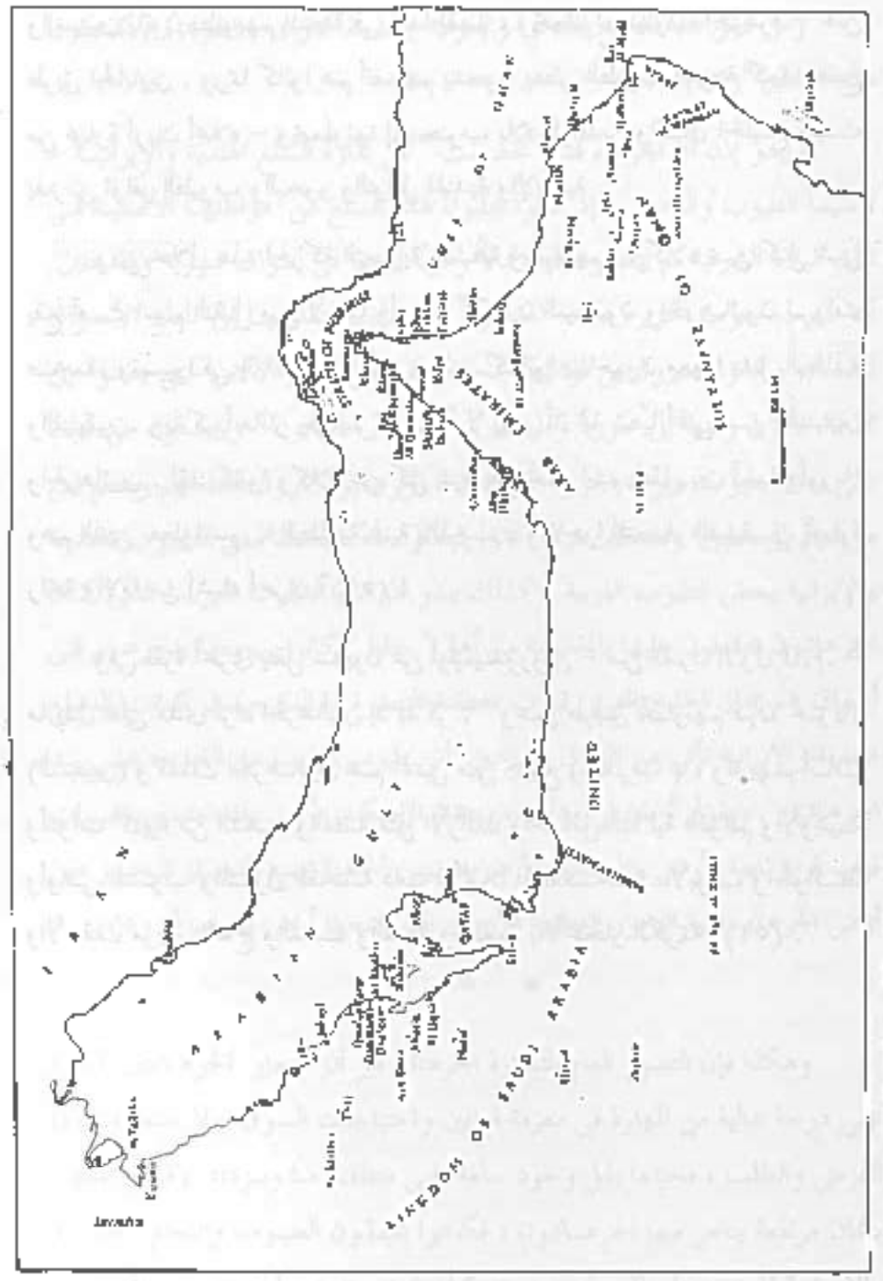

خريطة تموقع وأسماء الأماكن المطلة على الخليج العربي :
D. T. Potts , The Arabian Gulf in Antiquity , Oxford , 1990 .

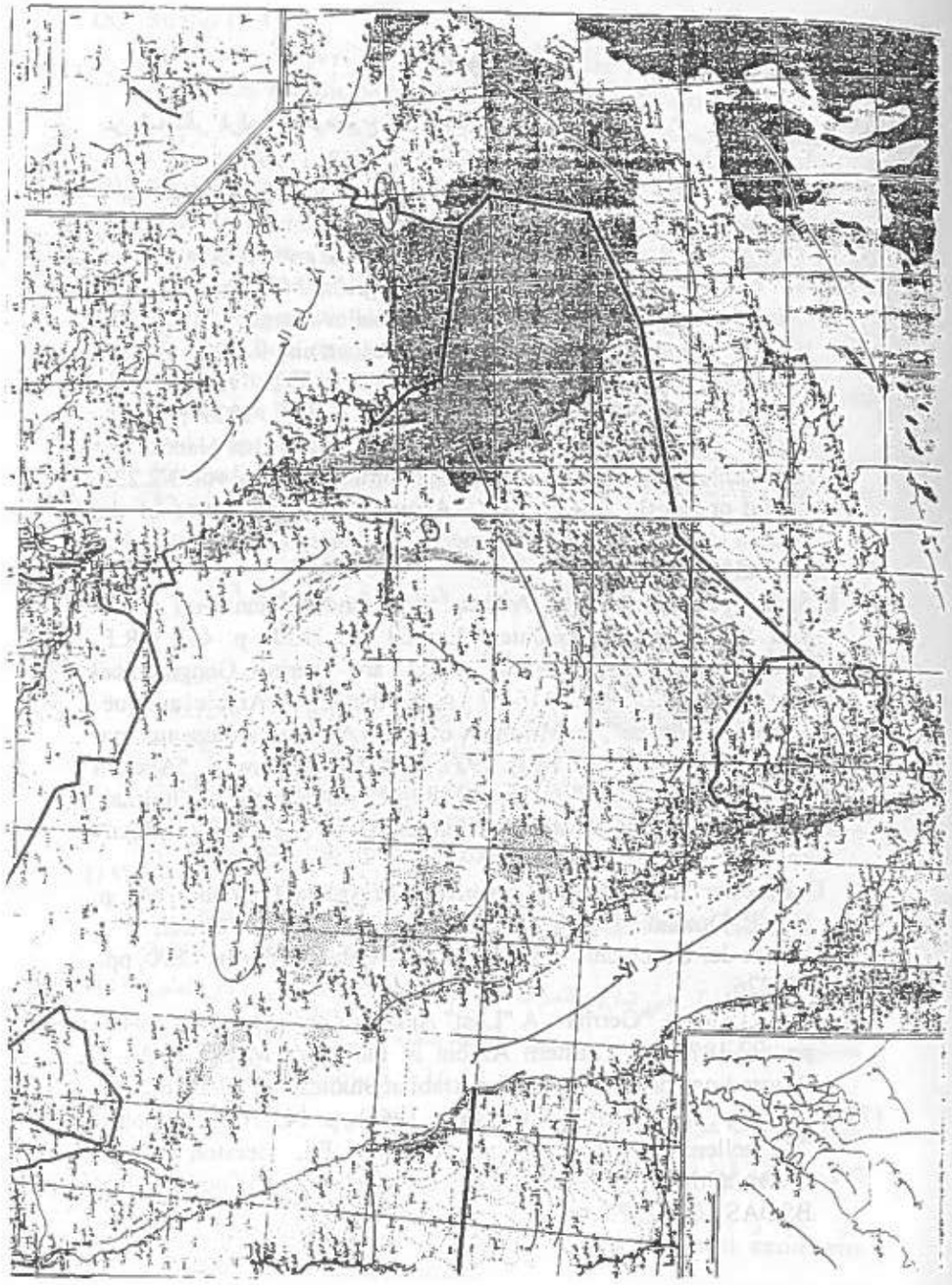

شارل جورج بدران : أطلس العالم ، بيروت ، ١٩٧٨

الهوامش

(1) عن المصادر الرئيسية للموضوع أنظر مقالة :
J. Tkac, Gerrha', Realencyclopaedie vii, 1912, 1270-72.

2) D.T. Potts, The Arabian Gulf in Antiquity, vol. II, Oxford at Clarendon Press, 1990, pp. 86-88.

(3) B. D'Anville, "Recherches geographiques sur le golfe persique, et sur les bouches de l'Euphrate et du Tigre", Memoires ..... de l'Académie royale des inscriptions et belles-lettres, 30 (1764), p. 193 ; K. Mannert, Geographie der Griechen und Romer aus ihren Schriften geschildert, Nuremberg, 1788-1802, vi/1.117; W. Vincent, The Voyage of Nearchus, London, 1809 ; A.H.L. Heeren, Ideen über die Politik, den Verkehr und den Handel der vornehmsten Volker der alten Welt, Gottingen, 1824, vol. 1/2.232, (Hofuf or Qatif) ; A.W. Stiffe, "Ancient Trading Centres of the Persian Gulf, III: Pre-Mohammedan Settlements", Geographical Journal 9, 1897, p. 311.

(4) H.St. J. B. Philby, "Across Arabia : From the Persian Gulf to the Red Sea", The Geographical Journal 56, 1920, p. 447 ; R.E. Cheesman, "The Deserts of Jafura and Jabrin" Geographical Journal 65, 1925, pp. 116-17 ; A. Berthelot, "L'Arabie antique d'après Ptolemée", in Mélanges offerts à A.M. Desrnesseaux par ses amis et ses élèves, Paris, 1937, p. 4; P.B. Cornwall, "Ancient Arabia : Explorations in Hasa, 1940-41", Geographical Journal 107 (1946), p. 33; F. Altheim, Weltgeschichte Asiens im griechen Zeitalter, Halle, 1984, p. 43.

(5) C. Forester, The Historical Geography of Arabia, London, 1844, p. 197; E. Durand, "Extracts from Report', 1880, p. 8; E. Glaser, Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Berlin, 1890, pp. 75, 226.

(6) N.St.J. Groom, "Gerrha : A "Lost" Arabian City", Atlal 6, 1984, pp. 97-107 ; id., "Eastern Arabia in Ptolemy's Map", PSAS : Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 16, 1986, 68.

(7) P.V Glob, Al-Bahrain (Copenhagen, 1968), p. 142 ; O. Morkholm, "En hellenistik monskat" p. 200-1 : A.F.L. Beeston "Some Observations of Greek, and Latin Data Relating to South Arabia" BSOAS, 62, 1979, p. 7.

(8) Strabo 16.3.3 :
παραπλεύσαντι δὲ τῆς Ἀραβίας εἰς διςχιλίους καὶ τετρακοσίους σταδίους ἐν βαθεῖ κόλπῳ κεῖται πόλις Γέρρα .... κτλ. διέχει δὲ τῆς θαλάττης διακοσίους σταδίους ἡ πόλις.

(9) Pliny NH 6. 32. 147-48 :
Sinus Gerraicus, oppidum Gerra v p. amplitudine ; turres habet ex salis quadratis molibus, a litore L regio Attene ; ex adverso Tyros insula totidem milibus a litore.

(10) A. Sprenger, Die alte Geographie Arabiens, Berne, 1875, p. 135.

(11) J. Tkac, Loc. cit. (1272)

(12) D.T. Potts, The Arabian Gulf in Antiquity, vol. II, Oxford, the Clarendon Press, 1990, p. 87, notes 270-71.

(13) Ibid., pp. 88-90 ; and "Thaj and the Location of Gerrha" Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 14, 1984, pp. 87-91.

هذه الاقترحات والترجيحات المختلفة لموقع الجرهاء فقديم أوردها بوتس في كتابه عن الخليج العربي في الجزء الثاني في حديثه عن الجرهاء في الصفحات ٨٧ – ٨٨ كما أسلفت في الملحوظة رقم ٢ أعلاه.

(14) Strabo, 16.3.2 :
λέγειν δέ φησιν (Eratosthenes) ἐκεῖνον (Androsthenes) περιπεπλευκότα στόλῳ τὸν κόλπον, ὅτι ἀπὸ Τερηδόνος ἑξῆς ἐν δεξιᾷ ἔχοντι τὴν ἤπειρον ὁ παράπλους ἔχει προκειμένην νῆσον Ἴκαρον, καὶ ἱερὸν Ἀπόλλωνος ἅγιον ἐν αὐτῇ καὶ μαντεῖον Ταυρόπολου.

(15) Strabo 16.3.3.
" οἰκούντων γῆν ἁλμυρίδα καὶ ἐχόντων ἁλίνας τὰς οἰκίας " ; Pliny : see note 9 above.

(16) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد، الطبعة الثالثة، فبراير ١٩٨٠، ص ١٧.

(17) Ptolemy, Geography, 6.7. 16-17.

(18) الهمداني، صفة جزيرة العرب ص ١٧٢، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة للشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.

(19) Polybius 13.9.5:
καὶ ἐποίει τὸν πλοῦν ἐπὶ Τύλον τὴν νῆσον καὶ ἐποίει τὸν ἀπόπλουν ἐπὶ Σελευκείας.

(20) Ibid. 13.9. 2-3 :
Χαττηνία , χώρα τρίτη Γερραίων . Πολύβιος τε " ἔστι δ'ἡ Χαττηνία τἆλλα μὲν λυπρα , κώμαις δὲ καὶ πυργοις διεσκεύασται διὰ τὴν εὐκαιρίαν τῶν Γερραίων . οὗτοι γὰρ αὐτὴν νεμονται , "

(21) انظر كذلك : N.St. Groom, Art. Cit., p. 97
انظر هامش ٩ أعلاه .

(22) يتضح ذلك أيضا في خرائط الجزيرة العربية وردت في أطلس :
World History Atlas , Hammond Incorporated Maplewood , New Jersey , 1993 , pp. H-8 (The Persian Empire and the Empire of Alexander the Great) and H - 7 (Asia 250 - 200 B.C.)

(23) Strabo , Geography , 16.3.3 :
Ἀριστόβουλος δὲ τοὐναντίον φησὶ τοὺς Γερραίους τὰ πολλὰ σχεδίαις εἰς τὴν Βαβυλωνίαν ἐμπορεύεσθαι , ἐκεῖθεν δὲ τῷ Εὐφράτῃ τὰ φορτία ἀναπλεῖν εἰς Θάψακον, εἶτα πεζῇ κομίζεσθαι πάντη .

(24) Ibid.
πεζέμποροι δ'εἰσὶν οἱ Γερραῖοι τὸ πλέον τῶν Ἀραβίων φορτίων καὶ ἀρωμάτων .

(25) C. Müller, Geographi Graeci Minores , § 87 .

(26) Diodorus Siculus 3.42.5 :
. . . . κατὰ τὴν καλουμένην Πετραν καὶ τὴν Παλαιστίνην . εἰς γὰρ ταύτην τόν τε λίβανον καὶ τἆλλα φορτία τὰ πρὸς εὐωδίαν ἀνήκοντα κατάγουσιν , ὡς λόγος , ἐκ τῆς ἄνω λεγομένης Ἀραβίας οἵ τε Γερραῖοι καὶ Μιναῖοι .
see also Strabo 16.4.18.

27) See for example : N. St. J. Groom , "Gerrha.....", Atlal 6 , 1982 , p. 99 ; Potts , Op. Cit. , Vol. 2 , p. 90 .

(28) Pliny, NH 12.40.80.

(29) Potts , Op. Cit. , vol. II , pp. 90-97.

(30) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٢ (الطبعة الثالثة ١٩٨٠) ص ١٥

31) P. Cairo Zenon 59536 , 261 B.C. ; 59009 (between 260-258 B.C.) ; Gow and Scholfield , Nicander , pp. 101 , II: 105-106.

32) Cf. W. W. Tarn ; Hellenistic Civilization , Meridian Books , New York , 3rd print , 1964 , p. 240.

(33) Potts, Op. Cit., p. 91.

(34) Polybius, 13.9.4-5

(35) W.W. Tarn , "Ptolemy II and Arabia" JEA 15 (1929) , p. 22
وهنا يتناقض تارن نفسه إلى حد ما حيث ينكر أن الجرهاء -التي كانت قوة تجارية عظيمة على الخليج الفارسي - كانت تزود السلوقيين بالبخور، وأنه يعتقد أن السلوقيين احتفظوا بعلاقات طيبة مع الجرهائيين ، وحتى عندما شرع أنطيوخوس الثالث في غزو الجرهاء استجاب لرجاء أهلها بأن يبقي على حريتهم". وهذا الكلام من جانب تارن – إضافة إلى تناقضه – يفقد هذه الحجة مبرر القيام بها، إذ ما دامت العلاقات طيبة والتجارة قائمة فما سبب قيامه بهذه الحملة .

(36) A. Bouché - Leclercq , Histoire des Seleucids (323-64 av. J.-C.) , Paris, 1913 , p. 166 : Antiochos pensa qu'il etait bon de faire sentir sa puissance aux habitants de Gerrha. Un peu de piraterie ne lui deplaisait pas."; E. Bikerman, Les Institutions des Seleucids, Paris, 1938, p. 120: "Le roi disposait de multiples recettes extraordinaires pour se procurer de l'argent en cas de besoin . Nous trouvons mentionés dans cette categorie : a) Le butin de guerre ..... Les Gerrhéens sur le Golfe Persique durent donner à Antiochos III 500 talents d'argent, mille talents d'encens et 200 talents de parfum" .

(37) H H. Schmitt , Untersuchungen zur Geschichte Antiochos des Grossen und seiner Zeit (Historia Einzelschriften, 6 , Wiesbaden , 1964) , S. 34 n.3 ; "Aus dem Bericht des Polyb . (5) über die Zahlung eines "Kranzgeldes" an Antiochos lasst sich nicht ablesen , ob es sich um eine einmalige Zahlung handelte oder die Gerrhaer einen standigen Tribut zahlen mussten , d.h. die Oberhoheit des Antiochos anerkannten"

(38) M. Rostovtzeff , The Social and Economic History of the Hellenistic World, vol. I , p. 458 ; Potts , Op. Cit. , pp. 94-95.

(39) Herodotus III. 97.
في الفقرات السابقة على هذه الفقرة مباشرة (III. 89 - 96) يذكر هيرودوت الولايات العشرين التي كانت تضمها الامبراطورية الفارسية تحت حكم داريوس الأول والضرائب الإلزامية التي تدفعها كل ولاية للملك الفارسي ، ولكنه يذكر في هذه الفقرة المناطق التي لم تكن خاضعة لحكم الفرس مباشرة بل كانت موالية لملوك فارس وترسل لهم هدايا (لفظ مهتب بدلا من كلمة " تجارك ") للتعبير عن موالاتهم للملك الفارسي وعلاقاتهم الخاصة به " أما عن أولئك الذين لم تفرض عليهم ضريبة وإنما كانوا يقدمون الهدايا.....
οὐδὲ δὲ φόρον μὲν οὐδένα ἐταχθήσαν φέρειν , δῶρα δὲ ἀγίνεον
ويذكر من بينهم – في نهاية هذه القائمة – " العرب الذين كانوا يقدمون ألف تلنت

Ἀράβιοι δὲ χίλια τάλαντα ἀγίνεον λιβανωτοῦ ἀνὰ πάν ἔτος.

أنظر كذلك بليني 12.40.80 الذي يستشهد بما أورده هيرودوت هنا حين يقول بأنه يرى أن " العرب – وخصوصاً للحرهاتيين في هذه الفقرة لبليني – كانوا يحصلون سلعهم إلى الفرس قبل أن يأخذوها إلى سوريا ومصر ، وهذا ثابت بشهادة هيرودوت الذي يروي بأن العرب قد اعتادوا على أن يؤدوا للملوك الفرس ألف تالنت من البخور سنوياً"

mihi ad Persas etiam prius ista portasse quam in Syriam aut Aegyptum videntur Herodoto teste, qui tradit singula milia talentum annua turis pensitasse Arabas regibus Persarum.

(40) Potts, Op. Cit., pp. 4-10.

لنظر كذلك Pliny, NH 12.32.62 حيث يذكر:

" نظراً لأن الاسكندر الأكبر كان يثير البخور بيذخ على مذابح الآلهة فإن استاذه ليونيداس قال له ذات مرة بأنه ينبغي عليه أن يقدم للفرابين بهذه الطريقة بعد أن يغزو الشعوب التي تنتج البخور ، وبعد أن فتح الاسكندر بلاد العرب أرسل له سفينة محملة بالبخور وأوصاه أن يقدم منها الفرابين السخية للآلهة ".

وكذلك Arrian, Anabasis 7.20.2 حين يقول:

" إن رفاهية تلك البلاد (بلاد العرب) كانت حافزاً له (للاسكندر لفتح هذه البلاد) إذ سمع بأن الفرقة تنمو في واحاتها وأن المرّ والبخور تأتي من أشجارها وتجمع الفرقة من أغصانها ، كما تنمو في مروجها طيوب النارديين الحطرية ".

(41) Potts, Op. Cit., p. 95.

(42) Strabo, 16.4.4

(43) A.F. Beeston, "Some Observations on Greek and Latin Data Relating to South Arabia", Bulletin of the School of Oriental and African Studies 42, 1979, pp. 7-12, p. 8. See also N. St. Groom, Art. Cit. (Gerrha), p. 99.

44) Beeston, Art. Cit., pp 8 - 9. See also A.F. Beeston, "Pliny's Gebbanites", Proceedings of the 5th Seminar for Arabian Studies, 1971, London, 1972, pp. 4-8.

(45) عبد الرحمن الأنصاري : قرية الفاو: صورة من حضارة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٩٨٠، الخريطة الافتتاحية.

(46) نشارل جورج بدران : أطلس الحمائم "بيروت ، ١٩٧٨ خريطة رقم ٥ ، ص ٦٦ – ٦٧.

(47) Beeston, "Some Observations....." , p 7

(48) استولى الفارسيون على بابل وسليوقية بين عامي ١٤٠ و ١٣٠ ق . م . أنظر: جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحة في المحيط الهندي (الترجمة العربية للدكتور السيد يعقوب بكر – مكتبة الأنجلو بالقاهرة – ١٩٥٨!) ص ٤٥.

(49) Pliny, NH 12.38-40, 77-80.

((50) Arrian, Indica 41 6-7:

. . . . ἐπὶ τοῦ στόματος τοῦ Εὐφράτου πρὸς κώμῃ τινὶ τῆς Βαβυλωνίης χώρης - ὄνομα δὲ αὐτῇ Διρίβωτις - , ἵνα λιβανωτόν τε ἀπὸ τῆς Γερραίης γῆς οἱ ἔμποροι ἀγινέουσι καὶ τὰ ἄλλα ὅσα θυμιήματα ἡ Ἀράβων γῆ φέρει.

(51) أنظر : جورج فاضلو حورانى : المرجع السابق ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(52) Strabo 16.4.19

حول تحديد موقع جرهاء

د. رشاد محمود بغدادي(*)

من المعروف أن شبه الجزيرة العربية لم يكن بمعزل عن الحضارات القديمة التي سادت العراق ومصر والهند والشرق الأقصى ومناطق الشرق الأدنى القديم . وقد ساعد وجود ثلاثة سواحل طويلة لشبه الجزيرة العربية ، وقرب هذه السواحل من بقاع حصينة ، على تسهيل وصول السفن إليها ، وبذلك تهيأ لشبه الجزيرة العربية الاتصال عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي ، على وجه الخصوص ، بمراكز الثروة والحضارة في مصر وإيران والعراق . وبالإضافة إلى هذه الاتصالات البحرية ، فقد كانت شبه الجزيرة العربية على اتصال بمناطق الشرق الأدنى القديم بواسطة الطرق البرية . ويرجع هذا الاتصال البري إلى عصور ما قبل التاريخ ، عندما كان البحور محور التجارة العالمية وهي التجارة التي وضع أساسها عرب شبه الجزيرة العربية ، بوصفهم منتهى البحور . وقد لعبت الطرق البرية دورًا هامًا في تاريخ شبه الجزيرة العربية الحضاري والسياسي ، وبخاصة في الألف الأول قبل الميلاد . وعلى امتداد هذه الطرق التجارية البرية قامت ممالك ومدن صار لها شأن كبير في تاريخ شبه الجزيرة العربية . وكانت جرهاء إحدى هذه المدن الواقعة في إقليم شرق شبه الجزيرة .

وقد ذكر سترابو Strabo (٦٦ - ٢٤ق.م)(١) ، أن مدينة جرهاء Gerra وGerrha تأسست ، أو على الأقل ، استوطنها الكلدانيون الذين فروا من الملك الآشوري سنحريب(٢) (سين - آخي - اريبا) (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) واتصف الجرهائيون بالثراء الواسع ، فامتلكوا أدوات وأشياء وفيرة من الذهب .

(*)كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى .

والفضة كالأسرة والخوامل ذات الأرجل الثلاثة والأوعية ، بالإضافة إلى أواني الشراب ، كما كانت بيوتهم ذات أسقف وأبواب مطعمة بالعاج والذهب، فضلاً عما امتلكوه من الأحجار الكريمة والفضيات ، ومن ثم اشتهرت جرهاء بغناها ، حتى صار أهلها من أغنى سكان العالم القديم آنذاك(٣) .

وامتاز موقع جرهاء بوقوعها على ملتقى طرق برية عدة ، منها طريق جرهاء – البتراء – ويبدأ من جرهاء ثم الهفوف ، ومنها إلى شمال اليمامة ، عند موقع الرياض تقريباً ، ثم يتجه شمالاً إلى الشمال الغربي ، موازياً لجبال طويق . وبعد ذلك يتجه غرباً إلى بريدة ، ومنها إلى حائل فتيماء ، وأخيراً البتراء(٤) .

وقد نافس الجرهائيون السبئيين في تجارتهم ، لأن جرهاء كانت المركز الرئيسي للتجارة . وهناك طريق ثان ، غير طريق البرى من مأرب – جرهاء ، حيث يبدأ من مأرب ، ثم نجران ، ومنها يتجه إلى الشمال الشرقي في وادي الدواسر ، ويمر بطريق كشفته أخيراً الحفريات في الفاو(٥) ، جنوبي بلدة السليل، في سلسلة جبال طويق مع جبال وادي الدواسر ، على بعد سبعمائة كيلومتراً تقريباً إلى الجنوب الغربي من مدينة الرياض ، ومنها يتجه إلى الشمال الشرقي إما عن طريق الأفلاج أو الخروج عن طريق حجرين (يبرين)(٦) إلى مدينة جرهاء . وكان البخور من أهم المتاجر عبر هذا الطريق(٧) . ويرجح أن أهالي ظفار كانوا ينقلون اللبان مباشرة إلى جرهاء ، عبر الطرف الشرقي من الربع الخالي(٨) وعندما تصل القوافل محملة بالتجارة ، كانت جرهاء تنقلها بعد ذلك إلى وادي الرافدين إما براً ، وإما في قوارب تبحر في الخليج العربي ، حتى تصل إلى نهر الفرات ، ومن هناك تستأنف رحلتها البرية إلى حيثما توجد أسواق المنطقة .

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في تحديد موضع جرهاء ، فذكر Strabo(٩) أنه يمكن الوصول إلى جرهاء على مسيرة ٢٤٠٠ استاديا(١٠) ، على طول ساحل شبه الجزيرة العربية ، حيث تقع المدينة على خليج عميق ، ويسكنها

الكلدانيون ، وأيضاً المنفيين من أهل بابل . ووصف أرضها بأنها ملحة ، وأن سكانها يعيشون في بيوت مبنية من حجارة الملح ، يرشون جدرانها بالماء عند ارتفاع درجات الحرارة لمنع قشورها من السقوط . وقال أن المدينة تبعد عن مياه الخليج مائتي إستديا .

ومن ثم فإن تحركات الجرهائيين كانت بطريق البر في معظم الأجزاء . وذلك أثناء اشتغالهم بتجارة العطور . ويضيف بلينى الكبير(١١) (٢٣/ ٢٤ – ٧٩م) ، أن خليج جرهاء والمدينة المسماه بهذا الاسم ، يمتد محيطها خمسة أميال ، والمساحة التي بينها وبين جزيرة تيروس (تيلوس) (البحرين) ، المشهورة باللؤلؤ، خمسون ميلاً من الساحل .

أما بطليموس (كلوديوس بطولمايوس) (١٣٨ – ١٦٥م)(١٢) فيذكر Gerra Polis ,Gerraei, وقد ميز بين أرض جرهاء وبين مدينة جرهاء ، فسمى الأرض باسم Gerraei ، وسمى المدينة باسم Gerra Polis , Gerraei Polis ، أي مدينة جرهاء ، مما يدل على أن التسمية كانت تشمل إقليماً واسعاً آنذاك .

وقال إنها تقع في أرض سماها Gerraei وهو المكان الذي ذكره فيما بعد باسم أرض آتاك Attae ، كما قال إن جرهاء تقع بين مدينتين ، على نفس المسافة إلى الشرق ، اعتقاداً منه ، على ما يبدو ، أن جرهاء كانت عند رأس زاوية الساحل: أحداهما مدينة مجندانه Magindanata ، التي تقع على الخليج العربي ، والأخرى أسماها Bilbana, Bilana, Biliana إلى الشمال الغربي من مدينة Gerra، وهي على مسافة نصف درجة منها. ويرى Sprenger(١٣) أن اسم مدينة مجندانه مركب من مقطعين أحدهما Magier ، ويعني مجوس ،، والآخر استان Istan أو دان ، وتقع على خليج العقير .

هذا في حين ذهب Glaser(١٤) إلى أن جرهاء تقع على خليج القطن ، على مقربة من ياس وأنها موضع ماجان(١٥) . أما فيل جروم(١٦) فقد ذكر أن

هناك موقع من الواضح تقريباً أن يكون لمدينة بحندانه ، حيث لا يزال الأسم معروفاً إلى الأن باسم " الجان " أو " بجان " أو " تيجان " جنوبي شبه جزيرة قطر شرقاً ، ويحد هذا الموقع منطقة سبخة شاسعة معروفة باسم " ماقي " وهي تشكل الحدود الطبيعية لها .

ويرى بعض المؤرخين(١٧) أن هناك ثمة تقارب بين اسمي جرهاء والعقير ، وأن هذا الأسم الجديد (العقير) احتفظ في بنيته بالأسم القديم (جرهاء) . ذلك أن العقير ، تصغير العقر(١٨) ، وتدعى العجير في لهجة سكان المنطقة هناك(١٩) وهي تقع على ساحل الخليج العربي بحذاء هجر(٢٠) .

والعقير ميناء صغير يقع شمال شرقي الهفوف ، في منتصف ساحل شبه الجزيرة العربية المطل على الخليج العربي ، وهي قرية من منطقة جرعة . وهناك من يضيف إلى ميناء العقير الخرائب المعروفة بأبي زهمول ، حيث تكون تلك الخرائب الطرف الثاني من جرهاء ، والتي تشمل الميناء (٢١) . أما عن هجر (بفتح أوله وثانية)(٢٢) فإنها وفقًا للتسمية العربية قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام ، وكانت تشمل منطقة واسعة تضم كل ما عرف بالبحرين فيما بعد ، كما ضمت مدينة تحمل نفس الاسم . وقد اشتهرت هجر بتمرها ، وقال شيخ الربوة عنها : " وبحيرة هجر في بلاد البحرين وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هجر بالبحرين ، وقيل : بل سمي البحرين لأن هناك دخله من الأرض في البحر الكبير كالجزيرة ، وسمي ذلك الموضع البحرين "(٢٣) ، وقال : " ثم يلي هذا السفح مغربًا بلاد البحرين ، ويسمى : القوس ، وهجر اسم واقع على مجموعة وليس باسم مدينة كالشام والعراق وخراسان ومن أمصاره : الإحساء ، وهي القصبة ، وتعرف بأسماء بني سعيد ، يحيط بها عرطة لخل . والقطيف يحيط بها ساحل البحر . وساحل هذا الصقع يسمى : الخط(٢٤) وإليه تنسب الرماح الخطية ، لكنه لا ينبت فيه لأنه مكان للتجارة بالبضائع(٢٥) .

ويرى البعض أن منطقة البحرين في شرق شبه الجزيرة العربية ، في إقليم الإحساء ، هي التي كانت معروفة باسم هجار ، في العصور الوسطى . ومن المحتمل أن اللفظ يقابل قبيلة أجاروم(٢٦) وهو اللفظ الذي ورد في نقش كاشي من البحرين(٢٧) ، الذي تحدث عنه أرتونيس وبطليموس وسترابو .

ويعتقد البعض الآخر ، أن هجر هي التسمية القديمة للمنطقة ، ولمدينة كانت بها ، ثم زاحمتها لفظة (البحرين) ، قبيل الإسلام ، حتى أصبحت فيما بعد في عدد مواضع البحرين ، وأن التجار نقلوا هذه التسمية إلى اليونان واللاتين بأسلوب يحرف صيغها على الشكل المذكور ، ومع ذلك فإن جذر لفظة " هجر " موجود في هذه التسمية اليونانية واللاتينية(٢٨) .

ومن جهة أخرى يذهب بعض الباحثين(٢٩) إلى أن جرهاء هي القطيف نفسها ، وهي واحة شهيرة ، ترويها عدة عيون ، يحدها المحيط (الخليج) . ويعتمد هذا الرأي على ما جاء في وصف سترابو ، من أن الإنسان يمر بالجرهاء ، وإذا ما أمعن لمسافة أبعد ، توجد جزر أخرى ، يعني تيروس وأرادوس . ويوحي ذلك بأن جرهاء تقع فيما بين الكويت والبحرين ، الأمر الذي يجبرهم على ترشيح القطيف .

يقول الهمداني(٣٠) : " ثم ترجع إلى البحرين فالإحساء منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم ، وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب(٣١) . ومن ثم فقد عرفت عندهم باسم الجرعاء(٣٢) . وبترجيح هذا الاسم ، تبدو التسمية قريبة جدًا من Gerra Gerrha ، وأن اسم جرهاء جاء في الأصل من الجرعاء . كما أن موضعها قريب من الموضوع المذكور . ولسبب آخر ورد اسم تميم مع الجرعاء(٣٣) ، وتميم هو Themi ، التي ذكرها بطليموس(٣٤)، كما يوافقه عليها بعض الباحثين(٣٥) ، حيث جاء في صورة الأرض ، أن الجرعاء كانت من المواضع المشهورة بالإحساء(٣٦) .

كذلك يذكر البعض(٣٧) أن هناك القرحاء(٣٨) ، وهي قرية من قرى بني عارب . وأنها كما يعتقد البعض الآخر(٣٩) على مقربة من العقير ، حيث توجد خرائب أثرية لبقايا مدينة قرحاء ، إحدى مدن جزيرة العرب . وكانت هذه المدينة في العصر اليوناني والروماني من أشهر الأسواق والمراكز التجارية في الشرق الأوسط ، وقدرت مساحتها بخمسة أميال ، ويسميها بعض مؤرخي العرب بالجرعاء .

وأخيرًا ، فهناك أنقاض مدينة ترجع إلى العصور الوسطى ، تسمى ثاج(٤٠)، وهي الآن فيما وراء "حبير" وربما الأصح الجبيل ، على بعد حوالي ٨٠كم غربي مدينة الجبيل ، وعلى بعد ١٥٠كم من الظهران ، وهي على خطوط عرض ٢٦ و٥٠ً شمالاً ، وخطوط طول٤٨ و٤٢,٩ً(٤١) وكانت تعرف قديمًا باسم عيتان ، وهي تقع على بحيرة أو خليج(٤٢) . وهي اليوم عبارة عن قرية صغيرة ، على طرف السبخة المعروفة بسبخة ثاج ، وتوجد بها أطلال لمدينة يحيط بها سور خارجي ضخم يبلغ طوله حوالي ٩٠٠م(٤٣) وكان طريق التجارة من الطفوف يمر بنطاع في وادي المياه ، كما أنها كانت - أيضًا - تقع على الطريق الممتد من اليمن إلى مملكة الحيرة بالعراق ، وأيضًا جنوب طريق القوافل الشهير المسمى (دارت الكنهوري) وهو طريق تجاري هام " وربما كان موجودًا منذ القدم . وربما كان ذلك المكان حطامًا لمدينة ثاج(٤٤) .

وقد عثر في ثاج على العديد من بقايا المدافن(٤٥) وغيرها من المواد الواردة بكتابات جنوب شبه الجزيرة العربية الهامة ، ويبدو أن هذا الموقع كان مدينة للجرهائيين ، نظرًا لأسواره المحصنة ، وربما كان فيما بعد المركز الشمالي المتقدم .

ويحيط بمدينة ثاج سور في جهاتها الأربع ، وقد بني السور بحجارة عادية . ويبلغ عرض السور ٤,٤م وبلغ طوله الكلي ٢٥٠٠م . وكان لهذا السور عدد من الأبراج المربعة الشكل التي تبرز مساحة ٦,٦م . كما يوجد في السور أبراج أصغر حجمًا . وكانت مدينة ثاج تملك نظامًا دفاعيًا أشرف على تصميمه وتنفيذه عدد

من المهندسين العسكريين . أما المدينة الواقعة داخل الأسوار ، فكانت مكونة من عدد من المباني الحجرية التي بنيت بدون مراعاة لتخطيط معين .

وقد دلت التحريات الأثرية التي أجريت في المدينة على أن السور مبني على أساس قوي من الحجر ، وأن ثاج تحتوي على طبقتين حضاريتين ، بلغ سمكها متر ونصف ، وتتكون من أنقاض تتخللها عروق كثيفة من الرماد ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأن ثاج دمرت بالنيران . وتدل عينات الفخار التي وجدت في ثاج على انتشار نوع متجانس في أشكاله وتكوينه ، مما يدل على أن المدينة كانت مأهولة خلال فترة واحدة استمرت خلال الأربعمائة سنة التي سبقت الميلاد(٤٦) .

وقام ج ماتنافيل(٤٧) بأول محاولة لتحديد أي مدينة من مدن المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية في خريطة بطليموس ، تنطبق عليها أوصاف مدينة ثاج . ويخمن أنها فيجيا القديمة(٤٨) ، وقد قبل بهذا التحديد البعض(٤٩)، وذلك على أسس لغوية وتاريخية ، حيث يشير الاسم " فيجيا " الوارد على خريطة بطليموس إلى مدى التشابه اللغوي القائم كحقيقة ، نظرا لأن الاسم الحالي للموقع " ثاج " مأخوذ عن الاسم القديم (فاج) (فيجيا) .

وربما جاء الاعتقاد بأن ثاج كانت عاصمة الجرهائيين ، بسبب وجود ميناء على الساحل قريبًا من جزيرة (أبو علي) ، حيث يتطابق هذا الموقع القريب من جزيرة (أبو علي) مع ما ذكره سترابو بأنه جرهاء كانت واقعة "في خليج عميق" وأوضح بطليموس ، في خريطته ، على الساحل المواجه لمدينة فيجيا وجود نتوء جبلي داخل البحر يسمى رأس كيرسونيوس Chersonesus ، وهي كلمة يونانية تعني بالعربية " شبه جزيرة " . ويبدو أن ذلك الاسم يتمثل في رأس الزور ، أكبر شبه جزيرة على امتداد هذا الساحل(٥٠) وفي هذه الحالة تكون جرهاء كائنة - طبقًا لخريطة بطليموس - بعيدًا نوعًا ما في الداخل تجاه الجنوب .

ويفسر الاحتمال القائل بأن ثاج هي جرهاء ، المدينة الداخلية وميناءها رأس كيرسونيوي . وأن الشكل المحور لخريطة بطليموس ، إذ أنه لم يبين أنه لم يكن هناك

سوى الاحساء ، مكان هام ، وبنفس الدرجة كواحة ومركز تجارى آهل بالسكان. وربما يرجع سبب استبعاد بطليموس لهذه المدينة (ثاج) من خريطته كمدينة داخلية إخفاقه فى تدقيق بياناته التى جمعها ، بالإضافة إلى أنه من غير الموثوق معرفة متى دخل الجرهائيون دائرة الضوء ، ولكن بطليموس أشار إليهم باعتبارهم إحدى القبائل المقيمة على ساحل الخليج العربى . وأن جرهاء كانت لا تزال إحدى موانئها ، ولكن لا يُعرف تاريخ مصير بطليموس .

والواقع أنه من المعروف جيدًا أن أسماء الأماكن وأسماء القبائل فى شبه الجزيرة العربية متشعبة التوزيع ، وربما كان الجرهائيون سادة المراكز التجارية إما فى هجراء أو جرهاء . وتمشيًا مع البيئة ، فإن الجرهائيين ، الذين يتحدث عنهم أراتوثينيس ، كانوا يسكنون شرقى النبطيين ، وهم سادة واحة هجر فى العصور الوسطى يمارسون سلطة معينة ، وظلوا يمارسونها على كافة القبائل التى تعيش غربى الفرات بين الكوفة والخليج العربى(٥١) .

* * *

ويميل الباحث إلى اعتبار ثاج هى فيحا المدينة الداخلية التى تنتهى إليها طرق التجارة البرية . وأن مينائها هو رأس الزور ، الذى هو رأس كيرسونيس Chersonesus . ولا شك فى أن القيام بحفريات فى المستقبل فى موقع ثاج سيبشر بالكشف عن معلومات هامة قد تفصح عن الطابع المميز لهذه المدينة العربية ، التى كانت تقع على الطرق الرئيسية للمواصلات بين جنوب شبه الجزيرة العربية ، وجنوب الدولة البابلية ، والتى كانت معرضة فى ذات الوقت للتأثر بحضارة الخليج، وكانت على صلة بالامبراطوريات الرئيسية التى أعقبت الفترة الآشورية .

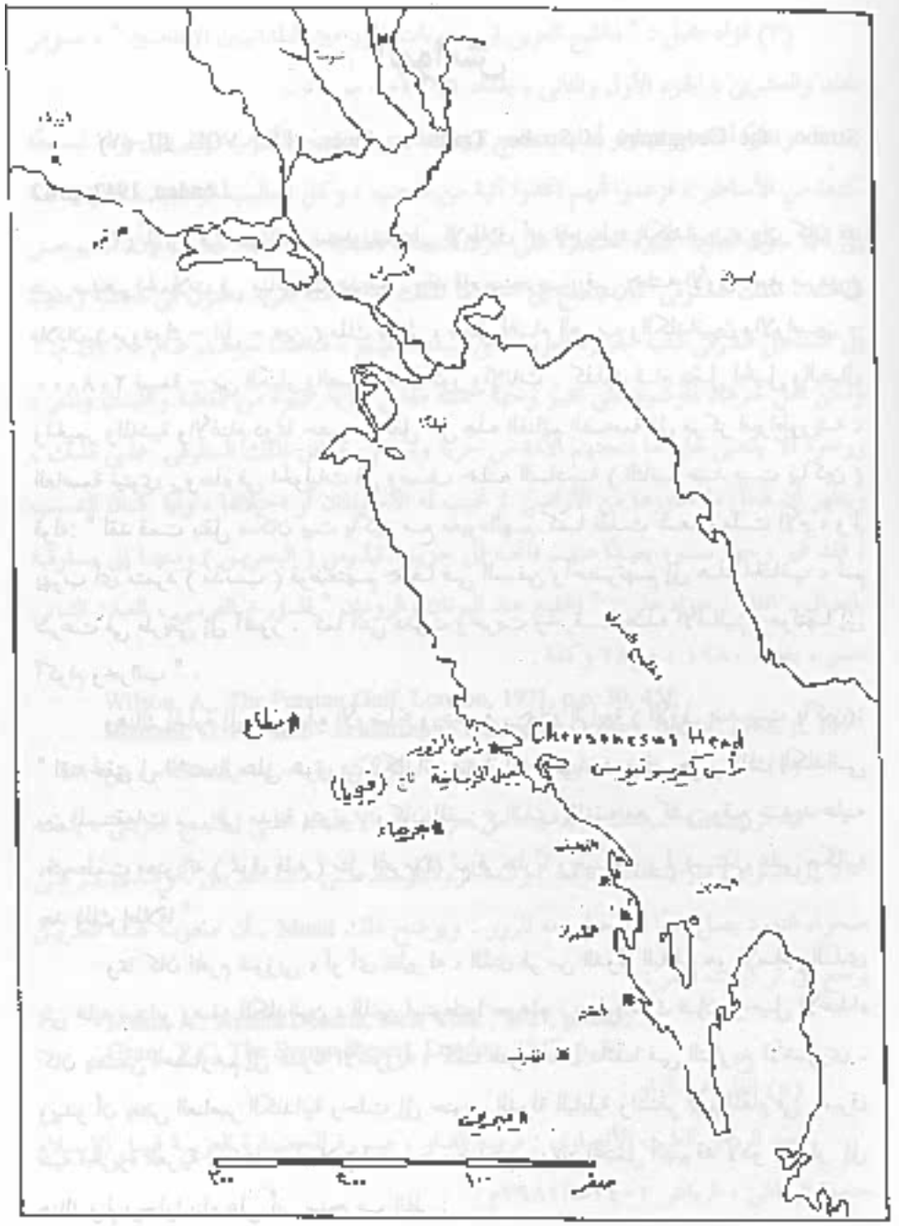

خريطة لبعض المواقع الأثرية شرق شبه الجزيرة العربية .

Potts , D. , " Thaj in the Light of Recent Research"
Atlal , 7 , Riyadh , 1403 A.H / 1983 A.D , Plate 82 .

الهوامش

Strabo, the Geography of Strabo, Trans. by Jones, H.L., VOL. III, (١)
London, 1942, p. 42

(٢) لم يرد في حوليات سنحريب على الإطلاق أنه قام بطرد الكلدانيين ، وإن كان قد شن ضدهم الحملات في مناسبات عديدة . وقد قام سنحريب في حملته الأولى ضد مردوخ بلادان (مرودوك - ابل - دين) ملك بابل ، بنقل أغنام العرب والكلدانيين والاراميين - ٢٠٨٠٠٠ نسمة - من الكبار والصغار ، الذكور والإناث . كذلك قام بنقل الخيل والبغال والحمير والماشية والأغنام دونما حصر ، ونقل كل هذه الغنائم الضخمة إلى مركز امبراطوريته ، العاصمة نينوى . وجاء في الحوليات في وصف حملته السادسة (الثانية ضد بيت ياكين) قوله: " لقد قمت بنقل سكان بيت ياكين مع معبوداتهم كما تغلت شعب ملث الأم ، ولم يهرب أي متمرد (مذنب) فوضعتهم جميعا في السفن وأحضرتهم إلى هذا الجانب ، ثم شرعت في طريقي إلى آشور . كما أنني دمرت وحرقت هذه الأقاليم وحولتها إلى أكوام وخرائب " .

وهناك إشارة إلى نقل هذه الأوضاع وردت في حملته الرابعة (الأولى ضد بيت ياكين): " لقد تحقق لي الانتصار على شوزوبي الكلداني في أثناء حملتي ، .. وقد حمى ذلك الكلداني بين المستنقعات ، .. في مدينة بيتوتو . وكان للفزع الذي أثارته معركتي وقع شديد عليه ،فتحطمت معنوياته (تمزق قلبه) مثل الجرجر(؟) ثم فر هاربًا وحيدًا ، ولم يستدل على مكانه بعد ذلك إطلاقًا " .

ولما كان الخرم شوزبي ، أو أي تظير له ، الذي فر من الدولة البابلية هو الأساس الذي بنى عليه سنحاريب وصفه للكلدانيين ، الذين استوطنوا جرهاء . وعلى ذلك فإن ترحيل الأعداء كان يتضمن احضارهم إلى الدولة الآشورية ، كما هو الحال دائمًا في التاريخ الآشوري . ويبدو أن بعض العناصر الكلدانية رحلت إلى جنوب الدولة البابلية واستقر بهم المقام في شرق شبه الجزيرة العربية ، كنتيجة لحملات سنحريب ضدهم . ومن المحتمل أنهم قد لاذوا بالفرار إلى هناك ولم يرجعوا بناء على أمر سنحريب انظر :

Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, VOL. II. Univ. of Chicago Press, Chicago, 1927, pp. 121, 123, Pars. 241, 246

(٣) فؤاد جميل : " الخليج العربي في مدونات المؤرخين اليونانيين الأقدمين " ، سومر المجلد والعشرين ، الجزء الأول والثاني ، بغداد ١٩٩٦م ، ص٥٢ .

ونظرًا لغناها واشتهار أهلها ، طمع فيها الطامعون ونسج الكتاب الإغريق حولها نسيجًا كثيفًا من الأساطير ، فزعموا أنهم اختزنوا آنية من الذهب ، وكل أساليب الرفاهية ، وبالإضافة إلى أنها سوق تجارية كبيرة المسيطرة على طرق التجارة العالمية في الخليج العربي فإن انطيوخس الثالث ، الملك السلوقي كان يتطلع إلى احتلالها لذلك جرد حملة بحرية ، تنزل في دجلة ومنها إلى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية في مياه الخليج ، فاصلاً جرهاء عام ٢٠٥ق.م. " ولكن لعمل جرهاء فاوضوه على تغيير وجهة حملته مقابل جزية كبيرة من الفضة واللبان والمر ، ورجوه ألا يقضي على ما متجهم الآلهة من حرية وسلام ، فوافق الملك السلوقي على ذلك ، ويظهر أن فحل ما جاورها من الأراضي لم تجب له الاستيطان أو احتلالها ، وأيًا كان السبب ، فقد غير وجهة مسيره بعيدًا عنهم قافلة إلى جزيرة تيلوس (البحرين) ومنها إلى سلوقية بالعراق . انظر : جواد علي : " الخليج عند اليونان والرومان " المؤرخ العربي ، العدد الثاني عشر ، بغداد ١٩٨٠ ، ص٢٨ وكذا .

Wilson, A., The Persian Gulf, London, 1921, p.p. 30, 45f.
Hourani, G. F., Arab - Seafaring in the Indian Oceans, Beirut, 1968, p. 14.

(٤) محمد بيومي مهران : الحضارة العربية القديمة ، الإسكندرية ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ص٢٩١

يذكر Grant أن هناك طريقًا يبدأ من جرهاء في الاحساء على الخليج العربي ، يتجه شمالاً إلى البتراء ، مارًا بمنطقة الجوف ، وأن الجزء الأوسط من هذا الطريق ، والذي يمر في صحراء النفوذ يصل حدًا يستحيل معه المرور . ويوضح ذلك Musil بأن صعوبة هذا الطريق يرجع إلى تركيبات انظر :

Musil, A., Arabia Deserta, New York , 1927, p. 265;
Grant, P.C, The Syrian Desert, London, 1947, p. 36 .

(٥) انظر عن القاو :

عبد الرحمن الطيب الأنصاري : قرية القاو ، صورة للحضارة العربية قبيل الإسلام جامعة الرياض ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٦) واحة كبيرة في الجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية ، وقد دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت في المنطقة على وجود أعداد كبيرة من القبور المبنية بالحجر تبلغ أعدادها

الآلاف ، واستنادًا إلى دراسة الأثاث الجنائزى بالقبور ، أمكن تأريخها بالفترة الواقعة بين ١٢٠٠ - ٨٠٠ق.م ، أى أنها كانت آهلة بالسكان خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد . انظر :

المعالم الأثرية فى البلاد العربية ، الجزء الثانى ، المنظمة العربية للتربية والثقافة .

(٧) لطفى عبد الوهاب يحيى : الفرس فى العصور القديمة ، بيروت ١٩٧٩م ، ص٣١٧ - ٣١٨ .

اليزابيث مونرو : " الجزيرة العربية بين البحور والبترول " الدارة ، العدد الأول - السنة الثانية ، الرياض ، ربيع الأول ١٣٩٦هـ/ مارس ١٩٧٦م ، ص٣٣ .

(٨) رضا الطاهر : " جوانب من تاريخ الخليج العربى القديم فى ضوء المصادر القديمة، المجلة التاريخية ، العدد الرابع ، بغداد ١٩٧٥ ، ص٥٥

وكذا اليزابيث مونرو : المرجع السابق ، ص٣٥

(9) Strabo, III, pp. 186 FF

(١٠) استاديا (Stadia) : هو مقياس طول إغريقى ، ويعادل ٦٠٦,٧٥ قدم . انظر (ياقوت : معجم البلدان ١/١٨) .

(11) Pliny, Natural History, Translation by Rackam, H., London, 1957, p. 451.

(12) Ptolemy, Geographia, Edited by Nobbe, C.F., Leipzig, 1845, VI.7, 16, 17, 32

(13) Sprenger, A , Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875, p. 134

(14) Glaser, E., Skizzeder Geschichte and Geographie Arabiens, Zum propheten Muhammad, Hildesheins Georg Olms, 1975, S. 225

(١٥) أحمد محمد صايمون : دراسة تاريخية لمشكلة تحديد موقعى ماحان ومليحا ، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط (١٦٧) ، مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس ، ١٩٩٤م ، ص٣٦ - ٥٣

(16) Groom, N., " Gerrha A, Lost, Arabian City ", Atlal, 6, Riyadh, 1402 A. H/ 1982 A. D., p. 102

(17) Sprenger, A., Op. Cit. p. 135;
philby, J. B., The Empty Quarter, New York, 1933, P.3

(١٨) ياقوت : معجم البلدان (٤/١٣٨ ، ٥/٣٩٢) .

(19) Cheesman, R.E , in Unknown Arabia, London, 1925, p.26

(٢٠) هجر : مدينة وهى قاعدة البحرين ، وربما قبل الهجر ، بالألف واللام ، وقيل : ناحية البحرين كل هاجر .

وقال ابن موسى : هجر قصبة البحرين بينه وبين سرين سبعة أيام . انظر : (ياقوت : معجم البلدان ٥/٣٩٣) . كما جاء فى تاج العروس : " وهجر اسم لجميع أرض البحرين " انظر محمد مرتضى الزبيدى : تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلد الثالث ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م ، ص٦١٣ . بينما يضعها البعض فى واحة دومة الجندل فى شمال شبه الجزيرة ، انظر :

Robin, Under " Localisation des Hagarites " , Semitica XXIV, 1974, pp. 102 FF

(21) Cheesman, R.E., Op. Cit., p. 26

(٢٢) أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، الجزء الرابع ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٥١م ، ص١٣٤٦

(٢٣) محمد شيخ الربوة (ابن أبى طالب الأنصارى) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ليبزج ١٩٢٣م ، ص١٢١ .

(٢٤) عن الخط ، انظر

جواد على " الخليج عند اليونان واللاتين) ، ص٣٧ - ٣٨

(٢٥) محمد شيخ الربوة : المرجع السابق ، ص٢٢٠

(٢٦) عثر على كتابة مسمارية فى البحرين ، ترجع إلى العهد البابلى القديم فى النصف من الألف الثانى قبل الميلاد ، وبها إشارة إلى "قصر رموم عبد الإله انزلك رئيس قبيلة أحاروم". ومن المحتمل أن أحاروم القديمة هى قبيلة عربية بقى اسمها مستعملاً وحرف إلى بنى هجر ، التى تقيم فى بقعة تجاور البحرين ، كما يرجح أن هذا الاسم الشرف (هجر) ، كان يستعمل فى العصور الوسطى للدلالة على منطقة الإحساء انظر : محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، بيروت ١٩٨١، ص٢٦١

(27) Rawlinson, H., " Notes on Capt. Durand's Report Upon the Bahrain " Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, London, 1880, pp. 13 FF

(٢٨) جواد علي : المرجع السابق ، ص٣١

(29) Forster, C., The Historical Geography of Arabia, London, p. 216; Huzayyin, S. A., Arabia and the Far East, Cairo, 1942, p. 142

Groom, N., OP. Cit., p.100.

(٣٠) الهمداني (لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني) ، : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، أشرف على طبعه حمد الجاسر، الرياض ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ ، ص٢٨١

(٣١) هذا نص صريح في أن سوق مدينة الإحساء يسمى الجرعاء ، وقد يكون هذا السوق موجودا قبل إنشاء مدينة الإحساء في أول القرن الرابع الهجري، حيث كانت مدينة هجر هي القاعدة .

ويفهم من كون الجرعاء من قبلة الأحساء أن موقعها غرب عين الجوهرة ، التي تقدمت الإشارة إلى أنها كانت في وسط مدينة الإحساء القديمة ، فيما بين موقع مدينتي الملوز والقفوف الحاليتين ، خارج مواقع النخيل وبحاري المياه، حيث تتسع الأرض البراح لسباق الخيل ولاجتماع الكثير من الناس .

كذلك ورد في بعض المؤلفات القديمة مدينة تقارب حروف اسم (الجرعا) مع الاختلاف في نطق الجيم والعين مثل : القرعا – القرحا – الكرها وهكذا . إذ الأعاجم لا ينطقون العين كما ينطقها العرب . انظر .

حمد الجاسر : المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية – المنطقة الشرقية (البحرين سابقًا) القسم الأول ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص٣٧٩، ٣٨٣ . ٣٨٤

(٣٢) الجرعاء : بالفتح وإسكان الراء وفتح العين المهملة بعدها ألف ممدودة – الكلمة وصف لأرض سهولة ورمل لا تنبت ، ولهذا كثر إطلاقها اسمًا لمواضع أخرى . انظر:

صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، الجزء الأول ، تحقيق وتعليق على محمد البجاوي ، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، ٣٢٦ وكذا .

حمد الجاسر : المرجع السابق ، ص٣٧٩

(٣٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية بيروت ، ١٩٧٧م ، ص٤٢٠

(34) Ptolemy, VI,7, 17

(٣٥) إن Themi, Themoi, Themea وهم بنو تميم ، الذين كانوا يقيمون على خليج Magorum Sinus في صوب Thar على نهر Astan ، انظر

Forster, C, Op. Cit., pp 215 F.

(٣٦) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة بيروت (بدون تاريخ) ، ص٣٣ – ٣٤

(٣٧) محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري الإحسائي : تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، الرياض ١٣٧٩هـ ، ص٢٣

(٣٨) انظر الهامش رقم ٣١

(٣٩) بيتربروس كورنول : البحث عن ماضي جزيرة العرب ، ترجمة محمود محمد الشنهاري ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص٣٨

(٤٠) تاج : بالفتح فألف جيم – وقد تهمز الألف . وهذا ناشئ عن اختلاف اللغويين في مصدره ، فبعضهم أورده في (تأج) وبعضهم في (تُوج) ، ويظهر أن الكلمة قديمة مثل (فيد) و(قدك) ، ومحاولة ربطها بأصول الكلمات العربية المعروفة لا توصل إلى رأي قاطع ، انظر :

حمد الجاسر : " تاج " ، مجلة العرب ، مج ١١ ، ١٢ ، س ١٣ جماد ثان .

(٤١) المعالم الأثرية في البلاد العربية ، الجزء الثاني ، ص١٦٧ وكذا مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ص٣٧– ٣٨ ، وكذا حمد الجاسر : المرجع السابق ، ص٩٣٦ ، ٩٣٨

(٤٢) البوايت مونرو : المرجع السابق ، ص٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ (٥) .

(٤٣) حمد الجاسر : المرجع السابق ، ص٩٣٦ ، ٩٣٨

(44) Potts, D., " Thaj in the Light of Recent Research". Atlal, 7, Riyadh, 1403A. H/1983 A.B., p.91

(٤٥) لقد عثر على شظفة من قدر فخاري ، وجدت فيما يعرف " شاهد القبر " ، وعليها نقش بدهان أسود ونعى يشبه اللغة الآرامية ، وربما كانت بعض كلماته مرتبة حسب طبيعة الحضارة العربية للغة الآرامية . انظر :

Bibby, JASP XII, 1973, P. 25, Fig. 18

(٤٦) المعالم الأثرية في البلاد العربية ، الجزء الثاني ، ص١٦٨

(47) Mandaville, J., " The Apre - Islamic Site in Northeastern Arabia ", Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 172, 1963, p. 19

(٤٨) يلاحظ أن بعض سكان تلك الجهة ، يبدلون الباء فاء في كثير من الكلمات ، ولهذا فمنهم من يقول : (فاج) ، انظر :

حمد الجاسر : المرجع السابق ، ص٩٢٨

(49) James, W.E., " On the Location of Gerrha ", in Al Ueim, F. and Stiehl, R. Die Araber in der Alten Welt, VOL. 5, pt. 2 Berlin, 1969, p. 45

(50) Groom, N., Op. Cit., p. 104

(51) Musil, A., Arabia Deserta: Atopographical Itinerary, American Geographical Society Oriental Explorations and Studies N2, New York, 1927, rep. 1978, p, 498

العلاقات التاريخية والحضارية بين إقليم الخليج العربى وشرق أفريقية فى العصر الإسلامى

د. سعد السعيد عبد العزيز سالم(*)

ترتب على هجرات أبناء الخليج العربى إلى شرق أفريقيا فى العصر الإسلامى وعلى العلاقات التجارية المتبادلة بينهم وبين سكان هذه البقعة من القارة الأفريقية ، اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الأفريقية مما أدى إلى سرعة انتشار الإسلام هناك وإلى انصهار الأجناس المتعددة التى كان يتكون منها هذا المجتمع الأفريقى فى بوتقة الحضارة الإسلامية . فبهذا التزاوج امتزجت الدماء واختلطت النظم والتقاليد اختلاطًا كان من آثاره ظهور أجيال يتسم أفرادها بسمات عقلية وجسمية قريبة من السمات العربية . وعرف هذا العنصر الجديد بالعنصر السواحيلى أو السواحلى وعرفت لغة التخاطب بينهم باللغة السواحلية ، ودان أهله بالإسلام الذى عمق الرابطة بين هذه الأصول المتباينة(١) .

وقد صدرت دراسات عديدة عن الحضارة السواحلية منها ما يتعلق باللغة السواحيلية وعلاقتها باللغات الأفريقية واللغة العربية(٢) . ومن هذه الدراسات يتأكد لنا ارتباط السواحلية منذ نشأتها الأولى ارتباطًا وثيقًا باللغة العربية . وهذا يدفعنا إلى دراسة العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية لمعرفة جذور تلك الصلات الحضارية .

وإذا كانت العلاقات التاريخية بين اليمن وشرق أفريقيا موغلة فى القدم إلى حد أن بعض المؤرخين يرون أن أصل كلمة الحبشة Abyssinia يرجع إلى قبيلة(٣) حبشت العربية السامية التى عبرت البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية إلى أفريقية،

* أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد - كلية الآداب - جامعة الأسكندرية

وإذا كانت هذه العلاقات قد استمرت بين اليمن وشرق أفريقية طوال العصور القديمة وتجددت مع ظهور الإسلام ، لتزداد توثقًا ومتانة عبر العصور الإسلامية المختلفة ، فإن العلاقات بين الخليج العربي وشرق أفريقية في العصر الإسلامي موضوع هذا البحث لم تكن لتقل أبدًا في متانتها وأثرها الحضاري والديني عن تلك التي ربطت اليمن بالشرق الأفريقي .

وتعتبر عمان أولى أقطار الخليج العربي التي توطدت صلاتها التاريخية والتجارية بشرق أفريقية ، فقد كان لموقعها الجغرافي الفريد والمتميز على مدخل الخليج العربي والمحيط الهندي أعظم الأثر ليجعل منها القاعدة الأولى في منطقة الخليج التي تتحكم في مدخله من الجهة الجنوبية ، وكذلك حلقة الوصل الرئيسية بين عالمين ، عالم الشرق الأقصى ممثلاً في الهند والصين وجنوب شرق آسيا من جهة وعالم شرق أفريقية ومصر ومنها إلى الغرب الأوربي من جهة أخرى . ومن المسلم به أن أهل عمان عرفوا بمهارتهم في مجال التجارة البحرية والملاحة في المحيط الهندي منذ أقدم حقب التاريخ . ويشير الطبري إلى هجرة قبائل عربية عمانية وأخرى من البحرين إلى الساحل الشرقي للخليج في أرض فارس قبل ظهور الإسلام وقد أسهمت هذه القبائل العربية في الشهرة الكبيرة التي أحرزتها بلاد فارس في مجال الملاحة(٤) .

وفي العصر الإسلامي واصل العمانيون تفوقهم في مجال الملاحة البحرية بدليل مساهمة أبناء عمان بحرًا في حركة الفتوحات الإسلامية فقد عبر عثمان بن أبي العاص الثقفي والي عمان والبحرين من حلفار بعمان إلى جزيرة ابن كاوان ومعه ثلاثة آلاف محارب من الأزد وناجية وعبد القيس سنة ١٩هـ ، وتمكن من فتحها وبنى بها مسجدًا وجعلها مستقرًا للعرب(٥) ، كما اشتبك عثمان بن أبي العاص بمساعدة قواته البحرية والبرية من أهل عمان والبحرين في معركة مع القائد الفارسي شهرك في جزيرة المقسم وتغلب عليه وقتله(٦) . وكذلك سقطت

أصطخر سنة ٢٩ هـ في أيدي بني بكر بن وائل وعبد القيس وبني سامة الذين ينتمون في الأصل إلى عمان والبحرين(٧) .

ومن مظاهر تفوق العمانيين في مجال التجارة البحرية وصولهم بسفنهم إلى الساحل الشرقي لأفريقية وإقامة مراكز تجارية هناك . ويذكر المسعودي أن العمانيين اعتادوا الأبحار في بحر عدن الذي أسموه بالبحر البربري أو الخليج البربري إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وهم يسمون بلاد الزنج على حد قوله جفوني(٨) وفي موضع آخر من مروج الذهب يذكر المسعودي أن أهل عمان العرب الأزديين كانوا يرتجزون إذا ماتوسطوا هذا البحر فيقولون :

بربـــري وجفـــوني وموجـــك المخـــون

جفـــوني وبربـــري وموجهـــا كما ترى(٩)

وقد ركب المسعودي هذا البحر في إحدى رحلاته من صحار (سنجار) قصبة عمان مع جماعة من البحرين ، كما ركب إحدى السفن عام ٣٠٤ هـ من جزيرة قنبلو في طريق عودتها إلى عمان ، وكان أمير عمان آنذاك أحمد بن هلال(١٠) . ويؤكد المسعودي في أكثر من موضع من كتابه " مروج الذهب " على مهارة نواخذة عمان ، وعلى وصولهم(١١) إلى مياه الزنج واليمن والقلزم والحبشة وكذلك مياه بحر الصين والهند والسند .

ويرجح بعض الباحثين أن قنبلو التي وصل إليها العمانيون هي مدغشقر الحالية ، وإن كان فريق منهم يرجح أن تكون إحدى جزر القمر(١٢) . وكان يربط بين قنبلو وصحار مباشرة طريق ملاحي هو نفس الطريق الذي سلكه المسعودي في رحلته التي تحدثنا عنها . وكانت الرياح تدفع السفن أحيانًا بعيدًا عن قنبلو فتتجه رأسًا إلى الساحل(١٣) الأفريقي . وكان نواخذه عمان يبحرون من صحار أو مسقط في اتجاه سواحل شرق أفريقية ، كما كانوا يلازمون

الساحل ولا يتعمقون في جوف المحيط بهدف التنقل بين أكبر عدد ممكن من الجزر المتناثرة قبالة الساحل الشرقي لأفريقية سعيًا لتبادل السلع معها(١٤) .

وكانت سفالة كما يذكر المسعودي هي أقصى المناطق التي تصل إليها الرحلة العمانية(١٥) وربما يرجع السبب في توقف العمانيين جنوبًا على طول الساحل الأفريقي فيما يلي بلاد سفالة عند هذا الحد إلى توقف الرياح الموسمية عن الهبوب جنوبي رأس كوريينتس الذي عرفوه بجبل الندامة ، وكذلك إلى اشتداد التيارات المائية وعنف الزوابع . وقد اعتاد العمانيون إنشاء مستوطنات عمانية في هذه الجزر الأفريقية المقابلة لساحل أفريقية الشرقية لحماية مصالحهم التجارية . وكان التواجد العمانيون يملأون سفنهم التجارية المتجهة إلى أفريقية بسلع متنوعة من منتجات شبه الجزيرة العربية كاللؤلؤ العماني الذي وصفه الجاحظ بأنه معتوى الجسد(١٦) شديد التدحرج ، واللؤلؤ المستخرج من بحر البحرين(١٧) الذي كان يسمى بالقطري . هذا بخلاف اللؤلؤ المستخرج من مغاصات دهلك بين بر اليمن وبر الحبشة ومن كيش وأوال وعمارك(١٨) وكذلك اللؤلؤ الذي كان يستخرج من جزيرة بالقرب من جبل ابن جرسم بين سواكن وعيذاب(١٩) . كذلك كان العمانيون يجلبون العنبر من شجر عمان(٢٠) ومن عدن إلى مخا ومن زيلع(٢١) . أما التمور فكانت تجلب من عمان نفسها ومن البصرة(٢٢) ، واللبان والكندر من حضرموت(٢٣) هذا إلى جانب الجلود المجلوبة من مدابغ عدن واليمن(٢٤) واشتغل العمانيون في تجارة النحاس العماني(٢٥) والشب اليماني الأبيض والورس اليمني(٢٦) هذا إلى جانب الزمرد الذي كانوا يجلبونه من مصر(٢٧) والخيول من عمان(٢٨) وغلفار(٢٩) . أما فيما يتعلق بالمنتجات الصينية فقد كان العمانيون يجلبونها من الصين وينقلونها في سفنهم إلى بلاد العرب وبلاد شرق أفريقية . وأهم هذه المنتجات الصينية وفقًا لما أورده ابن خرداذبة وابن الفقيه الهمذاني(٣٠) الحرير والمسك والعود والسروج والسمور والخضار والدارمينى

والخولنجان . ويضيف صاحب سلسلة التواريخ أن الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج كانت من أهم منتجات الصين وصادراتها(٣١) .

أما السلع والمنتجات الهندية فتتمثل في القطن والذهب والفضة والعود والصندلان والكافور والقرنفل والقاقلة والفارجيل(٣٢) والعنبر والساج والفلفل(٣٣) وأنياب الفيل والجواهر كالياقوت والماس . أما الرصاص القلعي والعود والكافور والصندل والعاج والأبنوس فكانوا يجلبونه من جزيرة كلة(٣٤) هذا بخلاف السلع المجلوبة من جزيرة الكلب(٣٥) من جزر بحر هركند ومنتجات جزيرة نيومة .

أما فيما يتعلق بمنتجات شرق أفريقية التي كان يحملها التواجد العمانيون من المراكز التجارية الإسلامية هناك وينقلونها إلى الشرق الأقصى ، فنذكر منها العاج ، وكان يجهز على حد قول المسعودي من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند ، حيث كان ملوك الصين وأمراؤها وقوادها يتخذون الأعمدة منه كما استخدم الهنود هذا العاج في نصب الخناجر وقوائم السيوف وفي صنع صور الشطرنج والنرد . كذلك كان العمانيون يحملون الصبر من جزيرة سقطرى التي تقع قريبًا من ساحل أفريقية ويعرف بالصبر الأسقوطري(٣٦) وقد أشار مؤلف الدليل للبحر الأريثري Periplus Maris Erythraei إلى هذه العلاقات التجارية وتحدث عن اختلاط العرب وتزاوجهم مع الأفارقة(٣٧) .

وإلى جانب العلاقات التجارية ، ساهمت الهجرات العمانية في تعريب منطقة شرق أفريقية ونشر الإسلام فيها ، فقد تعرض أهل عمان في العصرين الأموي والعباسي لظروف سياسية قاسية دفعت بعضهم إلى الهجرة إلى المناطق الداخلية لسواحل شرق أفريقية والاستقرار هناك استقرار دائمًا وتأسيس إمارات عمانية إسلامية . وكان الرسول ﷺ قد ولى عمرو بن العاص على عمان . وعندما تولى أبو بكر الصديق الخلافة ترك عمان بأيدي أهلها ، وظل الأمر على هذا النحو

إلى أن تولى الخلافة الأموية عبد الملك بن مروان الذى أسند ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف الثقفى . وإلى هذا العهد ترجع أقدم الهجرات العمانية إلى شرق أفريقية ، فقد طمع فى فرض سيطرته ونفوذه على عمان فسير إليها حملات متتالية، ولكن سليمان وسعيد ولدى عباد بن الجلندى اللذين كانا يحكمان عمان تمكنا من التصدى لهذه الحملات وحققا انتصارًا باهرًا على أحد قادته ، وهو القاسم بن شعره المزنى عند قرية خطاط الساحلية بالقرب من مسقط(٣٨) . وعلى الرغم من هذه الهزائم التى تعرضت لها قوات الحجاج فقد عاود الكرة ووجه حبشًا كثيفًا إلى عمان . ولم يتمكن سليمان وسعيد هذه المرة من مواجهته والتصدى له ، فخرجا مهاجرين مع أهلهما واتباعهما من عمان إلى شرق أفريقية وتبعتهما قبائل عديدة من الأزد إلى هناك(٣٩) . ويعتبر أبناء الصومال هذه الهجرة الإسلامية العربية أكبر حدث تاريخى فى شرق أفريقية كما أنها الدعوة الأولى المنظمة للإسلام فى الصومال ، وكانت فاتحة خير على الشرق الأفريقى إذا احتذبت جماعات وأفواج من المهاجرين المسلمين إلى هناك(٤٠) .

واستمرت الهجرات العمانية إلى شرق أفريقية طوال العصر العباسى لا سيما فى خلافة كل من أبى العباس السفاح وهارون الرشيد والمعتضد العباسى .

وتسجل مدونة السلوة فى أخبار كلوة أخبارًا عن مملكة كلوة(٤١) . ذلك أنه حدثت فى السنوات الأولى من القرن السابع الهجرى ، هجرة عمانية جديدة إلى الساحل الشرقى لأفريقية - وبالذات إلى بتاء - تزعمها سليمان بن مظفر النبهانى صاحب عمان . وقد أحسن المسلمون فى بتاء استقبال هؤلاء المهاجرين الجدد وتزوج سليمان هناك من أميرة مسلمة هى ابنة الملك إسحق من سلالة الشيرازيين فى مملكة كلوة . وكان من نتائج هذا الزواج أن تنازل إسحق عن الحكم لسليمان النبهانى العمانى الذى أصبح أول ملوك بنى نبهان فى إقليم الساحل الشرقى لأفريقية . واستطاعت هذه الأسرة النبهانية أن توسع من رقعتها

وتضم إليها معظم الساحل الشرقى لأفريقية فى أواخر القرن السابع الهجرى فضمت براوة ومقديشيو وقسمايو .

ويرجع الفضل فى تأسيس مدينتى براوة ومقديشيو إلى أبناء البحرين . وقد عرفت البحرين ركوب البحر منذ أقدم العصور شأنها فى ذلك شأن عمان . ومن الثابت تاريخيًا وأثريا أن البحرين هى تفسها دلمون(٤٢) القديمة ذات الدور الحضارى المتميز . وقد تميز شعب دلمون بنشاط تجارى واسع النطاق ، أما أسواقها فكانت تعد من أشهر الأسواق فى العصور القديمة ، إذ كانت ترد إليها بضائع أفريقية وافدة . واشتهرت مدينة جرهة (جرهاء) تجاريًا ، وأثرى أهلها نتيجة لذلك ثراء فاحشًا إذ كانوا يصدرون البحور إلى البلدان المجاورة وأهمها بابل(٤٣). واستمر تفوق ابناء البحرين فى مجال التجارة البحرية والملاحة حتى الفترة السابقة على الإسلام . وقد هاجرت قبائل عديدة من نواحى عبد القيس وكاظمة والبحرين إلى أسياف فارس وتغلبت عليها فيما يقرب من القرن الرابع الميلادى(٤٤) مما أدى إلى تنشيط حركة الملاحة فى بحر فارس فى العصور القديمة . واستمرت هذه الهجرات البحرينية إلى فارس بعد الإسلام وأشهرها هجرة آل حنظلة بن مميم من ولد غزة بن أدية فى العصر الأموى إلى إصطخر ونواحيها(٤٥). كذلك شاركت البحرين مع بداية العصور الإسلامية فى حركة الفتوحات الإسلامية ، وأيضا فى حركة التجارة البحرية العالمية فى ذلك الوقت . وقد أشار المسعودى إلى دور البحرين فى(٤٦) ذلك النشاط . كما حافظ أهل البحرين فى العصر الإسلامى على شهرتهم فى صناعة السفن(٤٧) فكانت أشرعة السفن المصنوعة فى البحرين لا تقل فى الشهرة عن تلك المصنوعة فى غيرها واشتهرت البحرين بصيد اللؤلؤ والمرجان مما حقق لأهل البحرين ثراء كبيرًا إلى حد أن كثيرًا من المؤرخين يفسرون الأحداث السياسية فى البحرين فى العصر الأموى وضعف النفوذ الأموى فى البحرين تفسيرًا اقتصاديًا .

وعندما تأسست دولة القرامطة فى البحرين سنة ١٨٦ هـ (٨٩٩) بقيادة أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ، وهى الدولة التى استمرت قائمة حتى سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٤م) - ظلت البحرين تحافظ على ازدهارها التجارى ، واستمرت صلاتها التجارية البحرية مع بلاد الشرق الأقصى قائمة ، استمرت كما شهرة أسواق البحرين العالمية فى الازدهار مثل سوق المشقر وسوق هجر . كذلك اشتهرت القطيف والعقير وأوال عالميًا كمحطات للسفن التجارية القادمة من أسواق الشرق الأقصى وشرق أفريقية . وكان أبو سعيد الحسن بن بهرام وولده سليمان يفرضان الضرائب على السفن المارة بهذه المحطات(٤٨) .

وقد لعبت البحرين دورًا كبيرًا فى نشر الإسلام فى شرق أفريقية وفى تعريب هذه المنطقة ، ليس من خلال الصلات التجارية فحسب ، بل أن هجرة الأخوة السبعة من الاحساء عاصمة دولة القرامطة بالبحرين سنة ٣٠١هـ (٩١٣م)(٤٩) فى قول أو سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) فى قول(٥٠) آخر ، إلى السواحل الأفريقية مؤسسين بذلك دولة قوية كانت ، مقديشو عاصمة لها حتى انتهاء نفوذهم فيما يقرب من سنة ٣٦٥هـ (٩٧٥م) ، كان له أكبر الأثر فى ذلك(٥١). ويذكر فريق كبير من الباحثين أن القادمين مع الإخوة السبعة من البحرين اختلفوا مع العرب الزيدية اليمنية الذين سبقوهم فى الاستقرار على الساحل الشرقى من أفريقية(٥٢) . ومن المعروف أن الزيدية من أهل الشيعة بينما كان الأخوة السبعة من أهل السنة ، فاضطر الزيديون إلى الانسحاب إلى داخل البلاد، مما ساعد على نشر الإسلام فى أعماق القرن الأفريقى (الصومال الحالى). وقد وصل نفوذ هؤلاء المهاجرين البحرينيين إلى جنوبى مبسة(٥٣) ، وإليهم يرجع الفضل فى تأسيس مدينتى مقديشو وبراوة .

ومقديشو مدينة يتكون اسمها من مقطعين . وقد تضاربت الآراء حول تأصل هذا الاسم فيرى البعض أن المقطع الأول عربى وهو مقعد أو مقر ، والثانى

فارسى هو (شو) محرف من كلمة شاه ، ومعناها مقر الحاكم . هذا بينما يرى البعض أن كلمة مقديشو كلمة أفريقية محلية تعنى المكان الذى تتجمع فيه الأغنام توطئة لبيعها . ونستمد الكثير من المعلومات عن هذه المدينة ونشأتها وهجرة الإخوة السبعة من الاحساء إليها من خلال وثيقة عربية هام عثر عليها البرتغاليون فى مدينة كلوة فى عام ٩١٠هـ (١٥٠٥م) . ومن خلال هذه الوثيقة يتبين لنا أن مقديشو كانت تتكون فى بداية نشأتها من ضاحيتين أساسيتين هما ضاحية حمرين وضاحية شنفانى . وقد قام مؤسس مدينة مقديشو بتأسيس مجلس للحكم يتألف من اثنى عشر رئيسًا من ذرية اثنى عشر أخ . وفى عهدهم امتد نفوذ مقديشو على طول الواحية (بنادر) . كذلك ذكرت الوثيقة أن سكان مقديشو كانوا أول من وصل إلى سفالة فى موزمبيق وأن سفنهم تتردد على سفالة لاستغلال مناجم الذهب هناك(٥٤) . ومن الجدير بالذكر أن ما أورده المسعودى فى مروج الذهب يؤكد ما ورد فى هذه الوثيقة من اشتهار سفالة بمناجم الذهب إلى حد أن المسعودى أورد ما يشير إلى أن العرب سموا سفالة بسفالة الذهب ؛ يقول فى ذلك " وكذلك أقاصى بحر الزنج وهو بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق وهى أرض كثيرة العجائب ، خصبة حارة ... "(٥٥) . ويذكر الإدريسى كذلك أن " مدينة البانس هى آخر بلاد الزنج وتتصل بها أرض سفالة الذهب ... "(٥٦) .

وقد حظيت مقديشو بنصيب وافر من أوصاف المؤرخين والرحالة العرب ، فياقوت الحموى فى القرن ٦هـ على سبيل المثال وصفها بأنها " مدينة على ساحل البحر وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ، ولا ملك لهم ، إنما يدبر أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم ، وإذا قصدهم التاجر لابد له من أن ينزل على واحد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ... "(٥٧) .

ونستنتج من هذا النص أن بعض العادات العربية الأصيلة تغلغلت فى نفوس أهالى مقديشو كالكرم واستضافة التجار القادمين إلى بلادهم . كما نستنتج غلبة

السمة الاقتصادية التجارية على المجتمع الإسلامي في مقديشيو ، فأغلب أهلها كانوا يمارسون التجارة في الصندل والأبنوس والعنبر والعاج(٥٨) . كذلك وصفها الرحالة الطنجي ابن بطوطة في سنة ٧٣٨هـ بأنها مدينة متناهية في الكبر غنية بمواردها الحيوانية خاصة الأغنام والإبل ، كما وصف أهلها بأنهم تجار متمرسون يتاجرون في المنسوجات التي لا مثيل لها . وكانت مصر من بين الأقطار التي تستطرف هذه المنسوجات(٥٩) . ويزودنا ابن بطوطة بشيء من التفصيل عن عادات أهالي مقديشيو خاصة فيما يتعلق بالحركة التجارية فيقول" ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار إليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتي كل منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي . وكذلك يفعل كل واحد منهم . ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلدان وحصلت له معرفة أهله ، فإنه ينزل حيث شاء . فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده ، واشترى له ، ومن اشترى منه بخس أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك .."(٦٠) .

ويتحدث ابن بطوطة عن سلطان مقديشيو في ذلك الوقت وهو أبو بكر ابن الشيخ عمر ، وكان أهالي هذه المدينة يلقبونه بالشيخ . ويذكر ابن بطوطة أنه كان يجيد التحدث باللغة العربية والمقديشية المحلية وأنه استقضى قاضيًا مصري الأصل اسمه ابن الدهان . ويصف كرم الضيافة عند سلطان مقديشيو ، ويذكر أنواع ما يقدمه لضيوفه من الأطعمة الصومالية . يقول ابن بطوطة " وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفه خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول . ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن المروب في صفحة ، ويجعلون عليه الليمون المصير وعناقيد الفلفل المصير والمخلل والمملوح والزنجبيل

الأخضر والعنبا ، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة ، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصيرونها في الخل . وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه المسواخ والمخللات . والواحد من أهل مقديشيو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة . وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ... "(٦١) . كذلك يصف ابن بطوطة ملابس أهالي المدينة فيقول " وكسوتهم فوطة خز ، يشدها الإنسان في وسطه عوضًا عن السراويل فإنهم لا يعرفونها وقراعة من المقطع المصري معلمة ، وفرجية من القدشي مبطنة وعمامة مصرية معلمة ..."(٦٢) .

ويؤكد نص ابن بطوطة ازدهار الحركة التجارية في مقديشيو التي تحولت إلى عاصمة تجارية كبرى ، فالفوطة التي يشدها الرجل المقدشي في وسطه من الخز أي الحرير ، ولما كان الحرير لا يتوفر في شرق أفريقيا فإن هذا يؤكد عمق الصلات التجارية مع أقطار الخليج العربي وعلى رأسها عمان والبحرين ، فتجارها كانوا يجلبون إليهم الحرير والتوابل من الصين والهند . كذلك فإن استخدامهم القراعة والعمامة من النسيج المصري ، والنسيج القدسي يؤكد عمق الصلات التجارية مع مصر . وعلى هذا النحو تصور نصوص كل من ياقوت الحموي وابن بطوطة الثراء وسمات الكرم التي كانت تتوفر في مجتمع تجار مقديشيو في ظل حكومة واعية يتولاها السلطان " الشيخ " الذي كان يحرص كل الحرص على تنمية الثروات الاقتصادية لبلده وتأمين عملية التبادل التجاري مع اليمن وإمارات الخليج من جهة ، ومع مصر من جهة ثانية . ونستنتج أيضًا من النص الذي أورده ابن بطوطة انتشار اللغة العربية في مقديشيو جنبًا إلى جنب مع لغة البلاد الأصلية ، فالتحية والسلام كانا عادة في مقديشيو باللسان العربي .

ونتبين من هذا العرض مدى تغلغل الروح العربية والإسلامية في كل مظاهر الحياة في مجتمع مقديشيو .

أما مدينة براوة فكان يطلق عليهما اسم براوة بن أو على ومعناها بالصومالية الفضاء المتسع . وقد أسسها الإخوة السبعة بعد نزوحهم على ساحل الصومال . وقد تعرض الإدريسي في كتابة نزهة المشتاق لوصف براوة التي سماها بروة(٦٣) كما وصف الكثير من مدن الصومال والقرن الأفريقي وجزرها وأهم تجارتها(٦٤) .

وكانت براوة مركزًا إسلاميًا يتردد عليه طلاب العلم للتزود بأصول الدين والتفقه فيه . وانتشرت فيها الطرق الصوفية وأشهرها القادرية (الإدريسية والزيلعية) والأحمدية (رحمانية وبرشيدية)(٦٥) .

ومن أهم المدن الأخرى التي وصفها الإدريسي بربرةوزالغ(٦٦) . وكانت براوة وميركا تقعان في الطرف الأخر للقرن الأفريقي وتتميان فيما يبدو إلى إمبراطورية مقديشيو التجارية وأسطولها الصغير مما يفسر قيام حركة تجارية بين هذين الميناءين ومقديشيو .

أما بربرة فقد اشتهرت منذ أقدم العصور بأنها ميناء هام ، ولم تفقد بربرة أهميتها القديمة في العصر الإسلامي ، فقد أطلق الجغرافيون العرب اسمها على خليج عدن لفترة طويلة(٦٧) . ويرى بعض الباحثين أن سكان بربرة كانوا يختلفون سلاليًا تمامًا عن الأحباش ، وإنهم كانوا بالفعل من الصوماليين . وقد ارتبطت بربرة فيما بين القرنين الثالث والثامن الهجريين بالمجتمعات الإسلامية الأخرى في هذه المنطقة مثل زيلع وسلطنة عدال(٦٨) .

* * *

ويتبين لنا مما سبق عرضه أنه ترتب على الهجرات العربية إلى شرق أفريقية وعلى العلاقات التجارية المتبادلة بينها وبين أقطار الخليج العربي واليمن آثار حضارية غاية في الأهمية . ففيما يتعلق بالجوانب الثقافية انتشرت اللغة العربية بين الصفوة كما استخدمت اللغة السواحلية ولمت الكتابة بها بحروف عربية حتى بين

العرب المستقرين في سواحل أفريقيا(٦٩) . وفيما يتعلق بالنواحي السياسية فقد تحولت مقديشيو وبراوة - اللتان كانتا قد أسستا على أيدي الإخوة السبعة المهاجرين من البحرين إلى سواحل الصومال في مطلع القرن الرابع الهجري - إلى مشيخات إسلامية . وقد اشار إلى ذلك الرحالة ابن بطوطة . ومن الجدير بالذكر أنه كان يمتد إلى جانب مشيخة مقديشيو وبراوة على الساحل الشرقي لأفريقية عدد كبير من المشيخات والمراكز الساحلية الإسلامية ، نذكر منها سيوبيت ولامو ومالندي وكليفي وبمبا وزنزبا ومافيا وكلوا وسفالة ، هذا بخلاف الإمارات الساحلية الإسلامية التي عرفت باسم " إقليم الطراز الإسلامي" والتي أسست نتيجة لهجرات عربية متعددة . وكانت هذه الإمارات سبعة أولها أوفات أو جبرت(٧٠) ومن مدنها زيلع ، وقد أسس أوفات قوم من قريش من بني عبد الدار أو من بني هاشم من ذرية عقيل بن أبي طالب . وإمارات هدية ودوارو وشرحًا ودارة وبالي وأرابيني . وقد أوضح لنا الإدريسي أن الصلات بين هذه الإمارات السبعة المعروفة بإقليم الطراز كانت أشد ارتباطًا باليمن منها بأي قطر آخر من أقطار الجزيرة العربية(٧١) أما فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية في هذه المجتمعات الساحلية فقد كانت قائمة على ثلاثة أنشطة اقتصادية أساسية ، الزراعة وصيد الأسماك والتجارة . وذكر المسعودي بعض المحاصيل الزراعية التي اختصت بها المجتمعات الساحلية ومنها الكلارى وهو نبات كالكمأة والراش والنارجيل(٧٢) والموز الذي وصفه الإدريسي بأنه كان خمسة أنواع(٧٣) والأرز والشعير والذرة والطافي - وهو حب الخردل - والعنب الأسود والرمان الحامض والتوت والجميز والأترج والليمون ، والتين البري والخوخ واللوبيا والكريب والصعتر(٧٤) .

وتشير المصادر العربية إلى حرفة صيد الأسماك للاستهلاك المحلي ، إلى جانب صيد اللؤلؤ(٧٥) والعنبر(٧٦) والأصداف ودرق سلاحف(٧٧) البحر . وكانوا يستخدمون الأصداف في صنع الصحاف والملاعق والقلائد(٧٨) . أما التجارة فكانت الدعامة الرئيسية للاقتصاد الساحلي كما أوضحنا على الصفحات

السابقة ، وقد ساعد على ازدهار التجارة وقوع الساحل الشرقى الأفريقى كله جغرافياً فى منطقة الرياح الموسمية مما ساعد على ازدهار الحركة الملاحية فى المحيط الهندى على وجه الخصوص(٧٩) .

ومن الجدير بالذكر أن الحفريات التى أجريت فى جزيرة ماندا أثبتت أنها كانت مركزاً تجارياً هاماً فى هذه المنطقة منذ القرن الثالث الهجرى وحتى القرن السابع . ثم ورثت كلوة هذه المكانة التجارية الهامة بعد ذلك . ويؤكد ثراء هذه المدينة وازدهارها التجارى ، الآثار العديدة التى اكتشفت فيها من خزف إسلامى ساسانى وخزف إسلامى ذى رسوم مزخرفة شبيه بخزف فارس وسيراف ، مما يؤكد وجود علاقات تجارية بين شرق أفريقية والخليج العربى فى تلك الفترة الزمنية ، كما يؤكد أيضاً أن الطرق التجارية التى تربط أفريقية الشرقية بعالم المحيط الهندى والخليج العربى ، كانت لم تحتما بأوخيول جزر لامو وزنزبار . وقد أوردنا فيما سبق ماذكره المسعودى بهذا الصدد عن تجارة صفالة فى الذهب وما ذكره الإدريسى عن براوة وبربرة وزالغ ، هذا إلى جانب وصفه لعدد آخر من مدن ساحل أفريقية الشرقى مثل حركة ومبسة .

ولقد اسفرت البحوث الأثرية التى أجريت فى كلوة عن نتائج هامة تؤكد وجود حياة تجارية مزدهرة ، إذ عثر فيها على عدد كبير من أصداف البودع (الغورى) الذى كان يستخدم فى البداية كنقود للتبادل حتى قيام أسرة الشيرازى، وعندئذ بدأت تظهر فى كلوة نقود مسكوكة فى دار السكة كما ظهرت فى مقديشيو عملات مماثلة(٨٠) .

كذلك اسفرت الحفريات الأثرية فى كلوة عن اكتشاف كميات هائلة من الخزف المستورد ذى الزخارف المزججة بطلاء اخضر داكن ، ومواد زجاجية وكميات ضئيلة من الخلى المصنوعة من الزجاج والعقيق الاحمر أو الكوارتز ، وكميات من الخزف الصينى السونغ الذى يرجع تاريخ صناعته إلى منتصف القرن

السادس الهجرى ، مما يؤكد وجود علاقات تجارية مع تجار ونواخذة الخليج العربى من عمان والبحرين ، فقد كانت لهم السيطرة على طرق التجارة فى المحيط الهندى مع الصين وبلاد جنوب شرق آسيا .

ويرجح المؤرخون أن جزيرة مافيا كانت تخضع لسلاطين كلوة الشيرازيين حتى ذلك العصر . ويبدو أن صراعاً عنيفاً نشب بين كلوة وبين جماعة الشنافع سكان جزيرة سانجى - يا - كاتى فى منتصف القرن السابع الهجرى ، للسيطرة على الطرق التجارية ، واسفر الصراع كما توضح حوليات كلوة عن انتصار سلاطينها مما ادى إلى مزيد من الازدهار التجارى الذى نعمت به كلوة ، وظلت تنعم به فى ظل سلاطينها الشيرازيين حتى بداية القرن الثامن الهجرى ، الذى ارتقت فيه إلى عرش السلطنة أسرة جديدة هى أسرة أبى المواهب(٨١) .

واشتهرت مقديشيو بصناعة النسيج المقدشى المنسوب إليها . غير أنها لم تصل فى المجال التجارى إلى نفس المكانة التى بلغتها المدن الواقعة فى الجنوب . ومع ذلك فإن نسيج المقدشى كان يصل حتى مصر ، فى حين كانت ترد من مصر والقدس أنواع أخرى من المنسوجات(٨٢) فى الوقت الذى لم يكن للمدن الأخرى علاقات مع مصر(٨٣) ومع بلاد الشام .

وكان يلى مقديشيو وكلوة فى الأهمية التجارية جيدى التى يقع فى جنوب الساحل الشرقى لأفريقية . وأكثر ماكانت تستورده جيدى الخزف الإسلامى ، إذ عثر على كميات كبيرة منه سواء كان ملوناً (اصفر واسود) أو كان خزفاً مزججا ذى نقوش صفراء وخضراء(٨٤) .

ومن أهم تجارات شرق أفريقية إلى الجزيرة العربية وخاصة إلى بلاد اليمن تجارة الجوارى(٨٥) والرقيق(٨٦) . وكان العبيد المجلوبون من الحبشة يعملون فى بداية الأمر بالغناء والموسيقى ، فلم تكن للعرب تلك المواهب الفنية التى كانت

كانت لدى العبيد السود . هذا فضلاً عن أن العرب كانوا يأنفون العمل بالطرب واحتراف فن الغناء ، فانفرد الأحباش فى اليمن بصنعة الغناء والرقص واللعب بالحراب فى الحفلات العامة والأعياد(٨٧) .

ومن الجدير بالذكر أن أعداد الرقيق الحبشى تزايدت فى المجتمع اليمنى بصفة خاصة فى عصر دولة بنى زياد ، فقد كان ملوك بنى زياد من القيسية يفضلون الاعتماد على عنصر غير يمنى ، فاستكثروا من اقتناء العنصر الحبشى واتخذوا منهم أجناداً فى الجيش . وتدرج الأحباش فى الجيش اليمنى فى ذلك الوقت حتى وصلوا إلى أعلى المناصب فتولوا قيادة الجيوش وحكم الولايات ومنهم من وصل إلى مرتبة الوزارة(٨٨) . ولم تلبث هذه المكانة التى بلغوها فى عصر بنى زياد باليمن أن مكنتهم من وراثة ملك الزياديين . فعندما توفى أبو الجيش إسحق (٣٧١هـ) كفلت ابنه الطفل عبد الله ، وقيل زياد ، أخته ، بمعاونة عبد حبشى كان يمتلكه والدها يدعى رشيد . وظل رشيد يتولى الوصاية على الأمير الطفل حتى وفاته ، فتولى الوصاية من بعده وصيف من أصل نوبى(٨٩) ، هو الحسين ابن سلامة . وقد حسنت سيرة الحسين بن سلامة فكان كثير البر والصدقات ، وشيد العديد من المساجد والمآذن . ومن أهم هذه المساجد التى أقيمت فى عهده مسجد الأشاعر ومسجد الجامع ومسجد معاذ وجامع حلى(٩٠) ونقش اسمه على كثير منها ، كما أقام العديد من محطات البريد على الطرقات من حضرموت لمكة، ورشيد سوراً حول مدينة صنعاء . وظل الحسين بن سلامة يحكم اليمن وصيا على الأمير الزيادى الصغير ثم وزيراً فيما بعد لمدة ثلاثين عاماً ، وتوفى سنة ٤٠٢هـ .

وفى أواخر عهد بنى زياد انتقل الحكم إلى طفل آخر هو عبد الله ، وقيل إبراهيم ، وتولت الوصاية عليه عمته بمساعدة عبد حبشى آخر من عبيد الحسين بن سلامة يدعى مرجان(٩١) . وكان لمرجان عبدان هما نفيس ونجاح ، فولى نفيس

الوزارة ، أما نجاح فقد ولاه أعمال الكدراء والمهجم وصور والوادعين . وانتهى أمر بنى زياد بأن قتل نفيس آخر ملوكهم .

وسرعان ماذب الصراع بين نجاح ونفيس ، فتآمر نجاح على قتل نفيس ثم قتل مرجان ، وانفرد هو بحكم بلاد اليمن ، ليبدأ منذ ذلك الحين ملك دولة حبشية أفريقية فى بلاد يمنية ، هى دولة بنى نجاح التى اعترف بها الخليفة العباسى ، واكتسبت الصفة الشرعية فى الحكم بالتقليد الذى أرسله الخليفة العباسى إلى مؤسسها نجاح ، وبالخلع التى أنعم بها عليه ، واللقب الذى لقبه به هو المؤيد نصير الدين . كذلك فوض إليه القضاء لمن رآه أهلا له(٩٢) وظل نجاح ومن أتى بعده يتولون حكم اليمن معتمدين على الآلاف من الأحباش فى الجيش والمناصب الإدارية فى البلاط .

والواقع أن دولة بنى نجاح التى دامت قرنًا ونصف كانت دولة حبشية(٩٣) بسلاطينها ووزرائها وجنودها ونظمها وتقاليدها ، مما دفع فريقًا من المؤرخين إلى اعتبارها امتدادًا للدويلات الحبشية التى قامت فى اليمن قبل الإسلام ، وآخرها دولة أبرهة(٩٤) ، وهى سنية المذهب . وقد شبهها بعض المؤرخين بالدويلات الإسلامية التى قامت بالحبشة . وكانت دولة الأحباش فى اليمن على المذهب السنى بينما كانت دولة شوا الإسلامية بالحبشة على سبيل المثال شيعية ، ولهذا لم تقم بينهما علاقة رغم تجاورهما(٩٥) .

وهكذا يتبين لنا من خلال هذا البحث أن العلاقات التجارية بين أقطار الخليج العربى وشرق أفريقية كانت جزءًا هامًا من حركة التجارة العالمية . وقد ترتب عليها آثار حضارية عظيمة انعكست على شعوب الشرق الأفريقى والجزيرة العربية ، ليس فى شرقها فحسب بل وفى جنوب غربها حيث انتشرت التقاليد الأفريقية باليمن لا سيما ما يتعلق بالمركز السامى التى كانت تشغله المرأة فى المجتمع اليمنى .

كذلك يتضح لنا أن الهجرات العمانية والبحرينية إلى هذه البقعة الأفريقية إنما كانت حلقة فى سلسلة الهجرات العربية المتتابعة والمتتالية المختلفة إلى شرق أفريقية من الحجاز واليمن ، مما يدحض آراء بعض المستشرقين الذين ينسبون إلى الهنود والفرس وحدهم الفضل فى نشر الإسلام فى القرن الأفريقى (أمثال جرانفيل فريمان Freeman Granville وأوليفرروالاند Roland وكوبلاند Coupland Reginald)(٩٦) .

الهوامش

(١) سيد حامد حريز ، المؤثرات العربية فى الثقافة السواحيلية فى شرق أفريقيا ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ عرض الأستاذ عبد الرحمن أحمد عثمان ، مقال بمجلة دراسات افريقية، العدد الخامس ، أكتوبر ، ١٩٨٩ ، ص١٢١ وما يليها - السرسيد أحمد العراقى ، معالم الحضارة الإسلامية فى ساحل شرق أفريقيا، مقال بمجلة دراسات أفريقية، العدد الثانى (ابريل) سنة ١٩٨٦ ، ص٨٥.

(٢) يذكر الباحث سيد حامد حريز أن اللغة السواحيلية تسمية عشر لهجة ويعرض لنا ثلاثة آراء حول أصل هذه اللغة . ويميل الباحث المذكور إلى الرأى القائل بانصهار العنصر اللغوى العربى والأفريقى ويرفض الرأى القائل بأن اللغة السواحيلية هى نتاج تفاعل اللغة العربية مع لهجات لغة البانتو (سيد حامد حريز ، المرجع السابق ، ص١٢٧ وما يليها) .

(٣) صاحب هذا الرأى هو جلاسر فى كتابه Die Abessinier in Arabien und Africa, Munchen, 1895 وتبعه فى ذلك جمهور كبير من العلماء منهم ربنان وكونتى وموسكاتى . وارجع كذلك إلى (إبراهيم على طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ ، ص٦) .

(٤) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ، ص٦٦ - عصام سخنينى ، الانتشار العربى فى الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، بحث مقدم إلى ندوة مكانة الخليج العربى فى التاريخ الإسلامى التى عقدت فى دولة الإمارات العربية فى مارس ، ١٩٨٨ ، ص٨٧ وارجع كذلك إلى بحث د . فاروق عمر فوزى المقدم إلى نفس الندوة بعنوان انتشار العرب فى أقاليم الخليج العربى الشرقية فى العصور الإسلامية الأولى ، ص٦١ - ٧٦ . وعن قبائل عبد القيس العمانية ارجع إلى (ناصر الدين الأسد ، مقدمة فى دراسة القبائل العربية فى الخليج قبل الإسلام ، بحث مقدم إلى مؤتمر قطر للدراسة تاريخ شرق الجزيرة العربية ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص٨).

لإثبات أن قبائل عبد القيس المذكورة فى نص الطبرى المقصود بها عرب عمان - ارجع إلى (سحر سالم ، عمان وتجارتها مع الشرق الأقصى وشرق أفريقية فى العصر الإسلامى من أبحاث كتاب عمان فى التاريخ ، مسقط ، ١٩٩٣/١٩٩٤) .

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج٣ ، ص٤٧٦ - سعيدة كاشف ، عمان ، ١٩٧٩ ، انتشار العرب ، ص٧٢ - رعن جزيرة أم كاردان التى فتحها عثمان بن أبى العاص - انظر (المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، جـ١ ، ص١٠٩) .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ص٢١٣ ، ٢١٤ - سعيدة كاشف ، عمان فى فجر الإسلام ، ص٣٥ .

(٧) الطبرى ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٥٥ . ولمزيد من التفاصيل - ارجع إلى فاروق عمر فوزى ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، دبى ، ١٩٨٣ - رعن بنى سامه بن لؤى ، الأسرة العمانية التزاورية التى كان لها الفضل فى نشر الوجود العربى والسيادة التجارية للعرب على الساحل الشرقى للخليج العربى ارجع إلى (فاروق عمر فوزى ، انتشار العرب ، ص٦٤ - ٦٨ - محمد أبو الفرج العش التقسود العربية الإسلامية المضروبة فى بلاد شرقى الجزيرة العربية بحث مقدم إلى ندوة قطر ، ١٩٧٦ ، ص٣٠٤ وما يليها) .

(٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج١ ، ص١٠٧ .

(٩) المصدر السابق ، ص١٠٨ .

(١٠) نفسه ، ص١٠٨ .

(١١) نفسه ، ص١٢٨ .

(١٢) عبادة كحيلة ، العرب والبحر ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص٥٥ .

(١٣) ابن شهريار ، بزرك الناخداه الرام هرمزى ، كتاب عجائب الهند برره وبحره وجزايره ، القاهرة ، ١٩٠٨ عن نسخة ليدن ١٨٨٣ ، ص٨٣ .

(١٤) عباده كحيله ، العرب والبحر ، ص٥٥ .

(١٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٧ . وسفالة لفظة أصلها سامى نجدها فى اللغات العربية والعبرية ومعناها الأرض المنخفضة أى أرض الساحل المنخفضة (السر سيد أحمد العراقى ، معالم الحضارة الإسلامية ، ص١٠٣) .

(١٦) الجاحظ ، البيان والتبيين ، مطبعة بيروت ، جـ٢ ، ص١٧ .

(١٧) سلسلة التواريخ ، باريس ، ١٨١١ ، ص١٤٣ - ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ليدن ، ١٨٩١ ، ص٨٧ - السيد عبد العزيز سالم ، التجارة البحرية فى الخليج فى صدر الإسلام ، بحث ألقى فى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية بقطر ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص٤١٢ .

(١٨) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، طبعة مكتبة المثنى بغداد ، ص٦٢ - المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص١٠١ .

(١٩) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص٤٨ .

(٢٠) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص٦١ .

(٢١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ١٠١ .

(٢٢) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٠ ، ٢٥٣ .

(٢٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص٨٧ .

(٢٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٤٩ .

(٢٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج١ ، ١١٢ .

(٢٦) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ص٣٦ .

(٢٧) سلسلة التواريخ ، ص١٤٧ .

(٢٨) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص٣٢٨ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص٢٥٩ .

(٣٠) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص٧٠ - ٧١ - ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص١٦ ، ٢٥١ .

(٣١) صاحب سلسلة التواريخ ، ص٣٥ .

(٣٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٢٦٣ .

(٣٣) سلسلة التواريخ ، ص٢٩ ، ٣٠ ، ١٢٩ - الفقيه ، مختصر كتاب ص٢٥١ .

(٣٤) سلسلة التواريخ ، ص٩٠ .

(٣٥) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص١٦ . وعن السلع الهندية فى الأدب العربى - ارجع إلى القاضى أطهر مباركبورى الهندى ، العرب والهند فى عهد الرسالة ، ترجمة عزت عبد الجليل ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣١ وما يليها .

(٣٦) سلسلة التواريخ ، ص١٣١ ، ١٣٤ .

(٣٧) محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، فصل من كتاب العلاقات العربية الأفريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص٤٥.

ولكتاب الدليل الملاحي للبحر الأريتري - ترجمة إنجليزية نشرها Schoff ,W.H بعنوان The Periplus of the Erythraean Sea, New York, 1912 وكذلك ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان Frisk, T.L.La Periple de la Mer Erythere Cothenbury, 1927 .

(٣٨) تاريخ أهل عمان المؤلف مجهول، تحقيق د . سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٤٦ - عوض عبد الهادي خطا الإسلام في سواحل البحر الأحمر الغربية ، مقال بمجلة دراسات أفريقية العدد الثالث ، إبريل ، ١٩٨٧ ، ص٤٧ - فاروق عمر فوزي ، الخليج العربي في العصور الإسلامية ، ص١٢٥ .

(٣٩) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى الأزكوي ، تاريخ عمان ، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص٤٢ الخليج العربي وشرق أفريقيا كما يحكيها البلدانيون العرب في العصر الوسيط ، بحث مقدم لندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ ، ج٢ ، ص٣٧ .

(٤٠) حمدي السيد سالم ، الصومال ، ج١ ، ص٣٥٠ . وتلت هذه الهجرة العمانية إلى أرض شرق أفريقيا ، الهجرة الزيدية اليمنية إلى ساحل بنادر بالصومال في عامي ١٢٢ هـ ، ١٤٠ هـ ، وهجرة الإخوة السبعة من الاحساء بالبحرين عام ٣٠١ أو ٣٠٨ هـ .

(٤١) تأسست مملكة كلوة سنة ٣٤٦ هـ عقب هجرة فارسية شيرازية إلى ساحل شرق أفريقيا . وتذكر المراجع أن هؤلاء المهاجرين الشيرازيين كان يرأسهم حسن ابن علي وأبناؤه الستة . وكان حسن بن علي هذا أحد أبناء سلاطين شيراز، وكانت أمه أفريقية الأصل مما جعله يعاني نوعًا من الاضطهاد من قبل أخوته فصمم في مغادرة البلاد مع أبنائه . ولم تحدد المصادر السبب الرئيسي لهجرته ، غير أنه وصل في سبع سفن إلى ساحل القرن الأفريقي . وبلغ عدد الشيرازيين الذين هاجروا معه نحو ألف وستين رجل . وقد امتدت هذه السلطنة من بجا في الشمال إلى سفالة في الجنوب وكانت عاصمتها كلوة . ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المهاجرين قاموا بنشر الإسلام في منطقة حوضها العليا والسفلى . وقد نقل هؤلاء المهاجرون

الشيرازيون بعض مظاهر الحضارة ذات الطابع الفارسي إلى هذه المناطق. ويذكر عباده كحيلة أن سلطنة كلوة لم تكن دولة واحدة بل كانت مدنًا مستقلة سقطت آخرها في أيدي البرتغاليين سنة ١٥١٢ م (عباده كحيله ، العرب والبحر، ص٥٢) ولا تزال آثار أحد مساجد كلوة قائمة حتى يومنا هذا (السر سيد أحمد العراقي معالم الحضارة الإسلامية ، ص٨٣ - حمدي السيد سالم ، الصومال ، جـ١ ، ص٣٥١ - ولمزيد من التفاصيل عن كلوة - ارجع إلى مدونة " السلوة في أخبار كلوة ، تحقيق الأستاذ محمد علي الصليبي ، عمان ، ١٩٨٥).

(٤٢) عبد الرحمن سالم ، حضارة البحرين القديمة ، بحث مقدم إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية في قطر ، ١٩٧٦ ، ص٦٢ .

* A.Warner, ASanili History of Pate, Journal of African Society, vol xiv, 1913, P153 .

(٤٣) لمزيد من التفاصيل - ارجع إلى فؤاد جميل ، الخليج العربي في مدونات المؤرخين والبلدانيين الأقدمين ، مجلة سومر ، مجلد ٢٢ ، ١٩٦٦ ص٥٢، ٥٤ - السيد عبد العزيز سالم، التجارة البحرية في الخليج في صدر الإسلام ، بحث مقدم إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية - قطر ، ١٩٧٦ ، ص٢٠٤ .

(٤٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ، ص٦٦ - ولمزيد من التفاصيل عن هذه الهجرات راجع فاروق عمر فوزي ، انتشار العرب ، ص٦٤ وما يليها .

(٤٥) فاروق عمر فوزي ، المرجع السابق ، ص٦٤ .

(٤٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص١٤٠ ، ج٣ ، ص٨ ، ٩ .

(٤٧) أحمد الشامي ، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى ، بحث مقدم إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الذي عقد في قطر في مارس ١٩٧٦ ، ج١ ، ص٣٣٥ ، وكذلك اشتهرت عمان بسفنها التي كانت تبحر إلى الهند وكانت تسمى بالبوصاعية (المسعودي ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص١٤٨ ، ١٦٣) .

(٤٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٣٣ .

(٤٩) استعرض كل هذه الآراء الدكتور السر سيد أحمد العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا ، مقال بمجلة دراسات أفريقية ، العدد الثاني إبريل ١٩٨٦ ، ص٨٣ .

(٥٠) راجع ما ذكره الدكتور إبراهيم علي طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ص٤٢ .

(٥١) كانت البحرين لم في تلك الآونة بظروف غاية في الاضطراب ، فقد كانت تخضع لحكم القرامطة المشيعين ، وكان أبو سعيد الجنابي القرمطي قد أثر مهادنة الدولة العباسية زمن الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) رغبة منه في تنظيم شئون بلاده من جهة ولانشغال العباسيين بصراعهم مع قرامطة الشمال بزعامة زكرويه ابن مهرويه وأبنائه من جهة أخرى . ونجح أبو سعيد في تنظيم مجتمعه ، ولذلك لم يقدم أبو سعيد الجنابي أي مساعدة للفاطميين عندما حاولوا فتح مصر سنة ٣٠١ هـ . وقد دفع ذلك بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن عبيد الله المهدي كان وراء مقتل أبي سعيد في حمامه بيد أحد خدمه سنة ٣٠١ هـ . ولما تولى ابنه سعيد الحكم (٣٠١ - ٣٠٥) انتهج سياسة أبيه في التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين مما أثار حفيظة من كان لا يزال من القرامطة على ولائه للفاطميين ، فاندلعت ثورة عنيفة في البحرين ، خلع خلالها سعيد وأسندت الإمارة مكانة إلى أبي طاهر . وبعد أن تولى أبو طاهر إمارة البحرين حتى إتجه إتجاهاً مخالفاً لإتجاه كل من أبيه ، بدأ يميل إلى الفاطميين ويتباعد عن الخلافة العباسية بل أنه لم يتردد في إرسال حملات ضد العباسيين في نفس الوقت الذي كانت القوى الفاطمية تحاول فتح مصر سنة ٣٠٧ هـ ، بل أن أبا طاهر حاول الاتصال بأبي القاسم بن عبيد الله المهدي الذي كان على رأس الجيش الفاطمي الموجه إلى مصر ، ولكن مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسي المقتدر حال بينه وبين ذلك ، وفي سنة ٣١١ هـ وثب أبو طاهر على البصرة فنهبها وسبى نساءها ، وكتب إلى المقتدر يطلب ضمها إليه هي والأهواز ، فلم يجبه المقتدر ، فأغار على الكوفة سنة ٣١٢ هـ ، واستولى على الرحبة وأغار على مكة . وفي سنة ٣٢١ هـ أغار على جنوب بلاد فارس ليشغل العباسيين أثناء محاولة الفاطميين فتح مصر . وكان الإخوة السبعة قد هاجروا من الأحساء ، أمامه ٣٠١ هـ أو سنة ٣٠٨ هـ أي في هذه الفترة المضطربة من حكم قرامطة البحرين .

(ارجع إلى الحمادي اليماني ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان اعتقادهم ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص٢٨ وما يليها) وكذلك (عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر المجلد الثالث القسم الرابع ، طبعة

دار الكتاب اللبناني ، ص٧٩٠ ، ٨٢٦ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٣٩٢ ، ٣٩٣ - عارف تامر ، القرامطة ، أصلهم ، نشأتهم تاريخهم وحروبهم ، طبعة بيروت ، ١٩٧٩) .

(٥٢) تعرضت لدراسة هجرات الزيدية إلى القرن الأفريقي من اليمن في كتابي بعنوان الصلات التاريخية والحضارية بين شبه الجزيرة العرب وشرق أفريقيا في العصر الإسلامي ، الأسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص١٠ وما يليها .

(٥٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية ص٤٨ - عوض عبد الهادي العطا ، الإسلام في سواحل البحر الأحمر الغربية مقال بمجلة دراسات أفريقية ، العدد الثالث ، إبريل ١٩٨٧ ، ص٤٨ - جمال زكريا قاسم ، دولة أبو سعيد في عمان وشرق أفريقيا ، طبعة مكتبة القاهرة الحديثة ص١٢ - ١٤ - عبادة كحيله ، العرب والبحر ، ص٥٢) .

(٥٤) لمزيد من التفاصيل عما ورد في هذه الوثيقة - ارجع إلى (حمدي السيد سالم الصومال ، جـ١ ، ص٣٥٥ وما يليها - وارجع كذلك إلى صباح الشيخلي ، العلاقات التجارية ، ص٣٧) .

(٥٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص٥ ، ٦ .

(٥٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٦٠ ، وقد وصف الإدريسي ذهب سفالة في موضع آخر من كتابه انظر ، ص٦٨ ، ٦٩) .

وارجع كذلك إلى عوض عبد الهادي العطا ، الإسلام في سواحل البحر الأحمر الغربية ص٤٨) .

(٥٧) ياقوت الحموي - معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧ ، جـ٥ ، ص١٧٣ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص١٧٣ .

(٥٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٠ ن ص٢٥٢ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص٢٥٣ .

(٦١) نفسه ، ص٢٥٥ .

(٦٢) نفسه ن ص٥٥ .

(٦٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٥٨ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص٥٨ .

(٦٥) لمزيد من التفاصيل عن هزاوة ارجع إلى الشريف عبد روس بن الشريف على العيد روس بغية الآمال في تاريخ الصومال ، طبعة ١٩٥٥ ، ص٢١٢ - ٢٢٩ .

(٦٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٣٤ ، ٤٢ ، ٥٨ .

(٦٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٤ .

(٦٨) ت . تامرات ، القرن الأفريقي ، السليمانيون في أثيوبيا وذول القرن الأفريقي ، اليونسكو ، ١٩٨٨ ، ص٤٢٩ .

(٦٩) سيد حامد حريز ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

(٧٠) وإلى حوت ينتسب الحوتي ولمزيد من التفاصيل راجع القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة تراثنا، القاهرة، جـ٥ ، ص٣٢٥ - سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، بحث في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، طبعة بيروت، ١٩٧٧، ص٢٨٥.

(٧١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ج١ ، ص٤٤ - ولمزيد من التفاصيل راجع كتابي الصلات التاريخية والحضارية ن ص١٤ وما يليها .

(٧٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٧ .

(٧٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق ن ج١ ، ص٦٢ . وعن أنواع الموز يقول " والموز عندهم خمسة ألوان فمنه المسمى القند ، والموز القبلي أيضًا وقد يوجد في وزن الوزة اثنا عشرة أوقية ، والموز الحماني ، والموز الموريتاني . والموز السكري أكثر عيش أهل هذه الجزيرة منه صحيح الطعم لذيذ المذوق ، شهي المزاقة . ولمزيد من التفاصيل عن الزراعة في المجتمعات السواحيلية - ارجع إلى ف.ف مانفيف ، تطور الحضارة السواحيلية بحث بكتاب تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ١٩٨٨ ، ص٤٥٤ وما يليها .

(٧٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٣٠ .

(٧٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٦١ .

(٧٦) المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٧٧) نفسه ، ص٦٦ ، ٥٢ .

(٧٨) ف.ف مانفيف ، تطور الحضارة السواحيلية ن ص٤٥٥ .

(٧٩) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة د. يعقوب بكر ، ص٢٤ - جمال زكريا قاسم ، استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا ، مجلة حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١٠ سنة ١٩٦٧، ص٢٨٠ ، ٢٨١ - محمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية ص٤٤ - مانفيف تطور الحضارة السواحيلية ، ص٤٥٤ وما يليها .

(٨٠) كانت مراكز سك العملة تقتصر على كلوة ومقديشيو بدءًا من القرن السادس الهجري وكانت النقود تسك من البرونز ومن الفضة . وقد عثر على مثال لهذه العملات المسكوكة في مقديشيو سنة ٧٢٢هـ . ولم يعثر في مناطق أخرى على نماذج لعملات أثرية متشابهة . ولمزيد من التفاصيل عن سك النقود واكتشافها في الحفريات الأثرية ارجع إلى مانفيف ، تطور الحضارة السواحيلية ، ص٤٦٤ وما يليها . وربما يؤكد ذلك ما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى من أن التجار المسلمين بالحبشة كانوا يتعاملون في بداية الأمر على طريقة المقايضة ثم كانوا يتعاملون بالدنانير والدراهم المصرية (انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥، ص٣٣١) .

(٨١) لمزيد من التفاصيل عن تجارة كلوة ارجع إلى مانفيف ، تطور الحضارة السواحيلية ، ص٤٦٢ وما يليها .

(٨٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص٢٥٥ .

(٨٣) مانفيف ، تطور الحضارة السواحيلية ، ص٤٦٤ .

(٨٤) لم يرد لمقديشيو أو حيدي أي ذكر في كتاب نزهة المشتاق .

(٨٥) ابن المجاور (جمال الدين أبو الفتح يوسف الدمشقي) ، صفة بلاد اوسكار لرفقرين ، ٨٩ .

(٨٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٤٤ ، ٦١ .

(٨٧) عصام الدين عبد الرؤف ، اليمن في ظل الإسلام ، ١٩٨٢ ، ص٢٧٨ .

(٨٨) المرجع السابق ، ص٢٧٩ .

(٨٩) محمد عبد العال أحمد ، الأيوبيون فى اليمن مع مدخل فى تاريخ اليمن الإسلامى إلى عصرهم ، ١٩٨٠ ، ص٤٠ وما يليها .

(٩٠) عصام الدين عبد الرؤف ، اليمن فى ظل الإسلام ، ٢٧٩ .

(٩١) زاهر رياض ، دولة حبشية باليمن ، مقال بالمجلة التاريخية للمصرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ ، ص١٠٩ ولمزيد من التفاصيل ، فرجع إلى محمد عبد العال الأيوبيون فى اليمن ، ص٤٢ – عصام عبد الرؤف – اليمن في ظل الإسلام ، ص٢٨٠ .

(٩٢) عن مخطوط ابن الديبع ، بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد – انظر عصام عبد الرؤف ، المرجع السابق ص٥٧ .

(٩٣) كانت دولة بنى نجاح سنية . وفى نفس الوقت تمكن الداعى على بن محمد الصليحى الشيعى من إقامة الدولة الصليحية الإسماعيلية سنة ٤٣٩ هـ بعد انتزاعه صنعاء شمالاً إلى عدن جنوبًا . وقد دب صراع مذهبى وعرقى بين دولة بنى نجاح الحبشية السنية وبين هذه الدولة الصليحية الإسماعيلية .

(٩٤) محمد عبدالعال ، الأيوبيون فى اليمن ، ص٣٢ حاشية ٣ – زاهر رياض دولة حبشية باليمن ، ١١٦ . وعن مركز المرأة المتقدم فى اليمن زمن دولة بنى نجاح ارجع إلى زاهر رياض ، نفس المرجع ، ص١٢٢ . بل إن د . زاهر رياض يفسر ظهور المرأة للتفوق للسيطر فى الدولة الصليحية العربية إلى عمق التأثيرات الحبشية .

(٩٥) محمد عبد العال ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

(96) Freeman, Granville : Select documents on the east Africa coast from the First to earlier nineteenth, Oxford, 1962. - Roland,o, the history of east Africa, Oxford, 1963 - Coupland Reginald, East Africa and its invaders From the Earliest times to the Death of Seyyid Said, 1856, Oxford, 1856 (Oxford 1938) .

العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربى والسواحل الغربية للهند فى العصور الوسطى

أ . د . أحمد عبد الحميد الشامى(*)

لاتقتصر أهمية إقليم الخليج العربى على عصرنا الحالى ، عصر البترول ، وإنما تمتد هذه الأهمية إلى قرون بعيدة بسبب ما اتصف به هذا الإقليم من نشاط فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية على المستويين المحلى والعالمى . وسأقصر هذا البحث على العلاقات التجارية التى كانت قائمة بين بلدان إقليم الخليج العربى من ناحية وبلدان إقليم الملبار وجوجيرات على سواحل غرب الهند فى فترة العصور الوسطى من ناحية أخرى .

وقد ساعد على نشاط هذه العلاقات التجارية وارتباط الإقليمين بها أن الظروف البيئية (الطبيعية) والحضارية لسواحل إقليم الخليج العربية تتشابه مع الظروف المماثلة لها فى سواحل غرب الهند ، حيث أصبحت سواحل الإقليمين بمثابة المنفذ الرئيسى لتصدير سلع ومنتجات شبه القارة الهندية واستيراد ما يلزم السكان فيها من بلدان خارجية ، بمعنى أن تشابه الظروف البيئية حتم على الطرفين التوجه إلى البحر واختراق عبابه بسفن متباينة الأحجام ، متعددة الأنواع .

وكلمة مليبار تتكون من مقطعين هما : ملى ، ومعناها أرض الجبل ، وبار ومعناها الساحل ، فيكون معنى الكلمة سواحل الأراضى الجبلية . وقد وردت هذه التسمية فى عدد من اللغات الهندية ، والفارسية ثم العربية(١) . وتنسحب هذه التسمية على سواحل غرب الهند من الجنوب حتى ساحل جوجيرات شمالاً تقريبًا من ميناءى تانة وبمباى(٢) وقد اضطر سكان هذه السواحل الغربية فى الهند – نظرًا لضيقها وفقرها – إلى التوجه إلى البحر والاشتغال بمستخرجاته ، والإبحار

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة – كلية الآداب – جامعة الزقازيق .

على صفحة مياهه ، لنقل البضائع والتجارات من بلدانهم إلى بلدان أخرى وبالعكس . ومن أهم موانئ الملبار :(٣) قاليقوط Calicutte وهو مركز تجارة العرب والفرس والأفارقة والصينيين ، وقد ارتبط بعلاقات تجارية مزدهرة مع بلدان إقليم الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقية(٤) .

(٢) كولون (كولم ملي) Quilon وهي مدينة هامة على ساحل الملبار تميزت بأسواقها الواسعة وتنوع عناصر سكانها ، وهي مقصد أساسي لتجار إقليم الخليج الهند .

(٣) ألبي : ميناء ومحطة تجارية على ساحل الملبار بين قاليقوط شمالاً وكولون جنوبًا(٥) .

(٤) بوناى : ميناء في جنوب قاليقوط ، وهي من المحطات البحرية الأساسية .

(٥) تريفندوم : ميناء هام على الساحل الجنوبي للملبار ، يلعب دورًا هامًا في الاتصالات التجارية المتجهة إلى سرنديب (سيلون) وجزر لكاديف(٦) .

(٦) شيل : ميناء صغير استقرت به جالية من التجار المسلمين من أهل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية ، وعاشوا مع سكانه الوثنيين ، وشهرة هذه المدينة صناعة وصقل الأحجار الكريمة وترصيع اللآلئ(٧) وكانت الجالية الإسلامية تصدر مثل هذه المنتجات إلى مدن منطقة الخليج العربي بما في ذلك مدن شبه الجزيرة العربية .

(٧) كنانور Cannanor تقع في الشمال بالقرب من جوجيرات ، استقرت بها كذلك جاليات إسلامية للتجارة ، وأصبح سلطانهم من المسلمين فيما بعد ، ويعتمد أهلها بصورة أساسية على التجارة(٨) .

ومن الموانئ الهامة كذلك تندايور " أوسندايور " وهي جزيرة مقابل ساحل الملبار ، وهي قرية من جوجيرات في الشمال . وميناء كش ، وهو ميناء صغير نسبيًا . وهناك عدة موانئ أخرى مثل هيلي رشول ، وكوشين ، ومنجرور . أما جزر الديبجات فقد استقر بها الكثير من التجار العرب والفرس ، بوصفها مركزًا مناسبًا لبناء السفن وتحميلها بالأخشاب ، وتصديرها إلى بلدان منطقة الخليج العربي . وكانت جزيرة دويبي من أهمها(١٠) .

أما جوجيرات فتقع في الركن الشمالي الغربي للساحل الغربي للهند . ويتشير اسم جوجيرات في المصادر القديمة والمراجع الحديثة ، ومن اسمائها كذلك بلاد اللار(١١) وأوباكي(١٢) ، وسومنات(١٣) ، وأوفير(١٤) .

كذلك ساعد التشابه الحضاري بين الإقليمين على التفاعل الحضاري ، فعند عصور قديمة وجدت حضارات في منطقة الخليج العربي تمثلت في حضارة بلاد الرافدين Misopotemia وحضارة دلمون Elmun (١) في البحرين ، كما وجدت حضارات على سواحل الهند العربية مثل ما هو بموهنجودار Mohonjodoro وحضارة حاريا " Harappa "(١٥) وهي تناظر حضارة العصر الأكادي في العراق القديم .

ويتميز إقليم جوجيرات بعدة مميزات أهمها :

- قربه من حدود الدولة الإسلامية في السند واتصاله المباشر بها ، وهو أقرب المراكز التجارية على ساحل شرقي الهند من مدن منطقة الخليج العربي مما جعله من أهم مراكز تجارة الهند مع العالم الإسلامي(١٦) .
- ساعد الموقع الجغرافي على حماية السفن من أخطار المحيط الهندي عند دخول هذه السفن إلى الميناء .
- لعبت منطقة جوجيرات دورًا حضاريًا هامًا في تطور الحياة في الهند بسبب اتصالها المباشر ببقية أجزاء شبه القارة الهندية وبلاد السند عن طريق البحر .

ومن أهم المراكز التجارية في منطقة جوجيوات :

(أ) بروج أو (بروص) وهي على الساحل ، وتسمى الآن بهروج ، وهي من أشهر وأكبر المدن حجمًا في المنطقة ، كما أنها طيبة المناخ . في سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م أرسل إليها الخليفة عمر بن الخطاب حملة بقيادة عثمان بن أبي العاص وإلى البحرين لتأديب القراصنة وفتحها(١٧) .

(ب) تانة : وتعرف حاليًا باسم تهانة ، لها شهرة كبيرة في تجارة الثياب ، وقد استقر بها التجار المسلمون مع سكانها من الهندوس .

(جـ) ديو : وهي ميناء على خليج ديو على ساحل بحر العرب ، وتزدحم المدينة بالتجار ، وهي مركز للتجار العرب والفرس(١٨) .

(د) كذلك من الموانئ الهامة في جوجيوات سفالة الهند ، وسندات ، وسومنات ، وصيمور ، وكيماى التي يكثر بها المشتغلون بتجارات التوابل والأحجار الكريمة والحرير والكشمير والزيت والمسك والحبوب(١٩) .

أهمية مدن إقليم الخليج العربي :

من المؤكد أن الموقع الجغرافي لإقليم الخليج العربي والمدن الواقعة عليه لعب دورًا كبيرًا في بروز أهمية هذا الإقليم منذ القدم . وكان أن برزت هذه الأهمية وبلغت مكانة مرموقة في العصور الوسطى لأن إقليم الخليج إلى جانب كونه حلقة اتصال مباشر بين الشرق الأقصى ودول العالم الإسلامي حينذاك – تعني العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد المغرب العربي – ، كان كذلك حلقة اتصال غير مباشر بين الشرق الأقصى وشرق أفريقية ، وجنوب البحر المتوسط وبعض بلاد جنوب أوروبا . وبعبارة أخرى فإن الخليج العربي صار الممر التجاري الذي يربط الشرق بالغرب قبل أن تعرف وسائل الاتصالات الحديثة من قطارات وسيارات وطائرات .

ومن ناحية أخرى فإن أهالي إقليم الخليج العربي كانوا وحدهم هم القادرون على حمل هذه التجارات والسلع من سواحل غرب الهند إلى منطقة الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط ، بفضل ما توافر لهم من خبرة تجارية وبحرية وتوافر سفن مناسبة صنعوها بأيديهم لشق عباب البحار والمحيطات(٢٠) .

وهكذا كانت السفن تأتي من الهند وسرنديب وأحيانًا من بلدان أخرى في منطقة الشرق الأقصى وترسو في موانئ مدن الخليج الكبيرة التي تتسع لها ، مثل عمان وصحار ومسقط وسيراف ... إلخ وفيها تفرغ حمولتها من البضائع المختلفة والتجارات المتعددة . وبعد ذلك تأتي الخطوة التالية وهي أن تقوم هذه المدن بتوزيع البضائع والتجارات على المدن الأخرى فتحملها سفن أخرى أصغر حجمًا مخصصة للنقل داخل مياه الخليج ، مع الاحتفاظ بجزء من هذه التجارات لتقوم سفن التجارة الخليجية بتصديرها مرة أخرى إلى شرق أفريقية . وعلى ذلك يمكن القول بأن مدن الخليج كانت مراكز رئيسية تلقى فيها الواردات التجارية من مدن سواحل غرب الهند وسرنديب ، وهي في نفس الوقت مراكز لتخزين وتصدير هذه التجارات والبضائع إلى بلدان العالم الأخرى . ومن العوامل التي ساعدت تجار الخليج العربي على جلب تجارات الهند ، ازدهار المدن وارتفاع مستوى المعيشة فيها ، لا سيما في فترة انتعاش الدولة الإسلامية عندما أصبح الغذاء الأساسي لسكان إقليم الخليج يعتمد على الأرز والقمح والذرة بالإضافة إلى ما ينتجونه من تمر(٢١) .

وكان لسفن الخليج العربي نشاط كبير في نقل محصول قصب السكر من الهند ، لأول مرة . وسرعان ما أخذ ينتشر هذا المحصول في بلاد غرب آسيا في عصر ما قبل الإسلام ، حتى أصبحت الدولة الساسانية أكبر منتج له في تلك الفترة الزمنية ، ثم عرفت شعوب البحر المتوسط قصب السكر منذ القرن الأول قبل الميلاد ، فانتشرت زراعته في الخليج العربي والعراق بصورة واسعة في عصر الساسانيين ، وازداد الطلب عليه في بداية العصر الإسلامي(٢٢) .

كذلك جلبت سفن الخليج القطن من الهند ، وكان على شكل مادة خام أو على شكل خيوط مختلطة بألياف صوفية أو كتانية(٢٣) . وصار الخليج العربي أهم المصدرات لتصدير الحرير المجلوب من الصين إلى منطقة الشرق الأدنى وإلى أوربا(٢٤) . كما جلبت سفن الخليج من الهند الكثير من أنواع الفاكهة مثل البرتقال والليمون والنارنج والموز الذى زرع لأول مرة فى عمان . وكذلك الباذنجان والباذنجان . وقد نجحت زراعة هذه الثمار كلها فى بلدان الخليج العربى لتشابه البيئة الجغرافية مع بيئة الهند ، ثم انتقلت منها إلى المناطق المتعددة فى الشرق الأدنى(٢٥) .

كذلك جلب تجار إقليم الخليج العربى العديد من الأعشاب النباتية ، وخاصة ذات الأهمية الطبية مثل الفرنفل(٢٦) ، والدارصينى(٢٧) ، والصندل(٢٨) ، والروانـد(٢٩) ، والزعفـران(٣٠) ، والبنفسـج(٣١) ، والـورد(٣٢) ، والكركريد(٣٣) ولا شك فى أن التوابل كانت فى مقدمة هذه السلع التجارية نظرًا للتوسع فى استخدامها فى تحسين مذاق الأطعمة وحفظها ، فضلاً عن أهمية بعضها فى العلاج الطبى . وترجع أهمية الفلفل إلى تعدد استخداماته فى الأعياد وفى الأفراح . وكانت سفن الرومان تصل بانتظام إلى سواحل الملبار لجلب هذه التجارات وهى مدعومة بأسطول حربى لحراستها . وقد عمت شهرة سواحل الملبار العالم كله لارتباطه بتجارة التوابل منذ العصور القديمة حتى بدايات العصر الحديث حتى أنه أطلق على تلك البلاد اسم (بلاد الفلفل)(٣٤) . وانتقلت سلع وتجارات التوابل إلى بلدان الشرق الأدنى عن طريق مدن سواحل الخليج العربى ، كما تخصص فى هذه التجارات عرب جنوب شبه الجزيرة العربية .

ومن النباتات ذات الأهمية الخاصة والاستخدامات المتعددة ، سواء فى النواحى الغذائية أو الطبية ، الزنجبيل(٣٥) ، والكافور(٣٦) ، وعرق الكافور وهو سائل يسيل من داخل جسم الشجرة ، وكذلك العود الهندى(٣٧) .

ولم تقتصر السلع التجارية الواردة من سواحل الهند الغربية على ما ذكرناه ، بل تعدى ذلك إلى الطيور النادرة والجميلة كالطاووس كبيرة الحجم ذات الألوان الجميلة الزاهية ، والقردة بأنواعها المتعددة ، والفيلة بأحجامها المختلفة(٣٨) .

ونلقى فيما يلى نظرة سريعة على مدن الخليج العربى فى تلك العصور حتى نقف على نشاط السكان فى كل منها ونبدأ من الجنوب :

(١) عمان : كان اسمها (مجان) وأهلها بحارة مهرة ، عملوا فى بناء السفن . وهى مدينة جبلية بها مرسى السفن الآتية من الهند ومن بلاد الزنج (شرق أفريقية) . وليس على بحر الخليج مدينة أجل منها ، وهى ديار الأزد(٣٩) . بها نخل كثير ، وفواكه متعددة . وهى إحدى المراكز الرئيسية للتجارة على الساحل الغربى للخليج العربى . تأتى إليها السفن من البصرة وهى متجهة صوب الهند وسرنديب وشرق أفريقية أو بالعكس . وأهم التجارات فى عمان المعادن وخاصة النحاس ، وكذلك الديبوريت والعقيق والأخشاب . ومن أهم أنواعه، خشب الساج (التك)، وكان يستعمل فى صناعة السفن ، وكانت عمان تستورده من الهند . ومن أنواع التجارات كذلك المنسوجات القطنية ، والأصباغ والحبوب ، والأسماك المجففة والجلود ، والنواشى ، والزيوت والمواد الدهنية ، بالإضافة إلى التوابل والأصداف(٤٠) .

(٢) صحار : قصبة عمان ، وكانت أعمر مدينة وأكثرها مالاً بعمان(٤١) وقد حافظت صحار على مراكزها كميناء عمانى هام للتجارة منذ الوجود الفارسى فى عمان ، إلا أن نشاطها أصبح قاصرًا على التجارة مع المدن وموانئ شمال الخليج العربى خلال القرن الثالث الهجرى (٩م) مما جعلها تحتل دورًا ثانويًا فى تجارات الخليج فى تلك الفترة .

وتشير المعلومات التي أوردها سليمان المهري التاجر ، وأبو زيد الحسن السيرافي أن مراكب صحار كانت تبحر بشحناتها من السلع التجارية إلى سيراف، كما كانت مراكب سيراف التجارية ترسو في مسقط للتزود بالماء والماء(٤٢) وهي في طريقها إلى الهند وسرنديب .

وقد بدأ العصر الذهبي لصحار عندما نالت عمان استقلالها التام عن الخلافة العباسية في بغداد ، حتى أن أساطيل عمان هاجمت البصرة فيما بين عامي ٣٣١/ ٣٤٣هـ / ٩٤٣ - ٩٥٣م ، مما جعل أهالي سيراف يشيدون سوراً منيعًا حول مدينتهم درءًا لهجمات العمانيين .

وقد وصفها المقدسي(٤٣) وصفًا شيقًا متناولاً ما بها من أسواق عجيبة ، ودور شاهقة مبنية من الآجر وخشب الساج ، وسماها دهليز الصين ، وخزانة الشرق . على أن صحار تعرضت لحملة من البويهيين في العراق سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م فخسرت من مراكب التجارة الراسية في ميناتها ٧٩ مركبًا . ولما حاولت سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م أن تستعيد مركزها التجاري الهام أصيبت بضربة أخرى ، واتخذها البويهيون هي وجفار قاعدتين لأساطيلهم .

ومن المؤكد أن مهارة العمانيين في أعمال البحار ساعدت أمراء وحكام مدن الخليج على التوسع البحري في المحيط الهندي ، لأن مراكبهم ظلت تبحر عباب المحيطات والبحار أزمانًا طويلة بعد ذلك .

(٣) قلهات : وصفها ماركوبولو عندما زارها في طريق عودته من ظفار في أواخر القرن السابع الهجري/١٣م ، فقال عن أهلها إنهم يصدرون الخيول العربية إلى الهند . كذلك زارها الرحالة ابن بطوطة (٨هـ/١٤م) فوصفها وذكر أسواقها ومساجدها(٤٤) . ثم زارها الفونسو البوكربرك سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م ووصفها وصفًا جميلاً ، ومما قاله فيها " إن قلهات يصدر منها الخيول والتمور إلى الهند " .

(٤) ظفار : تطل على بحر العرب والمحيط الهندي ، ومن صادراتها إلى الهند الخيول العربية والألبان ، وكانت سفنها تنقل بضاعات وتجارات شرق أفريقية إلى مدن شمال الخليج(٤٥) .

(٥) هرمز : مدينة على الساحل إلى الأمام من رأس جسر يمتد إلى الشرق في مياه الخليج العربي في واجهة بندر عباس ، فهي تتحكم في المدخل الجنوبي للخليج ، لها استراتيجية هامة لأنها تبعد عن الساحل بحوالي ١٢ ميلا(٤٦) زارها المقدسي في أواسط القرن الرابع الهجري / ١٠م فوصفها جيدًا(٤٧) ، كما زارها الأصطخري(٤٨) ووصف مساكنها وأسواقها وعدد تجارتها . كانت هرمز ولا تزال إحدى الموانئ المشهورة والهامة في حوض الخليج العربي ، ترد إليها سفن الهند وسرنديب المحملة بالبضائع والتجارات ، كما ترسو بها السفن العربية التجارية وهي متجهة إلى الهند وبلاد الشرق الأقصى . وقد زارها ياقوت الحموي(٤٩) في القرن السابع الهجري /١٣م ، كما زارها عدد آخر من الرحالة والجغرافيين المسلمين(٥٠) . وسكان هرمز من عرب عمان ، وقليل منهم من الفرس ، وكلهم مسلمون ، وكثير منهم يمتلك سفنًا للتجارة . ومن ضمنهم رجل كان يعرف باسم حسن بن العباس له مراكب كبيرة تسافر إلى الهند والصين .

وتلي هذه المدن التي ذكرناها في عمان مدن أخرى في الاتجاه نحو الشمال الغربي على سواحل إقليم الخليج وهي :

(٦) رأس الخيمة وأم القيوين وعجمان والشارقة ودبي وأبو ظبي وطريف والمرفا والشويهات التي تقع إلى الجنوب الغربي من قطر . وتقع الفجيرة على الساحل الشمالي الغربي لخليج عمان . وتتشابه هذه المدن جميعها في تجاراتها المتعددة وفي زروعها من النخيل وثمار الفواكه وأنواع السفن التي تصنع على سواحل هذه المدن ، وخاصة السفن الكبيرة التي تنقل التجارات إلى الهند ومنها إلى مدن الخليج . وكانت أهم التجارات اللؤلؤ والتمور وبعض أنواع العباءات الجيدة

من صوف الأغنام ، كما كانت تجلب من الهند الأرز والقمح والبهارات والمعادن وجلود الفيل والأخشاب(٥١) . وقد خصصت أسواق للهنود في بعض هذه المدن مثل (أبو ظبي)(٥٢) .

(٧) قطر : شبه جزيرة كبيرة يحيط بها قليل من الجزر الصغيرة ، ولذلك يسميها السعودي جزر قطر(٥٣) ، حاضرتها الدوحة ، ويسميها البلدو (دوحة قطر) . وسميت باسم قطر نسبة إلى ما تصنعه من برود حمراء من الصوف ، كانت تعرف قديمًا باسم (البدع) وهو اسم الحي الذي نزلت به قبيلة السودان (السويدي) التي جاءت مهاجرة من (أبوظبي) ، ولا يزال هذا الحي موجودًا آهلاً بالسكان(٥٤) .

وكانت قطر تابعة للأحساء (هجر)(٥٥) منذ عصر الفتوحات الإسلامية ، ثم استولى البرتغاليون عليها وعلى البحرين وقطيف في سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م وبقيت تحت حكمهم حتى تمكن الأسطول المصري بقيادة سليمان باشا والي مصر آنذاك من طرد البرتغاليين سنة ٩٤٣هـ / ١٥٢٧م في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني(٥٦) .

أما أهم أعمال السكان فتنحصر في صيد اللؤلؤ وتربية الماشية والاتجار فيها، واعتمد الأهالي في معيشتهم على صيد الأسماك . ولا يزال جزء كبير من أهالي قطر يعتمدون على الأسماك في غذائهم لأنها من الأنواع الجيدة ومعتدلة الأسعار . ومع ذلك فهم تجار نشطون وملاحون يعملون في نقل التجارات الداخلية من وإلى البحرين وسيراف والبصرة وعمان . وكانوا يمتلكون عددًا كبيرًا من المراكب للتجارة ولصيد اللؤلؤ ، ولكنهم لم يقوموا بتصنيعها لعدم خبرتهم بهذه الصناعة ، وتركوا أهل البحرين وبعض الفرس يقومون بتصنيع هذه السفن لهم . وكانت معظم تجارات قطر الخارجية ترتبط بالبحرين ، مما جعل الرحالة المسلمين يتكلمون عن قطر من خلال كتاباتهم عن البحرين في العصور الوسطى . والحقيقة أن قطر

حاليًا تغيرت فيها الحياة بكل ما تشمله من جوانب اجتماعية وتجارية وصناعية وثقافية بسبب التطور الحضاري الهائل الذي شمل العالم أجمع بعد الحرب العالمية الثانية .

(٨) البحرين : جزيرة كبيرة على بعد حوالي ٢٥ كم من الشاطئ الغربي للخليج ، تحيط بها مجموعة من الجزر الصغيرة يبلغ عددها ٣٢ جزيرة ، من أهمها " أم نعسان " ، والمحرق والمنامة ، وسترة . يذكر الأزهري(٥٧) أنها سميت البحرين لوجود بحيرة بباطنها ثلاثة أميال وماؤها زعاق ، وهي المعروفة حاليًا بالأصفر ، وتوجد في آخر قرى الأحساء ، وهي مشهورة . ويوجد بالبحرين كثير من العيون العذبة تندفع من قاع مياه الخليج . ويزرع بها نخيل البلح والرمان والأترج وقصب السكر . كانت مستقر القرامطة من آل أبي سعيد الجنابي(٥٨) . وكان اسم هجر يطلق على البحرين وعلى منطقة الهفوف وهي الأحساء الحالية . ومعظم سكان البحرين (أوديون) عرب من قبيلة عبد القيس بن قصي(٥٩) . يصف لنا ابن بطوطة(٦٠) كيف شاهد الغواصين ينزلون إلى قاع البحر في المنطقة الواقعة بين البحرين وسيراف في حوالي أكتوبر في شهري إبريل ومايو حيث يستخرجون اللؤلؤ الذي يصدر إلى الهند وقليل منه إلى الشام ومصر .

(٩) البصرة : أكثر بلاد الدنيا شهرة بالنخيل والتمر . كانت تجارات الهند التي تصب في المدن الجنوبية على ساحل الخليج العربي تأتيها بالسفن الصغيرة المعدة لذلك(٦١)- وكانت هي بدورها تبعث بهذه التجارات إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية(٦٢) .

يصف الجاحظ(٦٣) البصرة بقوله : " العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق .. " .

(١٠) الأبلة : وهو تعريب للاسم اليوناني Apologos لأن تاريخها يرجع إلى عهد الأسكندر الأكبر ، ثم أعيد بناؤها في العهد الساساني ، وظلت قائمة

حتى العصور الإسلامية(٦٤) حيث حظيت باهتمام الخلفاء الراشدين أيام الفتوحات الإسلامية(٦٥) وهي ذات شهرة تجارية منذ العصور القديمة وقد عرفت باسم (فرج الهند ، ثغر الهند)(٦٦) ، ولكن أهميتها قلت بعد بناء البصرة التي حلت محلها(٦٧) . انتهى أمرها إلى التخريب في القرن الثامن الهجري / ١٤م وأصبحت قرية بها بقايا قصور ومباني تدل على بعض سابق عظمتها .

العوامل التي دعمت العلاقات التجارية بين الإقليمين :

ساعد على رسوخ أقدام التجار العرب من أهالي منطقة الخليج في مجال التبادل التجاري مع سواحل غرب الهند عدة عوامل نذكر منها :

(أ) نجاح الهنود في تحقيق انجازات كبيرة في مجال صهر المعادن وتطويعها وتشكيلها ، وخاصة صلب الحديد ، حيث استنبطوا منه نوعًا من الصلب دخل في كثير من صناعات وآلات الحرب وغيرها من الصناعات المدنية ، فتهافتت شعوب الشرق وشعوب حوض البحر المتوسط على الحصول على هذه المصنوعات المعدنية ، وكانت منطقة الخليج العربي هي المجاز والممر الرئيسي لهذه السلع التجارية .

(ب) الوفرة الهائلة في منتجات الهند النباتية والصناعية والحيوانية وغيرها ، حتى زادت عن حاجة الشعب الهندي ، مما تطلب تصديرها إلى بلاد أخرى تحتاج إليها(٦٨) .

(جـ) موقع الهند الجغرافي وقرب سواحلها الغربية من منطقة الخليج العربي، مما مكن تجار هذه المنطقة من الاستئثار بجزء كبير من تجارات الهند وثرواتها بسبب درايتهم بمسالكها ومعرفتهم لسواحلها وخبرتهم بأحوال سكانها وأنواع تجاراتهم.

(د) حذق أهالي إقليم الخليج العربي في تصنيع أنواع متعددة من السفن القوية(٦٩) ، مما ساعدهم على تحدي مخاطر المحيط ، والظفر بهذه السلع وهذه التجارات التي وفرت لهم أموالاً - طائلة وساعدتهم على تطوير نمط الحياة ،

متأثرين بما جلبوه معهم ، وما شاهدوه من عناصر الحضارة والثقافة لشعوب الهند والشرق الأقصى .

(هـ) اتجاه الدولة العباسية نحو الشرق وابتعادها عن مراكز الثقل التجاري الذي كان موجودًا في البحر المتوسط على عهد الأمويين ، وبذلك انتقل مركز الثقل التجاري إلى إقليم الخليج العربي لقربه من حاضرة العباسيين - بغداد - فنشطت الحركة التجارية نشاطًا فائقًا بين الخليج وبين مدن سواحل غرب الهند وسرنديب والصين(٧٠) .

(و) أصبحت التجارة الإسلامية مظهرًا من مظاهر الترف في المجتمع العربي الإسلامي ، وصار التاجر الثري الذي لديه امكانات واسعة في الاتجار وامتلاك السفن وتشغيل أمواله في الجوانب التجارية المتعددة هو ضرورة لجانب الحضارة الإسلامية، هو الجانب الاقتصادي . وكانت نتيجة ذلك ازدياد حركة التجارة بين مدن الخليج والهند ، وازدياد العلاقات التجارية بين الإقليمين ، فكانت سفن الخليج التجارية تبحر من مياه الخليج وهي محملة بالبضائع التجارية المختلفة من بغداد والبصرة والبحرين وعمان متجهة إلى الهند وسرنديب أو إلى أفريقية ، لتعود من هذه البلاد وهي محملة بالبضائع والسلع التجارية تتفرق بها أسواق العالم الإسلامي .

أنواع التجارات :

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من سلع وتجارات متبادلة بين مدن الإقليمين كانت هناك سلع أخرى لها أهميتها في التجارة بين إقليم الخليج ومدن السواحل الغربية للهند ، ومن هذه السلع اللؤلؤ الذي كانت له مكانة في نفوس الناس انعكست صورتها في الأدب العربي . وقد تسمى اللؤلؤ بعدد من الأسماء نذكر منها : اللؤلؤ ، الدرة ، المرجانه ، النطفة ، الصدفية ، الجمانة ، الهجمانه ، الخريدة، الحوصة ، والحصل(٧١) .

ومن أهم مناطق استخراجه سواحل البحرين ، وسواحل عمان . وقد نسبت أنواع كثيرة من اللؤلؤ إلى داريين في البحرين ، وتوام في عمان ، كما يستخرج من سواحل سرنديب (سيلون) وساحل أفريقيا الشرقي(٧٢) .

كذلك يعتبر العنبر سلعة تجارية هامة . ومن أهم مناطق استخراجه سواحل الهند ، وسواحل أفريقيا الشرقية ، وبعض المناطق في ساحل عمان(٧٣) . أما الثروة السمكية فكانت هائلة وكانت تستخرج من مياه المحيط ومياه الخليج . وقد تنوعت أصناف الأسماك الجيدة الأنواع وغدت ذات شهرة عالمية . واشتغل عدد وفير من سكان الإقليمين بحرفة صيد الأسماك وطريقة حفظه وتجفيفه ثم تصديره للمدن المجاورة أو القريبة(٧٤) .

ومن السلع الهامة التي لعبت دورها في التبادل التجاري وتقوية العلاقات بين الخليج والهند - وبخاصة مع عمان - اللبان إذ أنه كان يرتبط بالطقوس الدينية والتعبدية في المعابد قبل ظهور الإسلام وربما بعده . كذلك كانت له أهميته في الحفلات الدينية والاجتماعية وفي قصور الأغنياء ، كما دخل اللبان في علاج بعض الأمراض(٧٥) . ولكن قل استخدامه في العصور الإسلامية ، حتى أخذ يعود إلى الانتشار مرة أخرى في العصر الحديث . وإلى جانب اللبان كانت عمان تصدر كذلك الصمغ العربي والمر .

كذلك لعبت تجارة الأحجار الكريمة وغير الكريمة دورًا بارزًا في تجارات الهند التي تصدرها إلى إقليم الخليج وإلى بلدان الشرق الأدنى بصفة عامة . ومن هذه الأحجار (حجر الإثمد) وهو يفيد في حالات سقوط الشعر كما أنه يقوي البصر ، و(حجر أورسون) - ويستخدم في عمل الكحل الذي تكتحل النساء به ، و(حجر أسفيداج) ويفيد في حالة الحروق و(حجر أفرنجش) وهو مسكن لألم الأورام ، و(حجر بسند) ويفيد في حالة احتباس البول و(حجر البورق) ويفيد في حالة مرض الجرب والبرص ، و(حجر تنكار) وهو من نوع الملح ويفيد في حماية

الأسنان وتسكين أوجاعها و(حجر التوتيا) ويفيد العيون ، و(حجر العاج) ويفيد في حالات القروح والجراحات(٧٦) . وكان لحجر التوتيا ألوان متعددة فمنه الأبيض ، والأصفر والأخضر . وترتبط هذه الأحجار بسواحل مليبار وجوجرات(٧٧) .

أما الياقوت فكان يستخرج من سواحل سرنديب ، وقد سميت (جزيرة الياقوت) لشهرتها به(٧٨) . وللياقوت أنواع كثيرة ، فمنه الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق ، ولكل نوع خواصه ، وإن كانت تشترك جميعها في الصلابة والإشعاع ، ولكنها تختلف في الأحجام . وقد استخدم الياقوت في علاج بعض الأمراض ، فهو يفيد في منع النزيف إذا وضع على المكان الذي ينزف الدم منه(٧٩) .

وكان الماس من أهم السلع التي ارتبطت بالأساطير والحكايات وتعددت استخداماته في الحلي وترصيع السيوف والخناجر والقلائد . وكان تجار الخليج العربي خبراء في تجارته ، ونقله من سرنديب وسواحل غرب الهند إلى منطقة الشرق الأفريقي الأدنى(٨٠) .

وكان للمعادن إهمية كبرى في عمليات التبادل التجاري على مر العصور التاريخية . ومن أهم هذه المعادن النحاس الذي كان يستخرج من سواحل عمان بكثرة ، وكان يصدر إلى بلاد الرافدين(٨١) ، كما كان يستخرج من سواحل مليبار التي اشتهرت بالصناعات النحاسية التي نالت تقديرًا عاليًا من التجار العرب(٨٢) .

ومرة أخرى نعود إلى الحديد لنؤكد أهميته في العلاقات التجارية بين الإقليمين ، فقد دخل الحديد في كل استعمالات النواحي الصناعية تقريبًا وخاصة الصناعات الحربية ذات الشهرة مثل السيف المهند (أي الهندي) . ونحن نستدل على أهمية هذا المعدن بما جاء له من ذكر في عدد من آيات القرآن الكريم .

وعلى الرغم من شهرة الهند بصناعة السيوف إلا أن معدن الحديد كان يأتيها من شرق أفريقيا (سواحل بلاد الزنج)(٨٣) . وكان للتجار العرب دورهم في نقل خام الحديد من سواحل شرق أفريقية إلى الهند ، كما نقلوا منتجاته من الهند إلى عدد من بلدان منطقة الخليج العربي حيث نقل منها إلى بلدان منطقة الشرق الأدنى(٨٤) .

وقد احتل الذهب كذلك مكانة عظيمة بين السلع المعدنية في تجارات ساحل الهند الغربي مع منطقة الخليج العربي ، فقد اشتهرت الهند بأنها منطقة تخزين الذهب ، وسمي ثغر السند (ثغر الذهب)(٨٥) . ومع أن الذهب عرف في مناطق أخرى قديمة مثل أفريقيا إلا أن الهند كانت قد وصلت إلى درجة عالية من التقنية في صهره وصياغته وتشكيله ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة العالية حتى أوائل العصور الإسلامية(٨٦) .

أما الفضة فكان استعمالها أكثر من الذهب ، وخاصة في الحياة اليومية ، ولذلك كان ينقل منها إلى منطقة الخليج ومنطقة الشرق الأدنى كميات كبيرة ، كما استخدمت الفضة في دفع الفدية لمن وقعوا في الأسر في الحروب . وكان العرب يفضلونها على الذهب كثيرًا . وقد أطلق العرب عليها أسماء : الصريف ، والصوليّ ، واللجيني . وجاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله "(٨٧) وفي قوله تعالى : " ويطاف عليهم بآنية من فضة " ، " قواريرا من فضة "(٨٨) .

وكانت الأخشاب على درجة عظيمة من الأهمية لأهل الخليج العربي ، لأنهم استعملوها في صناعة السفن - تجارية وحربية(٨٩) - وفي بناء المنازل وأسقف الأسواق وغيرها . ومن أهم أنواع الأخشاب المستوردة من الهند خشب الساج (التك)(٩٠) الذي يتميز بصلابته الشديدة وقوة تحمله للملوحة الشديدة في مياه المحيطات والبحار ، ومقاومته للتآكل والأكسدة والنحل الأبيض وتقرر أخيرا

التقنية الحديثة أن هذه النوعية من الأخشاب أفضل كثيرًا من أخشاب شمال العراق وجبال لبنان ، ولذلك أصبحت سواحل غرب الهند وجزر المحيطات(٩١) التي تقع أمام سواحلها الجنوبية أهم منطقة لتصدير الأخشاب الساج إلى إقليم الخليج وإلى بلاد الرافدين(٩٢) .

انتشار الإسلام واللغة العربية :

وقد نجم عن نشاط العلاقات التجارية بين سواحل غرب الهند وتجار منطقة الخليج العربي أن تأثرت شعوب الإقليمين كل بحضارة الجانب الآخر ، فنقل تجار الخليج كثيرًا من عناصر حضارات الهند في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة ، كما نقل الهنود كثيرًا من عناصر حضارة الإسلام في مجالاتها المتعددة ، خصوصًا بعد أن استقرت الجاليات العربية في بعض مناطق الهند ونشروا الدين الإسلامي ، فكان لابد للهنود من الوقوف على مبادئ الدين الجديد(٩٣) وأحكامه وقواعده حتى يتفقهوا فيه ويطبقوا أحكامه . وصحب ذلك تعلمهم اللغة العربية التي انتشرت مع انتشار الإسلام . وقد ساعد على هذا الانتشار عملية التزاوج بين العرب المسلمين والهنديات ، بعد ما وقف سكان الأقاليم الساحلية على عدالة هذا الدين الجديد ومبادئ المساواة والإخوة التي يتعامل بها التجار المسلمون مع بعضهم البعض وكذلك مع الهنود . وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة التجارة والأعمال في شمال المحيط الهندي منذ القرن الثاني /٨الميلادي(٩٤) .

ونتيجة لانتشار اللغة العربية في الهند تأثرت بها بعض اللغات السائدة في غرب الهند ، فاقتبست الكثير من الكلمات والتعبيرات العربية ، بل لقد كتب الهنود هذه اللغات بخط عربي ، ومن أهم هذه اللغات :

(أ) اللغة الأوردية : وهي منتشرة في منطقة جوجيرات والسند وبها الكثير من المصطلحات والمفردات العربية(٩٥) .

(ب) اللغة السندية : وتسود في جنوب السند . ويقول المقدسي عنهم (كلامهم سندي عربي)(٩٦) .

(جـ) اللغة البلوشية : وتنتشر في إقليم بلوشستان وغرب السند ومكران(٩٧) وقد حملت الكثير من المفردات العربية التي نقلها إليهم تجار الخليج العربي .

ويقدم لنا الرحالة المسلمون صورًا واضحة عن مدى التأثير الإسلامي في سواحل الهند الغربية عند حديثهم عن سلطنه هنور وأميرها المسلم السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، وعند التواجد الواضح للتجار العرب وتأثيرهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في هذه المناطق(٩٨)سواء في مليبار أو جوجيرات .

ونتيجة لهذا التأثير ظهرت جموع من العلماء الهنود أسهموا بفكرهم في العلوم العربية مثل علم الاشتقاق والنحو والصرف(٩٩) وغيرها . وكتاب الفهرست لابن النديم يضم العديد من أسماء هؤلاء العلماء .

ومن الأدلة الواضحة حاليًا على تأثر أهل السواحل الغربية للهند بالعربية وجود جمعيات هندية لعلماء من الهنود تعمل على استمرار وانتشار اللغة العربية وتصدر مؤلفاتها وبحوثها بهذه اللغة . ومن أهم هذه الجمعيات : " جمعية العلماء لعموم كيرالا " التي تأسست سنة ١٩٢٠ ، " وجمعية المعلمين المركزية " وهدفها الحفاظ على اللغة العربية . هذا فضلاً عن وجود كليات جامعية تدرس باللغة العربية مثل الكلية السعدية ، والجامعة النورية ، وكلية العلوم وهيئة العلماء في مليبة لكنهو في شمال الهند التي تصدر دورياتها باللغة العربية(١٠٠) .

وهكذا يبدو تأثير الحضارة الإسلامية بكل جوانبها في كثير من جوانب الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة .

الحواشي والتعليقات

(١) المليباري :

تحفة المجاهدين ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٣٠ ، ٣٣ – ٣٤ وكذلك

الندوي :

الهند القديمة ، ص٢٦٨ .

(٢) المباركبوري :

رحال السند والهند إلى القرن السابع ، القاهرة ١٣٩٨ هـ ، ص٤٢ .

(3) Growtber, In Ency. India, P. 668 .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٧٠ .

(٥) المليباري : مرجع سابق ، ص٣٠٩ .

(٦) ج حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص٨٤ .

(٧) شوقي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ص١٩٠.

(٨) ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، ص١٠٦ .

(٩) ابن سعيد المغربي : نفس المصدر ، ص١٠٥ – ١٠٦ ؛ والمليباري : مرجع سابق ص١٢٠هـ ، ص١٩٨ – ١٩٩ .

(١٠) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ، ص٦٩ – ٧٠ .

(١١) ابن سعيد المغربي : نفس المصدر ، ص١٠٥ .

(١٢) ج حوراني : العرب والملاحة ، ص٨٤ .

(١٣) شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لايبزيج ، ص٩٠.

(١٤) وردت هذه التسمية في الكورة في عدة مواضع / العهد القديم – سفر الملوك الأول .

" تعد حضارة دلمون في البحرين من أقدم الحضارات (الألف الثالث ق.م) التي كان لها أثرها على مدن الساحل الغربي لمنطقة الخليج العربي . وقد سميت هذه الحضارة بعدة أسماء منها : تايلوس ، أراخوس في العصر اليوناني ، أوال في العصر الساساني ، واستمرت هذه الحضارة تلعب دورها الهام في العصور التالية بعد ذلك . راجع سليمان مصطفى الهاجو : منطقة الخليج العربي ، ص١٠٩ .

(15) Wheeler, M.; Early India and Pakistan, London, 1968 P.110

(١٦) عبد العزيز الشمر : تاريخ المسلمين في الهند ، بيروت ١٩٨١ ، ص١١١.

(١٧) ياقوت : المعجم ، ج١ ص٤٠٤ .

(١٨) نعيم زكي : طرق التجارة وخطاتها بين الشرق والغرب ، ص١٧١.

(١٩) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٧١ ، ٤٦٣ .

(٢٠) موريس لمبارد : الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ، (مترجم) ، دمشق ، ص٢١٢ .

(٢١) أندريو واطسون : الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي (مترجم) ص١٧.

(٢٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ج٢ ، ص٢٤٩ .

(٢٣) القزويني : عجائب المخلوقات ، بيروت ، ص٢٥٧ .

* أندريو واطسون : الإبداع الزراعي ، ص١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٤) بدر الدين الصيني : العلاقات بين العرب والصين ، ١٧ ، ١٨ .

(٢٥) أندريو واطسون : مرجع سابق ، ص١١٤ ، ١٢٢ .

(٢٦) ابن سينا : القانون في الطب ، ص٢٦٤ ، ومن فوائد القرنفل أنه يحد البصر ويقوى المعدة .

(٢٧) راجع فوائد الخلوصيتي في ابن سينا: المرجع نفسه، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢٨) المسعودي : أخبار الزمان ، ص٤٦ ، ومن فوائد الصندل علاج الصداع والحمى .

(٢٩) يفيد الورد في تنقية الجروح والقروح وعلاج البرد ، ابن سينا : نفسه ، ص٨٥ .

(٣٠) من فوائد الزعفران أنه يجلو البصر ، ويدر البول ، ابن سينا : نفسه ، ص٨٠ .

(٣١) البنفسج يفيد في تسكين الألم والأورام ، ومسكن لآلام الكلى ابن سينا : نفسه، ص١٠٣ - ١٠٤ .

(٣٢) والورد مسكن للصداع ويشد اللثة ويفيد للكبد ، ابن سينا ، نفسه، ص٧٢.

(٣٣) الكركدية تخفض لضغط الدم ومهدئ للأعصاب ويقوى القلب ، أبو زيد النباتات والأعشاب الطبية ، ص٤٣٨ .

(٣٤) الليباري : مرجع سابق ، ص٣٣ وما بعدها .

(٣٥) من فوائد الجنزبيل يجلو البصر ويفيد الكبد والمعدة ، وهو عبارة عن عروق في الأرض ، ابن الوردي : خريدة العجائب ، ج٢ ص٢٢٠ .

(٣٦) يفيد الكافور في علاج الحمى والرمد وحصوة الكلى والمثانة وفي الصداع ايضا، ابن البيطار : الجامع للمفردات الأدوية ، ج٤ ، ص٤٢ - ٤٣ .

(٣٧) ابن سينا : مرجع سابق ، ص١٤٤

(٣٨) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص٣٤٣

(٣٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٥٥

(٤٠) عمان : عمان وتاريخها البحري ، ص١٦

(٤١) المسعودي : مروج ، ج١ ، ص١٤٩

(٤٢) المسعودي : نفس المرجع والصفحة .

(٤٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٩٢

(٤٤) الرحلة ، ص٢٧٠ ، ٢٧١

(٤٥) عمان : عمان وتاريخها البحري ، ص٤٢ - ٤٣

(٤٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٧٣

(٤٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٤٦٦

(٤٨) الأصطخري المسالك ، ص٩٩

(٤٩) ياقوت : المعجم ، ج٥ ، ص٤٠٢

(٥٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٥٤

(٥١) القزويني : آثار البلاد ، ص٢٠٤ ، نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب ، ص٤٨

(٥٢) ج . لوريمر : دليل الخليج ، ج٢ ، ص٥٢٤

(٥٣) مروج الذهب ، ج١ ، ص١٠٧ - ١١٢

(٥٤) ياقوت : المعجم ، ج٤ ، ص٣٧٣

(٥٥) هي الآن جزء من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية ، وكانت هي والبحرين تعرف باسم (هجر) الباحث .

(٥٦) تحفة المستفيد ، ق١ ، ص٢٤

(٥٧)

(٥٨) ياقوت : المعجم ، ج٤ ، ص١٥٠

(٥٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٩٣

(٦٠) الرحلة ، ص٢٧٩ - ٢٨٠

(٦١) القزويني ، آثار البلاد ، ص٣٠٩

(٦٢) أحمد الشامي : العلاقات التجارية ، ص١٢ ، ١٤ ، ٢٥

(٦٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص١ - ٢ ، واليعقوبي في كتاب البلدان ، ص٣٢٠ ، وناصر خسرو سفرنامة ، ص٩٥

(٦٤) أرنولدولسون : الخليج العربي ، ص١٢٧

(٦٥) الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص٣٤٣ ، ٣٤٧ ، وأحمد الشامي : الخلفاء الراشدون ، ص٩٠ ، ١٧٣

(٦٦)

(٦٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٨٩

(٦٨) ابن الوردي : خريدة العجائب ، ج٢ ، ص٢٢٠

(٦٩) أحمد الشامي : صناعة السفن ، بحث منشور بمجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

(٧٠) أحمد الشامي ، العلاقات التجارية ، ص٢٦

(٧١) فالح حنظل : معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي ، ص٤ ، ٨

(٧٢) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص٧١

(٧٣) القزويني : عجائب المخلوقات ، ص٤٨١

(٧٤) المسعودي : مروج ، ج١ ، ص١١٠ - ١١١ ، ومحمد قرنفل : العلاقات بين الهند وسواحل الخليج ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص١٢٠

(٧٥) الغساني : خلفاء أرض اللبان ، ص٣٢ ، ٧٧

(٧٦) ابن سينا : القانون في الطب ، ص١٣٤ ، ١٤٨ ، ٢١٠ ، وكذلك البيروني : كتاب الجماهر ، ص٢١٢ وما بعدها .

(٧٧) القزويني : عجائب المخلوقات ، ص١٨٦ ، ١٨٨

(٧٨) البلاذري : فتوح البلدان ، جـ٣ ، ص٥٤٣ ، وابن بطوطة : الرحلة ، ص٣٩٦

(٧٩) البيروني : كتاب الجماهر ، ص٤٤

(٨٠) شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص٦٦ ، المسعودي : أخبار الزمان ، ص٥٠

(٨١) محمد متولي وأمير العلا محمود : جغرافية الخليج العربي ، ص٩٢

(٨٢) شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص٥٤ ، ولا تزال مدن سواحل الليبار وخورخيرات تتمتع بشهرة عالمية في الصناعات المعدنية .

- ن الحج / ٢١

(٨٣) لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، ص٢٣٤

(٨٤) عبد الرحمن زكي : السلاح في الإسلام ، ص٣٤ - ٣٥

(٨٥) البلاذري : فتوح ، ج٣ ، ص٥٣٨

(٨٦) أشتور : التاريخ الاقتصادي ، ص١٠١

(٨٧) سورة التوبة / ٣٤

(٨٨) سورة الإنسان / ١٥ - ١٦

(٨٩) أحمد الشافعي : الغرب وتركيبه البحر وصناعة السفن وأنواعها ، بحث منشور في مجلة اتحاد المؤرخين العرب / ندوة انجازات الحضارة الإسلامية في عالم البحار نوفمبر ١٩٩٣

(٩٠) أحمد الشافعي : العلاقات التجارية ، القاهرة ١٩٦٧

(٩١) هي الجزر المرجانية الحالية وتقع في جنوبها جزر المالديف التي تشكل جمهورية المالديف الإسلامية .

(٩٢) يوسف الحجي ، رحلة الغزير ، الكويت ١٩٨٥ ، ص٣٥٢

(٩٣) حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا ، ص٢١٩

(٩٤) لومبارد : الجغرافيا التاريخية ، ص١٢٩

(٩٥) إسماعيل العربي : الإسلام والتيارات الثقافية ، ص١٣٠

(٩٦) أحسن التقاسيم ، ص٢٦١

(٩٧) محمود فهمي حجازي : المدخل إلى علم اللغة ، ص١٨

(٩٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٥٦٠ ، ٥٧٠ ، ٥٨٠

(٩٩) عبد الحي الحسني : الثقافة الإسلامية في الهند ، دمشق ١٩٨٣ ، ص٢٧ - ٣١

(١٠٠) الندوي : مرجع سابق ، ص١٩٧ ، للنيباري : مرجع سابق ، ص٩٣ - ٩٥

مصادر ومراجع البحث

(١) القرآن الكريم .

(٢) الكتاب المقدس / العهد القديم (التوراة) .

(٣) ابن بطوطة : عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٩٩هـ / ١٣٦٩م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار بيروت ١٩٨٧

(٤) ابن البيطار : عبد الله بن أحمد (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، مصر ، ١٨٧٤م

(٥) ابن حوقل : أبو قاسم محمد النصيبي (ت٣٨٠هـ/٩٩٢م) صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت .

(٦) ابن سعيد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى (ت٦٧٧هـ/١٢٩١م) كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت ١٩٧٠

(٧) ابن سينا : أبو علي الحسين بن عبد الله (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) القانون في الطب ، شرح حيران حبور ، المعارف ، بيروت ١٩٨٦

(٨) ابن الوردي : سراج الدين أبو حفص عمر : خريدة العجائب وفريدة الغرائب (جزءان) القاهرة ١٨٩٦

(٩) أبو المعالي أطهر المباركبوري – القاضي الهندي

– رجال السند والهند في القرن السابع (جزءان) دار الأنصار ، القاهرة ١٣٩٨هـ.

– العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت ، الهيئة المصرية ١٩٧٣

– الفتوحات الإسلامية في الهند أو العقد الثمين في فتوح الهند . الحميدية ١٩٦٨

(١٠) أحمد الشافعي (دكتور)

– العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى ، النهضة المصرية ١٩٧٨

– الخلفاء الراشدون ، النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٢

– العرب وركوب البحر وصناعة السفن ، بحث منشور في مجلة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ١٩٩٣

(١١) الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محسب بن عبد الله (ت٥٨٤هـ/ ١١٥٣م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت (بلون) .

(١٢) إسماعيل العربي : الإسلام والتيارات الثقافية في شبه القارة الهندية – الدار العربية للكتاب ، طرابلس ١٩٨٥

(١٣) الأصطخري : أبو إسحق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي (ت٣٤١هـ/ ٩٥٢م) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١

(١٤) أندريو واطسون : الإبداع في بدايات العالم الإسلامي ، بيروت (...) .

(١٥) أنور عبد العليم (دكتور) : ابن ماجد الملاح ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧

(١٦) بدر الدين حي الصيني : العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة (النهضة المصرية) ١٩٥٠

(١٧) البكري الأندلسي : عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) المسالك والممالك ، تحقيق عبد الله الخيم ، الكويت ١٩٧٧

(١٨) البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦

(١٩) البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) .

– الآثار الباقية عن القرون الخالية ، مكتبة المثنى ، بغداد (بلون)

– كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، عالم الكتب ،

ط . ثالثة ، بيروت ١٩٨٤ – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، بيروت ١٩٨٣

(٢٠) الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) كتاب التبصر بالتجارة ، الرحمانية ، مصر ١٩٣٥

(٢١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج والقسم الجغرافي ٧ مجلدات " الدوحة ، قطر (بدون) .

(٢٢) جورج فضلو حوراني (دكتور) : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ترجمة د / يعقوب بكر ، بدار الكتاب ١٩٥٨

(٢٣) حسن أحمد محمود (دكتور) : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ، الفكر العربي (بدون) .

(٢٤) سليمان سعدون البدر (دكتور) : منطقة الخليج العربي ، الكويت .

(٢٥) السير أرنولد ولسون : الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت (بدون) .(٢٦) السيرافي : سليمان التاجر (ت٢٣٧هـ / ٨٥١م) رحلة السيرافي إلى الهند والصين وأندونيسيا ، نشر على البصري دار الحديث ، بغداد ١٩٦١

(٢٧) الشحات نصر أبو زيد (دكتور) : النباتات والأعشاب الطبية ، الدار العربية ، القاهرة ١٩٨٨

(٢٨) شوقي عثمان (دكتور) : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٩٠

(٢٩) شيخ الربوة : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، ليبزج ١٩٢٣

(٣٠) الطبري : محمد بن جرير (ت٣١٠هـ / ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك (١٠ أجزاء) المعارف بالقاهرة ١٩٦٤ - ١٩٧٠

(٣١) طه الحاجري (دكتور) : كتاب الصين ، المعارف بمصر ، (بدون) .

(٣٢) عبد الحي الحسني : الثقافة الإسلامية في الهند ، بمجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٣

(٣٣) عبد الرحمن زكي (دكتور) : السلاح في العالم الإسلامي ، دار الكتاب العربي ، مصر (بدون) .

(٣٤) عبد الفتاح إبراهيم : الطريق إلى الهند ، مطبعة الأهالي ، بغداد ١٩٣٥

(٣٥) عبد المنعم النمر (دكتور) : تاريخ المسلمين في الهند ، بيروت ١٩٨١

(٣٦) عمان (وزارة التراث) : عمان وتاريخها البحري . (بدون) .

(٣٧) القزويني : زكريا بن محمد محمود (ت٦٨٢هـ / ١٢٣٨م)

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، الحلبي مصر ، ١٩٥٦

- آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠

(٣٨) القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي أحمد (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤

(٣٩) ماركوبولو : (ت٦٩٢ / ١٢٩٢م)

- ماركوبولو مغامراته واستكشافاته " رشارد جي ولشي " ترجمة حسين حسين الياسي مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٥٩

- رحلات ماركوبولو ترجمها للإنجليزية وليم مارسدن ، ونقلها للعربية عبد العزيز جاويد الهيئة المصرية ، القاهرة ١٩٧٧

(٤٠) محمد إسماعيل الندوي :

- الهند القديمة ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠

- تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، بيروت (بدون)

(٤١) محمد قرقش (دكتور) : العلاقات بين بلاد المليبار وحوحيرات وبين سواحل الخليج العربي رسالة دكتوراه غير منشورة (١٩٩٣)

(٤٢) محمد متولي (دكتور) ، أبو العلا محمود (دكتور) جغرافية الخليج العربي ، الفلاح ، الكويت ١٩٨٢

(٤٣) المسعودي : أبو الحسن علي بن حسين بن علي (ت٣٤٦هـ / ٩٥٧م)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين ، المصرية ، بيروت ١٩٨٨
- أخبار الزمان ، دار الزمان ، بيروت (بدون) .
(٤٤) المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد : (ت٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار التراث ، بيروت ١٩٨٧
(٤٥) المليباري : أحمد زين الدين المعبري (ت٩٩١هـ / ١٥٨٣م) تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، تحقيق محمد سعيد الطويحي ، دائرة المعارف الهندية ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥
(٤٦) ناصر خسرو : أبو معين الدين (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م) سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠
(٤٧) نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة وحطاتها بين الشرق والغرب في نهاية العصور الوسطى الهيئة المصرية ، القاهرة ١٩٧٣
(٤٨) نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب ، دار الكتاب ، بيروت ، ١٩٦٢
(٤٩) ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
(٥٠) اليعقوبى : أحمد بن يعقوب بن واضح (ت٢٨٤هـ / ٨٩٧م)
- كتاب البلدان ، التراث ، بيروت ١٩٨٨
- كتاب اليعقوبى ، بيروت (بدون) .
(51) Crowther, India " In Encyclopedia of India ".
(52) Early India and Pakistan, London, 1963.

الدولة القرمطية فى البحرين

(تأسيسها - نظمها الإدارية ونشاطاتها العسكرية)

أ.د. سهيل زكار*

حظى تاريخ قرامطة البحرين والأحساء بعناية كبيرة من قبل الباحثين فى عصرنا إلى حد أن تاريخ القرامطة بات بالنسبة لبعضهم هو تاريخ قرامطة البحرين ولهذا أهملوا تاريخ قرامطة الأحساء والبحرين .

وكان من أوائل من اهتم بهم اهتمامًا زائدًا المستشرق الهولندى دى خويه ودفع هذا الاهتمام للمستشرق البريطانى برنارد لويس إلى القول : " وتاريخ هذه الطائفة الظاهرى معروف إلى حد ما ، وليس لدينا إلا شئ قليل نستطيع أن نضيفه إلى دراسات دى خويه فى هذا الموضوع(١) ، وركز لويس جهوده على تحقيق علاقة هذه الطائفة بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية فأثبتها من حيث الأصول والبدايات " .

وترتبط بدايات الدعوى القرمطية بالبحرين بالحركة القرمطية فى سواد الكوف أيام حمدان بن الأشعث وعبدان أى ببدايات ظهور القرامطة تاريخًا ، ففى تلك الحقبة جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها ، وكان على رأس هذه القبائل عقيل وكلاب من قبائل عامر بن صعصعة(٢) . ومن المرجح أن اسم هذا الداعية كان " أبو زكريا يحيى بن على الطعامى " ويرجح أن انفاذ هذا الداعية كان سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م ، ثم لحق بعد أمد بأبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى، ويلاحظ أن هذا قد تم بعد القضاء على ثورة الزنج فى سواد البصرة نهائيًا، وبالتالى استرداد بغداد لقسط كبير من عافيتها وقوتها ، ذلك أن قائد الجيش بات عباسيًا وليس واحدًا من الغلمان الترك .

---

* أستاذ بكلية الآداب - جامعة دمشق

والتوجه نحو البحرين كان من دوافعه أنها منطقة خليجية خاضعة للمؤثرات القادمة من البصرة ، فيها قبائل كثيرة ، فمما لا شك فيه أن الدعوة القرمطية قد استغلت فرصة القضاء على ثورة الزنج وأرادت استغلال التشيع الذى انتشر بين قبائل الخليج ، وهذا قد يساعد على فهم وتعليل سرعة الاستجابة التى لقيها الطمامى أولاً ثم الجنابى بعده .

لقد قام الجنابى بتصفية الطمامى ، فبعدما عطلة عن النشاط الدعوى قتله ، ويمكن أن نرى فى هذا الإجراء خطوة علمت بداية التمرد على دعوة العراق ، ويرجح أن هذا قد حدث بعد استيلاء زكرويه من مهرويه على مقاليد هذه الدعوة وتصفيته لكل من عبدان وحمدان بن الأشعث(٣) ، الأمر الذى كان له أبعد الآثار على أبى سعيد الجنابى وخططه المستقبلية .

بدأ أبو سعيد نشاطه فى منطقة بلدة هجر قصبة البحرين ولقى هناك معونة عشيرة قوية عرفت ببنى سنبر ، وتحالف أبو سعيد مع هذه العشيرة ، وكان قوام هذا التحالف وقواعده : القيادة لأبى سعيد ، والمشورة (الوزارة) لآل سنبر واستمر العمل بهذه القاعدة بعدما أفلح أبو سعيد فى تأسيس دولة قرمطية فى البحرين فقد كانت السيادة فى هذه الدولة لآل أبى سعيد والوزارة لآل سنبر وفق خطة محكمة .

لاتمتلك أدنى معلومات عن قيام إمامة الدعوة الإسماعيلية بمراسلة أبى سعيد أو توجيهه ، ومرد هذا إلى ماحل ببيت الإمامة فى السلمية فى الشام ، بسبب نشاط قرامطة الشام بزعامة صاحب الخال الذى أدعى الإمامة ولقب نفسه بالمهدى ، ودفع نشاط صاحب الخال بيت الإمامة بالسلمية إلى هجر هذه البلدة ، حيث سافر اثنان معه نحو الرملة، فمصر فالمغرب ، وهما : عبد الله المهدى المقبل، مؤسس الخلافة الفاطمية ، ومحمد القائم الذى سيكون ثانى خلفاء الفاطميين .

وليس من المستبعد - لابل من المرجح - أن نوعًا من الاتصالات قد جرى بعد قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية ، لكن ليس المهم هنا قيام هذه الاتصالات ، بل هو أن الدعوة فى البحرين نشأت مستقلة عن التوجيه الإسماعيلى ، والمثير للانتباه أن أبا سعيد لم يستغل هذه الاستقلال استغلالاً شخصيًا ، بأن يدعى النسب العلوى ، كما فعل زعيمًا قرامطة الشام ، ويعلن نفسه إمامًا ، كما فعلاً ، أو يعلن عن نفسه مهديًا من دون هذا النسب كما فعل على بن الفضل فى اليمن.

لقد اكتفى أبو سعيد باتخاذ لقب " سيد " وسار فى أتباعه سيرة " ديموقراطية " فكان على درجة عالية من التواضع وهكذا كان أولاده من بعده ، وركز جهوده الدعوية ونشاطاته الحربية ، وأوقفها أولاً على أعمال الاستيلاء على هجر ، فقد أقام مقربة منها بلدة الأحساء واتخذها قاعدة له ، وعندما تمكن من هجر دمرها ، ونقل من أطاعة من أهلها إلى الأحساء التى غدت الآن عاصمة الدولة لم يعرف تاريخ الخليج وشبه جزيرة العرب ، بل بلاد العرب مثيلاً لها .

لقد أنشأ أبو سعيد مجتمعًا جديدًا ، أساسه خطة تجربة حمدان قرمط فى سواد العراق حين أمر بإلغاء الملكية الخاصة ، وأحل محلها الملكية الجماعية العامة ، ودعا ذلك باسم " الألفة " : وهى أنهم يجمعون أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة ، لايفضل أحد من أصحابه على صاحبه ، ولا أخية فى ملك يملكه البتة ... وقال لهم : لا حاجة بكم إلى الأسواق ، فإن الأرض بأسرها ستكون لكم دون غيركم ... وأقام فى كل قرية رجلاً مختارًا من الثقات ، فجمع عنده أموال قريته من غنم ، وبقر ، وحلى ، ومتاع ، وغير ذلك ، فكان يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم ، حتى لم يبق بينهم فقير ولامحتاج ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش فى صناعته ، والكسب بجهده ، ليكون له الفضل فى رتبته، وجمعت المرأة إليه كسبها من مغزلها ، وأدى إليه الصبى أجرة نظارته وحراسته ونحوه ، ولم يبق فى ملك أحد منهم غير سيفه وسلاحه لاغير(٤) .

وعلى قاعدة الداعية حمدان ، قام أبو سعيد الجنابى فى البداية بجمع صبيان أتباعه : " فى دور ، وأقام عليهم ما يحتاجون إليه ، ورسمهم لئلاّ يختلطون بغيرهم، ونصب لهم عرفاء ، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان ، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعًا لهم " .

بوساطة هؤلاء عندما غدوا رجالاً أمن الجنابى البنية الأساسية لدولته والعمود الفقرى لنظامه ومجتمعه ، ويلاحظ هنا أن الجنابى لم يبدع هذه الطريقة ، بل استعارها وطورها ، فهى أساس تجربة المعتصم من الغلمان الأتراك ، وكانت أيضًا مطبقة بشكل رائع فى ثغور بلاد الشام لاسيما فى مدينة طرسوس وسيستعير هذه التجربة عبد المؤمن بن على بعيد تأسيسه لدولة الموحدين فى المغرب الأقصى .

لقد ألغى أبو سعيد الجنابى - كما فعل حمدان من قبل - الملكيات الخاصة: " وقبض كل مال فى البلد ، والثمار ، والحنطة ، والشعير ، وأقام رعاة للإبل والغنم ، ومعهم قوم يحفظها ، والتنقل ، معها على نوب معروفة ، وأجرى على أصحابه جرايات فلم يكن لأحد غير ما يطعمه ، وتبعًا لهذا اتخذ إجراء بإلغاء الضرائب ، وتأمين الحاجيات " للمواطنين " بالتبسطاس المستقيم ، ولم تعد هناك حاجة إلى النقود الذهبية والفضية ، وقد اكتفى الناس بالتعامل بنقود وخاصة من الرصاص ، وكان هذا بين الإجراءات التى اتخذت للحفاظ على الثروة العامة "والرأسمال الوطنى " .

لقد أقام الجنابى مجتمعًا " اشتراكيًا عسكريًا " من الطراز الأمثل بشكل لم تعرف له سابقة من قبل ، فقد أوقف وقته كله " على جمع الخيل ، وإعداد السلاح ، ونسج الدروع والمغافر ، واتخاذ الإبل ، وإصلاح الرحال ، وضرب السيوف والأسنة ، وباتخاذ الروايا والمزاود والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية ، طرد الأعراب من قريته ، وسد الوجوه التى يتعرف منها أمر بلده ، وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضى المزارع ، وأصول النخل وإصلاح مثل هذه الأمور

وتفقدها ، ونصب الأمناء على ذلك ، وأقام العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم ، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ويجز الصوف والشعر من الغنم ، ويفرقه على من يغزله ، ثم يدفعه إلى من ينسجه عبيًا وأكسية وغرائر وجوالقات، ويغتل منه حبال ، ويسلم الجلد إلى الدباغ ، ثم إلى خرازى القرب والروايا والمزاود ، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفًا عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن .

فكان ذلك دأبه لا يغفله ... فزادت بلاده وعظمت هيبته فى صدور الناس.

ولم يبن الجنابى فى بلدته المساجد ، كما لم يقم بها صلاة الجمعة ، وعلى هذا لم تعرف دولته الدعوة لخليفة أو إمام ، فهو حين أنشأ دولته لم تكن الخلافة الفاطمية قد قامت ، وكان هو بالأساس معاديًا للخلافة العباسية .

ويلاحظ أن " مواطنى " دولة الأحساء عاشوا مع نظامها ، وتعايشوا بكل إخلاص وانسجام .

وهذا مبنى على أساس أن الأخبار لم تورد أية حوادث تمرد أو فتن داخلية ، وعاش هذا النظام طويلاً ، وهذا ما نلاحظه فى وصف الأحساء لدى ناصر خسرو الذى زارها بعد ما يزيد على القرن ونصف القرن من تأسيسها .

لقد كانت دولة القرامطة هذه دولة " محاربين عقائديين " وقد احتاجت إلى الخدمات العامة ، وهذا ما قامت السلطة بتأمينه ، حيث مكنت الحرفيين من العمل ومنحتهم الرساميل والمواد الأولية والحوانيت ، أما أعمال الزراعة والخدمات الأخرى فقد جرى تأمين بواسطة الرقيق ، خاصة الأسود منه ، ودفع استخدام العبيد بعضهم إلى القول : أن دولة الأحساء لم تكن دولة " اشتراكية " محضة ، إنما كانت دولة محاربين ، طبقت السلطة فيها نظام رأسمالية الدولة ، وذهب آخرون إلى القول : إن دولة القرامطة فى البحرين قامت فى منطقة خضعت بشكل

متواصل إلى التأثير الفارسي لاسيما الساساني منه ، وأبو سعيد نفسه لعله كان من أصل إيراني ، وعلى هذا إن نظام دولة القرامطة الذي قام فيها لم يكن سوى نظامًا متطورًا عن النظام الإقطاعي الساساني الذي شهر بنظام إقطاعيات الفرسان .

ومما لا شك فيه أن اتخاذ العبيد وتسخيرهم كان ثغرة في نظام دولة الأحساء ، الدولة التي شهدت ساحات أصولها في العراق ، قبل قيامها ثورة عارمة للزنج ، لكن أما والأخبار لم تذكر أعمال تمرد أو شكوى للعبيد ، يمكننا الافتراض أنها أحسنت معاملتهم ، ولنتذكر في هذا المقام أن العقل البشري لم يتقبل إلغاء الرق إلا منذ زمن قصير نسبيًا . وأن تجربة الأحساء قامت منذ أحد عشر قرنًا ، وهي بلاشك تجربة ما تزال بعض دول الوطن العربي والعالم حاليًا تتطلع إلى ما يماثلها . لقد بهرت تجربة الأحساء عقول معاصريها أيام أبي سعيد وخلفائه من بعده ، وهذا ما نشهده في محتويات المكتبة الجغرافية العربية ، وعند بعض الكتاب المتأخرين نسبيًا مثل البيروني ، فقد تحدث المقدسي عن الأحساء فقال : " وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد ، ثم نظر وعدل ، غير أن الدامع معطل " ووصف ابن حوقل - وهو جغرافي شامي إسماعيلي - أحوال الأحساء بعد قرابة قرن مضى على تأسيسها ، وذلك أيام الصراع بينها وبين الخلافة الفاطمية ، وكان مما قاله :" وبها أموال وعشور ، ووجوه مرافق وقوانين ومراصد ، وضروب مرسومة من الكلف إلى ما يصل إليهم من بادية البصرة والكوفة ، وطرق مكة ، بعد إقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعيرة والنخل لأتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين ، ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار ألف دينار ، وماعدا ذلك من المال ، والأمر والنهي ، والحل والعقد ، وما كان يصل إليهم من طريق مكة ومال عُمان ، وما وصل إليهم من الرملة والشام فمتساو فيه آراء ولد أبي سعيد الباقين ، ومفاوضة أبي محمد ستير بن الحسن بن ستير ، وكان أكمل القوم ثم تمكنا من نفسه ، فإذا هموا بقسمة ما يصل إليهم من

مال السنة ، كان ذلك ليوم معلوم منذ لم يزالوا ، فيعزل منه الخمس بسهم صاحب الزمان ، والثلاثة الأخماس لولد أبي سعيد على قوانين وضعوها بينهم ، وكان الخمس الباقي للسنابرة ، مسلما إلى أبي محمد ليفرقه في ولد أبيه وولده ، ويكونون نحو عشرين رجلاً ، وكان ولد أبي طاهر فيهم يعظمون ويكرمون ... وكان لهم من الثلاثة أخماس مال معلوم دون الجرايات عليهم من الغنائم بحسب منازلهم ، دون ماطم من الضياع والنعمة المختصة بهم إلى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

وكان من رسومهم ركوب مشايخهم وأولادهم فرادى ، فيجتمعون إلى قبلة الأحساء بالمكان المعرف بالجرعاء ، ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم ، وينصرفون أفذاذًا بغاية التواضع ، وقد لبسوا البياض لاغير .

وكان من رسومهم أن تقع شورا هم بالجرعاء فيمن يخرجون لما قدحهم رأيهم ، فإن اتفق رأيهم على خروجهم بأجمعهم لم يتخلفوا وتفاءلوا ، وتركوا في البلد أوثقتهم ، وأشغلهم منزلة عندهم ... وسمعت غير حاك في سني نيف وخمسين يحكي ... أن سادتهم يتوزعون من مال البصرة والكوفة ، وما يقبضونه من الحجاج ، ويرد عليهم من مال عُمان والغنائم دون الخمس الخارج عنهم لصاحب الزمان ألف ألف دينار ، وربما زادت المائة والمائتي ألف دينار "(٥) .

وعندما وصلت أخبار أبي سعيد إلى السلطات العباسية في بغداد عجلت بإرسال جيش ضده لحقته الهزيمة الماحقة ، وكان وقع ذلك مخيفًا على سكان البصرة ، حتى " عزم أهلها على الانتقال منها " ، وأرسلت الخلافة العباسية الجيش تلو الآخر ضد القرامطة فأخفقت جميعًا ، وخيل لكثير من الناس أن القرامطة باتوا قادرين على الاستيلاء على العراق واقتحام بغداد بالذات .

لا يتسع المجال في هذا البحث لاستعراض من أخبار المعارك بين القرامطة وبين الجيوش العباسية ، وبالوقت نفسه بتعذر أيضًا تقديم تفاصيل النشاط العسكري القرمطي في شبه جزيرة العرب ، وسأكتفي بالأشارة إلى تحمل

نشاطاتهم ضد قوافل الحج ، وسأقف عند اقتحامهم لمكة المكرمة ، وقتلهم الحجاج في المسجد الحرام، واقتلاعهم للحجر الأسود ، وحمله معهم إلى الأحساء.

وفي عودة نحو سرد أخبار دولة أبي سعيد نجد أن أبا سعيد قد جرى اغتياله في سنة ٣٠١هـ/٩١٤م ، وقد قيل إن عملية الاغتيال كانت فردية بدون دوافع تآمرية داخلية أو خارجية ، ويرجح أن لها علاقة بمقتل الطعامي ، ومشاكل داخل أركان الدعوة ، وسنرد بعض الإشارات إلى هذا فيما يلي(٦) :

وتسلم السيادة بعده ابنه سعيد ، مع أنه كان مستضعفًا ، لكنه كان أسن إخوانه ، ولهذا أولى ولمبدأ توريث السلطة دلالاته ، فالجنابي وإن أسس دولة لها نظامها العسكري والاقتصادي والاجتماعي الخاص ، إلا أنه أسس بالوقت نفسه مملكة تدار من قبله ثم أسرته من بعده .

وحدث في أواخر أيام أبي سعيد أن عمدت الخلافة العباسية إلى إرسال سفارة إليه ، وعندما وصلت هذه السفارة إلى البصرة علمت بمصرعه ، فرداعت على بن عيسى وزير الخلافة ، فطلب منها الذهاب إلى الأحساء وتسليم الرسالة التي بحوزتها إلى خليفة أبي سعيد ، وكان مما جاء في رسالة الخلافة : " زعمت أنك رسول المهدى ، وقد قتلت العلويين ، وسبيت آل الأخضر العلويين ، ومن باليمامة ، واسترققت العلويات ، وغدرت بأهل البحرين " .

فأجاب سعيد بن أبي سعيد : " إن أهل البحرين بغوا علينا ، وغدروا بنا ، وقالوا : إنا نشرك في أزواجنا ، ونرى الإباحة وتعطيل الشريعة ، وقد كذبوا علينا، ونحن قوم مسلمون ، وما نحل من اتهمنا بغير الإسلام " .

وواضح أن هذا الجواب جواب أسرة ملكية حاكمة لدولة موطدة الأركان، وحديث الملوك غير حديث الدعاة والثوار ، وعلى هذا الأساس شجعت هذه الإجابة الوزير القدير على بن عيسى ، فكتب مجددًا إلى سلطات القرامطة يقول :

" أن كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسارى المسلمين " ، واستجاب القرامطة " فأطلقوا نحو ثلاثين ألفا ، وأظهروا الإسلام والصلاة وقراءة القرآن " ، ولعل هذا يفيد أن السلام ساد بين القرامطة والسلطات العباسية ، ولكن ذلك ما كان ليمر بدون ردات فعل بين القرامطة ، ولذلك أقدم القرامطة سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م على خلع سعيد ، حيث حل محله أخوه أبو طاهر سليمان .

واختلفت شخصية أبي طاهر عن شخصية سعيد ، فقد مثل أبو طاهر التطرف الشديد ، ففي أيامه نشط قرامطة البحرين عسكريًا هائل ومرعب ، وتركز هذا النشاط بشكل خاص ضد قوافل الحجاج ، ثم أضعاف العباسيين وشل قواتهم عن العمل ، ويلاحظ في هذا المقام أن ولاية أبي طاهر تلت حادثة عزل علي بن عيسى عن الوزارة في بغداد ، وحدوث تبدل في المواقف الرسمية العباسية ، وتزامن أيضًا مع استقرار الأمور في إفريقية للمهدى الفاطمي ، وشروعه في أرسال الجيوش ضد مصر لاحتلالها ، ويبدو أن الاتصالات قد قامت في هذا الأونة بين الخلافة الفاطمية والقرامطة ، ووضعت الخطط للتنسيق في الجهود العسكرية بين الطرفين ، والذي طلبته الخلافة الفاطمية من القرامطة هو الضغط على العراق ، والضغط أيضًا على السلطات الأخشيدية في الشام وهذا ما حصل(٧) .

وقد يسهل علينا فهم هذا واستيعابه سياسيًا وعسكريًا ، ولكن كيف لنا أن نفهم تعاظم النشاط ضد قوافل الحج ، وأخيرًا مهاجمة مكة واستباحتها مع انتزاع الحجر الأسود ؟

في عودة إلى تاريخ الخلافة الفاطمية ، نجد أن مؤسسها حمل لقب "المهدى" ومن المرجح أنه كان " أمام استيداع " ولم يكن " أمام استقرار " وحمل الخليفة الثاني لقب " القائم " ورتبة القائم لدى الإسماعيلية أعلى من رتبة المهدى " والقائم كما يقول القاضي النعمان هو " سابع سبعة من آدم ، ودوره آخر الأدوار "، والأنبياء ذوي العزم عند القاضي النعمان سبعة ، أولهم آدم ، وثانيهم نوح ،

وثالثهم إبراهيم ، ورابعهم موسى ، وخامسهم عيسى ، وسادسهم محمد ، وسابعهم القائم ، والقائم هو الذى يعلن القيامة ، أى يتولى إلغاء الديانات جميعًا ، وإحلال ديانة جديدة محلها قائمة على الكشف المطلق . الأمر الذى سنراه فى أيام الحاكم بأمر الله وتأسيس العقيدة الدرزية .

قد أرادت الدعوة الإسماعيلية – بوساطة القرامطة – إيقاف الحج بشكل نهائى ، بواسطة مهاجمة قوافل الحجاج ، وقطع طرق الحج ، لكن عندما أحققت هذه الخطة ، هاجم أبو طاهر – كما سنرى – مكة فى أيام الموسم ، وقتل الحجاج ، واقتلع الحجر الأسود ، أن الإسماعيلية والقرامطة اعتقدوا أنه مغناطيس القلوب " يجذب الناس إليه من أطراف العالم " .

والحد هو شعيرة تميز بها الإسلام ، وهو الركن الوحيد المعلن بشكل عالمى ظاهرى ، فيه تعبير واضح عن استمرارية الإسلام والعمل بعباداته أميًا ، ذلك أن بقية الأركان : الصلاة ، ودفع الزكاة ، وصوم رمضان ، مع التلفظ بالشهادتين يمكن أن تمارس بشكل فردى وسرى ، ولكن الحج لا يمارس إلا فى بقعة محدودة وبصورة علنية ، واستمرار الحج معناه تعطيل خطط إعلان القيامة والإخفاق فى تعطيل الشريعة ، والاضطرار إلى مسايرة الأوضاع الظاهرة ، وهذا يفقد الدعوى الإسماعيلية مسوغاتها الدينية الخاصة بها(٨) .

وروى ثابت بن سنان الصابئ [ت ٣٦٥هـ/٩٧٦م] فى تاريخه الذى ذيل به على تاريخ الطبرى أخبار الحملة القرمطية على مكة فقال : " وفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة خرج بالناس إلى الحج من بغداد منصور الديلمى – أميرًا للحاج بأمر الخليفة ، ليحج بالناس ، فسلموا فى الطريق من بغداد إلى مكة ، فلحقهم أبو طاهر القرمطى بمكة يوم التروية ، أى قبل طلوعهم عرفات بساعات قليلة ، فقاتلهم أمير مكة ومن معه ، ولم يكن إلا القليل حتى هزمهم ، وأعمل فيهم السيف ، ونهب الحجيج ، وقتل الحجاج حتى فى المسجد الحرام ، وفى البيت

نفسه ، ورمى القتلى فى بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى ، وخلع باب الكعبة ، ووقف يلعب بسيفه على باب الكعبة ، وينشد ويقول :

أنـــا بالله وبالله أنـــا ... يخلـــق الخلـــق وأفنيهم أنـــا

وأصعد رجلاً ليخلع ميزاب البيت ، فوقع صريعًا ميتًا ، ودفن باقى القتلى فى المسجد الحرام بدون تكفين ، ولاصلى عليهم وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، ونهب درر أهل مكة ، وخلع الحجر الأسود من البيت "(٩) .

وفى طريق العودة نحو الأحساء أنشد أبو طاهر :

ولـو كان هـذا البيت لله ربنا ... نصب علينا النار من فوقنا صبًا

لأنـا حججنـا حجـة جاهليـة ... بجلـة لـم نبـق شرقًا ولا غربـًا

وإنـا تركنـا بين زمزم الصفـا ... جنائـز لاتبغى سـوى ربهـا ربـًا(١٠)

إنها والحق يقال لم تكن حجة من أية نوع من الأنواع ، بل كانت حملة بربرية ، قصدت كما أشرت إلغاء الحج ، تمهيدًا لإعلان قيامة عظمى ، وصحيح أن ظروف الدولة الفاطمية فى إفريقية حالت دون إعلان القيامة ، لكن القائد القرمطى التزم بعقيدة القيامة لكن وفق طريقته الخاصة ، حيث لم يلبث بعد الحملة على مكة أن ظهر بالأحساء زكريا الطمامى ابن أبى زكريا ، الداعية القرمطى المتقدم على أبى سعيد الجنابى ، ويروى أن أبا طاهر : " جمع الناس بالبحرين ، وقال : معشر الناس ، إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ، ومرة بعلى ، ومرة بإسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن إسماعيل ، وبالمهدى ، وهذا إلهنا وربنا وربكم ، يعنى " زكريا الطمامى " .

وحار الكتاب فى تعليل هذه الحادثة فالأوائل عللوها ردة إلى الديانة الزرادشتية (المجوسية) وإلى عبادة النيران ، وهذا بعيد الاحتمال ، ورأى آخرون فيها تمردًا على الفاطميين ورفضًا لسلطتهم ، وفى هذا أيضًا ما فيه ، إذا أخذنا بعين

الاعتبار أوضاع الخلافة الفاطمية آنذاك ، وذلك أنها كانت تقاتل من أجل البقاء ضد تحالف النكارية مع مالكية إفريقية ومساندة قرطبة .

التحليل يظل قائمًا في مضامين العقيدة الإسماعيلية حول مسألتي الكشف عن علوم الباطن وإعلان القيامة العظمى مثلما سيحدث في أيام الحاكم بأمر الله . والمثير للانتباه أن كل من أنوشتكين الدزبري والطعامي لاقيا الموت على يدي من وجههما .

فالأمر لم يطل بزكريا الطعامي ، فقد حاول الانفراد بالأمر بالأحساء وتصفية آل أبي سعيد الجنابي وآل سنبر ، لذلك سارع أبو طاهر فقتله وتخلص منه .

ويبدو أنه عندما أعلن عن تأليه زكريا الطعامي جرى الإعلان عن أبي طاهر إمامًا مهديًا ، فهذا ما يستفاد من شعر أورده له البيروني ، ويتوافق هذا مع ما حصل لحمزة بن علي الزوزني أيام الحاكم بأمر الله ، في المرحلة التالية لتصفية الدزبري(١١) .

ومهما يكن الحال ، لقد كان لهذا الحادث أثره الكبير على أوضاع القرامطة عامة ، ومسألة القيادة والطاعة لأبي طاهر (سيكون شبيه هذا مع الحاكم بأمر الله) فقد " صار أصحابه لا يمتثلون أمره كما كان ، وقد كانوا لا يخالفونه في شيء البتة ، وكان أي شيء نهبوه أو غنموه يسلموه إليه ، ولا يخونونه في شيء منه لأنه حجة الله ... فصار ... لا يعطونه ما ينهبونه ، وصار يشربون الخمر ، ويسمعون الغيان ، ويطلبون المواخير ، وإذا حايجهم العرفاء قالوا لهم : هاتوا ما غنمتم لم يعطوهم ، وإذا قالوا لهم : السيد يأمركم بكذا " وجهوا أقبح الشتائم للسيد .

لقد سبب نشاط القرامطة في شبه الجزيرة اندفاع أعداد هائلة من رجال القبائل العربية خاصة من قبائل عامر بن صعصعة - نحو الشام والعراق ، ومع اتساع عمليات القرامطة أيام أبي طاهر جرى زيادة في الاعتماد على رجالات

هذه القبائل عن طريق الإغراء بالغنائم ودفع الأموال ، وأخذ العباسيون بدورهم يسعون لشراء ولاء بعض زعماء القبائل ، كما أن بعض هؤلاء شرع يفكر لمصالحة ولمنفعته الخاصة(١٢) مما قاد إلى تأسيس حكم الدولة المرداسية في حلب وحكم الدولة العقيلية في الموصل وحكم نمير في حران ونشير حول قلعة جعبر .

ولقد خفت حدة نشاط أبي طاهر القرمطي ، لكنه لم يتوقف ، وتجددت الاتصالات بينه وبين بغداد ، وطلبت السلطات العباسية منه عام ٣٢٢هـ/٩٣٤م عدم التعرض لقوافل الحج ، ورد الحجر الأسود ، وذلك مقابل اعتراف الخليفة العباسي به أميرًا على البلاد التي يحكمها ، وبعد أن تم التوصل إلى اتفاق ، بات على الخلافة العباسية بموجبه لا الاكتفاء بالاعتراف بأبي طاهر ، بل بدفع مبلغ كبير من المال له إتاوة سنوية ، ويبدو أن مرد هذا الاتفاق لا يعود إلى الأزمة الداخلية التي وقعت بسبب زكريا الطعامي فحسب بل إلى الإخفاق في قطع الحج ، وإلى مالحق الدولة الفاطمية ونزل بساحتها إثر وفاة المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م بقيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري ، ولم يوقف هذا الحملات الفاطمية ضد مصر ، ولاسيما أن حكام الشام ومصر من الإخشيديين أخذوا يدفعون للقرامطة إتاوة سنوية عالية على غرار الخلافة العباسية(١٣) .

وظل أبو طاهر سيدًا لقرامطة الأحساء والبحرين حتى سنة وفاته في ٣٣٢هـ/٩٤٤م ، لعل بين أهم ما حصل في العقد الأخير من حياته هو أخذ حركة قرامطة الأحساء والبحرين شكل دولة ، والدول في العادة تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح ، وإنشاء الدولة معناه إما وصول الثورة إلى غاياتها القصوى، أو قناعتها بعدم إمكان حصول ذلك والاكتفاء بما تحقق من مكاسب ، وفي هذا انكماش وبداية تراجع وسوف دروب الأنهيار ، وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لقرامطة البحرين ، صحيح أن دولتهم لم تزل من الوجود فورًا ، وعاشت لحقبة طويلة ، ولكنها عاشت على الهامش ، يحجبها عن أماكن التأثير الفاعلة في العالم الإسلامي محيطات من رمال الصحراء .

ومن جديد لابد من الإشارة إلى أن اعتماد القرامطة على القوة المسلحة المدمرة فقط دون إرفاق ذلك بعمل دعوى منظم قد أضربهم ضررًا بالغًا ، وحال دون انتشار مبادئهم . المشكلة الأساسية في تاريخ القرامطة أنهم اهتموا بأوضاعهم الداخلية ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى قضية جمعتهم الخارجية ، ونسوا أنهم لئن ملكوا القوة المدمرة لوقت من الأوقات ، فإن من قهروهم وأنزلوا بهم الضربات الموجعة كانوا أكثر منهم عددًا وعدة ، وأمامهم فرص استرداد القوة ، ومن ثم التمكن من الانتقام ...

لقد أهتم القرامطة بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية اهتمامًا كبيرًا ، ورأوا بأم أعينهم أكثر من مرة زيف الغطاء الديني للباطنية وشفافيته وتناقضاته ، وملكوا الفرصة حتى يتخلصوا من هذا الغطاء ، وذلك عن طريق العودة إلى الجادة القويمة، فذلك كان سيفتح أمامهم مختلف الأبواب في جميع البلدان ، لكن على الرغم من كل هذا تمسكوا بالغطاء الواهي ، وسخروا قواتهم في سبيل تدمير ما أجمعت الأمة على الإيمان به والتمسك ، فاهلكوا أنفسهم بأيديهم ، فهذا كان وما يزال مصير كل من يتنكر للتراث ويعلن الحرب عليه .

وحين توفي أبو طاهر كان معظم إخوانه ما زالوا على قيد الحياة ، بينهم سعيد ، وكان من المقدر أن يعود سعيد إلى تسلم منصب السيادة ، ولكن هذا لم يحدث بالتحديد ، بل وقعت الإدارة مشاركة بين الأخوة ، ومع الأيام برز من بينهم أحمد ، حتى بات المقرر انفراده بالسيادة ، ولكن وجد بين القرامطة جماعة ارتأت تنصيب سابور بن أبي طاهر ، وسلكت هذه الجماعة مسلك التآمر ، وفي سنة ٣٥٨هـ ٩٦٩م ألقى القبض على سابور وجرى قتله ، وبذلك انفرد أحمد بالسيادة ، وعلق ابن حوقل على هذا الحدث وبين آثاره على القرامطة حيث " تشتت كلمتهم و تغيرت أحوالهم ، واستوحش بعضهم من بعض ، وانقبضوا عن الالتقاء بالجرعاء" (١٤) .

ويبدو أن الذي حدث لم يكن مجرد صراع داخلي على السلطة ، بل للقضية أسبابها الخارجية ، ففي السنة التي قتل بها سابور ، كان الفاطميون قد تمكنوا من الاستيلاء على مصر ، ثم توجهت جيوشهم للاستيلاء على الشام ، وإذا كانت المشاعر الثورية تجمع فإن المصالح الدولية تفرق ، ولست الآن بصدد الحديث عن الصراع الذي نشب بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية ، ولعله تكفي الإشارة أنه يستخلص من ابن حوقل أن سابور وحزبه كانوا من مؤيدي الخلافة الفاطمية، وفي حين كان أحمد وحزبه من المعادين للفاطميين ، وهذا واضح في رسالة المعز لدين الله الفاطمي للحسن بن أحمد - المشهور بالأعظم .

ولقد كان لاستيلاء الفاطميين على مصر ، وبناء مدينة القاهرة أبعد الآثار وأخطرها على دولة قرامطة الأحساء والبحرين ، فقد تعارضت مصالح الدولتان، الفرصة التي استغلها سادة بغداد الجدد من الديلم ، فضغطوا على الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ/٩٤٦ - ٩٧٤م) للنفوب من القرامطة ، كما أو عزوا إلى الحمدانيين في الموصل ، وإلى قادة قبائل الشام والعراق والجزيرة للمبادرة إلى تقديم العون إلى القرامطة في صراعهم مع الفاطميين .

وكان الفاطميون حين استولوا على مصر يريدون القضاء على الخلافة العباسية ، ولم يكونوا يتوقعون عون القرامطة لأعدائهم ، بل كانوا يعولون على قرامطة البحرين القيام بمهاجمة العراق من الجنوب أثناء زحف القوات الفاطمية على الشام ، ولابد أنه كان في خطط الفاطميين إثارة إسماعيلية خراسان وتحريضهم للزحف في الوقت عينه على العراق ، مذاكرًا بالوقت نفسه أن قبائل بادية الشام والجزيرة والعراق كانت شيعية ، وكان الديلم شيعة أيضًا تراسل بعضهم مع الفاطميين .

وأحبط هذه الخطط الحفاظ على مصالح دولة القرامطة ، لأن احتلال الفاطميين للشام قطع الإتاوة التي كان يدفعها اسم حكام الدولة الإخشيدية ، ثم

إن البويهيين آثروا التحكم بخليفة عباسي ضعيف على أن يدينوا بالطاعة لخليفة فاطمي قوي ، متذكرين أنهم كانوا شيعة زيدية ، وأن القبائل الجزرية والعراقية والشامية كانت شيعة إمامية ، وهكذا أخفقت خطط الفاطميين ، وكادوا يفقدون مصر ، فغالبًا ما قهرت المصالح الدولية الوحدة العقائدية .

ومع قيام الصراع القرمطي الفاطمي كانت زعامة القرامطة قد آلت إلى الحسن بن أحمد ، الذي عرف بالأعصم لقصره ، وقد دامت طيلة حقبة النزاع التي امتدت حتى أيام العزيز الفاطمي ، فمع أيام العزيز تم التوصل إلى اتفاق هدنة في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م تعهدت الخلافة الفاطمية بموجبة بدفع إتاوة سنوية للقرامطة قدرتها المصادر بسبعين ألف دينار ، وإثر التوصل إلى هذا الاتفاق توفي الأعصم ، وتراجع القرامطة إلى الأحساء وقد استمرت دولتهم بعد الأعصم ما يزيد على القرن ، وفي سنة٤٦٩هـ/١٠٧٧م في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه أغار القائد التركماني أرتق على الأحساء ، ورام الاستيلاء عليها ، فأخفق بعد ما حاصرها حقبة طويلة من الزمن (١٥) .

الهوامش

(١) أصول الإسماعيلية ص١٦٧ .

(٢) زكار - أخبار القرامطة ص١٣ .

(٣) أخبار القرامطة : ص١٣ ، ١٤٨ت ، ٣٣٤ ، ٤٠١ ، أصول الإسماعيلية : ص١٧١ ، دي خوية : ص٤٢ .

(٤) أخبار القرامطة : ص٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٣٩٧ - ٣٩٨ ، الفهرست للنديم (ط. طهران) ص٢٣٨ - ٢٤٠ ، القرامطة لدي خويه ص٣٣ - ٣٧ .

(٥) أحسن التقاسيم : ص٩٣ - ٩٤، صورة الأرض : ص٣٣ - ٣٥، الآثار الباقية: ٢١٢ - ٢١٣ .

وأخبار القرامطة : ص١٣ - ١٥ ، ١٥٠ - ١٥٢ ، ١٩٥ - ١٩٨ ، ٣٣٤ - ٣٣٩ ، ٤٠٠ - ٤٠١ دي خويه : ص٦١ - ٩٥ .

(٦) زكار - الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ص١٥١ .

(٧) الجامع في أخبار القرامطة : جـ١ ص١٥١ - ١٥٢ ، دي خوية ص٧٢ - ٨٠.

(٨) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ص١١٥ - ١٥٢ ، دي خويه ص٧٢ - ٨٠ .

(٩) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ص٢٢٣ .

(١٠) أخبار القرامطة ص٥٣ ، ٢١٥ .

(١١) الآثار الباقية : ص٢١٤ ، أخبار القرامطة : ص١٦٠ - ١٦١ ، دي خويه : ص١٠٤ ، ١٦٠ .

(١٢) أخبار القرامطة : ص١٤٦ ، ١٦٠ - ١٦١ .

(١٤) أخبار القرامطة : ص٣٦٠ دي خوية : ص١٠٨ - ١١٢ .

(١٥) صورة الأرض : ٣٣ ، ٣٤ ، دي خويه : ١٥٠ - ١٥٢ .

(١٦) مرآة الزمان - مخطوط أحمد الثالث - حوادث سنة ٤٦٩ أخبار القرامطة : ص٦٨ - ٦٤ - ٣٦٤ - ٣٨٩ ، ٤٠٢ - ٤٠٩ دي خويه : ١٥٢ - ١٥٦ .

أهم المصادر والمراجع

الاربلي (علي عيسى) .
- كشف الغمة في معرفة الأئمة - بيروت ١٩٨١ .

الأسدي (الكميت بن زيد) .
- شرح القصائد الهاشميات - بيروت ١٩٧٢ .

الأشعري (علي) .
- مقالات الإسلاميين - القاهرة ١٩٥٠ .

الاصطخري (أبراهيم) .
- المسالك والممالك - لندن ١٩٢٧ .

ابن الأعثم الكوفي (أحمد) .
- كتاب الفتوح - بيروت ١٩٩٢ .

الأعلمي (حيدر بن علي) .
- الكشكول فيما جرى على آل الرسول - قم ، منشورات الرضي .

الأمين (محسن) .
- أعيان الشيعة - بيروت ١٩٨٣ .

ابن أيبك الدواداري (عبد الله) .
- الدولة الفضية في أخبار الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٦١ .

إيمالي (مهدي الفقية) .
- الإمام المهدي عند أهل السنة - أصبهان ١٤٠٣هـ .

الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) .
- الانصاف فيما يجب ولا يجوز الجهل به - بيروت ١٩٨٠ .

البحراني (هاشم) .
- الحجة فيما نزل في القائم الحجة - بيروت ١٩٨٣ .

- كشف أسرار الباطنية - القاهرة ١٩٣٩ .

ابن حنبل (الأمام أحمد) .

بدوي (عبد الرحمن) .
- مذاهب الإسلاميين - بيروت ...

البغدادي (عبد القاهر) .
- الفرق بين الفرق - القاهرة ١٩٤٨ .

البيروني (أبو الريحان محمد) .
- الآثار الباقية من القرون الخالية - لا يبزغ ١٩٣٣ .

تامر (عارف).
- ثلاث رسائل إسماعيلية - بيروت ١٩٨٣ .
- أربع رسائل إسماعيلية - بيروت ١٩٧٨ .

الجعفي (المفضل بن عمر) .
- الهفت الشريف - بيروت ١٩٦٤ .

الحامدي (إبراهيم بن الحسين) .
- كنز الولد - بيروت ١٩٧١ .

الحائري (علي اليزدي) .
- إلزام الناصب في أثبات الحجة الغائب - بيروت ١٩٧١ .

ابن حجر الهيتمي (أحمد) .
- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، والقاهرة ١٩٦٥ .

ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) .
- الفصل في الملل والنحل - القاهرة ١٩٥٣ .

حسن (سعد محمد) .
- المهدية في الإسلام - القاهرة ١٩٥٣ .

الحمادي (محمد بن مالك) .

ابن عباد (الصاحب إسماعيل) .
- نصرة مذاهب الزيدية - بغداد ١٩٧٧ .
- الرد على الزنادقة والجهمية - حماة ١٩٦٧ .
ابن حوقل (أبو القاسم محمد) .
- صورة الأرض - بيروت (مكتبة الحياة) .
خسرو (ناصر) .
- سفرنامه - بيروت ١٩٧٢ (ترجمة عربية) .
دى خويه (مايكل) .
- القرامطة - بيروت ١٩٧٨ .
الديلمي (محمد بن الحسن) .
- بيان مذهب الباطنية وبطلانه - أستانبول ١٩٣٨ .
زكار (سهيل) .
- أخبار القرامطة - دمشق ١٩٨٢ .
- الجامع في أخبار القرامطة - دمشق ١٩٨٧ .
ابن سورين (حامد) .
- مصادر العقيدة الدرزية - لبنان ، دير عقل ١٩٨٥ .
الشهرستاني (محمد) .
- الملل والنحل - القاهرة ١٩٤٨ .
الصابي (هلال بن المحسن) .
- تحفة الأمراء - القاهرة ١٩٥٨ .
ابن طاووس (علي بن موسى) .
- الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر - بيروت ١٩٧٨ .
الطبري (محمد بن جرير) .
القمي (محمد بن علي بن بابويه) .

- عيون أخبار الرضا - بيروت ١٩٨٤ .
الكليني (محمد بن يعقوب) .
- الأصول من الكافي - بيروت ١٤٠١ .
لويس (برنارد) .
العباسي العلوي (علي بن محمد) .
- سيرة الهادي إلى الحق - بيروت ١٩٧٣ .
ابن العديم (كمال الدين عمر) .
- بغية الطلب في تاريخ حلب - دمشق ١٩٨٨
- زبدة الحلب من تاريخ حلب - دمشق ١٩٩٦
ابن العربي (أبو بكر) .
- العواصم من القواصم - الجزائر ١٩٧٢ .
عليان (محمد عبد الفتاح) .
- قرامطة العراق - القاهرة ١٩٧٠ .
غالب (مصطفى) .
- أربع كتب حقانيه - بيروت ١٩٨٣ .
- تاريخ الدعوة الإسماعيلية - دمشق (دار اليقظة) .
- الإمامة وقائم القيامة - بيروت ١٩٨١ .
الغزالي (أبو حامد) .
- فضائح الباطنية - القاهرة ١٩٦٤ .
- قواصم الباطنية - أستانبول ١٩٥٤ .
القرشي (الداعي المطلق أدريس) .
- عيون الأخبار وفنون الآثار (نسخة مصورة) .
القرمطي (الداعي عبدان) .
- كتاب شجرة اليقين - بيروت ١٩٨٢ .

القمي (سعد) .
هكارم (سامي نسيب) .
- أضواء على مسلك التوحيد - بيروت ١٩٦٦ .
الملطي (محمد بن أحمد) .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع - بغداد ١٩٦٨ .
ابن منصور (جعفر) .
- أصول الإسماعيلية - بغداد ١٩٤٧ .
- الدعوة الإسماعيلية الجديدة - بيروت ١٩٧٢ .
ابن محمد (القاضي النعمان) .
- اختلاف أصول المذهب - بيروت ١٩٧٣ .
- الأرجوزة المختارة - مونتريال ١٩٧٠ .
- دعائم الإسلام مع التأويل - القاهرة (دار المعارف) .
- رسالة افتتاح الدعوة - بيروت ١٩٧٠ .
- الرسالة المذهبية - نسخ خطيه مصورة .
المقريزي (أحمد بن علي) .
- اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة) .
- المقفى (نسخة مصورة) .
- الخطط - القاهرة ١٩٠٨ .
- الكشف - بيروت ١٩٨٤ .
- الناشئ الأكبر .
- مسائل الأمامة - بيروت ١٩٧١ .
النوبختي (الحسن بن موسى) .
- كتاب فرق الشيعة - أستانبول ١٩٣١ .

النويري (شهاب الدين أحمد) .
- نهاية الأرب في فنون الأدب- القاهرة ١٩٢٣ .
الهمداني (القاضي عبد الجبار بن أحمد) .
- تثبيت دلائل النبوة - بيروت ١٩٦٦ .
- المغني في أبواب التوحيد - القاهرة (د . ت) .

قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي

د. علي منصور*

مقدمة :

كان ظهور الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة هو نتاج الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عصفت بالدولة العباسية في العصر العباسي الثاني عندما بدأت العناصر الغير عربية تتسيد لتصبح على رأس السلطة السياسية وتشكل طبقة متميزة تحتكر الامتيازات وتمارس عملية النهب المنظم والاستئثار بالسلطة . وكان أن تعرضت خزينة الدولة للإنهيار بعد ما شهدته من تحسن وما حققته من انجازات اقتصادية ، واستفحلت نفقات الدولة وازداد شغب الجند المأجورين في الأسواق ، وعانى الناس من استئثار التجار وقادة الجيش بالأموال ، في حين أصبحت السلطة غير قادرة على تلبية حاجات الشعوب والرعايا . واتجه المجتمع إلى البحث عن بدائل اقتصادية ، فبعد أن كان مجتمعًا يعتمد في تحصيل الرزق أساسًا على الزراعة تحول إلى مجتمع تجاري ينشد الربح السريع ، وكان ذلك على حساب الزراعة التي فقدت دورها الرئيسي .

ولا شك في أن تلك التحولات الاقتصادية كان لها صدى اجتماعي خطير، إذ أدت إلى إتساع الفوارق الاجتماعية بين الطبقات حتى بلغ التناقض الاجتماعي مداه . وزادت الظروف المعيشية في التردي نتيجة لتلك الأوضاع الاقتصادية المتردية، الأمر الذي أدى إلى ظهور حركات اجتماعية تفاقم خطرها . وكانت الحركة القرمطية في طليعة تلك الحركات من حيث شمولية الرؤية ودقة التنظيم وإتساع القاعدة الشعبية ، حيث وجدت لأفكارها تربة صالحة في أوساط الفلاحين والفقراء .

(*) أستاذ التاريخ والحضارة المشارك - كلية الآداب - جامعة البحرين .

وهكذا أحدثت المواقف السياسية المعارضة في التبلور وتزداد تطوراً بازدياد الفوارق ، في حين لجأت السلطة العباسية إلى البطش بالمعارضة وبكل من يحاول الخروج على سلطة الدولة .

والواقع أن الحركة القرمطية تعتبر من أوسع الحركات التي شهدها المجتمع الإسلامي في ذلك الدور ، فقد قامت باسم الإنسانية ونحت راية الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتخفيف من حدة الفوارق الطبقية وإقامة مجتمع تسوده المساواة بين جميع أفراده بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والعنصرية والإقليمية والدينية .

وبذلك استطاعت تلك الحركة أن تحقق نجاحات باهرة بعد أن رفعت شعارات جذابة استمالت بها شتى الأقوام والأجناس والمذاهب والملل ، حتى تغلغلت بين البدو والحضر ، وانتشرت من بلاد فارس شرقاً إلى المغرب غرباً ، وحققت من النجاح ما مكنها من إقامة كيانات سياسية من أقواها وأكثرها استدعاءً للنظر ما كان في البحرين والأحساء .

ويبدو أن كثيراً من الأمور المتعلقة بتاريخ القرامطة يكتنفه الغموض ، ولا يزال الباحثون مختلفين فيه . ذلك أن الحركة القرمطية تعرضت لحملة من التشويه ، استهدفت تصويرها بغير صورتها الحقيقية ، ولذا فإن الحاجة ما زالت ماسة إلى الكتابة في هذا الموضوع لإفتقار المكتبة العربية والإسلامية لهذا النوع من الدراسات ، التي تبحث في تاريخ الحركات الاجتماعية بموضوعية تامة في ضوء الأمانة العلمية .

من ذلك اختلاف الباحثين حول الصفة المذهبية للحركة القرمطية ، ففي حين حاول البعض الفصل بين القرامطة والإسماعيلية (نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق) نجد أن الغالبية ربطت بين القرامطة والإسماعيلية وصورت الإسماعيلية في صورة القرامطة والقرامطة في صورة الإسماعيلية .

أما عن العلاقة بين قرامطة البحرين وقرامطة الشام والعراق ، فقد حاول برنارد لويس في كتابه (أصول الإسماعيلية) أن ينفي تلك العلاقة بحجة أن قرامطة البحرين لهم طابعهم المحلي وتقاليدهم التي تميزهم عن غيرهم ، كما أن تاريخهم القائم بذاته يضفي عليهم ويجعل لهم كياناً خاصاً .

جغرافية البحرين في فترة ظهور القرامطة :

وضع الجغرافيون القدماء حدوداً للبحرين ، وأطلقوا مصطلح البحرين على الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان(١) ووضعوا له حدوداً ، فأطلقوا على المنطقة الممتدة من أسياف كاظمة حتى شمال عمان اسم البحرين . وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فوضعوا حدوداً جغرافية للبحرين أوسع ، واعتبروها امتداداً طبيعياً لنواحي نجد وبادية العراق وإقليم الجزيرة الفراتية والشام(٢) وإذا أخذنا بالرأي الأول فإن المصطلح يشمل ما نعتبره في الوقت الحاضر الأحساء والكويت وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم أوال(٣) .

ويعتبر ياقوت كاظمة الحد الفاصل بين البحرين والعراق ، وجرفار الحد الفاصل بين البحرين وعمان ، وتسمى أحياناً حلفار ، وقد اندثرت الآن رغم وجود اطلالها . ويعدد ياقوت الأماكن والمدن التي تشتمل عليها البحرين فيذكر الخط والقطيف والأرة وهجر وبينونه والزارة وجواثا والساحور وداورين والغاية وقصبة هجر الصفا والمشقر(٤) و أحياناً يطلق اسم هجر على البحرين(٥) من باب إطلاق الجزء على الكل أو لأهمية هجر .

في ضوء التصور الجغرافي القديم للبحرين لا يمكننا أن نحدد الأبعاد الجغرافية لهذه الحدود المترامية التي تشمل بلاد اليمامة في الجنوب العربي ومروراً ببادية الشام وإقليم الجزيرة الفراتية ، ثم أجزاء من بلاد الشام . أما إذا أخذنا بالرأي القائل بأن البحرين محصورة بين البصرة وعمان فإننا نستطيع أن نحدد موقعها

الجغرافى بأنه فى الشمال يحدها العذيب حتى البصرة(٦) ومن الجنوب عمان(٧) الشرق الخليج العربى وإقليم كرمان(٨) ومن جهة الغرب بلاد اليمامة(٩) وقد أكد الحميرى تلك الحدود بقوله : " هى بلاد واسعة شرقها ساحل البحر ، وجوفها متصل باليمامة وشمالها متصل والبصرة وجنوبها متصل ببلادعمان وقاعدتها هجر(١٠) .

أما الأحساء بفتح الألف وإسكان الحاء المهملة وفتح السين المهملة بعدها ألف ممدودة ، فإن المعنى اللغوى للكلمة أوضحه ياقوت بقوله " الأحساء بالفتح والمد ، جمع حسى ، بكسر الحاء وسكون السين وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمل ، فإذا صار إلى صلابة أمسكه فتحصر العرب عنه الرمل فتستخرجه(١١) وهى من مدن البحرين وتقع على مرحلة الساحل "(١٢) وتبعد عن هجر ميلين(١٣) قال المقدسى " أنها قصبة هجر وتسمى البحرين ، كبيرة ، كثيرة النخل ، عامرة ، آهلة معدن الحر والقمحط(١٤) وقد أصبحت الأحساء فى عهد القرامطة عاصمة البحرين وأهم مدنها بعد خراب العاصمة هجر ، وقد أعاد تأسيس المدينة وحصنها الزعيم القرمطى أبو طاهر الحسن بن أبى سعيد الجنابى عام ٣١٤هـ وأطلق على المدينة الجديدة اسم المؤمنية ، ولكن المدينة القديمة وإقليمها ظلا يعرفان باسمهما الأول الأحساء(١٥) .

كذلك اختلف اللغويون فى تحديد أصل اسم البحرين ، فبعضهم يذهب إلى أن هذه التسمية مشتقة من بحر فيقال : بحرت الناقة(١٦) أى شقت أصول آذانها . وقيل أن البحرين عرفت بهذا الاسم لوجود لسان مائى يدخل فى اليابس(١٧) بل قيل أن اسم البحرين مشتق من اسم لبحيرة تقع بالغرب من مدينة الأحساء(١٨) .

ويؤكد الجاسر أن تسمية البحرين ، جاءت لكثرة المياه من العيون الجارية والبحيرات الراكدة فى واحاتها القريبة من البحر ، مع مجاورتها البحر ، كواحة الأحساء وواحة القطيف وواحة وادى المياه ، ثم تقلص اسم البحرين فى العصور الماضية حتى انحصر أطلاقه على جزيرة كانت تعرف قديمًا باسم أوال(١٩) .

الوضع الاقتصادى بالبحرين فى فترة ظهور القرامطة :

حظيت البحرين منذ القدم بموقع جغرافى هام على ساحل الخليج العربى وعلى الطريق بين الهند وفارس والشام والجزيرة . وبموقعها هذا أصبحت مركزًا تجاريًا هامًا يكاد يوازى فى أهميته مركز مكة التجارى قبل الفتح الإسلامى ، فالطرق البرية تصل بين البحرين والبصرة ، والبحرين واليمامة ومكة . والطرق البحرية تربطها بفارس والهند والشرق الأقصى ، كما تربطها بموانئ عبادان والإبلة وعمان . وكانت سفن البحرين تصل إلى ميناء الجار فى الحجاز . وشملت تجارتها الخارجية والحجاز واليمامة والبصرة وفارس والهند(٢٠) . يقول البكرى إن البحرين تجلب المليرة من فارس ، ويصدر إليها التمر والدبس كما كان التجار الفرس يأتون إلى البحرين بتجارتهم ليمارسوا البيع والشراء .

وحظيت الزراعة باهتمام أهل البحرين فكانت مزدهرة . ومما ساعد على ازدهارها وجود منابع مياه عذبة ، وعيون كثيرة ، هذا فضلاً عن أن أراضيها سهلة مستوية منخفضة . وفيها بعض الأنهار الصغيرة وأشهرها نهر علم بين الصفا والمشعر . ومن مزروعاتها الحنطة والشعير والقطن والحنا . غير أن أشهر مزروعاتها النخيل(٢١) الذى اشتهرت بوفرة انتاجه ورخص أسعاره حتى ضرب المثل بمن يخسر فى تصدير السلع إلى البلاد التى يتوفر فيها ، فقيل " كناقل التمر إلى هجر " وأكد البكرى : أن البحرين " كثيرة النخيل والموز والجوز والأترنج والأشجار والزروع والأنهار(٢٢) .

أما ابن بطوطة فيقول بعد أن اعتبر الأحساء هى هجر (وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها(٢٣) . وتزرع فى البحرين أنواع من الكروم وخاصة فى جزيرة تاروت التى تنتج أنواعًا جيدة من العنب)(٢٤) . ولا شك فى أن نمو التجارة وازدهار الزراعة ساعد على تطور الصناعة ، فكانت البحرين مركزًا لكثير من الصناعات التى تصدر سلعها إلى أرجاء شبه الجزيرة العربية ، وأبرز هذه الصناعات الرماح والعطور

والمنسوجات . فأما الرماح فإنها اشتهرت بصنع الرماح الخطية والرديئية والسمهرية ، التي تردد ذكرها في شعر العرب وأخبارهم ، باعتبارها من أحسن أنواع الرماح . وكانت صناعتها تقوم على القصب والخيزران اللذين تستوردهما من الهند .

أما صناعة المنسوجات فإنها اشتهرت بالثياب القطرية ، وهي ثياب مخططة كانت تصنع في قطر ، وعرفت هجر بما تنتجه من البز الذي كانت مكة من مستوردية . وكان الرسول ﷺ قبل الهجرة شريكًا لمخرمة العبدي في استيراد البز من هجر . ويروى أنه عندما امتد الإسلام إلى البحرين ، فرض الرسول ﷺ على من لم يسلم فيه " أربعة دراهم وعباءة " مما يدل على توفر المنسوجات فيه(٢٥) ومما كان ينسج بالبحرين الملاحف والقوط بالأحساء(٢٦) .

ومثلما حفلت كتب الجغرافيين المسلمين بوصف موانئ الخليج وطرقه البحرية ومدى الازدهار والعمران الذي وصلت إليه ، فإنها أعطت البحرين أهمية كبيرة ، نظرًا لطول ساحل البحرين واستواء أراضيها . وعمل كثير من أهلها في الملاحة ، وفي صناعة السفن والتجارة . كذلك وصفت لنا تلك الكتب السلع والبضائع المتبادلة في البحرين ، فيشير المقدسي إلى "العطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والسابيع والمساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع والياقوت والأبنوس والنارجيل والأسكندروس والصفر والحديد والرصاص والخيزران والفضة والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك(٢٧) كما يشير ابن حوقل إلى تجارة اللؤلؤ(٢٨).

الأهمية الاقتصادية للبحرين وتأثيراتها السياسية :

أدى موقع البحرين على ساحل البحر وكثرة موانيها ، وعلم وجود عقبات جغرافية تعرقل المواصلات فيها إلى ازدهار الحياة الاقتصادية والفكرية ، لكن ذلك كان من ناحية أخرى سببًا رئيسيًا لتوجه الغزاة الطامعين إلى أرض البحرين ، إذ سيطر الساسانيون على البحرين ، وظل حكمهم فيها حتى ظهور الإسلام . وقد

شهدت البحرين في ظل السيطرة الفارسية ازدهارًا اقتصاديًا لم تعرفه من قبل لكونها تقع على طريق النفوذ الفارسي إلى اليمن(٢٩) .

وبعد دخول البحرين في الإسلام في السنة السادسة الهجرية ظل المنذر بن ساوى التميمي حاكمًا على البحرين ، وألحقت إدارة البحرين في فترة من الفترات بالبصرة(٣٠) وظل المنذر بن ساوى على حكم البحرين حتى وفاته في السنة الحادية عشرة للهجرة . ويبدو أن الفتح الإسلامي وانسحاب الفرس من اليمن أفقد البحرين مركزها التجاري والاقتصادي تدريجيًا . وقد حدث عندما فتح الرسول ﷺ البحرين أن طلب من العلاء بن الحضرمي أن يفرض على كل رجل ليست له أرض أربعة دراهم وعباءة ، مما يدل على تدهور الوضع الاقتصادي وقلة النقود المتداولة .

وقد استمر سكان البحرين من غير المسلمين – وهم من النصارى واليهود والمجوس – في دفع ما اتفق عليه بين العلاء بن الحضرمي وبينهم في الكتاب الذي جاء فيه "هذا ما صالح العلاء بن الحضرمي أهل البحرين .. صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر " هذا عدا جزية الرؤوس(٣١) .

ذكر ابن سعد أن أول مال ورد المدينة خراج البحرين وهو سبعون ألفًا وروى أيضًا أن العلاء بن الحضرمي جاء النبي بثمانين ألفًا(٣٢) وهو مبلغ يعتبر غير كبير عند مقارنته بكثرة المدن في البحرين وما حفلت به من نشاط اقتصادي .

النظم السياسية والاقتصادية للحركة القرمطية وأثرها في تطور الحركة:

أصل التسمية :

تعرض العديد من كتاب الفرق لتسمية القرامطة واعتبروه لقبًا من الألقاب المتعددة للباطنية(٣٣) ، بمعنى أن القرامطة يمثلون مرحلة في الدعوة الباطنية يعود أصلها إلى شخص حمدان بن الأشعث من أهل الكوفة ، وهو أحد دعاتهم الأوائل،

أطلق على أتباعه اسم قرامطة(٣٤) ويقال إن حمدان هذا بـ (قرمط) لأنه كان يقرمط في سيره إذا مشى ، يعني يقارب بين خطواته(٣٥) وقيل أن كرميته بالنبطية تعني أحمر العينين(٣٦) ويقال أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان أحمر البشرة ، تشبيهًا له بـ (القرمد) وهو الطوب الأحمر (الأجر) . وهناك من يقول : أن أصل اللفظ قرمط مشتق من KETAMIDI وهي يونانية ، ويرى البعض أن لفظ قرمط مأخوذة من قرمط أي غضب وعبس وممن يأخذ بهذا الرأي B.LEWIS, DESACY . ويرى الأب انستاس ماري الكرملي عند شرحه لهذا اللفظ ، أنه آرامي " نبطي " مشتق من " قرمطونا " أي المدلس والخبيث أو الماكر أو المحتال أو من " قرمط " وهو التدليس أو الخبث أو المكر أو الاحتيال . ويبدو أن بعض هذه التسميات أطلقها أعداء القرامطة في العهود المبكرة(٣٧) .

نشأة الحركة القرمطية في البحرين والأحساء :

ظلت البحرين في عهد الدولة العباسية على هامش الحياة الاقتصادية والسياسية ، ولم يكن ولاتهم ينزلون إلى هجر(٣٨) عاصمة البحرين آنذاك . أما تجارتها فقد تفاقم تدهورها ، وتحولت عنها طرق التجارة لأسباب عدة منها : اضطراب الوضع الأمني فيها ، وزحف البادية التي تحيط بها ، وانتقال مركز الحركة التجارية من الجنوب إلى الشمال . وقد دفع كل ذلك القوافل التجارية التنقلة بين الشرق والغرب إلى سلوك الطرق المارة بأراضي الدولة العباسية في الشمال ، لتجنب المرور في البوادي والتعرض لقطاع الطرق وقراصنة البحر(٣٩) كذلك تعرضت الزراعة للكساد بعد أن لجأ بنو أمية إلى سياسة حرق الأرض وردم العيون الارتوازية وذلك لمعاقبة أهل البحرين بعد أن اشتعلت الثورات في بلدهم منذ عام (٧٩ - ٨٠هـ) (٦٩٨ - ٦٩٩م)(٤٠) يضاف إلى ذلك أن البحرين لم تعد قاعدة للفتوح الإسلامية في بلاد فارس ، حيث أن البصرة احتلت تلك المكانة(٤١).

وكان ابتداء ظهور الحركة القرمطية في البحرين حوالي سنة (٢٨١هـ / ٨٩٤م) وذلك عندما وفد إلى المنطقة رجل يعرف بيحيى بن المهدي الذي قصد

القطيف ونزل ضيفًا على علي بن المعلى بن حمدان ، وقد أظهر له يحيى أنه رسول المهدي وأن مهمته الطواف في البلاد للإلتقاء بأنصار المهدي وشيعته لبدعوهم إلى أمره ، ويبشرهم بقرب ظهوره . وكان أن توجه ابن المعلى إلى أهل القطيف ، فجمعهم وقرأ عليهم الكتاب الذي كان يحمله رسول المهدي . كذلك فعل مع بقية قرى البحرين فأجابوه(٤٢) وكان فيمن أجابه أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي(٤٣) الذي كان يبيع الناس الطعام . وغاب يحيى مدة ثم عاد ومعه كتاب آخر من المهدي جاء فيه " ادفعوا ليحيى خمس أموالكم " ، ففعل أهل البحرين ذلك . وجعلهم يحيى على أهبة الاستعداد لظهور المهدي ، وعظم أمر أبي سعيد بعد أن اجتمع حوله العديد من القبائل(٤٤) .

جهود أبي سعيد لتأسيس الدولة :

أخذ أبو سعيد الجنابي التعاليم الخاصة بالحركة القرمطية عند لقائه بيحيى بن المهدي(٤٥) أثناء مجيئه إلى البحرين .

ويستفاد مما ذكره ابن سنان وابن خلدون أن أبا سعيد لم يكن المؤسس الأول للدعوة القرمطية في البحرين ، بل تأسست قبل ظهوره سنة (٢٨٦هـ / ٨٩٩م) وذلك على يد رسول المهدي سنة ٢٨١هـ كما أن أبا سعيد كان يسكن البحرين وفيها دخل الدعوة ثم أصبح من عظمائها .

كذلك يجمع المؤرخون على أن أبا سعيد كان من أبرع وأشجع قادة القرامطة ، وكان مؤمنًا بأساليب القوة كغيره ، ومن المتحمسين للفكرة الثورية ، فألف جيشًا نظمه تنظيمًا دقيقًا ، ثم لم يلبث أن أعلن قيام الدولة القرمطية في الأحساء والبحرين(٤٦) وتزوج من ابنه وحل مرموق هو الحسن بن سنبر الذي أصبح من أوائل المستجيبين له ومن دعاته المبشرين . ولم يبأت عام ٢٨٦هـ حتى تمكن من السيطرة على معظم أنحاء البحرين ، وأخذ القطيف التي أصبحت مركزًا للقرامطة في القرن الثالث الهجري وقد أشار ذلك فلقًا كبيرًا في العراق مركز

الخلافة ، وخوفًا من امتداد الحركة القرمطية إلى البصرة استوذن الخليفة في استعمال ١٤٠٠٠ دينار لترميم الحصون والقلاع(٤٧) .

وكان أن اخذ أبو سعيد الجنابي في غزو البلدان المجاورة ، التي أبت التسير في ركابه ، فالتف حوله الناقمون على الحكم العباسي(٤٨) وكان يعاقب بالقتل كل من يعصى أوامره أو يقف في وجهه ، وأخذ ينتقل من بلدة إلى أخرى داعيًا أهلها إلى الدخول في الدعوة مهددًا كل من يتخلف عن تلبية النداء ، فهابه الناس وأجابه الكثير منهم ، وفر منه خلق كثير إلى بلدان شتى . ولم تمتنع عليه غير هجر مركز التجارة وأرباب المال ، فنازلها شهورًا . كذلك استولى على الأحساء بعد معارك طاحنة ثم سيطر على الطائف وعلى باقي بلاد البحرين . وهكذا قوى أمره وازداد نفوذه فأخذ يمد نشاطه نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، حتى أصبح الحاكم المطلق على كافة المناطق التي خضعت لنفوذه . ولم تنجح الحملات العباسية التي أرسلت إلى البحرين للقضاء عليه(٤٩) .

أما هجر التي استعصت عليه فأخذ يشن عليها هجمات متلاحقة ووقف أهلها في وجهه ، مما حدا به إلى أن يضرب حصارًا عليهم طال على نيف وعشرين شهرًا ولم يوفق في السيطرة عليها إلا بعد أن قطع الماء عنها ، وفر بعض أهلها إلى البر ودخل بعضهم في دعوته ، وخرجوا إليه وبقيت طائفة لم يفروا لعجزهم أو لم يدخلوا في دعوته فقتلهم ، وأخذ ما في المدينة وأخربها فبقيت خرابًا وصارت مدينة البحرين هي الإحساء(٥٠)

النظام السياسي لقرامطة البحرين :

أن النجاحات التي حققها أبو سعيد سواء على صعيد ضم الأراضي ، أم على صعيد بناء قاعدة شعبية ، جعلته يحتكر معظم السلطات السياسية والصلاحيات في يده ، فقام باستدعاء كافة الدعاة من مناطقهم وطلب إليهم أن يرجعوا إليه في كل ما يتعلق بنشر الدعوة ، وتطبيق نظام ما عرف بالألفة

والإخاء ، حيث أصبح هو المرجع الوحيد المسئول عن الدعوة في البحرين وتوابعها من القرى والدساكر ، على أن يتولى هو تعين من يساعده ويتوب مقامه ، ويشد أزره ممن يختاره من الدعاه لبلورة نظام الألفة والإخاء بطاقات عقلانية وسياسه مشبعة بالطاعة العمياء لمواجهة الصراع بين الأفكار في مجتمع البحرين(٥١) .

ويقوم نظام الألفة والإخاء على ما يلي :

(١) صهر كافة القطاعات من عمال وفلاحين ، حرفيين وتجار في بوتقة واحدة .

(٢) السيطرة الفعلية تدريجيًا على كافة الأراضي والملكيات الزراعية والصناعية والتجارية وجعلها تخضع لإشراف مجلس الدعاة الثلاثي .

(٣) يدفع كل مستجيب وعضو عامل في الدعوة اشتراكًا شهريًا قدره دينارًا واحد بالإضافة إلى أموال الزكاة والفطرة .

(٤) تجمع هذه الأموال في خزانة الدعوة وتنفق بالتساوي على المشاريع الاجتماعية والعلمية والصناعية .

(٥) نشر العلم والمعرفة بين الجميع .

(٦) الدقة التامة في اختيار الدعاة والمبشرين ، وإيفاد المتفوقين منهم لمواصلة الدراسة العليا في سلمية(٥٢) .

(٧) تنمية الإخاء والمحبة بين الجميع ، ليصبحوا عائلة واحدة متكاتفة متضامنة ، يتعاونون بعضهم مع البعض الآخر في طلب صلاح الدنيا .

(٨) تضحية الفرد الجسدية في سبيل إصلاح إخوانه وتقويم أعوجاجهم وتقديم المساعدة لهم .

(٩) نشر العدل والمساواة والمحبة والإخاء والطاعة المطلقة لأولى الأمر .

(١٠) اعطاء المرأة كافةالحقوق ومساواتهامع الرجل واشراكها فيتنظيمات الدعوة.

(١١) العمل بسرية تامة وتجنب الاحتكاك مع الطوائف الأخرى(٥٣) .

التطور الاقتصادى للبحرين :

جعل أبو سعيد الجنابى مدينة الأحساء مركزًا لمقاتلته ، أو قاعدة لفتوحاته خلفًا لمدينة هجر التى دمرت ، وهذا يخالف ما ذكره البعض من أن الأحساء بنيت فى عهد أبى طاهر سليمان الجنابى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م وجعلها لملكه(٥٤) ومستقرًا لحكمه .

ولم تلبث أن أصبحت الأحساء فى عهد أبى سعيد المدينة الرئيسية فى البحرين ، واستقر نازلوها وبدأت تكتسب شيئًا فشيئًا أهمية كبيرة ، من اجتماع التجار وأصحاب الحرف إلى ازدهار الأسواق إلى توفر الخدمات العامة للقاطنين فيها .

إن استتاب الأمر لأبى سعيد فى البحرين ، وحصوله على أموال الغنائم جعله يلتفت إلى مسألة التنظيم وإدارة الدولة ، فبنى دار الحكومة فى الأحساء وبدأ بتنظيم أحوال الزراعة واصلاح الأراضى وأصول النخيل .

وقد وصف لنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو مدينة الأحساء أثناء مروره فيها بقوله أنها (مدينة وسواد أيضًا ولها قلعة ويحيط بها أربعة أسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء ، بين كل اثنين فيها ما يقرب من فرسخ وفى المدينة عيون ماء عظيمة ، تكفى كل منها لإدارة خمسة سواق ويستهلك كل هذا الماء فلا يخرج منها ، ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التى فى المدن الكبرى ، وفيها أكثر من عشرين ألف محارب)ويصف عملية البيع والشراء فيها فيقول: أما عملية البيع والشراء فيها فهو يتم بواسطة رصاص فى زنابيل وهى عملية لا تسرى فى الخارج ومما تشتهر به صناعة الفوط الجميلة التى يصدرونها إلى البصرة وغيرها(٥٥) .

وهذا التطور الذى مرت به مدينة الأحساء دليل على قوة الازدهار الاقتصادى الذى حصل فى البحرين فى تلك الفترة، وربما كان لوقوع الأحساء على مسيرة سبعة فراسخ من البحر تأثير واضح على ذلك التطور ، لكن ذلك

لا يقلل من أهمية تحسن الوضع الاقتصادى نتيجة تطور المصالح وتغير الفئات والطبقة الاجتماعية الجديدة التى تشكل قاعدة الحركة القرمطية . وإن نمو المعاش مدينة مثل الأحساء يدل على اتجاه فئات اجتماعية واسعة نحو الاستقرار فى المدينة بحكم ما مرت به من تطور فى سياق ظهور طبقات اجتماعية جديدة(٥٦) .

إن العبارة الشهيرة التى أطلقها قائد القرامطة (وأمرت أن أشفى هذه القرية وأغنى أهلها وأستخدمهم وأملكهم أملاك أصحابها) تنطوى على بعد اقتصادى فى سياسة قرامطة البحرين . ذلك أن جهودهم انصبت على تنظيم اقتصاد الدولة وتقويته وتنظيم الملكية وإعادة توزيع الثروة . وينطوى هذا الإجراء القاضى بالتوزيع العادل للثروة من أباحة المال بالمفهوم الذى شاع عند خصومهم على بعد اجتماعى ، استطاعوا من خلاله أن يحولوا الملكيات الخاصة إلى ملكية عامة من خلال قناعتهم بأن هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، فهم بذلك يقضون على أسباب الصراع الحقيقى الذى لا يفتأ يدور بين الطبقات الاجتماعية . وهكذا يبدو أن هذه السياسة الاقتصادية القرمطية استهدفت المساواة بين الناس(٥٧) كما كان من أهدافها القضاء على الاستغلال ، ونزع الملكية الفردية الواسعة ومصادرة الإيرادات الكبيرة الخاصة لمصلحة المجتمع(٥٨) . وهنا يظهر أثر العامل الاقتصادى فى نجاح دعوة القرامطة لأن الذين أسرعوا إلى تأييدها كانوا من صغار الفلاحين والعمال والفقراء المعدمين(٥٩) واتخذ القرامطة من الآية القرآنية (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)(٦٠) شعارًا على اعلامهم البيضاء . وبهذه الشعارات تكونت جماعة متحمسة اقتنعت بأفكارهم ومبادئهم ، والتفت حول قيادتهم ، وهى التى تحولت إلى طبقة ارستقراطية تملك العبيد والخزائن والأراضى والمطاحن ، ويجانبها طبقة أقل شأنًا من الملاكين ، وانخرطت قاعدتها فى الحياة الاقتصادية الجديدة إلى هذا الحد أو ذاك . وعند وصف ناصر خسرو للنظام الاقتصادى القرمطى يتطرق إلى مسألة

استملاك الحكومة القرمطية للعبيد فيقول: وكان لهذه الحكومة ثلاثون ألف عبد زنجي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين . ويقول كذلك: ليس عندهم ضرائب ولا أعشار، وإذا افتقر أحدهم أو استدان، إعانة الآخرون، ليستعيد وضعه، وليس للدائن غير رأسماله، وكل غريب ينزل بالمدينة وله صناعة يعطى ما يكفيه من المال ليشترى ما يلزم صناعته من عدد وآلات ويرد إلى الحكومة ما أخذ حين يشاء(٦١) .

أما موارد الدولة الاقتصادية فكانت تأتى عن طريق الضرائب التي فرضت على البضائع التي تجتاز حدودها ، والرسوم والضرائب التي تصلهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة وذلك وفق قوانين معينة . كذلك تأتى موارد الدولة من جميع الأموال من الرعية وفق نظام خاص .

وهكذا استطاع القرامطة بهذه التوجيهات بناء مجتمع مستقر حول مدينة الأحساء، وبالتالى فإن الإجراءات الاقتصادية التي منحتها الدولة للفلاحين ، وجماعات البدو المتنقلة ، ساعدت على استقرار عدد كبير منهم ، وهو الاستقرار الذى جلب إليه جموعًا من الحرفيين الذين وجدوا فى عاصمة البحرين تأمينًا لمستقبلهم .

وقد صار للعمل فى دولة القرامطة قيمة اجتماعية واقتصادية راقية . وعن الأهمية التي اكتسبها العمل فى دولة القرامطة يقول المقريزى : وأخذ كل رجل منها بالاتكماش فى صناعته ، والكسب بجهده ليكون له الفضل فى رتبته وجمعت المرأة كسبها من مغزلها والصبى أجر نظارته للطير وأنوه فلم يتملك أحد فيهم الإسبقة وسلاحه(٦٢) .

كذلك رغم الاهتمام بالمواجهة العسكرية مع الدولة العباسية إلا أن القرامطة لم ينشغلوا عن الاهتمام بالأرض ، فأجروا مجموعة من الاصلاحات ساهمت فى نهوض الزراعة ، وبذلوا جهودهم من أجل رفع إنتاجها . وتقدم أبو سعيد فى زراعة الأرض وعمارتها(٦٣) .

العلاقات بين قرامطة البحرين والدولة العباسية :

لا شك فى أن ما حققه قرامطة البحرين من نجاحات سواء على الصعيد السياسى أو الاقتصادى أو العسكرى ، أغراهم على مزيد من التحدى للدولة العباسية ، فتكررت غاراتهم العنيفة على القرى المجاورة لهم وباتوا يهددون البصرة، وضواحيها منذ سنة ٢٨٧هـ - ٩٠٠م عندما قرر الخليفة العباسى المعتضد نقل العباس بن عمرو الغنوى من ولاية فارس ، واقطع له اليمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة أبا سعيد الجنابى ، وضم إليه زهاء ألفى رجل(٦٤) واجتمع إليه عدد كبير من الأعراب والمتطوعين إلتحقوا به فى البصرة . وربما وصل عدد مقاتلى الغنوى إلى العشرة آلاف مقاتل(٦٥) وكان أن سار الغنوى قاصدًا أبا سعيد الجنابى ، وفى المناوشات الأولى انهزم الأعراب والمتطوعين من جيش الخلافة وتمكن الجنابى من التغلب على الجيش العباسى . وأسر قائدة مع عدد كبير من جنده . ولم ينج من هذه المعركة إلا النفر القليل ، ولم يبق أبو سعيد إلا على قائد جيش الخليفة عباس الغنوى . وعندما وصلت أخبار الانتصارات التي حققها جيش أبى سعيد إلى أهالى البصرة فزعوا وعزموا على الانتقال منها . إلا أن والى البصرة محمد الواثقى منعهم من ذلك(٦٦) .

وكان الغرض من الابقاء على الزعيم العباسى عباس الغنوى هو أن يبلغ الخليفة المعتضد رسالة من أبى سعيد الجنابى ، حيث قال : امضى إلى صاحبك وعرفه بما رأيت . وقد تعجب الناس من أمر جيش العباس حيث يؤسر قائده وحده وينجو وحده ويقتل جميع أفراد جيشه(٦٧) وكانت مفاجئة أيضًا للبلاط العباسى أن يعود عباس بن عمرو الغنوى إلى بغداد سالمًا . وكثيرًا ما كان عبد الله بن طاهر المتوفى سنة (٣٠٠هـ - ٩١٢م) يتحدث عن إفراج القرامطة عن الغنوى ويعتبر ذلك أهم الأحداث غرابة فى حياته(٦٨) .

إن الانتصار الساحق الذى حققه أبو سعيد على جيوش الخلافة العباسية دفعه إلى الزحف على اليمامة وضمها إلى حكومة البحرين ، ثم عمان فاستولى على قسم كبير منها وعلى الجزر التابعة لها(٦٩) .

الواقع أن أبا سعيد كان من القوة والمقدرة ، بحيث يحق نجاحًا كبيرًا فى تنظيم صفوف الحركة القرمطية لمواجهة جيوش الخلافة العباسية التى أوقع بها الهزيمة مرات عديدة ، واستطاع أن يمد حركته خارج البحرين ، حيث شمل نفوذه كل الجزيرة العربية ، وبات القرامطة يشكلون أكبر قوة ضاربة فى تلك المنطقة . وكان أن سيطر سيطرة فعلية على كافة المناطق الممتدة من البحرين حتى مكة المكرمة ، وأسس دولة قوية فى البحرين ، أصبح يتوارثها الأبناء عن الآباء(٧٠) .

ثم جاءت وفاة أبى سعيد الجنابى فى سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) لتوقف تطلعات القرامطة فى التوسع والسيطرة ، حيث باغته أحد الخدم من أسرى حربه مع عباس الفنوى دخل عليه فى الحمام وذبحه ، وكانت مدة حكمه خمسة عشر عامًا .

وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه الأكبر سعيد باستلام مهام الحكم . ونتيجة لصغر سنه لم يتمكن الابن من السيطرة على الوضع مما أتاح المجال لنفوذ أخيه الأصغر أبو طاهر أن يستلم زمام الأمور فى البحرين رغم أن عمره لم يتجاوز السادسة عشر ، ولكنه كان أكثر كفاءة ومقدرة من أخيه سعيد كما كان شجاعًا شهمًا(٧١) وقد باركت الخلافة الفاطمية فى المغرب قيامه بالحكم .

عهد أبى طاهر :

تسلم أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابى شئون الدولة القرمطية فى البحرين بعد والده الذى سادت بعد وفاته هدنة قصيرة بين القرامطة والعباسيين . ذلك أن الوزير على بن عيسى العباسى أطلق للقرامطة ما أرادوه من البيع والشراء قاصدًا أن يألفهم خوفًا على الحاج منهم(٧٢) ثم طلب منهم مقابل

ذلك إطلاق الأسرى فأبدى القرامطة استجابة لذلك ، وقاموا بإطلاق سراح الأسرى وأبدوا ترحيبًا بالوفد الذى أرسله الخليفة العباسى المعتضد إليهم ، فاستقبلهم أبو طاهر وأكرمهم وأجاب على كتاب الخليفة(٧٣) .

وكان أن تشكلت هيئة وصاية عقب وفاة أبى سعيد من القادة ، سميت بالعقدانية ، باشرت عملها فى حكم البلاد لمدة تسع سنوات من سنة ٣٠١ - ٣١٠ بهدوء نسبى فلم تشر المصادر إلى أحداث هامة فى هذه الفترة بين القرامطة والعباسيين . على أن سياسة القرامطة بعد وفاة أبى سعيد إنما كانت بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة أن أبا طاهر بدأ حكمه بالهجوم على الكوفة واستباحها لمدة ستة أيام بسبب امتناع الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) عن اعطائه البصرة والأهواز(٧٤) ثم اتجه إلى البصرة فى سنة ٣١١هـ فى ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ، ولما اعترضهم والى البصرة سبك المفلحى قتلوه ، ووضعوا السيف فى أهل البصرة(٧٥) وأقام بها سبعة عشر يومًا وحمل منها ما قدر على حمله من المال والأمتعة والنساء والصبيان(٧٦) ثم انسحبت إلى البحرين .

وفى سنة ٣١٤هـ وقع الخلاف بين العقدانية وأهل البحرين ، فخرج على أثره أبو طاهر الجنابى إلى مدينة الأحساء التى سماها المؤمنية وبنى قصره وأصحابه حوله(٧٧) ثم هاجم قرامطة البحرين قافلة للحجاج العراقيين وهى فى طريق عودتها إلى بغداد وتم نهبها وأسر بعض رجالاتها المعروفين ، وكان بينهم أميرهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وأحمد بن بدر عم والدة الخليفة المقتدر ، واعاد بهم إلى بلده . واضطر الخليفة أن يرسل إلى أبى طاهر وفدًا من أجل إطلاق سراح الأسرى وبعث مع الوفد رسالة جوابًا على كتابه يبرز فيها عمله وبهدده ويوجه له مآخذ مليئة بالنقد والتجريح . ويقال أنه أرسل إليه يحاوره فيما كان فى قدرته الاستيلاء على البصرة والأهواز .

واستمر أبو طاهر الجنابى بعد ذلك يشن الغارات على ثغور الدولة العباسية، فسيطر سيطرة تامة على طرق القوافل البرية وقوافل الحج ، واستطاع هزيمة الجيش

العباسي بقيادة عبد الله بن حمدان وجيش آخر أرسل من بغداد بحجة حماية الحجاج ، فتازلهم أبو طاهر قرب الكوفة وهزمهم ، ثم قتل قوادهم ودخل الكوفة وتمركز فيها . كذلك حقق أبو طاهر نصرًا باهرًا على الجيش العباسي بقيادة يوسف بن أبي الساج وذلك في سنة ٣١٥هـ حيث تعقب القرامطة هذا الجيش حتى مشارف العاصمة بغداد . وانقلوا بما أصابوه من مكاسب ومغانم . ولم يقدر أبو الساج قوة القرامطة حيث أرسل إلى الخليفة بشارة الفتح(٧٨) قبل معرفة نتيجة المعركة فادت به تلك الحسابات الخاطئة إلى الهزيمة .

قرامطة البحرين وحادثة الحجر الأسود :

وفي سنة (٣١٦هـ - ٣١٧هـ) تعرضت مكة لغزو البحرين في موسم الحج . ويجمع المصادر على أن أبا طاهر قلع الحجر الأسود ، ونقله معه إلى هجر (ربما الأحساء) وقلع باب البيت(٧٩) ، وأخذ جميع ما كان فيه من آثار الخلفاء التي زينوا بها الكعبة ، وذهبوا بدرة اليتيم ، وكانت تزن فيما ذكر أهل مكة أربعة عشر مثقالاً ، وبقرطي مارية ، وقرن كبش إبراهيم ، وعصا موسى ، ملبسين بالذهب مرصعين بالجواهر ، وطبق ومكبة من ذهب وسبعة عشر قنديلاً كانت بها من فضة كانت منضوبة في صدر البيت(٨٠) .

قد تطرق كثير من الكتاب الإسلاميين(٨١) لهذا الحدث الهام من جانب القرامطة ، وفسروه بأن هدفهم كان استبدال الأحساء بمكة ، وجعلها مقصد الحجاج ومركز المسلمين ، لأن الحجر كان يجذب الناس من سائر المعمورة .

والواقع أن حادثة اختطاف الحجر الأسود تعتبر من أهم الأحداث البارزة في تاريخ القرامطة لما تمثله من تحد كبير لسياسة الدولة العباسية وأيدلوجيتها السائدة ، ولم يكن أحد يتصور أن الصراع بين القرامطة والعباسيين سيصل إلى هذه الدرجة من التحدي ، نظرًا لما لمكة والحجر الأسود من مكانة في قلوب المسلمين جميعًا .

إن نظرة عميقة لما أورده بعض المؤرخين عن مهاجمة القرامطة لمكة بقيادة أبي طاهر ، الذي أخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، وذهب دور أهل مكة وخلع الحجر الأسود من البيت وحمله إلى هجر ، لكفيلة باضفاء بعض الوضوح على خلفيات ذلك العمل . فتقسيم الكسوة على الأتباع دليل على الرغبة في سد الحاجة . فلا داعي حسب رأيهم لأكساء الكعبة بذلك القماش الثمين والنفيس في حاجة إليه(٨٢) . أما الحجر فإنه بمجرد نقل ، لم يتلف أو يرم به بل أنهم نقلوه إلى عاصمتهم التي سميت دار الهجرة . كما أن نهب دور أهل مكة هو نهب لدور التجار وكبار الملاك ، من المرتبطين بالخلافة العباسية وهم الذين استفادوا من موسم الحج عن طريق استغلالهم الفاحش للحجاج " وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس إليه من أطراف العالم "(٨٣) .

والجدير بالذكر أن القرامطة كانوا يقصدون من هجومهم على مكة والحجاج مضايقة السلطة العباسية ، فشكل ذلك موقفًا اجتماعيًا وسياسيًا صاغه أبو طاهر الجنابي عندما هاجم " أصحاب السلطة " .

ولم يوافق على طلب الصلح معهم في قوله " أنا لا أغدر ولا أغر في نفس ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم لكن لا أؤمنهم لأنهم يشربون الخمر ويلبسون الحرير ويعينون السلطان الذي يحجب عنهم الرعية ويظلم اليتيم والأرملة ، ويشرب الخمر ويسمع القيان "(٨٤) .

وكان أن بذل العباسيون في رد الحجر الأسود محاولات كثيرة . وقد بذل في رده أمير الجيش - بكم ألف دينار لكن القرامطة رفضوا هذا العرض(٨٥) . وقالوا: أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر(٨٦) وفعلاً بقي عندهم اثنين وعشرين سنة إلا اشهرًا(٨٧) .

وعندما عجز العباسيون عن استرجاع الحجر الأسود ، عادوا إلى البحث في عقد مساومة لإرجاعه . ففي سنة ٣٢٥هـ - ٩٣٦م قاموا بمحاولة سلمية وكانت

مطالب أبي طاهر أن يحمل إليه السلطان في كل سنة مالاً وطعامًا ما بنحو مائة وعشرين ألف دينار ليقيم في بلده . وبذل ابن رائق وهو أمير الأمراء في عهد الراضي بأن يجعل ما إلتمسه رزقًا لأصحابه على أن يكسر لهم السلطان جريدة وينفق فيهم ويدخلوا في الطاعة ويستخدموا(٨٨) .

إلا أن هذه المساومة لم يكتب لها النجاح لأن ما يعرضه ابن رائق هو مشروع اختراط القرامطة في خدمة العباسيين مقابل اجر عادي بتقاضونه ، وهذا لا يتناسب مع ما وصل إليه القرامطة من القوة والنفوذ .

وهكذا ظلت السلطة العباسية عاجزة عن التحرك للقيام بعمل جاد تجاه القرامطة ، مما جعلهم يمدون نفوذهم على اليمامة . ثم عادوا إلى شن هجمات جديدة على العراق والأهواز ، وعندئذ اضطر الوزير العباسي ابن الفرات إلى فتح باب التفاوض مع أبي طاهر ، ولكن شروط هذا الأخير مقابل ايقاف الهجمات المدمرة كانت تخلي العباسيين عن البصرة والأهواز ، والاعتراف بنفوذ القرامطة عليهما ، فكان الرد العباسي هو الرفض ، مما حدا بالقرامطة إلى بسط سلطانهم على الكوفة سنة ٣٦٥هـ - ٩٣٧م ، وقاموا بمهاجمة بغداد سنة ٣٢٩هـ دون أن يتمكنوا من احتلالها ، مما اضطر العباسيين إلى عقد هدنة مع القرامطة يؤدون لهم ضريبة تقدر بحوالي مائة وعشرين ألف دينار إلى جانب ضريبة أخرى على قوافل الحج .

ولا شك في أن حالة التفكك التي عاشتها الدولة العباسية في تلك الفترة دفعت أبا طاهر إلى التطلع إلى توسيع رقعة نفوذه والسيطرة على مناطق تضاف إلى البحرين(٨٩) .

العلاقات بين قرامطة البحرين والفاطميين :

استغلت الدولة العباسية ما قام به أبو طاهر من احتجاز الحجر الأسود استغلالاً كبيرًا في التشهير بالقرامطة الذين كانوا يتوسعون في الأقاليم والولايات

العباسية ، ويحققون انتصارات على الصعيدين السياسي والعسكري . وفي تلك الفترة كان الإمام عبيد الله المهدي يثبت أقدامه في أقاليم المغرب العربي على حساب الخلافة العباسية . وهكذا استهدفت الحركتان تقويض أركان ودعائم الدولة العباسية والقضاء عليها تمامًا(٩٠) وكان التحالف بين الطرفين علنًا . ولم يحاول أبو طاهر القرمطي اخفاء صلته وتبعيته لعبد الله المهدي ، فعندما دخل مكة في سنة ٣١٧هـ - ٩٢٩م خطب لعبد الله صاحب أفريقيا(٩١) .

وهكذا سادت علاقات طيبة بين الفاطميين وقرامطة البحرين منذ نشأة الدولة الفاطمية في المغرب العربي . لكن تلك العلاقات لم تدم طويلاً بين الطرفين بعد حادثة الحجر الأسود ، فقد كتب أبو عبيد الله المهدي كتابًا مليئًا بالتهديد لأبي طاهر يعنفه بلغه ما فعله بأهل مكة والحجاج وأخذه للحجر الأسود ، فأنكر عليه ذلك ، ومما قال له : وقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت ، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة ، فإنا نبرئ منك في الدنيا والآخرة(٩٢) . وازاء هذا التهديد الصريح من جانب عبيد الله اضطر القرامطة - بعد أن عقد مجلس قيادتهم في البحرين أول جلساته عقب وفاة أبي طاهر - إلى اتخاذ عدة قرارات من بينها مواصلة القتال ضد الخلافة العباسية والموافقة على إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في البيت الحرام تلبية لرغبة الخليفة الفاطمي ، وكسبا لوده(٩٣) . قد تم ذلك على يد خلفاء أبي طاهر سنة ٣٣٩هـ(٩٤) .

ومن الواضح أن استجابة القرامطة لدعوة أبي عبيد الله المهدي في ارجاع الحجر الأسود وما أخذ من أهل مكة تدل دلالة واضحة على ما ساد العلاقات بين القرامطة والفاطميين من تطور ، فقد وجد كل من الطرفين أن استمرار تلك العلاقات تخدم مصالحهما وخططهما ، فقرامطة البحرين رأوا أن الارتباط بدولة كبيرة وقوية مثل الدولة الفاطمية يعطيها نوعًا من الحماية ويطيل أمدها في البقاء

ولا يتعارض ذلك مع النزعة الاستقلالية لديهم ، وذلك لبعد المسافة بين البحرين والقيروان . أما بالنسبة للفاطميين فقد وجدوا أن جل ما يطلبونه في تلك المرحلة هو توجيه المزيد من الضربات للخلافة العباسية ، ووجدوا في القرامطة خير من يقوم بهذا الدور مقابل ما يقدمونه لهم من العون والمساعدة المالية .

العلاقات القرمطية الفاطمية في عهد المعز لدين الله الفاطمي :

استطاع الفاطميون أن يوسعوا دائرة نفوذهم من الأراضي المغربية إلى الأراضي المصرية في سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٨م في عهد المعز لدين الله الفاطمي ، ثم امتد النفوذ الفاطمي أيضًا ليشمل فلسطين والشام(٩٥) .

وجاءت هذه الانتصارات الفاطمية لتزيد من مخاوف العباسيين الذين خشوا من امتداد النفوذ الفاطمي إلى بغداد نفسها ، خاصة أن القرامطة في تلك المرحلة كانوا يشكلون خطورة بالغة على بغداد . لذلك أدرك العباسيون وعلى رأسهم الخليفة المعتمد أنه من صالحهم التحالف مع القرامطة أو تحييدهم على الأقل ، لتخفيف خطرهم على بغداد . هذا من جانب أما الجانب الآخر فإن سيطرة الفاطميين على مصر أدت إلى قطع الإتاوة التي كان يدفعها كافور الأخشيدي للقرامطة ومقدارها ٣٠٠ ألف دينار ، وربما تكون هذه أحد الأسباب التي أدت إلى تبدل صلة المودة بين قرامطة البحرين والفاطميين .

وهكذا نجح العباسيون في أحداث فجوة في العلاقات القرمطية الفاطمية واستطاعوا استغلال سوء العلاقة بين الطرفين لصالحهم . ولا شك في أن وجود تحالف قرمطي فاطمي يشكل خطورة كبيرة على الكيان السياسي العباسي ثم أن انهيار الجبهة الفاطمية القرمطية كان في صالح العباسيين الذين نجحوا في جذب القرامطة إلى جانبهم ضد أعدائهم الفاطميين ، فكان لهم في بغداد ممثل نافذ الأمر. وقد برهنت الأحداث التالية مدى التعاون الوثيق فيما بينهم ، والذي تطور إلى ما يشبه حلف صداقة ودفاع ضد الفاطميين .

بدايات الضعف القرمطي في البحرين :

لم تستمر عائلة الجنابي في تماسكها للحفاظ على السيادة السياسية في البحرين ، فقد بدأ صراع خفي على السلطة والقيادة يطل برأسه في صفوف العائلة الجنابية . وقد لمس أبو طاهر وهو في أوج قوته ونفوذه ذلك الصراع الداخلي ، ولكنه غض الطرف عما يتفاعل في صفوف العائلة ، وحاول أن يجمع الكلمة ويوحد الصف خشية أن يستغل الخصوم هذا الصراع الداخلي للقضاء على الأسرة بكاملها(٩٦) .

وكان أن حلت بالبحرين الفتن والاضطرابات التي أفقدتها ذلك الهدوء والاستقرار الذي عرفته آنذاك ، وبدأت قوة جبهة قرامطة البحرين في الضعف بعد ما كانت تقود المواجهة السياسية والعسكرية ضد الخلافة العباسية ، منذ أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين . هذا في حين استعصى على جيوش الخلافة العباسية اخضاعها ، حتى غدت البحرين دولة ذات كيان سياسي مستقل.

ثم جاءت وفاة أبي طاهر الجنابي لتحقق رغبة أعداء القرامطة في أحداث الانقسام في أوساط الأسرة الجنابية ، فقد أصيب أبو طاهر بمرض في شهر رمضان سنة ٣٣٢هـ - ٩٤٣م أدى إلى وفاته بعد أن دام حكمه ثلاثة وعشرين سنة .

وسرعان ما أحدثت وفاة أبي طاهر انقسامات خطيرة في أسرة الجنابي ، ليس فقط على صعيد الصراع على السلطة وإنما على صعيد الموقف من الفاطميين أيضًا . فعلى صعيد الانقسامات حول الزعامة والقيادة والصراع على السلطة استغل أخوة أبي طاهر وهما أبو القاسم سعيد بن الحسين بن الحسن الجنابي وأبو العباس الفرصة فوثبا على السلطة . وشكلا مجلسا للقيادة من ستة زعماء ، اسموه بمجلس العقدانية (أي أصحاب العقيدة) . وكانت من مهام هذا المجلس تقوية الاتصال بالخلافة الفاطمية وتطبيق سياستها في البلدان الخاضعة لنفوذ

آل الجنابي(٩٧) ثم ازدادت حدة الانقسامات عندما شكل أبناء سليمان وعلى رأسهم سابور وعمه أحمد ومعهم كبار القرامطة ، كتلة تستهدف الخضوع للدولة الفاطمية . واتخذ هذا الفريق الذي مال إلى الدولة الفاطمية وأخذوا يتلقون التعليمات والتوجيهات منها اسم العقدانية ، في حين ظهر فريق ثان على رأسه سعيد بن الحسين الجنابي ، تمسك بالتمتع الاستقلال التام . وقد رأت للدولة العباسية أن تستفيد من تلك التناقضات بين القرامطة أنفسهم ، فأخذت تشجع طرفًا ضد آخر وتغذي الحروب بينهما بهدف التخلص من جميع القرامطة . لهذا وقفت مع سعيد وفريقه ، الذي يطالب بالاستقلالية التامة عن السلطة الفاطمية ، ضد الفريق الآخر الذي يتزعمه سابور وعمه أحمد . وكان انتصار سعيد سببًا لاندلاع حروب داخلية استمرت فترة طويلة ، مهدت لنهاية الحركة القرمطية في البحرين .

وفي سنة ٣٥٣هـ استطاع أحمد أن ينتصر على سعيد ويبعده نهائيًا عن مركز القيادة القرمطية في البحرين ، كما استطاع أن يجهز جيشًا بقيادة ابنه الحسن الأعصم لاحتلال عمان وما جاورها ، وبعد أن تحقق له ذلك جهز حملة أخرى إلى الشام انتصر فيها على الحسن بن عبد الله بن طغج الأخشيدي صاحب الشام وقتله(٩٨) .

وكان أن شهدت البحرين مزيدًا من الفتن الداخلية والانقسامات حول السلطة ، فقد ثار سابور بن سليمان الذي كان وليًا للعهد ، بموجب الحل الذي أمر به الخليفة الفاطمي نتيجة للصراع بين أفراد عائلة الجنابي ، فمالت العقدانية إلى تولية سابور ، إلا أن أحمد أصبح في الولاية ، وسابور في ولاية العهد(٩٩) ولم يتمكن الفاطميون من تثبيت سابور في أمر الولاية إلا أنهم وقفوا مع سابور يشدون أزره بينما التجأ الحسن الأعصم إلى الحمدانيين والبويهيين والعباسيين .

وقد انتهى هذا الصراع بإعدام سابور ونفي إخوانه وأنصاره إلى جزيرة أوال(١٠٠) .

وهكذا تولى الحسن الأعصم قيادة الدولة القرمطية في البحرين بعد وفاة والده أحمد بن سعيد الجنابي سنة ٣٥٩هـ بمساعدة العباسيين . وكانت وفاة والده نتيجة مؤامرة اغتيال دبرها أتباع سابور ، إذ وضعوا له السم فمات على أثره ، وبذلك توطدت الأمور للحسن الأعصم . وعندما أدرك الحسن خطر أسرة أبي سعيد الجنابي على حكمه نفاها إلى الجزيرة آوال(١٠١) وتخلص من الدسائس والمؤامرات . وشهدت البحرين في عهده نوعًا من الاستقرار . ومن الأحداث الهامة التي جرت في عهد الحسن الأعصم سيطرته على أغلب الأراضي الشامية سنة ٣٥٧هـ ، وتوليته عليها أحد مؤيديه . ورغم ذلك بفضل تحالفه مع العباسيين ضد الفاطميين في مصر ، حتى استطاع استكمال السيطرة على الشام بالسيطرة على دمشق سنة ٣٦٠هـ(١٠٢) .

ثم دخل الحسن الأعصم في حرب مع الفاطميين في الأراضي المصرية ، وبينما هو كذلك تمكن آل الجنابي (آل طاهر) من الخروج من جزيرة آوال وتجهيز جيش ساروا به إلى الأحساء ، واحتلوها ، مما اضطر الخليفة العباسي المطيع إلى عقد الصلح معهم . وفي مصر استطاع جيش الفاطميين فك حصار جيش الحسن الأعصم الذي تقهقر أمام ضربات جنود الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي . كذلك اشتعلت فتنة في البحرين بواسطة أبناء عمة آل طاهر في سنة ٣٦٢هـ ، مما دفع الحسن الأعصم إلى الرجوع إلى البحرين ، حيث استطاع بعد معارك دامية السيطرة على الموقف(١٠٣) .

وقد غضب الخليفة الفاطمي المعز الفاطمي لدين الله من تصرفات الحسن الأعصم ، وتعامله مع تلك الأحداث ، فكتب له كتابًا يوبخه فيه ويهدده ، ويشير إلى عزله عن رآسة القرامطة في البحرين ، وأسنادها إلى بيت أبناء أبي طاهر ، فرد عليه الأعصم : وصل جوابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على أثره والسلام(١٠٤) .

وهكذا أوجدت السياسة التي سار عليها الحسن الأعصم تباعدًا بين قرامطة البحرين والفاطميين إلى حد كبير ، حيث أخذ الفاطميون في إثارة النزاعات بين القرامطة أنفسهم ، لاضعاف شأنهم فارسل المعز لدين الله الفاطمي إلى ولد أبي طاهر وبنيه وهم الذين أبعدوا إلى جزيرة أوال ، يخبرهم باحقيتهم في إمارة القرامطة . فلما علم بذلك الحسن الأعصم أمر بحذف اسم الخليفة المعز لدين الله من الخطبة في بلاد البحرين واقامة الدعوة للخليفة العباسي المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)(١٠٥) .

وقد أعاد الحسن الأعصم هجومه على مصر ، بعد أن تمكن من تنظيم جيوشه ، فسار بهم وتقدم مرة أخرى وضيق الخناق على الفاطميين الذين تمكنوا بحيلهم من دحر الحسن الأعصم ، فرجع إلى البحرين سنة ٣٦٣هـ .

وفي سنة ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله الفاطمي فتولى أخوه الإمام العزيز الخلافة من بعده . وفي أثناء ذلك شن القرامطة هجومًا آخر على الفاطميين بمساعدة عسكرية من العباسيين ، فتمكنوا من دحر الجيش الفاطمي وأسر قائده جوهر الصقلي ، الذي احتال وهرب ثم رجع إلى مصر حيث أعاد تنظيم جيوشه فخرج بها إلى الرملة سنة ٣٦٨هـ ونازل افتكين قائد الجيش العباسي وتمكن من أسره ودحر جنوده(١٠٦) .

وأخيرًا جاءت وفاة الحسن بن أحمد بن الأعصم بعد وفاة المعز لدين الله الفاطمي بسنة واحدة أي في سنة ٣٦٦هـ لتنهي حلم القرامطة في التوسع .

سقوط دولة القرامطة في البحرين والأحساء :

يبدو من خلال هذا السرد التاريخي عن العلاقة بين قرامطة البحرين والفاطميين أن العلاقة بينهما كانت تتراوح بين المد والجزر ، بين الولاء والانصياع لتعليمات الفاطميين وبين الحروب الطاحنة معهم ، مما كلف القرامطة الشيء الكثير من الأموال والأرواح .

وجاءت وفاة الحسن بن أحمد الأعصم لتمهد لخلافات داخلية بين قرامطة البحرين بعضهم وبعض ، بسبب سياسته العدائية أزاء الفاطميين ومبايعته للخليفة العباسي . وقد عمل اتباع أبي طاهر على اقصاء ولد أبي سعيد عن الإمارة ثم استقر الرأي على أن يتولى الحكم في البحرين اثنان من سادتهم هما : جعفر وإسحاق ، اللذان سارا على نفس السياسة التي اتبعها أمراء القرامطة ، وهي تذبذب المواقف بين الفاطميين والعباسيين وقد ابتدأ حكم خلفاء الحسن الأعصم بمحاربة العباسيين واقامة الدعوة للفاطميين(١٠٧) مما أدى إلى عودة الاعتداءات القرمطية على العراق ، فحاولوا احتلال البصرة سنة ٣٧٣هـ لكن محاولتهم باءت بالفشل ، وعادوا إلى البحرين بعد أن عقدوا الصلح مع العباسيين(١٠٨) ثم كان أن اخضعوا الكوفة بعد غارات عديدة لسيطرتهم في سنة ٣٧٥هـ وخطبوا للشرف الدولة البويهي تكاية في أخيه صمام الدولة . وعندما أخذ حكام البحرين من القرمطة يهددون بغداد ، أفزعت أهل العراق من القرامطة فبعث إليهم صمام الدولة سلطان بن بويه جيشًا أوقع بهم الهزيمة على نهر الفرات وتعقبهم إلى القادسية(١٠٩) وهناك حلت بهم الهزيمة مرة أخرى فعادت فلولهم إلى الأحساء(١١٠) ،وهكذا توالت الهزائم ، وبدأ الضعف يدب في صفوف القرامطة كما بدأ يتضاءل تأثيرهم على القوى الأساسية في ساحة الصراع .

ولا شك في أن الصراع الذي نشب بين زعماء قرامطة البحرين جعفر وإسحاق على السلطة أعطى فرصة لبعض القوى القبلية الطامعة في وراثة حكم القرامطة في البحرين لتحقيق هدفها .ومن هؤلاء أسرة بني ثعلب . وقد عجز القرامطة عن صد هجمات الأصغر بن أبي الحسن التغلبي ، زعيم قبائل المنتفق(١١١) سنة ٣٧٨هـ الذي أقدم على محاصرة الأحساء حاضرتهم في البحرين فتحصن منه القرامطة ، فعدل إلى القطيف وأخذ ما صادفه من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار إلى البصرة(١١٢) .

قد أخذ نفوذ بني ثعلب يزداد نتيجة الضعف المستمر للقرامطة ، بعد أن فقدوا معظم ما كان تحت سيطرتهم من بلاد منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ما عدا جزيرة أوال ومدينة الأحساء(١١٣) التي ظلوا سلطانهم عليهما حتى منتصف القرن الخامس الهجري . ثم كان خروجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة سنة ٤٥٨هـ وخضعت للعباسيين(١١٤) وهكذا اضطر القرامطة إلى الارتداد إلى الأحساء . وكانت هذه الهزائم التي حلت بالقرامطة دافعًا لعباسيين وحماتهم السلاجقة لإرسال الجيوش إلى الأحساء لملاحقة القرامطة في آخر معاقلهم بقيادة أمهر القادة ، ونجحت الدعوة ضد القرامطة فأعلن كثير من أهالي البحرين انضمامهم إلى صفوف العباسيين حتى أحاطت الجيوش العباسية بالقرامطة في شمال الأحساء وانتصروا عليهم في موقعة الخندق سنة (٤٧٠هـ - ١٠٧٧م) . وكان لهذه الموقعة أثر كبير في التاريخ الإسلامي حيث أنها انهت سيطرة القرامطة على البحرين والأحساء بعد أن استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان إزعجوا فيهما الدولتين العباسية والفاطمية(١١٥) .

على أن هزيمة القرامطة في البحرين والأحساء وغيابهم عن الساحة السياسية لم تلبث أن أحدثت فراغًا أتاح المجال لبعض الأسر والقبائل العربية من سكان البلاد أن تشغل الفراغ الذي خلفه غياب القرامطة .

الهوامش

(١) أبو زكريا بن محمد القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٧٧ - ٧٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ص٢٩

(٣) عمر رضا كحالة ، جغرافية جزيرة العرب ص٣٦١

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج٢ ، ص٧٢ - ٧٣

(٥) المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣٩٢

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون مجلد٤ ، ص١٩٧

(٧) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ص١٨٢

(٨) ابن الوردي ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص٧٦

(٩) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١٨٢

(١٠) الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ص٨٢

(١١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ص١١٢

(١٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص٩٣ - ٩٤

(١٣) لغدة ، بلاد العرب ص٣٤٣

(١٤) المقدسي أحسن التقاسيم ص٩٣ - ٩٤

(١٥) القلقشندي ، نهاية الأرب أنساب العرب ص١٨

(١٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج١ ، ص٣٤٧

(١٧) ابن سعيد المغربي ، بسط الأرض في الطول والعرض ص٦٥

(١٨) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج١ ، ص١١٢

(١٩) حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، القسم الأول ص٣١

(٢٠) حسن بزون ، القرامطة بين الدين والثورة ص٤٨

(٢١) الميداني ، مجمع الأمثال ج٢ ، ص٩٨

(٢٢) البكري ، معجم ما استعجم ص٣٩

(٢٣) ابن بطوطة ، تحفة النظار ص٢٧٠

(٢٤) أبو الفدا ، تقويم البلدان ص٨٣

(٢٥) صالح أحمد العلي ، الدولة في عهد الرسول (ص) ج٢ ، ص٥٥٧

(٢٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ص٩٧

(٢٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص٩٧

(٢٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٤٤

(٢٩) حسن بزون ، القرامطة بين الدين والثورة ، ص٤٨

(٣٠) خليفة بن خياط ، التاريخ ج١ ، ص١٣٦

(٣١) البلاذري ، فتوح البلدان ص٧٧

(٣٢) ابن سعد ، الطبقات الكبيرة ، ج١ - ٢ ص٧٦

(٣٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١ ، ص٢٨٧

(٣٤) الديلمي ، بيان مذهب الباطنية وبطلانه ، ص٢١ ، ٢٢

(٣٥) الجيعاني ، كشف أسرار الباطنية ، ص١٨

(٣٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٧ ، ص٤٤٤

(٣٧) عارف تامر ، القرامطة ص٧٧

(٣٨) ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد٧ ، ص١٩٧

(٣٩) حسن بزون ، القرامطة بين الدين والثورة ص٥٠

(٤٠) محمد أرشيد العقيلي ، الخليج العربي في العصور الإسلامية ص١١٩

(٤١) عبد الرحمن النجدي ، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ص١٣٧

(٤٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج٧ ، ص٤٩٤

(٤٣) الجنابي : نسبة إلى جنابة بالبحرين وقال البعض : أنها قرية في جنوب بلاد فارس ، انظر : السمعاني ، الأنساب ص١٣٥ ب .

(٤٤) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص١٣ - ١٤ وابن خلدون ، تاريخ مجلد٣ ، ص٧٣٧

(٤٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج٣ ، ص٢١٨٨ وابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ج١ ، ص٣٥٣ برنارد لويس أصول الإسماعيلية ١٦٩

(٤٦) عارف تامر ، القرامطة ص١٣٨

(٤٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٢١٨٨ ، المسعودي ، مروج الذهب ج٣ ، ص١٩١

(٤٨) جندل حوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص١٦٧

(٤٩) مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر ص٣٨٩

(٥٠) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ص ١٦٠

(٥١) مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر ص١٩٤

(٥٢) سلمية : تقع في قلب بادية الشام ، وهي أعمال حماة ، اتخذها الإسماعيليون مقرا لدعوتهم لما تتمتع به من مزايا استراتيجية واجتماعية واقتصادية ولبعدها عن العمران .

(٥٣) مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر ص١٧١

(٥٤) الشيخ عبدالله بن عبدالآل خليفة وعبدالله الملك الحمر ، البحرين عبر التاريخ ص١١٩

(٥٥) ناصر خسرو ، سفرنامة ص٩٢ - ٩٥

(٥٦) حسن بزون ، القرمطية بين الدين والثورة ، ص٥٢

(٥٧) فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، ج١ ، ص٩٢

(٥٨) برنارد لويس ، أصول الإسماعيلية ، ص٢٠٠ - ٢٠١

(٥٩) فيصل السامر ، ثورة الزنج ص٧٩ - ٨٠ ، محمد عبد الفتاح عليان القرامطة العراق ص٢٢

(٦٠) سورة القصص ، آية ٥

(٦١) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص٩٢ وما يليها .

(٦٢) المقريزي ، أخبار القرامطة ص٣٣٥

(٦٣) المقريزي ، أخبار القرامطة ، نفس الصفحة .

(٦٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج٣ ، ص٢١٣٩

(٦٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٦٢

(٦٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج٧ ، ص٤٩٩ ، الطبري ، المصدر السابق ، ص٢١٩٧

(٦٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص٥٠٠

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج٦ ، ص٤٣٠

(٦٩) إسماعيل الهر علي ، القرامطة والحركة القرمطية في التاريخ ص١٨٨

(٧٠) مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر ، ص٣٩٧

(٧١) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ص١٣

(٧٢) ابن تغردى وبردى النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص١٢٨

(٧٣) مسكوية، تجارب الأمم، ج١، ص٣٤، ابن كثير البداية والنهاية،ج١١، ص١٢١

(٧٤) مسكوية ، تجارب الأمم ، ج١ ، ص١٢١

(٧٥) القلقشندى ، مآثر الأنافة ج١ ، ص٢٧٨

(٧٦) المسعودى، التنبيه والإشراف،ص٣٨٠، الأصفهانى، تاريخ سنى الملوك، ص١٥٣

(٧٧) ابن خلدون ، تاريخ مجلد ٤ ، ص١٩٠

(٧٨) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٧١

(٧٩) الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٦٢

(٨٠) عريب ، الصلة ، ص١٣٦ - ١٣٧

(٨١) منهم : ابن تغردى بردى ، النجوم الزاهرة ج٣ ، ص٢٢٠ ، ناصر خسرو ، سفرنامة ص٩٤ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٦ ، ص٢١٤

(٨٢) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى النوبة العباسية ، ص١٧٧

(٨٣) ناصر خسرو ، سفرنامة ص١٩٧

(٨٤) الهمدانى (القاضى عبد الجبار) أخبار القرامطة ، ص١٥٦

(٨٥) ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ج١ ، ص٣٦١

(٨٦) مؤلف مجهول، العيون والحدائق ، ج٤ ، القسم الأول ورقة ١٣١ ، ب ص٣٥٩

(٨٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ ، ص١٦١

(٨٨) ابن مسكوية ، تجارب الأمم ، ج٥ ، ص٣٤ - ٣٥

(٨٩) فاروق عمر ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ص٢٧٩

(٩٠) إسماعيل المير على ، القرامطة ص٢٠٠

(٩١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٦٨ ، مآثر الأنافة ج١ ، ص٢٧٩

(٩٢) الصابى ، رسائل الصابى ج١ ، ص٢٥٨

(٩٣) غالب ، القرامطة بين المد والجزر ، ص٤١٨

(٩٤) سامى العياش ، الإسماعيليون فى المرحلة القرمطية ، ص٢٢٠

(٩٥) عارف تامر ، القرامطة ص١٤٩ ، إسماعيل المير على القرامطة ص٢٤٤

(٩٦) مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر ، ص٤١٧

(٩٧) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٩٨) عارف تامر ، القرامطة ، ص١٤٥ - ١٤٦

(٩٩) مصطفى غالب ، المرجع السابق ، ص٤١٨

(١٠٠) جزيرة آوال : هى جزيرة البحرين الحالية ، يبلغ طولها حوالى ٣٠ ميلاً وعرضها ١٢ ميلاً ، وتبعد عن ساحل الأحساء ٣٥ كيلو متر .

(١٠١) ميكال بان دى خويه ، القرامطة ، ص١٥٧

(١٠٢) عبد المنعم عزيز النصر ، جذور حركة القرامطة ، ص٤٤

(١٠٣) عارف تامر ، القرامطة ، ص١٤٧

(١٠٤) ميكال بان دى خويه ، القرامطة ، ص١٥٤

(١٠٥) ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٩٠

(١٠٦) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج٤ ، ص٢٥٨

(١٠٧) جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ص٥٠

(١٠٨) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص١٢١

(١٠٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣

(١١٠) محمد سعيد المسلم ، ساحل الذهب الأسود ، ص١٥٣

(١١١) فرع من قبيلة بنى عقيل المتفرعة من عامر بن صعصعة وموطنهم الأصلى غرب اليمامة فى جزيرة العرب .

(١١٢) ابن الأثير ، المرجع السابق ، ج٩ ، ص٥٩ ، محمد أبو شهبة العقيلى ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ص٢٨٨

(١١٣) الاحسائى ، تحفة المستفيد ص٩٨

(١١٤) عبد المنعم عزيز النصر ، جذور الحركة القرامطة ، ص٢٦

(١١٥) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى ، ج٤ ، ص٢٥٨

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولى :

ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

(١) الكامل في التاريخ ١٢ جزءا ، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٥

ابن بطوطة : أبو عبد الله بن إبراهيم (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " دار صادر وبيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠م .

ابن تغردى بردى : أبو المحاسن جمال الدين (ت٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء ط١ ، مطبعة دار الكتب العربية ، القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م)

ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي محمد (ت٥٧٩هـ / ١٢٠٠م) .

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م وطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر أباد ١٣٥٧هـ .

ابن حوقل : أبو القاسم ابن حوقل (ت٣٦٧هـ / ٩٧٧م)

(٥) صورة الأرض ، جزءان ط٢ مطبعة بريل ، ليدن ١٩٣٨م

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

(٦) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر .

دار الكتاب اللبناني ، المطبعة النابلسية ، بيروت ، ١٩٥٧م

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن بكر (٦٨١هـ / ١٢٨٢م)

(٧) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ابن الخياط : أبو عمرو خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ / ٨٥٤م)

(٨) تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم العمرى ، ط١/مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م

ابن رسته : أبو علي بن عمر (كان حيًا في سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م)

(٩) الأعلاق النفيسة ، بريل ، ليدن ١٨٩١م

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)

(١٠) كتاب الطبقات الكبير ، ٨ أجزاء: طبع لدورد سخاو ، مطبعة بريل، ليدن ١٣٢٤هـ

ابن سعيد المغربي : علي بن موسى (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)

(١١) بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق الدكتور حسان قرنيط ، مطبعة كريماديس ، تطوان ١٩٥٨م

ابن سنان : ثابت وابن العديم

(١٢) تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق د. سهيل زكار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧١م

ابن شاكر الكتبي : محمد بن أحمد (ت٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)

(١٣) فوات الوفيات ، جزءان ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١م

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م)

(١٤) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م

ابن الكثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)

(١٥) البداية والنهاية ، ١٤ جزء ، ط١ ، مطبعة السعادة ، القاهرة (١٣٥١هـ / ١٩٣٢م)

ابن الوردى : زين الدين عمرو بن مظفر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)

(١٦) تاريخ ابن الوردى المسمى تتمة المختصر فى أخبار البشر ، جزءان ط٢ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)

ابن الوردى : سراج الدين أبى حفص عمر (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)

(١٧) خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، باعتناء الشيخ محمد شاهين ، القاهرة ١٢٨٠هـ

أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ، صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) .

(١٨) تقويم البلدان ، تحقيق ماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠م

الأصفهاني : حمزة بن الحسين (ت٣٦٠هـ / ٩٧٠م)

(١٩) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ط٣ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١م

البكري : أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)

(٢٠) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع ، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٩٤ وما بعدها .

البلاذري : أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ / ٨٩٢م)

(٢١) فتوح البلدان ، طبع دي غوية ، ، بريل ليدن ١٨٦٦م وطبعة مكتبة السعادة بمصر ١٩٥٩م

الديلمي :

(٢٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه ، استانبول ١٩٣٨

السمعاني : عبد الكريم بن محمد (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م)

(٢٣) الأنساب : تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٨٤/١٩٦٤م

الصابي : أبو إسحاق إبراهيم بن هلال .

(٢٤) المختار من رسائل أبي إسحاق إبراهيم بن زهرب الصابي ، المطبعة الخيرية لبنان ١٨٩٨م

الطبري : محمد بن جرير بن رستم (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٠م ، وطبعة بريل ، ليدن ١٨٨٣م

مصادر تكميلية :

(٢٦) أخبار القرامطة في الأحساء ، الشام ، العراق ، اليمن ، جمع وتحقيق ودراسة د. سهيل زكار ، نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني ، ط١ دمشق ١٩٨٠م

غريب : ابن سعيد القرطبي (٣٦٦هـ / ٩٧٦م)

(٢٧) صلة تاريخ الطبري ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩٧م

علوي : ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)

(٢٨) سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م)

القزويني : أبو زكريا بن محمد محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)

(٢٩) آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت(١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م)

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

(٣٠) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ١٤ جزء ، الناشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر مطابع كوستاكوماس وشركاه ، القاهرة ١٩٦٣م

(٣١) مآثر في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ١٩٦٤م

(٣٢) نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق علي الخاقاني ، مطبعة النجاح ، بغداد ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م

لغدة الأصفهاني : الحسن بن عبد الله (القرن الثالث الهجري)

(٣٣) بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر والدكتور صالح أحمد العلي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ط١ الرياض ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

المسعودي : الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)

(٣٤) التنبيه والاشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥م

(٣٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الله ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٤٨م

مسكوية : أبو علي بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)

(٣٦) تجارب الأمم ، جزءان ، القاهرة ١٩١٤

المقدسي : شمس الدين أبو عبدالله محمد الشافعي المقدسي (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م)

(٣٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة دي غوية ، ط٢ بريل ليدن ١٩٠٦

المقريزي : تقي الدين أحمد بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

(٣٨) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨م

مؤلف مجهول

(٣٩) العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ، جامعة بغداد برقم ١٥١٣٠

الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت٥١٨هـ / ١١٢٤م)

(٤٠) مجمع الأمثال ، جزءان ، القاهرة ١٣٥٢هـ

ياقوت : شهاب الدين أبي عبدالله بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

(٤١) معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، دار الصعباد ، بيروت للطباعة والنشر ، بيروت (١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م) وطبعة دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

اليماني : الحمادي .

(٤٢) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، تحقيق الكوثري ، مصر ١٩٢٩م

ثانيًا المراجع الثانوية :

الأحسائي : محمد بن عبد الله بن عبد الحسين آل عبد القادر الأنصاري .

(٤٣) تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، مطابع الرياض ، ط١ الرياض ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م

أبو طالب : محمد نجيب

(٤٤) الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ١٩٩٠م

الجاسر : حمد

(٤٥) المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (المنطقة الشرقية) البحرين قديمًا ، القسم الأول ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ط١ ، الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

الحميري : محمد بن عبد المنعم

(٤٦) الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د . إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ٢ ، بيروت ١٩٨٠م

الخليفة : الشيخ عبد الله بن خالد والحمر : عبد الملك يوسف .

(٤٧) البحرين عبر التاريخ ، الشركة العربية للوكالات والتوزيع ، ط٢ ، البحرين ٣٩٢ / ١٩٧٢م

السامر : فيصل (الدكتور)

(٤٨) الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، مطبعة الأيمان ، بغداد ١٩٧٠م

(٤٩) ثورة الزنج ، ط٢ ، مكتبة المثنى ببغداد ودار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧١م

العقيلي : محمد أرشيد

(٥٠) الخليج العربي في العصور الإسلامية ، دار الفكر اللبناني ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

العياش : سامي

(٥١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية ، دار بن ابن خلدون ، بيروت .

النجم : عبد الرحمن عبد الكريم .

(٥٢) البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ، دار الحرية للطباعة ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ١٩٧٣م

النصر : عبد المنعم عزيز

(٥٣) القرامطة ، تاريخهم وتاريخ دعاتهم ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٨٦م

المسلم : محمد سعيد

(٥٤) ساحل الذهب الأسود ، ط٢ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٢م

أمير علي : إسماعيل
(٥٥) القرامطة والحركة القرمطية في التاريخ ، دار مكتبة الهلال ، ط١ ، بيروت ١٤٠٣ / ١٩٨٣م
بزون : حسن
(٥٦) القرامطة بين الدين والثورة ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ١٤٠٨ / ١٩٨٨م
ناصر : عارف
(٥٧) القرامطة أصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
جوزي : بندلي
(٥٨) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ، دار الروائع ، بيروت ١٩٥٥
حسن : إبراهيم حسن
(٥٩) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٥م
دي خوية : ميكائل يان
(٦٠) القرامطة ، نشأتهم ، دولتهم ، علاقتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينه ، دار ابن خلدون ، ط٢ ، بيروت ١٩٧٨م
زيان : حامد زيان غانم (دكتور)
(٦١) الحياة في الخليج في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة ، دار القلم ط١ ، دبي ١٩٨٥م
سرور : محمد جمال الدين (دكتور)
(٦٢) سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٧٦م
العلي : صالح أحمد (الدكتور)
(٦٣) الدولة في عهد الرسول ﷺ المجلد الثاني ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م

عليان : محمد عبد الفتاح عليان
(٦٤) قرامطة العراق في القرن الثالث والرابع الهجري ، المطبعة الثقافية ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م
عمر : فاروق (الدكتور)
(٦٥) الخليج العربي في العصور الإسلامية ، دار القلم للنشر والتوزيع ، دبي ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
غالب : مصطفى (دكتور)
(٦٦) القرامطة بين المد والجزر ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، بيروت ١٩٨٣م
(٦٧) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ١٩٧٩م
كحالة : عمر رضا
(٦٨) جغرافية شبه جزيرة العرب ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٤٩م
لويس : برناود
(٦٩) أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة ، مرجع وتقديم خليل أحمد خليل ، ط١ دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٠م
نويهض : وليد
(٧٠) حول الحركات الإسلامية في العصر الوسيط ، الوحدة للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ١٩٨٦

ثالثًا مراجع أجنبية :

BARTOLD SPULER :

(71) THE MUSLIM WORLD HISTORICAL SURVEY LEIDEN. J, BRILL 1960 PART 1.

GULUBB (SIR JOHN)

(72) THE EMPIRE OF THE ARABS LIEUTENANT-GENERAL - SECOND PRINTING MAY 1966 NEW JERSEY.

MILES, S. B.

(73) THE COUNTRIES AND THE TRIER OF THE PERSIAN GULF, LONDON, 1966.

OMAR, FAROUK

(74) THE ARABIANGULF, DAR AL-KALAM, DUBAI 19830.

ROBORTS, LOPEZ AND RAYMOND (IRING W.)

(75) MEDIEVAL TRADE IN THE MEDITERRANEA WORLD, NEW YORK, COLOMBIA UNIVERSITY PRESS 1955.

SHA'BAN, M. A.:

(76) THE SOCIAL AND POLITICAL BACK GROUND OF THE ABBASID REVOLUTTON PH.D. THESIS, HARVARD, 1960.

SIR WILLIAM MUIR, K. G. S. I.

(77) THE CALIPHATE ITS RISE, DECLINE. AND FALL FROM ORIGINAL SOURCES NEW AND REVISED EDITION BY T. H. WEIR, B, D, M. R. A. S. BRIDGE 1915

STRON, W. H.:

(78) THE ARABS OF OMAN, M. W. 1934.

(79) THE ENCYCLOPADIA OF ISLAM, VOLI LEIDEN-BRILL 1960, (NEW YORIK DTTION)

WILSON:

(80) THE PERSIAN GULF (AN HISTORICAL SKHTCH FROM THE EARLIEST TO THE BEGINING OF THE 20 TH CENTURY) SEOND IMPRESSION 1954.

العلاقات بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية في مصر

د. إبراهيم زعرور(*)

هناك إجماع بين الباحثين على ارتباط أصول القرامطة بالدعوة الإسماعيلية ، لكن غالبًا ما عانى بيت الدعوة الإسماعيلي من انشقاقات حادة قادت إلى مصادمات عسكرية بين الفرقاء ، وخير شاهد على هذا العلاقات المبكرة بين قرامطة بلاد الشام ، وبيت الإمامة الإسماعيلية الذي كان متمركزًا بالسلمية ، فقد هاجم الزعيم القرمطي صاحب الخال السلمية وقتل سكانها ، وكان بين أهدافه قتل زعماء البيت الإسماعيلي لأنه أعلن نفسه إمامًا مهديًا( ) .

هذا وترتبط بدايات الدعوة الإسماعيلية في البحرين بالحركة القرمطية التي قامت في سواد العراق بزعامة حمدان بن الأشعث (قرمط) والداعية عبدان ، أي بما يعتقد أنه بدايات ظهور حركة القرامطة تاريخيًا . ففي تلك المرحلة تم – كما هو معتقد – إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها التي تحدر معظمها من جمهرة عامر بن صعصعة( ) .

ويبدو أن اسم هذا الداعية كان : (أبو زكريا يحيى بن علي الطعامي) ، ولعل ذلك كان سنة ٢٨١/١١هـ/٨٩٤م ، ثم ألحق هذا الداعية بداعية آخر من بلدة جنابة اسمه الحسن بن بهرام الجنابي ، وشهر باسم (أبي سعيد) .

ونجح أبو سعيد في عمله الدعوي ، وتخلص من الطعامي ، وأسس للقرامطة دولة نموذجية . ونشط قرامطة البحرين عسكريًا داخل شبه الجزيرة ، والعراق والجزيرة الفراتية وأطراف بلاد الشام .

---

* كلية الآداب – جامعة دمشق .

ولا تمتلك معلومات عن اتصالات بين قرامطة الإحساء وبيت الدعوة الإسماعيلية في الشام ، ثم إفريقية بعد تأسيس الخلافة الفاطمية ، لكن من المهم أن حركة القرامطة في الإحساء تحولت إلى دولة تفاوضت مع العباسيين ، والإخشيديين وحصلت منهم على إتاوات مالية ، ثم إنها شعرت بخطر حقيقي لدى استيلاء الفاطميين على مصر .

وكان الفاطميون حين استولوا على مصر يستهدفون الوصول إلى بغداد والقضاء على الخلافة العباسية . وكان للفاطميين أنصارهم في خراسان والمشرق، ممن يمكن حشدهم للتوجه نحو العراق ، وكان على قرامطة البحرين مهاجمة العراق من الجنوب . ولذلك يلاحظ أنه ما أن تمكن جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر حتى قام سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩ بإرسال جيش كبير على رأسه القائد الكتامي جعفر بن فلاح نحو بلاد الشام ليعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي . ولقد لقي هذا الجيش أثناء زحفه في فلسطين مقاومة من بقايا الجيوش الإخشيدية، لكنه تغلب عليها .

وكان يخيل لجعفر بن فلاح بعد الاستيلاء على فلسطين وقدوم وفد من أهل دمشق إلى طبرية لاستقباله إنه صار سيد الشام ، وإنه سيتمكن قريبًا من الزحف نحو العراق تعاونه قبائل بادية الشام والجزيرة الفراتية التي كانت تدين بالتشيع . (وكان جعفر أحمقًا هذارًا ، كثير الكلام ، أكثر كلامه بغير طائل)(٢) وكان وجنده لا يعرفون طبائع أهل الشام ، لذلك عوضا عن إحسان جعفر وأصحابه لاستقبال الوفد الدمشقي ، قصد الجند الفاطمي (أهل دمشق فأخذهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم : أو ذا نحن سائرون إليكم . فصاروا في أسوأ حال . قد أخذت أثقالهم وثيابهم ، فلقوا جعفر بن فلاح ، وعادوا إلى دمشق ، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد وإنهم لقوا قومًا حفاة قباح المنظر والزى

والكلام، ناقصين العقول ، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة ... وخلت مدينة دمشق من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الدعار وحمال السلاح)(٣) .

وزحف الجيش الفاطمي نحو دمشق وعسكر خارج المدينة (فخرج الناس إليه مستعدين في خيل ورجل فاقتتلوا) واستمر القتال مدة طويلة ، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن أغلقوا أبوابها وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار ، وأقاموا الحواجز داخل المدينة ، وكسروا قنى الماء وحفروا الخنادق . ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الأعداد للدفاع عن دمشق ، ومع هذا تمكنت القوات الفاطمية من دخول دمشق .

وكان القائم بشئون الدفاع عن دمشق زعيم أحداث المدينة واسمه أبو اسحق محمد بن عصودا ، وبعدها دخل ابن فلاح دمشق هرب أبو اسحق إلى الإحساء حيث طلب معونة القرامطة ضد الفاطميين ، وإنه لمثير للانتباه توجه زعيم أحداث دمشق إلى الإحساء وليس إلى بغداد أو حلب أو الموصل للاستعانة بالسلطات العباسية أو الحمدانية ، فهل جمعت بين أحداث دمشق وقرامطة البحرين مواقف عقائدية ، أم الجامع كان العداء للفاطميين ، أم أن السبب هو أن والي دمشق (وشاح الديلمي) قبل دخول ابن فلاح إليها كان معينًا من قبل القرامطة ؟

وبعدما دخل الجيش الفاطمي إلى دمشق (شرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة وعملوا مساكن وأسواقًا حتى صارت تشبه المدينة ، وبنوا قصرًا عظيمًا شاهقًا في الهواء ، غريب البنيان) وقام ابن فلاح بإعدام زعماء الأحداث وكان منهم اسحق بن محمد بن عصودًا .

(وأما محمد بن عصودًا ، فإنه لما انهزم سار إلى الإحساء هو وظالم بن مرهوب العقيلي ، وحثا القرامطة على المسير إلى الشام ، فوافق ذلك منهم الغرض،

لأن الإخشيدية كانت تحمل فى كل سنة إلى القرامطة مالاً ، فلما أخذ جوهر مصر انقطع المال عن القرامطة ، فأخذوا فى الجهاز المسير إلى الشام)(٥).

وكان على رأس القرامطة فى الإحساء الأعصم - الحسن بن أحمد الجنابى ، فانزعج لما حدث بالشام ، وبعث سفارة من قبله إلى بغداد تفاوضت مع سلطانها البويهية ، ووعد البويهيون بتقديم (ألف ألف دينار ، وألف جوشن ، وألف سيف ، وألف رمح ، وألف قوس ، وألف جعبة) للقرامطة عندما يصلون إلى الكوفة(٦) .

وعندما وصل القرامطة إلى الكوفة ، كتبت سلطات بغداد إلى أبى تغلب عبد الله بن ناصر الدولة الحمدانى يحمل مبلغ أربعمائة ألف دينار إلى القرامطة من مال الرحبة ، وإن يمدّ القرامطة بما يحتاجونه من عون.

وجاء القرامطة مع الحسن الأعصم إلى الرحبة ، فبعث إليه تغلب الحمدانى بالمال والمساعدات وأرسل إليه يقول : (هذا شئ أردت أن أسير أنا فيه بنفسى، لكنى مقيم فى هذا الموضع إلى أن يرد إلىّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى ، سرت إليك ، ونادى فى عسكره : من أراد السير من الجند الإخشيدية ونحوهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد لا اعتراض لنا عليه ، وقد أذنا له فى المسير ، والعسكران واحد ، فخرج إلى القرامطة كثير من الإخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ممن فرّ من جوهر ومن جعفر بن فلاح(٧) .

وكان جعفر بن فلاح بعد استيلائه على دمشق بعث بجيش نحو أنطاكية بقيادة غلامه فتوح . وعندما وصلته الأخبار عن حشود القرامطة بالرحبة كتب جعفر إلى غلامه فتوح ، وهو على أنطاكية يأمره بالرحيل ، فوافاه الكتاب ... فشرع فى شد أحماله ، ونظر الناس إليه فحفلوا ورموا خيمهم ، وأرافوا طعامهم، وأخذوا فى السير مجدين إلى دمشق . فلما وافوا جعفر أراد أن يقاتل بهم القرامطة فلم يقفوا ، وطلب كل قوم موضعهم ، ولم يبالوا بالموكلين على الطرق ...

ثم أن الحسن بن أحمد القرمطى ، سار عن الرحبة إلى أن قرب من دمشق، فجمع جعفر خواصه ، واستشارهم فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة فى ظرف البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة ، فخرج إليهم ولقيهم فقاتلهم قتالاً كبيرًا ، فانهزم عنه عدة من أصحابه ، فولى فى عدة ممن معه ، وركب القرامطة اقفيتهم ، وقد تكاثرت العربان من كل ناحية ، وصعد الغبار ، فلم يعرف كبير من صغير ووجد جعفر قتيلاً لا يعرف له قاتل ... وخرج محمد بن عصودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهى مطروحة فى الطريق ، فأخذ رأسه وصلبه على حائط داره ... وملك القرامطة دمشق ، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد فاستعد لحرب القرامطة)(٨) .

لقد شكل مصرع ابن فلاح انتكاسة هائلة بالنسبة لمشاريع الخلافة الفاطمية بالتوسع والانفراد بزعامة العالم الإسلامى - ولم يقف التدهور بل تتابع بوتيرة خطيرة كادت تؤدى إلى القضاء على الكيان الفاطمى المقام بمصر ، فقد عين القرامطة والياً على دمشق وتابعوا زحفهم نحو القاهرة خلف الفلول الفاطمية.

وكان القائد جوهر الصقلى عندما بلغه قدوم القرامطة إلى الرحبة ، ونيتهم بقصد دمشق (انفذ من مصر رجلاً من المغاربة يقال له سعادة بن حيان ، ذكر أنه فى أحد عشر ألفًا ، فلما بلغ ابن حيان أن ابن فلاح قد قتل ، وجاءه بعد ذلك قوم من المنهزمين فأخبروه بخبر الواقعة تحير ، وتقطعت به الأسباب ، فلم تكن له جهة غير الدخول إلى يافا ، ولم يكن له بها عدة ولا دار ، فلما دخل إليها جاءه الحسن بن أحمد فنزل عليها ، واجتمعت إليه عرب الشام ، فنازلها وناصبها بالقتال ، حتى اشتد الحصار وقل ما بها جدًا) .

وترك القرمطى يافا تحت الحصار ، وتوجه نحو مصر ، ونزل على القاهرة سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م ، وحاصرها (فقاتل المغاربة على الخندق الذى لمدينتهم ، وقتل كثيرًا منهم خارج الخندق ، وحاصرهم شهورًا، ثم رحل عنها إلى الإحساء، ولم يعلم الناس ما كان السبب فى ذلك) .

ووقع خلاف بين ظالم بن موهوب العقيلي وأبو الفتح نائب الأعصم ، مما أدى إلى رفع الحصار عن يافا ، الفرصة التي أغتنمها جوهر ، فأرسل من قدم للمساعدة إلى المحاصرين داخل يافا .

(ورجع الحسن بن أحمد فنزل الرملة) وهناك اعتقل ظالم بن موهوب ، ثم إنه (طرح مراكب في البحر ، وجعل فيها رجالاً وقاتله ، وجمع كل من قدر عليه من العرب وغيرهم ، وتأهب للمسير إلى مصر .

وكان جوهر يكتب إلى المعز لدين الله إلى القيروان بما جرى على عسكره من القتل والحصار ، وإن الحسن بن أحمد يقاتلهم على خندق عسكرهم ، وقد أشرف على أخذ مصر ، فقلق من ذلك قلقًا شديدًا ، وجمع من يقدر عليه ، وسار إلى مصر ، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها ، فدخلها في يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنين وستين وثلاثمائة ، وكان شديد الخوف من أحمد . فلما نزل مصر ، عزم على أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابًا يعرفه فيه أن الملعب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذا الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة وترهب عليه. وكان غرض المعز لدين الله العبيدي في ذلك أن يعلم من جواب القرمطي ما في نفسه، وهل خافه لما وافى مصر أم لا(٩).

لقد أنهى قدوم المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة المرحلة الإفريقية من تاريخ الخلافة الفاطمية ، ومحط بالنسبة لشخصية مصر الإسلامية مرحلة هامة جدًا، ولابد من أن نلاحظ أن حملة جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر ، ثم موكب المعز من إفريقية إلى القاهرة كانا بمثابة هجرة للقبائل البربرية نحو مصر ثم بلاد الشام ، وكانت هجرة أولى من نوعها ، فضلاً عن ذلك حمل معه كميات عظيمة من الذهب والذخائر ، وجل أهل الحرف والصناعات والفنون ، مما كان له أبعد الآثار على بلدان المغرب العربي ، فضلاً عن أن رحيله نحو مصر عطل وحدة بلدان المغرب ، وفتح الطريق نحو حركات جديدة في المغرب الكبير(١٠) .

وأورد النويري قطعة من رسالة المعز إلى القرمطي ، وقام المقريزي بإيرادها كاملة ، وعندي إن هذه الرسالة من أجمل ما حوته المكتبة الإسماعيلية ، ونحن إذا كنا لا نعرف الذي كتبها ، لكن لابد أن يعقوب بن كلس كان وراء أفكارها وحججها.

ويعقوب بن كلس يهودي أصله من العراق ، هجر العراق وجاء إلى الرملة حيث عمل بالتجارة والمال ، ثم قصد مصر واتصل بكافور الإخشيدي ، ونجح لديه ثم أعلن عن إسلامه فاستوزره كافور . وبعد وفاة كافور ، توجه إلى إفريقية والتحق بالمعز لدين الله ، وزوده بأوفى المعلومات عن أحوال الدولة الإخشيدية ، مما سهل الاستيلاء على مصر . وجاء إلى مصر مع المعز ، حيث أرسى الأسس للإدارة الفاطمية في مصر ، وكتب كتابًا معتمدًا في الدعوة الإسماعيلية ظل معتمدًا لدى الإسماعيلية لوقت طويل .

وبعد المعز استوزره ابنه العزيز ، وعندما مرض مرض الموت عاده العزيز، وقال له: " وددت لو إنك تبتاع فأبتاع عمك بملكي ، أو تفدى فأفديك بولدي ، فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب ؟ " فشكره يعقوب ، ورسم له منهجًا سياسيًا لدولته خارجيًا . والمثير أن وثائق الجنيزا لكنيس الفسطاط القديم تُظهر أن ابن كلس ظل محافظًا على يهوديته ، وتظاهر بالإسلام تظاهرًا(١١) وبدأ المعز لدين الله رسالته بقوله : " رسوم النطقاء ، مذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آبائنا أولى الأيدي والأبصار في متقدم الدهور والأكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصارهم لأمر الله .

الابتداء بالإعذار - والانتهاء بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار في أهل الشقاق والآصار، لتكون الحجة على من خالف وعصى والعقوبة على من باين وغوى...

وكتابنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور ، فلا نرفع قدمًا ، ولا نضع قدمًا إلا بعلم موضوع ...

فأما أنت أيها الغادر الخائن ، الناكث المباين عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأندادة ... لكن غلب الران على قلبك ، والصدأ على لبك ، فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضيا ، وأما لك عن مناهج الأولياء ... ثم لم تقنع في انتكاسك ، وتردينك في ارتكاسك من ضلالك ، ومشيك القهقرى ... لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمست ... أم تريد أن ترد القرون السالفة والأشخاص الغابرة ... أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ... فقد ضل عملك ، وخاب سعيك ، وطلع نحسك ... واعلم أنا لنسا نمهليك ولا نهملك ... فيتدبر من كان ذا تدبير ... والسلام على من اتبع الهدى ...) .

فأجابه الحسن الأعصم بما نصه : [من الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم .:

بسم الله الرحمن الرحيم :

وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله ، وقل تحصيله ، ونحن سائرون على إثره والسلام[١١]] .

وسار القرامطة نحو مصر ، فنزلوا بلبيس ، ومن هنا بعث الأعصم بجزء من قواته نحو الصعيد " وانبثت سراياه في أرض مصر ، فتأهب المعز ، وعرض عساكره في ثالث رجب سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وأمر بتفرقة السلاح على الرجال ، ووسع عليهم في الأرزاق ، وسير معهم الأشراف والعرب ، وسير معهم المعز ابنه الأمير عبد الله ، فسار بمظلته وبين يديه الرجال والسلاح والكراع والبنود وصناديق الأموال والخلع ، وسير معه أولاده وجميع أهله ، وجمعا من جند المصريين " .

وطالت المناوشات بين القرامطة وجيوش المعز ، واستمال المعز إلى جانبه دغفل بن الجراح أمير قبائل طيئ ، وكانت أقوى القبائل في فلسطين ، ويروى أنه اشترى تخليه مع تحالفه مع القرامطة بمبلغ مائة ألف دينار . وكان لتخلي الطائيين عن القرامطة آثاره الجدية ، حيث استعادت القوات الفاطمية زمام المبادرة ، حتى

كادوا يأسرون الحسن الأعصم " فإنهم أحاطوا به ، وصار في وسطهم ، فاغتنم فرجه مضى منها على وجهه ، ونهب سواده وأعدت قبته ، وأسر رحاله"[١٢] .

لقد اعتمد القرامطة في حروبهم على بعض الوسائل لإثارة عزائم الجند في ساعة الحسم أثناء القتال ، فزعيم القرامطة الأول في الشام عرف باسم " صاحب الناقة " ، لأنه كان يقول بأن ناقته مأمورة – مثلما كانت ناقة النبي ﷺ يوم الهجرة إلى المدينة – وكان لا يبعث ناقته إلا في لحظة مقدرة لحسم القتال . ودعي الذي خلف صاحب الناقة في الشام " صاحب الخال " ، فقد وضع خالاً كبيراً على وجهه ، قال أنه دليل إمامته مثلما كان خاتم النبوة بالنسبة للنبي ﷺ .

وهذا لم يبدعه القرامطة ، بل كان في صلب الفكر الإسماعيلي ، فقد أوجد الفاطميون نظام المظلة التي كانت ترفع فوق رؤوس الأئمة ، واستعيرت فكرة المظلة مما روى أن النبي ﷺ كان في أسفاره يظلله السحاب .

ويساعد هذا كله على فهم مسألة القبة التي روى عنها المقريزي أنه : "كان من مخاريق القرامطة القبة ، وهي أن أبا طاهر بن أبي سعيد الجنابي كانت عادته في الحرب أن يفرد طائفة من عسكره – فرساناً ورجاله – عن القتال ، يقفون معه لا يقاتل ولا يقاتلون ، فإذا كلّ المقاتلة عن القتال حمل هو بنفسه في الطائفة المستريحة التي لم تحضر القتال ، فقاتل وقد كلوا منهزمين عنه " وبعد موته " رحلوا إلى المخرقة ، وأقاموا قبة كالعمارية على جمل ، وقالوا : إن النصر ينزل مع هذه القبة في وقت معلوم ، واتخذوا من حب الكحل ، ومن اللؤلؤ الكبار وجعلوه في صرة مع فحمة ومدخنة بداخل القبة ، وإذا أرادوا الحمل على عسكر من محاربيه صعد رجل منهم إلى القبة ، وقدم النار في المجمرة ، وأخذ حب الكحل ، وأرى القواد والناس بياضه من بعيد وهم لا يعرفونه ، ثم يطرحه على النار فيفرقع فرقعة شديدة ، ويتقد من غير دخان ، فيظن ذلك شيئاً ، ويحملون على أعدائهم ومعهم القبة ... ولا يوقد ذلك إلا عندما يقول صاحب العسكر : قد نزل النصر وذلك أنه يقف

مع القبة قطعة من الجيش مستريحة لا تقاتل ، وهو مستخف معهم، وأكثر القوم يقاتلون وهم بالقبة من وراء المقاتلة ، فمن انهزم من مقاتلتهم حل دمه ، وقتل ، فإذا أحس بأنهم قد كلوا أمر بحمل ما قلنا في القبة ، وحمل بها في الطائفة المستريحة ، فهزم من عساه يكون ، وما زالت مخرقتهم هذه يموهون بها إلى أن ... أخذها عبد الله بن المعز خارج القاهرة ، فقلت عند ذلك مهابة القرامطة بما ذهب من قيمتهم "(١٤) .

ويذكر هذا الباحثين في التاريخ بحكاية حمل صليب الصليوت من قبل جيوش الصليبيين ، ووقوع هذا الصليب بأيدي المسلمين في معركة حطين ، مما سيكون له أخطر الآثار على مصير المعركة .

ولما رأى الحسن الأعصم ما حدث لقبته " نحو، فكان جهده أن قاتل بمن معه حتى تخلص ، وكانوا قد أحاطوا به من كل جانب ، فخشي على نفسه وانهزم"(١٥) ، وسار إلى الشام حتى نزل في منطقة درعا ، وهنا عرف بزحف جيش فاطمي كبير تعداده /٢٠,٠٠٠ بقيادة إبراهيم بن جعفر بن فلاح يريد دمشق ، وأن المعز لدين الله قد راسل ظالم بن موهوب العقيلي ، ووعده بتوليه مدينة دمشق .

وفي هذا الوقت بالذات شهدت بغداد صراعات على السلطة أدت - فيما أدته - إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٦ - ٩٧٤م) واستخلاف ولده الطائع ، الأمر سيؤثر على مجريات الأحداث في بلاد الشام ، أو بالأحرى على أوضاع دمشق ، ومن ثم العلاقات بين القرامطة والفاطميين .

وقبل متابعة البحث في هذه المسألة ينبغي أن نذكر أن رجل الدولة البويهية القوي في العراق ، عضد الدولة فناخسرو ، أراد استغلال ما لحق بحملة الحسن الأعصم على مصر مع غيابه عن الإحساء ، فبعث " عسكرًا إلى الإحساء، وبها يومئذ أبو يعقوب بن أبي سعيد الجنابي ، عم الحسن بن أحمد الأعصم ، ففر أبو يعقوب ، وأخذ العسكر ما كان في الإحساء ، فقدم الأعصم منهزمًا من الشام

فيمن بقي معه ، فانضم إليه عمه ، وسار وأوقع بالعسكر ، واستباحه قتلاً ونهبًا ، ففرقت نفسه ، وكاتب العرب فأتوه "(١٦) .

وفي دعوة إلى دمشق نجد أن إبراهيم بن جعفر بن فلاح وصل مع قواته إلى دمشق وشرع بحصارها ، والتحق به آنذاك ظالم بن موهوب العقيلي . وحاول ظالم وإبراهيم الاستيلاء على دمشق بالحديد والنار ، فأوقعا الحرائق بعدة أمكنة من المدينة ، وكاد الدمار يلحق بها ، لكن ذلك لم يفت بعضد الدمشقيين بزعامة أحداثها . وأخيرًا اضطر الجيش الفاطمي وظالم بن موهوب إلى القبول بتسوية مع الدمشقيين ، قضت بانسحاب كل من إبراهيم بن جعفر بن فلاح وظالم بن موهوب ، وأن يسمح أهالي دمشق لجيش ابن الصمصامة ، وهو ابن أخت جعفر ، بالدخول إلى مدينتهم والٍ عليها . وكان ذلك سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م . ولم ينفذ الاتفاق ومنع الدمشقيون ابن الصمصامة من دخول مدينتهم فلحق بخاله ، وسمت القاهرة صقليا خصيا اسمه " ريان " لولاية دمشق .

وكان مما نجم عن خلع المطيع في بغداد قيام بعض العسكريين الترك بهجر بغداد ، والتحق واحد منهم واسمه ألبتكين " هفتكين " الحاجب بمنطقة دمشق ، وعسكر خارجها ومعه مجموعة من غلمانه ، فخرج إليه بعض شيوخ المدينة وأشرافها ، فرحبوا به ، وسألوه " الإقامة عندهم ، والنظر في أحوالهم " وقبل البتكين العرض ، وكان عسكريًا محترفًا ، له خبرات إدارية وسياسية ، وقام بعد ما تمكن من دخول دمشق بترتيب الأمور فيها بالتعاون مع الأحداث ، وكان مقدم أحداث دمشق رجلاً عاميًا بالأصل اسمه قسام الترّاب ، وكان أصل قسام من قرية تلفيتا " إحدى قرى دمشق ، من قوم من العرب ، كان يقال لهم الخارثيون " ، وقد نشأ في دمشق ، وكان يعمل في التراب ، ثم انضم إلى الأحداث ، فارتفع شأنه بينهم حتى غدا مقدمهم ، ثم رئيس دمشق وحاكمها .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية تراقب بقلق ما يجري في بلاد الشام ، وترغب في الحيلولة بين الفاطميين وبين الاستيلاء على هذه البلاد ، لا سيما الأجزاء

الشمالية منها . وفي القاهرة توفي الخليفة المعز دون التمكن من حل مشكلة دمشق ، ودون الوصول إلى تسوية مع قرامطة الإحساء، الذين استعادوا نشاطهم، فهاجموا منطقة الكوفة بالعراق مما أرغم سلطات بغداد على العودة إلى مهادنتهم، وإعادة تشجيعهم على التوجه إلى بلاد الشام ، لاستئناف الحرب ضد الفاطميين .

لقد خلق العزيز الفاطمي المعز لدين الله، وافتتح هذا عهده بإعداد جيش كبير جرده نحو دمشق ، وجعل على رأسه جوهر الصقلي شخصيًا ، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن ، وأن يبعد خطر القرامطة عن بلاد الشام مهما كلفه الأمر.

وسار جوهر " من القاهرة في عسكر لم يخرج إلى الشام قبله مثله ، بلغت عدتهم عشرين ألفًا ، فبلغ هفتكين الشرابي ، وهو على عكا ، مسير جوهر ، والقرامطة على الرملة ، فولت القرامطة منهزمين عجزًا عن مقاومته ، وسار هفتكين إلى دمشق وجوهر في أثره ، إلى أن نزل بين درايا وبين الشماسية ظاهر دمشق يوم الأحد لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وستين ، وحفر على عسكره خندقًا عظيمًا ، وجعل له أبوابًا ، وبنى البيوت من داخل الخندق . وكان قد انضم إليه ظالم بن موهوب العقيلي ، فأنزله خارج الخندق ، وجمع هفتكين الذعار وحمال السلاح من عوام دمشق ، وقدم قسام السنباط الترابي ، وأجرى له الأرزاق ، وأخرجه إلى قتال جوهر ".

واستمرت الحرب بين جوهر والمدافعين عن دمشق عدة أشهر مريرة ، وصلت خلالها الأخبار إلى المنطقة بزحف الحسن الأعصم على رأس قوة قرمطية كبيرة " وبلغ ذلك جوهر ، فدعا إلى الصلح ، وكان الشتاء قد هجم عليه ، وهلك ما معه من الكراع ، وصار معظم أصحابه رجالاً بغير خيل ، وقلت العلوفات عنده ، واشتد وقوع الثلوج ، فامتنع هكفتين من إجابته ، ثم أذعن وانفذ إلى جوهر بجمال .

ورحل عن دمشق بعدما احرق ما عجز عن حمله من الخزائن والأسلحة ، وسار يوم الخميس ثالث جمادى الأولى (٣٦٦هـ) بحذا لخوفه أن يدركه القرمطي، فهلك كثير من عسكره لشدة الثلج ، وخرج هفتكين من دمشق ، ولحق بالقرامطة ، واجتمعوا على قتال جوهر ، فجرت بينهم حروب طويلة شديدة آلت إلى التجاء جوهر إلى عسقلان ، وقد فني معظم عسكره ، ونهبت أثقاله ، فنزل هفتكين عليه ، وحصره حتى بلغ منه الجهد الشديد ، وغلت عنده الأسعار بعسقلان ، فبلغ قفيز القمح أربعين دينارًا ، وتنكر عليه من معه من الكتاميين ، واحتقروه وتنقصوه وشتموه ، وكانوا قبل ذلك تحاذلوا ، ولم يصدقوا في القتال ، فضاقت بجوهر ومن معه الأرض ، ولاذ إلى الصلح ، فبعث إلى هفتكين : أن أردت الخروج بمن معك فانا اؤمنك حتى تتصرف إلى صاحبك ، فتعاقدوا على ذلك ، وصالح هفتكين إليه على مال ، وخرج وقد علق هفتكين سيفه على باب عسقلان حتى يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ، فسار معه ، وكانت مدة قتال القرامطة وهفتكين لجوهر على الزيتون ظاهر الرملة وعلى عسقلان سبعة عشر شهرًا(١٧) .

وكان العزيز عندما التحق به جوهر عزله عن الوزارة ، واسندها إلى يعقوب ابن كلس ، وتجنب الجيش الفاطمي التصادم مع قوات البتكين والقرامطة ، واتصل العزيز بأمراء قبلية طيء ، ومع أن علاقة الحسن الأعصم كانت متينة بأبي الدواد المفرج بن دغفل بن الجراح ، وكان يتعشقه وينظم الشعر بالتغزل به ، آثر آل الجراح المال ، وفضلوا شذوذ فسخ الاحلاف على غيره من أنواع الشذوذ ، فتخلوا عن القرامطة وحملوهم ، فتراجع الحسن الأعصم إلى الرملة . وهكذا انفرد العزيز بالبتكين ، فأوقع به الهزيمة ، وحمله معه إلى القاهرة ، ليستفيد من خبراته العسكرية ، في إعادة بناء الجيوش الفاطمية ، بإدخال عناصر مشرقية فيها ، الأمر الذي كان له أبعد الآثار .

ولا يعنينا هنا البحث بهذه الآثار - على أهميتها - ويعنينا القول أن العزيز الفاطمي عاد إلى القاهرة دون إكمال زحفه نحو دمشق . لكن بعد التراسل مع

القرامطة ، وكان الحسن الأعصم قد توفي بالرملة " يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رجب سنة ست وستين وثلاثمائة ، فقام من بعده ابن عمه جعفر(١٨) ، ورضي زعيم القرامطة الجديد بمهادنة العزيز مقابل إتاوة مالية عالية تدفع سنويًا ، وهكذا أسدل الستار على الصراع القرامطي الفاطمي ، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ المحاولات الفاطمية للاستيلاء على دمشق(١٩) .

الهوامش

(١) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص ٤١٠ - ٤٢٢

(٢) أخبار القرامطة ص١٣

(٣) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ط. دمشق ١٩٩٥ جـ١، ص ٣١٢

(٤) المصدر نفسه جـ١ ، ص٣٠٧ - ٤٢٢

(٥) المصادر المتقدمة جـ١ ، ص ٣١٠ الجامع في أخبار القرامطة جزء ٢ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ ، ٥٩٥ - ٥٩٦

(٦) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ، ص٢٣٨ - ٢٣٩

(٧) الموسوعة الشامية جـ١ ، ص٣١٠ - ٣١١

(٨) المصدر نفسه جـ١ ، ص٣١١ -٣١٢ . الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، جـ ص ٥٠٨ - ٥٠٩

(٩) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص ٥٠٩ - ٥١١

(١٠) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ، ص٩٣

(١١) الإشارة إلى من نال الوزارة ص١٨ - ٢٣ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص٢٤١. يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٨٨ ، ص ٧٠ - ٩٨

(١٢) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص٥٦٧ - ٥٧٨

(١٣) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ، ص٥٧٩ - ٥٨٠

(١٤) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص٥٨٠

(١٥) المصدر نفسه جـ٢ ، ص٥٨٢

(١٦) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص٥٨٣

(١٧) الموسوعة الشامية جـ ، ص٣٣٢ - ٣٣٣

(١٨) الجامع في أخبار القرامطة جـ٢ ، ص٥٩٨

(١٩) الجامع في أخبار القرامطة جـ١ ، ص٩٦ - ٩٨

المصادر والمراجع

ابن الأثير (علي) .

- الكامل في التاريخ . القاهرة ١٣٤٨هـ .

- تراث الإسلام . بيروت (دار الطليعة) .

الأشعري (علي) .

- مقالات الإسلاميين . القاهرة ١٩٥٠

الأصطخري (أبو اسحق إبراهيم) .

- المسالك والممالك . لندن ١٩٢٧

الآملي (حيدر بن علي) .

- الكشكول فيما جرى على آل الرسول . قم - منشورات الرضي .

الأمين (محسن) .

- أعيان الشيعة . بيروت ١٩٨٣

ابن أيبك الدواداري (عبد الله) .

- الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٦١

إيمانى (مهدى الفقيه) .

- الإمام المهدى عند أهل السنة . أصبهان ١٤٠٢هـ .

الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) .

- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به . بيروت ١٩٨٠

البحراني (هاشم) .

- الفرق بين الفرق القاهرة ١٩٤٨

تامر (عارف) .

- ثلاث رسائل إسماعيلية . بيروت ١٩٨٣

- أربع رسائل إسماعيلية . بيروت ١٩٧٨

التجالي (عبد الله) .

- رحلة التجاني . تونس ١٩٥٨

- مجموعة من رسائل الجاحظ . القاهرة ١٣٦٥

- رسائل الجاحظ . القاهرة ١٩٧٩

الجعفي (المفضل بن عمر) .

- الهفت الشريف . بيروت ١٩٦٤

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن) .

- المنتظم - بيروت ١٩٩٦

جوزي (بندلي) .

- من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام . بيروت . دار الروائع) .

الحامدي (إبراهيم بن الحسين) .

- كنز الولد . بيروت ١٩٧١

الحائري (علي اليزدي) .

- الزام الناصب في إثبات الحجة الغائب . بيروت ١٩٧١

- الحجة فيما نزل في القائم الحجة . بيروت ١٩٨٣

- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ١٩٤٦

البغدادي (أبو منصور عبد القاهر) .

الحراني (أبو محمد الحسن بن علي) .

- تحف العقول عن آل الرسول . بيروت ١٩٦٩

ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) .

حسن (إبراهيم حسن) .

- المعز لدين الله . القاهرة ١٩٥٣

حسن (سعد محمد)

- المهدية في الإسلام . القاهرة ١٩٥٣

حسن (علي إبراهيم) .
- تاريخ جوهر الصقلي . القاهرة .
الحسيني (هاشم معروف) .
- سيرة الأئمة الأثني عشر . بيروت ١٩٨١
الحلبي (الحسن بن يوسف) .
- الألفين في أمامة أمير المؤمنين . النجف ١٩٥٣
الحمادي (محمد بن مالك) .
- كشف أسرار الباطنية . القاهرة ١٩٣٩
ابن حنبل (الإمام أحمد) .
- الرد على الزنادقة والجهمية . حماه ١٩٦٧
ابن حوقل (أبو القاسم محمد) .
- صورة الأرض . بيروت (دار الحياة) .
خسرو (ناصر) .
ابن حجر الهيتمي (أحمد) .
- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة . القاهرة - ١٩٦٥
ابن أبي الحديد .
- العمر وديوان المبتدأ والخبر . بيروت ١٩٥٨
الخليفة (عبد الله بن خالد) .
- البحرين عبر التاريخ . بيروت ١٩٦٩
الخوارزمي (أبو عبد الله محمد) .
- مفاتيح العلوم . القاهرة .
الدرامي (عثمان بن سعيد) .
- الرد على الجهمية . لندن ١٩٦٠
الدوري (عبد العزيز) .
- دراسات في العصور العباسية المتأخرة - بغداد (د . ت) .

دي خويه (مايكل) .
- القرامطة . بيروت ١٩٧٨
الديلمي (محمد بن الحسن) .
- بيان مذهب الباطنية وبطلانه . استانبول ١٩٨٣
الدينوري (أبو حنيفة بن داود) .
- الأخبار الطوال . القاهرة ١٩٦٠
الرازي (أحمد بن حمدان) .
- كتاب الزينة . القاهرة ١٩٥٧
- الأمثال والحكم . دمشق ١٩٨٧
ابن رسته (أحمد بن عمر) .
- الأعلاق النفيسة . لندن ١٨٩١
- سفر نامه . بيروت ١٩٧٣
الشماب (يحيى) .
- كتاب تنسر . القاهرة ١٩٥٤
ابن خلدون (عبد الرحمن)
- تاريخ العرب والإسلام . بيروت ١٩٧٤
زكار (سهيل) .
- تاريخ العرب والإسلام . بيروت ١٩٧٤
- تاريخ أخبار القرامطة . بيروت ١٩٧١
- يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية للإسلام في العصور .
- بيروت ١٩٨٨
- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية - دمشق ١٩٩٥
ابن أبي زينب (محمد بن إبراهيم) .
الطبري (محمد بن جرير) .

السجستاني (أبو يعقوب) .
- الافتخار . بيروت ١٩٨٠
- كتاب إثبات النبوءات . بيروت ١٩٨٢
ابن سيرين (حامد) .
- مصادر العقيدة الدرزية . لبنان - دير عقل ١٩٥٨
السيوطي (جلال الدين) .
- تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٩٦٤
- حسن المحاضرة . القاهرة ١٨٨١
ابن شاذان (الفضل) .
- الإيضاح . بيروت ١٩٨٢
رضا (محمد رشيد) .
- السنة والشيعة . القاهرة .
الرضي (الشريف محمد بن الحسين) .
- المجازات النبوية . دمشق ١٩٨٧
الرقيق القيرواني (إبراهيم) .
الطبرسي (أبو منصور أحمد بن علي) .
- الاحتجاج . بيروت ١٩٨٣
الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله) .
- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى . بيروت ١٩٨١
الطبري (علي بن ربن) .
- الدين والدولة . بيروت ١٩٧٩
الطبري (أبو الفضل علي) .
- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار . النجف ١٩٦٥

الطبري (محمد بن جرير) .
- تاريخ الرسل والملوك . القاهرة (دار المعارف) .
- تفسير الطبري . بيروت (دار الفكر) .
الطبري (محمد بن جرير بن رستم) .
- دلائل الإمامة . النجف .
الطهراني (اغابزرك) .
- طبقات أعلام الشيعة . بيروت ١٤٩٧٥
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة . بيروت ١٩٨٣
الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن) .
- الفهرست . بيروت ١٩٨٣
- رجال الطوسي النجف ١٩٦١
العباسي . (هلال بن المحسن) .
- تحفة الإمراء . القاهرة ١٩٥٨
الصيرفي (علي بن منجب) .
- الإشارة إلى من نال الوزارة القاهرة ١٩٢٣
ابن طاووس (علي بن موسى) .
- الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر . بيروت ١٩٧٨
عبد الحميد (سعد زغلول) .
- تاريخ المغرب العربي . القاهرة ١٩٥٦
ابن العديم (كمال الدين عمر) .
- بغية الطلب في تاريخ حلب . دمشق ١٩٨٨
- زبدة الحلب من تاريخ حلب . دمشق ١٩٩٦
ابن عذارى (أبو العباس أحمد) .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . بيروت - الرباط .

العزيزي (أبو علي منصور) .
- سيرة الأستاذ جوذر . القاهرة ١٩٥٤
ابن عساكر (علي بن الحسن) .
- تاريخ دمشق (المجلدة الأولى) . دمشق ١٩٥١
العسكري (جعفر بن محمد) .
- المهدي الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية . بيروت ١٩٧٧
العلوي (يحيى بن حمزة) .
- الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام . الإسكندرية (منشأة المعارف) .
ابن علي (القاسم بن محمد) .
- كتاب الأسلس لعقائد الأكياس بيروت ١٩٨٠
عليان (محمد عبد الفتاح) .
- أمالي الطوسي . بيروت ١٩٨١
- الأئمة الأثني عشر . بيروت ١٩٥٨
ابن عباد (الصاحب إسماعيل) .
- نصرة مذاهب الزيدية . بغداد ١٩٧٧
عباس (إحسان) .
- عهد أردشير . بيروت (دار صادر) .
- فضائح الباطنية . القاهرة ١٩٦٤
- الخير المسبوك . القاهرة ١٩٧٨
- احياء علوم الدين . بيروت (دار الفكر) .
- مشكاة الأنوار . القاهرة .
- تهافت الفلاسفة . القاهرة .
ابن فاتك (المبشر) .
- مختار الحكم ومحاسن الكلم . بيروت ١٩٨٠

فلهوزن (يوليوس) .
- الخوارج والشيعة . القاهرة ١٩٥٣ - فلوتن (فان) .
- السيادة العربية والشيعة . القاهرة ١٩٦٥ - بيروت ١٩٧٩
- عيون الأخبار . القاهرة ١٩٦٣
- الإمامة والسياسة (ينسب له) القاهرة ١٩٦٣
الفرشي (الداعي إدريس) .
- عيون الأخبار وفنون الآثار . بيروت ١٩٧٣
القرمطي (الداعي عيلان) .
- كتاب شجرة اليقين . بيروت ١٩٨٢
القزويني (زكريا بن محمد) .
- قرامطة العراق . القاهرة ١٩٧٠
غالب (مصطفى) .
- تاريخ الدعوة الإسماعيلية . دمشق (دار اليقظة) .
- أربع كتب حقانية . بيروت ١٩٨١
- الإمامة وقائم القيامة . بيروت ١٩٨١
الغزالي (أبو حامد) .
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة . القاهرة ١٩٦١
القمي (محمد بن علي بن بابويه) .
- الخصال . قم ١٤٠٣
- من لا يحضره الفقيه . قم ١٤٠٤هـ
- عيون أخبار الرضا . بيروت ١٩٨٤
- كمال الدين وتمام النعمة . قم ١٤٠٥
- معاني الأخبار . قم ١٣١٤
آل كاشف الغطاء (محمد الحسين) .
- أصل الشيعة وأصولها . بيروت .

ابن كثير (إسماعيل) .
- البداية والنهاية . القاهرة ١٩٦٧
الكرماني (أحمد حميد الدين) .
- راحة العقل . بيروت ١٩٦٨
- مجموعة رسائل الكرماني . بيروت ١٩٨٣
- الأقوال الذهبية . بيروت ١٩٧٧
- المصابيح في إثبات الإمامة . بيروت ١٩٦٩
الكشي (محمد بن عمرو) .
رجال الكشي . (كربلاء) .
- آثار البلاد وأخبار العباد . بيروت ١٩٦٠
القزويني (أبو جعفر عمر) .
- مختصر شعب الإيمان . القاهرة - مطبعة الإمام .
ابن القلانسي (حمزة) .
- تاريخ دمشق . دمشق ١٩٥٨
القمي (سعد) .
- المقالات والفرق .طهران ١٩٦٣
مجهول (دي غويه) .
- العيون والحدائق . لندن ١٨٦٩ - دمشق ١٩٧٤
- مجهول .
- أخبار الدولة العباسية . بيروت ١٩٧١
- مجهول (من القرن الحادي عشر) .
- تاريخ الخلفاء . موسكو ١٩٦٦
ابن محمد (القاضي النعمان) .
- اختلاف أصول المذاهب . بيروت ١٩٧٣

- الأرجوزة المختارة . مونتريال ١٩٧٠
- دعائم الإسلام مع التأويل . القاهرة- دار المعارف .
- رسالة افتتاح الدعوة . بيروت ١٩٧٠
- الرسالة المذهبة - نسخ خطية في مكتبة د. زكار .
- المجالس والمسايرات . تونس ١٩٧٨
- الاقتصاد . دمشق ١٩٥٧
ابن محمد الوليد (علي) .
- الدعوة في الحقيقة . بيروت ١٩٧١
المراكشي (عبد الواحد) .
الكليني (محمد بن يعقوب) .
- الأصول من الكافي . بيروت ١٤٠١هـ .
لويس (برنارد) .
- أصول الإسماعيلية . بغداد ١٩٤٧
- الدعوة الإسماعيلية الجديدة . بيروت ١٩٧٢
- المجلسي (محمد باقر) .
- بحار الأنوار . بيروت ١٩٨٣
- مرآة العقول . طهران ١٤٠٢هـ
مصطفى (شاكر) .
- دولة بني العباس . الكويت .
المعاضيدي (خاشع) .
- دولة بن عقيل الموصل . بغداد ١٩٦٨
المقدسي (محمد بن أحمد) .
- أحسن التقاسيم .لندن ١٩٠٦

المقدسي (يوسف بن يحيى) .
- عقد الدرر في أخبار المنتظر . القاهرة ١٩٧٩
المقريزي (أحمد بن علي) .
- اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة لدى د. زكار) .
المقفى (نسخة مصورة لدى د. زكار) .
- الخطط . القاهرة ١٩٠٨
- تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية . القاهرة ١٩٥٩
الملطي (محمد بن أحمد) .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع . بغداد ١٩٦٨
ابن منصور (جعفر) .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . القاهرة ١٩٦١
ابن المرتضى (أحمد بن يحيى) .
- المنية والأمل في شرح الملل والنحل . بيروت ١٩٧٩
المنجي (محمد بن عبيد الله) .
- أخبار مصر (قطعة منه) . القاهرة ١٩٨٠
المسعودي (أبو الحسن علي) .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر . القاهر .
- التنبيه والأشراف . القاهرة ١٩٣٨
- الفهرس . طهران ١٩٧١
ابن النعمان (الشيخ محمد بن محمد) .
- أوائل المقالات في المذاهب والمختارات بيروت ١٩٨٣
- الإرشاد . بيروت ١٩٧٩
النوبختي (الحسن بن موسى) .
- كتاب فرق الشيعة . استانبول ١٩٣١

النويري (شهاب الدين أحمد)
- نهاية الأرب في فنون الأدب . القاهرة ١٩٢٣
النيسابوري (أحمد بن إبراهيم) .
- كتاب إثبات الإمامة . بيروت ١٩٨٤
الهمداني (القاضي عبد الجبار بن أحمد) .
- تثبيت دلائل النبوة . بيروت ١٩٦٦ (نسخة مخطوطة) .
- المغني في أبواب التوحيد والعدل . القاهرة
- المؤسسة العامة للتأليف والنشر .
ابن الوليد (علي) .
- كتاب الذخيرة في الحقيقة ، بيروت ١٩٧١
- الكشف . بيروت ١٩٨٤
- سرائر وأسرار النطقاء .بيروت ١٩٧٤
ابن ميسر (محمد بن علي) .
- أخبار مصر . القاهرة ١٩١٩
- الناشيء الأكبر .
- مسائل الإمامة . بيروت ١٩٧١
- الصابئة . بغداد ١٩٨٣
النجفي (محمد حسن) .
- جواهر الكلام . بيروت ١٩٧١
ابن يحيى (أبو عنف لوط) .
- مقتل الحسين . بيروت ١٩٨٣
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) .

رجال الحديث في البحرين من الصحابة والتابعين

د. حسين علي المسري(*)

الموقع وأثره :

تشغل البحرين في مفهومها القديم ، مساحة واسعة تمتد على الساحل الغربي للخليج العربي . وقد حاول الجغرافيون القدامى في كتاباتهم تحديد هذه المساحة ، فقالوا : إنها تمتد من اسياف كاظمة(١) في شمال الخليج حتى عمان جنوبًا(٢) .

ولا شك في أن هذا الموقع ساهم مساهمة فعاله في البناء الحضاري للبحرين ، فهي منطقة مفتوحة على العالم الخارجي ، ذات علاقات واتصالات حضارية مع غيرها من البلاد القريبة والبعيدة . ذلك أنها تأثرت بالحضارات التي سادت فيها روحيًا وثقافيًا واجتماعيًا ، كحضارة الحجاز واليمن . كذلك أدى انفتاحها على البلاد القريبة إلى تأثرها بحضاراتها ، مثل الحضارة الفارسية وحضارت بلاد وادي الرافدين ، هذا فضلاً عن تأثرها واتصالها بالحضارتين الهندية والصينية عن طريق التجارة .

هذه الخصوصية الاستراتيجية المميزة التي تمتع بها البحرين أدت إلى تفاعل هذه الثقافات والحضارات المتنوعة على أرضها . كذلك كان لهذا الموقع المتميز الأثر الواضح على التجارة ، إذ جعل من البحرين مركزًا تجاريًا هامًا ، فكانت موانئها التجارية البحرية ، ومراكزها التجارية البرية تعج بالحركة التجارية منذ أزمان بعيدة ، وعمل بعض أهالي البحرين بدور وسطاء تجاريين بين الشرق والغرب . وتولدت من جراء ذلك صلات تجارية وثيقة مع هذه البلدان . وقد تحدث الباحثون في كتاباتهم عن وجود مثل هذه التجارات : فذكروا أن هناك جاليات تجارية من عرب البحرين موجودة في أقليم السند والهند يعملون بالتجارة(٣) . ومنذ أزمان بعيدة كانت هناك تجارة عامرة بين البحرين وأقليم

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الآداب جامعة الكويت .

الحجاز . واستمرت هذه العلاقة في عصر الإسلام ، فأشارت المصادر إلى وجود محاليات تجارية من عرب البحرين في المدينة المنورة يعملون في التجارة ، وخصوصًا تجارة التوابل(٤) . ولعل أهم هذه السلع المتبادلة بين الحجاز والبحرين في ذلك العصر كانت العطور والتوابل والزبيب(٥) .

على أننا لسنا في هذه البحث بصدد الكلام عن تجارة البحرين وأنواع السلع التجارية ، فقد كان هذا الموضوع محل دراسة سابقة لنا في بحث آخر ، ولكن أردنا فقط أن ننوه بلمحة سريعة إلى دور التجارة في التفاعل الحضاري بين البحرين والأمم الأخرى ، إذ كان للتجارة تأثيرات واضحة على النواحي الروحية والفكرية والاجتماعية ، وكثير من الاتجاهات الدينية التي قام بنقلها التجار ، فأخذت طريقها في الانتشار والاتساع بعيدًا عن مراكز نشأتها بفعل التجارة . من ذلك مثلاً أن اليهودية أخذت طريقها إلى البحرين فأعتنقتها بعض القبائل هناك ، وذلك عن طريق التجارة التي كانت الفاعل المؤثر بالدرجة الأولى(٦) ، هذا فضلاً عن المسيحية التي دخلت البحرين منذ القرن الأول للميلاد فتنصرت بعض قبائل عبد القيس(٧) ، حتى قيل أن رئاب بن اللبون عبد القيس كان أول من وحد الله في الجاهلية ، وقد تنصر واعتنق دين النصرانية(٨) .

وقبل هذا وذاك انتشرت المجوسية في ربوع بلاد البحرين الواسعة ، وهي ديانة بلاد فارس الفرية من البحرين ، فظهرت فيها الزرادشتية ، وهي فرع من المجوسية ، ويدين بالمجوسية بعض قبائل العرب بالبحرين ، وكان زرارة بن عدس وأبناه حاجب ولقيط ، والأقرع بن حابس وغيرهم ، كانوا مجوسًا . وقد تزوج لقيط ابنته واسمها دختنوس ، وسماها بهذا الاسم الفارسي(٩) . أما الوثنية ، فكانت العبادة التقليدية السائدة في البحرين منذ أزمان بعيدة واعتنقتها قبل الإسلام معظم قبائل البحرين ، فكانت عبد القيس كبرى قبائل البحرين تعبد "اللبا" ، وهو صنم سدنته بنو عامر بن عبد القيس(١٠) .

ولا شك في أن وجود الديانات السماوية بين ظهراني قبائل عبد القيس وغيرها ، أعطى وميضا يبشر باستعدادها لتقبل الإسلام . فقد علم عرب البحرين بحتم ظهور هذا الدين الجديد ، فتاقت نفوس الكثيرين للوقوف على معالمه ، حتى أولئك الذين كانوا قد تهودوا أو تنصروا ، راحوا يسألون ويستفسرون ليتعرفوا على أخبار هذا الدين الجديد الذي ظهر بمكة .

وهكذا استعدت بعض زعامات عرب البحرين من عبد قيس وربيعة للوقوف على أخبار هذه الحركة الجديدة التي ولدت ببعث الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة .

الوفادة :

وكانت البعثة الأولى إلى مكة قبل الهجرة ، وقد تولاها عمرو بن قيس من قبيلة ربيعة ، وكلفه بها خاله المنذر بن عائذ المعروف بالأشج(١١) ، زعيم قبيلة عبد القيس . ويبدو أن الغرض من هذه البعثة ، كان الاستطلاع والتعرف على صاحب الدعوة عن قرب والتحقق من صدق نبوته . ويقال إن عمرا كان يحمل معه تمرًا ، فأراد أن يمتحن رسول الله ، فقدم التمر على أنه صدقة ، فلم يقبله رسول الله ، فقدم إليه غيره وقال : " هذه هديه " ، فقبله منه ، لأن الرسول الكريم لا يأكل مال الصدقة ، ويقبل الهدية . ثم أن عمرًا أراد دليلاً آخر ، فتلطف في النظر إلى كتف رسول الله ، وعندما شاهد خاتم النبوة ، دعاه رسول الله إلى الإسلام فأسلم وحفظ سورا من القرآن الكريم ، وعاد إلى البحرين فأسلم الأشج وكتم إسلامه ، ربما خوفًا من حدوث الفتنة والفرقة بين قومه فأراد الانتظار حتى الوقت المناسب(١٢) .

وفي السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة قرر الأشج ، المنذر بن عائذ ، الوفادة على رسول الله ﷺ ، على رأس وفد يضم ١٧ رحلاً من عبد القيس . وكانت

المدة بين البعثة الاستطلاعية والوفادة الثانية التي يرأسها الأشج تقـرب مـن ٨ أو ٩ سنوات ، فاللقاء الأول كان مع رسـول الله ، وهـو فـي مكـة ، أي قبـل الهجـرة، وخلال هذه المدة كان الأشج يكتم إسلامه عن قومه إلى أن تم لقـاؤه برسـول الله ﷺ في المدينة المنورة ، وقد دار حـوار بـين رسـول الله وبـين الأشـج ، المنـذر بـن عائذ(١٣) ...

وكان لعرب البحرين وفاده أخرى في السنة التاسعة للهجرة ، علـى رأسـها الجارود بن بشر بن عمرو (١٤) ، وكان يدين بالنصرانية وأسلم علـى يـد رسـول الله(١٥) . وعند لقاء رسول الله به قال لـه : " يـاجـارود لقـد تـأخر الموعـد بـك وبقومك " ويفهم من هذه العبارة أن رسول الله ﷺ ، كان ينتظـر قـدوم الجـارود وقومه ، فرد الجارود قائلاً :" فـداك أبي وأمي: أمـا من تأخر فقد فاته حظه"(١٦). ويستدل من هذا الحوار أيضًا ، على ما كان يتمتع به الجـارود مـن مكانـة روحيـة واجتماعية هامه بين قومه ، مما صار له أثـره فـي دعوتـه الإسـلام ، إذ اعتـبر هـذا مكسبًا لما له من تأثير على عرب البحرين . يؤكـد ذلـك سـؤال رسـول الله عـن الجارود وعن قومة . هذا فضلاً عن أن ذلك الحوار مؤشرًا في الوقت نفسـه إلى أن رسول الله كان على علم ودراية بأحوال البحرين الدينية والاجتماعية والسياسية .

وقد روى أنه عند قدوم الجارود ، قال رسول الله ﷺ للأنصار: " قومـوا إلى إخوانكم ، وأشبه الناس بكم " ولعل عامل الشبه هنا يرتكز في البيئة الزراعية لكل من المدينة المنورة والبحرين ، فعرب البحرين أهـل دراية وخبـره بزراعـة النخيـل ، وكذلك عرب الأوس والخزرج ، وهم الذين عرفوا بالانصار بعد إسلامهم(١٧) .

وكان الجارود إلى جانب مكانته الروحيـة والقياديـة ، عالمًـا بأيـام الفـرس وتاريخهم وسير ملوكهم ، وعلى دراية ومعرفة بالأدب والفلسـفة والطـب(١٨) . ولما أسلم حرص على أن يحفظ ما سمع عن رسول الله ﷺ مـن أحـاديث شـريفة ، فكان من الرواة الثقاة للحديث ، وقد روى عنه الحفاظ من رجال الحديث(١٩).

ولم يلبث أن تألق نجم الجارود في الإسلام منبوأ مكانـة روحيـة واجتماعيـة وقيادية مرموقة ، حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب قال : " لولا أني سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : إن هـذا الأمـر لا يكـون إلا فـي قريـش لمـا عدلـت بالخلافـة عـن الجارود بن بشر بن المعلى ، ولا تخالفوني فـي ذلـك الأمـر "(٢٠) . ثـم أن هنـاك جماعات من عرب البحرين دفعها حبها لرؤية الرسول الكريم ﷺ، ومعرفة الديـن الجديد إلى الرحيل إلى المدينة المنورة دون انتظار وفد الأشج ، والمنذر بن عائذ ، أو وفد الجارود . وقد أكد الواقدي هذه الحقيقـة فذكـر أن رسـول الله عندمـا كـان يستعد لغزوة المُريسيع(٢١) ، التقى برجل من عبـد القيـس . ولم يذكـر الواقـدي اسم الرجل ، الذي أتى من هذه المسافة البعيدة ليسلم على رسول الله ويشترك فـي تلك الغزوة . وقد دار بينه وبين رسول الله هذا الحوار : سأله رسول الله : " أيـن أهلك ؟ قال : بالروحاء(٢٢) ، قال : أين تريد ؟ قـال : أيـاك جئـت لأومـن بـك وأشهد أن ما جئت به الحق ، وأقاتل معك عدوك . قال رسـول الله ﷺ : الحمـد لله الذي هداك للإسلام "(٢٣) .

وقد دفع هذا الرجل طوال وجوده بصحبة رسول الله حريصًـا علـى معرفـة المزيد من تعاليم الإسلام ، فكان يسأل مغتنما كل فرصة تجمعه برسـول الله . مـن ذلك أنه سأل رسول الله عن أفضل الأعمال إلى الله ، فقال له : " الصلاة في أول وقتها " ، فالتزم الرجل بهذا الأمر طيلة حياته(٢٤) .

وهكذا أخذ عرب البحرين يتقاطرون بروح سامية على المدينة المنورة لمقابلـة صاحب الدعوة ،ففي سنة ٥ هام أحد عرب البحرين بـالهجرة إلى المدينـة ، وبينمـا هو في طريقة إليها تقابل بأبي مسعود بن هنيدة ، أحـد أصحـاب رسـول الله ﷺ في موضع يقال له (خذوات)(٢٥) ، فأسلم على يد هـذا الصحـابي بعـد حـوار جرى بينهما . ولما علم رسول الله بذلك قال لأبي مسعود : لإسـلامه علـى يـدك كان خيرًا لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت "(٢٦) .

* * *

وكان من عربه عبد القيس من رغب فى استيطان المدينة المنورة . فهذا معبد بن وهب العبدى العصرى ، تزوج هريرة بنت زمعه أخت سودة زوج رسول الله ﷺ ، وكان من الأبطال المجاهدين ، فاشترك فى غزوة بدر ، ولم يقبل أن يحارب بسيف واحد ، بل كان يحارب بسيفين . فاثنى رسول الله على شجاعته وعلى إخلاص عبد القيس وثقافيها فى الإسلام ، فقال : " طفى على عبد القيس أما إنهم أسد الله فى أرضه "(٢٧) .

* * *

وقد ظل الصحابه من عرب البحرين ملازمين لرسول الله ﷺ أثناء وجودهم فى المدينة المنورة ، فيقول أبان العبدى أو أبان المحاربى(٢٨) ، واسمه فى بعض المصادر غسان(٢٩)، رايت بياض إبط رسول الله وهو مستقبل القبلة(٣٠).

ويستدل من هذه العبارة على الطريقة التى كان يمارسها رسول الله ﷺ فى الصلاة ، وأنه كان يرفع يديه إلى أعلى بالدعاء فائقًا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، يستفاد من هذه العبارة أيضًا أنها توضح نوع اللباس الذى كان يرتديه المسلمون من قريش فى صدر الإسلام ، زمن رسول الله ، ويفهم أنها ثياب ذات أكمام واسعة بحيث إذا ما رفع الإنسان يديه إلى أعلى بان إبطه .

ومن رجال البحرين من عبد القيس ، صحار بن عياش أو عباس(٣١) ، وكان ممن تشرف بصحبة رسول الله ﷺ ، وقد حفظ عن رسول الله بعض الأحاديث ، فكان من الحفاظ . روى عنه إبناه : عبد الرحمن وجعفر . وروى عنه منصور بن أبى منصور ، أحد رواة الحديث . فمن الأحاديث الشريفة التى رواها : سمعت رسول الله يقول : " لاتقوم الساعة حتى تخسف بقبائل من فلان " ، ويقول : " فتأملت هذا الحديث وعلمت أنه يعنى بعض قبائل العرب ، لأن العجم تنسب إلى قراها "(٣٢) .

وقد سأل رسول الله عن شراب مسكر يصنعونه فى بلادهم ، وفى الغالب يكون من التمر ، فنهاه عن صناعته وشربه إذ قال : " تسألنى عن المسكر : لا تشربه ولاتسقيه أخاك ، فو الذى نفسى بيده ما شربه رجل قط ابتغاء لذه سُكره فيسقيه الخمر يوم القيامة "(٣٣) .

ويشير الحديث الشريف هنا إلى لذة السكر ، وهى العلة فى التحريم ، فإذا كان القصد من الشرب تحقيق لذة السكر وفقدان الوعى فهو حرام . يفهم كذلك أن صناعة النبيذ كانت شائعة بين عرب البحرين قبل الإسلام ، وكانت لديهم أوعية خاصة لصناعته ، ورد ذكرها فى بعض المصادر وهى : الدباء - والحنتم - والنقير والمزفت (٣٤) .

ومما يؤكد تفشى عادة شرب النبيذ بعض قبائل عرب البحرين فى العصر الجاهلى ، قول عمير بن جودان العبدى الذى كان ضمن الوفد الذى قابل رسول ﷺ ، قال لقومه : " قد حفظتم من النبى ﷺ كل شئ سمعتموه فاسئلوه عن النبيذ "(٣٥) .

ومن أصحاب رسول الله ﷺ من عرب البحرين ، جعفر العبدى ، وكان ممن يحفظون الأحاديث الشريفه . وقد روى عنه ليث بن أبى سليم وغيره . من ذلك أنه سمع رسول الله يقول : " ويل للمتألين من أمتى الذين يقولون فلان فى الجنة وفلان فى النار " ولفظة تألى تعنى ، حلف وحكم أن فلان فى الجنة وفلان فى النار ، وهذا لا يجوز لأن هذه الأمور فى عداد حكم الله ، فإن الله تبارك وتعالى هو البصير بعباده وهو الذى يثيبهم على أعمالهم ، وإن شاء أدخلهم النار . أما المعايير التى يضعها الإنسان فهى قاصره وغير مدركه وحكمها مبنى على الظاهر ، ولا تتفق مع مشيئة الله سبحانه وتعالى (٣٦) .

كذلك من الشخصيات التى حظيت بشرف الصحبة من عرب عبد القيس بنو صوحان ، الأخوة الثلاثة وهم : زيد بن صوحان(٣٧) ، وصعصعة بن صوحان ، سيحان بن صوحان .

وكانت لهم في الجاهلية والإسلام مكانة في الشرف والسيادة والشجاعة والخطابة والشعر والأدب والدراية بأيام العرب ، وفي الإسلام كانوا من رواد رجال الحديث والتقوى والصلاح .

ذلك أن زيد كان من فرسان العرب في الجاهلية حتى قرن اسمه بالخيل ، فكان يسمى بزيد الخيل(٣٨) ، وكانت له صحبة كما ورد في أسد الغابة(٣٩)، وروى الأحاديث ولكن عن الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة علي بن أبي طالب ، ثم روى عنه أبو وائل شقيق بن سلمه الأسدي(٤٠) ، وقد حظي زيد بثناء رسول الله ﷺ ، مما يدل على المكانة الروحية السامية التي كان يتمتع بها ، إذ تنبأ له رسول الله بالجنة فقال : زيد ما زيد ... تسبقه يده إلى الجنة ، ثم يتبعها سائر جسده " ، وقد حدث ذلك بالفعل فقد قطعت يده في معركة جلولاء أو القادسية أثناء مقاتلة الفرس ، ثم قتل في معركة الجمل(٤١) . ويذكر ابن قتيبة أن زيدًا تنبأ بمقتله يوم الجمل ، فقد قال لعلي بن أبي طالب : " ما أراني إلا مقتولاً ، قال : وما علمك بذلك يا أبا سلمان ؟ قال : رأيت يدي نزلت من السماء وهي تستشيلني " ، وذكروا أن الذي قتله هو عمرو بن يثربي(٤٢) .

وكان زيد يحث الناس ويدعوهم للإشتراك في معركة الجمل ، فعندما تأخر أهل الكوفه عن مناصرة الخليفة علي بن أبي طالب بسبب موقف أبي موسى الأشعري والي الكوفه المثبط لهم ، ذهب زيد بن صوحان إليهم فأثار الحماسة وحاء في حديثه لهم : " أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين سيروا إليه أجمعين "(٤٣) .

والواقع إن زيدًا يعد واحدًا من الشخصيات التي امتلكت مواهب وقدرات عديدة ، فقد إمتلأ قلبه بالإيمان والشجاعة والأدب والإخلاق الكريمة ، حتى سماه رسول الله ﷺ يزيد الخير بدلاً من زيد الخيل ، وقال عنه ابن قتيبه بأنه " كان من خيار الناس "(٤٤) .

كذلك حظي بتقدير واحترام الخلفاء الراشدين ، فأثنى عليه الخليفة عمر بن الخطاب في كثير من المواقف ممتدحًا إيمانه وشجاعته . وكان لا يتوانى عن تلبية نداء الجهاد في أي موضع كان . فعندما طلب عمر بن الخطاب من وفد الكوفة القادم إلى المدينة المنورة - وكان بينهم زيد بن صوحان - مساعدة أهل الشام عسكريًا ، كان زيد أول المتقدمين . ولما استعدوا للذهاب إلى الشام ، دعا الخليفة عمر بن الخطاب زيد بن صوحان فُضفنَهُ على الرحل ، أي حمله بنفسه على الناقه إجلالاً وتقديرًا لزيد ، ثم التفت إلى الناس وقال : " كما تضفنون أمراءكم ... اصنعوا هذا بزيد وأصحاب زيد "(٤٥) .

وفي أثناء الفتنه التي حلت بالمسلمين وعمت أرجاء العالم الإسلامي زمن الخليفة عثمان بن عفان ، لم يتأخر زيد عن تقديم النصح والمشورة إلى الخليفة ، فكان يقول : " يا أمير المؤمنين ملت فمالت أمتك ، إعتدل تعتدل أمتك " كررها ثلاث مرات ، فرد الخليفة عليه قائلاً : أسامع مطيع أنت ؟ قال نعم قال : " الحق بالشام " ، فامتثل زيد لأوامر الخليفة في الحال ، وترك المدينة المنورة من ساعته متوجها إلى الشام(٤٦) .

ولم يقتصر دور زيد بن صوحان على الجهاد في ميادين القتال ، بل كان أيضًا له دور مشابه في ميادين الأرشاد والنصح والتوعية والتذكير وتبصير الناس بأمور دينهم . وهذا الدور لا يقل أهمية عن دور الجهاد ، فكان يخطب الناس أيام الجمع وفي سائر الأيام ، وفي بعض المعارك كان الصحابي سلمان الفارسي يقول لزيد في أحدى الجمع :" قم فذكر قومك "(٤٧) .

أما صعصعة بن صوحان ، - وهو أخو زيد - فكان ينتمي إلى قبيلة عبد القيس كبرى قبائل البحرين ، وقد وصف بالفصاحة والبيان . وكذلك كان من خطباء العرب ، المفوهين ، إلى جانب إلمامه الواسع بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم ، كان شاعرًا وحكيمًا ، ومعظم شعره جاء في مدح أهل البيت .

ويتطلب البحث هنا التأكيد على الجانب الروحي لصعصعة ، فقد أدرك رسول الله ﷺ ، إلا أنه لم يحظ برؤية النبي لصغر سنه ، كذلك كانت له السيادة والشرف في قومه ، وكان من رواة الحديث الثقاة ، ومعظم أحاديثه أخذها عن الخليفة علي بن أبي طالب وعن ابن عباس ، إلا أنه مقلاً في رواية الحديث(٤٨).

وكان للإسلام دور فعال في صقل مواهب صعصعة الروحية والفكرية والأدبية ، ففي الفقه يعتبر من العلامات الواضحة ، إذا كان له رأي صائب في تقسيم الأموال التي أتت من أبي موسى الأشعري والي البصرة إلى المدينة المنورة ، و مقدارها مليون درهم ، وعندما قسمت على المسلمين زاد منها بعض المال ، فاختار الخليفة عمر بن الخطاب في هذا الباقي كيف يوزعه ، فجمع المسلمين ليأخذ برأيهم حول هذا الموضوع ، فتقدم صعصعة - وكان شابًا صغيرًا - فقال : " يا أمير المؤمنين إنما تشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن ، فأما ما نزل به القرآن فضعه مواضعه التي وضعه الله عز وجل فيها ، فقال : صدقت ، أنت مني وأنا منك ، وتم تقسيم المال المتبقي وفق رأي صعصعة(٤٥) .

كذلك كانت له مواقف مشرفة مخلصة للمحافظة على وحدة الأمة أثناء الأزمة التي حدثت زمن الخليفة عثمان بن عفان ، فكان الناصح الأمين هو وأخوه زيد ، لكن هذه المساعي لم يكتب لها النجاح ، مما دفعهما إلى الانضمام إلى المعارضة ، فانتقد الخليفة عثمان في سياسته المالية والأدارية والسياسية ، وعندئذ أمر الخليفة بنفيه إلى الشام ليكون تحت مراقبة معاوية بن أبي سفيان(٥٠). ومن شخصيات عبد القيس التي نفاهم عثمان إلى الشام ، أيضًا عامر بن عبد القيس(٥١) .

وقد عرف عن صعصعة ملازمته الشديدة للخليفة علي بن أبي طالب ، وكان لهذه الصحبة الأثر الواضح على الحياة الفكرية لصعصعة ، فاستقى من فيض علم الخليفة علي بن أبي طالب ومن إخلاقه وشجاعته وزهده . وكان دائم

السؤال والاستفسار خصوصًا في أمور الدين ، كأنه أراد اغتنام كل فرصة تجمعه بالخليفة علي بن أبي طالب في الإفادة لفهم تعاليم الإسلام . وفي إحدى المجلسات قال للخليفة علي : " أنهنا عما نهانا عنه رسول الله ﷺ "(٥٢) . وقد بعث ذات مرة برسالة إلى الخليفة علي بن أبي طالب يسأل ويستفسر عن شئ ، ولم يفصح لنا ناقل هذا الخبر عن هذا الشئ ، فجاء جواب الخليفة علي : " قيمة كل إمرئ ما يحسن " . ومن سياق هذه الإجابة ربما يفهم أن هذا الشئ الذي سأله عنه صعصعة يتعلق بالأعمال الحياتيه التي يقوم بها الإنسان، سواء كانت مادية أو معنوية(٥٣).

كذلك شارك صعصعة في الحروب التي خاضها الخليفة علي بن أبي طالب ، أما أخواه زيد وسبحان فقد قتلا في معركة الجمل ، وتسلم هو راية عبد القيس في أعقاب مقتل أخويه(٥٤) . وكان سفيرًا للخليفة علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان قبيل حدوث معركة صفين بأيام ، عندما منع معاوية الماء عن جيش علي ، فذهب صعصعة يفاوض معاوية في موضوع الماء(٥٥) . كذلك كانت له مواقف بطولية نادرة إزاء الخوارج ، سواء كان ذلك على الصعيد العسكري أو الأدبي الخطابي(٥٦) .

على أن ملازمته وصحبته للخليفة علي بن أبي طالب أثارت حفيظة معاوية، فكانت لمعاوية مواقف وأحداث عديدة مع صعصعة في أعقاب وفاة الخليفة علي . وفي كل مرة كان معاوية يحاول أن ينال منه ويجرحه . ومن هذه المواقف على سبيل المثال ، أن صعصعة كان ضمن الوفد القادم على معاوية ، وكان قومه قد قدموه عليهم لفصاحته وحسن بيانه ، وبينما هو يخطب توجه إليه معاوية قائلاً : " إن كنت لأبغض أن أراك خطيبًا " فرد صعصعة : " وأنا أن كنت لا بغض أن أراك خليفة "(٥٧) .

ومن هذه اللقاءات والمواقف أنه دخل على معاوية مرة في مجلس ، وبجانبه عمرو بن العاص على سرير ، فقال معاوية لعمرو : " وسع له على ترابيه فيه " وفي هذه العبارة تحقير واستخفاف ، وربما القصد منها إثارته ، فرد صعصعة على

معاوية : " إني والله لزاني ، منه خلقت ، وإليه أعود ، ومنه أبعث ، وإنك لمارج من نار"(٥٨) .

وسأله معاوية ذات مره عن الجود ، فقال : " التبرع بالمال والعطية قبل السؤال "(٥٩) ، وفي إحدى هذه اللقاءات طلب منه معاوية أن يصنف الناس ، فقال صعصعة : "خلق الله الناس أطوارًا : فطائفة للسياسة ، وطائفة للفقه والسنة، وطائفة للبأس والنجدة ، وآخرون بين ذلك يكدرون الماء ويغلون السعر"(٦٠) .

ومن هذه الروايات نفهم أن صعصعة بن صوحان كان على علم ودراية ومعرفة بطبائع البشر واستعداداتهم الفطرية التي زودهم بها الله تبارك وتعالى بها، وكان في نفس الوقت يؤمن بالتخصص وبالقدرات لكل فرد ، والتي في ضوئها تولدت مثل هذه المواهب والقدرات . وفي العبارة الأخيرة أشار إلى التجار وأهل السوق الذين يبدو أنهم كانوا يتلاعبون بالأسعار مما أنزل الضرر بالعامة والطبقات الفقيرة . وهذا يعطي مؤشرًا بأن السلطة والمسئولين في الدولة كانوا في غفلة عن مراقبة أسعار السلع .

كذلك كان لصعصعة خبرة ودراية بصنوف الخيل ومعرفة الجيد والردئ منها ، فحين سأله معاوية عن أفضل الخيل قال : " الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، العريض الثلاث ، الصافي الثلاث " ، وكان كلامًا مبهمًا لم يفهمه معاوية ، فطلب منه تفسير ذلك فقال : " أما الطويل الثلاث ، فالإذن والعنق والحزام ، وأما القصير الثلاث ، فالصلب والعسيب والفضيب . وأما العريض الثلاث ، فالجبهة والمنخر والورك ، وأما الصافي الثلاث ، فالأديم (٦١) والعين والحافر (٦٢) . وهذه الدراية والمعرفة بالخيل لم تأت جزافًا ، فإن البيئة التي عاشها صعصعة كانت تنتج أفضل أنواع الخيول العربية الأصيلة ، إذ كانت البحرين منذ أزمان بعيده تصدر الخيول العربية الأصلية إلى الهند كسلعة تجارية ، وكانت السفن التجارية تشحن بالمهرات الصغيرات وتبحر بها إلى بلدان الشرق الأقصى ، وعلى

هذه السلعة قامت تجارة واسعة مربحة(٦٣) ، وكان التجار في العودة يحملون الأخشاب التي تستخدم في بناء السفن والمساكن(٦٤) .

ولصعصعة رأي في الثروة وكيفية تنميتها ، فهو يرى أن أفضل الأموال في تكوين الثروة وتنمية الاقتصاد تنحصر في ثلاثة موارد هي : الحنطة ، والأغنام ، والماء ولما سأله معاوية : " فأين الذهب والفضة ؟ قال : حجران يصطكان ، إن أقبلت عليهما نفدا ، وإن تركتهما لم يزيدا "(٦٥) . ويفهم من ذلك أن قيمة الأموال وفق ما يرى صعصعة بن صوحان ، هي التي يتوفر بها عنصران : النمو والتكاثر ، ولايختص بهذه الصفة غير الثروة الزراعية والحيوانية . وقد توفي صعصعة بمدينة الكوفه زمن معاوية بن أبي سفيان(٦٦) .

ومن الملاحظ أن مدينة الكوفه في منتصف القرن الأول الهجري - كذلك قبيل هذا التاريخ وما بعده - كانت مركز استقطاب لعدد كبير من الصحابة والتابعين ، لاسيما بعد أن تحولت هذه المدينة إلى حاضرة العالم الإسلامي زمن الخليفة علي بن أبي طالب . ومن الطبيعي أن يكون لوجود الخليفة الأثر البالغ في توافد الصحابة والتابعين ، فحرص بعضهم على المجئ إليها واستيطانها . وزادت أهمية هذه المدينة وزادت معها الوفادة في القرن الثاني الهجري ، خصوصًا في العصر العباسي ، فكان من بين الذين انتقلوا إليها ، الصحابة والتابعون من عرب البحرين من عبد القيس ، اتخذوها وطنًا لهم ، وكانوا يلقبون بـ " العبدي " نسبة إلى عبد القيس . وينسحب ذلك أيضًا على مدينة البصرة ، إذ سكنها كثير من قبائل عبد القيس .

ومن الشخصيات التي استوطنت الكوفه ، الأشعث بن حودان العبدي ، وقد ورد اسمه في بعض المصادر : عمير بن حودان العبدي أو عمير بن الأشعث بن حودان العبدي ، وكانت له صحبة برسول الله ﷺ إذ كان ضمن وفد عبدالقيس، وهم عرب البحرين الذين قدموا على رسول الله في المدينة المنورة(٦٧) .

كذلك من هذه الشخصيات التي نالها شرف الصحبة ، بشير بن النهاس العبدي ، كان من رواة الحديث ، إذ روى عنه ، أبو عناب القرشي ، ويحيى بن عبد الله . ومن الأحاديث الشريفه التي رواها عن رسول الله ﷺ قوله : " ما استرذل الله عبدًا إلا حرم العلم "(٦٨) .

وقد ذكر بشير بن النهاس العبدي هذا الحديث ليبين أهمية العلم ومكانته الفكرية والاجتماعية ودوره في إصلاح المجتمع على الصعيد الروحي والاجتماعي والثقافي. ويعطينا هذا مؤشرًا عن مدى اهتمام عرب البحرين بالناحية الفكرية ويبين مكانتهم الروحية ، إذ حرصوا على حفظ الأحاديث الشريفة والعمل بها ، خصوصًا إنها وجدت أجواء تهيأت لمثل هذه العلوم فراحت تتفاعل معها .

* * *

وهكذا تبوأ عرب البحرين في صدر الإسلام مكانة روحية سامية رفيعة في ظل الإسلام . ومن العناصر التي حظيت بهذه المكانة : بشر بن هلال العبدي ، الذي حرص على أن ينال شرف الصحبة فترك بلاده البحرين ورحل إلى المدينة المنورة ، حيث التقى هناك برسول الله ﷺ ، وأصبح ملازمًا له يستقي من فيض علمه ، مما ترك أثره الواضح في حياته الفكرية والروحية ، فأصبح من العلماء الذين يتقنون علوم القرآن والتفسير والفقه والحديث ؛ فرفعت هذه العلوم من شأنه ومكانته الروحية والاجتماعية بين قومه ، حتى توجت هذه المكانه بوسام رفيع قلده إياه رسول الله ﷺ ، فقال : " أربعة سادة في الإسلام : بشر بن هلال العبدي ، وعدي بن حاتم ، وسراقه بن مالك المدلجي ، وعروة بن مسعود الثقفي"، وكان لهذه السيادة التي نالها بشر بن هلال أبعادها على الصعيد الروحي والفكري والاجتماعي والقيادي(٦٩) .

وممن حظي أيضًا بشرف الصحبه من عرب البحرين ، همام بن بحاد العبدي ، الذي سكن الكوفه . وكان من رواة الحديث ، إذ روى عنه أبو إسحاق السبيعي ،

والعيزار بن حريث وغيرهم . وعاد بعد ذلك إلى البحرين مبشرًا ومنذرًا، فكان يدعو قومه إلى الدخول في الإسلام . ومن أقواله لهم : " انذركم سوف أقوم ، سوف أصوم ، سوف أصلي "، ويعني بأقوم ، قيام الليل للعباده والتهجد(٧٠) .

وكان ضمن وفادة الجارود بن المعلى التي قابلت رسول الله ﷺ في السنه التاسعة للهجرة ، حكيم بن جبله العبدي ، اتصف بالشجاعة والكرم ، وفي عهد الخليفة عثمان كانت هناك محاولات للمسلمين لفتح إقليم السند ، فبعثه الخليفة يستطلع أخبار هذا الأقليم قبل الشروع بفتحه . وكان اختيار حكيم لهذه المهمة موفقًا .

أولاً : لأن البحرين قريبه نوعًا ما من إقليم السند إذا ما قورن ذلك بالمدينة المنورة .

ثانيًا : إن لعرب البحرين دراية ومعرفة بإقليم السند لما بينهما من صلات تجاريه وثيقة ومع سائر أقطار الخليج .

وكان إن عاد حكيم العبدي من إقليم السند بهذا التقرير : الذي يقول للخليفة : " ماؤها وشل(٧١) ، ولصيها بطل ، وسهلها جبل ، إن كثر بها الجند جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا " . ويفهم من هذه العبارات إن الأوضاع الاقتصادية لإقليم السند كانت فقيرة ، لندرة المياة في بعض نواحيه ، ووعورة التضاريس ، فضلاً عن كثافة السكان مما أدى إلى ظهور العصابات من اللصوص وقطاع الطرق المتمردين ، وهم الموصوفون بالشدة والفلاظة . وعلى هذا الأساس أمتنع الخليفة عن فتحها خوفًا على جيش المسلمين من الجوع والضياع . وربما كانت فكرة الاستطلاع قبل الغزو قد استحدثت في عهد الخليفة عثمان ، ولا أظن أن لها وجود في عهد الخلفاء السابقين(٧٢).

وفي أوائل سنة ٣٩هـ تكررت المحاولة لفتح هذا الإقليم في عهد الخليفة علي بن أبي طالب ، وتولى قيادة الجيش الحارث بن مرة العبدي ، أحد القادة من

عرب البحرين من عبد القيس . وكان أن تمكن المسلمون من فتح هذا الإقليم . وكان الهدف من الفتح ، نشر الإسلام وتبليغ الرسالة . ولم يكن الهدف اقتصاديًا، فالأحوال الاقتصادية لهذا الإقليم سيئة كما نوهنا ، ولكن البلاذرى يقول : أن القائد الحارث بن مرة العبدى بعد أن تم له فتح الإقليم : " أصاب مغنمًا وسبيًا " حتى أنهم قسموا فى يوم واحد ألف رأس . ولم يحدد البلاذرى أنواع هذه المواشى التى قسمت(٧٣) .

وفى أعقاب مقتل الخليفة على بن أبى طالب ، استغلت بعض العناصر المناوئة للدولة الإسلامية فى إقليم السند حالة الفوضى والظروف السياسية الغير طبيعية التى تمر بها الدولة الإسلامية ، فعملت على الانفصال ، وعندئذ جهز المسلمون جيشًا للقضاء على المناوئين هناك وللمحافظة على من أسلم منهم ، وإعادة هذا الإقليم إلى النفوذ الإسلامى . واختار معاوية بن أبى سفيان الذى تولى الحكم بعد صلحه مع الحسن بن على بن أبى طالب لقيادة هذا الجيش ، القائد المخنك ، عبد الله بن سوار العبدى الهجرى ، من مدينة هجر ، وهى كبرى مدن البحرين ، فانتصر المسلمون وأعادوا فتح الإقليم . ثم غزا " القيقان "(٧٤) وفتحها ثم عاد إلى معاوية وافدًا وأهدى إليه خيلاً قيقانية(٧٥) وقيل فيلاً قيقانى صغير(٧٦) .

وفيما يتعلق بأمر حكيم بن جبله العبدى : فقد سكن البصرة ، وكان من المعترضين والناقمين على سياسة عثمان المالية والإدارية ، خصوصًا فيما يتعلق بأمر تعيين الولاة الغير مرضى عنهم من عامة الصحابة . لذلك انضم إلى صفوف المعارضة ، وقدم إلى المدينة المنورة على رأس مائة وحمل من عرب البصرة ومن غيرهم(٧٧) ، وكان من المؤيدين والناصرين للخليفة على بن أبى طالب ، فقد اشترك معه فى حرب الجمل(٧٨) .

ومن رجال الحديث من عرب البحرين ، ممن تشرفوا بصحبة رسول الله ﷺ ، عمرو بن تغلب العبدى ، من عرب " جواثى "(٧٩) ، ممن كان يحفظ أحاديث

رسول الله ، روى عنه الكثير من رجال الحديث منهم : الحسن بن أبى الحسن(٨٠) ، وقد أثنى عليه رسول الله ، فكان يفتخر بهذا الثناء . ومما قاله رسول الله فيه : " أتى رسول الله بشىء فأعطى قومًا ومنع قومًا ، وقال : إنا لنعطى قومًا نخشى هلعهم وجزعهم ، وأكل(٨١) قومًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الإيمان ، منهم عمرو بن تغلب " ، ففى هذا الحديث الشريف شهادة من رسول الله لعمرو بأنه من الذين وصلوا إلى درجة الإيمان ، وقد عبر عمرو عن سروره بهذه الشهادة بقوله : " قال لى رسول الله ﷺ كلمة ما أحب أن لى بها حمر النعم "(٨٢) .

والواقع أن عدد الصحابه من عرب البحرين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فى الوفادة الأولى سنتى ٨ و ٩ هـ والثانية سنة ٩هـ كان كبيرًا . وقد ذكر ابن سعد فى الطبقات جملة منهم ، فمن هؤلاء : سفيان بن خولى(٨٣) ، ومحارب ابن مزيده(٨٤) ، وعبيدة بن مالك بن همام بن معاوية بن شبابه ، وجابر بن عبد الله العبدى ، ومنقذ بن حبان العبدى ، وهو ابن أخت الأشج المنذر بن عائذ ، وعمرو بن المرجوم(٨٥) ، وهو الذى انتقل ببعض قبائل عبد القيس وأسكنهم البصرة ، وشهاب المزوك(٨٦) ، وطريف بن أبان(٨٧) ، وعمرو بن شعيث ، من بنى عصر من عبد القيس ، وجابر بن جابر من بنى عصر، وهمام بن ربيعة من بنى عصر ، وخزيمة بن عبد عمرو من بنى عصر ، وعامر بن عبد قيس ، من بنى عامر بنى عصر ، وعقبه بن جروة ، من بنى صباح بن لكيز بن عبد القيس ، ومطر بن جروة ، وهو أخ لعقبه من أمه ، وسفيان بن همام (٨٨) ، وعمرو بن سفيان ، والحارث بن جندب العبدى ، من بنى عائش بن عوف بن الديل ، وهمام بن معاوية بن شبابه بن عامر بن حطمه من عبد القيس(٨٩) .

* * *

التابعون ومن جاء بعدهم :

لم تقتصر رواية الحديث على الصحابة من عرب البحرين ، بل شاركهم في ذلك التابعون من عرب البحرين ومن جاء بعدهم . وقد استمرت وفادة البحرين على المدينة المنورة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، يتسقطون أخبار رسول الله وأحاديثه الشريفة ، وأخبار المدينتين المقدستين مكه والمدينة مهابط الوحي . وقد أخذوا هذه الأحاديث والأخبار من علماء الصحابه للقرين العارفين بهذه الأخبار والمشهود لهم بالأمانة والعداله من رجال الحديث والفقه والتفسير .

فمن الرجال التابعين من عرب البحرين : إبراهيم بن مسلم الهجري العبدي، من المحدثين ، وقد روى عن عبد الله بن أبي أوفى ، أبي الأحوص عوف بن مالك، وروى عنه سفيان الثوري وغيرهم(٩٠) ، ومن التابعين المحدث الحضرمي ابن العجلان مولى الجارودين المعلى العبدي ، وقد روى عنه كثيرون منهم : نافع مولى ابن عمر ، وروى عنه الربيع بن زياد(٩١) ، وكان الربيع والياً على البحرين زمن الخليفة عمر بن الخطاب(٩٢) .

كذلك من رواة الحديث التابعين من عبد القيس ، حوشب بن عقيل العبدي، وأبو ضحية الهجري ، من الرواة الثقاة ، وثقة أحمد النسائي . ومن الفقهاء والمحدثين ، خلاس بن عمرو الهجري ، وكان يروى عن علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر والسيدة عائشة ، وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسي ، انتقل إلى البصرة فنسب إليها ، لذلك فإن الذهبي يقول عنه : أنه بصري ثقة(٩٣) .

وممن كانوا يحفظون الحديث من التابعين من عرب عبد القيس ، عوف بن أبي جميلة المعروف بابن الإعرابي الهجري(٩٤) ، وزياد بن سلمان العبدي ، المعروف بالهجري ، كان مولى لعبد القيس(٩٥) وكان من العلماء البارزين ، في الحكمة والتاريخ والأدب ، كثير المواعظ ، ويحفظ الحديث . روى عن أبي موسى

الأشعري ، وعبد الله بن عمرو وغيرهم . وكانت له لقاءات مع الخليفة عمر بن عبد العزيز ، جرت خلالها محاورات في الحكم والمواعظ ، ومعظم هذه اللقاءات كانت ذات طابع روحي(٩٦) .

ومن المحدثين زيد بن علي أبو القلوص العبدي ، روى عن طلحه بن عبد الله ، وابن عباس ، وروى عن عبد الله بن مسعود ، وروى عنه عوف بن أبي جميلة . خرج له أبو داود الترمذي وابن ماجه . ومن رواة الحديث ، عثمان بن الجهم الهجري ، روى عن زر بن حبيش ، وروى عنه وكيع بن الجراح ، وقال عنه ابن حبان أنه ثقه . كذلك من رواة الحديث من عرب البحرين التابعين ، الزبير بن جناده الهجري ، روى عنه حرمي بن عماره وزيد بن الحباب ، وقال عنه ابن حيان(**) : أنه ثقة . ومن المحدثين مهدي بن حرب الهجري العبدي ، روى عنه حوشب بن عقيل(٩٧) ، ثم الفقيه والمحدث والعالم رشيد الهجري ، كان من أصحاب الخليفة علي بن أبي طالب ومن خواصه المقربين وحافظ سره ، من التابعين المشهود لهم بسعة العلم وخاصة العلوم الشرعية(٩٨) .

على أن المعارف والعلوم التي توصل إليها علماء البحرين لم تقتصر على العلوم الشرعية فقط ، بل أيضاً كان من بينهم من له دراية ومعرفة بالعلوم العقلية ، مثل علم الفلك وغيره . وقد ذاعت شهرتهم في أنحاء جزيرة العرب . ومن هؤلاء العلماء : أبو الجلد ، أحد علماء مدينة هجر . ولم نتمكن من التعرف على باقي

(**) أبو حيان ، هو علي بن محمد التوحيدي البغدادي ، من الأعلام البارزين في علم الأدب والاجتماع والسياسة ، ومن كتبه المشهوره الامتاع والمؤانسه ، كتاب البصائر والذخائر، كتاب الصديق والصداقة وغيرها من الكتب . وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، ولم يتمكنوا من تحديد تاريخ وفاته ، وذكروا أنه كان موجوداً في سنة ٤٠٠هـ . وقد لحق به لقب التوحيد ، لأن والده كان يبيع التوحيد في بغداد ، وهو نوع من التمر .
- (ابن خلكان : وفيات الأعيان مجلد ص١١٢ - ١١٣) .

اسمه ، وهو متخصص في علم الأنواء ومهاب الريح والأمطار والبرق . وكانت له شهرة واسعة ، فقد بعث إليه عبد الله بن عباس ، الفقيه والمفسر الشهير ، يسأله عن البرق ، الذي ورد ذكره في الآية الشريفة : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾(٩٩) . فأجاب أبو الجلد : " كتبت إلي تسألني عن البرق؟ وأنه من الماء " . وقد أثبت العلم الحديث أن مصدر البرق من الماء ، لأن البرق ينشأ من تصادم كتل وكامية كبيرة من السحب المحملة ببخار الماء ، فتتولد عن هذا التصادم شحنة كهربائية ذات قوة حرارية عالية ينشأ عنها هذا الضوء الباهر المعروف بالبرق . ويدل هذا التفسير على دراية أبي الجلد الفجري بعلم الأنواء وأنه قد سبق عصره في تفسير بعض الظواهر الكونيه . وقيل إن سؤال عبد الله بن عباس كان عن الرعد ، فأجاب أبو الجلد : بأن " الرعد ريح تختنق تحت السحاب(١٠٠) .

كذلك ظهر من بين علماء البحرين التابعين من وصف بالزهد والتصوف ، مثل : عامر بن عبد القيس بن ثابت التميمي ، وكان من الزهاد المعروفين في الأوساط الاجتماعية ، وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، حتى أنهم قالوا : " انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين : عامر بن عبد قيس ، وهرم بن حيان ، والحسن ، وأبي مسلم الخولاني ، وأويس القرني ، والربيع بن خيثم ، ومسروق ، والأسود بن يزيد " . ولم يكن غريبًا على بيئة البحرين أن تنجب هؤلاء العباد والزهاد ، لأن الروحيات كانت المناخ السائد في بيئة البحرين خلال هذه الفترة . وكان عامر بن عبد قيس أحد كبار التابعين الزهاد ، وانتقل إلى البصرة والتقى هنالك بعلمائها ، فدرس علوم القرآن على أبي موسى الأشعري ، وأتقن هذا العلم وأخذ يدرس هذه العلوم، وتخرج على يده الكثير في النسك والعبادة، وكان فصيحًا حكيمًا(١٠١).

ومن زهديات عامر حبه الشديد للعبادة والزهد في الحياة ، فكان يقضي جُل وقته في العبادة . وقد أشيع عنه أنه لا يأكل اللحم والسمن ولا يتزوج النساء

ولا يصلي في المساجد ، بل كان يختلي في مكان يتعبد فيه ، ولا يمس بشرته أحد. وهذه الصفات كما يبدو من صفات المتصوفة المسالحين العابدين الزاهدين المطلقين للحياة . ولكن بعد المجاورة والمساءلة مع عامر تبين خطأ ما أشيع عنه ، ما عدا الزواج ، فإنه لم يتزوج ، ولما سئل عن ذلك ، أجاب : " وأما قولك أني لا أتزوج النساء فإنما لي نفسي واحدة فقد خشيت أن تغلبني"(١٠٢) .

ويبدو أن عامرًا عزف عن الزواج لأمر يتعلق بالعبادة ، فكان يخشى أن يشغله الزواج عن العبادة . ومما يؤكد ذلك أنه لما سأله والي البصره : (لم تركت النساء ؟) ، قال : أما والله ما تركتهن إلا إني قد علمت أنه متى ما تكن لي إمراة فعسى أن يكون ولد ، ومتى ما يكون ولد يشعب الدنيا قلبي ، فاحببت التخلي من ذلك "(١٠٣) .

وفي إحدى مناجاته ، كان يسأل ربه أن يرزقه ثلاث : أن يذهب عنه حب النساء فهو يرى : أنه لم يكن شيء أخوف عليه في دينه منهن ، فاستجيب دعاءه ، فكان يقول : " فوالله ما أبالي امرأة رأيت أم حمارًا " وسأل ربه : أن لا يخاف أحد غيره ، فأجاب الله دعاءه ، سأل ربه أن يذهب النوم عنه حتى يتفرغ للعبادة في الليل والنهار ، فلم تجب هذه الدعوة(١٠٤) .

وقد نسبوا إلى عامر بعض الكرامات ، تذكرها المصادر ، منها أنه كان يتسلم عطاءه من الخليفة عمر بن الخطاب ، فلا يمر بمسائل إلا أعطاه ، ثم يأتي بهذا العطاء إلى أهله فيلقيه إليهم ، فيعدونه فيجدونه لم ينقص منه شيء . ومن مواقفه الإسلامية والإنسانية ، أنه كان غيورًا على أهل الذمة ، يدافع عنهم ويحميهم ممن يتعرض لهم بسوء ، فكان اليهود يحترمونه ، حتى أن كعبًا ، أحد أحبار اليهود وصفه براهب هذه الأمة(١٠٥) .

وقد وصف عامر بالاستمرارية في الدعاء والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، فكان يدعو ربه أن يجعله من الخاشعين المتصلين بالله اتصالاً وثيقًا . وكان حريصًا

على الخشوع في الصلاة ، فكان يسأل ربه أن يحول بين الشيطان وبين قلبه أثناء الصلاة فلم يقدر على ذلك(١٠٦) .

وهناك حوار جرى بينه وبين بعض أصحابه ، فكان عامر يقول : " لحرف في كتاب الله أعطاه أحب إلي من الدنيا جميعًا ، فقيل له وما ذلك يا أبا عمرو ؟ قال : أن يجعلني الله من المتقين ، فانه قال : إنما يتقبل الله من المتقين" (١٠٧) . (المائدة آية رقم ٢٧) .

ومن زهديات عامر اجتهاده في العباده المتواصلة ، فصعب ذلك على أصحابه خوفًا عليه من الهلاك، فسألوه الرأفه بنفسه ، فمسك بجلدة ذراعه ، وقال: " والله لئن استطعت لا تنال الأرض من زهدي(١٠٨) إلا اليسير " وكان إذا مر بالفاكهة يقول : " مقطوعة ممنوعة "(١٠٩) .

وقد تعرض عامر بن قيس إلى التنكيل والاضطهاد ، إذ أفترى عليه ورفعت وشاية إلى والي البصرة ، تقول : بأن عامرًا يدعي الافضلية على نبي الله إبراهيم عليه السلام ، فكتب والي البصرة بذلك إلى الخليفة عثمان ، فأمر الخليفة بنفيه إلى الشام على قتب(١١٠) ، وهو مركب غير مريح . وقد جرى التحقيق مع عامر حول هذه الدعوى ، فلما سئل : " أنت الذي قيل لك ما إبراهيم خير منك ؟ فسكت ، قال : أما والله ماسكوتي إلا تعجبًا لوددت أني كنت غبارًا على قدميه يدخل في الجنة " ، وقد مكث عامر بالشام مدة من الزمن(١١١) ، ولا نعرف ما إذا كان قد عاد إلى العراق ، وكانت وفاته سنة ٥٥هـ(١١٢) .

وهكذا نشطت الحركة الفكرية في البحرين وازداد نشاطها في عصر تابعي التابعين من عرب البحرين أي في نهاية القرن الثاني الهجري . وقد تأثرت هذه الحركة بطريقة أو بأخرى بالنشاط الفكري الذي نعمت به العاصمة بغداد ، حاضرة العالم الإسلامي ، التي أصبحت مركز إشعاع فكري منذ عهد أبي جعفر المنصور والخلفاء الذين أعقبوه ، عندما استقطبت بغداد العديد من العلماء .

ومن المحدثين الفقهاء من عرب البحرين في تلك الفترة ، نصر بن نصير البحراني ، وتوفي في حدود سنة ١٥٠هـ ، وكان من رواة الحديث ، إذ روى عن أبيه عن جابر بن عبد الله الانصاري(١١٣) . كذلك من علماء الحديث المشهود لهم بالثقه ، محمد بن معمر البحراني ، شيخ البخاري الذي نقل عنه كثيرًا من الروايات والأخبار(١١٤) . ومن رجال الحديث الثقاة ، العباس بن يزيد بن أبي حبيب ، أبو الفضل البحراني ، ويعرف بعباسويه ، ذهب إلى بغداد ، وكانت بغداد في منتصف القرن الثالث الهجري مركز إشعاع فكري تبث الثقافة والعلم ، فكانت لهذه الملتقيات الفكرية أثرها الواضح على نشاط الحركه العلمية ، ليس في بغداد فقط ، بل امتد وميضها إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وكان العباس بن يزيد من المحدثين البارزين ، فكان يحدث عن محمد بن جعفر غندر ، وسفيان بن عيينة ، وخالد بن الحارث ، ويزيد بن زريع وغيرهم(١١٥) ، ثم ذهب إلى همذان وحدث بها . وله مؤلفات كثيرة في علم الحديث وفي غيره من العلوم ، لم نتعرف على شيئا منها . وقد توفي العباس في سنه ٢٥٨هـ(١١٦) ، ومن الذين رووا عن العباس إسماعيل بن العباس الوراق ، والمحاملي ، ومحمد بن مخلد(١١٧) .

ومن رجال هذه الطبقة من المحدثين من علماء البحرين ، زكريا بن عطية البحراني ، الذي كان يروى عن سلام ، أبي المنذر . ومن رجال الحديث كذلك يعقوب بن يوسف بن أبي عيسى البحراني ، وكان شيخ ابن أبي داود . وهارون بن أحمد بن داود البحراني ، شيخ ابن شاهين . وداود بن غسان بن عيسى البحراني(١١٨) .

ومن رجال الحديث من عبد القيس ممن استوطن البصرة ، بحوث بن المزرع بن بحوث ، وكان على مذهب سفيان الثوري ، رحل إلى بغداد ، وحدث بها عن أبي عثمان المازني وابن حاتم السجستاني ، أبي الفضل الرياضي . ولم يقتصر علمه على الحديث ، بل كان أيضًا ملمًا بعلم التاريخ والأدب ، وكان اسمه موضع

تشاؤم ، فسبب له كثيرًا من الحرج ، فاضطر إلى استبداله بمحمد ، إلا أن الاسم الأول غلب عليه فصار لا يعرف إلا به(١١٩) .

ومن الرافقة ، وهي من قرى البحرين ، التي ينتمي إليها كثير من العلماء ، محمد بن خالد الرافقي ، وقد اشتهر الرافقي برواية الحديث ، روى عنه عبد الله بن موسى(١٢٠) .

* * *

الخاتمة :

كان لعامل التجارة الذي ربط البحرين ببقية الأقطار - المجاورة والبعيدة - الأثر الواضح على تطور الفكر المعرفي والثقافي لدى عرب البحرين ، لاسيما أولئك الذين يسكنون المدن التي تطل على الساحل . فمن طريق التجارة كان هنالك احتكاك ثقافي معرفي متبادل تنقله التجار ، فكان لذلك تأثيره الحضاري على أهل البحرين ، خصوصًا في المدن الهامة ، مثل : دارين وهجر وأوال والأحساء .

وعلى الصعيد الروحي ، ارتقت الحياة الروحية في البحرين . ومرد ذلك يعود إلى انتشار الديانات السماوية ، كاليهودية والنصرانية في أرجاء البحرين ، خاصة في المدن الهامة . لذلك كانت البحرين مهيأة روحيًا لتقبل الدين الإسلامي الجديد الذي ظهر بمكة . وكان أن اتصلت بصاحب الدعوة وهو بمكة و لم تنتظر حتى تأتي الدعوة منه . ويعود ذلك في حقيقة الأمر إلى الطبيعة الخيرة التي جبلت عليها معظم قبائل البحرين .

وعندما جاء سفراء الرسول ﷺ البحرين يدعون أهلها إلى الإسلام ، أمنوا بالدعوة صلحًا ودون أدنى تردد . هذا وكان لرجالها بعد ذلك الدور البارز الفعال في خدمة الإسلام ، سواء كان ذلك في ميادين الجهاد من أجل نشر الإسلام ، أو في ميادين المعرفة والعلم .

لقد أبى أهل البحرين إلا أن تكون لهم صحبة برسول الله ﷺ . ولم يمنعهم عن ذلك البعد الجغرافي ، فكان منهم رجال الحديث الذين سمعوه من رسول الله أو من الصحابة أو التابعين ، فحافظوا عليه وقاموا بشرحه ونشره . وينسحب هذا على سائر العلوم الشرعية ، كالتفسير والفقه . هذا إلى جانب إلمام بعضهم ومعرفته ودرايته الواسعة بأيام العرب وأنسابهم ، وهو ما يعرف بعلم التاريخ ، كذلك كان من بينهم من له معرفة بعلم الفلك والطب .

وصفوة القول أنه يتبين لنا من خلال هذه الدراسة ، إن علماء البحرين كان لهم الدور البارز والمساهمة الفعالة في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية على الصعيدين المعرفي والعسكري .

الهوامش

(١) كاظمة الفاء معجمة ، مدينة عامرة تطل على ساحل الخليج العربي ، وهي ميناء هام ، وقد ورد ذكرها في كتب التاريخ وفي المعاجم الجغرافية على أنها على سيف البحر في الطريق من البحرين إلى البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان ، أي ما يقرب من ١٢٠ كيلو متر ، وهي الآن تقع في الشمال الغربي من مدينة الكويت ، انظر ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله) معجم البلدان مجلد ٤ ص دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٦٧م .

(٢) القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٧٣ ، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، وانظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ص٢ ، ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٣) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، باعتناء محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م ، جـ١ ، ص١٧٨ وانظر القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ، جـ٥ ص٨٠ - ٨١ ، وانظر المسري (د.حسين علي) : تجارة العراق في العصر العباسي ، ذات السلاسل ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٢٦٥ ، ٢٦٧ .

(٤) البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر) : انساب الأشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، لا يوجد تاريخ للنشر ، جـ٤ ، ص٤٣ ، انظر الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ ، بيروت ، دار القاموس للطباعة والنشر ، بدون تاريخ ، ص٢٩ ، وانظر د.المسري : "البحرين وعمان في عصر النبوة" - المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ص١٢ - ١٣ ، العدد ٤٠ السنة العاشرة ١٩٩٢م .

(٥) البلاذري : أنساب الإشراف جـ٤ ص٤٣ .

(٦) علي (د. جواد) : تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٦ القسم الديني - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، ص٤٣ .

(٧) د. جواد : تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٦ ص٩ ، وانظر : مراد (مصطفى) قطر ماضيها وحاضرها .

(٨) ابن عبد ربه (أبي عمر أحمد بن محمد الأندلسي) : العقد الفريد جـ٣ ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ص٣٥٧ .

(٩) ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) : الكامل في التاريخ جـ١ دار صادر - بيروت ، ص٥٨٧ وانظر مصطفى مراد : قطر ماضيها وحاضرها .

(١٠) مصطفى مراد : قطر ماضيها وحاضرها ص١٣٧ .

(١١) هو المنذر بن عائذ بن المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث بن النعمان بن زياد ابن عوف بن عمرو بن عوف بن حنيفة بن عوف بن بكر بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أقصى بن عبد القيس الأشج العبدي ، العصري .

انظر ابن الأثير (ابن الحسن علي بن محمد الجزري) : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٥ مطبعة الشعب ، مصر (بدون تاريخ) ص٢٦٧ .

(١٢) ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) : الطبقات الكبرى جـ٥ دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) ص٥٧٤ ، وانظر ابن الأثير : أسد الغابة جـ١ ص١١٦ - ١١٧ .

(١٣) ابن سعد : الطبقات جـ٥ ص٥٦٤ ، وانظر ابن الأثير : أسد جـ١ ص١١٧ ، وانظر ابن حجر (أحمد بن علي بن محمد بن الكناني) : الإصابة في تمييز الصحابة جـ٢ دار أحياء التراث - بيروت - لبنان (بدون تاريخ) ص١٧١ وانظر : السهيلي (عبد الرحمن) : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ٧ باعتناء عبد الرحمن الوكيل ، دار كتب الحديث (بدون تاريخ) ص٤٢٩ .

(١٤) الجارود : هو بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى ، وهو الحارث بن زيد بن حارثة ابن معاوية بن ثعلبة بن مديعة بن عوف بن بكر بن عوف بن أنمار ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٥٩ .

(١٥) ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ٥٥٩ .

(١٦) الأحسائي (محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري) : تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء قديم والجديد جـ١ ، باعتناء حمد الجاسر ، الرياض ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص٣ - ٤ .

(١٧) ابن أبي الحديد (عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين) : شرح نهج البلاغة جـ٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء الكتب العربية ، (لم يذكروا مكان الطبع) ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، ص٥٦ .

(١٨) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ١ ، ص٣ - ٤ .

(١٩) ابن أبي الحديد : الشرح جـ١٨ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢٠) ابن أبي الحديد : الشرح جـ١٨ ، ص٥٦ .

(٢١) المُر يسيع : بالضم ثم الفتح ، وياء ساكنة ثم سين مهملة مكسورة وياء أخرى ، وعين مهملة . موضع لعين ماء غرب المدينة من ناحية ساحل البحر . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ٥ ، ص١١٨ .

(٢٢) الروحاء : هي أرض وادي باليمامة . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ٢ ، ص٧٦ .

(٢٣) الواقدي (محمد بن عمر) : مغازي رسول الله . جـ١ تحقيق Marsden Jones اشتاوت إسماعيليات ، تهران (بدون تاريخ) ، ص٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢٤) الواقدي : المغازي جـ ، ص٤٠٦ .

(٢٥) الخنوات : عند رجوعنا إلى المعاجم الجغرافية لم نجد ذكر لهذا الموضع مما يدل على عدم أهميته وشهرته ، وقد ذكره ياقوت واكتفى بالقول بأنه موضع ولم يحدد مكانه . انظر ياقوت : معجم مجلد ٢ ، ص٣٤٩ .

(٢٦) الواقدي : المغازي جـ١ ، ص٤٠٩ .

(٢٧) الأحسائي : تحفه المستفيد جـ٢ ، ص٩ .

(٢٨) وعارب بطن من عبد القيس ، وهو عارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن افصى بن عبد القيس ، فهو عبد عاربي ، انظر ابن الأثير : أسد الغابة جـ١ ، ص٤٨ .

(٢٩) ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٣ .

(٣٠) ابن الأثير : أسد جـ١ ، ص٤٨ .

(٣١) هو صحار بن عباش أو عباس بن صخر بن شراحيل بن منقذ بن حارثه من بني ظفر بن الديل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن افصى بن القيس العبدي الديلي . انظر ابن الأثير: أسد جـ٣ ، ص٩ ، وانظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٣ .

(٣٢) ابن الأثير : أسد جـ٣ ، ص٩ .

(٣٣) ابن سعد : الطبقات جـ٥ ص٥٦٣ .

(٣٤) الدُّبَّاء : وعاء يعرف بـ (القدبة) : يوضع فيه الزيت والدهن ، والجمع دباء ، وقد يكون أيضًا إناء من الخزف مثل الجرة تطلى بمادة حتى تسد مسامها . انظر ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب جـ١ ، دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) ، مادة دبب ص٣٧٢ .

والحنتم : جرار من الخزف لونها أخضر تميل إلى الحمرة . ابن منظور - : لسان العرب جـ١٢ مادة حنتم ، ويوضع النبيذ في هذه الجرار . أما النقير : فإنها كلمة اشتقت من النقر ، بكسر الميم ، وهو المحول ، والنقير هو أصل النخلة ، ينقر وسطها ، وقد اعتاد أهل اليمامة أن ينقروا أصل النخلة ويضعون الرطب واليسر ثم يشدخونه ، بمعنى يدقونه ويتركونه مدة حتى يتخمر ، ثم يضيفون عليه الماء فيصبح نبيذًا . ابن منظور : لسان العرب جـ٥ مادة نقر ص٢٨٨ .

والمزفت : المزفت ، بالكسر : القارُ ، وهو وعاء عادة يكون من الخزف على شكل جرة مطليٌ بالزفت ، حتى لا يتسرب ما بداخله من سائل ، فيقال لبعض أوعية الخمر : المزفت ، وهو المقير ، وقد نهى رسول الله ﷺ ، عن هذا الوعاء المزفت ، أن ينتبذ فيه ، كما ورد في الحديث الشريف ، أنه نهى عن المزفت من الأوعية ، قال : " هو الأناء الذي طلي بالزفت ، وهو نوع من القار ثم انبذ فيه " ابن منظور : لسان العرب جـ٢ مادة زفت ص٣٤ ، وقد نهى رسول الله إن يعمل النبيذ بهذه الأوعية الأربعة التي مر ذكرها . ابن منظور : لسان جـ٥ ص٢٢٨ مادة نقر .

(٣٥) ابن الأثير : أسد جـ٣ ص٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٣٦) ابن الأثير : أسد جـ١٠ ص٣٤٤ .

(٣٧) زيد بن صوحان حجر بن الحارث بن صعصعة بن صوحان بن حارثة بن لبث بن ظالم بن ذُهل بن عجل بن وديعة بن لكيز بن افصى بن عبد القيس الربعي العبدي ، يكنى أبا عائشة ، وقيل أبا سليمان أو سليمان ، وقيل أبا مسلم ، وقيل أبا عبد الله ، وذكروا أن له كنيتان أبو عبد الله وأبو عائشة ، وهو أخ لصعصعة ، الذي سوف يأتي الحديث عنه وعن صوحان . انظر الخطيب البغدادي (الحافظ أبي بكر أحمد بن علي) : تاريخ بغداد جـ٨ ، ص٤٣٩ ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (لا يوجد تاريخ) . وانظر ابن الأثير أسد جـ٢ ، ص٢٩١ .

(٣٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ، ص١٣٧ .

(٣٩) ابن الأثير : أسد جـ٢ ، ص٢٩١ .

(٤٠) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ٨ ، ص٤٣٩ .

(٤١) ابن الأثير : أسد جـ٢ ، ص٢٩١ - ٢٩٢ .

(٤٢) ابن قتيبه (أبي محمد عبد الله بن مسلم) : المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة دار المعارف - مصر (بدون تاريخ) ص٤٠٢ .

(٤٣) ابن كثير : (إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية جـ٧ ، ص٣٤٧ باعتناء د. أحمد ملحم وآخرين : دار الكتب العلمية - لبنان) .

(٤٥) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ، ص١٢٤ .

(٤٦) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .

(٤٧) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ص١٢٤ .

(٤٨) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ، ص٢٢١ ، وانظر الذهبي (شمس الدين بن أحمد بن عثمان) : سير أعلام النبلاء ، جـ٣ باعتناء شعيب الأرنؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٥٢٨ وانظر الألوسي (محمود شكري) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب جـ٣ باعتناء محمد بهجت الأثري ، مصر ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م ، ص٢٠٥ وانظر الأمين العاملي (السيد محسن) : أعيان الشيعة ، مطبعة الأنصاف بيروت ١٣٧٠هـ/ .

(٤٩) ابن الأثير : أسد جـ٣ ، ص٢١ .

(٥٠) ابن الأثير : أسد جـ٣ ، ص٢١ .

(٥١) ابن قتيبه : المعارف ص١٩٥ ، انظر المطهر المقدسي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) : البدء والتاريخ جـ٦ ، باعتناء كلمان هوار ، باريز ١٨٩٩ ، ص٢٠٢.

(٥٢) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ، ص٢٢١ .

(٥٣) ابن عبد ربه : العقد جـ٤ ، ص٢٠٦ .

(٥٤) ابن قتيبة : المعارف ص٤-٢ ، وانظر ابن الأثير : أسد جـ٣ ص٢١ ، والذهبي : سيرة إعلام النبلاء جـ٣ ، ص٥٢٨ ، والألوسي : بلوغ الأرب جـ٣ ، ص٢٠٥ ، والأمين العاملي : أعيان جـ١ ، ص١٥٩ .

(٥٥) أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، أعادت نشره بالأفست مكتبة المثنى - بغداد - دار المسيرة - بيروت (بدون تاريخ) ، ص١٦٨ .

(٥٦) ابن عبد ربه : العقد جـ٤ ، ص٣٥٣ .

(٥٧) الذهبي : سيرة إعلام النبلاء جـ٣ ، ص٥٢٨ .

(٥٨) ابن عبد ربه : العقد جـ٤ ، ص٣٦٦ .

(٥٩) ابن عبد ربه : العقد جـ١ ، ص٢٣٩ .

(٦٠) التوحيدي (أبو حيان) : البصائر والذخائر جـ١ ، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ، مطبعه الانشاء ١٩٦٤ (لم يذكر مكان الطبع) ص٤٨ .

(٦١) الأديم لها معاني كثيرة في معاجم اللغة ، ومن سياق حديث صعصعه يأتي معناها ، الخيل التي في وجهها بياض أو سواد نقي وصافي وذات الجلد الغليظ الجيد الناعم انظر ابن منظور : لسان العرب جـ١٢ ص١٠ - ١١ .

(٦٢) ابن عبد ربه : العقد جـ١ ، ص١٥٤ .

(٦٣) القلقشندي : صبح الأعشى جـ٥ ، ص٨٠ - ٨١ وانظر السامرائي (الدكتور أحمد محمود) : تاريخ المسلمين في القارة الهندية وحضارتهم من الفتح العربي حتى قيام الدولة المغولية جـ١ ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ، ص٣٨ .

(٦٤) المسعودي : مروج جـ١ ، ص٣٢٦ ، وانظر مصطفى (د. شاكر) : دولة بني العباس، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣م ، ص٢٢٢ .

(٦٥) ابن عبد ربه : العقد جـ٣ ، ص٣٢ .

(٦٦) ابن سعد : الطبقات جـ٦ ، ص٢٢١ .

(٦٧) ابن الأثير : أسد جـ١ ، ص١١٧ .

(٦٨) ابن الأثير : أسد جـ١ ، ص٢٣٦ .

(٦٩) ابن الأثير : أسد جـ١ ، ص٢٧٧ .

(٧٠) ابن الأثير : أسد جـ١ ، ص٢٩٥ .

(٧١) وشل ، بالتحريك : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلاً قليلاً ابن منظور : لسان العرب جـ١١ ، ص٧٢٥ .

(٧٢) شباب (أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق . أكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة - بيروت (بدون تاريخ) ص١٨٠ ، وانظر الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٩٠٨ .

(٧٣) البلاذري : فتوح البلدان جـ٣ باعتناء د. صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) ص٥٣١ .

(٧٤) القيقان : ذكر البلاذري في فتوح البلدان وأخذ عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان أن القيقان ، مدينة تتبع إقليم السند مما يلي خراسان ، إقليم السند هو باكستان الحالية وهذا يعني أن القيقان إحدى مدن باكستان ، فتوح البلدان جـ٣ ، ص٥٣١ . ومعجم البلدان مجلد ٤ ، ص٤٢٣ .

(٧٥) شباب : تاريخ خليفة ص٢٠٧ ، وانظر البلاذري : فتوح جـ٣ ، ص٥٣١ ، وانظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ص٤٢٣ .

(٧٦) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٧٤ .

(٧٧) البلاذري : أنساب جـ٥ ، ص٥٩ ، وانظر ابن قتيبة : المعارف ص١٩٦ ، وانظر ابن سعد : الطبقات جـ٣ ، ص٧١ .

(٧٨) البلاذري : فتوح جـ٣ ، ص٥٣ ، وانظر الأحسائي: تحفة المستفيد جـ٢، ص٨-١١.

(٧٩) حواثي : حصن منيع لعبد القيس بالبحرين ، فتحه العلاء بن الحضرمي سنة ١٢هـ زمن الخليفة أبي بكر الصديق عنوة ، ولما أسلم بنو عبد القيس بنوا فيه مسجدا وصلوا فيه الجمعة ، وهو أول مسجد صليت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ ، وكانت عبد القيس تفتخر بهذه المكرمة ، ولفظة حواثي تشغل مساحة جغرافية واسعة في البحرين ، وهي مدينة الخط ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ٢ ص١٧٤ ، وانظر الأحسائي : تحفة المستفيد جـ١، ص١٠ - ١١ .

(٨٠) واسم أبي الحسن، يسار، ذكروا أنه من سبي ميسان ، أرسل إلى المدينة المنورة فاشترته الربيع بنت النضر عمة انس بن مالك فاعتقته ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٥٦ .

(٨١) أن لفظة أكل يأتي معناها من مبادئ الحديث الشريف ، أسمع لا أعطى ، فقد عرف عن رسول الله ﷺ أنه إذا كان هناك من عطاء في الغزوات أو في غيرها ، فإنه يعطي

المسلمين فقط ويمنع المؤمنين ، الذين هم أعلى درجة في الإيمان لأن قلوبهم مطمئنة ثابته على الحق ، بينما يعطى الفئة الأولى ليؤلف قلوبهم ويطمئنها بالإسلام ، حوفًا عليهم من الفزع والجزع الذي ربما يؤدي بهم إلى الردة والخروج عن الإسلام .

(٨٢) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٩ .

(٨٣) هو سفيان بن حويل بن عبد عمرو بن حويل بن همام بن الحارث بن جابر بن حذرجان بن عمامس بن ليث بن حلاد بن غالم بن ثعل بن عجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن افصى بن عبد القيس ، من الذين وفدوا على رسول الله ﷺ ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٢ .

(٨٤) محارب بن مزيده بن مالك بن همام بن معاوية بن شبابه بن عامر بن حطمه بن عمرو بن محارب بن عبد القيس ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٢ .

(٨٥) عمرو بن المرحوم ، واسم المرحوم عبد قيس بن عمرو بن شهاب بن عبد الله بن عصر بن عوف بن عمرو بن عبد القيس ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٣ .

(٨٦) شهاب بن المتروك ، واسم المتروك عباد بن عبيد بن شهاب بن عبد الله بن عصر بن عبد القيس ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٤ .

(٨٧) طريف بن أبان بن سلمه بن حاريه من بني حذيله بن أسد بن ربيعة ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٥ .

(٨٨) سفيان بن همام بن بني ضفر بن محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز من افصى بن عبد القيس ، انظر ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٦ .

(٨٩) ابن سعد : الطبقات جـ٥ ، ص٥٦٦ .

(٩٠) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٩ .

(٩١) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٩ .

(٩٢) ابن عبد ربه : العقد جـ١ ، ص١٤ - ١٥ .

(٩٣) الذهبي : سيرة إعلام النبلاء جـ٤ ، ص٤٩١ ، وانظر الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص٩ - ١٠ .

(٩٤) هو عوف بن أبي جميلة المجشري العبدي البصري ، ولقب بالإعرابي لأن أمه جاءت به فسكنوا دارًا خارج المدينة ليس ورائها دار ، فسمي إعرابيًا ، وقال النضر بن شميل :

كان عوفا جاناً ، أي جمالاً ، يسوق الجمال الجن أي تتبله الغنى ، ولم يكن إعرابيًا ولكنه في علة الإعراب ، وقيل : أنه من سبي الأهواز ، وقيل مسول علي ، انظر القيسراني : الأنساب المتفقة ص١٧٢ وانظر لسان العرب جـ١٣ ، ص٣٧٩ .

(٩٥) أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) : الأغاني ، جـ١٥ ، وزارة الثقافة والأرشاد ، المؤسسة المصرية العامة (بدون تاريخ) ص٣٨٠ .

(٩٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ، ص٢٢٧ .

(٩٧) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ٢ ، ص١٠ .

(٩٨) الأنصاري (محمد) : نخلات من الخليج العربي ص١٣٤ .

(٩٩) القرآن الكريم – البقرة آية ١٩ .

(١٠٠) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ١ ، ص٣ – ٤ .

(١٠١) التوحيدي : البصائر والذخائر جـ٣ ، ص١٢٤ – ١٢٥ .

(١٠٢) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٥ .

(١٠٣) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٨ .

(١٠٤) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٨ .

(١٠٥) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٥ .

(١٠٦) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٦ .

(١٠٧) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٦ .

(١٠٨) الزهومة : تطلق على اللحم النتن المنتن ، ومن سباق حديث عامر بن عبد قيس تفهم أنه لا يريد أن يبقى شيئًا من لحمه تأكله الأرض بعد موته انظر لسان العرب جـ١٢، ص٢٧٧ لابن منظور .

(١٠٩) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٦ .

(١١٠) القتب : هو الرحلُ الصغير جدًا الذي يوضع على ظهر الجمل ، وجمعه لا يتعدى سنام البعير فقط ، انظر لسان العرب جـ١ ، ص٦٦٠ ابن منظور ، وهذا الرحلُ يختص في الغالب لمعاقبة المعارضون والمخالفين للسلطة بقصد إيذائهم والتنكيل بهم فقد وضع مثل هذا الرحلُ لعامر بن عبد قيس عندما صدرت الأوامر بنفيه من البصرة إلى الشام ، فتقطع هذه المسافة الطويلة وهو على الرحلُ الصغير ، المعروف بالقتب .

(١١١) ابن سعد : الطبقات جـ٧ ، ص١٠٨ .

(١١٢) التوحيدي : البصائر والذخائر جـ٢ ، ص١٢٥ .

(١١٣) العاملي الأمين : أعيان الشيعة جـ١ ، ص٤٩ .

(١١٤) ابن قايماز الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) : المشتبه في الرجال وانسابهم وانساب جـ١ ، تحقيق علي بن محمد البجاوي ، دار أحياء الكتب العربية (لا تاريخ ولا مكان للطبع) ص٥٣ ، وانظر ابن حجر العسقلاني : المنتبه بتحرير المشتبه جـ١ ، ص١٢٩ ، وانظر ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ١ ، ٣٤٧ .

(١١٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ١٢ ، ص١٤٢ – ١٤٣ ، وانظر ياقوت معجم البلدان مجلد ١ ، ص٣٤٧ ، وانظر قايماز الذهبي : المشتبه في الرجال جـ١ ، ص٥٣ ، وانظر ابن حجر العسقلاني : المنتبه بتحرير المشتبه جـ١ ، ص١٢٩ .

(١١٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ١٢ ، ص١٤٣ .

(١١٧) كحاله (عمر رضا) : معجم المؤلفين جـ٥ مكتبة المثنى – بيروت (بدون تاريخ للطبع) ص٦٥ .

(١١٨) ابن حجر : المنتبه بتحرير المشتبه جـ١ ، ص١٢٩ .

(١١٩) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ، ص١٣٥ – ١٣٦ .

(١٢٠) الأحسائي : تحفة المستفيد جـ١ ، ص١٤ .

مصادر ومراجع

ابن الأثير (أبو الحسن علي أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) :

- الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة - مطبعة الشعب ، مصر (بدون تاريخ) .

الأحسائي (محمد بن عبد الله عبد المحسن آل عبد القادر الأنصاري) :

- تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، باعتناء حمد الجاسر الرياض ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

الألوسي (محمود شكري) :

- بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب - باعتناء محمد بهجت الأثري ، مصر ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م .

الأنصاري (محمد جابر) :

- لمحات من الخليج العربي - الشركة العربية للوكالات والتوزيع - البحرين ١٩٧٠م.

البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر) :

- أنساب الإشراف - مكتبة المثنى - بغداد (بدون تاريخ) .
- فتوح البلدان - باعتناء د. صلاح الدين المنجد - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ).

التوحيدي (أبو حيان) :

- البصائر والذخائر - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني - مطبعة الانشاء ١٩٦٤م .

ابن حجر (أحمد بن محمد الكناني) :

- الأصابة في تمييز الصحابة - دار إحياء التراث - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

ابن أبي الحديد (عز الدين أبو حامد هبة الله محمد بن محمد بن الحسين) :

- شرح نهج البلاغة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م (لم يذكر مكان الطبع) .

أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود) :

- الإخبار الطوال ، تحقيق د. عبد المنعم عامر ، أعادت نقله بالأفست مكتبة المثنى - بغداد - ودار المسيرة - بيروت (بدون تاريخ) .

الخطيب البغدادي (الحافظ أبي بكر أحمد بن علي) :

- تاريخ بغداد - المكتبة السلفية - المدينة المنورة (بدون تاريخ) .

الدباغ (مصطفى مراد) :

- قطر ماضيها وحاضرها - دار الطليعة - بيروت ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) :

- سيرة إعلام النبلاء ، باعتناء شعيب الارنؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٠٢هـ/١٩٨٢م .

السامرائي (د. أحمد محمود) :

- تاريخ المسلمين في القارة الهندية ، مكتبة الأدب ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ/١٩٧م.

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري) :

- الطبقات الكبرى - دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) .

السهيلي (عبد الرحمن) :

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. باعتناء عبد الرحمن الوكيل- دار الكتب الحديث (بدون تاريخ) .

شباب (أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيره الليثي العصفري) :

- تاريخ خليفة بن خياط تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة - بيروت (بدون تاريخ).

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك .

كحالة (عمر رضا) :

- معجم المؤلفين - مكتبة المثنى - بيروت - دار إحياء التراث .

المسرى (د. حسين على) :
- تجارة العراق فى العصر العباسى - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٢م .
- البحرين وعمان فى عصر النبوة-المجلة العربية للعلوم الإنسانية- العدد ٤٠ السنه العاشرة ١٩٩٢م.
المطهر المقدس (أبى زيد أحمد بن سهل البلخى) :
- البدء والتاريخ - باعتناء كلمان هوار ، باريس ١٨٩٩م .
المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر - باعتناء محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .
ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) :
- لسان العرب - دار صادر - بيروت (بدون تاريخ) .
الواقد (محمد بن عمر) :
- مغازى رسول الله - تحقيق Marsden Jones - انتشارات إسماعيليان ، تهران (بدون تاريخ).
ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله بن عبد الله) :
- معجم البلدان - دار صادر - بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

كاظمة فى الجاهلية والإسلام

أ.د. وجب محمد عبد الحليم(*)

أطلق اسم كاظمة قديمًا على منطقة ساحلية صغيرة تقع على خليج الكويت . وقد تطورت الأحوال بهذه المنطقة الساحلية حتى ظهر فيها مدينة تحمل هذا الاسم . وكانت هذه المدينة تقع غربى مدينة الكويت الحالية على شبه لسان داخل فى مياه الخليج شمالى مدينة الجهرة الحالية ، وهى بذلك تقع فى القلب من دولة الكويت ، أى فى منطقة تتوسط هذه الدولة . والمتتبع لتاريخ الكويت والدارس لجغرافيتها يرى أن التطور التاريخى لهذه الدولة مرتبط تمامًا بمدينة كاظمة التى يعتبر ظهورها فى التاريخ نقطة البداية التى يجب أن نتتبع فيها ومنها تاريخ الكويت القديم والإسلامى والوسيط .

ظهرت كاظمة فى التاريخ قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة ، وعبر عنها الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بأنها مدينة تقع على ساحل البحر-أى الخليج- أو على ساحل البحرين ، بين البصرة والقطيف ، وأنها تبعد عن المدينة الأولى مسيرة يومين ، وعن الثانية مسيرة أربعة أيام . وكان الإدريسى واضحًا فى ذكرها على أنها مدينة(١) . وظل اسمها يتردد على ألسنة المؤرخين والجغرافيين المسلمين فى العصرين الإسلامى والوسيط ، كما ظهر على بعض الخرائط الأوربية فى العصر الحديث ، مثل خريطة الجغرافى الفرنسى نيقولاس سانسون التى ظهرت فى عام ١٦٥٢م ، وخريطة أوتينز التى ظهرت فى عام ١٧٤٠م(٢) .

وقد اتسع المجال الحيوى والجغرافى لمدينة كاظمة حتى صار هذا الاسم يطلق أيضًا على منطقة واسعة تشمل معظم ما يعرف باسم الكويت الآن . وعلى ذلك يمكننا القول بأن كاظمة اسم أطلق على مدينة ، وعلى منطقة ، وأيضًا على ميناء .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بمعهد الدراسات الافريقية بجامعة القاهرة .

ذلك أن مدينة كاظمة كانت تقع على سيف البحر ، أى على ساحله فى خليج الكويت ، ولذلك عرفت كميناء بحرى ، وكانت لها هذه الصفة منذ النصف الأول من القرن الرابع للميلاد . يدل على ذلك ما ورد فى حديث الطبرى عن احتياز جمع كبير من العرب الذين كانوا يعانون شظف العيش لمياه الخليج ، ونزولهم على ساحل فارس فى بداية عهد سابور بن هرمز المعروف باسم سابور ذى الأكتاف . وكان احتياز هؤلاء العرب للخليج من سواحل البحر وكاظمة على وجه التحديد . وفى ذلك يقول الطبرى : إنهم " ساروا فى البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إبرشهر وسواحل أردشير خرة ، وأسياف فارس وغلبوا على أهلها "(٣) .

وطبيعى أن هؤلاء العرب الذين احتازوا الخليج من شاطئه الغربى إلى شاطئه الشرقى لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن ركبوا هذا الخليج من بلاد ساحلية حددها الطبرى وجعل كاظمة إحداها ، رغم أن كاظمة كانت تابعة لبلاد البحرين التى كانت تتألف من كاظمة والأحساء وشبه جزيرة قطر(٤) . وهذا يدل على أن كاظمة كانت ميناء ترسو عنده السفن ، ومنه ومن غيره من موانى البحرين خرج هؤلاء العرب إلى البلاد الفارسية التى ذكرها الطبرى والتى تقع فى الجزء الشمالى الشرقى من إقليم الخليج .

وظل اسم كاظمة يتردد كميناء بحرى حتى ظهور الإسلام ، واستمر كذلك طوال العصر الإسلامى والوسيط . وقد ذكرها على هذا النحو ابن الفقيه الهمدانى المتوفى قرب نهاية القرن الثالث للهجرة ، فقال عند حديثه عن البلاد الساحلية أو الموانى التى تطيف بجزيرة العرب أن الفرات يحد هذه الجزيرة بدءا من قنسرين حتى البصرة والأبلة إلى عبادان ، ثم يأخذ البحر - أى مياه الخليج مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتى منها على سفوان ، وكاظمة ، ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر ... إلى آخر الموانى التى ذكرها الهمدانى حتى وصل إلى خليج أيلة ، خليج العقبة فى أعلى البحر الأحمر(٥) . وقد ذكر

الهمدانى كاظمة صراحة كبلد ساحلى فى مكان آخر حينما ذكر البلاد الساحلية التى تقع بين مدينة البحرين(٦) والبصرة ، فقال إن من بينها " كاظمة البحور ساحل " وأورد مقرا لعروة الأسدى يقول فيه(٧) :

عدتهن المخاوف من سنبح ... وعن رمل النقار فهن زور

ضمنت لهن أن يهجرن نجدا ... وأن يحللن كاظمة البحور

وفى القرن الرابع للهجرة ذكرها على هذا النحو أيضا أبو على القالى (ت ٣٥٦ / ٩٦٧م) فى أماليه حين حديثه عن الفرزدق ووالده غالب بن صعصعة فقال : إن قبر هذا الوالد بكاظمة " وهى موضع بين اليمامة والبصرة على البحر "(٨) . وظلت كاظمة مشهورة كميناء بحرى أو كبلد يقع على البحر - أى الخليج - حتى القرن الثامن للهجرة حيث ذكرها بهذه الصفة لغوى كبير وجغرافى ومؤرخ كبير .

أما اللغوى الكبير فهو ابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) صاحب لسان العرب ، فقد نقل عن الأزهرى قوله إن " كاظمة جو على سيف البحر من البصرة على مرحلتين " وذكر بيت شعر قاله له أعرابى من بنى يربوع يخالف قليلا ما ذكره الهمدانى وذكر فيه اسم كاظمة البحور فقال(٩) :

ضمنتُ لكن أن تهجرن نجدا ... وأن تسكنَّ كاظمة البحور

أما الجغرافى والمؤرخ الكبير فهو أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) . وقد أورد هذا الجغرافى أسماء البلاد الساحلية التى تحيط ببلاد العرب ، وأن كان قد بدأها بعكس الهمدانى ، فبدأ من أيلة وسار مع البحر الأحمر حتى بحر العرب ثم إلى الخليج فذكر عمان ثم جزيرة أوال ثم القطيف ثم كاظمة ثم البصرة(١٠) . وعاد فذكرها صراحة كمدينة ساحلية ، وحدد موقعها تحديدا دقيقا فقال " كاظمة هى من الأماكن المشهورة بالبحرين وهى جو على ساحل البحر بين

البصرة والقطيف ، وبين كاظمة والبصرة مسيرة يومين ، وبين كاظمة والقطيف مسيرة أربعة أيام ، وهي في سمت الجنوب من البصرة ويقال لها كاظمة البحور وهي منازل للعرب(١١) والتعبير عن كاظمة البحور على هذا النحو دليل واضح على موقعها على الساحل وأنها ميناء بحري .

وليس من شك في أن تسمية كاظمة باسم كاظمة البحور يعود إلى موقع مدينة كاظمة على سيف البحر ، أي على شاطئ الخليج على شكل يروز فيه ، يحيط به الماء من ثلاث جهات كأنه شبه جزيرة ، كما يعود أيضًا إلى شواطئ منطقة كاظمة التي كانت تمتد طويلاً وتطل على مياه عديدة سواء الخليج العربي أم خليج الكويت ، أم بينها وبين جزيرة بوبيان فيما يعرف بثغور الصبية ، ويعود أيضًا إلى تلك العيون والآبار الكثيرة التي تقع على أرضها والتي أشار إليها العديد من الجغرافيين والمؤرخين(١٢) .

وهذا الموقع البحري لكاظمة جعلها تحتل مكانًا استراتيجيًا هامًا سواء في التاريخ القديم أم في العصر الإسلامي . فقد أدرك الفرس أهمية هذا الموقع الذي جعلها تحتل حيزًا هامًا من قمة رأس الخليج من الناحية الشمالية الغربية ، وأن هذه الموقع حاكم فيما يتعلق بالاتصال البري لبلاد البحرين واليمامة والحجاز ونجد ببلاد العراق وفارس من ورائها ، أو الاتصال البحري بين بلاد العرب والعجم ، كما حدث أيام سابور ذي الاكتاف عندما عبر العرب منها إلى ساحل فارس مما سبق أن أشرنا إليه . ولذلك نتسمح أن هذا الملك الفارسي لما أدرك أهمية هذا الميناء وخشي تكرار هجمات بدو العرب على بلاده ، والتي يمكن أن تنطلق من هذا الميناء أو هذه الناحية كما حدث من قبل ، قام بحفر خندق من الفرات عند هيت حتى كاظمة داخلاً في البحر(١٣) .

وبسبب هذا الموقع الهام أيضًا أصبحت كاظمة معبرًا لجيوش ملوك المناذرة وكندة عندما كانت تندلع الحروب بينهما كما حدث يوم أوارة ، ومعبرًا لجيوش المسلمين والفرس كما حدث مرتين ذات السلاسل ، مما سوف نفصل فيه القول .

وقد أدرك المسلمون هذه الأهمية الحربية والبحرية لهذا الميناء الهام أو لهذه المدينة الساحلية الهامة فأقاموا فيها رباطًا وجعلوها حصنًا قويًا . وذكر ذلك أبو علي القالي في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة فقال إن فيها رباطًا(١٤) . واستمر أمرها على هذا النحو حتى جاء الأدريسي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) وأكد هذا القول بعد ذلك بقرنين من الزمان فقال إن " كاظمة حصن منيع على جبل عالي الذروة "(١٥) .

وعلى ذلك فقد كانت كاظمة في التاريخ القديم والإسلامي ميناء بحريًا هامًا ، وكانت مدينة حصينة إلى حد كبير ، فهي حصن ، أو فيها حصن مذكور ، وفيها رباط مشهور ، فهي إذن ثغر من ثغور المسلمين يطل على مياه الخليج من ناحية الشمال . وظلت لها هذه الصفة حتى العصر الحديث ، حينما ظهرت على خريطة أو تيتر الصادرة عام ١٧٤٠م على أنها ميناء يقع في منطقة كاظمة التي تطل على خليج الكويت حتى جزيرة فيلكة(١٦) . وسوف تظهر أهميتها الحربية والبحرية بصورة واضحة حين تحدثنا عن المواقع العسكرية التي دارت على أرضها سواء في الجاهلية أم في الإسلام .

وإذا كان لكاظمة هذه الأهمية الحربية حتى سميت كاظمة البحور فإن لها أهمية أخرى نتجت أيضًا عن موقعها الذي أتاح لها أن يمر بها الطريق البري استخدمه المسافرون في الذهاب والإياب ما بين البصرة والعراق وفارس من ناحية وما بين بلاد البحرين واليمامة ومكة من ناحية أخرى(١٧) . لذلك كانت كاظمة طريقًا وموئلاً للتجارة والحجاج وطلاب العلم والولاة في الجاهلية والإسلام . ففي الجاهلية ذكرت المصادر أن سوقها كان ملآنًا بالحجاج والتجار(١٨) . وفي الإسلام احتازها التجار والحجاج وطلاب العلم وكذلك الساسة . والمثال على ذلك ما روي من أن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما مر بها حينما كان راجعًا من البصرة – التي كان واليًا عليها – إلى بلاد الحجاز ، وكان راجزه يقول(١٩) :

صبحت من كاظمة القصر الخرب مع ابن عباس بن عبد المطلب

وإذا كان موقع كاظمة قد أعطاها هذه الأهمية ، فإن اتساعها أعطاها أهمية أخرى . ذلك أن اسم كاظمة لم يطلق على هذه المدينة الساحلية أو على هذا الميناء البحرى الذى تحدثنا عنه فقط ، بل أطلق أيضًا على منطقة واسعة ضمت بجانب هذه المدينة أو هذا الميناء عددًا كبيرًا من الأماكن والمواضع الأخرى التى ورد ذكرها فى كتب الجغرافيين والمؤرخين والأدباء والشعراء واللغويين ، ولذلك سميت الكواظم . فإذا كان اسم كاظمة البحور يدل على أهميتها البحرية ، فإن اسم الكواظم يدل على مدى اتساعها ، وعلى أنها كانت تحتل مساحة كبيرة امتدت وضربت فى جوف الصحراء حتى شملت المراعى والوديان والمرتفعات والهضبات والجبال التى تقع فى هذه الصحراء والتى تنحصر بين الساحل شرقًا ووادى الباطن غربًا(٢٠) .

وقد ورد اسم الكواظم هذا عند من المؤرخين واللغويين ، منهم ابن منظور الذى أشار إليه حينما روى بيتًا من الشعر ورد عن الفرزدق قال فيه(٢١) :

فباليت دارى بالمدينة أصبحت بأحفار فلج أو بسيف الكواظم

ومنهم جرير الذى ذكر شعره ابن الأثير عند حديثه عن معركة ذات السلاسل(٢٢) ، ومنهم ابن خلدون حينما تحدث عن نفس المعركة(٢٣) . وجمع كاظمة على كواظم يدل بهذا المعنى وحده على الاتساع وتعدد الأماكن والمواضع والبلدان . ومن هذه البلدان مدينة الجهرة الحالية التى تقع بالقرب منها ، حتى قيل أن أبنية مدينة كاظمة كانت تمتد إلى هذه المدينة . ولذلك قال بعض المؤرخين أن الجهرة كانت جزء منها(٢٤) .

ولم تكن منطقة كاظمة قاصرة على مدينة كاظمة وعلى مدينة الجهراء فقط ، بل امتدت لتشمل عددًا من الأماكن والمواضع والجبال نتيجة لاستمرار هجرة القبائل العربية إليها واتخاذها مسكنًا لها . وقد ورد اسم عدلان عند ياقوت فقال :

عدلان بالفتح وآخره نون ، موضع فى ديار بنى تميم بسيف كاظمة "(٢٥) كما ورد اسم المقر عند ابن خرداذبة حين وصفه للطريق من البصرة إلى ساحل هجر فعمان(٢٦) . وقيل هو موضع بكاظمة يقع فى وسطها وبه قبر غالب أبى الفرزدق(٢٧) .

ومن المواقع الأخرى التى تشتمل عليها منطقة كاظمة موضع يعرف باسم الحفير ، ويقع على طريق الحاج من البصرة إلى مكة ، وهو أول منزل من البصرة لمن يريد مكة ، أى أنه يقع فى الجزء الشمالى من منطقة كاظمة .

والحفير هذا هو الموقع الذى تواعد خالد بن الوليد مع بعض قواده أن يتلاقوا عنده لملاقاة الفرس ، ولما سمع الفرس بذلك سبقوه إلى كاظمة فى محاولة لتطويق قوات خالد من ناحية الجنوب(٢٨) مما سنفصل عنه القول حين حديثنا عن معركة ذات السلاسل .

وهناك أيضًا مرتفعات تسمى المطلاع ، وهى سلسلة مرتفعات تقع بالقرب من مدينة كاظمة ، وكانت تسمى خرم كاظمة(٢٩) ، مما جعل مدينة كاظمة ذات موقع حصين إذ أحاطت بها مياه الخليج من الناحية الشرقية ، والمرتفعات والجبال من ناحية الشمال والغرب والجنوب .

ومن الجبال الهامة التى تقع ضمن منطقة كاظمة الواسعة جبل يسمى جبل الرحا ، وهو أكمة كبيرة تقع غربى الجهراء ويقال لها اليوم الرحية أو رحية الشمال ورحية الجنوب ، ويبتعد عن مدينة الكويت بنحو عشرين ميلاً(٣٠) .

وقد ذكر ياقوت أنه جبل بين كاظمة والسيلان من يمين الطريق المتجه من اليمامة إلى البصرة(٣١) ويبدو أن هذا الجبل كان جبلاً صغيرًا ليست فيه شئ من العشب والكلأ والشجيرات القصيرة ، فاستقر بجواره بعض الأعراب على مقربة من الطريق المار به من اليمامة إلى البصرة ولذلك ذكره أحدهم فى شعره فقال(٣٢) :

وكنت رفعتُ الصوت بالأمس رفعة بجنب الرحا لما اتلأب كؤودها

أما السيدان الذى يقال له اليوم السادة(٣٣) والذى ذكره ياقوت عند حديثه عن جبل الرحا فهو موضع وراء مدينة كاظمة على الطريق ما بين البصرة وهجر ، أى أنه يقع غربى مدينة كاظمة والجهراء أو غربى جبل الرحا . وقيل أن السيدان ماء لبنى تميم فى ديارهم . ومعروف أن كاظمة كانت مسكنًا لبنى تميم ضمن غيرهم من القبائل، وكانت موئلاً للشعراء ، ولذلك ورد ذكر السيدان كثيرًا فى شعرهم(٣٤).

ويمكن أن يمثل السيدان (السادة) وجبل أوارة التخوم الجنوبية لمنطقة كاظمة . وأما التخوم الشمالية فهى تمتد إلى سفوان التى تعرف اليوم بصفوان التى يقع فى شمالها جبل سنام . وسفوان وجبل سنام يقعان الآن مباشرة شمالى الحدود الدولية لدولة الكويت ، ولذلك فهما أكثر قربًا من البصرة ، يدل على ذلك ما ذكره ياقوت من أن سفوان ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة(٣٥) وما ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى من أن سفوان على رأس أربعة فراسخ من البصرة(٣٦) . وكان ماء سفوان سببًا فى قيام حرب بين بنى شيبان البكريين وبين بنى مازن التميميين الذين كانت تسكن قبائلهم منطقة كاظمة ، وذلك ذكره شعراء عبيدون(٣٧) .

كذلك وقع قتال بين هبيرة بن عامر وبين النعمان بن المنذر عند سفوان انهزم ، فيه النعمان واخذت امرأته أسيرة(٣٨) .

أما جبل سنام ، فهو جبل قريب من البصرة على نحو نصف مرحلة منها(٣٩)، ويتصل عند امتداده من ناحية الغرب بهربة يتصل بها واد يقال له وادى النساء ، لأن النساء كن يظعن فيه ويلتقطن الكمأة(٤٠) ومن المرجح أن وادى النساء هذا هو وادى الباطن الذى سبقت الإشارة إليه والذى يتجه جنوبًا مكونا التخوم الفاصلة بين الكويت والعراق الآن .

وعلى ذلك فإن السيدان الذى ذكره ياقوت وكذلك جبل أوارة يمكن أن يحددا النهاية الجنوبية لمنطقة كاظمة التى امتدت فى العصور الإسلامية من جنوب

جبل سنام ومن سفوان شمالاً إلى السيدان وجبل أوارة جنوبًا ، مما يجعلنا نقول باطمئنان أن منطقة كاظمة تقع ضمن دولة الكويت الحالية .

أهم القبائل التى سكنت كاظمة :

تواصل قدوم القبائل إلى كاظمة منذ الجاهلية ، وسبق أن أشرنا إلى بعض منها حين حديثنا عن المواقع والمواضع التى ضمنها هذه المنطقة .

ومن أقدم هذه القبائل قبيلة إياد، وهم بنو إياد بن نزار بن سعد بن عدنان. وكانت ديارهم مع العدنانيين بطبيعة الحال فى بلاد الحجاز . وحين تكاثر بنو إسماعيل وتفردت مضر بالرياسة خرج بنو إياد إلى البحرين ، ولكنهم اصطدموا هناك بعبدالقيس التى جاءت من تهامة وتغلبت على إياد وأزاحتها من البحرين ، فاتجهت إياد إلى كاظمة والعراق(٤١) وكان أول منزل تنزل فيه إياد فى طريقها إلى هذين البلدين مكان يعرف باسم النباج(٤٢) ، ومنه تطلعت إلى بناء مدينة تكون موئلا وحصنًا لها ، فاختارت المكان الذى أقامت عليه مدينة كاظمة على ساحل الخليج والتى لا تزال آثارها موجودة تحت الثرى ، وتبتعد عن الجهرة بنحو خمسة أميال . واستقر فيها بنو إياد وأقاموا شكلاً سياسيًا وفقًا للنظام القبلى الذى كان سائدًا فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وقتذاك . وتوسع بنو إياد حتى صارت بلادهم تمتد من سنداد وبارق بالعراق إلى الجزيرة غربًا وإلى كاظمة جنوبًا وشرقًا (٤٣) .

ولما طرد الفرس إياد من كاظمة حلت محلها قبائل عديدة أشهرها بنو تميم الذين كانوا يسكنون سيف كاظمة وباديتها . وقد ورد ذكر عدد من بطون بنى تميم من الذين سكنوا كاظمة ، منهم بنو الهجيم بن عمرو الذين سكنوا الخضير ، وبنو مازن الذين سكنوا سفوان ، وبنو دارم الذين سكنوا المقر ، وكان منهم المنذر بن ساوى ملك البحرين حين ظهور الإسلام(٤٤) .

ومن بنى تميم من الذين سكنوا كاظمة : طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، وفد والده قيس بن عاصم على النبى ﷺ ورواه صدقات قومه(٤٥) . وكان طلبة بن

قيس يسكن بالسيدان مجاورا لغالب بن صعصعة والد الفرزدق . ذكر جرير أن الفرزدق كان يسكن السيدان بكاظمة(٤٦) .

كذلك فإن الراعي النميري وهو عبيد بن حصين ، ومن ولد نمير بن عامر ابن صعصعة ، والذي سبقت الإشارة إليه وإلى سكناه في جبل الرحا بكاظمة ، كان من تميم أيضًا(٤٧) . كما سكن كاظمة قوم من رهط الأصمعي ، وهم بنو مالك بن أعصر بن قيس عيلان بن مضر يعرفون أنهم من بأهلة . وقد عاش جدود الأصمعي في كاظمة ، وقبر جده مظهر بن رياح موجود بها قرب البحر ، كما قال ابن حزم(٤٨) ومعنى ذلك كله أن كثيرًا من بطون بني تميم انتشرت في مدينة كاظمة وعلى شواطئها وفي باديتها ووديانها وجبالها .

وإلى جانب تميم كانت بكر بن وائل من القبائل الهامة التي سكنت كاظمة واستقرت فيها . وكانت مثل تميم لا تقل عنها عددًا وقوة . وقد تعددت بطونها التي سكنت كاظمة . ومن أشهر هذه البطون بنو شيبان حتى قيل عن كاظمة أنها من مياه بني شيبان(٤٩) . وكان بنو شيبان ينتشرون مثل تميم في كاظمة والحاء منطقتها الواسعة حتى تنازع الفريقان على ماء سفوان الذي يقع في أقصى الشمال من منطقة كاظمة(٥٠) . ومن سفوان امتدت مضارب بني شيبان إلى جبل الصليب الذي يقع جنوب مدينة الجهرة والذي يعتبر أحد جبال كاظمة كما سبق القول(٥١) . وكذلك تواجدوا في مراعي كاظمة ووديانها(٥٢) التي كانت عامرة بالسكان ، ومنهم من أقام فيها إقامة دائمة(٥٣) .

وهكذا اتصفت منطقة كاظمة بوجود حياة دافقة ؛ فمن تجار وحجاج وشعراء وأهالي يسكنون بيوتًا وقصورًا ، ومن مراعي ومضارب وخيام ، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة التي كانت تعج بها كاظمة ونواحيها المختلفة ، سواء في عصر الجاهلية أم في عصر الإسلام . ولا شك في أن حياة سكان كاظمة قد شملت أيضًا بعضًا من مظاهر الحياة الدينية ، بجانب هذا النشاط المتنوع ، ومثلهم في ذلك مثل غيرهم من سكان الجزيرة العربية .

الأديان في كاظمة في الجاهلية :

في هذا الخصوص نستطيع القول أن ديانة أهل كاظمة وسكانها تنوعت في الجاهلية ما بين النصرانية والمجوسية والوثنية . وقد سبقت الإشارة إلى أن زياد بن أبيه عندما طلب الفرزدق بعد أن فر خوفًا منه على حياته ، وجده أخبرًا في بيت امرأة نصرانية من بني قيس بن ثعلبة وهؤلاء من بكر بن وائل التي سكنت كاظمة . ومعنى ذلك أن هذا البطن من البكريين انتشرت فيه المسيحية ، كما انتشرت أيضًا في بعض عبد القيس من سكان البحرين كذلك فقد كانت قبيلة إياد التي بنت كاظمة وكانت أول من سكنتها تعبد بيتًا بسنداد يسمى ذا الكعبات . وسنداد منازل لإياد وكانت تقع أسفل سوار الكوفة أو خلف نهر بين الحيرة والأبلة يسمى بهذا الاسم ، وكانت ديار إياد تمتد إليه . كذلك فإن بكر بن وائل الذين كانوا يسكنون كاظمة كانوا يعبدون نفس هذا البيت ويطوفون به(٥٤) .

وكان بيتًا لربيعة التي ينتمي إليها بكر بن وائل(٥٥) أو كان بيتًا للأسود بن يعفر النهشلي ، من بني دارم من تميم . وقد أشار إلى هذا البيت أعشى بني قيس بن ثعلبة من بني بكر بن وائل فقال(٥٦) :

بين الخورنق والسدير وبارق ... والبيت ذي الكعبات من سنداد

ولا شك أن عبادة الأصنام والأوثان كانت منتشرة في كاظمة شأنها في ذلك شأن غيرها من بلاد العرب .

أما المجوسية فكانت منتشرة بين بعض العرب الذين سكنوا المنطقة الشرقية من بلاد العرب بصفة عامة ، حيث كان التأثير الفارسي يشد إليهم عبر الخليج . ونتيجة لاحتلال الفرس لكثير من أجزاء هذه المنطقة في بعض الأحيان . ولذلك دان بها بعض بني تميم ، وسُمّوا بعض أبنائهم بأسماء فارسية وتزوج أحدهم بابنته كما كان الفرس يفعلون(٥٧) .

وإذا كانت هذه هي ديانات أهل كاظمة في الجاهلية ، فماذا عن تاريخهم في تلك الفترة ، وما هي أخبار كاظمة فيها ؟

كاظمة فى الجاهلية :

الواقع أن أخبار كاظمة فى العصر الجاهلى تستشف من بعض الوقائع التى حدثت على أرضها ، لأنها لم تكن دولة مستقلة بذاتها ، ولم تكن لها أسرة حاكمة ؛ إذ أنها كانت تابعة لدولة البحرين كما سبق القول ، وظلت كذلك طوال العصر الإسلامى والوسيط حتى ظهرت إمارة الكويت فى القرن السابع عشر للميلاد .

ومن أوائل الأحداث التى ذكرتها كتب التاريخ فى هذا المضمار هجرة بعض القبائل العربية إلى كاظمة منذ القرون الأول للميلاد ، نظرًا لأن كاظمة كانت فى ذلك الحين من الأماكن الطيبة التى تستحب للسكنى بسبب وفرة الماء والرعى هناك . وقد تعاقب على سكناها كثير من الناس منذ القدم ، يدل على ذلك الكثير من المخلفات الأثرية التى اكتشفتها البعثة الدنمركية التى استقدمتها حكومة الكويت فى الخمسينات من هذا القرن للبحث عن الآثار . وقد أتت نتائج حفريات هذه البعثة بما يفيد قيام حضارة قديمة فى كاظمة ونواحيها مثل الجهرة ترجع إلى العصر الحجرى(٥٨) .

وقد قال رئيس البعثة المذكورة فى ذلك أنهم قاموا بجولة استكشافية فى أراضى الكويت وأمكنهم العثور على ما يثبت قيام حضارات من العصر الحجرى فى البلاد . وقد عثروا فى الساحل الشمالى لخليج الكويت وعلى مقربة من كاظمة وجزيرة التى تقع شرقى كاظمة على أربعة أماكن فيها آلات صنعت من الأردواز ، مما يدل على أن حضارة محلية نشأت فى هذه المنطقة وصنعت أدواتها وأسلحتها من تلك المادة(٥٩) .

أما الجهرة التى كانت جزءًا من منطقة كاظمة فقد كانت هى الأخرى بلدة عامرة وآهلة بالسكان قبل الإسلام . والدليل على ذلك تلك الأطلال القابعة تحت تراها من جدران وأدوات يعثرون عليها حينما يحفرون لإرساء أساس بناء أو حفر بئر من الآبار . وقد عثر فعلاً فى هذه المنطقة على نقود قديمة من عهد الجاهلية ،

وعلى بعض الآثار القديمة ، وكذلك على آجر قديم وقبور مدفون فيها أناس وقوف غير مضطجعين ، بالإضافة إلى وجود تلال قائمة على أنقاض كاظمة والجهرة بامتداد ستة أميال عرضًا ونحو أربعة أميال طولاً ، شرقًا وغربًا(٦٠) ، مما يدل على أن كاظمة أو على الأقل الأرض الممتدة من الجهرة وكاظمة إلى الصبية كانت معمورة وآهلة بالسكان منذ القديم(٦١) .

وقد حفظ لنا التاريخ ذكر بعض سكانها الأوائل ، وبعض الأحداث التاريخية التى ارتبطت بهم . من ذلك ما حدث من صراع بين قبيلة إياد التى سكنت كاظمة وبين كسرى فارس سابور ، ذى الأكتاف . ويعود السبب فى هذا الصراع إلى كثرة عدد إياد وانتشارها فى منطقة واسعة من الأرض بدأت فى من سنداد فى جنوب العراق حتى كاظمة إلى بارق والخورنق وما يليها من الأماكن(٦٢) ، مما جعلها تغلب على كاظمة وسواد العراق . ولذلك كان يقال لها " طيق " ، لأطباقها على هذه البلاد ، وأصبح لها ملك هو الحارث بن الأغر الإيادى . وكان ذلك على عهد سابور بن هرمز المعروف باسم سابور ذى الأكتاف المعاصر للأمبراطور قسطنطين العظيم قيصر الروم(٦٣) فى النصف الأول من القرن الرابع للميلاد .

وكان مما شجع إيادًا على سكنى هذه المنطقة الواسعة سواء فى كاظمة أم فى بلاد العراق أن سابور بن هرمز هذا كان حَمْلاً فى بطن أمه عندما مات والده ، فطمعت الترك والروم والعرب فى بلاد فارس وما يتبعها من بلاد . وكانت بلاد العرب أقرب البلاد إلى فارس ، وكان بعض العرب الساكنون للنواحى الغربية من فارس يعانون شظف العيش مما دفع بعضًا منهم وبخاصة عرب البحرين وكاظمة إلى عبور الخليج إلى فارس طمعًا فيها أو استضعافًا لشأن ملكها الطفل . وفى ذلك يقول الطبرى إنهم " ساروا فى البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إير شهر وسواحل أردشوخرة وأسياف فارس ، وغلبوا أهلها

على مواشيهم وحروثهم ومعاشهم وأكثروا الفساد فى تلك البلاد ، فعكفوا على ذلك من أمرهم حينًا لا يغزوهم أحد من الفرس لعقدهم تاج الملك على طفل من الأطفال ، "(٦٤) وهو سابور بن هرمز (٣٠٩ - ٣٧٩م) الذى نتحدث عنه .

ولما كبر هذا الطفل وأصبح شابًا فتيًا جمع الجيوش وأوقع بهؤلاء العرب الذين احتازوا خليج فارس وسكنوا الضفة الشرقية فى المدن التى ذكرها الطبرى ، وهزمهم وأكثر فيهم القتل والأسر ، وهرب باقيهم . ثم احتاز الخليج حوالى عام ٣٥٠م فى جيش كبير فوصل بلاد البحرين وأكثر القتل فى أهلها من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس ، وقصد اليمامة وأكثر القتل فى أهلها، وغوّر مياه الآبار ، ثم قصد بكرًا وتغلب فيما بين بلاد العراق والشام ، فعل نفس الشئ ، وكان ينزع أكتاف رؤساء العرب ويقتلهم ، ولذلك سمى سابور ذو الأكتاف(٦٥) .

وطبيعى أن سابور هذا اجتاز كاظمة فى طريقه إلى العراق والشام بعد أن انتهى من أمر البحرين واليمامة كى يصل إلى بكر وتغلب التى تقع مضاربها فى بادية العراق والشام . وكان لابد أن ينال كاظمة وأهلها ما نال إخوانهم فى البحرين واليمامة من القتل والسبى والتشريد ، خاصة وأنها كانت إحدى المناطق التابعة للبحرين كما سبق القول ، وكانت مسكونة بقبيلة إياد التى كانت مضاربها قد انتشرت فى كاظمة ومنها إلى سواد العراق . وكانت النتيجة أن انتقلت إياد من هذه البلدان إلى الجزيرة الفراتية وصارت تغير على السواد انتقامًا لما فعله سابور بها ، فجهز إليهم سابور الجيوش حتى يقضى على خطرهم(٦٦) ، ولكنه لم يستطع ، فقام ابنه سابور بن سابور بقتالهم(٦٧) .

ويلاحظ أن سابور بعد أن فعل بعرب البحرين ومنهم عرب كاظمة ، وبعرب العراق ، هذه الأفاعيل ، قام بتوزيعهم على البلاد حتى يضعف أمرهم ، فأسكن العدد العظيم من الأسرى فى الأهواز ونوج وكرمان من أرض فارس . فمن كان منهم من بكر بن وائل أسكنهم كرمان فى جنوب أرض فارس ، ومن كان منهم من بنى حنظلة من تميم أسكنهم بالرملية من بلاد الأهواز . وأسر بناء

مدينة بالسواد كانت تعرف قبل الإسلام باسم (بزوج سابور) ثم عرفت بعد ذلك بالأنبار ، وأقام بأرض الأهواز مدينتين هما (إيران خرة سابور) التى سميتها العرب السوس ، والمدينة الأخرى هى باجرمى(٦٨) ، حتى تكون هذه المدن سدًا أمام عرب الخليج فلا يقتحمون أرض فارس من هذه الناحية مرة أخرى . وأكثر من ذلك فقد أقام هذا الملك سدًا يمتد من الفرات حتى كاظمة على الخليج كى يمنع عرب هذه المنطقة من العبور إلى بلاده كما سبق القول .

وقد أدت كثرة القتل والأسر والتشريد الذى نال قبائل العرب فى منطقة الخليج والسواد حدًا حمل بعضها وخاصة إياد على أن تتخلى عن مضاربها وبلادها فى كاظمة والسواد كما ذكرنا ، ورحلت إلى الجزيرة ورحل بعضها حتى بلاد الروم نتيجة لضغط الفرس وبطشهم بهم خوفًا من كثرتهم وازدياد قوتهم(٦٩) .

ولم يملأ الفراغ الذى تركته إياد فى كاظمة إلا تميم وبكر بن وائل التى كانت لا تقل عن إياد كثرة عدد وعظمة سلطان حتى قال فيها الهمدانى "ديار بكر بن وائل من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت " ؛ (٧٠) . وقد قامت بين هذه القبائل - أقصد تميما وبكر بن وائل من سكان كاظمة - معارك ومواقع عديدة . ولم تكن المعارك إلا بسبب التنازع على المياه والآبار والمراعى . من ذلك تلك الوقعة التى حدثت عند جبل الصليب بكاظمة بين بكر بن وائل وبنى عمرو بن تميم ، والتى ذكرها المخبل السعدى التميمى الذى مات أيام عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، فقال عن بعض قتلاهم من الذين دفنوا عند هذا الجبل(٧١) :

غَرَدٌ تربع فى ربيع ذى ندًى ... بين الصليب فروضة الأحقاف

كما قال الأعشى يذكر هذا الجبل الذى حدثت عنده هذه الواقعة(٧٢) :

وأنا بالصليب وبطن فلج ... جميعًا واضعين به لطاتا

وقد وقعت على أرض كاظمة معركة أخرى كانت بين بنى سعد بن عجل ، بن بكر وائل ، وبين بنى نهشل بن دارم بن حنظلة من تميم ، على عهد النعمان بن المنذر ملك الحيرة(٢٣) .

وقد تطور الصراع بين بكر بن وائل وتميم إلى النزاع على موارد الماء . والماء هذه المرة هو ماء سفوان (صفوان) الذى يقع فى أقاصى شمال منطقة كاظمة على الحدود مع العراق الآن . وسبب القتال أن بنى شيبان البكريين زعموا أن هذا الماء لهم ، وأرادوا أن يحلوا تميمًا عنه . وكذلك حدث بينهما قتال شديد ومعركة هائلة ظهر فيها بنو تميم على بنى شيبان وطاردوهم حتى المحدث الذى يقع على طريق حجاج الكوفة . وكان بنو شيبان يتوعدون بنى مازن الشيميين قبل هذه الهزيمة المنكرة التى منوا بها ، ولذلك قال ذلك المازنى يفخر بقومه وبقومهم وانتصارهم على بنى شيبان(٢٤) :

روبدًا بنى شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غدًا خيلى على سفوان

تلاقوا جيادًا لا تحيد عن الوغى ... إذا الخيل جالت فى القنا المتدانى

وإذا كان هذا الصراع قد حدث فى سفوان بسبب النزاع على الماء ، فإن صراعًا آخر وقع فى نفس المنطقة لسبب آخر وهو الإغارة على إبل الآخرين . والماء والإبل هما عصب الحياة كما نعرف فى البادية والصحراء(٢٥) .

وإلى جانب هذا الصراع الذى حدث فى الجاهلية بين قبائل كاظمة بعضها البعض والصراع الذى حدث بين هذه القبائل والفرس ، نجد صراعًا ثالثًا حدث هذه المرة بين المناذرة ملوك الحيرة وبين بكر بن وائل وتميم من سكان كاظمة . وكان هذا الصراع يعرف أيضًا بالأيام ، أو أيام العرب فى الجاهلية . ومن هذه الأيام يوم أوارة الأول ويوم أوارة الثانى .

ويوم أوارة الأول كان بين المنذر الثالث بن ماء السماء (المنذر بن امرئ القيس اللخمى) ملك الحيرة (٥٠٥ - ٥٥٤م) وبين بكر بن وائل . وسبب

ذلك اليوم أن كسرى فارس قباذ بن فيروز كان قد عزل المنذر بن ماء السماء الذى رفض اعتناق المزدكية التى تبيح الأموال والأعراض ، وعين فى عام ٥٢٩م فى حكم الحيرة الحارث بن عمرو الكندى الذى كان صاحبًا لإمارة كندة وأميرًا على بكر بن وائل ، ومرافقًا لقباذ فى اتباع المزدكية . ولما توفى قباذ هذا عام ٥٣١م خلفه كسرى أنو شروان الذى تخلص من هذه النحلة الهدامة ومن أتباعها وأعاد للمنذر بن ماء السماء إلى منصبه فى الحيرة . وقام المنذر عقب ذلك بالانتقام من الحارث بن عمرو الكندى ، فحاربه وقتل كثيرًا من قومه وقضى على إمارة كندة التى كانت تقع فى شمال نجد ، وطارد الحارث حتى أجبره على الفرار إلى بنى كلب حيث قتل . لكن أبناء الحارث الأربعة الذين كان أبوهم قد عينهم فى حكم القبائل أيام أن كان ملكًا على الحيرة وكندة ، أخذوا يجاورون المنذر بن ماء السماء ويهاجمون أطراف بلاده . ولما لم يستطع منعهم لجأ إلى سلاح الوقيعة بينهم حتى يفت فى عضدهم ويقضى عليهم جميعًا . وكانت النتيجة قيام قتال بين الأخوين سلمة وشرحبيل قتل فيه الأخير فيما يعرف بيوم القلاب . ولما أدرك سلمة بن الحارث وقيعة المنذر فر من بلاد نعلب التى كان أبوه قد عينه فى حكمها والتى أخرجته عنها خوفًا من بطش المنذر ، ولجأ إلى بكر بن وائل فى كاظمة ونواحيها(٢٦) وكان أبوه أميرًا قبل أن يعين ملكًا على الحيرة كما سبق القول .

حينئذ أدركت بكر بن وائل أن المنذر لابد وأنه مهاجمها ، فاجتمعت على سلمة بن الحارث الكندى وجعلته ملكًا عليها مثل أبيه من قبل ، وحشدت له الناس ، ورفضت طاعة المنذر بن ماء السماء حينما علم بهذه التطورات فى كاظمة وأخذ يدعوها إلى طاعته . ولما أبت ذلك أقسم أن يسير إليهم فإن ظفر بهم ليذبحنهم على قلة (أعلى) جبل أوارة بكاظمة حتى يبلغ الدم الحضيض ، أى أسفل هذا الجبل الذى كان جبلاً لبنى تميم ويقع اليوم جنوب مدينة الكويت الحالية بنحو أربعين كيلو مترًا ويعرف باسم (وراة) . وفعلاً سار المنذر بن ماء

السماء إلى بكر بن وائل في مجموعة الحماشة ، والتقى الفريقان عند أوراة واقتتلا قتالاً شديداً نتج عنه هزيمة بكر بن وائل . وبعد أن قتل المنذر منهم الكثير وأسر منهم عدداً كبيراً قدمهم للقتل حتى يبر بقسمه ، فذبحوا على أعلى هذا الجبل ولكن دماءهم كانت تنحط وتجرد ولا تسيل حتى أسفله ، فقيل له أنه لو ذبح كل بكرى على وجه الأرض لن تبلغ دماؤهم هذا المبلغ ، وأشير عليه بصب الماء على دمائهم حتى يبر بقسمه ، ففعل . فسال الدم المزوج بالماء حتى أسفل الجبل، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار ، وأخذ كثيراً من السبايا اللاتى تشفع فيهن عنده أوس بن محصن ، وهو رجل من قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل كان منقطعاً إليه وأثيراً لديه ، فأطلقهن المنذر ، فقال الأعشى يفخر بشفاعة قريبه القيس إلى المنذر في نساء بكر وائل(٧٧) :

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه ... على فاقةٍ وللملوك هباتها

سبايا بني شيبان يوم أوارة ... على النار إذ تجلى له فتياتها

هذا عن يوم أوراة الأول . أما يوم أوراة الثاني فقد كان بين عمرو بن هند، وهو عمرو بن المنذر الثالث بن امرئ القيس الذي حكم الحيرة في الفترة (٥٥٤ - ٥٦٩م) ، وبين بني تميم من سكان كاظمة .

وسبب ذلك اليوم أن عمرو بن هند هذا كان أرسل ابناً له يسمى أسعد إلى رجل من تميم بكاظمة يسمى زرارة بن عدس ليتربى عنده . فلما شب هذا الإبن عن الطوق رمى نائة لرجل من تميم بسهم فقتلها ، فقتله التميمي . وكان هذا التميمي من بني دارم من سكان كاظمة أيضاً . ولما أدرك القاتل أنه لن يفلت من عقاب عمرو بن هند هرب إلى مكة كما هرب زرارة إلى قومه من نهشل التميميين ، لكنه مرض في الطريق ومات . ولما بلغت وفاته عمرو بن هند أقسم أن يغزو بني دارم في بلادهم بأوارة ، وأن يقتل منهم مائة . وسار بطلبهم على رأس جيش كان قائده عمرو بن ثعلبة الطائي حتى بلغ جبل أوراة بكاظمة . وكانوا قد أحسوا بزحفه عليهم فتفرقوا في النواحي المحيطة بهذا الجبل ، فأقام عمرو مضاربه عنده

وبث سراياه فيهم ، فقتلوا بعضهم وأتوه بتسعة وتسعين رجلاً منهم ، فقتلهم وألقى جثثهم في النار . وشم رائحتهم رجل من البراجم من تميم كان يجتاز هذا المكان ، وظن أن الملك يتخذ طعاماً أو شواء فقصده ليطعم من هذا الطعام . ولما سأله الملك عن نفسه قال : " أنا وافد البراجم " فقال الملك : إن الشقي وافد البراجم "، ثم أمر الجند فألقوه في النار ، فقال جرير يسخر من غريمه الفرزدق التميمي ومن عشيرته(٧٨) :

أين الذين بنار عمرو أحرقوا ... أم أين أسعد فيكم المسترضعُ

وهناك يوم ثالث وقع بين المناذرة على عهد النعمان بن المنذر ملك الحيرة وبين بني عامر بن صعصعة، من هوازن من مضر ، يعرف بيوم سفوان في شمالي كاظمة، وكان يوماً لأهل كاظمة على المناذرة . ويعود السبب في هذا اليوم إلى أن هبيرة بن عامر بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة كان قد أغار على النعمان بن المنذر ملك الحيرة وهو على ماء سفوان ، لأن الأحمر كان وجّه إليه رجالاً في زي تجار لمحاربته وقومه بعد أن كانوا قد اعتدوا على لطيمة لهذا الملك كان قد أرسلها لتباع في سوق عكاظ(٧٩) ، واستطاع هبيرة ورجاله أن يأسروا المتجردة امرأة النعمان مع بعض نسائه الأخريات، وأن يغنموا إلى جانب ذلك أموالاً كثيرة . ويبدو أن هبيرة كان في قوة كبيرة لم يستطع معها النعمان دفعاً ، أو ربما أخذ النعمان على غرة ولم يكن على استعداد للقتال ، خاصة وأنه كان بعيداً عن ملكه في الحيرة ، مما دفعه إلى الفرار إلى بلاده . وفي ذلك يقول النابغة الجعدي(٨٠) :

وظل لنعسوة النعمان منا ... على سفوان يوم أوردتنى

فأردفنا حليلته وحيثنا ... بما قد كان جمع من هجان

فظللت كأنني نادمت كسرى ... له فارزة ولي اثنتان

وهكذا تشكل تاريخ كاظمة قبل ظهور الإسلام في أمور ثلاثة : هي علاقتها بفارس وما كان هناك من قتال بينهما نتج عنه خروج إياد من كاظمة .

ثم علاقتها بملوك الحيرة من المناذرة الذين تدخلوا فى شئونها وأرادوا أن يفرضوا نفوذهم عليها ، ولكن كاظمة قاومتهم قدر ما وسعتها المقاومة وهزمتهم فى بعض الأحيان حتى سبى رجالها بعض نسوة النعمان بن المنذر وأخذوا أمواله عند سلوان ، وهزمت فى بعض الأحيان كما حدث عند أوارة . وأخيرًا علاقة سكان كاظمة وقبائلها فيما بين بعضهم البعض ، حيث كانت كاظمة موئلاً للعديد من القبائل العربية التى كانت تكثر بينها المنافسات والمنازعات كعادة بدو العرب فى الجاهلية ، إذ سكنتها بكر بن وائل ومنهم بنو شيبان ، وغيرهم من بطون هذه القبيلة ، كما سكنتها تميم ، وغير ذلك من القبائل التى عرضنا لها حينما تحدثنا عن سكان كاظمة فى الجاهلية . وظل الأمر على هذا النمو حتى ظهر الإسلام .

كاظمة والإسلام :

عرفنا فيما سبق أن كاظمة كانت أحد أقاليم أو بلاد دولة البحرين قبل ظهور الإسلام ، كما قال ابن الفقيه الهمدانى . وبعد ظهوره ظلت هذه العلاقة قائمة بينهما حتى عصر القلقشندى المتوفى عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م حيث اعتبر كاظمة من البحرين(٨١) وإذا كان الأمر كذلك فلنا أن نعرف أن الإسلام كما عرف طريقه إلى البحرين ، فلابد أنه فعل ذلك فى كاظمة . ومعروف أن البحرين من كانت أوائل البلاد العربية التى سبقت إلى اعتناق الإسلام ، فقد أسلم ملكها المنذر بن ساوى العبدى على يد العلاء بن الحضرمى مبعوث النبى ﷺ إليه فى عام ٦هـ/ ٦٢٧م ، وأسلم معظم عرب البحرين ، ودفع باقيهم من النصارى واليهود والمجوس الجزية وظلوا على دياناتهم(٨٢) .

وعلى ذلك كان لابد للإسلام أن يصل إلى كاظمة . وقد حدث ذلك منذ عهد الرسول ﷺ ذاته . فقد ذكرت بعض كتب التاريخ والأدب بعض أسماء أشخاص من أهل كاظمة أسلموا فعلاً فى عهده ، كان منهم بعض صحابته ﷺ. وفى ذلك يذكر ابن قتيبة أن أبا عمرو الشيبانى سعد بن إياس المحدث كان يقول

إنه سمع برسول الله ﷺ عندما كان يرعى إبلا لأهله بكاظمة(٨٣) ، كما سبق القول . وقد عاش هذا الشيبانى مائة وعشرين سنة قضى معظمها فى القرن الأول للهجرة ، لأن الجاحظ يروى أن هذا الرجل كان يروى بعض الأخبار عن بعض الخوارج الذين ظهروا فى الثلث الأخير من القرن المذكور ، مثل شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الذى قتل فى عام ٧٧هـ ، وصعصعة بن صوحان العبدى ، ولذلك كان سعد بن إياس من التابعين واشتغل بعلم الحديث وقول الشعر(٨٤) . ولا شك فى أنه أسلم أيام أن أسلم ملكهم المنذر بن ساوى .

وهناك من الأوائل من أسلم غير سعد بن إياس من أهل كاظمة ، يدل على ذلك ما ورد عن ابن حزم الأندلسى من رواية تقول إن أصمع بن مظهر الباهلى – وهو جد الأصمعى المشهور – أدرك النبى ﷺ ، وكذلك أبوه مظهر ، وأسلما ، ومات مظهر بكاظمة ودفن فيها قرب البحر(٨٥) . وغير هؤلاء هناك من أسلموا من أهل كاظمة وكانوا من صحابة الرسول ﷺ ومن هؤلاء الصحابة الكاظميين غالب بن صعصعة التميمى والد الفرزدق الذى وفد على النبى ﷺ وأسلم ، كما وفد أبوه صعصعة قبله على النبى ﷺ ، ولما عرض عليه الإسلام أسلم وأخبر النبى ﷺ بفعله فى الموءودات ، فاستحسنه ، وسأله صعصعة هل له فى ذلك من أجر؟ فقال له النبى ﷺ : نعم . وتفصيل ذلك أنه قال للنبى : بعد أن أسلم : أوصنى . قال : " أوصيك بأمك وأبيك ، وأختك وأخيك ، وأدانيك أدانيك " . قال : زدنى . قال : احفظ ما بين لحييك وما بين رجليك " . ثم قال له النبى ﷺ : " ما شئ بلغنى عنك فعلته " ؟ قال : " يا رسول الله ، رأيت الناس يوجفون فى غير وجه ، ولم أدر أين الوجه ، غير أنى علمت أنهم ليسوا عليه ، ورأيتهم يئدون بناتهم ، وعلمت أن ربهم لم يأمرهم بذلك، فلم أتركهم يئدون ، وفديت من قدرت عليه " . ثم قال للنبى ﷺ : إنى حملت حمالات فى الجاهلية (أى ديات) فجاء الإسلام وعلىَّ منها ألف بعير فاديت من ذلك سبعمائة . فقال له النبى : " إن الإسلام أمر بالوفاء ونهى عن الغدر " . فقال صعصعة : حسبى ! حسبى ! " روفئ بها . ويقال إنه قال هذا القول لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنه وفد عليه فى خلافته(٨٦) .

فهؤلاء أناس من كاظمة من شيبان من بكر بن وائل ومن تميم ، أسلموا في عهد النبي ﷺ ، وأسلم بعضهم على يديه فكانوا صحابته ، وإذا عرفنا أن كاظمة كانت مسكونة أساسًا ببطون عديدة من هذين الحيين - وهما بكر بن وائل وتميم - لأصبح انتشار الإسلام فيها متعلقًا بإسلام هذه البطون ، أو بإسلام بكر وتميم نفسيهما . وكانت مضارب هاتين القبيلتين تمتد من بلاد البحرين إلى ضفاف الفرات ، وفي صحراء نجد ، وفي منطقة كاظمة بطبيعة الحال .

أما بنو تميم فقد أرسلوا بوفدهم إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكة واستسلام قريش ، وأعلنوا إسلامهم بعد أن ساجلوا المسلمين شعرًا ونثرًا في حضرة النبي ﷺ(٨٧) . وأما بكر بن وائل فقد أسلموا هم الآخرون وأرسلوا بوفدهم إلى رسول الله ﷺ(٨٨) . والدليل على ذلك ما رواه الطبري من أن العلاء بن الحضرمي وال البحرين منذ عهد رسول الله ﷺ أرسل كتبا إلى مشايخ بكر بن وائل بخصوص الذين ارتدوا أو تمردوا على حكومة أبي بكر رضي الله عنه في المدينة ، وأنه ظل مقيمًا في البحرين حتى ورد إليه رد هذه الكتب يفيد بأنهم قاموا بأمر الله وغضبوا لدينه ، فأيقن أنه لن يؤتى من خلفه(٨٩) .

ومعنى ذلك أن أشهر قبائل كاظمة بكر وتميم أسلموا على عهد النبي ﷺ ، غير أن بعضهم تمرد عقب وفاة النبي ﷺ وغداة البيعة لأبي بكر ، رضي الله عنه بالخلافة . وقد دفعهم إلى ذلك عاملان : الأول أن بكر بن وائل كانت في تنافس على الملك مع عبد القيس الذين كان الملك فيهم منذ الجاهلية وعلى عهد رسول الله ﷺ ، وكانوا يريدون أن يكون الملك لهم ، لأنهم كانوا يرون أنهم أحق به ، بوصفهم أشد قوة وأكثر جمعًا ، مع أنهم كانوا بنى عمومة لعبد القيس ، لأن القومين من ربيعة . فبكر بن وائل كانت تحقد على عبد القيس مكانتها وزعامتها، ولذلك بعد وفاة النبي ﷺ ووفاة ملك البحرين المنذر بن ساوى العبدى بعده بقليل ،

قالت بكر بن وائل : " والله لنردن هذا الملك إلى آل النعمان بن المنذر ملوك الحيرة السابقون فإنهم أحق بهذا الأمر من ابن أبي قحافة "(٩٠) الذي كان عبد القيس يدينون له بالطاعة والولاء ، كما كان حالهم مع النبي ﷺ من قبل .

أما العامل الثاني فهو تحريض الفرس لهم على التمرد بعد أن سمعوا مقالتهم في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فاستدعوا بعضًا من رؤسائهم وأرسلوا معهم ستة آلاف من جند الفرس لمعاونة المنذر بن النعمان بن المنذر الذي عينوه ملكًا عليهم وعلى البحرين كلها ، بما فيها كاظمة بطبيعة الحال . يتبين ذلك من قول ملكهم كسرى فارس لهؤلاء الجنود ولرؤساء بكر بن وائل : " سيروا مع المنذر بن النعمان فإني قد ملكته فتحذوا البحرين " . وقد فشلت حركة بكر بن وائل وفشل الفرس في تحقيق أهدافهم في البحرين وفي كاظمة التي كانت تتبعها ، وكانوا يدركون أهمية موقعها سواء في احتلال البحرين أو في العدوان على دولة الخلافة الإسلامية(٩١) .

أما بنو تميم فقد تنوعت مواقفهم ما بين مؤيد ومعارض لحكومة أبي بكر في المدينة ، نظرًا لكثرة بطونهم وفصائلهم(٩٢) ونظرًا لانتشارهم في بقع كثيرة في الجزيرة العربية ، وخاصة في البحرين وكاظمة وبادية العراق ، ونظرًا لتأثرهم بالبداوة التي كانوا يعيشونها مثل أقرانهم من بكر بن وائل ، وهي بداوة كانت تجنح بهم للتمرد والعصيان وتجعلهم لا يأنسون بهذا النوع من الحكم الذي يجمعهم في دولة واحدة لها قانونها ونظامها الذي يجب أن يخضع له الجميع ويطيعوه وقال قائلهم : إن بني تميم أحق بالملك من غيرهم(٩٣) ، فهم لم يفرقوا بين الملك والخلافة . وليس هذا بعجيب أو غريب إذا عرفنا أن خطيبهم قال في حضرة النبي ﷺ حينما وفد وفدهم إليه ، أنهم يحمدون الله لأنه جعلهم ملوكًا ، وأنه وهب لهم أموالاً عظامًا ، وجعلهم أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة ، " فمن مثلنا في الناس ! ألمسنا برءوس الناس أولى فضلهم ؟ "(٩٤) فهم يشمخون دائمًا

بأنوفهم ويرون أنهم ملوك وأصحاب فضل وقوة وغنى ويسار . ولذلك - وكما أشرنا - فقد تنوعت مواقفهم غداة البيعة لأبي بكر بالخلافة ، ما بين مؤيد ومعارض ، وأتت سجاح بنت الحارث التميمية مع بعض أخوالها من بني تغلب من أرض الجزيرة بالعراق إلى أهلها من تميم بصحراء نجد كي تقيم لهم ملكًا ودولة ، كما قالت وتنبأت ، وأقبلت في رؤساء تغلب والنمر وإياد وشيبان تريد غزو أبي بكر في المدينة ، زحفت على بلاد العرب حتى التقت بمسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة(٩٥) والذي كان قد تنبأ هو الآخر وأراد أن يقيم لأهله دولة وملكًا .

ولا شك في أن الطريق من العراق إلى نجد واليمامة حيث التقت سجاح بمسيلمة ، كان لابد وأن يمر بكاظمة أو بالقرب منها. وقد حدث هذا الأمر بالفعل ، إذ مرت سجاح بالنياج الذي يقع على الطريق ما بين البصرة واليمامة ، ومر به خالد بن الوليد فيما بعد أثناء زحفه تجاه بلاد العراق(٩٦) . والنياج مكان مشهور منذ عهد الجاهلية لأنه كان موضعًا لأحد أيام العرب حينذاك حيث انتصرت تميم على بكر بن وائل(٩٧) . والمهم أن سجاح بنت الحارث التميمية بعد أن خرجت من الجزيرة الفراتية لغزو أبي بكر ووصلت النياج ، أغار عليها هناك أوس بن خزيمة الهجيمي فيمن تجمع إليه من بني عمرو ، فأسر من جنودها رجل يدعى الهذيل ، أسره رجل من بني مازن يدعى ناشرة ، كما أسر رجل آخر ، ثم تبادلوا الأسرى ، واستأنفت سجاح السير إلى نجد واليمامة(٩٨) .

ومعنى ذلك أن تميم كاظمة كان لهم موقف من هذه الحركة التي أثارها أقرباؤهم من تميم نجد ، وأثارتها سجاح بنت الحارث التميمية بهذا الزحف الذي جعلها تمر بأطراف كاظمة من ناحية الغرب عند النياج .

وحسب الرواية السابقة التي رواها الطبري فإنهم لم يكونوا مؤيدين لهذه الحركة ، ولذلك اعترضوا جيش سجاح ووقع القتال بين الفريقين ، بدليل أنه كان هناك أسرى من الجانبين . ويعني ذلك أن سجاحًا لم تجد ظهيرًا يؤيدها من قومها

التميميين من سكان كاظمة ، وإن كانت قد وجدت من يؤيدها من تميم نجد . كذلك فإن شيبان كاظمة لم يشتركوا في هذه الحركة ، بل إنهم أدانوها ، وثبت المثنى بن حارثه الشيباني وقومه على طاعة أبي بكر وأعان جيوش الإسلام في مطاردتها للمرتدين في منطقة الخليج(٩٩) .

وكانت مواقف كاظمة الإسلامية أوضح من ذلك بكثير بعد أن انتهت هذه الحركة التي تعرف عادة بحركة الردة ، وبدأت حركة الفتوحات الإسلامية . وكان أن أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيشًا لقتال الفرس وإجهاض محاولتهم في تهديد دولة الإسلام في المدينة ، وإخراجهم من العراق ، وذلك في العام الثاني عشر للهجرة . وكان سكان كاظمة وخاصة بني شيبان البكريين أسرع في تحقيق هذا الهدف إذ لم ينتظروا حتى تصل جيوش أبي بكر لقتال الفرس وقاموا بقتالهم تحت قيادة زعيمهم المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان أول من حارب الفرس في بداية عهد الصديق أبي بكر رضي الله عنه(١٠٠) .

ومعروف في التاريخ أن أحد رجالهم أيضًا هو الذي حرض بكرًا وتميمًا وضبة والرباب على قتال الفرس يوم ذي قار ، وهو هانئ بن مسعود الشيباني(١٠١) ، حيث انتصر العرب على الفرس في هذا اليوم بقيادة بني شيبان. وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم كما قال النبي ﷺ حينما سمع بهذا الحدث الذي تم في بداية المبعث أو بعد الهجرة النبوية إلى يثرب بقليل أو بعد وقعة بدر (٢هـ) بأشهر قليلة(١٠٢) وارتجت له أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا فإن بني شيبان وبكر بن وائل كان لهم شرف قتال الفرس عند ظهور الإسلام في عهد الرسول ﷺ في ذي قار ، وكان لهم أيضًا شرف قتالهم في بداية عهد أبي بكر الصديق قبل أن يقرر الصديق قتالهم ، إذ بادروا بقتالهم كما أشرنا بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني الذي مهد بهذا العمل للقضاء على النفوذ الفارسي في بلاد العرب ، وذلك بأن اقتحم العراق عليهم قبل أن يغزوهم خالد

بن الوليد في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فكان يغير على السواد في رجال من قومه قبل أن يأمر أبو بكر بقتالهم . ولما بلغ أبو بكر خبره سأل عنه ، فقال له قيس بن عاصم سنان المنقري : " هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد . هذا المثنى بن حارثة الشيباني " . ولم يلبث المثنى أن قدم على أبي بكر في المدينة ، وقال له : " يا خليفة رسول الله ، استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس : " فكتب له أبو بكر في ذلك عهدًا ، فسار حتى نزل خفان ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا(١٠٣) ، مما يدل على أن بني شيبان لم يكونوا كلهم مسلمين وقتذاك . ثم أن المثنى جمعهم وحشدهم بعد أن جمعهم على الإسلام وأخذ يغير على الفرس بناحية كسكر مرة وفي أسفل الفرات مرة أخرى(١٠٤) .

ولا يمكن أن يفعل المثنى ذلك إلا إذا كان من أهل كاظمة لأنها أقرب الأماكن التي تدين بالإسلام إلى هذه الأنحاء ، ولأنه لا يمكن أن يكون من سكان الحيرة ، لأن الحيرة في ذلك الوقت كانت تحت النفوذ المباشر للفرس ، بعد أن قضوا على الأسرة العربية الحاكمة وهي أسرة المناذرة اللخميين بقضائهم على آخر ملوكهم وهو النعمان بن المنذر ، وتعيينهم عليها رجلاً من طيئ يدعى إياس بن قبيصة الطائي خلفًا للنعمان ، وأشركوا معه رجلاً فارسيًا يدعى النخيرجان . ولما مات إياس انفرد الحاكم الفارسي (النخيرجان) بحكم الحيرة مما أدى إلى القضاء على استقلالها تمامًا(١٠٥) . فلو كان المثنى من سكان الحيرة لما أمكنه أن يخرج على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف رجل من شيبان لقتال الفرس ، كما لا يمكن أن يكون المثنى ومن معه من بني شيبان ، من شيبان بادية العراق الذين انتصروا على الفرس في ذي قار ، لأن شيبان العراق لم يكن الإسلام قد وصل إليهم في ذلك الحين ، أقصد في عهد أبي بكر الصديق وعلى وجه التحديد في عام ١١ و١٢هـ . وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن لشيبان العراق الاشتراك في جهاد المثنى ضد فارس قبل معركة ذات السلاسل التي حدثت في عام ١٢هـ

على أرض كاظمة ، وكان المثنى وقومه من أبطالها ، لأن شيبان العراق كانوا بعيدين عن كاظمة التي كانت في حوزة الدولة الإسلامية على اعتبارانها من البحرين التي كان الإسلام قد انتشر فيها كما انتشر في كاظمة منذ عهد النبي ﷺ . هذا إلى أن شيبان العراق كانوا وثنيين أو على غير دين الإسلام ، بدليل أن المثنى دعاهم إلى الإسلام فيما بعد .

أما شيبان وتميم وبكر بن وائل في المنطقة الشرقية التي تقع جنوبي كاظمة فقد كانوا منشغلين بحركة التمرد والردة التي حدثت في أوائل عهد الصديق أبي بكر . فانشغالهم يمنع اشتراكهم مع المثنى في جهاده ضد فارس في ذلك الحين وقبل معركة ذات السلاسل . ومن اشترك منهم من هذا التمرد لم يشترك في هذه المعركة أو المعارك التي تلتها مباشرة في عهد الصديق ، لأنه كان يمنع من دخول في حركة الردة من قيادة المسلمين أو المشاركة في حروبهم .

وهذا كله فالمثنى بن حارثة الشيباني ومن قاتل معه الفرس من بني شيبان قبل ذات السلاسل كانوا من كاظمة وليسوا من شيبان العراق أو شيبان المنطقة الشرقية جنوبي كاظمة . فالمثنى إذن بطل من أبطال كاظمة التي كانت أقرب مكان للاتصال بالعرب المسلمين من ناحية ، وأقرب مكان يشب منه هؤلاء العرب لضرب الفرس من ناحية أخرى ، فهي الطريق الذي لابد من عبوره للتصدي لهم .

ولما انتهت حركة التمرد والردة قرر أبو بكر الصديق رضي الله عنه إرسال خالد بن الوليد رضي الله عنه للتصدي للفرس وتطهير بلاد العراق منهم . وكان طبيعيًا أن يكون المثنى بن حارثة وقومه من القوات التي تساهم مع خالد في تحقيق هذه الغاية. ذلك أن خالدا عندما وصل إلى النباج في طريقه لحرب الفرس كتب إلى المثنى في كاظمة يطلب قدومه ، وبعث بكتاب إلى أبي بكر . ولما وصل المثنى وجنده قسم خالد جيشه ثلاث فرق : فرقة المثنى بن حارثة وكانت تتكون من ثمانية آلاف جندي كانوا قد وصلوا مع المثنى إلى خالد عند النباج ، لتكون

على المقدمة ، وفرقة أخرى جعل عليها عدى بن حاتم ، والثالثة والأخيرة كان على رأسها خالد نفسه . وسارت كل فرقة قبل الأخرى بيوم حسب أوامر خالد ، ووعدهم على الالتقاء عند الحفير فى كاظمة " ليجتمعوا به وليصلتعوا عدوهم "(١٠٦) .

وعندما اجتمع شمل الفرق الثلاث فى الحفير بكاظمة ، كان اجتماعهم على هذا النحو هو التمهيد لبدء معركة ذات السلاسل المشهورة ، وهى أول معركة قامت بين خالد وبين الفرس ، وكانت على أرض كاظمة كما أخبرت بذلك كتب التاريخ . فالطبرى يحدثنا أن أبا بكر حينما أمر خالدًا بحرب فارس من العراق طلب منه أن يدخل العراق من أسفله أى من ناحية كاظمة ، وأن يدخله عياض بن غنم من أعلاه ، ثم يستبقا إلى الحيرة ، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه(١٠٧) .

ولتحقيق هذه الخطة كان لابد لخالد من أن يمر بأرض كاظمة ، فهى الطريق المعتاد للوصول إلى أرض العراق منذ عهد الجاهلية . وكان الفرس يفهمون هذا الأمر منذ عهد سابور ذى الأكتاف كما سبق القول ، ولذلك تسمع أن هرمز حاكم الأبلة والذى كان يغير على غرب هذه المنطقة ويحاربهم ، أرسل إلى أردشير كسرى فارس يخبره بأمر خالد وجيشه ، وأسرع متعجلاً إلى الكواظم ليصادم خالدًا قبل أن يستقر قراره . ولما علم أن خالدًا وأصحابه تواعدوا على التجمع فى منطقة معينة فى كاظمة تسمى الحفير ، أسرع فى جيشه إلى هذا المكان ليصله قبل خالد ، وجعل على ميمنته وميسرته أخوين هما قباذ وأنوشجان - وكانا من أولاد أردشير الأكبر - واقترن جنده فى السلاسل حتى لا يظن بهم الهرب أو حتى لا يفر أحدهم خوف القتال والقتل . ولما سمع بهم خالدًا آمال الناس إلى حوف كاظمة فسبقه هرمز أيضًا إليها ، وتهيأ أصحابه للقتال واقترنوا فى السلاسل مرة أخرى والماء فى أيديهم وتحت سيطرتهم فى حين نزل خالد على غير ماء ، وهو أمر يمكن أن يؤدى إلى الهزيمة لو طالت فترة الانتظار أو استمر القتال فترة طويلة . ولكن خالدًا قال لأصحابه ليعالج هذا الموقف العصيب : " ألا انزلوا وحطوا

أثقالكم ثم جاهدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء إلى أصبر الفريقين ، وأكرم الجندين " . فحطت الجند الأثقال والخيل وقوف ، ثم زحف إلى الفرس حتى لاقاهم ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة هطل منها الماء مدرارًا خلف المسلمين فقويت قلوبهم ، وخرج هرمز ودعا خالدًا إلى المبارزة ، واتفق مع بعض أصحابه على الغدر بخالد إذا التقيا . فبرز إليه خالد وتصارعا وتضاربا ، فاحتضنه خالد تمهيدًا للقضاء عليه . ولما رأى أصحاب هرمز ذلك حملوا على خالد ، ولكنه أسرع فقتل هرمز . وحمل القعقاع بن عمرو على هؤلاء المتآمرين من الفرس ، والتحم الفريقان فى معركة هائلة على أرض كاظمة هزم فيها الفرس " وما ارتفع النهار وفى الغائط مقترن " كما قال الطبرى الذى يعنى بذلك أصحاب السلاسل الذين كانوا يقاتلون فى أرض منخفضة تعرف عند العرب بالغائط وركب العرب أكتاف الفرس حتى حل الظلام وقتلوا منهم الكثير ، ونجا قباذ وأنوشجان ، وغنم العرب مغانم كثيرة ، وأخذ خالد سلب هرمز وأرسل بالفتح والأخماس إلى أبى بكر فى المدينة . وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة ، وبعث المثنى بن حارثة الشيبانى فى آثار الفرس فزحف إليهم حتى انتهى إلى نهر المرأة وإلى حصنها وحاصره ، ثم حاصر حصن الرجل واستنزل من فيه من الفرس وقتلهم وغنم أموالهم . فسارعت المرأة إلى مصالحته وأسلمت فتزوجها المثنى . وبلغ سهم الفارس فى يوم ذات السلاسل والمثنى - أى النهر لأن العرب تسمى كل نهر المثنى - ألف درهم ، والراجل ثلث ذلك(١٠٨) .

ومن ثم فقد كانت معركة المثنى متممة لمعركة ذات السلاسل التى تعتبر من المعارك الهامة فى التاريخ ، لأنها كانت فاتحة المعارك العظيمة التى أدت إلى تطهير بلاد العراق من الاحتلال الفارسى ، كما أدت إلى سقوط الأسرة الساسانية وفتح العرب لبلاد فارس نفسها(١٠٩) . ولذلك خلدها بعض الشعراء فى قصائدهم . من ذلك ما قاله القعقاع بن عمرو(١١٠) .

سقى الله قتلى بالعراق مقيمة وأخرى بأنباج النحاف فكوانف(١١١)

فنحسن وطئنا بالكواظم هرمزًا وبالثنى قرنى قارن بالجوارف(١١٢)

والحق فإن معركة ذات السلاسل هى معركة كاظمة ، ويوم ذات السلاسل هو يوم كاظمة ، فقد وقعت هذه المعركة على أرضها ، كما قام أهلها بدور بارز فيها لعله من أهم الأدوار ، فقد كان جندها من بنى شيبان وبكر بن وائل وتميم يقارب عددهم نحو نصف عدد جيش خالد ، إذ كانوا فى ثمانية آلاف مقاتل بينما بقية جيش خالد كانت عشرة آلاف ، وكان بطلها المثنى بن حارثة الشيبانى له فضل قتال الفرس قبل أن يأتى خالد ، فكان خبيرًا بهم وبقتالهم ، وكان له أيضًا فضل قتالهم بجنده الثمانية آلاف مع خالد ، وكان له وبجنده فضل فتح حصن المراة وادخالها فى الإسلام وتهيئة الطريق أمام انتصارات خالد الأخرى ضد الفرس والتى شارك فيها المثنى وجنده الكاظميون(١١٣) .

وإدراكًا من خالد لأهمية موقع كاظمة وأنها هى الظهير الذى يمكن أن يؤتى منه أمر سويد بن مقرن المزنى أن ينزل الحفير بكاظمة ، وأن يحصل الجزية من غير المسلمين فيها ، وأن يرسل عمال إلى نواحيها المختلفة ، وأن يتحسس أخبار الفرس(١١٤) . وتستمر كاظمة فى أداء هذا الدور وخاصة قبيل معركة نهاوند التى تسمى فتح الفتوح ، والتى حدثت فى عام ٢١هـ/٦٤٢م وكانت معركة فاصلة لم تقم للفرس بعدها قائمة . وكانت كاظمة قبيل هذه المعركة مكانًا أقام فيه أحد قواد المسلمين بقواته ، وهو بحاشية سعد السلمى ، حتى يكون ظهيرًا للمسلمين وعونًا لهم إذا ما احتاجوا إلى هذا العون ، وحتى لا يفكر الفرس فى الالتفاف حول الجيوش الإسلامية التى تقاتلهم فى العراق من هذه الناحية(١١٥) .

ومعنى ذلك أن كاظمة أصبحت مركزًا للقادة العرب الذين اتخذوا منها مكانًا لمراقبة الفرس ، ولجمع الجباية من أهل كاظمة وجنوب العراق فيما يلى البصرة من الذين لم يدخلوا الإسلام من أهل الذمة . وقد استفاد خالد بن الوليد

فعلاً من هذا المركز الإخبارى الهام ، وساعده ذلك على القيام بكثير من الفتوحات فى السواد ، وكان للمثنى بن حارثة ذراعه الأيمن فى هذا الجهاز(١١٦) .

وهكذا كان للمثنى بن حارثة الشيبانى مع خالد بن الوليد فى مواقعه كلها فى أرض السواد بالعراق(١١٧) . ولما فارقه خالد قال له ما قال، وهى شهادة للمثنى، ولذلك قال فيه أحد الشعراء يشير إلى إحدى معاركه :

وللمثنى بالعمال معركة شاهدها من قبيله بشر(١١٨)

وقد استمرت بطولة المثنى وجهاده فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن ولى الخلافة عقب وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى عام ١٣هـ / ٦٣٤م(١١٩) . وفى موقعة البويب التى دارت عام ١٣هـ / (٦٣٤م) والتى قام فيها المثنى بدور بارز ، انتصر المسلمون على الفرس انتصارًا ساحقًا وانتقموا لما حل بهم قبل قليل فى موقعة الجسر(١٢٠) وتعرف واقعة البويب بيوم الأعشار لأن العديد من صناديد العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس . كما أنها من المواقع الكبرى التى ألقت الرعب فى قلوب أهل فارس ، حتى سار المسلمون بعد المعركة فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ، ولا يقف فى وجوههم محارب . وأقام المثنى بعد ذلك بصعد ويصوب فى الجزيرة ويبث السرايا للإغارة على الفرس، مما جعلهم يبحثون عن ملك يقفون وراءه ، وانتهوا إلى تعيين يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان ملكًا عليهم ، وتبارى القواد والرؤساء فى طاعته ، والتفوا حوله واحتشدوا لقتال العرب . وصمم يزدجرد على استرجاع ما فقده الفرس من السواد (العراق) ووقف زحف العرب والقضاء عليهم . وبدأ الفرس يزحفون على مواقع المسلمين وحرضوا أهل الذمة على الثورة ضدهم فنقضوا طاعتهم للمسلمين سواء من كان له عهد ومن لم يكن له عهد(١٢١) .

حينذاك كتب المثنى بن حارثة الشيبانى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطلب رأيه ونجدته ، لأنه كان أمير الناس منذ رحيل خالد بن الوليد إلى بلاد الشام ،

وكان عامل عمر بن الخطاب على ما فتح من بلاد العراق وهو المسئول عن هذه البلاد . ولما وصل كتابه إلى عمر كتب عمر إلى عمال العرب على البلدان وإلى قبائلهم فى ذى الحجة ١٣هـ وقال: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! فلم يدع رئيسًا ، ولا ذا رأى وذا شرف وبسطة ، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم ، وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم وأن يتفرقوا فى المياه التى تليهم والتى تفتح على حدود أرضهم وأرض العرب ، بمعنى أن ينسحبوا إلى هذه الأماكن والبقاع حتى تصلهم النجدة ، كما طلب منهم أن يحشدوا كل من وجدوه من العرب طوعًا أو كرهًا(١٢٢) .

وكان أن نفذ المثنى بن حارثة الشيبانى أمر عمر ، فخرج بالجند حتى نزل الطف ففرقهم فيه من أوله إلى آخره وأقام مسالحه ما بين غضى بكاظمة إلى القطقطانة . وعادت مسالح كسرى وثغوره إلى حالها الأول : أما المسلمون فقد تفرقوا فى المنطقة الممتدة من كاظمة ومن جبلها المعروف باسم غضى حتى ذى قار الذى نزله المثنى . ونزل جرير بن عبد الله البجلى بجبل غضى ، وسعرة بن عمرو العنبرى ، وآخرون فى الحل وشراف إلى غضى " فكانوا فى أمواه الطف من أولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض ، ويغيث بعضهم بعضًا "(١٢٣) . وهكذا تظهر كاظمة على الساحة فى هذه الفترة الضيقة التى مهدت لمعركة حاسمة مع الفرس ، هى معركة القادسية ، التى لم تبدأ إلا بعد أن تهيأ لها العرب تمامًا .

ذلك أنه بعد أن استجاب عرب الجزيرة العربية لنداء عمر بن الخطاب وتكاملت العدة والعتاد واجتمع الناس ، شاورهم عمر وأخذ برأيهم فى عدم خروجه بنفسه لقتال الفرس ، وفى تعيين سعد بن أبى وقاص لقيادة الجيش ، فأمره بالمسير إلى العراق(١٢٤) . ولما وصل سعد إلى المنطقة لم يلبث أن أرسل المغيرة بن شعبة فى خمسمائة فارس ليكون بحبال الأبلة من أرض العرب . وهنا يبرز جبل غضى بكاظمة مرة أخرى ، إذ نرى المغيرة ينزل على جرير البجلى فى (غضى) ،

بينما نزل سعد بن أبى وقاص فى (شراف) استعدادًا للمعركة . حينئذ جاءه أمر عمر بأن يجمع العرب إليه فى كاظمة وبادية العراق وأن ينظمهم فرقًا ، وأن يواعدهم القادسية ، وأن يضم إليه المغيرة بن شعبة فى خيله(١٢٥) .

وقد نفذ سعد أمر عمر ، وانضمت إليه قوات المثنى بن حارثة الشيبانى وقوات جرير ، ووقعت معركة القادسية فى عام ١٥هـ / ٦٣٦م حيث أحرز المسلمون نصرًا مؤزرًا على رستم وقتلوه وعددًا كبير من جنده ، وهرب الباقون ، وغنم المسلمون أموالهم(١٢٦) ، رغم أن الفرس كانوا فى جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل بخلاف الفيلة . وكان العرب فى جيش لا يزيد عن ثمانية آلاف مقاتل ليس فى أيديهم إلا السيوف والنبل التى كان الفرس يضحكون منها ويشبهونها بالمغازل(١٢٧) .

ولكن المثنى بن حارثة الشيبانى كان قد مات قبيل هذه المعركة ، وقبيل وفاته قدم وصيته إلى سعد بن أبى وقاص بطل القادسية ، لأنه كان على خبرة ودراية بقتال الفرس قبل أن يأتى سعد كما سبق أن أشرنا ، وأوصاه أن يقاتلهم على حدود أرضهم : " على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ، ثم يكون أحرا على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة له عليهم " . وحدد المثنى له مكان المعركة وأشار عليه بمحاربتهم بين القادسية والعذيب . ثم اشتد عليه المرض فحمل إلى قومه ، فمات فيهم وتزوج سعد امرأته(١٢٨) .

وهكذا انتهت حياة أحد أبطال كاظمة على هذا النحو بعد أن خاض كثيرًا من المعارك مع قومه من بنى شيبان ومن غيرهم من سكان كاظمة وأهلها ، ومما يحيط بها من نواحى وبلدان قبل أن يشرع المسلمون فى غزو الفرس ، وكذلك بعد أن تقرر غزو بلادهم ، فكان بطلاً يوم ذات السلاسل ، وكان بطلاً فى كل المعارك التى خاضها تحت لواء خالد بن الوليد حتى انتقل خالد إلى الجبهة الشامية

لمقابلة الروم ، فحمل المثنى وقومه من عرب كاظمة عبء الجهاد مع غيرهم من قبائل العرب حتى واقعة المثنى قبيل القادسية فى عام ١٥هـ / ٦٣٦م . وكان جهاده وقوته تعبيرًا عن دور كاظمة وأهلها فى معارك الجهاد التى خاضها المسلمون فى عهد الخلافة الراشدة ، وهو دور مشرف على أى حال . وكان موقع كاظمة يفرض عليها هذا الجهاد ، وكان إسلام أهلها سواء جاء على يد المثنى أو على يد غيره من بنى شيبان الذين أسلموا قبله وقابلوا النبى ﷺ كما أسلفنا القول ، يفرض عليها أيضًا هذا الجهاد .

وبسبب هذا الموقع نرى اسم كاظمة يبرز مرة أخرى على مسرح الأحداث وذلك فى عهد الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه. وفى هذه المرة لا نسمع عن اشتراك لها فى جهاد أو قتال ، وإنما كانت أرضها مسرحًا تجمع عليه ، القادمون من المدينة المنورة فى طريقهم إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان والثأر من قتلته الذين كان بعضهم قد لجأ إلى هذه المدينة ، وبعضهم الآخر لجأ إلى الكوفة . وكان على رأس هؤلاء القادمين السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله من صحابة رسول الله ﷺ . وكى يدخلوا البصرة كان لابد لهم أن يمروا بمنطقة كاظمة . وهذا ما حدث . إذ أن السيدة عائشة ومن معها بعد أن غادروا أوطاس على رأى الطبرى ، أو ماء للوأب على رأى ابن الأثير ، دخلوا الحفير من أرض كاظمة ، وانتظروا فيه حتى يأتى رد الرسائل التى كانت قد أرسلتها السيدة عائشة إلى رجال من وجوه البصرة ، مثل الأحنف بن قيس وصبرة بن شيمان لتخويفهم بمقدمها وتهيئ الأمر لما جاءت بسببه . ولما وصلت كتبها إلى البصرة دعا أميرها عثمان بن حنيف رجلين وأرسلهما إلى أم المؤمنين ومن معها يتحققان من أمرهم ، فوصلا إلى الحفير واستأذنا عليها فأذنت لهما ، وأخبرتهما بسبب حضورها وحضور من معها(١٢٩) .

وتطورت الأمور كما هو معروف حتى وقعت معركة الجمل فى جمادى الآخرة من عام ٣٦هـ / ٦٥٧م ، وفيها قتل طلحة ، واتجه الزبير بن العوام عائدًا إلى المدينة المنورة ، بعد أن ذكّره على بن أبى طالب بحديث رسول الله ﷺ من أنه

سوف يقاتل عليا وهو له ظالم . وسار الزبير حتى وصل إلى سفوان (صفوان) على حدود منطقة كاظمة الشمالية حيث قتل هناك غيلة على يد رجل كان قد سار وراءه وقتله(١٣٠) .

فكاظمة كان فيها مستقر السيدة عائشة ومن معها قبل ذهابها إلى معركة الجمل ، وكاظمة كانت هى الطريق الذى لابد أن يعود إليه من بقى من هذه المعركة ، وعلى حدودها الشمالية فى صفوان قتل أحد هؤلاء العائدين وهو الزبير بن العوام رضى الله عنه . وكان أهل كاظمة نفسها ما بين مؤيد ومعارض للإمام على كرم الله وجهه . فقد كان فيها شيعة له ، وشيعة لمعاوية بن أبى سفيان أيضًا . يدل على ذلك ما رواه بعض كتب الأدب والتاريخ من أن الإمام على بعث برجل من شيعته يدعى أعين بن ضبيعة بن ناجية بن عقال بن محمد الدارمى التميمى ، وهو عم الفرزدق وأبو زوجته النوار ، إلى كاظمة ، فقتله قوم من شيعة معاوية(١٣١) .

ودلالة اختيار هذا الرجل واضحة . إذ أن كاظمة كانت سكنًا لأهل الفرزدق من تميم ، وكانت تحتوى على قبر والده غالب الذى عاش فى بداية كاظمة ومات بها ، والذى هو فى نفس الوقت أخ لهذا الرجل ، فكان من الطبيعى أن يكون هذا الرجل رسولاً إلى أهل كاظمة من قبل الإمام على بن أبى طالب . هذا سبب ، والسبب الثانى هو أن الفرزدق وأبوه وعمه كانوا من شيعة الإمام على ، وكان على متزوجًا من بنت عمهم ليلى بنت مسعود(١٣٢) ، فكان طبيعيًا أن يكون عم الفرزدق رسوله إلى أهل كاظمة ، مما يدل على أهمية كاظمة وعلى أن أهلها كان يحسب حسابهم إذا جد الجد .

على أى حال انتهت هذه الفترة التاريخية بانتقال الخلافة إلى بنى أمية . وفى عهدهم نرى كاظمة تبرز على مسرح الأحداث مرة أخرى ففى عصر عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) كان أمر الخوارج قد ظهر ظهورًا بينًا . وكان من هؤلاء الخوارج فرقة تعرف بالنجدات ، نسبة إلى زعيمها نجدة بن عامر الحنفى الذى كان مع نافع بن الأزرق الحنفى صاحب الأزارقة من الخوارج ،

ثم فارقه لخلاف حدث بينهما في عام ٦٥هـ / ٦٨٤م ، واستقر نجدة هو واتباعه في اليمامة ، وكثر أصحابه فيها حتى صاروا ثلاثة آلاف . ومنها ساروا إلى البحرين في عام ٦٧هـ / ٦٨٦م . واختلف الناس عليه فيها ما بين مؤيد ومعارض ، ولكنه استطاع أن يهزم معارضيه من عبد القيس . وأقام بالبحرين حتى أرسل له مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير – صاحب الحجاز والمعارض لبني أمية وقتذاك – جيشًا من أربعة عشر ألفًا لقتاله عام ٦٩هـ/ ٦٨٨م ، ولكنه هزم هذا الجيش فاستقرت له الأمور في البحرين . ولم يلبث أن أرسل الجيوش بدوره إلى النواحي الغربية من البحرين مثل عمان . أما كاظمة فقد أرسل إليها وإلى بادينها " من يأخذ من أهلها الصدقة – أي الزكاة – فقاتل أصحابه بني تميم بكاظمة ، وأعان أهل طويلع – الذي يقع في شمالي كاظمة عن يمين جبل سنام – بني تميم ، فقتلوا من الخوارج رجلاً ، فأرسل زعيمهم نجدة بن عامر الحنفي إلى أهل طويلع من أغار عليهم وقتل منهم نيفا وثلاثين رجلاً وسبى . ثم إنه دعاهم بعد ذلك فأجابوه ، فأخذ منهم الصدقة "(١٣٣) .

وهذا النص الذي استقيناه من ابن الأثير لا يدل إلا على أن أهل كاظمة لم يكن لهم مع الخوارج النجدات سبيل ، ولم يكونوا ضمن من أطاعوهم ، بل رفضوا الخضوع لهم ، حتى اضطر أصحاب نجدة لقتالهم كما رأينا ، ولم يخضع لهم أهل طويلع إلا تحت تهديد السلاح . ومعنى ذلك أنهم كانوا تحت طاعة بني أمية ، وكانت بلادهم جزءًا من ولاية البحرين طوال فترة الخلافة الأموية . ولما ولي بنو العباس أمر الخلافة ، وسّعوا إطار هذه الولاية – أقصد ولاية البحرين – فجعلوها تشمل عمان واليمامة بالإضافة إلى البحرين بما فيها كاظمة . وازدادت أهمية هذه الولاية لقربها من بغداد والعراق . والواقع أن منطقة الخليج العربي بكاملها والسواحل المحيطة بها زادت أهميتها بعد انتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، مما أدى إلى انتقال الأهمية التجارية من البحر المتوسط إلى الخليج العربي وإلى الطرق التجارية البحرية والبرية الواصلة إليه والمتفرعة عنه(١٣٤) .

وقد دفع هذا الأمر بالعباسيين إلى أن يعملوا ما في وسعهم لتأمين طرق التجارة الدولية في هذه المنطقة ، والعمل على بسط نفوذهم عليها لتنفيذ هذه السياسة وتحقيق هذا النشاط التجاري الهام . وبطبيعة الحال فإن كاظمة كانت لا تقل أهمية أو استفادة من هذا النشاط نظرًا لموقعها الذي أشرنا إليه ، والذي جعلها أقرب الأماكن إلى البصرة وبغداد ، وهما مركز النشاط التجاري والسياسي منذ عهد الدولة العباسية .

وقد تطورت الأمور في كاظمة بعد قيام دولة القرامطة في البحرين في عام ٢٨٦هـ / ٨٩٩ ، واستطاعت هذه الدولة التي اتخذت من مدينة الإحساء عاصمة لها أن تتوسع في عهد أميرها أبو سعيد الجنابي الذي امتد نفوذه إلى هجر والقطيف وسائر بلاد البحرين ، ومنها كاظمة بطبيعة الحال . واستطاع ابنه الذي تولى الأمر من بعده أن يستولي على البصرة في عام ٣١٥هـ / ٩٢٧م ، وهدد بغداد في العام التالي . وكانت كاظمة في طريقهم سواء إلى بغداد أو إلى الشام . ومن ثم فإنها كانت ضمن دولتهم حتى زالت هذه الدولة ولم يعد لها وجود منذ عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م . وقام في البحرين حكم بني ثعلب منذ ذلك التاريخ لأكثر من مائتي عام ، حتى حكمها بنو عقيل ، وكانوا في حكمها في عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م . نعرف ذلك من حديث صاحب " المغرب في حلى المغرب " الذي سأل بعض أهل البحرين حين قابلهم في موسم الحج في ذلك العام عن بلاد العسم ، فقالوا له إن حكمها لبني عقيل ، وأن بني ثعلب أصبحوا من جملة رعاياهم(١٣٥) .

ونعرف أنه لم يمض على ذلك بضع سنين حتى داهم المغول بغداد في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ، وقضوا على الخلافة العباسية وسيطروا على المشرق الإسلامي كله بما فيه منطقة الخليج ، مما أدى إلى إضعاف أهمية هذه المنطقة سياسيًا وتجاريًا إلى حد كبير . ومرت منذ ذلك الحين بفترة ركود سياسي سواء بالنسبة لكاظمة أم لمنطقة شرق الجزيرة العربية بصفة عامة(١٣٦) . واستمرت هذه الفترة حتى بداية العصر الحديث .

غير أن هذه الركود السياسي لم يخل من كاظمة ونشاطها الحضاري ، فقد ظلت القبائل العربية تتردد عليها وتعيش فيها ، وظل التجار والحجاج يتخذونها طريقا لهم ، وظل الشعراء والأدباء يتخذون منها ومن جبالها وأوديتها وأماكنها المختلفة ملهما لأقاصيصهم وأشعارهم . وكذلك تكرر ذكرها كثيرًا في قصائدهم وأخبارهم ، كما تكرر عند الرحالة والجغرافيين . وظل الأمر على هذا النحو حتى أواخر العصور الوسطى حينما ذكرها القلقشندي المتوفى عام ٨٢١هـ/١٤١٨م وقال إنها من بلاد البحرين(١٣٧) . واستمر اسم كاظمة بعد ذلك . وكانت آخر خريطة ظهرت فيها هي تلك التي نشرت عام ١٧٩٤م ضمن مجموعة الدكتور الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ومنشورة في كتاب سلوت(١٣٨) .

وبعد ذلك نرى اسم (القرين) في حين بدأ اسم كاظمة يختفي من التاريخ . وقد ظهر اسم القرين لأول مرة في خريطة نشرها فان كيلين Van Keulen في عام ١٧٥٣ ونشرها (سلوت) في كتابه (أصول الكويت) . وأصل هذه الخريطة محفوظ في مكتبة الأرشيف العام لهولندا(١٣٩) وتبين خريطة منشورة في لندن عام ١٧٩٠ ومحفوظة في جامعة كمبروج موضع كاظمة ، وإلى الشمال منها القرين Grain(١٤٠) . وبعد ذلك نرى اسم الكويت يتغلب على اسم القرين ، وصارت منطقة كاظمة والقرين مشهورة بهذا الاسم الذي ظهر لأول مرة في خريطة الرحالة الألماني نيبور الذي زار المنطقة في عام ١٧٦٥م ورسم خريطة للخليج العربي في العام المذكور ، ووضع في الركن الشمالي الغربي اسم الكويت مقرونًا باسم القرين ، ويكون بذلك أول من ذكر اسم الكويت . وتعد خريطته أول خريطة ذكرت الكويت بهذه التسمية وإن اقترنت بالقرين كمرادف لها(١٤١) . وقد قام (سلوت) بنشر هذه الخريطة في كتابه أصول الكويت المنشور في عام ١٩٩١م(١٤٢) .

وهكذا ومنذ القرن التاسع عشر للميلاد لم نعد نسمع شيئًا عن كاظمة أو مدينة كاظمة التي اندثرت ولا نرى لها إلا اسمًا أطلق على ركن من أركان مدينة الكويت الحالية . ويجب أن يبعث اسم كاظمة بشكل يليق به ؛ لأن تاريخ كاظمة في الواقع هو المدخل لمعرفة تاريخ الكويت الحديث .

الدور الحضاري لكاظمة في فترة البحث :

يتمثل هذا الدور في ناحيتين :

الناحية الأولى : موقعها في الشعر والأدب .

الناحية الثانية : نشاط سكانها في مجال الحياة الاقتصادية من تجارة ورعي وصيد ، وغير ذلك من الحرف الأخرى .

أما موقع كاظمة في الشعر والأدب وأثرها في هذا الميدان فتحدث به ولا حرج ، إذ برزت في هذا المجال في الجاهلية كما برزت في الإسلام . ففي الجاهلية ذكرها أشهر شعراء تلك الفترة من تاريخ العرب وأشرفهم أصلاً وأرفعهم منزلة ومن هؤلاء الشعراء العظام امرؤ القيس المتوفى نحو عام ٥٤٠م(١٤٣) ، كما ذكرها وعاش على أرضها فترة من الوقت لا ندري أطالت أم قصرت ، ذلك الشاعر الجاهلي المسمى المرقش الأصغر ، واسمه ربيعة بن قيس بن سعد بن ضبيعة ، من بكر بن وائل التي كان يعيش منها بطون عديدة سبق ذكرها على أرض كاظمة . وهذا الشاعر هو ابن أخ المرقش الأكبر المتوفى عام ٥٥٢م . وكان المرقش الأصغر أطول من عمه هذا عمرًا ، وعاصر الفترة الأخيرة من حكم المنذر بن ماء السماء المتوفى عام ٥٥٤م ، وعاصر ابنيه عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩م) والنعمان الثالث بن المنذر (٥٨٠ - ٦١٣ م) . ويقول أبو الفرج الأصفهاني أن المرقش الأصغر " كان ترعية لا يفارق إبله " بمعنى أنه كان يجيد رعي الإبل ويرتاد المراعي الجيدة في كاظمة حيث يرعى فيها إبله ، ويعيش في ديارها(١٤٤) .

وفي هذه الديار وقعت لهذا الشاعر قصة حب رواها الأصفهاني في شيء من التفصيل(١٤٥) وقال : فيما قال إنها كانت بينه وبين ابنة عجلان التي كانت خادمة للأميرة فاطمة بنت المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ - ٥٥٤م) ملك الحيرة وصاحب يومي البؤس والنعيم الشهيرين ، والذي كان قد بنى قصرًا في كاظمة لابنته تلك وجعل عليه الحراس حتى لا يدخل عليها أحد .

ويمكن أن يستدل من هذه القصة أن كاظمة كانت في الجاهلية بوديانها وآبارها ومياهها وديارها وبيدائها مكانًا يهواه الشعراء والأدباء ، وكانت ملهمًا لهم وخاصة إذا حدث بين أحدهم وبين إحدى فتياتها قصة حب كهذه القصة ، أو غيرها من القصص التي وقعت على أرضها أو على أرض العرب الأخرى ، مثل قصة عنترة وعبلة أو قصة قيس وليلى(١٠١) .

وكاظمة بهذا المعنى كانت على تواصل ثقافي وفكري بالجزيرة العربية ، فعلى أرضها وقعت نفس الأحداث التي كانت تقع بهذه الجزيرة ، وبين أهلها تلحظ نفس العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت تعيشها الجزيرة ، مما انعكس أثره في الأدب والشعر الجاهلي سواء في كاظمة أم في باقي أنحاء الجزيرة العربية . وقد ازداد هذا الأثر في العصر الإسلامي ، وازداد عدا الشعراء الذين ذكروا كاظمة في شعرهم . ومن هؤلاء الشعراء ذلك الشاعر المعروف باسم الفرزدق المتوفى عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ والذي عاش فترة طويلة على أرض كاظمة ، وكان أكثر الشعراء تخليدًا لها في شعره . والفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة ، من دارم ، من تميم ، وكان كثير من بطون تميم وخاصة دارم تسكن كاظمة ونواحيها المختلفة وباديتها الواسعة كما سبق القول(١٠٢) .

ونظرًا لتفضيله سكنى كاظمة على هذا النحو على غيرها من البلاد ، عاب عليه غريمه جرير طول سكناه فيها بعيدًا عن حروب قومه من تميم ، وقال في ذلك شعرًا(١٠٣) .ولما سمع الفرزدق بهذا الشعر أجاب جريرًا مفتخرًا بإقامته في كاظمة حيث يرقد جثمان والده غالب الذي يفخر به وبقبره . وكان الفرزدق كثير الذكر لقبر أبيه في كاظمة(١٠٤) كما كان يفخر بقومه من دارم الذين كانوا يسكنون كاظمة(١٠٥) . كما كان يفخر بقومه من دارم الذين يسكنون كاظمة(١٠٦) وكان الفرزدق ينجد أي إنسان يلجأ إلى قبر والده الذي كان يحبه حبًا جمًا ويفخر به غاية الفخر(١٠٧) . وفي ذلك يقول(١٠٨) :

إذا عجز الأحياء أن يحملوا دمًا ... أتاني إلى أحداثنا كل غارم

تسري كل مظلوم إلينا فراوه ... ويهرب منا جهده كل ظالم

وهكذا كان وجود غالب أو قبره وابنه الفرزدق في كاظمة يجلب خيرًا وبركة عليها ، فقد أصبحت مؤئلاً لكثير من القصاد والمظلومين ، مما أدى إلى تواتر ذكرها في كتب الأدب وقصائد الشعراء الذين سكنوها فترة من الزمن ، أو كانوا يختلفون إليها ويعيشون فيها ثم يرحلون ثم يعودون(١٠٩) . وكان الفرزدق من الذين أطالوا السكنى فيها . وكان أول من خلدها في قصائده حبًا فيها وبرًا بوالده الذي عاش فيها وقبر بها ، وإحياء لذكرياته فيها(١١٠) فقد كان للفرزدق نفسه من الذكريات ما جعله يهفو إليها ويحن إلى سكناها عندما كان يغادرها ويكون بعيدًا(١١١) عنها.

وبمناسبة ذكر جرير ، فقد كان هو الآخر ، وهو من بني يربوع وتميم ، يحن إلى كاظمة ويتمنى لقاء أحبابه فيها ، مما يدل على أنه عاش فيها فترة من الوقت ، أو قربها على الأقل في يوم من الأيام(١١٢) . ذلك أنه عاش في البادية أيام معاوية ، ولعل هذه البيداء هي بادية كاظمة حيث أنه من تميم التي كانت تسكنها وما سكنت غيرها من البيد . هذا إلى أن بادية كاظمة كانت متصلة ببادية العراق وكانت أقرب بادية للبصرة ، وهي التي انتقل إليها جرير ليدفع عن قومه من بني يربوع هناك هجاء الفرزدق ، فاتصل بالحجاج بن يوسف الثقفي وبالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وصار لسان حالهما ولسان حال الخلفاء من بني أمية حتى وفاته بعد الفرزدق ببضع شهور في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك(١١٣) ولكنه رغم إقامته في البصرة إلا أنه - كما أشرنا - كان يحن إلى مسرح صباه ومرتع ذكرياته وأحبابه في كاظمة(١١٤) .

ومن الشعراء الذين أقاموا في كاظمة فترة من الزمن وكانت لهم أيضًا فيها أحداث وحوادث جعلتهم يخلدون اسمها في شعرهم ، شاعر يحيد هو ذو الرمة

المتوفى عام ١١٧هـ/٧٣٥ ، أى أنه كان معاصرًا للفرزدق وجرير . وذو الرمة هو غيلان بن عقبة بن نهيس ، من مضر مثل تميم التى ينتمى إليها الفرزدق وجرير ، بعكس ضبيان وبكر بن وائل فهم من ربيعة ، ولذلك كان التنافس بينهما شديدًا فى الجاهلية والإسلام(١٦٠) .

وقد عاش ذو الرمة فترة من الزمن فى كاظمة ، يدل على ذلك أنه كان يتشبب بمية (مىٌّ) بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى التميمى(١٦١) ، وابنة أخ طهياء بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى التميمى ، التى كانت تعيش مع أبيها طلبة فى السهبان من كاظمة ، مما يدل على أن (مية) كانت هى وأبيها وأسرتها يعيشون فى نفس المنطقة ، مما أعطى الفرصة لذى الرمة للتشبيب بها(١٦٢) .

وقد مر به الفرزدق ذات يوم فى كاظمة وهو ينشد أبياتًا فى حبيبته (مى) يقول فيها :

أمنزلتى مـــى ســـلام عليكما ... هل الأزمن اللاتى مضين رواجع(١٦٣)

إلى آخر ما قاله يتشبب بها دون أن تكون قد رأته . وكانت فتاة جميلة فاتنة ، وكان ذو الرمة دميمًا . ولما رأته قالت : " واسوأتاه " فغضب منها ، وقيل إنه هجاها فى شعر أنكره ذو الرمة نفسه وقال أنه مدخول عليه ، منه(١٦٤) .

على وجـه فى مسحة من ملاحه ... وتحت الثياب العار لو كان باديًا

ألم تـران الماء يخبـث طعمـه ... وإن كان دون الماء أبيض ناصعًا

فوا منيعة الشعر الـذى لج فانقضى ... بمى ولم أملك ضلال فؤاديًا

ونظرًا لإقامة ذى الرمة فى كاظمة وعشقه لهذه الفتاة التى كانت تسكن نفس المنطقة أكثر ورود كاظمة فى شعره ، كما ذكرها أيضًا فى شعر قاله أثناء اتخاذ طريقه منها إلى أبى موسى بلال بن بردة بن أبى موسى الأشعرى ، الذى كان يعيش فى اليمامة يمدحه ويصف المياق اللاتى حملنه إليه .

فأصبحـن يجعلن الحواظم يمنة ... وقد تلقت أجوازهن من الضفر(١٦٥)

فجئن علـى خوص كأن عيونهـا ... صبابات زيت فى أواقى من صفر(١٦٦)

ومما يدل أيضًا على أن ذا الرمة كان يعيش فى كاظمة ما رواه الضحاك بن بهلول الفقيمى إذ قال : " بينا أنا بكاظمة وذو الرمة ينشد قصيدته .... " .

إذا وأكبان قد تدلتا من نقب كاظمة منقنقعان ، توقفا يسمعان ، فلما فرغ ذو الرمة حسر الفرزدق عن وجهه وقال لراويته : " يا عبيد اضمم إليك هذه الأبيات " وعبيد هذا هو عبيد أحدبنى ربيعة بن حنظلة . فقال ذو الرمة : " نشدتك الله يا أبا فراس إن فعلت " فقال " أنا أحق بها منك " وانتحل الفرزدق هذه الأبيات الأربعة وهى موجودة فى ديوانه وفى ديوان ذى الرمة(١٦٧) .

واضطرد ذكر كاظمة عند الشعراء الذين عاشوا بعد ذلك فى القرون التالية: من هؤلاء الشعراء ،ذلك الشاعر المشهور الذى يعرف بالبحترى المتوفى عام ٢٨٤هـ / ٨٩٧م ، وبديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ، وسبط بن الجوزى النصارىذى (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) ومهيار الديلمى (ت ٤٢٨/ ١٠٣٧م) ، والبوصيرى (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٦م) . وهؤلاء الشعراء وغيرهم ذكروا كاظمة فى بعض أشعارهم ووصفوا صفاء سمائها ، وكثرة مائها ، وغنى مراعيها ، وذكرياتهم فى منازل أحبائهم فيها ، مما يدل على أنهم زاروها زيارة عابرة أو حلوا فيها أيامًا وخلفوا فيها من الذكريات ما جعلهم يتذكرونها فى أشعارهم على عادة العرب فى ذلك الحين .ومعنى ذلك أن بيئة كاظمة كانت موحية للشعراء كى يقولوا فيها شعرا ، سواء أولئك الذين كانوا من أهلها أو هؤلاء الذين أطالوا المكث فيها ثم غادروها لسبب أو لآخر أو الذين زاروها زيارة عابرة(١٦٨) فيا ترى ماهى مكونات هذه البيئة ؟ وما أثر هذه المكونات فى حضارة السكان المادية ، أقصد حرفهم التى اشتغلوا بها وجعلتهم يعمرونها ويعيشون فيها .

نشاط مكان كاظمة :

وهو نشاط قام على أساس مكونات البيئة وجهد أهلها .

أما المكونات البيئية : فمعروف أن منطقة كاظمة كانت تجمع بين البحر والجبل ، وبين الساحل والسهل والبادية ، وكل له طبيعته الخاصة وأثره في نشاط السكان ، خاصة إذا توافر الماء والمرعى . وإذا نظرت إلى خريطة كاظمة لأدركت على الفور أن البحر - أقصد مياه الخليج - كانت تحيط بها من الجهة الشرقية ، وتدخل المياه في جوف عميق مكونة خليجًا يسمى الآن خليج الكويت ، تقع عليه عدة مدن أهمها مدينة كاظمة في العصور القديمة والإسلامية ، ومدينة الكويت الآن بعد أن اندثرت المدينة الأولى . وتقع أمام هذا الخليج عدة جزر أهمها جزيرة فيلكا التي كانت مرفأ للسفن في العصور القديمة ، وكانت مهدًا لحضارة وجدت بقاياها على أرض هذه الجزيرة(١٦٩) .

وتقع شمال هذه الجزيرة جزيرة كبرى هي جزيرة بوبيان التي يفصل بينها وبين أرض كاظمة ممر ضيق يسمى ممر الصبية . ولا شك في أن هذا الساحل وهذا الممر وتلك الجزر هيأت الفرصة لرسو السفن في مرافئ تصلح لهذا الغرض ، ومن ثم صارت مدينة كاظمة التي كانت تقع على هذا الساحل وتطل على خليج مرفأ هامًا صالحًا لرسو السفن في الجاهلية والإسلام ، كما سبق القول في بداية هذه الدراسة ، وقد اتخذها أهلها ميناء انطلقوا منه إما للعمل بالتجارة أو لصيد اللؤلؤ والأسماك التي كانت متوفرة في مياه الخليج .

كذلك فإن التجار القادمين من بلاد الشام ومن البحرين أم من داخل الجزيرة العربية لا شك أنهم استفادوا من وجود مرفأ كاظمة في تسهيل نقل بضائعهم عبر مياه الخليج إلى ما يقع وراءه من بلاد . وبطبيعة الحال فإن هؤلاء التجار لابد أنهم اتخذوا الطريق البحري كي يصلوا إلى البحرين وقطر وعمان ، ومنها إلى مياه الهند حيث كان الطريق البري الذي يربط بين كاظمة وهذه البلدان

تغلب عليه الرمال ، وخاصة بين البحرين وعمان ، كما كان في هذه المنطقة بالذات غير مأمون بسبب تنازع القبائل العربية المحيطة بهذا الطريق في القرن الرابع الهجرة / العاشر للميلاد(١٧٠) . وكان هذا الطريق مستعملاً في الجاهلية عندما يتوافر الأمن اللازم لسير القوافل(١٧١) . وبعد ظهور الإسلام تحدث المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن هذا الطريق وقالوا أنه كان يمر عبر كاظمة والبحرين وقطر ثم إلى عمان ثم إلى مكة(١٧٢) .

وبجانب هذا الطريق البري كان هناك طريق بري آخر يبدأ من البصرة ويمر بكاظمة ، ومنها إلى مكة أو اليمامة . وكان هذا الطريق مألوفًا للحجاج والتجار القادمين من البصرة إلى هذه البلدان ، أو كانوا عائدين منها إلى كاظمة فالبصرة وما يقع شمالها من أقاليم(١٧٣) .

وقد وردت إشارات عديدة في المصادر التاريخية القديمة تذكر مرور التجارة والتجار والحجاج عبر كاظمة . من ذلك ما قاله بعض ضرب الجاهلية أن جوف كاظمة ملآن من حجاج وتجار(١٧٤) ، وما ورد من شعر لمهيار الديلمي يذكر فيه منازل أحبته ويذكر الأمن الذي كانت تنعم به اللطائم او العير التي كانت تحمل المسك وغيره من مواد التجارة ، ويشيد بكاظمة التي كانت حفية بهذه اللطائم وأصحابها من التجار ، وكانت غير ضنينة بتوفير سبل الراحة لهم(١٧٥) .

كذلك فإن ذا الرمة قال قصيدة ذكر فيها الطريق التي اتخذته الإبل التي حملته في طريقها من البصرة إلى اليمامة مارة بكاظمة إلى أبي موسى بلال بن بردة ابن أبي موسى الأشعري الذي قصده ذلك الشاعر ، فأخذ يصف العير وما لاقته من صعاب ، وما قابلته من جبال ووهاد ، مما سبقت الإشارة إليه .

ومعنى ذلك أن كاظمة كان يربطها بما يحيط بها من بلدان أربعة طرق تجارية ، أولها طريق بحري يبدأ من الأبلة والبصرة فكاظمة فالقطيف فقطر فعمان ، وكلها مرافئ تطل على الخليج العربي من شاطئه الغربي(١٧٦) . أما الطرق البرية

الثلاثة ، فهى الطريق البرى الساحل لشاطئ الخليج والذى سبقت الإشارة إليه على أنه طريق شاق وغير مأمون فى جزئه الذى يقع بين البحرين وعمان . ويبدأ هذا الطريق من البصرة إلى عبادان ثم جبل المقر بكاظمة ثم إلى كاظمة ، ومنه إلى ساحل هجر ثم إلى القطيف ثم إلى قطر فالسبخة ومنها إلى دبا وصحار من موانى عمان(١٧٧).

أما الطريق البرى الثانى وهو طريق المتكدر فيبدأ من البصرة ثم إلى كاظمة ثم إلى الوحيل ثم إلى الشجرة ويمر بالخرجاء والحفر وماوية وذات العشر والنباج وينتهى إلى مكة(١٧٨) . والطريق البرى الثالث يبدأ من البصرة أيضًا ومنها إلى كاظمة ثم إلى القرعاء ثم يمر بعدد من المنازل وينتهى إلى اليمامة(١٧٩) .

وعلى ذلك فإن طرقًا عديدة ربطت بين بكاظمة وما يليها من بلاد العراق والشام ، وكذلك بينها وبين البلاد التى تليها داخل شبه الجزيرة العربية سواء فى نواحيها الشرقية مثل بلاد البحرين وقطر واليمامة وعمان ، أم فى نواحيها الغربية مثل مكة والمدينة . ومعنى ذلك أن كاظمة كانت محطة تجارية هامة للقوافل التى كانت تمر بها ذاهبة أو آتية من هذه البلدان كل إلى الأخرى . فكاظمة على هذا المعنى ارتبطت برًا ببغداد وحلب فى الشمال ، وبلدان الجزيرة العربية فى الجنوب ، كما ربطت بحرًا بين البصرة فى الشمال وبين البلدان المطلة على الخليج سواء فى جانبه الشرقى أم الغربى ، وكذلك بما يقع وراء الخليج حيث المحيط الهندى وما يطل عليه من بلدان . وقد استمرت قوافل الجمال تعبر كاظمة فى الجاهلية والإسلام حتى العصر الحديث حيث نجد أقدم إشارة فى كتابات الأجانب تعبر عن هذا النشاط عند الدكتور إيفنز فى عام ١٧٥٨م(١٨٠) .

وكانت القوافل تقطع المسافة من كاظمة إلى حلب فى مدة تبلغ نحو سبعين يومًا ، وبلغ عدد إحدى هذه القوافل فى عام ١٧٥٨م حوالى خمسة آلاف جمل ، يحرسها ألف رجل . وكانت هذه القوافل سواء الذاهبة من كاظمة إلى بغداد وحلب أم المتجهة منها إلى البحرين واليمامة ومكة ، تكون عادة من تجار كانوا

يستأجرون عددًا من الجمال والحمير من شيوخ حملوا هذه القوافل وإعدادها مهنة لهم ، واعتادوا أن يصحبوها بأنفسهم أو بمن يكلفونهم بذلك حتى يسلموها إلى من يليهم من المشايخ الآخرين أو يصحبونها حتى نهاية مطافها ، وذلك مقابل مبلغ من المال متفق عليه سلفًا بينهم وبين أصحاب القافلة من التجار . وكان شيوخ القبائل يبذلون كل جهدهم من أجل المحافظة على انتظام سير القوافل دون أن يتعرضوا لها بسوء حتى يضمنوا الوفاء بتعهداتهم التى قطعوها على أنفسهم . كما أن هؤلاء الشيوخ كانوا حريصين تمامًا على اختيار الأدلاء والحراس وعلى تقديم الهدايا المناسبة لشيوخ القبائل الذين يمرون بهم على الطريق ، مما أدى إلى ازدياد وصول القوافل إلى كاظمة إلى حد كبير(١٨١) .

غير أنه يمكن القول أن نشاط كاظمة التجارى باعتبارها محطة لقوافل التجارة البرية والبحرية قد تأثر بالظروف السياسية التى مر بها الخليج العربى وخاصة عند الفتح الإسلامى للبلدان الواقعة على هذا الخليج . فقد ازدهر النشاط التجارى لهذه البلدان ومنها كاظمة بطبيعة الحال بعد تمام هذه الفتوحات ، وطوال عصر الخلافة الراشدة . ولكن انتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق فى العصر الأموى ألقى بظله على هذا النشاط ، فركد قليلاً لانصراف الأمويين إلى الفتوحات فى المشرق والمغرب ، وانقطاع القوافل التجارية عبر أراضى الخليج وسواحله ، بعد أن أصبح البحر المتوسط هو مركز النشاط التجارى للأمويين . ولكن هذا الركود لم يلبث أن انتهى بقيام الدولة العباسية واتخاذها بغداد عاصمة لها . فقد تدفق النشاط التجارى عبر مياه الخليج العربى مرة أخرى ، وانطلقت السفن التجارية من موانيه ومنها كاظمة تغزو بحر العرب والمحيط الهندى وبحر الزنج فى جرأة ونشاط كبير بين(١٨٢) .

ثم أن النشاط التجارى لم يكن النشاط الوحيد لأهل كاظمة ، بل كان لهم إلى جانب ذلك نشاط خاص بالرعى لاسيما رعى الإبل . وقد وفرت الطبيعة البيئة الملائمة لهذا النشاط منذ ما قبل الإسلام ، كما ذكرنا ، فإن بيئة كاظمة جمعت بين البحر والجبل والسهل والهضاب المرتفعة والصحراء المترامية الأطراف التى تربطها بصحارى العراق والشام والجزيرة العربية .

ففى السهول والأودية وعلى حواف الهضاب والمرتفعات مارس السكان النشاط الرعوى . ويعود هذا الأمر إلى توافر المياه اللازمة لهذا النشاط . وكانوا يحصلون على هذا الماء إما نتيجة لتساقط الأمطار أم من الآبار التى توافرت فى هذه البيئة الصحراوية . ولولا توافرها لما استطاع السكان المعيشة أصلاً فضلاً عن تغلبهم على لرتفاع درجة الحرارة فيها حتى قال أحد الشعراء فى ذلك فى شطر بيت من سفره أن " القيظ يقذف وجه الأرض بالشرر " (١٨٣) .

ورغم ذلك فقد جذبت كاظمة عددًا كبيرًا من القبائل والسكان ، بسبب ما كانت تحتويه من ماء كثير أشار إليه عدد من الجغرافيين والمؤرخين واللغويين ، منهم البكرى ، ومنهم ياقوت وابن منظور اللذين أشاروا إلى أن اسم كاظمة نفسه أخذ من اسم بئر عرف الموضع بها كما ذكروا أن كاظمة من الكظامه التى تعنى وجود قناة أو قنوات فى باطن الأرض يجرى فيها الماء ويفضى بعضها إلى بعض كأنها نهر ، وأن كاظمة بها مياه كثيرة وآبار معلومة وهى آبار تحفر ويباعد ما بينهما ، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة يجرى فيها الماء من القناة الأولى إلى التى تليها تحت الأرض ، وهكذا إلى بقية الآبار التى تتجمع مياهها على هذا النحو وتصبح مياها جارية ثم تخرج مياة آخر بئر إلى سطح الأرض كالنهر الدائم (١٨٤) .

ومعنى ذلك أن اسم كاظمة نفسه فيه كثير من الدلالة على وجود الماء كما أن فيها آبارًا كثيرة وقنوات تجرى تحت الأرض لا تلبث أن يخرج منها الماء الذى ينتفع به الناس .

وقد أكد هذا المعنى - أيضا كثرة وجود الماء فى منطقة كاظمة - ما ذكره أبو الفدا الذى توفى بعد ابن منظور بنحو عشرين عامًا ، فقال إن كاظمة بها " آبار كثيرة قرية المدا " (١٨٥) . يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال ما كان يتساقط من أمطار على كاظمة وأن كانت قليلة إلا أنها كانت مفيدة جدًا فى ظهور الكلأ والعشب والشجيرات القصيرة التى كانت تصلح لقيام حرفة الرعى . ولذلك فقد ذكر أبو الفدا أن فيها مراعى جيدة "(١٨٦) كما أشار بعض الشعراء إلى البرق الذى يسبق سقوط المطر فى العادة(١٨٧) .

ونظرًا لتوافر الماء قامت حرفة الرعى كما ذكرنا . وقد مارسها عرب كاظمة قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره . يدل على ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى قصة المرقش الأصغر الشاعر الجاهلى من أنه كان : " ترعية " . بمعنى أنه كان راعيا يرتاد المراعى الجيدة ويختار الأماكن الخصبة المعشبة ، ويتبع الأراضى التى يكثر فيها الماء . وقد وصفه بذلك فى معرض حادثة وقعت له وهو يرعى إبلاً له فى كاظمة . ولو لم تكن كاظمة مرعى جيدًا لما قدم إليها ، ولما ذكر الأصفهانى هذا الحديث(١٨٨) .

وفى عصر الرسول ﷺ كان سكان كاظمة يعملون فى هذه الحرفة أيضا ، ويدل على ذلك ما ذكره ابن قتيبة وياقوت البكرى من أن سعد بن إياس أبا عمرو الشيبانى قال " أذكر أنى سمعت برسول الله ﷺ وأنا أرعى أبلاً لأهلى بكاظمة "(١٨٩) وبطبيعة الحال استمر السكان يعملون فى هذه الحرفة التى كانت تكفل لمن يقيم منهم فى الصحراء الوسائل الضرورية للحياة من لحم ولبن وشعر تصنع منه الخيام والملابس وغير ذلك من وسائل الحياة . ولذلك ليس بغريب أن قال أحد المؤرخين أن كاظمة كانت " منازل للعرب "(١٩٠) بسبب هذا النشاط ، وبسبب ما تمتاز من نشاط تجارى لم يكن بالقليل . ولذا فضلها البعض عن سكنى أقاليم أخرى مجاورة . يصور ذلك ما قاله الفرزدق وغيره من شعر فى هذا المعنى(١٩١) .

وبجانب قيام حرفة رعى الإبل وتربيتها على المراعى الجبلية التى وجدت فى كاظمة على نحو ما ذكرنا قامت على هذه المراعى أو فى البيداء القريبة منها التى كانت تحتوى على بعض الشجيرات حرفة أخرى هى صيد الحيوانات البرية ، وخاصة حمر الوحش الأحدرية التى كانت توجد فيما بين العراق وكاظمة . وقد سميت باسم الأحدرية نسبة " إلى أحدر وهو فرس تبور (أى عاش فى البرية) وضرب فى الحمر الوحشية ، وقيل كان حمارًا "(١٩٢) وذكر الجاحظ أن سبب تسمية هذه الحمر بالأحدرية لأنها أصلاً كانت من نتاج الأحدر ، وهو فرس كان لأردشير بن بابك صار وحشيًا(١٩٣) .

المهم أن بعضًا من سكان كاظمة كان يقوم بصيد هذه الحمر الوحشية كما كانوا يصطادون أيضًا نوعًا من القطا وجد فى أقليم كاظمة ، ذكره امرؤ القيس وكأنه خاص بها حين قال(١٩٤) :

تطعنهم سلكى ومخلوجة ... لَفَتْيكَ لأمن على نابل

إذ هى أقساط كرجل الدبا ... أو كقطا كاظمة الناهل(١٩٥)

ومما يجدر ذكره أيضًا أن ماء الآبار الموجودة فى كاظمة كان ماء مستساغًا أو شروبًا كما قال ياقوت(١٩٦) ، أى أنه كان دون الحلو بقليل أو هو مالح فى بعضها كما قال البكرى(١٩٧) وهذه الخاصية جعلته "يصلح عليه الحديد"(١٩٨) ، وخاصة صناعة السيوف الدقيقة البتارة التى كان هذه الماء يصلح لصنعها على هذا النحو . ولذلك سميت السيوف الكاظمية ، ورد ذلك فى بيت للبعيث إذ قال(١٩٩) :

فأرسل مهوًا كاظميًا كأنه ... ذنوب عراك قعنه الترائر(٢٠٠)

والمهم هنا هو الرقيق من السيوف الكثير الصقل ، أى حاد النصل ولا ندرى أكانت هذه السيوف تصنع فى كاظمة ثم تسقى بمائها فترق ويشتد نصلها ؟ أم أنها كانت تصنع فى بلدان أخرى ويؤتى بها إلى كاظمة فتجرى عليها عملية الشحذ بتعريضها لماء كاظمة ؟

وهكذا شهدت كاظمة قيام حضارة ناهضة ليس فقط فى العصر الإسلامى ، ولكن منذ العصور القديمة ،وما كشفه الأثريون فى كاظمة وفى جزرها مثل فيلكة وغيرها من آثار لهو دليل على قيام الحضارة فى هذا المكان من بلدان الخليج العربى ، ودليل على أن كاظمة كان لها دور فى التاريخ منذ أقدم العصور(٢٠١) .

مصادر ومراجع البحث وهوامشه

(١) ابن الفقيه الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، وتحقيق محمد بن على الأكوع ، دار اليمامة الرياض سنة ١٩٧٤ ، ص٥٧ ، ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، بغداد سنة ١٨٨٩ ، ص١٥١ ، الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، القاهرة ، بدون تاريخ ، جـ١ ، ص١٦٢ ، ابن خلدون : تاريخه ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت سنة ١٩٦٦ ، مجلد٢ ، ص٨٨٨

(٢) سلوت : عرب الخليج فى ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية (١٦٠٢ - ١٧٨٤م) . ترجمة عايدة صورى ، أبو ظبى ، ط١ سنة ١٩٩٢ ، ص٤٦

(٣) تاريخ الطبرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ سنة١٩٩١ ، جـ١ سنة٣٩٩

(٤) ابن الفقيه الهمدانى : نفس المصدر ص٢١٧ تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ سنة١٩٨٤ ، ص٣٦

(٥) ابن الفقيه الهمدانى : نفس المصدر ص٥٧

(٦) المقصود بمدينة البحرين هنا مدينة هجر التى كانت قاعدتها أو عاصمة لها فى القديم ، وكانت تقع على ساحل البحر (الخليج) . انظر : ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربى ، الجزائر ط١ سنة ١٩٧٠، ص١١٨ ، ١٣١

(٧) ابن الفقيه الهمدانى : نفس المصدر ص٢٨٠

(٨) القالى : كتاب ذيل الأمالى والنوادر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٦٧ ، جـ٢ ص٨٧

* كاظمة جو : الجوهر منخفض من الأرض يتجمع فيه المطر أو يتسرب إليه فيبقى فى الأرض مدة طويلة .

(٩) ابن منظور : لسان العرب دار المعارف ، القاهرة بدون تاريخ جـ٥ ، ص١٨٨٧

(١٠) أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس سنة ١٨٤٠م ، ص٧٧ ، ٧٨

(١١) المصدر السابق ، ص٨٥ ، ٩٩

(١٢) أبو الفدا : نفس المصدر ، ص٦٥ ، ابن منظور : نفس المصدر ، جـ٥ ص٣٨٨٦ - ٣٨٨٨

(١٣) البكرى : معجم ما استعجم ، القاهرة سنة ١٩٤٩ ، جـ٣ ص٩١٤ ويذكر أن أنوشروان هو الذى بنى الخندق يعقوب يوسف نعيم : كاظمة فى الأدب والتاريخ ، القاهرة

سنة ١٩٨٥ ، ص٤٣ ، فاروق عمر : الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، دار العلم دبى ، ط١ سنة ١٩٨٣م ، ص٢٤

(١٤) القالى : نفس المصدر ، جـ٢ ص٨٧

(١٥) نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص١٦٢

(١٦) سلوت : نفس المرجع ص٤٦

(١٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص٦٠ ، ١٤٦ ، ١٥١

(١٨) الأصفهانى: الأغانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٢ ،ط١٣ ، ص٢٢

(١٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٤٤ ، جـ٤ ، ص٣٥٧ وقد جاء هذا البيت باختلاف قليل عند ابن خرداذبة حيث قال :

صبحن من كاظمة الخصّ القصب ... مع ابن عباس ابن عبد المطلب

انظر : المسالك والممالك ص١٥١

(٢٠) وادى الباطن هو وادى الرمة الذى كان يصب فى الخليج قديمًا وهو الآن وادى جاف ويمثل حدًا طبيعيًا لإقليم كاظمة الذى تشمله الآن دولة الكويت . وهناك خريطة فرنسية منشورة عام ١٦٥٤م محفوظة فى جامعة كمبردج تظهر عليها كاظمة وتبين مسار وادى الباطن وكيف يصل إلى شط العرب ليمثل حدودا طبيعية واضحة تكاد تتطابق مع الحدود السياسية القائمة الآن : انظر : كتاب الكويت فى خرائط العالم ، حقائق ووثائق ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ ، ص١٨ ، ٢٢

(٢١) لسان العرب ، جـ٥ ص٣٨٨٧ ، النقائض بين جرير الفرزدق ، جـ٢ ، ص٥٠

(٢٢) تاريخ ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، جـ٢ ، ص٣٨٥

(٢٣) تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت سنة ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص٨٨٨ ، جـ٣ ، ص١٠٦ النقائض .

(٢٤) يعقوب يوسف غنيم : نفس المرجع ، ص١٢ ، ١٤

(٢٥) معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ٤ ، ص٨٨

(٢٦) المسالك والممالك ، ص٦٠

(٢٧) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٥ ، ص١٧٥ ، ديوان الفرزدق دار صادر، بيروت ، سنة١٩٦٦ ، ص١٩٨ ديوان جرير ، القاهرة سنة ١٣١٣هـ ، جـ١ ، ص٣٨

(٢٨) ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٢٨٥

(٢٩) يعقوب غنيم : نفس المرجع ، ص١٩

(٣٠) فتوح الخزرج:نفس المرجع،ص١٣٧ ص٢٨،قدرى قلعجي: نفس المرجع، ص٢٩

(٣١) معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٠

(٣٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .

(٣٣) فتوح الخزرج : نفس المرجع ، ص١٣٧ ، هـ٢٨ ، يوسف غنيم ، ص١٥

(٣٤) ديوان جرير ، المطبعة العلمية ، القاهرة سنة١٣١٢هـ ، جـ١ ، ص٣٧ البكرى جـ ٣ ، ص٧٧١ ، ياقوت جـ٣ ، ص٢٩٤

(٣٥) معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٢٥ ، الهمدانى ، نفس المصدر ، ص٢٣٣

(٣٦) النقائض بين جرير والفرزدق ، تصحيح محمد إسماعيل الصاوى ، المكتبة الحسينية، القاهرة سنة ١٩٣٥ ، ص١١٠

(٣٧) البكرى : معجم ما استعجم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالنشر سنة ١٩٤٩ ، جـ٣ ، ص٧٤٠ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٥ ، ص٢٠٠

(٣٨) ياقوت : نفس المصدر جـ٣ ، ص٢٢٥ ، يوسف غنيم : نفس المرجع ، ص١٨

(٣٩) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٣ ص٢٩٠ ، أبو الفدا : نفس المصدر ص٢٠٩

(٤٠) أبو الفدا : نفس المصدر ، ص٢٠٩

(٤١) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٣ ، ص١٦ هـ٥، فاروق عمر: نفس المرجع ، ص٢٥

(٤٢) النباج : عيون تنبع بالماء فى قرى كثيرة بها نخيل وزروع . وهناك نباجان ، ونباج ينزل به حجاج البصرة على عشر مراحل منها على الطريق إلى مكة يقال له نباج بنى عامر . ونباج ثان لبكر بن وائل على مسيرة يومين من اليمامة فى الطريق منها إلى البصرة . وانظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢٩٦ ، ٢٩٧ ، الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص٢٨٠ ، البكرى جـ٤ ص١٢٩١ ، ١٩٢٢ .

(٤٣) قدرى قلعجي : نفس المرجع ، ص٢٤ ، الهمدانى : نفس المصدر ص٣٢١ .

(٤٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب . نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر ص٢١٧ ، ٢٢٠ ، ياقوت : نفس المصدر ، جـ٥ ، ص١٧٥ .

(٤٥) ابن حزم : نفس المصدر ، ص٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٤٦) القالى: نفس المصدر، جـ١، ص٨٧، النقائض بين جرير والفرزدق، جـ٢ص٢٨١

(٤٧) ابن حزم : نفس المصدر ، ص٢٦٣ ، جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، بدون تاريخ جـ١ ، ص٢٥٩ .

ويقول ياقوت (جـ٣ ، ص٣٠) أن الراعى رجل من بنى عمرو بن كلاب .

(٤٨) جمهرة أنساب العرب ، ص٢٢٤

(٤٩) ابن حزم: نفس المصدر، ص٣٠٢ ،البكرى:معجم ما استعجم،جـ٤ ، ص١١١

(٥٠) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩ ، شرح أحمد أمين ، جـ٥ ، ص٢٠١

(٥١) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٣ ، ص٤٢٢

(٥٢) ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٢ ، ط٦ ، ص٤٢٦ ، البكرى : معجم ما استعجم ، جـ٤ ، ص١١١٠

(٥٣) الجواليقى : شرح أدب الكاتب ، ص٣٧٠ ، يعقوب غنيم : نفس المرجع ، ص٤١ ، ٤٢

(٥٤) المصدر السابق جـ١ ص٨٨ ، ويوسف غنيم ، ص٣٥ ، ٤٠

(٥٥) ابن الكلبى : كتاب الأحكام ، تحقيق أحمد زكى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، والقاهرة ، سنة ١٩٢٤ ، ص٤٥ ، ١١١

(٥٦) ابن هشام : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٨٨ ، ٨٩

والخورنق : قصر بناه النعمان الأكبر ملك الحيرة لسابور كسرى فارس ليكون داره مشهورا . ومعنى السدير (بالفارسية) : بيت الملك .

انظر : ابن هشام : جـ١ ، ص١٨ هـ٤

(٥٧) أحمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى، القاهرة ط٢ ،سنة ١٩٥٢ ، ص٦٩

(٥٨) يوسف غنيم : نفس المرجع ، ص٣٩ هـ١

(٥٩) المرجع السابق ، ص٧٩

(٦٠) المرجع السابق ، ص٧٨

(٦١) المرجع السابق ، ص٧٦

(٦٢) المرجع السابق ، ص٢٩

(٦٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت سنة ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص٢٥٤ ، الطبري : تاريخه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ ، سنة ١٩٩١ ، جـ١ ، ص٤٠٠ ، ابن الأثير : جـ١ ، ص٣٩٢

(٦٤) الطبري : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٣٩٩ ، ابن الأثير : نفس المصدر، جـ١ ، ص٣٩٢ وأبر شهر هي نيسابور وأبرد شيوخره : من أعمال كور فارس وأكثرها تمتد على ساحل الخليج بها مدن كثيرة مثل شيراز ، وجور ، وسيراف ، وكازرون وغيرها . وانظر : ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٦٥ ، ١٤٦

(٦٥) الطبري : نفس المصدر ، جـ١ ص٤٠٠ ، ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ١ ص٣٩٢ ، ٣٩٣ ، أحمد الخوفي : نفس المرجع ، ص٥٨

(٦٦) ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٣٩٣

(٦٧) المسعودي : نفس المصدر ، جـ١ ، ص٢٦٠ ، ٢٦١

(٦٨) الطبري: نفس المصدر ، جـ١ ، ص٤٠٠ ، أحمد الخوفي : نفس المرجع ، ص٥٨

(٦٩) الأصفهاني : الأغاني ، جـ١٣ ص١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، الهمداني ص٣٢١ ، المفضليات جـ٢ ص١٧ وأن عمرق : هم ملوك الحيرة من لخم ، والخورنق : قصر بالحيرة ، السدير : قصر أو نهر بالحيرة بارق : ماء بالعراق . وسنداد : نهر أسفل الحيرة بينها وبين البصرة . وأنقرة : قيل إنها بلدة بالعراق ، وقيل أنقرة تركيا التي ذهب إليها بعض إياد تفي نفس المفرس لها . وكعب بن مامة : من أجواد العرب وأبوه (مامه) كان ملكًا على إياد . وابن أم دؤاد هو أبو دؤاد الإيادي الشاعر المشهور . انظر : المفضليات هـ٩ ص١٧ ، ويوسف غنيم : ص٢٠ هـ١ .

(٧٠) صفة جزيرة العرب ، ص٣١٩ .

وسواد العراق هي الأرض المزروعة منه وهي من الموصل حتى عبادان .

والأبلة : مدينة صغيرة على شاطئ دجلة جهة البصرة . وهيت : بلدة على الفرات في نواحي بغداد .

أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٣٠٤ ،يوسف غنيم، ص٤٠ جـ٢ ، فاروق عمر : ص٢٥

(٧١) الأصفهاني : نفس المصدر ، جـ١٣ ، ص١٨٩ ، ياقوت : نفس المصدر ، جـ٣، ص٤٢٢ ، جورجي زيدان : نفس المرجع ، جـ١ ص١٦٥

(٧٢) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٣ ص٤٢٢

(٧٣) الأصفهاني : نفس المصدر ، جـ ١٣ ، ص٢١ ، ٢٢

(٧٤) ابن عبد ربه : نفس المصدر ، جـ٥ ص٢٠١ ، البكري ، جـ٣ ص٧٤٠ ، معجم البلدان جـ٥ ص٦٠ ، ٢٩٩

(٧٥) النقائض بين جرير والفرزدق ، جـ١ ص١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ابن عبد ربه ، جـ٥ ص٢٠٢ ، ٢٠٣

(٧٦) ابن الأثير : جـ١ ص٥٥٢ ، محمد الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) جـ١ ، ص٢١ ، محمد أمين صالح : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، نهضة الشرق ، بدون تاريخ ، القاهرة ، ص١٢٤ ، ١٢٦

(٧٧) ابن حزم: ص٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ١ ص٥٥٢ ، ٥٥٣

(٧٨) ابن حزم : ص٣٧٦ ، ابن الأثير : جـ١ ص٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ياقوت جـ١ ص٢٧٣ ، ٢٧٤

(٧٩) محمد أمين صالح : نفس المرجع ، ص١١٦

(٨٠) أبو عبيدة معمر بن المثنى : كتاب النقائض ، جـ٢ ، ص١١١ ، النقائض جـ٢ ص١١٠ ، ١١١ ريوم أرونانى : شديد ، والقاقرة : إناء توضع فيه الخمر ، وهي كلمة نبطية انظر : يوسف غنيم ، ص١٨ هـ٢

(٨١) صفة جزيرة العرب ، ص٣١٧ ، صبح الأعشى ، وزارة الثقافة والأرشاد القومي، القاهرة بدون تاريخ ، جـ٥ ، ص٥٦

(٨٢) ابن هشام : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٥٧٦

(٨٣) المعارف ، ص٤٢٦، الطبري : ذيول تاريخ الطبري (المنتخب من كتاب ذيل المذيل)، دار المعارف ، ط١ ، بدون تاريخ ، ص٦٧٨ ، البكري : معجم ما استعجم ، جـ٤، ص١١١٠ .

(٨٤) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة جـ٥ سنة ١٩٨٥م ، جـ١ ص١٢٨ ، هـ٧ نفس الصفحة ، جـ٣ ص٣٠٢، جـ٤ ، ص٢٤ ، ٩٩ ، ابن قتيبة : المعارف ، ص٤٢٦

(٨٥) جمهرة أنساب العرب ، ص٢٣٤

(٨٦) الأصفهاني : مختارات الأغاني، جـ٨ ص٩٦، ٩٧ ،التعالبي جـ١ ص٢٥٠، ٢٥١

(٨٧) الواقدي : المغازي ، تحقيق د. مارسدن جونس ، نيويورك سنة ١٩٦٥، دار المعارف للقاهرة ، جـ٣ ، ص٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ابن هشام : مجلد ٢ ص٥٦١ ، ٥٦٧

(٨٨) ابن سعيد، الطبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ١ ص٣١٥

(٨٩) الطبري : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص٢٨٩

(٩٠) الكلاعي الأندلسي : الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا مخطوط نشره وحققه د. أحمد غنيم باسم حروب الردة ، القاهرة ط١ سنة١٩٧٩ ، ص١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، الغبري جـ٢ ، ص٢٨٦

(٩١) ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح ، صدر أباد ، الدكن للهند سنة١٩٦٨ ، جـ١ ص٤٧ ، الكلاعي الأندلسي : نفس المصدر ، ص١٦٥ ، ١٧٦

(٩٢) عن موقف بني تميم بالتفصيل ، انظر : رجب عبد الحليم : الردة في ضوء مفهوم جديد، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٨٥ ، ص٤٥ ، ٥١

(٩٣) ابن أعثم الكوفي : نفس المصدر ، جـ١ ص٢٠ ، ٢١

(٩٤) ابن هشام : نفس المصدر ، مجلد ٢ ص٥٦٢ ، الطبري : جـ٢ ص١٨٨ ، ١٨٩

(٩٥) البلاذري : فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٣ ، ص١٠٧ ، ١٠٨ ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، النهضة المصرية سنة ١٩٧٥ ، جـ١٩ ، ص٧٦ ، ٧٨ ، رجب عبد الحليم : الردة ص٤٥ ، ٥١

(٩٦) الطبري : نفس المصدر ، جـ٢ ص٢٦٩ ، ٢٠٨

(٩٧) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٥ ص٢٥٥

(٩٨) الطبري : نفس المصدر ، جـ٢ ، ص٢٦٩ ، ٢٧٠

(٩٩) فاروق عمر : نفس المرجع ، ص٤٨

(١٠٠) ابن حزم : نفس المصدر ، ص٣٠٥

(١٠١) المصدر السابق ، ص٣٠٤

(١٠٢) المسعودي: نفس المصدر: جـ١ ص٢٧٨ ، ابن حزم : نفس المصدر ، ص٣٠٤

(١٠٣) البلاذري : نفس المصدر ، ص٢٤٢ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٣٨٤ ، ٣٨٥ ، وسفان موضع قرب الكوفة . انظر ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٣٧٩

(١٠٤) يوسف غنيم : نفس المرجع ص٤٦ ، وتسكر بين الكوفة والبصرة . انظر معجم البلدان ص٤٦١ ، جـ٤

(١٠٥) محمد الخضري : الدولة الأموية ، جـ١ ص٣٢ ، أحمد الحوفي : ص٦٠ ، محمد أمين صالح : ص١١٤

(١٠٦) البلاذري : ص٢٤٢ ، الطبري : جـ٢ ص٣٠٩ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٣٨٥ ، ابن خلدون : جـ٢ ص٨٨٨ ، يوسف غنيم : ص٤٩ ، ٥٠

(١٠٧) تاريخ الطبري : جـ٢ ص٣٠٩

(١٠٨) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣٠٩ ، ٣١١ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ابن خلدون ، جـ٢ ص٨٨٨ ، ٨٨٩

(١٠٩) قدري قلعجي : نفس المرجع ، ص٢٧

(١١٠) يوسف غنيم : نفس المرجع ، ص٥١

(١١١) أنتاج : جمع بنج ، وهو وسط الشيء ، يقصد وسط الأرض التي دارت فيها المعركة . والنجاف : جمع نجفة ، وهي مرتفع بسيط في بطن الوادي والكواتف السوائر . فكأنه يقول : ومثلي بين المرتفعات التي تحجب ما وراءها .

انظر : يوسف غنيم : ص٥١

(١١٢) الثني : نهر وقعت فيه معركة بعد ذات السلاسل على يد المثنى بن حارثة الشيباني . وقارون بن قريانس : من قادة الفرس . وقرني قارن : قاذ وأنو شجعان اللذان خرجا مع قارن فقتلهما المسلمون . والجولوف : يراد بها هنا الجيوش .

انظر : يوسف غنيم ص٥١ ، هـ٢

(١١٣) الطبري : جـ٢ ص٣١١ ، ٣١٢ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٣٨٦ ، ٣٨٧ ، معجم البلدان جـ٥ ، ص٨٨

(١١٤) الطبري : جـ ٢ ص٣١٢ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٣٨٧

(١١٥) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٤ ن ص٢٣٤ ، ٢٣٥

(١١٦) البلاذري : نفس المصدر ، ص٢٤٤

(١١٧) فاروق عمر: نفس المرجع، ص٥٠، محمد الخضري: نفس المرجع،جـ١ ص١٩٩

(١١٨) البلاذري : نفس المصدر ، ص٢٥٠ ، ٢٥١

(١١٩) المصدر السابق ، ص٢٥١ ، ٢٥٢

(١٢٠) المصدر السابق ، ص٢٥٢ ، ٢٥٤ ، محمد الخضري : جـ١ ص٢٠١ ، وحسب عبد الحليم دراسات في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، دار النهضة العربية ، القاهرة سنة ١٩٨٠ ص٢٣٧ ، ٢٣٨ ، فاروق عمر : ص٥١ ، ٥٢

(١٢١) الطبري : نفس المصدر ، جـ٢ ص٨٢ ، محمد الخضري : جـ١ ص٢٠٣

(١٢٢) الطبري : جـ٢ ص٣٧٩ ، ابن الأثير : جـ٢ ص٤٤٨ ، ٤٤٩

(١٢٣) الطبري : جـ٢ ، ص٣٧٩ ، ٣٨٢ . ابن الأثير : جـ٢ ص٤٤٩

(١٢٤) محمد الخضري : جـ١ ص٢٠٣ ، ٢٠٤

(١٢٥) الطبري : نفس المصدر جـ٢ ، ص٢٨٥

(١٢٦) البلاذري : ص٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، وحسب عبد الحليم : دراسات في عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ص٢٣٧ ، ٢٣٨ ، محمد الخضري : جـ١ ص٢٠١ ، ٢١٠

(١٢٧) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ٢ سنة ١٩٦٤ ، جـ١ ص٢١٨

(١٢٨) البلاذري : ص٢٥٥ ، ٢٥٦ ، محمد الخضري : جـ١ ص٢٠٥

(١٢٩) الطبري : جـ٣ ص١٣ ، ١٤ ، ابن الأثير : جـ٣ ص٢١٠ ، ٢١١ ، سيف بن عمر الأسدي : الفتنة ووقعة الجمل ، دار النفائس ، بيروت ط١ سنة ١٩٨٦ ، ص١٢١

(١٣٠) الطبري : جـ٣ ص٣٥ ، سيف الأسدي : ص١٧٤

(١٣١) ابن حزم : ص٢١٩، نقائض جرير والفرزدق ، بيروت سنة ١٩٢٢، ص٢٠٢ حققين : أخت الفرزدق ، المسيدان جبل بكاظمة وراءها ، أعين : هو أعين بن عصمعصة أبو النوار زوجة الفرزدق وعمه . والرباب : امرأة من طهية وهي بنت للقاعث بن لقيط من قسوم الفرزدق كان يشبب بها غراب البين ، وهو رجل من مرة بن غطفان . انظر : نقائض جرير والأخطل ، ص٢٠٢

(١٣٢) ابن حزم : ص٢١٨ ، ٢١٩

(١٣٣) ابن الأثير : جـ٤ ص٢٠١ ، ٢٠٣ ، ابن الفقية الهمداني ، ص٢٨٠

(١٣٤) فاروق عمر : نفس المرجع ، ١٦٢ ، أحمد أبو حاكمة : نفس المرجع ، ص٩٢

(١٣٥) محمد جمال الدين سرور : النقوة الفاطمي في جزيرة العرب دار الفكر العربي القاهرة ط٤ سنة ١٩٦٤ ، ص٣٤ ، ٣٥

(١٣٦) أحمد أبو حاكمة : نفس المرجع ، ص٩٤

(١٣٧) صبح الأعشى ، جـ٥ ص٥٦

(١٣٨) الكويت في خرائط العالم ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط١ سنة ١٩٩٢ ، ص٥٤

(١٣٩) المرجع السابق ، ص٤٢ ، سلوت : ص٤٦

(١٤٠) المرجع السابق ، ص٥٢

(١٤١) القرين والكويت ما هما إلا تصغير لقرن وكوت . والقرن هو التل أو الأرض العالية . والكويت هو القلعة أو الحصن ، وهي كلمة يقال إنها هندية أو برتغالية بهذا المعنى . أو هي محرفة من كلمة " القوت " العربية حيث أن إطلاق كلمة القوت " على مخزن الأقوات مألوف في الحجاز العربي ، وإبدال القاف كاف شائع في بعض اللهجات . كما يلاحظ أن مؤرخي الجزيرة العربية يطلقون هذه التسمية وهي (كوت) وجمعها (أكوات) على الحصون المتعددة في المدن ذات القلاع والأسوار . وعندما أنشأ أحد شيوخ بني خالد كويت بالقرين قبل نهاية القرن ١٧م غلب اسم الكويت على الموضع فصارت البلدة كلها تعرف بالكويت بدلاً من القرين ، ثم حكمها آل الصباح من العتوب في النصف الأول من القرن ١٨م وصار اسمها مشهوراً منذ ذلك التاريخ . فكلمة الكويت ذات أصل عربي في الغالب ، انظر : قدري قلعجي : ص٣١ ، ٣٢

(١٤٢) سلوت : نفس المرجع ، ص٤٦ ، الكويت في خرائط العالم ، ص٤٨

(١٤٣) جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال ، بدون تاريخ ، جـ١ ص٩٣

(١٤٤) ابن حزم : نفس المصدر ، ص٣٠٠ ، الأغاني جـ٦ ، ص١٣٩

(١٤٥) عن قصة سلب الزرقش الأصغر لابنة المنذر بن ماء السماء في كاظمة ، انظر : الأصفهاني : الأغاني ، جـ٦ ، ص١٣٦ ، ١٣٨

(١٤٦) المفضليات ، جـ٢ ص٤٧ ، ٤٨

العقار : الخمر . والفرقف : الخمر التي تصيب صاحبها بغصة . نشق : من النشيش وهو صوت عند الغليان . والرذوم : السائل .

انظر ، يعقوب غنيم : ص٣٨ ، هـ٣

(١٤٧) ديوان الفرزدق جـ٢ ، ص٣٠٧ ، ديوان جرير ، المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣م ، جـ٢ ص١٣١ ، النقائض : جـ٢ ، ص٥٠

اليو : ولد الناقة ، الراتم : العاطفة على ولدها .

(١٤٨) ديوان جرير ، جـ٢ ، ص١٣٨

(١٤٩) ديوان الفرزدق ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص٣١٤

(١٥٠) شرح ديوان الفرزدق مطبعة الصاوى ، القاهرة النشاط ١ سنة ١٩٣٦ ، جـ١ ص٢٠٢ ، ٢٠٣

(١٥١) أبو سعيد : هو زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم . والذى منع الوالدات : جده صعصعه بن ناجية . وناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع . والأقرعان : الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال . وقبر بكاظمة : يقصد به قبر أبيه غالب . وأشار فى البيت الأخير إلى الاستغاثة بهذا القبر . انظر : شرح ديوان الفرزدق جـ١ ، ص٢٠٢ ، ٢٠٣ يعقوب غنيم : ص٦٨ هـ١

(١٥٢) النقائض بين جرير والفرزدق ، جـ١ ص٢٠٢ ، ٢٠٤ ، جـ٢ ص٨٦

(١٥٣) ديوان الفرزدق جـ٢ ص٣١٤ ، النقائض ، جـ٢ ص٨٨ ، ٨٩

(١٥٤) النقائض جـ٢ ، ص٨٧ ، الأصفهانى : مختار الأغانى ، جـ٨ ص١٥٦ ، ١٥٧

(١٥٥) المصدر السابق ، جـ٨ ص١٥٧ ، النقائض ، جـ٢ ص٨٨ ، ديوان الفرزدق جـ٢ ص١٩٧

(١٥٦) النقائض بين جرير والفرزدق ، جـ٢ ص٢٢٣

(١٥٧) ديوان جرير ، جـ٢ ص٨٦ ، النقائض جـ١ ص٢٠٩ ، جـ٢ ص١٨٥ ، ٢٨٢

(١٥٨) جورجى زيدان : نفس المرجع ، جـ١ ص٢٥١ - ٢٥٢

(١٥٩) ديوان جرير ، جـ١ ص١٥ . وملحوب : قرية باليمامة . انظر يعقوب غنيم ص٦٠ هـ٣

(١٦٠) جورجى زيدان : نفس المرجع ، جـ١ ص٢٩٥

(١٦١) ابن حزم : نفس المصدر ص٢٠٦ ، يعقوب غنيم : ص٦١

(١٦٢) ديوان شرح ذى الرمة ، طبعة كمبردج سنة ١٩١٩م ، ص٣٨

(١٦٣) المصدر السابق ، ص٣٨٢

(١٦٤) الأصفهانى : الأغانى ، جـ١٨ ص٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، جورجى زيدان : نفس المرجع جـ١ ، ص٢٩٥

(١٦٥) ديوان شرح ذى الرمة ، ص٢٦٧

قلقت : حالت . أحوازهن : أوساطهن . الضفر : حبال تضفر من جلود يقال : حالت أوساط الإبل والخبان تهزض . انظر يعقوب غنيم ص٦٣ هـ٧

(١٦٦) خوص غائرات العيون : معنى الإبل ، الواحدة خوصاء . عصابات ما بقى من الزيت أسفل الإناء . ويعنى الشاعر بذلك أن عيونها غائرات فكأنها أواقى من صفر فى أسفلها بقية الزيت . والأواقى : آنية

انظر : يعقوب غنيم : ص٦٤ هـ٨

(١٦٧) الأصفهانى : الأغانى ، جـ١٨ ص١٧

(١٦٨) يعقوب غنيم : نفس المرجع ، ص٣٣ ، ٥٤

(١٦٩) انظر : الخريطة الموقفة ، أحمد أبو حاكمة ، ص٩

(١٧٠) الأصطخرى : مسالك الممالك ، لندن ، سنة ١٩٦٧ ، ص٢٦ ، ٢٨ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت سنة ١٩٧٩م ، ص٤٥ ، ٤٧

(١٧١) أبو إسحاق الحربى : مناسك الحج ، تحقيق حمد الجاسر تحت عنوان " كتاب مناسك الحج وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة " ، اليمامة الرياض ، ط٢ سنة ١٩٨١ ، ص٥٧٢ ، ٥٧٤

(١٧٢) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص٦٠ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ابن قدامة ، ص١٩٢ ، ١٩٣ ، القلقشندى : جـ٥ ص٩٧

(١٧٣) يعقوب غنيم : نفس المرجع ، ص٣١

(١٧٤) الأصفهانى : نفس المصدر ، جـ١٣ ص٢٢

(١٧٥) يعقوب غنيم : نفس المرجع ، ص٥٧

(١٧٦) أبو الفدا : نفس المرجع ، ص٨٥ ، ٩٩

(١٧٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص٦٠

(١٧٨) المصدر السابق ، ص١٤٦ ، ١٤٧ ، ياقوت : جـ٤ ص٤٨٨

وقد أشار البكرى (معجم ما استعجم جـ٤ ص٦) إلى هذا الطريق فقال إنه يخرج من البصرة فيسير إلى كاظمة ثلاث وهى طريق لمن أراد مكة ثم يسير منها إلى الدنو ثلاث ، إلى الصمان ثلاث ، وينتهى بهالمسير إلى مكة .

(١٧٩) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص١٥١

(١٨٠) أحمد أبو حاكمة : نفس المرجع ، ص٢٧٥

(١٨١) المرجع السابق ، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩

(١٨٢) فلرى فلعجى : نفس المرجع ، ص٣٠

(١٨٣) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٤ ص٤٨٩

(١٨٤) المصدر السابق ، جـ٤ ص٤٨٩ ، البكرى : معجم ما استعجم ، جـ٤ ص١١٠٩ لسان العرب لابن منظور ، جـ٥ ص٣٨٨٧ ، ٣٨٨٨

يبدو أن أمر هذه القنوات التى يجرى فيها إلى تحت الأرض كان شائعًا فى أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية . ففى الحديث أن النبى ﷺ أتى كظامة قوم فتوضأ منها ومسح على خفيه.

انظر : لسان العرب لابن منظور ، جـ٧ ، ص٣٨٨٧

كما كانت ولا زالت هذه القنوات موجودة أيضًا فى سلطنة عمان حيث تعرف هناك باسم الأفلاج .

(١٨٥) تقويم البلدان ، ص٨٥

(١٨٦) المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٨٧) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٤ ص٤٨٩

(١٨٨) الأغانى ، جـ٦ ص١٣٦

(١٨٩) ابن قتيبة : المعارف، ص٤٢٦ ، ياقوت : جـ٤ ص٤٨٨ ، ٤٨٩ هـ١ البكرى: جـ٤ ص١١١٠

(١٩٠) أبو الفدا : نفس المصدر ص٨٥

(١٩١) ابن منظور : نفس المصدر جـ٥ ص٣٨٨٧ ، ٣٨٨٨

(١٩٢) الجواليقى : شرح أدب الكاتب، مكتبة القدس بالأزهر القاهرة سنة ١٣٥٠هـ، ص٢٦٠ ، ٢٦١

(١٩٣) الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، جـ١ ص١٣٩

(١٩٤) ابن منظور ، نفس المصدر جـ٥ ص٣٨٨٧ . الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ، دار المعارف ط٤ ، جـ٢ ص١٢٩ ، البكرى : معجم ما استعجم ، جـ٤ ص١١٠٩ بكفاء الوجه .

(١٩٥) معنى البيتين : سلكى : طعنة مستقيمة / والخلوجة : إذا كانت غير مستقيمة، اللفت : الرد . ولأمين : متنى لأم ، وهو النبال الذى يلائم ريشه بعضه ببعض . والنابل : الرامى بالنبال ، وأقساط : قطع وريد الخيل جمع قسط : الدبار : الجراد قبل أن يطير ، ووحاله جماعته ، والناهل : المعطشان .

والشاعر فى هذين البيتين يقول أن الطعن فى أعدائه يذهب فيهم ويرجع كما ترد سهمان على رام يرمى بهما . كما أنه شبه الخيل التى يهاجمهم بها فى سرعتها برحل من الدبا أو بقطاش تطلب الماء فهى لا تألو طيرانا .

انظر : الأصمعيات : جـ٢ هـ١ ص١٢٩ ، هـ٢ ص١٣٠

(١٩٦) معجم البلدان ، جـ٤ ص٤٨٩

(١٩٧) معجم ما استعجم ، جـ٤ ص١١١٠

(١٩٨) المصدر السابق ، جـ٤ ، ص١١١٠

(١٩٩) المصدر السابق ، جـ٣ ص١١١٠ وقد وردت كلمة " فأرسل سهوًا " صححها يعقوب غنيم .

(٢٠٠) معنى البيت : أنه أرسل سيفًا أو رمحًا قد سقى ماء كاظمة حتى صلح ورق وشحذ نصله ، ثم شبه الشاعر إرساله كأنه ذنوب أى دلو كبير اختلف عليه السقاة واحدركوا ، فسقط منهم فى البئر بعد أن كان قد امتلأ ورقموه . انظر : البكرى ، جـ٤ هـ٢ ص١١١٠ ، يعقوب غنيم : ص١١ هـ٣

(٢٠١) أحمد ابو حاكمة : نفس المرجع ، ص٨٦ - ٩٠

الحياة فى هرمز فى العصور الوسطى

أ.د. ليلى عبد الجواد*

يحتل اسم هرمز فى تاريخ العصور الوسطى مكانة كبيرة بوصفها المركز الرئيسى لتجارة الخليج فى تلك العصور(١) .

ففى القرن الرابع عشر للميلاد ، وهو القرن الثامن الهجرى ، مر الرحالة ابن بطوطة أثناء رحلته بين مدينتين تحملان اسم هرمز ، وحدد موقع كل منهما بالنسبة للخليج فذكر " هرمز القديمة تقع على ساحل البحر ، وتسمى أيضًا موغ أستان ، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة ، وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ(٢) .

وكان أن تأسست فى هرمز القديمة مملكة عربية على يد الشاه محمد وهو قائد عربى يعنى عبر الخليج ، وأسس لنفسه مملكة على ساحل كرمان ، واتخذ من هرمز - الواقعة على ساحل الخليج - عاصمة له . وضرب الشاه محمد عملة باسمه ، لذلك لقب " محمد دوهم " ، ولكن لا يعرف بالتحديد التاريخ الذى اسس فيه الشاه محمد هذه المملكة(٣) .

وارتبط تاريخ مملكة هرمز القديمة السياسى بتاريخ كرمان ، لذلك ما أن وقعت كرمان فى أيدى علاء الدين خوارزم شاه (٦١١هـ/١٢١٤م) حتى آلت هرمز بدورها إلى أيدى الخوارزمية ، فيذكر ابن الأثير فى حوادث عام ٦١١هـ - بعد حديثه عن وقوع كرمان فى أيدى الخوارزميين " وسار أبو بكر والى زوزن - وكان تابعًا لخوارزم - إلى هرمز ، فأطاعه صاحبها واسمه ملشك ، وخطب بها لخوارزم شاه ، وحمل منها مالاً ، وخطب له بقلهات(٤) وبعض عمان ، لأن أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز"(٥) ويتضح من عبارة ابن الأثير أن هرمز

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب - جامعة القاهرة .

كانت تتبعها قلهات وعددمن المدن العمانية ، وأن هذه المدن خضعت للخوارزمية بخضوع هرمز .

وعندما احتاج المغول الدولة الخوارزمية البلد تلو الآخر ، واستولوا على قلاعهم واحدة بعد أخرى(٦) ، نجت كرمان من أيديهم ، إذ تمكن براق الحاجب القراخطائي(٧) صاحب السلطان محمد خوارزم شاه (٥٩٦-٦١٧هـ/١٢٢٠م) من أن يؤسس لنفسه أتابكية فيها عام (٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، مستفيدا من الفوضى التي أعقبت غزو جنكيزخان للشرق الإسلامي فرصة للاستقلال(٨) ، خاصة وإنه كان يحكم كرمان كنائب عن غياث الدين بيرشاه بن محمد الخوارزمي(٩) .

وقد أظهر براق الحاجب ولاءه للسلطان جلال الدين منكبرتي بعد نجاحه في احياء الدولة الخوارزمية - وقدم إليه ما استطاع أن يحمله من هدايا . ولكي يؤكد ولاءه للسلطان عرض عليه إحدى بناته فتزوجها جلال الدين(١٠) . وهكذا ظلت أتابكية كرمان - التي تتبعها هرمز - خاضعة للخوارزمية إذ كان براق يحكمها بوصفه نائبًا عن جلال الدين منكبرتي(١١) . ولكن هرمز نجحت في عهد خليفة براق الحاجب وهو ركن الدين مبارك خواجه بن براق (٦٣٢-٦٥٠هـ/١٢٣٤-١٢٥٢م) ١٢٤٩م في الاستقلال بنفسها عن أتابكية كرمان في عام ٦٤٧هـ وذلك على يد أميرها ركن الدين محمد بن أحمد (٦٤٠-٦٧٦هـ/١٢٤٢-١٢٧٧م)(١٢) لكن هذا الاستقلال كان اسميًا إذ ظل حاكم هرمز يعترف بالتبعية لحكام كرمان ويدفع لهم الجزية . ويذكر ماركو بولو عن هرمز التي زارها في القرن الثالث عشر للميلاد: " واسم حاكمها ركندين انشر ماك(١٣) وهو يحكم حكمًا مطلقًا ، ولكنه يعترف في الحين نفسه بسيادة حاكم كرمان عليه ويدين له بالولاء "(١٤) كذلك يذكر ماركو بولو في موضع آخر " أن ملك هرمز كانت تربطه ارتباطات معينة مع حاكم كرمان ، كما أنه من أتباعه .. فرض عليه دفع مبالغ غير عادية "(١٥) .

على أن مملكة هرمز بلغت درجة كبيرة من القوة - رغم خضوعها الاسمي لأمراء كرمان - وضمت بلادًا وقلاعًا . ويؤكد ذلك ماركو بولو بقوله " ولـه (يقصد ملك هرمز) كثير من المدن والقلاع الخاضعة لسلطانه "(١٦) . ومن أشهر هذه المدن عمان إذ جاء في المصادر العمانية أن عمان امتنعت في عهد الملك النبهاني أبي المعالي كهلان بن بنهان عن دفع الخراج للملك هرمز ، فقام ملكها ويدعى محمود بن أحمد الكوشي(١٧) بهجوم على عمان ٦٦٠هـ/١٢٦١م ، ونجح في الاستيلاء على قلهات - عاصمة النبهانيين - واستدعى ملك هرمز أبا المعالي كهلان ، وطلب منه المنافع من عمان وخراج أهلها ، فاعتذر أبو المعالي وقال : " اني لا أملك من عمان إلا بلدة واحدة "(١٨) . وأشار عليه ملك هرمز محمد الكوشي بأن يأخذ قوة من جيشه ليجبر بها من لم يدفع الخراج من أهل عمان على دفعه ولكن دون جدوى(١٩) .

وكان أن قرر ملك هرمز مهاجمة عمان مستعينًا ببالبدو العمانيين ، بعد أن أغدق عليهم عطاياه وهداياه ، فهاجم ظفار أولاً وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا ، وسلب منها مالاً جزيلاً ، ثم رحل قاصدًا عمان عن طريق البر ولكنه ضل الطريق وهلك ومعظم رجاله من الجوع والعطش(٢٠) .

ورغم ما تعرضت له هذه الحملة العسكرية - التي قادها ملك هرمز لمهاجمة عمان من نكبات إلا أن هجمات هرمز استمرت على عمان والمدن التابعة لها ، حتى خضع عدد منها لسيطرة ملك هرمز . ويذكر ماركو بولو عند حديثه عن مدينة قلهات (قلاياتي) : " ... والناس هنا من أتباع شريعة محمد ، كما أنهم خاضعون لسيادة ملك هرمز "(٢١) ونظرًا لموقع قلهات الممتاز فقد اتخذ منها ملوك هرمز عاصمة ثانية لمملكتهم ، وكانوا يلجأون إليها فرارًا من عدو تغلب عليهم في عاصمتهم الأولى ، أو للتنزه والاستجمام . وذلك لموقعها الحصين بين الجبال الشديدة الوعورة(٢٢) ويؤكد ذلك ما ذكره ماركو بولو من أن ملك هرمز كان يلجأ عندما تهاجمه وتضيق عليه الخناق دولة أخرى إلى الاحتماء بهذه المدينة

(قلهات) "(٢٣) ويذكر ماركو بولو في موضع آخر أنه حينما يشتد الخلاف بين ملك هرمز وبين حاكم كرمان ، ويأبى أن يدفع له الجزية ، فإنه يهاجمه " وهنا ينتقل ملك هرمز إلى قلهات ويتخذها مركزًا ، ومنها يصبح بامكانه منع أية سفينة من الدخول أو الإقلاع ، وتتعطل التجارة ولا تجبى ملك كرمان رسومها مما يلحق به ضررًا .. ويضطر لتسوية نزاعه مع ملك هرمز "(٢٤) .

ورغم ما بلغته هرمز القديمة من إتساع ونفوذ وسلطان إلا أن أهلها ما لبثوا أن هجروها ، في أوائل القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر للميلاد . وقد اختلفت الآراء حول أسباب مغادرتهم لمدينتهم ، ومنها أن هرمز تعرضت لهجمات التتار ، فيذكر أبو الفدا " أن هرمز العتيقة خربت من أغارات التتر "(٢٥) . هذا في حين يروى المؤرخ البرتغالي دي باروس أن الذي خرب هرمز ودمرها كان أحد الأمراء الذين يحكمون في كرمان ، فحاكم كرمان الذي اعتاد ملك هرمز أن يدفع له الجزية ، سير جيشًا إلى هرمز ، وأرغم ملكها على التخلي عن مدينته ، واللجوء إلى جزيرة جيرون ، التي أسس بها مدينته الجديدة(٢٦) . وهناك من يرى أنه لمجة عصابات من قطاع الطرق تعرف باسم الكاراوناه أو الكرلونيين Karaonnahs وهي قبيلة كانت تقطن شرق فارس أغارت على هرمز وهددت أمن سكانها وكانت هذه القبيلة على استعداد دائم للإغارة على الأقاليم المجاورة التي تمتاز بطبيعة أفضل(٢٧) .

أما فيما يتعلق بالرأي الأول فيذكر التاريخ أنه لأسباب مناخية أعرض المغول عن منطقة جنوب فارس ، مما أدى إلى احتفاظ عدة أسر فارسية باستقلالها ، منها أسرة براق الحاجب - التي حكمت كرمان (٦١٩-٧٠٣هـ/١٢٢٢-١٣٠٣م) وجزر الخليج الفارسي وقاعدتها هرمز . وكانت تدفع الجزية للمغول نقدًا أو عينا(٢٨) ، وعلى هذا فلم يؤثر المغول في ساحل كرمان تأثيرًا بالغًا ، ولم تدمر هرمز نتيجة لإغاراتهم عليها .

وأما الرأي الثاني فربما يكون أقرب إلى الصواب لأن هرمز كانت تتبع أمراء كرمان ، ويدين ملكها لهم بالطاعة والولاء ويدفع لهم الجزية ، وأحيانًا كثيرة كان

يمتنع عن الدفع مستغلاً موقع جزيرته المنيع ، وتحكمه في حركة التجارة بالخليج وفي السلع الواردة من الشرق والغرب ؛ مما كان يجبر حاكم كرمان على مهاجمته وإرغامه على ترك جزيرته واللجوء إلى مكان آخر ، واعتمد العدو في ذلك على تفوقه العددي بالنسبة لهرمز وأهلها .

وأما الرأي الثالث الخاص بمهاجمة قطاع الطرق للمدينة فهو جائز ، خاصة وأن ماركو بولو تحدث عن قطاع الطرق هؤلاء ، وأطلق عليهم اسم الكروانيين ومعناها الهجناء أو المختلطون ، فهم خليط من التتار والنساء الهنديات . وذكر أيضًا أن هؤلاء يمارسون السلب والنهب .. في كل إقليم يضعون فيه أقدامهم .. وفي أغلب الأحيان تكون هذه الناحية مسرحًا لعملياتهم . ونظرًا لأن قطاع الطرق هؤلاء خليط من التتار والنساء الهنديات فقد اختلط الأمر على أبي الفدا وذكر أن هرمز ضربت بيد التتار . وسواء كانت هجرة سكان هرمز لجزيرتهم بسبب مهاجمة قطاع الطرق من التتار الكروانيين أو بسبب هجوم حاكم كرمان ، فالذي يعنينا هو أن هرمز القديمة دمرت وتركها أهلها وانتقلوا إلى هرمز الجديدة .

ولا يوجد تاريخ محدد لانتقال سكان هرمز إلى جزيرتهم الجديدة ، فيحدد تورانشاه تاريخ الهجرة بعام ٧٠١هـ/١٣٠٠-١٣٠١م وذلك في عهد ملك هرمز بهاء الدين سيفين ، ويتفق معه تاريخ وصاف - الذي يتوقف عند عام ٧١١هـ/١٣١١م - ويقرر إن تدمير هرمز القديمة حدث عام ١٣٠٠م كذلك(٢٩) . أما حمد الله مستوفي القزويني (ت ٧٤٠هـ/١٣٤٠م) وهو مؤرخ جدير بالثقة أيضًا فيذكر أن تأسيس هرمز الجديدة تم في عهد معاصره وهو الأمير قطب الدين الذي بدأ حكمه في عام ١٣١٩م(٣٠)

ويمكن ترجيح رواية تورانشاه التي يؤيده فيها تاريخ وصاف ، والتي تجعل هجرة أهل هرمز إلى جزيرتهم الجديدة قبل تولي قطب الدين بتسع عشرة سنة وذلك استنادًا إلى ما يلي :

أولاً : إن تورانشاه كان يعرف الخبر الصحيح عن قطب الدين فهو أبوه وسلفه .

ثانيًا : أن تورانشاه ملوخ معاصر ، ويحتل مكانة مرموقة فى هرمز ، ويمكن بحكم هذا أن يعرف أكثر مما يعرفه أى أحبنى حتى ولو عاش هذا الأحبنى قبله .

ثالثًا : إن أبا الفدا - الذى فرغ من كتابه ٧٢١هـ/١٣٢١م يتحدث بناء على شهود عيان - عن بناء هرمز الجديدة فيقول : " أخبرنى من رأها فى زماننا هذا .. أن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة فى البحر تسمى زرون .. ولم يبق بهرمز العتيقة إلا قليل من أطراف الناس "(٣١)

على أية حال انتقل سكان هرمز إلى جزيرتهم الجديدة ، التى تطلق عليها المصادر العربية اسم " جيرون "(٣٢) وزرون(٣٣) ، ووضعوا أساس مدينتهم الجديدة ، وأطلقوا عليها اسم بلدهم الأول ، فصارت هى الأخرى هرمز التى قدر لها أن تحرز شهرة أعظم بكثير من سابقتها(٣٤) .

ذلك أن هرمز الجديدة بلغت أقصى إتساع لها فى عهد ملكها قطب الدين ابن تورانشاه ، وقد زار ابن بطوطة هرمز فى تلك الفترة ، فوصف ذلك الملك، بقوله: " وهو من كرماء السلاطين ، كثير التواضع ، حسن الأخلاق ، وعادته أن يأتى لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بواجبه "(٣٥) . أما عن هيئة ملك هرمز فيذكر ابن بطوطة " وهو شيخ عليه اقبية ضيقة دنسة، وعلى رأسه عمامة، وهو مشدود الوسط بمنديل .. وفى يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها"(٣٦) .

وكان لملك هرمز هيئة تعاونه فى الحكم وإدارة شئون المملكة وتتألف من عدد من الوزراء والقضاة وأرباب الدولة ، كما كان هناك كبير للوزراء ، دخل ابن بطوطة بصحبته إلى حضرة سلطان أو ملك هرمز ، ويدعى شمس الدين محمد بن على . أما قاضى هرمز حينئذ فكان يدعى عماد الدين الشو تكارى(٣٧) .

ومن مظاهر اتساع نفوذ هرمز الجديدة، وقوتها أنها استطاعت فى عهد ملكها قطب الدين أن تفرض سلطانها على جزيرة كيش المنافس القديم لها(٣٨) ،

مما مكنها من فرض سيادتها البحرية على بعض نواحى ساحل عمان ومدنه وخاصة مدينة قلهات - التى كانت تتبع هرمز بالقديمة من قبل - . ويذكر الرحالة ابن بطوطة فى معرض حديثه عن أهل قلهات : " وأكثرهم خوارج ولكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تهمتن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة "(٣٩) .

واتخذ قطب الدين من قلهات حصنًا يحتمى به إذا تعرض لثورة داخلية أو هاجمه عدو من الخارج . وأكد ابن بطوطة ذلك بقوله " وعندما اشتد الصراع بين قطب الدين ملك هرمز وأخيه نظام الدين ، انسحب قطب الدين إلى قلهات - وهى من جملة بلاده - وأقام فيها شهورًا يعد العدة لاستعادة الجزيرة "(٤٠) .

ولم تكن قلهات وحدها التى خضعت لملك هرمز بل خضع لنفوذه عدد من المدن العمانية ، عددها ابن بطوطة فى قوله : " ومن مدن عمان مدينة زكى ... والقريات ، وشبا ، وكلبا وخور فكان ، وصحار .. وأكثر هذه البلاد فى عمالة هرمز "(٤١) .

ويعلق السالمى على ما ذكره ابن بطوطة فيقول " لعل بعض ساحل عمان كان فى أيام قدوم ابن بطوطة تحت سلطان هرموز ، لأن ملوك عمان كانوا يومئذ النباهنة ، وهم جبابرة عمان ، والظلم لم تبن عليه دار "(٤٢) وبذلك ارجع السالمى خضوع مدن عمان لملك هرمز إلى أن بنى نبهان كانوا جبابرة ظالمين ، وأكد فى ذات الوقت تبعية عدد من مدن ساحل عمان لملك هرمز .

ورغم إتساع نفوذ مملكة هرمز الجديدة إلا أنها دانت بالتبعية لكرمان ، شأنها شأن هرمز القديمة ، فبعد انتهاء حكم أسرة براق الحاجب لكرمان ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م خضعت كرمان لآل المظفر(٤٣) ، وخضعت لهم مملكة هرمز بدورها . ومن أشهر حكام آل المظفر الذين دانت لهم مملكة هرمز بالتبعية مبارز الدين بن المظفر (٧٢٣-٧٦٠هـ/١٣٢٣-١٣٥٨م) وشاه شجاع (٧٦٠-٧٨٦هـ/١٣٥٨

-١٣٨٤م) وشاه منصور (٧٩٠-٧٩٤هـ) (١٣٨٨-١٣٩١م) . وقد دخل الأخير فى صراع مرير مع تيمورلنك ، انتهى بخضوعه عام (٧٩٣هـ/١٣٩١م)(٤٤) يذكر ابن أياس فى حوادث هذه السنة " وفى ذى الحجة جاءت الأخبار أن تمرلنك - ملك أصفهان وشيراز - قتل شاه منصور متملك هرمز "(٤٥) . ونتيجة لهذا ألت كرمان وهرمز إلى تيمورلنك ثم من بعده لابنه شاه رخ(٤٦) (٨٠٧-٨٥٠هـ/ ١٤٠٤ - ١٤٤٦م) .

وخلال تبعية هرمز لشاه رخ ارتبطت بعلاقات مع دولة المماليك الجراكسة، فيذكر القلقشندى " فى سنة ثلاث عشر وثمانمائة كتب إلى صاحبها عن السلطان فرج بن برقوق مفاتحة فى مقطع "(٤٧) . واتسعت كذلك ممتلكات هرمز ، إذ أضاف ملكها قطب الدين فيروز إلى ممتلكاته كلاً من البحرين والحساء والقطيف فيذكر المقريزى فى حوادث عام (٨٣٩هـ / ١٤٣٥م) " وفيها مات قطب الدين فيروز شاه .. ملك هرمز والبحرين والحساء والقطيف "(٤٨) .

أما عن عمان فقد خرجت عن طاعة ملك هرمز ، مما دفعه إلى القيام بغزوها . ففى عام (٨٨٦هـ / ١٤٦١م) قام تيوران شاه بن لقمة ملك هرمز بغزو عمان على رأس جيش ضخم يربو على عشرين ألف مقاتل ، بينهم ألف فارس . وقد التف أهل عمان حول ملك هرمز وأعانوه على هزيمة الملك النبهانى سليمان بن المظفر ، مما يظهر كراهية أهل عمان لحكمه ورغبتهم فى الخلاص من طغيانه(٤٩) . وبعد انتصار ملك هرمز على النبهانيين ، استولى على عمان ، واتخذ من بهلى مقرهم مقامًا لجنوده ، وأمر عليهم غسان بن كليب الذى كان مستشارًا خاصًا لسليمان بن المظفر وأقرب المقربين إليه . أما الملك النبهانى سليمان فقد فر إلى الأحساء هو وأتباعه(٥٠) .

وظل عدد من المدن العمانية تابعًا لمملكة هرمز حتى وصول البرتغاليين ؛ إذ يعدد الرحالة البرتغالى دوراتى بربوزا Duarte Barbosa - الذى زار هرمز ١٥١٨م -

هذه المدن فيذكر منها قلهات والقريات ومسقط وصحار(٥١) . وقد حاول البرتغاليون السيطرة على هذه المدن كخطوة أولى للسيطرة على هرمز وعرقلة النشاط الملاحى العربى المتجه إلى الشرق . لذلك هاجم الأسطول البرتغالى بقيادة البوكيرك(٥٢) قلهات سهلاً فى عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) وعندئذ أظهر حاكم قلهات استعداده للتسليم حتى يجنب مدينته ويلات الحرب وسفك الدماء ، ولكنه ناشد البوكيرك بأن يتجه أولاً إلى هرمز للاتفاق مع ملكها لأن المدينة تتبعه . وقبل البوكيرك مقترحات حاكم قلهات ، وترك المدينة ، بعد أن تعهد بضمان أمنها وسلامتها من اعتداءات السفن البرتغالية الأخرى(٥٣) .

واتجه البوكيرك بعد ذلك نحو مسقط الميناء الرئيسى لمملكة هرمز ، كما يذكر البوكيرك نفسه(٥٤) وما أن وصل إليها حتى قام بعملية استطلاع لمعرفة التحصينات العمانية المنتشرة على الساحل ؛ واكتشف أن العمانيين قد أقاموا المتاريس والاستحكامات حول المدينة ، كما وضعوا داخلها بعض المدافع(٥٥) . وقد طلب القائد البرتغالى من أهل مسقط أن يدفعوا له جزية سنوية وأن يزودوا أسطوله بالمياه والمؤن استعدادًا للعمليات التى كان ينوى القيام بها ضد هرمز . وكان أن تم تزويد الأسطول البرتغالى بالمؤن على الفور ؛ ولكن سرعان ما تلقت مسقط امدادات عسكرية مما جعلها تحاول التصدى للقائد البرتغالى(٥٦) .

لذلك أصدر البوكيرك أوامره بشن الهجوم على مسقط . وقام الجيش البرتغالى بعمليات الذبح والقتل والسلب وانتهاك الحرمات والاحراق والتدمير والتخريب الذى امتد إلى جامع المدينة . وهكذا خضعت مسقط للبرتغاليين ، وأصبحت تتبع ملكهم وتدفع لهم الضرائب التى كانت تدفعها لملك هرمز(٥٧) .

وبعد أن غادر الأسطول البرتغالى مسقط رسا على شاطئ مدينة صحار ، وهناك تسلم البوكيدك رسالة من حاكم المدينة يؤكد له فيها أن المدينة تابعة لملك هرمز ، واستعداد المدينة لمواجهته . ولكن ما لبث حاكم صحار أن أعلن استعداده

للخضوع والتسليم ، وخاصة بعد أن هدده البوكيرك بقصف الحامية وتخريب المدينة، فضلاً عن أن حاكم صحار لم يتلق المساعدة العسكرية التي كان قد وعده بها ملك هرمز . ويبدو أن الاستعدادات التي شاهدها حاكم صحار على سفن الأسطول البرتغالي أفزعته وأصابته بالذهول(٥٨) .أما عن هرمز – الهدف الرئيسي لحملة البوكيرك – فقد قام البرتغاليون بعدة محاولات للنيل منها ، وكانت أولى هذه المحاولات في عام (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) إذ جاء في قلادة النحر " ظهرت في هذه السنة مراكب الفرنج (أي البرتغاليين) في البحر بطريق الهند وهرمز ، وأخذوا نحو سبعة مراكب ، وقتلوا أهلها وأسروا بعضهم "(٥٩) وإذا كانت هذه المحاولة الأولى قد فشلت في الاستيلاء على هرمز فإن المحاولة الثانية ، التي قام بها البوكيرك في عام (٩١٢هـ/١٥٠٦م) قدر لها النجاح جاء في قلادة النحر : " وفي هذه السنة قويت شوكة الفرنج (يقصد البرتغاليين) ، وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم في ناحية الهند وهرمز ... "(٦٠) . ويذكر بالخرمة أيضًا في قلادة النحر في حوادث عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م) " وفي هذه السنة استولت الفرنج على هرمز ، وأمنوا من بها من المسلمين من التجار وغيرهم ، وبنوا بها حصارًا(٦١) ، وشرطوا على صاحبها قطعة معلومة في كل سنة من العشر والمغاص وغير ذلك "(٦٢) .

وبعد أن استولى البوكيرك على هرمز بنى فيها قلعة محكمة يحيط بها خندق(٦٣) ، يذكر الشيخ زين الدين المليباري " أنهم استولوا بحكمتهم واجتماع آرائهم على كثير من البلدان فبنوا القلعة في هرمز ..."(٦٤) . وهكذا خضعت هرمز والمدن التابعة لها لسلطان البرتغاليين .

الحياة الاجتماعية في هرمز في العصور الوسطى :

نستطيع التعرف على الحياة الاجتماعية لأهل هرمز من خلال ما ذكره الرحالة الذين قاموا بزيارتها ، ومن أشهرهم الرحالة الإيطالي ماركو بولو (القرن

١٣م) ، والرحالة العربي ابن بطوطة (القرن ١٤م) والرحالة الفارسي عبد الرازق السمرقندي (القرن ١٥م) والرحالة البرتغالي باربوزا (القرن ١٦م) .

اتصف أهل هرمز ببعض الصفات الجسمانية منها السمرة ، فيذكر ماركو بولو " أن سكان هرمز ذوي بشرة قاتمة"(٦٥) ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى الحرارة الشديدة التي هي من سمات ذلك الإقليم أما باربوزا فيقول " أنهم طوال ، حسني المظهر رجالاً كانوا أم نساء "(٦٦) . وعن صفاتهم الخلقية يقول عبد الرازق السمرقندي إن " سكان هرمز وأهلها يجمعون بين أدب ولطف أهل العراق وبين ذكاء ومكر وحذق الهنود "(٦٧) . وقد تمتع أهل هرمز بحس مرهف يبدو في ولعهم بالموسيقى ، وفي ذلك يقول الرحالة باربوزا " إن لأهل هرمز ولع بالموسيقى.. ولهم آلات موسيقية مختلفة الأنواع ومنهم الموسيقيون "(٦٨) .

وطعام أهل هرمز الرئيسي هو التمر والسمك . ويؤكد ذلك ماركو بولو إذ يقول" يعيشون بصفة رئيسية على التمر والسمك المملح مثل سمك التونة والسيبول وغير ذلك من أنواع الأسماك،ويعرفون بالتجربة أنها صحية"(٦٩) كذلك يذكر ابن بطوطة أن"طعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان "(٧٠) .

ويكون الأرز غذاء أساسيًا إلى جانب السمك ، خاصة وأنه لا يوجد عندهم قمح ، ولم يقبل أهل هرمز في البداية على أكل لحم الحيوان لاعتقادهم أنه يضر بصحتهم ، على قول ماركو بولو(٧١) في القرن الثالث عشر للميلاد . ولكن سرعان ما تغير الحال ، فقد لاحظ باربوزا عندما زار هرمز في أوائل القرن السادس عشر أن أهلها يقبلون على أكل اللحوم وقال " واللحم يباع إما مطبوخًا أو مسلوقًا أو مشويًا ، وفي آنية نظيفة ، وأسعاره ليست مرتفعة لدرجة أن عددًا من الناس لا يعدون الطعام في منازلهم ولكن يتناولونه في الأسواق "(٧٢) .

كذلك لاحظ باربوزا أن هرمز تمتعت بتوافر كافة أنواع الأطعمة والمأكولات حتى العزيز منها والنادر ، وذلك لأن كل شئ – كما يذكر – كان

يأتى إليها من الخارج بحكم موقعها المتميز(٧٣) . كذلك لاحظ بيرزا أن فاكهة هرمز لم تعد قاصرة على التمر بل إلى جانب التمر أصبحوا يكثرون أكل ألوان الفاكهة الطازجة كالمشمش والتين والرمان واللوز والأعناب والبطيخ(٧٤) . وطبيعى أن يكون لماء الشرب قيمة كبيرة فى جزيرة قاحلة مثل هرمز، لقلته وصعوبة الحصول عليه . ويصف أن بطوطة الطريقة التى كان يتم بها احضار المياه إلى هذه الجزيرة ، والمشقة التى يتكبدها أهلها فى سبيل الحصول عليه فيقول: " وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر ، وهى على بعد من المدينة، ويأتى إليها بالقرب ، ويأتون بها إلى المدينة "(٧٥) . وحتى يتيسر على أهل الجزيرة الحصول على الماء ، كانت الجمال الحاملة بمياه الشرب معدة فى الساحات العامة لمن يحتاج إليها(٧٦) واستخدم أهل هرمز عدة طرق لتبريد الماء كما يذكر بربوزا(٧٧) كما أنهم كانوا يخلطون ماء الشرب بقليل من المصطلكى(٧٨).

أما عن مشروب أهل هرمز المفضل فكانوا يصنعونه من نقيع البلح فيذكر ماركو بولو " ومن البلح وبعض العناصر الأخرى كانوا يصنعون نوعًا جيدًا من النبيذ "(٧٩) .

وقد ذكر ماركو بولو أن طريقة إعداد هذا المشروب تكون بتجهيز التمر الناضج ، ونقعه فى الماء الساخن حتى يحدث له تخمر سكرى(٨٠) " ، ويذكر ماركو بولو أيضًا " ورغم جودته فمتى شربه من لم يعتد شربه أحدث له إسهالاً، فإذا شفى من آثاره الأولى عاد عليه بالمنفعة ، وأدى إلى زيادة وزنه "(٨١).

أما عن نبيذ العنب فقد تناوله قلة من أهل هرمز ، وهم يشربونه فى السر لأن الدين الإسلامى يحرمه(٨٢) .

واعتنى أهل هرمز بملابسهم ، فالاغنياء منهم كانوا يرتدون القمصان القطنية البيضاء الرقيقة ، وهى طويلة جدًا ويرتدون تحتها سراويل قطنية أيضًا مع الحرص على الاحتفاظ بها نظيفة كما يذكر بربوزا(٨٣) . وكان بعض الأغنياء يرتدون مع

البيض القمصان الأقبية الحريرية ويتمنطقون بأحزمة مزركشة بالذهب(٨٤) . أما الفقراء وخاصة من العجم فكانوا يرتدون الكمر وهو رداء يلف الصدر من اليمين إلى اليسار(٨٥) ويذكر بن بطوطة أثناء زيارته لهرمز أنه التقى بشيخ صالح ، هو أبو الحسن الاقصاراني ، فاستضافه الشيخ وألبسه ثوبًا وأعطاه كمر الصحبة".. ثم يتابع ابن بطوطة فيقول : " وأكثر فقراء العجم يتقلدونه "(٨٦) .

أما عن مساكن أهل هرمز فقد تطورت مع مرور الوقت . ففى البداية كانت مساكن هرمز القديمة تبنى من الطين وفقًا لما ذكره كل من الأصطخرى والمقدسى " وبناؤهم من طين "(٨٧) . ولما إتسع حجم المدينة كثرت مبانيها وهو ما عبر عنه الإدريسى بقوله "مدينة هرمز مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة"(٨٨).

وقد استطاع أهل هرمز الجديدة أن يكيفوا حياتهم مع بيئتهم الحارة ، فجعلوا أبنيتهم مرتفعة ، لها أسطح وعدد من النوافذ . وبنوها بحكمة بحيث تجعل الرياح تتجه من أعلى إلى أسفل اتقاء لحرارة الجو ، وذلك حسبما ذكر الرحالة بربوزا(٨٩) . كذلك وضعوا على الأسطح أغطية كتانية – أشبه بالمظلات– لكى تقيهم حر الشمس الشديد(٩٠) .

وقد نجح أهل هرمز فى التغلب على حرارة جوهم ، بأن زودوا بيوتهم بمراوح يدخلون الهواء بواسطتها إلى مختلف الطوابق ، بل وإلى كل وحدة من وحدات المبنى حسب الرغبة (ولعلها أشبه بالتكييف المركزى فى عصرنا الحالى) ويصف ماركو بولو هذه المراوح بقوله : " وهى عبارة عن أنابيب مثبتة فى الحيطان ومفتوحة لهواء أبرد قليلاً "(٩١) ويعلق ماركو بولو على ذلك بقوله " ولولا هذه الوسيلة ما أمكن العيش بتلك المنطقة "(٩٢) ومما لا شك فيه أن هذه طريقة مبتكرة فى ذلك العصر – لإدخال الهواء المنعش إلى الطوابق السفلية فى البيوت .

والواقع أن منازل أهل هرمز من الداخل كانت أشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف ، وقطع أثاث ، مستوردة من الهند والصين ، فضلاً من السجاد

الفارسى الفاخر ، والقناديل المصرية ذات النقوش الشرقية البديعة ، والزهور والنباتات العطرية(٩٣) .

واعتاد أهل هرمز وخاصة الأثرياء منهم الخروج إلى الشواطئ خلال فصل الصيف للاصطياف والترويح عن النفس والتسلية . فيذكر ماركو بولو " أن السكان لا يقيمون بمدينة هرمز أثناء فصل الصيف، ولكنهم ينسحبون إلى بساتينهم الواقعة على امتداد الشاطئ أو على ضفاف النهر ، حيث يصنعون لأنفسهم من أعواد الصفصاف أكواخًا وأعصاصًا ثم يحيطون هذه الأكواخ بأعواد تدفع في الماء من جانب إلى آخر على الشاطئ ، مكونين بذلك عريشة من أوراق الشجر تقيهم قيظ الشمس "(٩٤).

وقد وصف ماركو بولو أيضًا بعض السلوكيات الاجتماعية والعادات والتقاليد في هرمز ، فقال فيما يتعلق بحالة الوفاة : " عند وفاة ذوى المكانة من الرجال ، تنوح عليهم نساؤهم معولات بصوت مرتفع مرة واحدة كل يوم ، ولمدة أربعة أسابيع متعاقبة "(٩٥) . وكان من بين أهل هرمز من عمل بحرفة الندابة ، فيذكر ماركو بولو " أن هناك أيضًا أناس يوجدون هنا ، يتخذون من ذلك الندب حرفة ، ويوجدون ... فرق حيث أشخاص لا يعتون لهم بصلة "(٩٦) .

أما عن الحياة الدينية في هرمز فإن أهلها مسلمون بالإجماع قال عنهم ماركو بولو" أن السكان مسلمون يعتنقون جميعًا عقيدة محمد"كما ذكر في موضع آخر"وديانتهم الإسلام"(٩٧).وكان يتوسط مدينة هرمز مسجد جامع على نحو ما يذكر الأصطخرى (٩٨) وحدد المقدسي مكان هذا المسجد بأنه" كان داخل السوق" (٩٩) .

والمذهب الذى اعتنقه أهل هرمز ، هو مذهب الإمام الشافعي . ويوضح المقدسي ذلك بقوله أن المذاهب الغالبة في هذه المدينة للإمام الشافعي(١٠٠) .

ومع أن الإسلام كان الدين السائد في هرمز إلا أن عبد الرازق السمرقندى يشير إلى أنه " ويوجد بهذه المدينة عدد من أتباع الديانات المختلفة ، يؤدى كل

منهم طقوسه بما فيهم الوثنيين ، دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر ، ويعيش الجميع في أمن وسلام ، ويتمتعون بحرية العقيدة ، لذلك يطلق الناس على هذه المدينة اسم " دار الأمان "(١٠١) . وتظهر عبارة السمرقندى مدى التسامح الديني الذى تمتعت به الأقليات من أصحاب الديانات الأخرى الذين عاشوا في هرمز . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تدل ظاهرة وجود بعض الديانات الأخرى في هذه المدينة على أنها غدت مدينة عالمية الطابع .

الحياة الاقتصادية في هرمز في العصور الوسطى :

تنوع النشاط الاقتصادى فى هرمز فى العصور الوسطى ما بين زراعة وصناعة وتجارة . أما عن الزراعة فقد تيسرت لأهل هرمز القديمة نظرًا لتوافر المياه العذبة لديهم . وقد عدد لنا الجغرافيون والرحالة أنواع المحاصيل التى كانت تزرع في هرمز القديمة فذكر الأصطخرى " وبلدهم كثير النخل ، والغالب على زرعهم الذرة ... ويتخذ بها الفانيذ(١٠٢) وقصب السكر ..."(١٠٣) فى حين قال الإدريسى " ويزرع بنواحيها الكمون الكثير ، والنيلج(١٠٤) الذى إليه المنتهى فى الطيب المضروب به المثل ، ويتجهز به منها إلى كل الآفاق "(١٠٥) كذلك ذكر الإدريسى فى موضع آخر " والشعير هو أكثر زراعاتهم وجل حبوبهم"(١٠٦) .

وقد تحدث الرحالة ماركو بولو عن أنواع أخرى من المحاصيل يقوم أهل هرمز بزراعتها فقال : " وهم يزرعون قمحهم وارزهم وغيرهما من الحبوب فى شهر نوفمبر ، ويحصدون محصولهم فى مارس "(١٠٧) .

أما عن هرمز الجديدة فلم تتوافر فيها عوامل قيام الزراعة إذ كانت تعانى من قلة الماء ، فضلاً عن الحرارة الشديدة التى تحرق كل شئ . وقد عبر الرحالة الأوربيون الذين زاروا هرمز خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن هذه الحقيقة فقال الرحالة ادوريك Odoric " ليس بهرمز أشجار ، وليس بها ماء عذب"(١٠٨) . وذكر رحالة آخر " هي أجف جزيرة فى العالم ... لا يوجد بها ماء أو خشب أو أطعمه ، كل الضروريات تأتي إليها من فارس "(١٠٩) .

وإذا كانت الزراعة قد ندرت أو انعدمت فى هرمز الجديدة فقد توافرت بها جبال الملح وهو الملح الدارانى الذى تقوم عليه صناعة أوانى الزينة والمنارات التى يضعون عليها السرج (أى حاملات المصابيح) ، على قول ابن بطوطة(١١٠).

وامتازت تلال الملح الصخرى بهرمز بأنها ناصعة البياض . وكان أهل هرمز يتداولون الملح فيما بينهم وفى الأسواق ، مثله فى ذلك العملة النقدية ، وذلك لكثرته ببلادهم(١١١) . وإلى جانب الملح كانت تربة هرمز تربة حمراء غنية بالمعادن الأخرى وخاصة الكبريت مما ضاعف من مكانة هرمز الاقتصادية(١١٢) .

والواقع أن النشاط الاقتصادى فى هرمز ارتبط بصناعة من أهم الصناعات وهى صناعة السفن وقد تحدث ماركوبولو عن سفن هرمز ، فذكر " أن السفن التى تبنى فى هرمز من أرداأ الأنواع ، كما أنها ضارة بالملاحة وتعرض التجار لأخطار جسيمة "(١١٣) وقد أرجع ماركو بولو رداءة سفن هرمز إلى عدم استخدام المسامير فى بنائها ، وشدة صلابة الخشب المستخدم فى بنائها ، وتعرضه للانشقاق والتصدع(١١٤) .

ويعلق جورج حوارنى على تفسير ماركو بولو فيقول " ولكن هذا التفسير لا يصدق عامة ، حتى إذا صدق على تلك السفن خاصة ، فقد رأينا أن خشب الساج على الأقل طيع إلى حد بالغ ، هذا إلى أن استعمال الحديد منذ زمن طويل فى جميع تلك الأرجاء يدحض هذا السبب "(١١٥) .

ومن الواضح أن ماركو بولو لم يحدد نوع الخشب الذى استخدمه أهل هرمز فى بناء سفنهم مكتفيًا بوصفة أنه خشب شديد الصلابة ، وهذا الوصف لا ينطبق على خشب الساج الذى ذكر فضلو حوارنى أنه طيع إلى حد بالغ . ولعلهم استخدموا خشب النخيل فى صناعة سفنهم وهو متوفر فى بلدهم ؛ وقد ذكر عنه حوارنى " أنه غير صالح عامة لبناء السفن "(١١٦) . أما فيما يتعلق بعدم استخدام المسامير فى بناء سفن هرمز فهذا أمر غير مستبعد لأن الخياطة استعملت

أولاً مع خشب النخيل فى الخليج الفارسى ، وهرمز إحدى جزره . وقد ذكر حوارنى نفسه أسباب استخدام الخياطة بدلاً من المسامير فى صناعة السفن فى هذه المنطقة(١١٧) .

وقد فصل ماركو بولو الطريقة التى يتم بها بناء السفن فى هرمز فقال : "تثقب الألواح بكل عناية ممكنة بمثقاب حديدى قرب حوافها ، وتدق فيها دبابيس أو أوتاد خشبية ، وبهذه الطريقة تثبت الألواح فى مقدمة السفينة أو مؤخرتها.. ثم ترتبط الألواح معًا أو بمعنى أدق تخاط معًا ، بنوع من الخيل المفتول، يؤخذ من ليف جوز الهند "(١١٨) . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة طلاء السفينة ، وكانت المادة المستخدمة فى طلاء قاع السفينة عبارة عن زيت من شحم السمك، ولا يستخدم القار(١١٩) . وبعد أن يكتمل هيكل السفينة يوضع عليها الصارى والدفة . يقول ماركو بولو : " أن سفن هرمز ليس لها أكثر من ساوية واحدة ، ودفة واحدة ، وسطح واحد "(١٢٠) كذلك ذكر ماركو بولو " وليس لديهم مراسى حديدية ، ولكن يستخدم بدلاً منها نوع آخر من أجهزة الرباط الأرضية ، ويرجع ذلك إلى أنه نتيجةلسوء الأحوال الجوية تندفع السفن إلى الشاطئ وتتحطم"(١٢١).

النشاط التجارى فى هرمز فى العصور الوسطى :

إذا كان ضوء الزراعة والصناعة قد خفت فى هرمز فقد أضاء النشاط التجارى أرجاءها ، إذ كانت هرمز القديمة تقع على ساحل الخليج وتتصل به عن طريق قناة . ووصف الأصطخرى ذلك بقوله " أن خليجًا من بحر فارس يخترق إلى هرموز يسمى الجور فتصل فيه السفن من البحر(١٢٢) وأكد ذلك الإدريسى فقال " مدينة هرمز على خليج يسمى الجير ، يخرج من بحر فارس ، فتدخل فيه السفن من البحر إلى المدينة "(١٢٣) .

وبحكم هذا الموقع أصبحت هرمز القديمة سوق كرمان ، وملتقى تجارها وميناءها الرئيسى . وهذا أمر طبيعى لأن هرمز كانت تتبع كرمان سياسيًا ، وكان محمد بن أرسلان ملك كرمان يحصل الضرائب من تجارتها .

يقول ابن حوقل في ذلك " وكان بها عدة من التجار ذوى اليسار ، ومن جملتهم رجل يعرف بحسن بن العباس ، له مراكب تسافر إلى أقصى بلاد الهند والصين وكان له غلمان زنوج يضربون على باب مسجده خمس نوب ... وعندما علم محمد بن أرسلان ملك كرمان بذلك قال : لو ضرب خمسين نوبة لما اعترضت له ، ورجل يتحصل في خزائني من مراكبه في كل سنة نحو مائة ألف دينار ، وأنافسه في الربح الغابة "(١٢٤) .

ويتضح من عبارة ابن حوقل أن عددًا كبيرًا من تجار هرمز أثرى ثراء كبيرًا من التجارة، حتى بلغت الضرائب التى دفعها أحدهم للملك كرمان مائة ألف دينار في السنة،مما يدل على إتساع تجارته. كذلك يتضح من النص السابق،أن تجار هرمز امتد نشاطهم إلى أقصى بلاد الهند والصين، وإن تجارة هرمز فى هذه الفترة المبكرة لم تكن قاصرة على الميدان المحلى دون المشاركة في تجارة العالم.ومما يدل على إتساع تجارة هرمز ما يذكره المقدسى"ومن عندهم تحمل تمور خراسان ونيل فارس "(١٢٥) .

وكانت أسواق هرمز القديمة تعج بالحركة والنشاط إذ يذكر المقدسى أن "سوقهم جاد"(١٢٦) هذا وإن كانت حركة البيع والشراء داخل الأسواق مقيدة برسوم محددة . تدفع ، مما جعل المقدسى يقول " والتجارات مقيدة "(١٢٧) .

وسرعان ما اتسع النشاط التجارى للمدينة بإتساعها وكثرة سكانها فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وأصبحت السفن تأتى إليها من الهند ، وتنزل بها البضائع وتحمل منها إلى العديد من البلدان . وفى ذلك يقول ، ياقوت الحموى "فرضا إليها المراكب بأمتعة الهند ، وتحمل منها إلى كرمان وسجستان وخراسان وغير ذلك من البلدان "(١٢٨) . ويذكر ابن الأثير أن هرمز القديمة " كانت مرسى عظيم: يجمع للتجار من أقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد"(١٢٩).

ومما يدل على عظم أهمية هذا الثغر أن حكام قلهات وبعض مدن عمان خطبوا على منابرهم لعلاء الدين خوارزم شاه بعد استيلائه على هرمز ، وذلك

تقربًا منهم للخوارزمية وصونًا لمصالحهم التجارية فى أراضيه(١٣٠) . وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله " وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة أنهم يتقربون إليه ليأمن أصحاب المراكب التى تسير إليهم عنده "(١٣١) .

وقد تعرضت هرمز لمنافسة شديدة من جانب جزيرة كيش أو قيس(١٣٢) ، التى استطاعت فرض سيادتها البحرية على تجارة الخليج منذ نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، خاصة بعد أن أصبحت شاه سيواف(١٣٣) . هذا بالإضافة إلى السياسة التى اتبعها حاكم كيش ، وهى سياسة قامت على الاحتكار التجارى ومحاولة فرض السيطرة عن طريق القوة والقرصنة(١٣٤) .

وأكد ذلك ياقوت بقوله " ولملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه"(١٣٥) . ويذكر ابن الوردى " أن عنده فى الجزيرة على مرسى البحر من المراكب التى تسمى السفيات مائتى مركب ، وهذه المراكب من عجائب الدنيا ، ليس على وجه الأرض ومن البحور مثلها "(١٣٦) .

وقد دخل حكام كيش فى صراع مع حكام هرمز ، وجهد كلاهما بكافة الوسائل لمنع المراكب التجارية من أن ترسو ببلد خصمه ، فكلاهما كانت له أطماعه فى الاحتفاظ باحتكار التجارة مع الهند ، كذلك سعى حاكم كل منها إلى اجبار ربابنة السفن التجارية على التردد على ميناءه وحده دون الميناء الآخر . يقول ابن الأثير فى حوادث عام (٦١١هـ/١٢١٤م) " وكان بين صاحب هرمز بين صاحب كيش حروب ومقاورات ، كل منهما ينهى أصحاب المراكب أن ترسى ببلد خصمه وهم كذلك إلى الآن "(١٣٧) .

أما ابن بطوطة فيشير إلى هذا النشاط التجارى فيقول : " أنها (أى هرمز) مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل السلع أو سلع الهند إلى العراقين وفارس وخراسان "(١٣٨) . ويذكر عبد الرزاق السمرقندى ، وقد زار هرمز فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى" أن هرمز مرفأ عظيم بخليج فارس ، ليس له نظير

على وجه الأرض .. يجئ إليه التجار من مصر والشام ومن العراقين وبلاد فارس ، ومن خراسان وما وراء النهر ، ومن تركستان وبلاد القفجاق ، وجميع الممالك الشرقية مثل الصين ، وغيرها "(١٣٩) .

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى أن نؤكد مرة أخرى أنه ساعد على هذا الرواج التجارى الذى حققته هرمز عدة عوامل يأتى فى طليعتها الموقع الممتاز لهذه الجزيرة عند الخليج ، مما جعلها للممر المؤدى إلى الهند والصين ، هذا فضلاً عما يداخلها من طرق للقوافل يمر بها جزء من التجارة بين فارس والهند(١٤٠) .

كذلك يلاحظ أن الغزو المغولى ساعد على ازدياد أهمية الطريق التجارى البرى البحرى الذى يسير من طرابيزون - على البحر الأسود - إلى تبريز ثم إلى هرمز ، ثم بعد ذلك عن طريق المحيط الهندى إلى بلاد الهند والشرق الأقصى . وقد عظمت أهمية هذا الطريق خاصة بعد أن استولى هولاكو على بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) واتخاذه تبريز حاضرة له ، وبفضل هذا الطريق أصبحت هرمز أعظم المدن التجارية فى غرب المحيط الهندى(١٤١) . وازدادت أهمية هذا الطريق المار بهرمز فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى حتى أن تجار البحر المتوسط - الذين كانوا يضطرون إلى دفع الرسوم الباهظة أثناء عبورهم أراضى مصر والشام - تحولوا إلى هذا الطريق الجديد للوصول إلى الهند . ورغم المحاولات التى بذلها المماليك فى مصر لاجتذاب تجارة الشرق إلى مصر ، فإن ذلك لم يؤثر مطلقاً على طريق هرمز ، الذى ظل يحتفظ بأهميته حتى عهد خلفاء هولاكو . ففى عهد تيمور لنك كانت متجهات الهند والصين تفرغ عند هرمز حيث تتسلمها القوافل لتنقلها إلى بلاده(١٤٢) .

ويتضح من كتابات ابن الأثير أن الصراع بين هرمز وكيش ظل مستمرًا طيلة عصر ابن الأثير وحتى بعد وفاته عام (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) . وبعد تدمير هرمز القديمة حملت لواء ذلك الصراع هرمز الجديدة ، التى أصبحت منافسًا قويًا لجزيرة

كيش ، وذلك بحكم موقعها المتميز ، حيث كانت تتحكم فى مدخل الخليج ، وكان باستطاعة حكامها منع السفن من دخول الخليج والوصول إلى كيش . هذا فضلاً عن أن حكام كيش بعد أن كانوا يعاملون التجار الواردين إلى جزيرتهم معاملة طيبة ، ولا يتعسفون معهم فى جمع المكوس ، غيروا معاملتهم لهم ، فقسوا عليهم ، وغالوا فى تقدير المكوس المفروضة على بضائعهم وزادوها زيادة كبيرة . وأدى ذلك إلى تحول كثير من تجار الشرق عن ميناء كيش ، مما ساعد هرمز على الخروج منتصرة من الصراع ضد كيش(١٤٣) .

وكان أن نجح قطب الدين حاكم هرمز فى الاستيلاء على جزيرة كيش والبحرين ، وجزء من سواحل بلاد العرب المجاورة للبحرين . على أن المصادر لم تحدد تاريخ هذا الحدث تحديدًا قاطعًا ، وربما يكون قد وقع فى عام (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)(١٤٤) . فعندما زار الرحالة ابن بطوطة هرمز وملكها قطب الدين عام (٧٣٢هـ/١٣٣٢م) كان قطب الدين قد اتسعت ممتلكاته القديمة ، وأصبح يتمتع بفتوحاته الجديدة . ويذكر ابن بطوطة فى ثنايا عباراته عن سلطان هرمز قطب الدين " إن مغاصات الجوهر تحت حكمه "(١٤٥) . وعندما تحدث عن صراع ملك هرمز مع أبناء أخيه ، قال " أنهم فروا بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة كيش (قيس) حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند "(١٤٦) . وهذا يؤكد خضوع كيش لنفوذ ملك هرمز وسلطانه .

ونتيجة لتبعية جزيرة كيش لهرمز ، لم يعد للأخيرة جهة تنافسها فى تجارة الخليج ، وازداد نشاطها التجارى كما ازدادت أهميتها التجارية ، وأصبح يرتاد ميناءها التجار من كل صوب وحدب ، كما امتلأت أسواقها بمختلف السلع والبضائع من كل أرجاء الدنيا . ويتحدث ابن بطوطة عن هذا الرواج . ولا يخفى علينا أن تجار الشرق والغرب فضلوا هرمز لقلة الرسوم الجمركية المفروضة على

التجارة ، والتي بلغت العشر على جميع البضائع فيما عدا الذهب والفضة(١٤٧) . هذا فضلاً عن التسهيلات التي كانت تبذل في هرمز لترغيب التجار في المجيء إليها حيث يحسن أهل هرمز استقبال التجار ، وينصبون لهم الخيام من الكتان لتحميهم من أشعة الشمس ، ويكثرون من الجمال المحملة بالمياه في الطرقات والأسواق لتوفير حاجتهم من الماء ، كما يعاملونهم بأدب وكياسة(١٤٨) .

يضاف إلى ما سبق أن حركة البيع والشراء في أسواق هرمز كانت تتعرض لرقابة شديدة وصارمة ممن يحاول التلاعب بالميزان أو البيع بأزيد من الأسعار السائدة وكان يتعرض للعقاب الصارم العنيف والحساب العسير(١٤٩) .

وهكذا تجمعت كل هذه العوامل لتجعل هرمز تتصدر تجارة الخليج ، فظلت حركة التجارة بها نشطة حتى القرن السادس عشر عندما زارها الرحالة فارتيما فقال " ونرى فيها ثلاثمائة سفينة من مختلف الأنواع ، تأتيها من جهات عديدة وبلاد مختلفة ... وفي المدينة مالا يقل عن أربعمائة تاجر ووكيل يقيمون فيها بصورة دائمة للاهتمام بالسلع المختلفة التي تنقل إليها "(١٥٠) .

وقد عدد الرحالة والباحثون السلع والبضائع التي كانت ترد إلى هرمز من شتى أرجاء الدنيا فقالوا من الهند : تأتي اللؤلؤ والعقاقير والأحجار الكريمة واللؤلؤ وأنياب الفيل (العاج) والسكر وغيرها من البضائع(١٥١) . ومن فارس وبلاد العرب تأتي الخيول ، وأفضل سلالات الحمير والبغال - التي كانت تباع بسعر أعلى من سعر الخيول نفسها . وقد أرجع ماركو بولو سبب ذلك إلى أنها كانت أسهل مطعمًا ، وأقدر على حمل الأثقال ، وأطول باعًا وأمدًا في السفر نهارًا من الخيل(١٥٢) . وكان تجار هرمز يتاجرون هذه الخيول والحمير والبغال ، ويقومون بحملها وتصديرها إلى بلاد الهند ، ويحصلون على أرباح طائلة من وراء ذلك(١٥٣) . وإلى جانب الخيول كان يأتي إلى هرمز من بلاد فارس الملابس الموشاة وماء الورد(١٥٤) . ومن البحرين اللآلئ الصغيرة والكبيرة ، ومن عدن النحاس والزئبق(١٥٥) . وصفوة القول أن هرمز صارت كبرى مستودعات تجارة الشرق .

وقد وفد إليها التجار من مختلف البقاع ؛ من الهند والصين والقاهرة والأسكندرية وبلاد الشام وعدن وشرق أفريقية(١٥٦) وحسب هرمز أن شار إليها بعض الرحالة بقوله : وفي المدينة تجار من جميع الأمم مسلمون وغير مسلمين يتاجرون في جميع أنواع السلع "(١٥٧) .

أما عن تجار هرمز المحليين فكانوا عربًا وفرسًا ، وجميعهم مسلمون ، ويذكر بوربوزا أن كثيرًا من تجارها أغنياء جدًا ، ويمتلكون العديد من السفن "(١٥٨) .

أما العملة المتداولة في أسواق هرمز ، فكانت من الذهب أو الفضة وعليها كتابات عربية من الوجهين ، وتعرف باسم "الأشرفي"(١٥٩) وكانت عملة هرمز تلقى رواجًا في الهند وغيرها لنقائها وسلامة وزنها(١٦٠) .

وهكذا تحولت هرمز في العصور الوسطى ، من مجرد جزيرة تفتقر إلى الماء إلى مركز من أعظم مراكز الثروة والترف في العالم الشرقي حتى قيل فيها(١٦١).

لو أن جميع العالم صيغ خاتمًا لكانت هرمز ماسه وجواهره

* * *

واستمرت هرمز تؤدي دورها كمركز هام لتجارة الخليج حتى سيطر البرتغاليون عليها وعلى الخليج وتجارته ، فلم يسمحوا لأية سفينة بعبوره دون تصريح منهم ، وبذلك قطعوا كل صلة تجرية بين هرمز وفارس والهند ، وكذلك بينها وبين العراق ومصر وذلك ليستأثروا وحدهم بتجارة الشرق(١٦٢) .

الهوامش

(١) انظر هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا ، ج٢ ، القاهرة ١٩٩١ ، ص٣٧٥

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دائرة معارف الشعب ، بدون تاريخ ، ص١٨٢

(٣) انظر مايلز ، الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٩٨٢م ، ص١٤٠ ، Wilson, S. A, Persian Gulf, London 1954, P. 104, note. 3 وانظر أيضًا صابر عرب ، " هرمز في العصور الوسطى " بحث منشور في مجلة نزوى ، ١٩٩٥م ، ص١١٦

(٤) قلهات ، أهم ميناء بحري في عمان ، والسوق التجاري الرئيسي ، وتبعد عن مطار مسقط بما يقرب من خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقي ، وتعتبر مفتاح الخليج ، لمزيد من التفاصيل انظر ماركو بولو ، رحلات ترجمة عبد العزيز سارديد ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص٣٤٠ - ٣٤١ ، ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٠ - ١٨١ ، مايلز ، الخليج ، ص٣٨٢

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٨٢ ، ج٢ ، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٦) عن احتياج المغول للدولة الخوارزمية انظر : حافظ أحمد حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩م ، ص٣٨

(٧) براق الحاجب : أحد القادة في دولة الخطا ، ودخل في خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وأهلى الأخير من مكانته ومنزلته ، وتوفي ببراق في عام ٦٣٢هـ . لمزيد من التفاصيل انظر : النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي القاهرة ١٩٥٣م ، ص١٧٤ - ١٧٥ ، عباس إقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٣٩٦ ، ٥٢٠

(٨) لمزيد من التفاصيل عن استقلال براق بكرمان انظر : النسوي ، سيرة جلال الدين ، ص١٧٥

(٩) النسوي ، سيرة جلال الدين ، ص١٧٤

(١٠) لمزيد من التفاصيل عن احياء جلال الدين للدولة الخوارزمية انظر حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية ، ص٢٠٠ وما يليها .

(١١) النسوي ، سيرة جلال الدين ، ص٣٢٨ ، هامش ٢

(12) Wilson, Persian Gulf, P. 104, Note.

(١٣) يقصد بانشوماك انشمست وهي الطريقة التي شاع بها خطأ كتابة اسم أحمد انظر ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٦ ، حاشيته (٤)

(١٤) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٥

(١٥) ماركو بولو ، رحلات ، ص٣٤١

(١٦) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٥ ، ٣٤٢

(١٧) كان أميرًا مغامرًا ومقاتلاً ، وهو الملك الثاني عشر لهرمز . انظر مايلز ، الخليج ، ص١٤٠

(١٨) انظر ابن رزيق ، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، عمان ١٩٨٢ ، ص٢٤٧ - ٢٤٨ ، حمد الساقي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ص٣٥٣ ، الأزكوي ، تاريخ عمان ، ٧١٥ ، وانظر أيضًا ، مايلز ، الخليج ، ص٤١٥

(١٩) ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص٢٤٨ ، الأزكوي ، تاريخ عمان ، ص٧١ ، السالمي ، تحفة الأعيان ، ص٣٥٣ عبد الله الحارثي ، " بنو نبهان في عمان (٥٤٩ - ٩٠٦م / ١١٥٤ - ١٥٠٠م) رسالة ماجستير غير منشورة القاهرة ١٩٩٠م ، ص٦١

(٢٠) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن رزيق ، الفتح المبين ، ص٢٤٥ - ٢٤٩ ، السالمي ، تحفة الأعيان ، ص٣٥٢ ، الأزكوي ، تاريخ عمان ، ص٧١ ، عبد الله الحارثي ، بنو نبهان ، ص٦١ - ٦٢ ، مايلز الخليج ، ص٤١٥

(٢١) ماركو بولو رحلات ، ص٣٤٠

(٢٢) عبد الله الحارثي ، بنو نبهان في عمان ، ص١٧٠

(٢٣) ماركو بولو ، رحلات ، ص٣٤٠ - ٣٤١

(٢٤) ماكو بولو ، رحلات ، ص٣٤١

(٢٥) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، صححه وطبعه رينود والبارون ماك كوكين ، باريس ١٨٤٠م ، ص٣٣٩

(٢٦) ماكو بولو ، رحلات ، ص٥٦ ، هامش١ ، ص٥٧ ، هامش٥

(٢٧) انظر ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٢ ، هايد ، تاريخ التجارة ، ج٢، ص٣٨١، نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية وحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص١١٨

(٢٨) انظر برتولد شيولر ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ترجمة خالد أسعد ، دمشق ١٩٨٢ ، ص٦٨

(٢٩) انظر هايد ، تاريخ التجارة به، ج٢ ، ص٣٧٩ ، ٣٨٠ ، مايلز الخليج ، ص١٤١ ، Wilson, The Persian Gulf, P. 104

(٣٠) حمد الله مستوفي القزويني ، نزهة القلوب ، نشرة Le Strange ، لندن بدون تاريخ به، ص١٤١ ، ٤٣ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص٣٣٩

(٣١) أبو الفدا ، تقديم البلدان ، ص٣٣٩

(٣٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٢ ، عبدالرزاق السمرقندي ، مطلع السعدين، نقلاً عن Browne, Literary history of Persia , T. IV , Cambridge 1928 , P. 397

(٣٣) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٣٣٩ .

(٣٤) نقولاً زيادة ، الجغرافيا والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢م ، ص٢٤٠ ، Wilson , Persian Gulf , P. 105 .

(٣٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٣ .

(٣٧) نفس المصدر والصفحة .

(٣٨) عن خضوع جزيرة كيش لهرمز انظر ما يلي .

(٣٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٠ .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٢ .

(٤١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨١ .

(٤٢) السالمي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ص ٣٦٧ .

(٤٣) آل المظفر هم أولاد الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر ، وهم من أهل سوانح إحدى قرى خراسان ، ثم هجروها وقت استيلاء جنكيز خان على خراسان ، ودخلوا في خدمة المغول وانتهزوا فرصة ضعف دولة الخطأ في اتابكية كرمان واستقلوا بها ، لمزيد من

التفاصيل انظر : عباس العزاوي ، تاريخ إيران بعد الإسلام ، ص ٥٢٦ وما يليها ، وانظر أيضاً برتولد ، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٤٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع بين شاه منصور وتيمور لنك انظر : ابن عربشاه ، عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٨٩ - ٩٦

(٤٥) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى جـ١ ، ق٢ ، ص ٤٥٥، القاهرة ١٩٨٣م .

(٤٦) ترجع تسميته بهذا الاسم إلى أن عسر ولادته بلغ تيمور وهو يلعب الشطرنج ، فأطلق عليه في الحال اسم شاه رخ بمعنى الملك والقلعة . انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ١٥، ص٤٨ حاشية ٣ .

(٤٧) انظر القلقشندي، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٣٥٠ ، جـ٧ ، ص٢٧٨.

(٤٨) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٤ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٣م ص٩٨٨ .

(٤٩) عبد الله الخارثي ، بنو نبهان في عمان ، ص ٦٥

(٥٠) عبد الله الخارثي ، نفس المرجع والصفحة .

(٥١) انظر نقولاً زيادة ، الجغرافيا والرحلات ، ص ٢٤٤

(٥٢) فلوكيوك كان من طبقة النبلاء ، وكان مستشاراً للملك نويل الأول في وضع السياسة الخارجية وكان يضمر حقداً لا مثيل له للعرب والمسلمين . لمزيد من التفاصيل انظر أحمد الليثي ، لحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، تحقيق محمد سعيد الطريحي ، بيروت ١٩٨٥م ، هامش ١ ، ص١٧٠ .

(٥٣) انظر : مايلز ، الخليج ، ص ١٥٢ . Wilson , Persian Gulf , 113

(٥٤) مايلز ، الخليج ، ص١٥٦

(٥٥) مايلز ، الخليج ، ص١٥٤

(٥٦) مايلز ، الخليج ، ص ١٥٤ - ١٥٥

(٥٧) لمزيد من التفاصيل : مايلز ، الخليج ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، وندل فيليبس ، تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان / القاهرة ١٩٨١م ، ص ٥٠ . Wilson , Persian Gulf , 114 .

(٥٨) مايلز ، الخليج ، ص١٥٧ - ١٥٨

(٥٩) باخرمة ، قلادة النحر ، نقلاً عن محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر والمخاوفات البرتغالية المسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني باخرمة كما سجلها في مخطوط قلادة النحر ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص٩٧ - ٩٩

وانظر أيضاً يحيى بن الحسين ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عاشور ، القسم الثاني ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص٦٣١

(٦٠) باخرمة ، قلادة النحر ، نقلاً عن محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر ، ص٩٩

(٦١) الحصار بمعنى الاحاطة والتحديد ، وقد يكون المقصود انشاء قلعة أو معسكر لاقامة القوات فيه ، انظر محمد عبد العال ، البحر الأحمر، ص١١٠، هامش٤.

(٦٢) باخرمة ، قلادة النحر ، نقلاً عن محمد عبد العال ، البحر الأحمر ، ص ١١٠ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني، ق٢ ، ص٦٣٦ ، وانظر الجيدروس ، النور السافر في أخبار القرن العاشر ، صححه محمد رشيد ، بغداد ١٩٣٤م ، ص٦٢ .

(٦٣) على أكبر تعمدا ، لغت نامه ، شماره مسلسل ١٠٤ ، شماره حرف (هـ) ص ١٨٩

(٦٤) زين الدين المليباري ، تحفة المجاهدين ، ص ٢٨٤

(٦٥) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٨

(٦٦) نقلاً عن Wilson ,The Persian Gulf ,P107

(٦٧) انظر ما ذكره عبد الرزاق السمرقندي عن هرمز في .

Browne, literary history , Vol03, P. 398.,
Elliot , History of India , Vol04 , London 1871, P96 .

(٦٨) انظر ، Wilson , Persian Gulf , 107

(٦٩) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٨

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٢

(٧١) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٨

(٧٢) نقلاً عن Wilson , Persian Gulf , 108

(73) Ibid
(74) Wilson, op. cit, pp- 107- 108

وانظر أيضاً نقولاً زيادة ، الجغرافيا ، ص٢٤٥

(٧٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٢ ، وانظر أيضاً حامد زيان ، الحياة في الخليج في العصور الوسطى في ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة ، دبي ١٩٨٥ ، ص٨١

(٧٦) نقولا زيادة ، الجغرافيا ، ص ٢٤١

(٧٧) انظر Wilson the persian Gulf, p. 108

(٧٨) المصطلكي : نوع من العطور وهو العلك الرومي وعنه انظر ابن منظور ، لسان العرب ، حـ٤٧ ، ص٤٢١٨

(٧٩) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٨

(٨٠) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٩ ، هامش ٥

(٨١) ماركوبولو ، رحلات ، ص ٥٨

(٨٢) انظر ، Wilson , Persian Gulf , 107

(٨٣) نقلاً عن Wilson , Op . cit , P . 107

(٨٤) صوليا هاو،في طلب التوابل،ترجمة محمد عزيز رفعت،القاهرة ١٩٥٧م، ص ١٥٠

(٨٥) عن الكنز انظر ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، ص٤٠

(٨٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٨٢

(٨٧) الاصطخري : مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، مصر ١٩٦١م ، ص ٩٩ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، حققه محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م، ص٢٥١

(٨٨) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت بدون تاريخ، ج١، ص٤٧٦

(٨٩) نقلاً عن : Wilson, The Persian Gulf, P. 107

(٩٠) انظر نقولاً زيادة الجغرافيا ، ص٢٤١

(٩١) ماركو بولو ، رحلات ، ص٣٤٢ - ٣٤٣

(٩٢) ماركو بولو ، ص٣٤٢

(٩٣) نقولاً زيادة ، الجغرافيا ، ص٢٤١ ، صابر عرب ، مملكة هرمز ، ص١١٧

(٩٤) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٥ وانظر : Wilson, The Persian Gulf, P. 108

(٩٥) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٨ - ٥٩

(٩٦) ماركو بولو ، ص٥٩

(٩٧) ماركو بولو ، رحلات ، ص٢٤٢ ، ص٥٨

(٩٨) الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص٩٩

(٩٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٥١

(١٠٠) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٥٣

(١٠١) انظر رواية عبد الرزاق السمرقندي في Browne, Literary history, vol. 3, P. 398, Elliot, History of India, vol. P. 96

(١٠٢) القنانيد نوع من السكر الأبيض ، انظر الأصطخري ، مسالك الممالك، ص١٠٠، حاشية ٣ ؛ هايد ، تاريخ التجارة ، ج٤ ، ص١٩٤

(١٠٣) الأصطخري، مسالك،ص٩٩؛وانظر أيضًا الإدريسي،نزهة المشتاق، ج١، ص٤٣٦

(١٠٤) النيلج نوع ممتاز من النيلة يستخدم في صناعة اللون الأزرق .

(١٠٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٤٧٦

(١٠٦) الإدريسي ، نزهة المصار ، ج١ ، ص٤٣٦

(١٠٧) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٨

(١٠٨) انظر Wilson, Persian Gulf, P. 105

(١٠٩) Wilson, Op. cit, P. 108

(١١٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٢ وانظر أيضًا ، شوقي عبد القوي ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ص١٨١

(١١١) سونيا هاو ، في طلب التوابل ، ص١٥٠ Wilson, Op. cit, P. 109

(١١٢) على أكبر دهخدا ، لُغت نامة ، ص١٨٩

(١١٣) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٨

(١١٤) ماركو بولو ، نفس المصدر والصفحة .

(١١٥) جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ، ترجمة شاكر هليه يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص٢٥٦

(١١٦) جورج حوراني ، العرب والملاحة ، ص٢٤٧ - ٢٤٨

(١١٧) انظر جورج حوراني ، ص٢٥٣ ، ٢٥٥ - ٢٥٨

(١١٨) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٨ وعرض ماركو بولو للطريقة التي يتم بها إعداد هذه الحبال من لحاء جوز الهند فذكر " ينقع الليف في الماء حتى تتحسن أحوازه اللينة ، وتظل الفتل نظيفة ، ومن هذه يصنعون الحبل المفتول اللازم لخياطة الألواح " ص٥٨

(١١٩) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٨

(١٢٠) ماركو بولو ، نفس المصدر والصفحة .

(١٢١) الأصطخري ، مسالك الممالك ، ص٩٩

(١٢٢) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٤٣٦

(١٢٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، بيروت ١٩٧٩م ، ص٥٥

(١٢٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٥٤

(١٢٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٣٥١

(١٢٦) المقدسي ، نفس المصدر ، ص٣٥٤

(١٢٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٦م ، م٨، ص٤٦٠، انظر ياقوت الحموي : المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٤٣٩ - ٤٤٠

(١٢٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٨٢ ، ج٢ ، ص٣٠٤

(١٢٩) حافظ أحمد حمدي ، الدولة الخوارزمية ، ص٣٦

(١٣٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص٣٠٤

(١٣١) هي جزيرة في بحر عمان ، طولها حوالي اثنا عشر ميلاً في مثلها ، تقع على خط ٥٤° ، ٣٠ ، ٥٦° شمالاً ، ويطلق عليها العرب اسم قيس . لمزيد من التفاصيل انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٧ ، ص١٩٦ ، ص٣٠٦ ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص٣٧٢ ، ابن الوردي ، خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب . القاهرة ١٨٩١م ، ص٦٠

(١٣٢) تقع سيراف على مسافة أربع كيلو مترات تقريبًا من ساحل الخليج، وشهدت سيراف أوج نشاطها فى القرن العاشر ، ثم اضمحل شأن سيراف . لمزيد من التفاصيل انظر : أيمن فؤاد ، " العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس " بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثامن ، يناير ١٩٩٢ ، ص٦٧ ، عطية القوصى " سيراف وكيش وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس الهجرى " بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦م ، ص٥٣ - ٥٩ ، حامد زيان ، الحياة فى الخليج فى العصور الوسطى فى ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة ، دبى ١٩٨٥م ، ص٨٩ - ٩٠

(١٣٣) حامد زيان ، الحياة فى الخليج ، ص٩١

(١٣٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج٧ ، ص١٩٧

(١٣٥) ابن الوردى ، فريدة العجائب ، ص٦٠

(١٣٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١٢ ، ٢٠٤ وانظر أيضًا هايد ، تاريخ التجارة ، ج٢ ، ص٣٧٦ ، بارتولد ، تركستان من الفتح العربى إلى المغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ١٩٨١ ، ص٥٦٥

(١٣٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٢

(١٣٨) نقلاً عن Elliot, Hist of India, vol. Iv. PP. 95 - 96., Browne, Literary, vol. 3, PP. 397 - 98, بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، ص١١٦

(١٣٩) هايد ، تاريخ التجارة ، ج٢ ، ص٣٨٢ - ٣٨٣

(١٤٠) حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٢٩٧ - ٣٠٠

(١٤١) هايد ، تاريخ التجارة ، ج٣ ، ص٣٨٥ ، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية ، ص٣٠٠

(١٤٢) عطية القوصى ، سيراف وكيش وعدن ، ص٦١

(١٤٣) هايد ، تاريخ التجارة ، ج٢ ، ص٣٨٧ ، حامد زيان ، الحياة فى الخليج ، ص٩٠ - ٩١

(١٤٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٨٣

(١٤٥) نفس المصدر والصفحة .

(١٤٦) Elliot, History of India, vol. 4., P. 96, Browne, Literay, vol. 3, P. 398

نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص١١٩

(١٤٧) شوقى عبد القوى ، تجارة المحيط ، ص١٨٢ ، Wilson, The Persian Gulf, P. 106

(١٤٨) شوقى عبد القوى ، تجارة المحيط ، ص١٨٢ ، Wilson, The Persian Gulf, P. 108

(١٤٩) انظر تفولاً ، الجغرافيا ، ص٢٤٢ Wilson, The Persian Gulf, P. 106

(١٥٠) ماركو بولو ، رحلات ، ص٥٥، هايد ، تاريخ التجارة ، ج٤ ، ص١٩٤

(١٥١) ماركو بولو ، رحلات ، ص٤٥

(١٥٢) ماركو بولو ، رحلات ، ص٤٦ ، هايد ، تاريخ التجارة ، ج٢ ، ص٢٧٧ ، ج٣ ، ص٣٧٩

(١٥٣) نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص١١٩ ، حامد زيان ، الحياة فى الخليج ، ص٨٠

(١٥٤) نعيم زكى ، نفس المرجع والصفحة .

(١٥٥) سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ص١٥٠

(١٥٦) تقولاً زيادة ، الجغرافيا ، ص٢٤٧

(١٥٧) تقولاً زيادة ، الجغرافيا ، ص٢٤٥ ، Wilson, The Persian Gulf, P. 107

(١٥٨) الأشرفى ، دينار ذهبى ، وقد يكون على غرار الدينار الأشرفى الذى عرف فى مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة والذى نسب إلى السلطان الأشرف برسباى الذى أمر بضربه فى عام ٨٢٩هـ / ديسمبر ١٤٢٦م ، وأطلق لفظ الأشرفى أيضًا على النقود الذهبية التى أمر بها كل من الأشرف قايتباى والأشرف قانصوه الغورى . انظر رفعت النبراوى ، السكة الإسلامية فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص٢٣٩

(١٥٩) نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص١٢٠ ، Wilson, The gulf, P. 108

(١٦٠) سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ص١٥٠

(١٦١) نعيم زكى ، طرق التجارة ، ص١٢٠ ، على رضا ، آسايد الخليج، ص١١٨ ، على أكبر ، لغت نامه شجارة مسلسل ١٠٤ ، ص١٨٩

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية وغير العربية :

ابن الأثير : (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل فى التاريخ ، ج١٢ ، بيروت ١٩٨٢م

ابن إياس : (محمد بن أياس الحنفى ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج١ ، ق٢ ، تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٨٣م

ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،طبعة دائرة معارف الشعب،بدون تاريخ.

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ج١٥ تحقيق إبراهيم على طرحان، القاهرة ١٩٧١م

ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبى (ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) . صورة الأرض ، بيروت ١٩٧٩م

ابن رزيق : (حميد بن محمد بن نجيب ت ١٢٧٤هـ) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى عبد الله ، عمان ١٩٨٣م

ابن الوردى : (سراج الدين أبى حفص عمر ت ٨٦١هـ /١٤٥٧ م) خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٣٠٩هـ

أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) تقويم البلدان ، صححه رينود وماك كوكين ديسلان باريس ١٨٤٠م

الإدريسى : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحموى ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، بيروت بدون تاريخ .

الأزكوى : (سرحان بن سعيد العمانى) تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة – عمان ١٩٨٦م

الأصطخرى : (أبو اسحق إبراهيم محمد الفارسى المعروف بالكرخى ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) كتاب مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال مصر ١٩٦١م

حمد الله مستوفى القزوينى : (ت٧٤٠هـ/١٣٤٠م) نزهة القلوب، طبعة ليسترنج، سلسلة جيب .

السالمى : (نور الدين عبد الله بن حميد ت ١٣٣٢هـ)تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، جزءان فى مجلد واحد ، عمان بدون تاريخ .

ماركو بولو : رحلات ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن وإلى العربية عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٧م

المقدسى : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن حمد ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . حققه محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م

المليبارى : (الشيخ أحمد بدر الدين توفى بعد عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م) تحفة المجاهدين فى أحوال البرتغاليين ، قدم له وحققه وعلق عليه محمد سعيد الطريحى ، بيروت ١٩٨٥م

النسوى : (محمد بن أحمد) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى ، القاهرة ١٩٥٣م

ياقوت الحموى (ابن عبد الله الحموى الرومى ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، معجم البلدان ، م٨ ، القاهرة ١٩٠٦م ، كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ، بيروت ١٩٨٦

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد : (١٠٣٥–١١٠٠هـ/١٦٢٥–١٦٨٩م) غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، القسم الثانى – تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٨م

ثانيًا المراجع العربية والمصرية :

أيمن فؤاد سيد : " العرب وطريق الهند حتى أواسط القرن السادس الهجرى" بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى ، العدد الثامن ، يناير ١٩٩٢

بارتولد : (فاسيلى فلاديمير) ، تركستان ، من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ١٩٨١م

بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠م

حافظ أحمد حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامى وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية ، القاهرة ١٩٤٩م

حامد زيان غانم : الحياة فى الخليج فى العصور الوسطى ، فى ضوء مشاهدات الرحالة ابن بطوطة ، دبى ١٩٨٥م

حورانى : (جورج فضلو) : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، فى العصور القديمة واوائل العصور الوسطى ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨م .

سوفيا ، ى ، هار : فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت القاهرة ١٩٥٧م

شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية (٤١-٩٠٤هـ/٦٦١-١٤٩٨م) ، الكويت ١٩٩٠م

عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٩٨٩م .

عبد الله ناصر بن سليمان الحارثى : " بنو نبهان فى عمان والأوضاع الاقتصادية فى عصرهم ٥٤٩-٩٠٦هـ/١١٥٤-١٥٠٠م "، رسالة الماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٩٠م

عطية أحمد القوصى : " سيراف وكيش (قيس) وعدن من القرن الثالث الهجرى حتى السادس الهجرى " بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢٣ عام ١٩٧٦م

على أكبر : لغت نامة ، شمارة مسلسلى ١٠٤ تهران ١٣٤٣ هجرى شمس .

على رضا فيروزا محمد : أسانيد الخليج الفارسى ، القاهرة ١٩٧٦م

مايلز : (ى . ب) الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٩٨٢م

محمد صابر عرب : " هرمز فى العصور الوسطى " بحث منشور فى مجلة نزوى ، العدد الثالث ، يونيو ١٩٩٥م ص١١٤ - ١٢٧ .

محمد عبد العال أحمد : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى " بافخرمية " كما سجلها فى مخطوط قلادة النحر ، القاهرة ١٩٨٠م

نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) القاهرة ١٩٧٣م

نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢

هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا محمد رضا . أجزاء من ٢ - ٤ ، القاهرة ١٩٩١م - ١٩٩٤م

ولدل فيليبس : تاريخ عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان - القاهرة ١٩٨١م

ثالثًا : المصادر الأجنبية :

Browne, E, G,: Literay history of Perisa Vol .III, Cambridge 1928

Elliot, H., S,: History of India by its own Historians, 8 vols, London 1871

Wilson, A, S,: The Persian Gulf, London 1954

إقليم الخليج بين الماضى والحاضر

مصطفى عقيل الخطيب(*)

أولاً : موقع الخليج :

يمثل الخليج معبرًا تلتقى فيه الطرق التجارية البرية والبحرية التى تربط القارات القديمة الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوربا) . وبعبارة أخرى فإن الخليج عبارة عن همزة الوصل بين هذه القارات الثلاث مما مكنه من الإسهام فى نقل وتلاقح عدد من الحضارات الإنسانية المتباينة . لذلك فإن هذه المنطقة كانت مسرحًا لنشاط واسع المدى منذ عصور ما قبل التاريخ ، الأمر الذى أثبته عمليات التنقيب على امتداد شواطئ الخليج بساحليه الشرقى والغربى .

أما فى العصور التاريخية التالية ، فإن إقليم الخليج احتل مكانة بارزة إذ غدا ملتقى ورجال الأعمال من أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب شرق آسيا وأفريقيا . ذلك أن هذا الموقع الجيوستراتيجى الهام للخليج جعله يتحكم فى طرق التجارة الدولية على مر العصور وإلى وقتنا الحاضر . وقد أردنا بهذا المدخل أن ننبه الأذهان إلى خطأ ما يظنه البعض من أن أهمية إقليم الخليج إنما ظهرت بظهور البترول ، وأن هذا الإقليم لم يكن قبل عصر البترول سوى مجموعة من الأخصاص يعيش فيها صيادو السمك .

والواقع أن إقليم الخليج فقير التربة من حيث عدم صلاحيتها للزراعة ، وعدم توافر الماء اللازم للزراعة لقلة مصادر المياه وندرة الأمطار ، وذلك باستثناء بعض الأودية والواحات . لذلك كان من الطبيعى أن يكافح السكان من أجل

(*) أستاذ مساعد بكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر ومدير مركز الوثائق والدراسات الإنسانية .

الحصول على لقمة العيش . و لم يجد الخليجي أمامه سوى الاتجاه إلى البحر غواصًا لجمع اللؤلؤ ، وصائدًا للأسماك ، وملاحًا ماهرًا في جوف البحار والمحيطات شرقها وغربها ، بحثًا عن الرزق الحلال .

وهكذا اتخذ هذا الخليجي الملاح من المحيطات والبحار موطنًا له . على أن الله عز وجل أنعم على هذا الإقليم بموقع فريد ممتاز عوض أهله عما افتقدوه . وبفضل هذا الموقع ارتبط أهل الخليج بالعالم الخارجي شرقًا وغربًا ، وربطتهم روابط حضارية واقتصادية ببعض البلاد البعيدة كبلاد الصقالبة والبلقان وبلاد الفرنجة والروس ، فضلاً عن بلاد شرق آسيا وجنوبها وشرق أفريقية(١) .

ذلك أنهم قاموا بدور الوسيط في نقل السلع التجارية القادمة من الهند والصين إلى الأسواق الأوربية والعكس ، عبر المراكز والموانئ التجارية التي أسست على شواطئ الخليج ، كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان . وكان يوجد العديد من هذه المراكز التجارية والحضارية المنتشرة في جميع ارجاء الخليج وبلاده مثل البحرين وعمان وفارس . ولو رجعنا إلى كتاب الأعلام للزركلي لوجدنا أسماء العديد من العلماء الذين ينسبون إلى البحرين وعمان وسيراف ..(٢) وبعض هذه المراكز انكمشت اليوم وغدت مجرد أسماء لا يسكنها سوى عدد قليل من الإيرانيين والعرب(٣) . ولكن نسبة عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء واللغويين إلى هذه المدن يدل على أنها لم تكن مراكز تجارية فحسب وإنما جمعت بين الثقافة والتجارة والمال(٤) .

ويذكر ياقوت مدينة سيراف التي زارها فيقول " بها آثار حسنة وجامع مليح في قمة الجبل " ؛ في حين يقول عنها أبو زيد السيرافي أنها كانت مبنية عظيمًا لفارس ليس بها سوى الأبنية . أما الأصطخري فيذكر أنها أكبر مدينة في فارس بعد شيراز ، بل تقاربها في الكبر . وكانت من أهم المراكز التجارية في الشرق ، تستقبل البضائع الواردة إليها عبر الهند وفارس والعراق والسواحل العربية ، كما ارتبطت بعلاقات تجارية مع شرق أفريقية .

ومن المراكز ذات الشهرة أيضًا في إقليم الخليج نذكر هرمز وهي جزيرة صغيرة بالقرب من جزيرة قشم ، يبلغ طولها حوالي ٩ كيلو متر وعرضها ٨,٥ كم وهي بيضاوية الشكل تبعد عن الساحل الفارسي بنحو ١٦ كيلو مترًا وعن رأس مسندم حوالي ٤٠ كيلو مترًا .

ويتصف مناخ هذه الجزيرة بأنه شديد الحرارة في الصيف قليل ، وأرضها ، غير صالحة للزراعة بسبب الملوحة الزائدة . ولا يوجد فيها من الأشجار سوى بعض أشجار النخيل .

أما مياه الشرب فكانت تجلب إليها من المناطق المجاورة لها من الساحلين(٥) العربي والفارسي .

ورغم هذا الفقر المدقع وعدم وجود العناصر الأساسية للحياة والمقومات الهامة لبناء دولة أو حتى مدينة صغيرة ، إلا أنها صارت مملكة عريقة امتد نفوذها إلى معظم مناطق الخليج بساحليه الشرقي والغربي . وقد بلغ سكان هذه المملكة في مطلع العصر الحديث حوالي ٤٢ ألف نسمة ، غالبيتهم من المسلمين من العرب والفرس ، مع وجود جاليات قليلة من الطوائف والجنسيات والديانات المختلفة مثل المسيحية واليهودية والهندوسية والمجوسية كما يذكر ابن بطوطة ، ومعظم الأجانب فيها كانوا يعملون في التجارة(٦) .

وتذكر المصادر التاريخية العربية والفارسية أن اللغة الدارجة في الجزيرة كانت العربية والفارسية . وكان السكان يعملون في التجارة الشرقية والأوربية ، ويقومون بتوزيع المتاجر على المناطق المجاورة . وأهم السلع المتداولة كانت الذهب والفضة والتوابل والأرز والحرير واللؤلؤ والأقمشة والتمور ..إلخ . ومما يدعو للدهشة أن هذه المملكة رغم صغر مساحتها ، وقلة مواردها الطبيعية ، وضعف مقومات الحياة الأساسية فيها إلا أن سكانها عاشوا حياة البذخ والترف والرفاهية وملكوا ثروات طائلة . ويرجع هذا إلى إتساع الحركة التجارية وكثرة الصادرات والواردات(٧) .

واتصل بالجزيرة منذ وقت مبكر وزارها التجار الأوربيون من البندقية وجنوة وشبه جزيرة أيبريا عن طريق مصر وبلاد الشام ، ولا سيما بعد سقوط الدولة البيزنطية وازدهار تجارة الشرق الأقصى .

وهكذا لعب أهل هرمز دورًا بارزًا في نقل البضائع إلى أوربا عن طريق الموانئ المصرية والشامية وبخاصة في عصر دولة المماليك . وقد بلغت هذه المملكة درجة كبيرة من التقدم والرقي ، تدل عليها آثار بيوتها الباقية إلى يومنا هذا ، فضلاً عما ذكره عنها الرحالة العرب والأجانب ، حتى أن ياقوت أضفى عليها صبغة العالمية لما لمسه فيها من كثرة التجار العرب والفرس والأجانب ، فضلاً عن الأعداد الكبيرة من السفن التي شاهدها راسية في ميناء الجزيرة(٨) . وهناك مثل معروف: " إذا كان العالم عبارة عن خاتم فإن هرمز هي الجوهرة الثمينة " . أما الرحالة الأجانب الذين زاروها قبيل الاحتلال البرتغالي لها بحوالي خمس سنوات مثل الرحالة فارتيما فقد وصفوا الجزيرة بـ " أنها جزيرة جميلة لا ثاني لها في الموقع الممتاز "(٩ - ١٠).

* * *

وبعد أن أحرز البرتغاليون العديد من الانتصارات على المسلمين في شبه جزيرة أيبريا تضاعفت المساعي والجهود المسيحية لضم أراضي أخرى ، لا سيما بعد معرفة البرتغاليين بالطريق البحري حول أفريقية للوصول إلى الشرق ، وذلك في فترة كانت القارة أوربية مقبلة على الدخول في مرحلة التوسع الاستعماري(١٢) .

ومع مطلع العصور الحديثة كانت البرتغال في مقدمة الدول الأوربية التي استكملت وحدتها وخاضت صراعًا مريرًا ضد المسلمين في شبه جزيرة إيبريا حتى نجحت في القضاء على الدويلات الإسلامية وطرد المسلمين من أراضيها كذلك كانت البرتغال سباق في الوصول إلى الشرق(١١) .

وهكذا لم يكتف البرتغاليون بضرب المسلمين في المغرب العربي الإسلامي وإنما تحركت عواطفهم الدينية الصليبية ، فعزموا على الانتقام من المسلمين في كل

مكان ، بل لقد خططوا للوصول إلى الأماكن المقدسة الإسلامية ، وتدمير الحرمين الشريفين ، رافعين شعار الصليب تحت قيادة هنري الملاح وخلفائه من بعده إثر انتصاره على المسلمين في عام ١٤١٨م في معركة سبته . وبوصول البرتغاليين إلى شبه القارة الهندية في عام ١٤٩٨م سقطت مدينة (جوا) الاستراتيجية بيد البرتغاليين ، فاتخذوها قاعدة للإنطلاق في تحقيق أهدافهم بالانتقام من المسلمين والعرب في كل مكان . وكان أن امتدت حركتهم الوحشية إلى منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية . وكان قادة البرتغاليين يفتخرون بأنهم ينتقمون من المسلمين بقوة وحزم . وقد أبلغ البوكيرك الذي احتل الخليج في عام ١٥٠٧م مولاه ملك البرتغال أنه " حيثما أمكنه العثور على أي مسلم كان أفلاته من يده من المحال وأنه كان يقتحم المساجد ويضرم فيهم النار " ، خاصة في عمان(١٣) .

وهكذا غدا الخليج الهدف الأول للبرتغاليين بعد شبه القارة الهندية ، ليس لأهميته التجارية والاقتصادية فحسب وإنما لموقعه الاستراتيجي بوصفه الخط الدفاعي الأول عن شبه القارة الهندية(١٤) . يضاف إلى ذلك أن المنطقة تشكل سوقًا تجاريًا كبيرًا بما فيها بلاد فارس والعراق وشبه الجزيرة العربية ، كما أنها تعتبر مصدرًا لبعض الخامات الهامة مثل الحرير الفارسي . وأخيرًا فإن البرتغاليين كانوا يأملون في أن يكون الأسطول البرتغالي هو المسيطر على المحيط الهندي والبحار الشرقية ، ولا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بالقضاء على السفن العربية والمراكز التجارية الهامة في مياه الخليج . وقد نجحوا في ذلك ، فتحولت السفن العربية التي كانت في مياه الخليج ، تحولت هذه السفن إلى أخشاب خربة لا تستطيع حتى التنقل بين الموانئ الخليجية إلا بإذن من المسئولين البرتغاليين . أما الأسواق والمراكز التجارية فقد فقدت رونقها ونشاطها بعد أن تحولت طرق التجارة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي .

ومما ساعد البرتغاليين على احتلال الخليج ، أوضاعه المتدهورة وبخاصة في كل من عمان فارس . ففي عمان قامت الدولة النبهانية التي كان المذهب السائد فيها

هو المذهب الأباضي . ويشترط هذا المذهب أن يكون للأمة إمام واحد على أن تتوافر فيه الشروط الأساسية للإمامة وهي العدالة والبلوغ والتقوى والنزاهة ... إلخ .

ولكن حدث منذ مطلع القرن السادس عشر أن نشبت خلافات سياسية ومذهبية حول الإمامة ، إذ اتهمت مجموعة من أهل عمان الأسرة النبهانية الحاكمة بأنها غير مؤهلة للحكم لعدم تمسكها بالمبادئ الأباضية الشرعية(١٥) . وأدى هذا النزاع إلى حروب أهلية نتج عنها تقسيم عمان إلى دويلات وأقاليم ، وبذلك فقدت الحكومة المركزية سيطرتها وسقطت الدولة النبهانية . وكان أن استغل البرتغاليون هذه الأوضاع المتردية فاحتلوا معظم المدن والموانئ العمانية الهامة دون مقاومة(١٦) .

أما في بلاد فارس فلم تكن الأوضاع بأفضل مما كانت عليه في جارتها عمان ، إذ أعلن إسماعيل الصفوي قيام الدولة الإيرانية الحديثة في مطلع القرن السادس عشر بالتحديد في عام ١٥٠٠م ، وأعلن نفسه شاهًا على إيران(١٧) . وقد شغل بالعمل على إحياء أمجاد الفرس ، وعمل على توحيد الشعوب الإيرانية بأجناسها وأعراقها ومذاهبها وأديانها ولغاتها . ولا شك في أن العمل لم يكن سهلاً بالنسبة للشاة ، خاصة وأنه تحدى جزءًا من الشعب الإيراني عندما أقر المذهب الشيعي الجعفري في إيران(١٨) ، فقامت الحروب في كثير من أرجاء البلاد . وهنا أيضًا استغل البرتغاليون الفرصة وقاموا باحتلال أجزاء مهمة من الأراضي الإيرانية وأهمها جزيرة هرمز أو مملكة هرمز التي كانت تتبع بلاد فارس . أما الشاة فبدلاً من أن يقاوم ويعارض الاحتلال الأجنبي ، استعان بالبرتغاليين ضد الإيرانيين سواء في بلوجستان أو في مناطق الخليج الأخرى ، دون أن يدرك خطورة هذا الأمر(١٩) بل أن الشاة رحب بالاحتلال البرتغالي لهرمز وجعرن (بندر عباس) وقشم ، رغبة في طلب العون والمساعدة من البرتغاليين ضد الدولة العثمانية الفتية .. ومن أجل ذلك عقدت الدولة الصفوية اتفاقية للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين .

أما الدولة العثمانية فلم تكن في موقف يسمح لها بفتح جبهات جديدة ، لا سيما وأن قواتها كانت منشغلة في الحروب ضد المماليك . وكانت دولة سلاطين المماليك في بلاد الشام ومصر قد وصلت إلى أرذل العمر ، بعد أن غدت ضحية أطماع البرتغاليين ، إذ تحول طريق التجارة عن أراضيها في كل من مصر والشام ، مما أدى ذلك إلى الركود الاقتصادي وإلى تفشي الفساد . وفي الحقيقة فإن دولة المماليك بذلت جهودًا لا بأس بها في مواجهة البرتغاليين ولكن الهزيمة حلت بالأسطول المملوكي في معركة ديو ١٥٠٩م وفيها انتصر الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي(٢٠) . وكانت هذه هي نهاية الحروب البحرية بين البرتغاليين والمماليك ، وأعقب ذلك انهيار الدولة على يد السلطان سليم الأول العثماني الذي تمكن من فتح الشام في عام ١٥١٦م ثم مصر في العام التالي .

لقد كان لهزيمة الأسطول المملوكي في موقعة ديو في كانون الثاني عام ١٥٠٩م أثر سيئ على منطقة الخليج ، إذ ركز البرتغاليون جهودهم في هذه المنطقة للقضاء على عمليات المقاومة العربية ، مثل الثورة التي قامت في هرمز في عام ١٥١٥م . وكذلك حاول البرتغاليون سد باب المندب أمام السفن المصرية(٢١) . ومن التحديات التي واجهها الخليجيون ظهور شركة الهند الشرقية البريطانية في عام ١٦١٤م ، وقد صار لها من النفوذ والقوة ما جعل منها سوطًا مسلطًا على رقاب أهل الخليج ومصالحهم التجارية .

وعلى أثر التطورات السابقة أصبحت جميع المراكز التجارية في الخليج مهددة بالانهيار التام . وكان أن ظهر في فارس الشاة عباس الأول الصفوي الذي عرف بوطنيته وغيرته ، فبدأ في مقاومة البرتغاليين ، لكن لم يكن باستطاعة إيران - بسبب مشاكلها الداخلية وصراعها المستمر مع الدولة العثمانية - مواجهة البرتغاليين دون مساعدة قوى أخرى . وبدلاً من أن تتوحد القوى الإسلامية الكبرى في الخليج - مثل إيران وعمان والدولة العثمانية - تضاعفت الخلافات

والصراعات بين هذه القوى الإسلامية مما ساعد البرتغاليين على اشعال الفتنة في المنطقة للاستفادة منها والاحتفاظ بمصالحهم . أما الشاة عباس فاتجه إلى شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تتطلع لأن تمارس نشاطها في هذه المنطقة على حساب للمصالح البرتغالية . وكانت الشركة البريطانية مهيأة ومستعدة للقيام بعمليات عسكرية ضد البرتغاليين مقابل حصولها على امتيازات تجارية في إيران والخليج(٢٢) .

وكان أن رحبت شركة الهند الشرقية واستجابت لطلب الشاة بمساندته في صراعه ضد البرتغاليين ، حتى تمكن التحالف الإيراني الإنجليزي من تحرير جزيرة هرمز في عام ١٦٢٢م . ثم تطلعت الشركة لملء الفراغ الذي تركه البرتغاليون خاصة في هرمز(٢٣) . وعندما أدرك الشاة أهداف البريطانيين ، نقل نشاط هرمز التجاري إلى ميناء جمرون الذي سمي فيما بعد بندر عباس . أما البرتغاليون فانسحبوا إلى عمان التي كانت تعاني من الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية ، فاحتلوا مسقط ومطرح وصحار وجميع الموانئ الهامة . وكان ذلك الاحتلال ضربه مؤلمة لكل سكان عمان . واشتد البرتغاليون في قسوتهم ضد العرب فمنعوا العمانيين من دخول الموانئ التي احتلوها وحرموا سكان عمان من مزاولة التجارة .

أما إيران فقد حدث فيها أيضًا مثلما حدث في عمان . وكان لظهور شخصية ناصر بن مرشد اليعربي في عام ١٦٢٤م مؤسس دولة اليعاربة أثره في تغير الأوضاع ، إذ بايعه العمانيون ليكون أول إمام بعد أكثر من قرن من الزمان . وقد قام ناصر بمهمة توحيد القبائل العمانية قبل أن يواجه الوجود البرتغالي ، ثم بدأ بمهاجمة المعاقل البرتغالية لتبدأ حركة المقاومة العربية . وعندما خلف سيف بن سلطان ، تخلص من الغزاة في عام ١٦٥٠م وبذلك تحررت عمان(٢٤) .

وقد اعتقد الخليجيون أن مشكلتهم قد انتهت ، وأن أوضاع الخليج ستعود إلى سابق عهدها ، وأن سفنهم التي كانت معطلة ستجوب البحار والمحيطات من جديد . ولكنهم فوجئوا بأن ما حدث هو العكس ، إذ لم يكن لسكان الخليج

الامكانات لتنفيذ مشاريعهم ، بل لقد زادت الفرقة والخلافات في الوقت الذي كان يجب توحيد الصفوف .

وبانهيار النفوذ البرتغالي ، تصارعت القوى الأوربية على المنطقة ، وأصبح بحر العرب والخليج العربي مرتعًا للسفن الأجنبية من كل حدب وجنس ، من الإنجليز والهولنديين والبرتغاليين والفرنسيين وغيرهم . ويتحمل الخليجيون مسئولية جذب هذه القوى الأوربية إلى مياه الخليج . فعلى سبيل المثال طلبت الدولة الصفوية من شركة الهند الشرقية مساندتها ضد البرتغاليين ، ثم طلب الشاة من الهولنديين الذين كانوا على مقربة من الخليج مساندته ضد الإنجليز ، وقدمت الحكومة الفارسية تسهيلات كبيرة لكل القوى الأجنبية . ولم يمر وقت طويل حتى جاء الفرنسيون أيضًا إلى المنطقة ليدخلوا في صراع مع الإنجليز . وهكذا حتى كانت الصحوة ، ومنّ الله على بلاد الخليج بالدخول في عصر النفط ، لتسترد ما فقدته بضياع مكانتها التجارية كحلقة وصل بين الشرق والغرب . وها هي دول الخليج تنعم بالاستقلال بعد أن تم طرد المستعمرين الدخلاء ، وتشهد نهضة حضارية شاملة عمت البلاد والعباد . ولم يبق على دول الخليج العربي سوى أن توحد صفها وتدعم بنيانها لتحقق المزيد تحت مظلة الإسلام والعروبة .

الهوامش

(١) د . سيف شاهين الريحي : الحياة الاقتصادية في قطر منذ ظهور الإسلام حتى نهاية القرن الرابع عشر (الهجري) ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، العدد ٨ ، ص٣٩ .

(٢) عمر الدين الزركلي : الإعلام ، بيروت ، ج٢ ، ١٩٨ ، ص١٩٥ .

(٣) د . مصطفى عقيل : التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ - ١٧٦٣ ط٢ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ص١٦ .

(٤) رحلة سليمان التاجر : أخبار الصين والهند ، خريف ٢٣٧هـ ، باريس ١٩٤٨م ، ص٧ .

(٥) ملا مرضا معصومي : سوانح (تذكر طاهري) ، طهران ١٣٥٢هـ ، ص٦ .

(٦) حمد الله مستوفي : نزهة القلوب ، حمد الله مستوفي قزويني ، ص١٤١

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٦٨

(٨) نفس المرجع ، ص٩٦٩

(٩) ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز حماد بدر ، ١٩٧٧ ، القاهرة ، ص٧٦

(١٠) د . محمد عبد العال أحمد : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٧٢

(11) C.R. Boxer, The Portuguese Seaborne Empire 1415 - 1825 , P.22 London 1969.
(12) Ibid , P . 21.

(١٣) ك . م بانيكا : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز حماد بدر ، القاهرة ، ص٤٧

(١٤) د . مصطفى عقيل : التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ - ١٧٦٣ ، ص١٥

(١٥) مجهول – سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، وزارة التراث القومي العماني، ١٩٧٧ ، ص١٤

(١٦) عائشة علي السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ، دار القدس بيروت، ١٩٧٥ ، ص٤٢

(17) Savory-Roger, Iran under Safavids, P.27 , London 1981 .

(١٨) سيد حسن بن مرتضى حسيني – استر آبادي – از شيخ صفي – تا شاه صفي ، تحقيق إحسان اشراقي ، طهران ، بدون ، ص٣٤

(١٩) د . مصطفى عقيل : المرجع السابق ، ص٢٤ .

(٢٠) الشيخ أحمد زين الدين المعري المليباري ، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، ص١٩٨

(21) Wilson, sir Arnold T, The Persian Gulf, London, 1956, P.113.
(22) Steensgard, Nicls, The Asian Trade Revlution of the Seventeenth Century, London, 1975, P.307 .

(٢٣) عباس إقبال : مطالعاتي "باب بحرين وجزاير وخليج فارس" ، طهران ، ١٣٢٨ ، ص٩ .

(٢٤) نور الدين السالمي : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ط٥ ، ١٣٩٤هـ ، ص٦ .

الحياة الاجتماعية في دول شرق شبه الجزيرة العربية في القرون الثلاثة الأخيرة

سهيلة زين العابدين حماد*

جغرافية الخليج وأثرها على النشاط السكاني :

مما لا شك فيه أن للظروف الطبيعية الجغرافية من موقع وتضاريس ومناخ ، وما تحويه الأرض من ثروات أثرًا كبيرًا في تشكيل نمط الحياة الاجتماعية في أي مجتمع ؛ إذ أنها تؤثر في تكيف المجتمع الذي يعيش على أرضها والأعمال والحرف التي يزاولها ، والعادات والتقاليد والأعراف والقوانين التي تنظم حياته .

وعند دراستنا للحياة الاجتماعية للساحل الغربي للخليج العربي ، أرى أنه من الضرورة بمكان أن نبدأ بالقاء نظرة سريعة على موقعه وتضاريسه ومناخه ، وثرواته الطبيعية لتساعدنا هذه النظرة في التعرف - بصورة أكثر عمقًا ووضوحًا - على أنماط الحياة الاجتماعية لهذه المنطقة بل وتاريخها وحضارتها ونهضتها .

والواقع إن الخليج العربي عبارة عن مسطح مائي ليس قائمًا بذاته ، وإنما هو إمتداد داخلي لخليج عمان ، ويكونان معًا ذراعًا للمحيط الهندي(١) . ويعرف القسم الجنوبي منه باسم خليج عمان الذي ينتهي بمضيق هرمز ، ويتسع بعد ذلك مكونًا الخليج العربي .

وتنقسم سواحل الخليج إلى ثلاثة أقسام هي :

١ - السواحل العربية : وهي موضوع بحثنا هذا - وهي منبسطة تتخللها التلال وأكثرها قاحل ، إلا أن بها أهم مغاصات اللؤلؤ في العالم ، وأهم حقول

---

* عضو اتحاد المؤرخين العرب ، وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية .

البترول . وتضم اليوم إقليم الاحساء بالمملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين ومشيخات الساحل العمانى سابقًا " الإمارات العربية المتحدة حاليًا " وسلطنة عمان .

٢ – السواحل الشمالية : وتشمل سواحل عربستان والعراق ويتكون من سهول مستوية جرداء باستثناء ضفاف شط العرب وبعض شواطئ نهر قارون .

٣ – السواحل الفارسية : وتمتد من الجنوب الشرقى قرب مضيق هرمز إلى الشمال الغربى فى المحمرة والأهواز ، وبها عدة موانئ متصلة بطرق القوافل التى تخترق هضبة إيران ، وأهمها بوشهر وبندر عباس ولنجة وجاسك وغيرها(٢) .

وإذا نظرنا إلى السواحل العربية للخليج نجدها ضعف سواحله الفارسية ، كما يضاف إلى هذه المساحة الساحل الشرقى من الخليج الذى يخضع لسيطرة إيران لأن أغلب سكانه من أصول عربية بنسبة حوالى ٩٥٪ إذ تقطنه قبائل عربية منها بنو كعب وبنو تميم . وينتمى بنو كعب إلى قبيلة أسد المعروفة فى الجزيرة العربية ، ويبدو أنها دخلت عربستان فى القرن السابع عشر الميلادى ، وقويت سلطتها بسرعة ، مما مكن شيخها أن يحتفظ باستقلاله التام عن فارس والدولة العثمانية . وقد أنشأوا إمارة المحمرة التى تنافس عليها العثمانيون والفرس .

وجزر الخليج كثيرة ، أكبرها وأهمها البحرين ثم قشم . وفى الوقت الحاضر برزت أهمية خاصة لجزر ثانوية نتيجة لاكتشاف البترول بها مثل الخشرج ، وحالول ، ودلس . والخليج فى مجموعة بحر ضحل ، إذ تصل أقصى أعماقه إلى ١٠٠ م عند مضيق هرمز ، ومتوسط العمق عامة ٣٥م ، والمياه عميقة بوجه عام قرب السواحل الإيرانية ، وضحلة إلى شديدة الضحولة فى الجانب العربى من الخليج وقاع الخليج أمام الشواطئ العربية معظمه من الرمال الجيرية(٣) .

وتؤثر شبه جزيرة قطر ببروزها من الساحل العربى إلى وسط مياه الخليج على الشكل الطولى للخليج ، فى تغير إتجاه التيارات البحرية وقط

الترسبات فى القسم الجنوبى الغربى من الخليج " وهو القسم الذى يتميز بكثرة شطوط اللؤلؤ "(٤) .

شط اللؤلؤ :

ويمتد من الشارقة إلى البحرين مرورًا بجزيرة حالول رصيف مرتفع فى قاع الخليج يكون شط اللؤلؤ الكبير أمام سواحل قطر والبحرين وأبى ظبى . والأعماق هنا تتراوح بين ١٨–٢٧م ، وفى بعض الأماكن تصل إلى ٣٥ و ٤٠ لكن هناك الكثير من الفجوات التى توجد على أعماق تتراوح بين ٥ و ١٥ م ، ويلاحظ عدم انتظام الأعماق على الجوف والحفرات ، إذ تتغير فجأة من ٣ أو ٥ م إلى مناطق عميقة أو شديدة الضحالة "متر إلى ٥ أمتار" وذلك بسبب وجود الفشوت المرجانية(٥) .

والقاع فى شط اللؤلؤ صخرى يتكون من الحجارة والمرجان المتقطع التى لا تظهر بادية للعين إلا فى الجو المائل بالغيوم . وتوجد فى المنطقة بين قطر وأبى ظبى عشرات الجزر معظمها ذات سطوح رملية منخفضة ، والقليل منها عليه بعض التلال باستثناء جزيرة " دالما " . وهذه الجزر لم يكن يرتادها سوى صيادو السمك ، وصيادو اللؤلؤ فى موسم الغوص .

والملاحة فوق شط اللؤلؤ غير خطرة حيث تيارات المد قوية تتراوح سرعتها بين نصف إلى ثلاثة أرباع العقدة ، وتعتمد الملاحة أساسًا على العين المجردة . وتؤثر تيارات المد والجزر بشدة على تركيب الرواسب فى قاع الخليج حتى فى أحزائه العميقة ، كما تؤدى درجة التبخر العالية مع العزلة النسبية لهذا المسطح المائى إلى ارتفاع نسبة الملوحة التى قد تصل فى أقصى متوسطها إلى ٧٠ فى الألف(٦) .

مناخ الخليج :

أهم ما يميز مناخ الخليج أنه يقع ضمن نطاق جاف فى العالم ، ولذلك فإن الأمطار قليلة جدًا ، وكميتها وموسم سقوطها متغير كل سنة . ولقرب الجبال من

المشاطئ الإيرانى فإن كمية المطر الساقطة مع بعض الثلوج فى الأعالى تساعد على جريان المياه فى أنهار قصيرة بضعة أشهر من السنة . ولا وجود لهذه الظاهرة على الساحل العربى . وإلى جانب قلة الأمطار وعدم انتظامها يتميز الخليج بحرارة عالية معظم أشهر السنة ، ترتفع إلى ما بين ٤٥ إلى ٥٠ درجة مئوية صيفًا ، ولكنها تنخفض شتاء إلى نحو عشرين درجة ، والمدى الحرارى اليومى كبير بين برودة ملحوظة فى ليالى الشتاء قد يتكون معها الصقيع فى الأراضى الداخلية وبين حرارة النهار العالية نسبيًا . ويترتب على ذلك ارتفاع نسبة الرطوبة فى الشتاء وظهور الضباب على المنطقة الساحلية فى الصباح الباكر . هذا وترجع صعوبة مناخ الخليج إلى درجة الحرارة الشديدة مع درجة الرطوبة العالية(٧) .

وتعد الرياح عنصرًا متميزًا لمناخ الخليج ، إذ يتحول السكون والاستقرار صيفًا إلى عدم استقرار شتاءً لتغير الضغط الجوى شتاءً بسبب أعاصير البحر المتوسط التى تمر به . ويترتب على ذلك سرعة رياح الشمال على كل الخليج بالدرجة التى تجعلها خطرًا على الملاحة والأشجار . وتنقل هذه الرياح الشمالية الغربية معها كميات كبيرة من الأتربة .

والخلاصة : أن هذه الظروف أدت إلى وجود أقاليم رئيسية جغرافية فى الخليج لكل منها ظروفه الخاصة وهذه الأقاليم هى :

١ – إقليم الساحل : وظهيره المباشر كان ومازال مركز الكثافة السكانية فى الخليج ، وذلك لوجود مصدر غذائى لا ينضب هو " الأسماك " فضلاً عن موارد ثروة أخرى " اللؤلؤ والتجارة البحرية " .

٢ – ظهير الساحل : وهو فى منطقة الخليج إما أرض غير صالحة للسكن والاستخدام نتيجة للفقر الشديد بها ، كسبخة مطى الشاسعة ، وإما أرض رعوية تصلح للاستخدام البدوى بعض أجزاء السنة وخاصة فى الشتاء والربيع .

٣ – الواحات : ويتوقف وجود السكان المستقرين بها وقدرتهم على البقاء على مقدرتهم فى تدبير المياه وحسن استخدامها .

٤ – الصحراء : وهى تشكل مساحات شاسعة فى إقليم الخليج وتتكون من سطوح حجرية أو رملية يشتى أشكالها ، وفيها يظهر الجفاف بصورة مميزة ، ولذا فهى لا تتسع إلا لأعداد قليلة من الرعاة الذين يتحركون فصليًا فى مناطق معينة من أجل الاستخدام الأمثل للموارد الفقيرة(٨) .

آثار الظروف الجغرافية على نمط الحياة فى الخليج :

وكان لهذا التقسيم والتنوع الأقليمى أثره الواضح على نمط الحياة فى الخليج . ويظهر هذا بوضوح فى اختيار مواقع القرى والمدن ، وشكل المساكن وخاماتها ، وأنواع الأنشطة الاقتصادية بما فى ذلك العزلة أو الانفتاح باختلاف العصور . ولتركز معظم سكان الخليج فى إقليم الساحل فقد أصبح هذا الإقليم مركز الثقل فى الخليج منذ زمن بعيد . وكان اختيار مواقع المستقرات السكنية يخضع أساسًا لعدة عوامل مرتبطة بأشكال التكوين الساحلى (٩) .

* * *

سكان الخليج :

يشكل سكان الخليج من حيث أصولهم الأساسية جزءًا لا يتجزأ من السلالة القرعية التى تعرف باسم " السلالة الشرقية " وهى فرع من سلالة البحر المتوسط ، أو السلالة الوسطى . وتنتشر السلالة الشرقية فى كل ما هو معروف فى العالم العربى ، بالإضافة إلى سلالات أخرى كبيرة أو صغيرة فى الأقاليم المختلفة فى المغرب العربى والسودان والأجزاء الشرقية من العالم العربى فى الشام والعراق وجنوب الجزيرة.

هذا ويلاحظ أن الاختلاط السلالى فى منطقة الخليج محدود ، رغم أن بلاد الخليج بحكم موقعها فى نطاق تخوم السلالة الشرقية فإنها بالضرورة تقع فى نطاق

الاختلاط السلالى . وترجع محدودية الاختلاط السلالى فى منطقة الخليج للأسباب التالية :

١ – أن البلاد الخليج جزء من المنطاق الصحراوى الذى لا يفرى بالهجرة إليه إلا فى ظروف قصوى وبأعداد صغيرة ، كما أنه فى الأساس مصدر للهجرة إلى خارجة منه إلى داخله .

٢ – إن المسطح المائى للخليج برغم أنه ليس من الاتساع بحيث يشكل حاجزًا مانعًا إلا أنه كأى مسطح مائى مانع أمام حركات الهجرة الكبيرة ، ويسمح فقط بحركة التسرب لجماعات صغيرة العدد وعلى فترات زمنية طويلة .

٣ – إن قلب الجزيرة العربية السكانى فى اليمن ونجد والحجاز كان دائمًا مصدرًا لهجرات وحركات القبائل العربية تجاه عمان والخليج مما أدى إلى دعم الصبغة العربية للخليج بصفة دائمة .

٤ – إن عرب الخليج هم الذين عبروا مياه الخليج مرارًا وتكرارًا فى كل الاتجاهات من الساحل العربى إلى الساحل الإيرانى بالعكس ، واستقرت قبائل عربية على الساحل الإيرانى كبنى كعب والقواسم وبمجموعات أخرى عربية عرفت جماعيًا باسم " الهولة " أو " بنى المهولة "(١٠) .

أما النفوذ السياسى الفارسى فلم يكن محسوسًا إلا فى مناطق معينة من الساحل فى فترات ازدهار فارس فقط . وفضلاً عن استقرار القبائل والعشائر العربية على الساحل الشرقى للخليج ، فإن النفوذ السياسى لسلطنة عمان وإمارة القواسمة فى جلفار " رأس الخيمة " والشارقة كان واضحًا وقويًا لفترات على أجزاء من الساحل الفارسى وجزره ، أى أن الخليج كان بحيرة عربية بغض النظر عن الأوضاع السياسية(١١) .

وكان للعلاقات التجارية والسياسية فى إمارات الخليج خلال العصور الإسلامية أثر فى جلب مؤثرات إفريقية وزنجية وبعض مؤثرات من غرب الهند ،

"مليار ، بمباى ، جوجرا" بصفة خاصة. وقد ازدادت المؤثرات الإفريقية خلال فترة ازدهار السلطنات العربية على شاطئ إفريقية الشرقية خاصة زنجبار ، ومالندى، ولامور ، وما عرف بساحل " البنادر " فى الصومال وسفالة فى موز مبيق .

وفى فترة النفوذ الإنجليزى فى الخليج زادت المؤثرات الهندية فى منطقة الخليج ، ولكن التكوين السكانى فى الخليج كان قد اكتمل بصورته العربية من فترة طويلة ، فضلاً عن أن الهنود فى الخليج فى تلك الفترة كانوا بمجموعات حضارية منفصلة مرتبطة بحرف وأنشطة معينة متقوقعة على نفسها فى ظل الحماية الإنجليزية، ولم يحدث معهم أى اختلاط سلالى .

وهكذا نجد أن سكان الخليج فى أوائل هذه القرن كانوا يتشكلون من غالبية ساحقة من العرب ومن والاهم ، وبعض الإيرانيين الذين يمكن التفاعل معهم ، وعدد من الهنود . وفى هذا المضمار يمكن أن نضيف بعض المؤثرات التركية فى أجزاء من شمال الخليج ووسطه . خاصة فى الحسا حيث استقرت عائلات تركية تزاوجت فيما بعد مع العرب وصارت جزءًا من النسيج السكانى للمنطقة الشرقية.

التكوين العنصرى للسكان :

من خلال هذا العرض السريع لمكونات النسيج السلالى فى إقليم الخليج تبين لنا أن العنصر العربى هو العنصر المكون لهذا النسيج ، وأن اليمن والحجاز ونجد هى الموطن الأصلى لهؤلاء السكان . لذا نجد أن سكان الخليج ينتمون إلى قبائل الجزيرة العربية التى ترجع أصولها إلى مجموعتين :

الأولى : قبائل عربية فى الشمال وهى عدنانية حجازية .

الثانية : فى الجنوب وهى قحطانية يمانية ، أى عرب العاربة فى الجنوب ، وعرب المستعربة فى الشمال ، ولابد لأى قبيلة فى الخليج العربى أن ترجع إلى إحدى هاتين المجموعتين وإلا فلا تعتبر عربية(١٢) . ولهذا نجدهم حريصين على

الصاق اسم القبيلة التي ينتمون إليها بأسمائهم لتكون بمثابة اللقب العائلي ، وذلك تأكيدًا لعروبتهم .

وقد احتفظت معظم القبائل بمقوماتها من التراث والتقاليد والعادات واللهجات دون أن تختلط . ولا زالت تحافظ على هويتها إلى يومنا هذا رغم قوة الغزو الفكري والتغيرات السياسية والاقتصادية وافرازات الحضارة الغربية . وهي تحاول الإحتفاظ بالجذور مع مسايرة الركب الحضاري(١٣) . وقبل مجيء الاستعمار البرتغالي إلى المنطقة في العصر الحديث أقامت التجمعات القبلية كيانات سياسية في الخليج العربي من أهمها الجبور في الاحساء والبحرين وبني نبهان في عمان إضافة إلى القبائل العربية في مملكة هرمز(١٤) .

* * *

لم تتوقف الهجرات العربية سواء كانت من القبائل الحجازية العدنانية أو القحطانية اليمانية إلى سواحل الخليج العربي . ومن ضمن هذه الهجرات العتوب إلى كل من قطر والكويت والبحرين(١٥) وتختلف المصادر في تحديد تاريخ هجرة العتوب من موطنهم الأصلي والطريق التي سلكوها أثناء هذه الهجرة ، مما يحول بيننا وبين تحديد مسارهم على وجه الدقة . إلا أنني أطمئن إلى ما ذهبت إليه الدكتورة ميمونة الصباح(١٦) من تحديد لتاريخ هجرتهم ومسارها ، لما أتت به من شواهد تؤيد ما ذهبت إليه . وتقول الدكتورة ميمونة الصباح بهذا الصدد :

" إن أقرب تاريخ لهجرة العتوب من الهفار إلى ساحل الخليج هو العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري ، أي أن هجرتهم كانت قبل أكثر من ثلاثة قرون من التاريخ الحاضر . فإذا وضعنا ستة تقريبية وهي ١٠٨٢هـ يكون عام ١٦٧١م بداية هذه الهجرة ، بل ربما قبل ذلك حيث تمت في زمن حكم " براك بن عريعر " للأحساء وفتح القطيف عام ١٠٨٢هـ ، وذلك لأن الأخبار التي تناقلها الخلف عن السلف تؤكد اشتراك العتوب في هذا الفتح ، لاسيما وأن هناك واقعة

مادية تعزز لنا هذه المشاركة ، وهي أن الأمير براك منح العتوب مكافأة على مساعدتهم له في هذا الفتح في القطيف " ثم تقول : " وهذه الحادثة المادية توضح كذلك الطريق الذي سلكه العتوب في هجرتهم من موطنهم الأصلي إلى الكويت. فمن المسلم به أنهم هاجروا إلى قطر حيث استقبلهم آل عريعر " بنو خالد " وأسكنوهم بين ظهرانيهم، حين كان لبني عريعر السيطرة على سواحل الاحساء". وهذا ما تؤكده كذلك حجة الوقف الخاص بهذا النخل على مسجد آل خليفة في الكويت ، والتي تثبت نزول العتوب بالاحساء قبل نزولهم إلى قطر ، كما تظهر لنا هذه الحادثة أن بداية العلاقات الطيبة بين العتوب وبني خالد تعود إلى تلك الفترة . وهذه الواقعة المشتركة التي عززت العلاقات ودعمتها دعت بني خالد إلى رعاية العتوب وحمايتهم واستقبالهم في كل الأماكن التي حل بها العتوب أثناء هجرتهم من الأماكن التابعة لآل عريعر "(١٧) .

ثم تؤكد الدكتورة ميمونة الصباح أن واقعة فتح القطيف تمت سنة ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) ممتثلة إلى ما جاء على لسان أحد شعراء القطيف :

رأيت البدو آل حميد لما تولوا أحدثوا في الخط ظلمًا

أتى تاريخهم لما تولوا كفانا الله شرهم " طغى لما "

أما عن خط سير العتوب فتحدثنا عنه قائلة : " هذا وقد توجه العتوب من الاحساء إلى قطر واستقروا في قرية العزيمة قرب " الزبارة " . وكانت قطر تخضع لنفوذ بني خالد في ذلك الوقت مما مكنهم من الاستقرار بها لبعض الوقت فاستوطنوها تحت إمرة حكامها آنذاك " آل مسلم " . ومن مسكنهم الجديد في " فريحة " أسسوا لهم روابط قوية مع البحرين لأن الأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ كانت في البحرين ، لذلك وجدناهم يتنقلون بين البحرين وقطر لعدم وجود حواجز وقتئذ تمنعهم من الانتقال ، كجمولزات وجمارك وغير ذلك ، بل كان التنقل وحتى التملك ميسورًا بين البلدين دون وجود قوانين تحده "(١٨) .

وبعد مضى فترة على استقرار العتوب فى قطر هاجروا منها بواسطة البحر ، واتجهوا إلى عدة مناطق على الشاطئ الشرقى للخليج مثل جزيرة " قيس " و"عبادان" . ولم يطب لهم المقام فتحولوا إلى الصبية " شمال شرقى الكويت " . غير أن السلطات العثمانية القائمة هناك لم تسمح لهم بالإقامة فى تلك المنطقة لحدوث اعتداءات على بعض القوافل المارة هناك ، فاضطرت جماعات العتوب إلى ترك تلك المنطقة والتوجه إلى جنوب الكويت " كويت بنى خالد " الذين رحبوا بهم وسمحوا لهم بالاستقرار هناك ومنحوهم تلك المنطقة(١٩) .

وقد تمكنت هذه القبائل من إنشاء الكيانات والقيام بدور هام فى أحداث منطقة الخليج العربى ، مما دفع القوى الاستعمارية الأوربية إلى الدخول فى علاقات مع بعض تلك الكيانات ، وإلى الاصطدام العسكرى معها فى بعض الأحيان ، مثلما حدث بين الاستعمار الهولندى وقبائل ميناء ريف، وجزيرة الخرج والاستعمار البريطانى ضد قبائل بنى كعب فى عربستان وضد قبائل ساحل عمان(٢٠) .

وفى ضوء ما تقدم نجد أن سكان الخليج ينقسمون إلى المجموعات التالية:

١ – السكان المستقرون : فى مساكن دائمة فى قرى ومدن المنطقة الساحلية ، ويمارسون أنشطتهم البحرية من صيد الأسماك والغوص بحثًا عن اللؤلؤ والتجارة البحرية الداخلية وحرف أخرى متعددة ، مما تقتضيه حياة الاستقرار وتقسيم العمل وأنشطة البحر . وتشكل هذه المجموعة من سكان الخليج حوالى ٧٠٪ من مجموع سكان شرق الجزيرة(٢١) .

٢ – البدو : ويتصفون غالبًا بالهجرة الموسمية مع قطعانهم فى أرض معلومة تحرزها كل عشيرة أو قبيلة ، ولهذا فإنهم لا يسكنون مساكن ثابتة ، وإن كانت لديهم فى بعض الحالات ممتلكات دائمة فى الواحات أو بعض قرى ومدن الإقليم الساحلى ، أو إدعاءات على أراض معينة هنا وهناك مما سهل عملية انقسام العشائر والقبائل وتوطن بطون منها بصفة دائمة فى مناطق الساحل أو الواحات .

٣ – أنصاف البدو : هم أولئك الذين يكونون فى مرحلة التحول الاقتصادى من الاعتماد على الرعى وحرفة أخرى كالزراعة أو الإشراف على ممتلكاتهم الزراعية أو التجارة والنقل ، أو الغوص ، إلى الاهتمامات السياسية بعقد التحالفات مع السكان المستقرين فى الواحات أو المدن الساحلية ، وتكوين القوة العسكرية لهؤلاء أو أولئك ، ويقدر عدد البدو بنحو خمس إجمالى السكان .

٤ – سكان الواحات الكبيرة : الاحساء والقطيف والبوريمى والواحات الصغيرة لبوا ، الزيد ، وحجرين " أوبيرين " وفيها أعداد من السكان من أصول مختلفة ومختلطة . وهم يمارسون معظم الأعمال الزراعية وكافة الأعمال المرتبطة بالمجتمع الريفى من تجارة وخدمات وتدبير مياه الرى وتنظيمها ، فضلاً عن الحرف البدوية والصناعات البيتية . وهناك بعض الواحات اشتهرت بصناعات معينة كالعباءات فى الاحساء ، والمصوغات المعدنية والنحاسية فى بهلا ونزوى " عمان" ومشغولات أخرى كثيرة(٢٢) .

ويلاحظ على أقسام السكان فى الخليج العربى الآتى :

١ – أنها تتسم بالمرونة وعدم التجمد ، بمعنى أن هناك تداخلاً بينها عن طريق التزاوج لمزيد من الروابط الاقتصادية والسياسة ، مما أهل جماعات النسب إلى الانتقال تدريجيًا فى الجيل التالى إلى أنشطة وأنماط حياة أخرى ، كانتقال بعض البدو فرادى أو جماعات " عائلات " من نمط حياة إلى آخر كما كان واضحًا فى تكوين مجموعة أنصاف البدو .

٢ – كما نلحظ دور التقلب المناخى فى تغيير كينونة البداوة وتغيير نمط الحياة ، لأنه كان وراء هجرات البدو الواسعة بين الأقاليم .

٣ – إن طبيعة التركيب الاجتماعى الاقتصادى والسياسى للرعاة والمجموعات العشائرية التكوين تحتوى على مبدأ الغزو والحرب لأسباب جوهرية أو غير جوهرية(٢٣) .

٤ - أن المتغيرات الاقتصادية والسياسية في الخليج لها دور كبير في تناقص السكان ، فالضغوط البدوية ، والمنازعات حول مغاصات اللؤلؤ والحروب في البحر ، وظهور القوى الأوربية في الخليج بغرض التضييق على تجارة العرب التقليدية لصالح الاحتكارات التجارية الغربية ، وظهور تجارة الأسلحة الغربية ، كل هذا أدى إلى تناقص السكان .

وقلة السكان في الخليج قضية خطيرة يجب التوقف عندها ، ودراستها والعمل على التغلب عليها لما يترتب عليها من نتائج اقتصادية واجتماعية ضخمة .

وعندما وجدت هذه الأقطار نفسها تعاني من فراغ سكاني على الرغم من اختلاف مستوى الكثافة العددية للسكان ، لجأت إلى ملء هذا الفراغ عن طريق العمالة الوافدة(٢٤) . وهكذا فإن عدد سكان هذه الأقطار يبلغ حوالى ٢٠ مليون نسمة مع الوافدين . وتشكل العمالة الأجنبية أكثر من ثلث قوة العمل ، وحوالى ٢٩٪ من السكان الوافدين لدول الخليج العربى(٢٥) ، ويشكل الوافدون فى الكويت ما يقارب ٧٠٪ من مجموع السكان وفق ما جاء فى تقرير تعداد سكان الكويت سنة ١٩٩٥م(٢٦). أما فى عمان فتشكل العمالة الوافدة نسبة ٢٦٪(٢٧)، وذلك وفق ما جاء فى أحصاء ١٩٩٣م . وأما فى المملكة العربية السعودية فيشكل الوافدون حوالى ٢٥٪ من سكان المملكة وفق آخر إحصاء للسكان . ولا شك فى أن كثرة العمالة الوافدة تترتب عليها عدة آثار ، منها :

١ - إحداث خلل فى الهيكل النوعى الجنسى للسكان ؛ إذ لا يتوفر التوازن بين الذكور والإناث . فالدراسات تشير إلى ارتفاع نسبة الذكور فى الأقطار المستقبلة للعمالة الوافدة ، ففى دولة الإمارات العربية ارتفعت النسبة من ١٦٢ لكل ١٠٠ أنثى فى عام ١٩٦٨ إلى ٢٢٥,٤ فى عام ١٩٧٥م . وفى بعض مدن الإمارات ترتفع النسبة بصورة مذهلة إذ تبلغ النسبة فى أبى ظبى ٩٣٣ (لكل ١٠٠ أنثى) . وفى البحرين تبلغ النسبة للبحرينيين ١٠٠

للسكان الوطنيين و٢٣٤ بالنسبة للوافدين . ومن هنا نجد أن الهجرة الأجنبية تمارس تأثيرًا خطيرًا فى مسألة الموازنة النوعية لسكان الأقطار المعنية ؛ إذ أصبحت بعض المدن مغلقة ، على الوافدين الأجانب مكونة مجتمعًا أحادى الجنس . وهذا الواقع يؤدى إلى أوضاع اجتماعية ونفسية شديدة التعقيد بالغة الخطورة ، ولابد من العمل على وضع حلول عاجلة لها .

٢ - إحداث خلل فى الهيكل الاقتصادى والمهنى للسكان وقوة العمل ، وهذا يرجع إلى :

(أ) قلة الموارد الزراعية فى معظم هذه الأقطار .

(ب) اعتماد نمط التنمو على إقامة الهياكل الارتكازية والخدمية وإقامة المشاريع ذات الكثافة الرأسمالية العالية والمعدة للتصدير .

(جـ) تضخم قطاع الخدمات لاسيما غير الإنتاجية .

* * *

نشاط السكان قبل اكتشاف النفط :

تعددت أوجه نشاط سكان الخليج فى عصور ما قبل النفط ، على أن معظم هذه الأنشطة ارتبطت بالبحر ، وكان أهمها الغوص وصيد اللؤلؤ .

والواقع أن لؤلؤ الخليج العربى يتمتع بشهرة لكونه أجود أنواع اللؤلؤ فى العالم . وقد كان مشهورًا بذلك منذ أقدم العصور ، حتى قال السومريون منذ خمسة آلاف عام ، أن (دلمون بلاد عيون السمك) أى اللؤلؤ ، ودلمون هى البحرين حاليًا . كذلك تحدث الفينيقيون عن لؤلؤ تايلوس فى الخليج العربى(٢٨) . ومن أقدم المصادر التى أشارت إلى ذلك لوح بالخط المسمارى عثر عليه فى نينوى فى العراق حيث كتب عليه " فى البحر المتغير الرياح " الخليج العربى " كان تجاره يبحثون عن اللؤلؤ . وقد وصف أبو زيد حسن طرق الغوص فى القرن العاشر مبينًا أنه لم يطرأ أى تغيير عليها خلال الألف سنة الماضية(٢٩) .

وكان تجار الجزيرة يغوصون بحثًا عن هذا اللؤلؤ ، وقد كونوا ثروات طائلة من ذلك[٣٠] . وكانت الكويت وجزيرة دلما مراكز تجارة اللؤلؤ في الخليج العربي . وشهدت هذه الحرفة في الكويت ازدهارًا في عهد الشيخ مبارك الصباح ولاسيما في عام ١٩١٢م . ففي ذلك العام بلغ عدد سفن الغوص ٨١٢ سفينة وبلغ الدخل ستة ملايين روبية ، ولذلك سمي ذلك بعام الطفحة[٣١] .

أما الأسواق الخارجية فأهمها حلب وإسطنبول " عاصمة الدولة العثمانية " وبعد ذلك تأتي بومباي بالهند[٣٢] .

ويبدأ موسم الغوص لصيد اللؤلؤ في شهر مايو ويمتد إلى شهر سبتمبر ، ومدة الغوص الكبيرة أربعة شهور . وينتهي موسم الغوص في ٢٢ سبتمبر من كل عام حيث يتساوى الليل والنهار ويكون البحر باردًا . ونهاية موسم الغوص يسمى " القفال " وهي لفظة عربية مشتقة من القفول أي " الرجوع " وكان يوم القفال عيدًا كبيرًا[٣٣] .

أما عن مراتب حرفة الغوص . فقد تدرجت من حيث التنظيم الاجتماعي على ثلاث مراتب هي :

١ – مرتبة النواخذة : هم ربابنة مراكب الغوص والعارفون أسرار المهنة ، وخاصة أماكن الغوص ، وكان النواخذة يزاول نوعًا من الامتياز في مقابل ما لهم بالمال مقدمًا قبل الخروج إلى البحر لكي يتركوا لأهلهم ما ينفقونه إبان الغياب في البحر ، وليعدو لأنفسهم ما يحتاجونه أثناء الانقطاع عن الشاطئ ، وبذلك يلتزم العامل بالعمل مع النوخذة إلى حين تحقيق نصيب من الربح يعادل ما أخذ سلفًا . فإذا قصرت أرباح الموسم كله عن ذلك ، وكثيرًا ما كان يحدث ، كان العامل ملزمًا بالعمل لدى النوخذة نفسه في الموسم التالي ، فإذا مات وهو مدين كان ابنه ملزمًا بأخذ مكانه حتى يسدد دين أبيه[٣٤] .

٢ – مرتبة البحارة : وتضم الغواصين والسيوب والرضف وهم الذين يقومون متناوبين على صيد اللؤلؤ ، فالغواصون لصيد اللؤلؤ والسيوب يساعدونهم بسحبهم من الماء ، والرضف يساعدون السيوب في أعمالهم .

٣ – مرتبة المتابين : وهم الشبيان الذين يرافقون المراكب لتعلم الحرفة والقيام ببعض الخدمات .

وكان النوخذة يملك مركب الغوص وما عليها من معدات ، ويعمل معه على ظهر المركب عدد من الغواصين والرضف ، وهم يحملون ولا يملكون شيئًا من معدات الحرفة ، ويرافق المركب عادة عدد من الصبيان أو الشباب يتعلمون الحرفة ويصبحون في المستقبل غواصين أو سيوب كل حسب استعداده . وسفينة الغوص تمثل وحدة الإنتاج ، وهي وحدة صغيرة ومستقلة يرأسها النوخذة الذي يملكها ويقودها في الغالب ، ويبلغ متوسط المشتغلين عليها من البحارة ثلاثين . ويقوم النوخذة بإطعامهم ثم محاسبتهم في نهاية الموسم على نصيبه المعين من الإنتاج بعد خصم ثمن الأكل[٣٥] .

أما الطواويش فهم تجار اللؤلؤ ، ومفردها " الطواش " ، " بفتح الطاء مع تشديدها " . وطاش في اللهجة الخليجية معناها ذهب لشراء اللؤلؤ ، ويقولون فلان يطوش الآن أي يذهب إلى السفن لشراء اللؤلؤ ، والطواشة تعني تجارة اللؤلؤ[٣٦] .

وفي الكويت كان يسافر الطواشون إلى مغاصات اللؤلؤ بعد سفر الغواصين بنحو شهر ، حتى يتمكن الغواصون من جمع اللؤلؤ ، وحتى يكونوا على بينة من أسعار اللؤلؤ في البحرين وبومباي ، ويعودون مع الغواصين أثناء القفال . ويصطحب الطواشون معهم أولادهم الصغار حتى يتدربوا على العمل منذ الصغر ، ويلموا باللؤلؤ ، وأوزانه ، وأشكاله ، وأنواعه ونحو ذلك ، فيخرج بعد ذلك

أبناؤهم مثلهم ملمين بالعمل بواسطة الممارسة . وكان الطواويش يشترون اللؤلؤ من النواخذة ثم يجمعونه ويصنفونه ويبيعونه على بعضهم بعضًا حتى ينحصر في أفراد قليلين ، ويسافرون به إلى الهند ويبيعونه هناك ، أو ربما تمكنوا من بيعه في السوق المحلي للتجار . وبمرور الزمن أخذ عدد من النواخذة القدامى وأكثر النواخذة الجدد يلجأون إلى الطواويش والتجار لتمويلهم في بدء الموسم . ويلتزم النواخذة ببيع محصولاتهم لمن يديونهم من الطواشين والتجار من مراكب الغوص التي تعمل لحسابهم ، وبذلك قلت أهمية النوخذة المنفرد . وأخذ أسطول الغوص الذي يملكه التاجر يحل محل المركب الواحد الذي كان يملكه النوخذة .

ومنذ سنة ١٩٢٥م تقريبًا بدأ الكساد يدب في حرفة الغوص نتيجة لاكتشاف اللؤلؤ الصناعي المزروع ، وأخذ الاهتمام يوجه إلى ميدان النقل والأسفار البحرية . ولم يلبث الغوص أن ضعف إلى درجة كبيرة بعد اكتشاف البترول سنة ١٩٣٨م ، فكان إيذانا لمرحلة جديدة من التطور قضت أو كادت على التنظيم الحرفي للغوص(٣٧) .

أما عن الحياة على سفينة الغوص ، فتقول السيدة أنجلا كلارك بترجمة الدكتور محمد الخزاعي :

" كان طاقم السفينة يتكون من ستين رجلاً يضم الغاصة والسيوب والرجال الذين يقومون بسحب حبال الغاصة كما يقومون بالتجليف ، واثنان من الصبية لتأدية الأعمال البسيطة على سطح السفينة ، ومساعد للربان ، والربان . وكان الغاصة ضعيفي البنية ، وقليلي الأكل . وأما السيوب فكانوا أقوياء البنية عريضي المنكبين وضخام الساعدين . وكان الغاصة يعملون عارين من اللباس اللهم إلا من قطعة من القماش - الأزار - يسترون بها عوراتهم أو من سروال قصير داكن اللون ، لأن الألوان الأخرى تشد انتباه الأسماك الخطرة . أما أثناء موسم السمك الهلامي فكانوا يلبسون ملابس قطنية لتغطي أجسامهم خوفًا من أن يلسعهم هذا

المخلوق . وكان كل شيء يتم في السفينة بمصاحبة الغناء والإيقاع والتصفيق ، خصوصًا عندما يقوم الرجال بالتجديف . فكلما رفعوا المجاديف الثقيلة ذات الشفرات المربعة من المربعة من الماء سكتوا قليلاً لترتفع أصواتهم ثم تخفت كما لو كانوا يغنون بعمق ، ويقف عند كل مجداف رجلان ، وبعد أن يرفعوا المجداف في الماء ينقلون إلى الجانب الآخر منه ليرفعوه بسرعة ويسر هذه المرة ، حيث أنه لم يعد في الماء ، عندئذ يغيرون مواقعهم استعدادًا للتجديف . وعند وصول السفينة إلى مكان الغوص ترفع المجاديف وتثبت في أماكنها المخصصة بحيث يبرز الجزء الأكبر منها بشكل أفقي فوق الماء ، وبعد ذلك يبدأ الغوص . وكان لكل غواص حبلان ؛ الأول يستخدم عند النزول إلى الماء حيث يوجد في نهايته صخرة تساعده على الغوص إلى الأعماق بسرعة ، أما الثاني فيتصل بكيس " دبين " يوضع فيه ما يجمعه الغواص من المحار ، وكان الغاصة يبقون تحت سطح الماء لمدة دقيقة واحدة تقريبًا ، وعادة يغوصون على عمق ستة باعات " ٣٦ قدمًا " وكانوا أحيانًا يضطرون الغوص على ضعف هذا العمق(٣٨) .

هذا الوصف للحياة على سفينة الغوص حسب رؤية السيدة أنجلا كلارك اقتصر على ديناميكية العمل ، فلم يرسم لنا انعكاس هذا العمل الشاق على القائمين به جسديًا ونفسيًا . ولعل الأستاذ فالح حنظل كان أكثر تفاعلاً معهم ، فصور لنا معاناتهم في أدق صورة وأبلغ بيان : " فعالم الغوص كان عالم الألم والأمل بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى . الألم الجسمي ، والألم النفسي ، فالإنسان الذي يعمل على سفينة الغوص لمدة ثلاثة شهور أو أربعة في موسم الخير الخانق في الخليج العربي منذ صلاة الفجر حتى صلاة المغرب ، تحت أشعة الشمس اللاهبة ، وعلى ظهر سفينة تعج بالبشر ، ففيها ما يقارب المائة غاص وسيب وبحار ، مكدسين على ظهرها ، وجوههم مشدودة ، وقد غارت وجناتهم وأصبحت كأنها الجلد على عظام منقلصة ، الأيدي والرجل متقرحة من

الصخور المتكسرة أو الشعاب المرجانية ذات الرؤوس الحادة ، أو الحبل الذى يصلح الكفين ، والشمس قد شوت جلودهم، والمعدة خاوية ليس فيها إلا لقيمات تمر أو رشفة قهوة، والماء يعطى لهم" بالكيته "(بضم الكاف وسكون الباء وفتح العين) وهو لا يكاد يكفى لإرواء طفل ، وفى الغالب يكون حارًا ونتنًا وآسنًا . ولكن واحدهم رغم ذلك كالطود الشامخ لا يعبأ بشئ ، فمنظر العامل على سفينة الغوص لا يبدو وكأنه يستجدى العطف والشفقة من أحد ، فالحيوية ، والابتهاج والروح المعنوية العالية بادية عليه بوازره نوع من التسليم لإرادة الله بكل شجاعة وطمأنينة . وهذا الغواص الـ " هب ريع " الشجاع الأشم يغطس لمدة دقيقة واحدة تقريبًا فى كل مرة ، ومنهم من يستطيع أن يغطس مائة وعشرين غطسة فى اليوم . فيكون الغواص قد انقطع عن التنفس لمدة ساعتين يوميًا ، ثم يستطرد قائلاً :

" وهم يمشطون " البهير " لمدة يوم أو يومين ، ثم سرعان ما تقرع الطبول "نوخ" للمركب أى يتنقل إلى مغاصة قريبة من المغاصة الأولى التى تم تمشيطها ، وهى فى الغالب لا تبعد أكثر من مائة ياردة عن الأولى باتجاه حركة المد ، ويعود الغواصون للقفز إلى الماء والغوص إلى أعماق بعيدة ، ثم الزحف على قاع البحر والعينان مفتوحتان . وعلى الغواص أن يشق طريقه بالقوة ويتشبث بالرؤوس الناتئة من الشعاب المرجانية وغيرها . وعندما يرى المحارة يقتلعها من الصخر ويجمعها فى كيس " الدين " المعلق برقبته حتى يكاد نفسه ينقطع " فينيره " حبل اليد "(٣٩) ويسحبه " السيب " – الذى شوت الشمس بشواظها جسمه – إلى أعلى . ويستمر فى وصفه قائلاً : " ثم يتكرر العمل فيرخى حبل المرساة ويأمر النوخذة بالانتقال إلى هور جديد ، وهنا تقرع الطبول ويباشر البحارة بفناء أهازيج رفع الشراع وضرب المجداف فى الماء . ويستمر العمل ديناميكيًا كآلة تتحرك ولا تقف ، أو كجيش منتصر يزحف إلى الأمام وسط أناشيد وأهازيج النصر إلى أن

تغرب الشمس ، وفينادى " النوخذة " ، " لا إله إلا الله " طالبًا إليهم الكف عن العمل والصعود إلى ظهر المركب ، فيرد " الغواصون : لا إله إلا الله " . ثم يصف لنا كيف يقضون ليلهم فيقول : " وبعد صلاة المغرب يقدم لهم الطعام الوحيد المتيسر وهو الأرز والسمك ، وبعدها القهوة و " التوكيلة " ، فلا فواكة ولا خضار طازج . فلا عجب أن ترى فى مؤخرة كل مركب قد تكوّم غواص مريض يشكو فى الغالب من مرض الاسقربوط أى نقص الفيتامين " ث " . فإذا صلوا العشاء ، نام الجميع نومًا عميقًا ... ولكن أين ؟ " على فراش هزيل مكون من بساط خفيف ملقى على المحار بحيث يغور المحار فى هذا الجسم الضعيف المنهك . وعلى ظهر المركب ينام الجميع على شكل صفوف وقد التصقت أجسامهم الواحد بالآخر وهم يلتقطون أنفاسهم بصعوبة لكون الهواء مشبعًا بالرطوبة . وتمر الأيام والشهور طويلة مملة ، والإنسان العربى فى الخليج صابر على البلوى متمسك بقوله تعالى :﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ (صدق الله العظيم) . ويتعبد هذا الإنسان وهو فى عرض البحر وتتعبد معه أسرته فى البلدة(٤٠) .

ولم تخل رحلة الغوص أحيانًا من المخاطر ، فقد تغرق السفينة بأكملها أو قد تتعرض لهجمات بعض القبائل . وفى الكويت كانوا يؤرخون الحوادث بسنة غرق بعض سفن أهل الكويت الكبيرة مثل سفن السفر والنقل البحرى . ويطلق الكويتيون كلمة " الطبعة " على الغرق ، وتسمى السفينة الغارقة " طبعانة" (بفتح الطاء وسكون الباء) فيقولون سنة الطبعة أى سنة غرق السفن السابق ذكرها(٤١).

وقد شكلت ضرائب اللؤلؤ مصدرًا رئيسيًا من مصادر دخل الشيوخ والحكومات ، وما إلى ذلك من شؤون الحفاظ على حدود الإمارة والأمن والسلام فيها . كما أوجد الغوص نظامًا اجتماعيًا موحدًا أى أنه وحد الفكر الاجتماعى فى الخليج العربى . فطبيعة العمل البدنى المتشابه، وغط كسب القوت المتشابه قد

وهذا هذه الوحدة الفكرية من جوانب عديدة . وتظهر آية ذلك فى التنسيق الشامل لأبناء الخليج وهم يخرجون جميعًا إلى موسم الغوص أو موسم " الردة " أو " الرديدة " أو غوص " الخايجية " ... إلخ من مواسم الغوص المختلفة فى مواعيد موحدة على مد السنة والفصول . وهم قبل الخروج إلى الغوص " يوم الدَشَّة " (بفتح الدال وتشديد الشين مع فتحها) أو يوم " الرُكَّبَة " (بضم الراء وإسكان الكاف وفتح الباء) فإن التهيؤ لذلك اليوم يتشابه أيضًا . وهذا علاوة على توحيد الأمور المالية مثل " التِكَام " (بكسر التاء وفتح الكاف) و " الكوَاض " (بكسر اللام وفتح الواو) والاتفاق على قسمة الحاصل ، وهذه كلها تجرى قبل الغوص ، فإن تجهيز البيت بالمآكل " الناجلة " والطعام من سمن وأرز وتمر ودبس ووقود ... إلخ ، يتشابه فى كل البيوت الخليجية . ولعل خروج أسطول الغوص " السنيار " لكل إمارة رافعًا علمه متجهًا نحو المغاصة ، وكأن أهل الخليج جنود فى جيش واحد استجابوا لنداء الواجب فخرجوا فى وقت واحد متحدين موحدين الغاية والهدف والعمل ونمطه ، وقد أدى هذا كله إلى تشابه التقسيم الطبقى الاجتماعى فيه ، فهناك طبقة الموسرين الرأسماليين وهم الممولون " الطواويش " أى تجار اللؤلؤ ، تليهم طبقة "النواخِذَة" (بكسر الخاء وفتح الذال) أى ربابنة المراكب الذين ينالون قسطًا جيدًا من حاصل اللؤلؤ ، وهم الذين يمتازون بمعرفة علوم الملاحة ، ومنهم يكون "الروال" أى أمير سفن الغوص ، تليهم طبقة الغواصين وهم المغامرون الأشداء الذين يقارعون الصعاب والأهوال فهم مادة الغوص التى يقوم عليها ، ينظر إليهم المجتمع نظرته إلى البطل الذى يحقق مكسبًا لشعبه ، فلهم منزلة اجتماعية مرموقة ، ومكانة محترمة ، تليهم طبقة مساعد الغواص وهو " السيب " (بكسر العين) ثم بقية طاقم السفينة كل حسب مقدرته وبالتالى منزلته الاجتماعية(٤٢) .

وهذا التشابه فى الفكر الاجتماعى أدى إلى تشابه الكثير من الأنماط المعيشية والممارسات اليومية والحياتيه ، فالبيوت الخليجية متشابهة ، وأنواع الطعام متشابهة ، والأثاث متشابه ، وحفلات الزواج متشابهة ، بل نجدها تكاد تقام فى

مواعيد واحدة ، لأن الجميع يؤجل حفلات الزفاف إلى يوم القفال أى العودة من موسم الغوص . بل نجد العاملين فى الغوص والبحر يصابون بنفس الأمراض ، فيصابون بـ " المنسيط " ويعالجونه بالدباغ ، كما يصابون بمرض " الطنان " أى انفجار طبلة الأذن ، و " الخشوة " أى مرض ضيق التنفس ، وكذلك " الشاقة " أى صداع الرأس وغيرها من الأمراض ، علاوة على لسع سمك " اللخمة " (بضم اللام وإسكان الخاء وفتح الميم) والسامة " دحاحة البحر " و " الدول " و"الجرجور" وغيرها من الهوام وآفات البحر (٤٣) .

هذه الوحدة فى الفكر الاقتصادى والفكر الاجتماعى المنبثقة من عالم الغوص واللؤلؤ أدت بالتالى إلى تقارب فى الحياة الاجتماعية وفى الأدب والفن ، بل نجدها وحدت اللهجة .

ومن ذلك وحدة المصطلحات والكلمات المستعملة فى عالم الغوص ، كما أنه أوجد نوعًا من وحدة التصور والخيال الجمعى ، مما أعطى " للمسالفة " أى الحكاية والرواية الشعبية الكثير من خيالات البحر وعالم الغوص ، كما أدى إلى وحدة الأمثال الشعبية المستلهمة أو المستقاة من عالم الغوص .

يضاف إلى ذلك أن أهازيج البحر قد توحدت فى الخليج مثل " الهولو " و"البرحة" و " اليامال " وصوت " النهام "(٤٤) .

وكان مما يقول النهام وهو يودع الأهل المكلومين على الساحل :

ودعتكم بالسلام يا ضوى عينى ... بفراقكم غاضمض حفنى على عينى

واعدتنى بالوعد لما تحققت عينى ... خليت يا سيدى جسم باليًا روح

فرمنى العقل وظل الجسم مطروح ... كل العرب هودت وأنا شجى الروح

يا نور عينى كثر ما أراعاك راعينى ... يا مال يا مال يا مال

والبحارة يرددون هيليا ... وهي ... يا الله وهم يصفقون ويهزفون بالطبل والطوس والزغاريد . وعند رفع شراع السفينة استعدادًا للإبحار يبدأ النهام في ترديد :

يا الله ... يا الله ... يا الله — شلنا وتوكلنا على الله
هولو ..... يا سيدي — هولو ..... يا فزعة الله
على ماليه نويت السفر — سافر توكل على الله

وعندما ترفع المرساة يردد البحارة ما يسمى " بالجريجة " وهي نوع من التراشيح وتبدأ بقول النهام :

يا الله بدينا — يا الله صباح مبارك
عزيت يا من له الملك — كريم تعلم بحالي
علمك في سود الليالي — ربي عليك اتكالي
يشكيلك همًا جرى لي — مسكين أنا مسكين

وعندما تقف السفينة على غواص اللؤلؤ " الهير " يغني النهام "

دار نزلنا وأبرك دار — على الهير والبحار

وعند طي الشراع يأخذ البحارة في غناء ما يسمى " بالهولو " ويقولون فيه:

هولو بين المنازل — أي والله أسمر سباني
هولو حلو الشمايل — أي والله زين المعاني

أما " الدواري " فهو ما يردده البحارة وهم يدورون في حلقة على ظهر السفينة حيث يصدح النهام بهذه الأغنية وهي نوع الزهيري ، ومما يقوله :

أبكي على ماضي وأصفق براحة وكف
كل ما أريد أبطل من التفكار رأسي وقف(٤٥)

وقبل وصول السفن من الغوص كان الأهالي والنساء في الكويت يذهبون إلى البحر والنساء يغنين ويصفقن . ومن هذا الغناء الذي كانت تغنيه إحدى المواليك:

تروب تروب يا بحر — أربعة والخامس دخل(٤٦)
حبيبهم — خاطفين الحبيبهم
ما نخاف من الله يا بحر — أربعة والخامس دخل
تروب تروب — حبيب صباح العنوب(٤٧)

وهذه الأهازيج التي يغنيها النهام تعبر عن أحاسيس البحار في كل لحظة من اللحظات التي تعبر عن تحركات السفينة ، كما تبين لنا مدى حزنه وآلامه على فراق الأهل ، ولكنه في نفس الوقت مؤمن إيمانًا قويًا بالله ، متوكل عليه . وإيمانه هذا هو البلسم الذي يخفف حزوحه وآلامه .

* * *

أما عن التنظيم الاجتماعي في دول الخليج قبل اكتشاف النفط ، فقد كانت القبيلة هي أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وعمودها الفقري للتنظيم الاجتماعي في منطقة الخليج . والقبيلة وحدة قرابية تقوم على الانتماء إلى سلالة واحدة . وكانت القبيلة محور النشاط الاقتصادي والعسكري والسياسي والوجود الشعبي عرفًا للتنظيم الاجتماعي .

ويتزعم القبيلة شيخ له السلطة السياسية والقانونية ، ومركز الشيخ كان مقتصرًا على الفروع والبطون والفخوذ داخل القبيلة ذات النفوذ والقوة ، كما أن المجتمع القبلي يتكون من طبقات اجتماعية متباينة من حيث السلطة والثروة . والقبائل كانت ترتب مكانتها على أساس الأقوى والأضعف والأغنى والأفقر ، والمسلحة وغير المسلحة . وتتفاوت درجة التماسك داخل القبيلة من قبيلة لأخرى.

والقبيلة قد تكون مقيمة حضرية أو مترحلة بدوية . والقبائل الحضرية كانت أكثر ميلاً للالتفاف حول إدارة مركزية قوية . وصاحب ظهورها إقامة بعض المستوطنات ، وهي نواة المدن الحالية على ساحل الخليج العربي . وأدى تمركز القبائل القوية إلى تزايد سلطة الحكم الفردي فيها . لذلك كانت القبائل تمثل قوة مؤثرة في أوضاع المنطقة عبر تاريخها . وهذا يفسر لنا سبب تعامل القوى الخارجية مع شيوخ هذه القبائل وحكام مقاطعاتها عن طريق عقد الاتفاقيات منذ بداية القرن التاسع ، وبخاصة بريطانيا التي عقدت معهم الاتفاقيات السياسية والاقتصادية مما أدى بمرور الوقت إلى تشكيل إمارات خاضعة للسلطة البريطانية(٤٨) .

أما الأسرة فهي الوحدة الأساسية في المجتمع الخليجي و تستمد مكانتها من صلاتها القبلية التي انحدرت منها ، ومن علاقاتها بالنشاط الحرفي في الغوص أو السفر للتجارة . وتتكون الأسرة من الجد والبناء والأحفاد ، وهي جزء من بناء قبلي وقرابي أوسع ، وكانت الأسرة تشكل قاعدة الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي . وكذلك تتحكم في الضبط الاجتماعي في مجتمعات شرق الجزيرة العربية التقليدية . والأسرة تملك أو تستأجر وسيلة الإنتاج ، كأن يملك رب الأسرة أو يشرف على تشغيل سفينة نوخذة ، أو يكون المتعهد الرئيسي في الزراعة ، ويساعده الرجال أفراد الأسرة في حالة الغوص والنساء في القطاع الزراعي والرعوي . وهكذا نجد أن السلطة الاقتصادية والسلطة الاجتماعية تتركزان في يدي رب الأسرة ، كما نجده يحدد نظام الزواج التقليدي داخل الأسرة . وينشأ الأبناء في الأسر على الطاعة لرب الأسرة ، ويتشربون من خلال التنشئة الاجتماعية قواعد وأعرافاً اجتماعية تصبح ملزمة لهم(٤٩) .

أما عن النظام التعليمي ، فقد كان هناك نوع واحد من التعليم يقوم على أساس تحفيظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، والكتابة والقراءة البسيطة عن طريق " المطوع " الذي يستخدم منزله لهذه الغاية . وكان التعليم للبنين

والبنات، وإن كان تعليم البنات محدوداً ، إذ كان عدد المطوعات ضئيلاً . وفي بعض الأحيان تدرس الصغيرات مع البنين عند " المطوع " . وعندما كان التلميذ أو التلميذة يختم القرآن ويحفظه كان والده أو والدها والأصدقاء أو الصديقات يشتركون في احتفال شعبي بديع يعرف " بالختمة "(٥٠) ويسمى في عمان "التبمينية" أو " التامينية " أو " الأودمين "(٥١) ، وهو احتفال أشبه ما يكون باحتفالات التخرج هذه الأيام بل أكثر أهمية(٥٢) .

وفي يوم إجادة الصبي للآيات الأخيرة من سورة البقرة وإعلان المطوع " المعلم " للأولاد أنه ختم القرآن ، ينهض الصبي وسط عبون زملائه ، ويتجه حيث يجلس المعلم ويقبل يديه ، ويعلن المطوع أنه سيحتفل يوم التخرج غداً ويطلب من سائر التلاميذ أن يلبسوا أحسن ثيابهم ويأتوا إلى مركز التجمع حيث تبدأ أول مراسم الاحتفال .

وفي الصباح الباكر يتجمع الصبيان عند منزل المتخرج حيث يخرج عليهم في كامل هيئته وبديع زيه ، وفي فناء " حوش " البيت يقف المتخرج مع أبيه الذي يشهد هذه الفقرة الأولى من الاحتفال فقط ، في حين تظل الأم وسائر نساء البيت من " الرواشن " . وهنا يقرأ الصبية قصيدة التخرج التقليدية ومما يقوله :

القارئ : الحمد لله الذي هدانا

المجموعة : آمين

القارئ : للدين والإسلام واجتبانا

المجموعة : آمين

ثم ينثر الحلوى ويبدأ الموكب بالطواف على بيوت الأهل والأصدقاء حيث يزداد ويتسع من حي إلى حي . وفي وقت الغداء يعود الموكب إلى منزل المتخرج حيث يأكل الجميع " الهريس " الذي أعد خصيصاً لهذه المناسبة(٥٣) .

وفي عمان كانت تشترك في موكب التأمينية امرأة من خدم والد الطفل المحتفل به ، تسير وسط الأطفال صبية وبنات ، وهي تحمل سلة يغطيها وشاح أخضر وفي داخلها هبة من والد الطفل للمطوع ، غالبًا ما تكون حلة من ملابس فاخرة أو غير ذلك(٥٤) .

* * *

البيوت والحياة العامة :

أما عن العمارة التقليدية فيما يتعلق بهندسة القصور والبيوت ، فإن أقدم البيوت الموجودة في البحرين يرجع تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر فقط ، ولكن من المعتقد أن يكون نمط بنائها قد تطور خلال فترة ثلاثة أو أربعة قرون سابقة . ويشترك هذا النمط في خصائصه العامة مع أسلوب الهندسة المعمارية في باقي منطقة الخليج العربي بما فيها إيران ، ولكن ... مع ذلك فإن هذا الأسلوب يكاد يكون فريدًا في وجوده في البحرين فقط .

إن من أهم الاعتبارات في هندسة المنازل إلى جانب توفر المواد الخام هي دائمًا مسألة المناخ . وفي الخليج العربي تميل فصول الصيف إلى الحرارة والرطوبة وتتعاقب مع فصول الشتاء الباردة المتميزة برياحها القوية ، لذلك فإن المباكل لابد أن تكون على درجة من المتانة والقوة ، لا لتكون مأوى صالحًا فحسب ، بل لتكون باردة ما أمكن خلال معظم أشهر السنة .

وكانت مواد البناء الرئيسية تتكون عادة من الحصى وقطع من الأحجار المحلية والصخور المرجانية البحرية " الفروش " وهي المستخدمة في بناء المنازل القديمة . كذلك كانت من الصخور المرجانية ذات المسام مما يجعلها لا تحتفظ بالحرارة كغيرها من المواد الكثيفة . وكانت هذه الصخور المرجانية تقطع على هيئة ألواح تستخدم كجدران فاصلة . وكان الخشب يستخدم لإعطاء الهيكل مزيدًا من

المتانة بينما كان الجص يستعمل لتقوية الجدران وصقلها لتصبح أسطحها ناعمة ، وكانت البيوت بشكل عام تبنى حول فناء تحيط به الغرف وتطل عليه من الداخل.

وقد صممت البيوت بطريقة جعلتها تهيئ جوًا باردًا لساكنيها . وتقوم طريقة البناء على أساس أعمدة من الحجارة توصل بجسور أفقية لتعطيها مزيدًا من الصلابة حتى لا تتزحزح . وكانت المساحات الفاصلة بين الأعمدة تستخدم كنوافذ أو رفوف وفي بعض الأحيان كانت تغلف بفواصل .

وقد جرت العادة أن تحاط النجاريف في المستوى السفلي في غرفة المجلس بأطر غير زجاجية ذات قضبان حديدية أو شاشات من الخشب المنقوش . ولم يكن هذا بمثابة واجهة من الديكور تزين البيت فحسب وإنما كانت أيضًا تسمح بمرور الضوء والهواء ، ولكن ليس ضوء الشمس المباشر . وكانت أطر النوافذ غير الزجاجية " الدرابيش " تتكون من شاشات خشبية إما محفورة أو بلا حفر(٥٥) .

أما الأسقف فكان الشائع في الخليج العربي بأكمله أن تكون مسطحة وهي من سمات العمارة فيه . ولكن طريقة بنائها اتخذت طابعًا محليًا حيث تستخدم أعمدة خشبية من " النخيل " بعد معالجتها بالقار ، وتمد من جدار إلى جدار ، وبذلك توفر الإطار الأساسي الذي يغطى بحصير من الجريد ، وبعد ذلك يغطى بطبقة من الطين والرمل والجص . وأما من الداخل فإن الأسقف تطلى بألوان زاهية وتشكل بها نماذج زخرفية . وهناك سمة مميزة من سمات البناء تتمثل في إضافة وسائل معينة للتبريد مثل أبراج الهواء وفتحات الهواء(٥٦) .

وتستعمل أسطح المنازل كمجالس وأماكن للنوم في أمسيات الصيف ولياليه ، كما تستخدم في جمع مياه المطر . ولكل بيت فناء يؤدي إليه باب مصنوع بشكل جميل ، وبالباب الكبير ، باب صغير يحوف بسمونه " خوخة " . وكانت هذه الأبواب تستورد عادة من الهند ، والقليل منها يصنع في الكويت . وكان للبيت

ديوانية مستقلة عن باقي المنزل يجالس فيها أفراد الأسرة من الرجال والضيوف ، وتبحث فيها الأمور الخاصة والعامة ويلتقون فيها في الأعياد والمناسبات(٥٧) . وكانت " الديوانية " وهي مجلس الرجال الملحق بمنزل الأسرة الكبيرة بمثابة مؤسسة اجتماعية ذات أثر عميق في المجتمع الكويتي بصورة خاصة ، وهي في الغالب امتداد لعادة المجالس البدوية عند سيد العشيرة . وفي الديوانية لا تلتقي الأسر فحسب ، بل يلتقي رجال الحي بأجمعه وربما سواهم في المناسبات، في أوقات معينة كل يوم أو ليلة متعارف عليها بالنسبة لكل ديوانية . ويتم في الديوانيات التزاور في الأعياد والمناسبات ، وفيها تبحث شؤون الحي ، وتبحث أسعار البضائع في السوق ، وتتداول الأخبار . وتدار في الديوانية القهوة العربية لكل قادم. وتفتح في رمضان طول الليل يرتل فيها القرآن الكريم ، ويقدم فيها الإفطار للفقراء الحي . وفي الديوانية تعرف مراتب الناس من مجالسهم . ومن الديوانية وحجمها ومعتقها يعرف صيت الأسرة ومكانتها . إن الديوانية بالكويت هي النادي والجمعية والمركز الاجتماعي والمقهى لأبناء الحي ، وربما يكون في الحي الصغير الواحد العديد من الديوانيات تتفاوت حجمًا وروادًا ، وربما تتفاوت مواعيد فتحها كذلك ، وإن كان الغالب أن يكون ذلك قبيل العصر وفي فترة ما بين صلاة المغرب والعشاء ثم فترة ما بعد صلاة العشاء(٥٨) .

* * *

أما عن المساجد والقلاع والحصون ، فيحسن بنا أن ننتقل من البحرين والكويت إلى عمان لنعرف شيئًا عن مساجدها وقلاعها وحصونها .

يوجد في عمان ما يزيد على خمسمائة قلعة وحصن وبرج دفاعي ، بالإضافة إلى عدد كبير من المساجد التاريخية التي تعد تراثًا معماريًا . وبصورة عامة لا تخلو منطقة أو ولاية أو مدينة عمانية من الحصون والقلاع والمساجد التي تختلف هندستها باختلاف بنائها والحقبة التي بنيت خلالها . ففي ولاية صور وحدها

ما يزيد عن ٩٠ قلعة وحصن إضافة إلى آثار مدينة قلهات . وفي ولاية أزكي ١٤٢ برجًا يعود تاريخ بناء بعضها إلى زمن الهجرة النبوية الشريفة ، وفي سمائل ١١٥ قلعة وحصنًا، وأهمها حصن سمائل بالإضافة إلى ٨٠٠ مسجدًا يعود تاريخها إلى حقب مختلفة . وفي ولاية بركاء ٣٨ برج وثلاثة حصون . وفي ولاية السويق ٢٧ حصن أثري تتوسطها القلعة الكبيرة . وفي نزوى مسجد الشراذنة وسمال الذي يقال أنه بني في السنة الثامنة للهجرة . وفي ولاية أبرا مسجد العقبة الذي تتجه قبلته نحو المسجد الأقصى في بيت المقدس .

وفي حقب تاريخية مختلفة كانت القلعة مركز السلطة التقليدي وهي من حيث حجم البناء وضخامته ومجال هندسته تحمل ما حوتها من المباني والمنازل يتضاءل أمام جدرانها العالية المحصنة وبواباتها الكبيرة ، ومواقع الحراسة التي كان يقوم عليها الحرس حاملين بنادقهم ومتمنطقين بأحزمة ذخيرتهم . وقد أخطأ كثير من الأوربيين حين عزوا بناء القلاع في عمان والخليج إلى البرتغاليين ، فقد أثبتت البحوث الأثرية والدراسات التاريخية الحديثة أن عددًا كبيرًا من القلاع العمانية يرجع إلى عهود قديمة جدًا ؛ إذ كانت عمان ثغر المنطقة بأكملها إلى المحيط الهندي وسواحله في آسيا وإفريقية .

وتعتبر قلعتا الرستاق وبهلا من أقدم القلاع العمانية التي ما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا . وتاريخ قلعة الرستاق موغل في القدم إلى حد أن التاريخ الحقيقي لبنائها مازال مدار سجال بين المؤرخين . وكلمة رستاق تعني بالفارسية المنطقة الأمامية أو الواقعة على الحدود . وتعد قلعة الرستاق أعلى قلاع عمان قاطبة ، وتحيط بجوانبها عدة أبراج للمراقبة . وفي العصور المتأخرة أقام فوقها الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي أبراجًا وتحصينات عدة ، كما أضاف إليه الإمام محمد بن عبد الله الخليلي في سنة ١٩٣٦م بعض الحواجز والتحصينات الدفاعية .

أما القلعة القديمة الأخرى التي يعود تاريخها إلى قبل الإسلام فهي القلعة التي تبعد حوالي ٣٠ كم عن مدينة نزوى ، وتمتاز قلعة بهلا بأسوارها التي تمر سبعة

أميال وتشمخ قلعة بهلا إلى علو ١٥٠ قدمًا فوق السهول المحيطة بها . ويعود الجزء الشمالي الغربي منها إلى العهد الجاهلي . أما القصبة الجنوبية الشرقية فقد بنيت في عهد النبهانيين ، وأما بيت الجبل الكائن في الزاوية الشمالية فقد بني في العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي . وبنيت المسالم الداخلية في القلعة وأسوارها الخارجية من الطين المطلي بالجص والصاروج ، وهي مواد لا تقل صلابة عن الأسمنت الحالي ، وفي سنة ١٦٥٨م بنى الإمام سلطان بن سيف اليعربي قلعة نزوى التي استغرق بناؤها ١٢ عامًا ويبلغ قطر برجها الدائري ٢٨ متر ويصل ارتفاعه إلى ٣٤ متر ، كما بنى الإمام بلعرب بن سلطان بن سيف عام ١٦٧٠م حصن جبرين الذي روعي في تصميمه أن يكون حصنًا دفاعيًا ومسكنًا للإمام في نفس الوقت . ويضم الحصن الذي تزدان قاعاته الداخلية بالنقوش والزركشات الجميلة برجين ضخمين يبلغ سمك جدار كل منها مترين(٥٩) .

* * *

وأما عن الأسواق في الخليج فلها نفس الخصائص العامة للأسواق التقليدية المنتشرة في المدن العربية ، حيث تقام الأسواق بالقرب من المسجد . ولكل تجارة الجزء الخاص بها في السوق ، كما كانت توجد الأسواق المسقوفة حيث تباع الأقمشة . وبحوار تجارة المنسوجات كان النحاسون وصانعوا الأقفال والخرفيون يزاولون حرفهم . وعند حافة المنطقة الوسطى من المدينة كانت تقام الأسواق المؤقتة، حيث تجلب السلع السريعة التلف والصناعات اليدوية التي كانت تجلب إلى المدينة من الريف . إضافة إلى ذلك كان صانعو السلال وغيرها من المصنوعات كالفخار يعرضون بضاعتهم على أطراف المدينة . ومن هذه الأسواق المؤقتة سوق الأربعاء وسوق الخميس وكانا يقامان حتى عهد قريب في البحرين ، وسوق الأربعاء لا يزال يقام حتى الآن ولكن بشكل محدود على حافة سوق المنامة(٦٠) . والآن توجد بدول الخليج الأسواق التجارية المصنعة على أحدث الطرق المعمارية وبها سلع من مختلف دول العالم .

وعن الطعام يتناول البدو وجبتهم الرئيسية في المساء ، وتتألف عادة من اللحم والأرز ، وهو ما يعرف عندهم بالثريد ، والتمر المقلي بالسمن والحليب والقهوة . وأما طعام الإفطار فيتألف من التمر والحليب والقهوة .

ويتحدث المؤرخ الكويتي " الفنساعي " في كتاب له عن الأطعمة والمأكولات السائدة في الخليج قبل اربعين سنة فيقول " أما الأكل فقد كانوا يأكلون في الصباح التمر والغبيبة " وهي بقية العشاء " ويأكل الأغنياء الخبز المفروك والبثيث . وأما الغداء ، فالفقير غذاؤه التمر والمثون " وهي سمك صغير مجفف " . ويأكل الغني الخبز والتمر واللبن . وقليل من يطبخ الأرز مع المحاشي والروبيان وهو السمك المجفف "الماغ" . وأما اللحم والسمك الطري فلا يستخدم إدامًا كل يوم بل مرة في الأسبوع أو مرتين على الأكثر ، ويأكل الأغنياء في الشتاء المثلوث ، والعصيد ، ولكن بصفة غير مستمرة . ويكون ليوم العصيد شأن عند الأطفال فتراهم يغنون "عيد عيد على العصيد"(٦١) .

وأكثر تلك المأكولات السابقة هي من القمح المهروس ، وكان يتم حرشها في الماضي " بالرحى " ، وهي رحى مخصصة لذلك ويطلق عليها " المحرشة " . ودخلت في يومنا الحاضر العديد من الأكلات الشرقية اللذيذة ، ولكن الأكلات الشعبية هي الغالبة ولا تكاد تخلو وجبة من وجبات بيوتات الرياض منها(٦٢) .

أما القهوة العربية فكانت تقدم للمشروبات الرئيسية الهامة في الخليج العربي وتعتبر معيارًا من معايير الكرم ومقياسًا من مقاييس الوجاهة. ولا يكاد يخلو بيت من بيوتات الخليج من القهوة . من أوانيها" المحماس، الدلة، الهون، النجر، الفنجان "(٦٣) .

* * *

الحياة الاجتماعية :

أما عن الملابس فأن لكل بيئة من البيئات الملابس التي تناسب سكانها ، ولكل شعب من الشعوب الزي الوطني الذي توارثته الأجيال جيلاً بعد جيل ،

والملابس " الفضفاضة " تتناسب وطبيعة الأجواء المناخية فى الخليج . وتتكون عادة ملابس الرجل من الآتى :

١ – الثوب ويطلق عليه القفطع .

٢ – الثوب المردون .

٣ – الغترة وهى نوعان : الغترة البيضاء الرقيقة ، الغترة الخشنة أو الشماغ .

٤ – الكوفية " الطاقية " .

٥ – المشلح أو العباءة " البشت " .

٦ – العقال .

٧ – العمامة(٦٤) .

أما السيدات فكن يلبسن اليوشية والعباءة خارج المنزل ، أما فى المنزل فليبسن أثوابًا من الحرير والقطن . ولكن منذ سنة ١٩٣٥ بدأ أكثر النسوة يلبسن الملابس الأوربية .

* * *

وعن الأعياد فإن الدين الإسلامى الحنيف يحتفل بعيدى الفطر والأضحى المباركين ، ومظاهر الاحتفال بها فى العالم الإسلامى متقاربة متشابهة من حيث لبس الجديد وأداء صلاة العيد ثم زيارة الأهل والأقارب للتهنئة ، والبخشيش "العيدية" للأطفال ، إلا أنه يصحب هذين العيدين بعض العادات التى تتميز بها منطقة دون أخرى .

فمظاهر الأعياد فى الكويت تشعر بأن الكويت أسرة واحدة . ففى الأعياد مثلاً يبادر أهل الحى الغربى بزيارة أهل الحى الشرقى مهنئين ، وهؤلاء يردون الزيارة والتهنئة فى اليوم التالى(٦٥) .

* * *

الفنون الشعبية :

تزخر منطقة الخليج بالفنون الشعبية ، فالمملكة العربية السعودية تتميز كل منطقة فيها بمميزات خاصة بها تبعًا للبيئة والتقاليد المتوارثة عبر الأجيال .

وتتميز المنطقة الشرقية بفنونها الشعبية العريقة منها دق الحب والخصاد والليوه والغريسه والصوت الشعبى ، وكل هذه الألوان الشعبية العريقة مستمدة من البيئة وتحاكى الأمواج البحر . ولهذه الفنون الشعبية ألحان متعددة تصاحب هذه الألحان المتعة : الطارات والطبول والكفوف ، بإيقاعات بديعة وحركات متميزة تتابع مع إيقاعات القوافيد وهى عصب النخل ، بعد أن يؤخذ منها الخوص. وكذلك يكون معها المناجيز والمهابيش وذلك فى دق الحب والخصاد . أما فى الغريسة فيصاحبها قفص يسمى المنز يتكون منه الغريسة على شكل قرس بعد أن يتوسط المجموعة ويرقص بداخلها شخص يجيد هذا الفن أجادة تامة .

أما الليوه : فهى فن خليجى يؤدى بشكل جماعى ، والمؤدون لها يؤدونه وهم واقفون على شكل دائرة يصاحبهم صاحب العدناى وآخر معه طبل زير ولها ألحان متميزة .

وهذه الفنون نجدها فى الكويت وباقى منطقة الخليج ، إذ توجد فى الكويت رقصة العرضة ورقصة الغريسة ، وكذلك رقصة الدحة التى تشتهر بها أيضًا المنطقة الشمالية بالمملكة العربية السعودية ، إضافة إلى فنون البحر التى تشترك فيها دول المنطقة قد سبق وأن تحدثت عنها .

خلاصة القول : إن التراث الشعبى فى منطقة الخليج " الساحل الغربى " تجمعه صفة واحدة . ذلك لأن سكان الخليج ينحدرون من قبائل واحدة وقد تكون القبيلة الواحدة لها فروع فى مناطق أخرى .

* * *

أما عن الألعاب الشعبية فقد تأثرت في الإمارات ببيئاتها الثلاث : البيئة الساحلية ، والبيئة الريفية ، والبيئة الصحراوية . وهذه الألعاب مارستها الأجيال في هذه البيئات وإن اختلفت من حيث التسميات ، كما كانت تتركز أكثر في البيئة الساحلية ، لذا سأقصر حديثي عن الأخيرة .

والواقع أن البحر لم يكن مصدر رزق لسكان هذه المنطقة فحسب ، ولم يكن مصدر إلهام للفنان والشاعر والأديب فقط ، بل كان البحر أيضًا بالنسبة للصغار من صبية وفتيات ذا أهمية خاصة بالنسبة للذين يعيشون في البيئة الساحلية . ففي مياهه لعب الصبية " ديك ودجاجة " ، ومن أصدافه وقواقعه التي يقذف بها الشاطئ ، لعبت الفتيات " البقرة " و " وصافف قف " وعلى شواطئه صنع الأطفال بيوتهم من الرمل .

أما الكبار فقد لعبوا " الجحيف " و " الحبل " وغيرها ، وعلى رماله القريبة من الشاطئ لعب الكبار " كرة السيطان " و " سيبت حي أو ميت " و " عظيم السرى " وغيرها . ولعب الأطفال لعبتهم المفضلة " الطيارة " فضلاً عن ممارستهم هواية صيد السمك(٦٦) .

وقد عاش الأطفال في ظروف بسيطة . ولانعدام وسائل التسلية والترفيه اخترع لأطفال العابهم الشعبية من المواد الأولية المتاحة لهم . وهنا يظهر لنا إبداع الطفل الخليجي ، فمن العلب الفارغة الملقاة على الشاطئ حيث المكان المعروف بمخلفات الأسر ، ومن الأشجار وأغصانها ، ومن أصداف البحر وقواقعه ، صنع الطفل وابتدع أدوات ألعابه الشعبية دونما ، تقليد لأنه لم يكن آنذاك وسائل علمية أو إعلامية يتعلم منها أو يقلدها في صنع ألعابه ، فكانت ألعابه نابعة من صميم ذاته ، مستوحيها من بيئته المحيطة به ، فصنع ما عجز طفل البترول فعله أو صنعه . ففي الإمارات صنع الأطفال نموذجًا للمراكب الراسية على شاطئ البحر ، وصنعوا المؤاتر " السيارات " ذات النماذج التي تبهر عقلية طفل اليوم ، إذ كان

يطور ما يصنعه ويضع لمسات الفنية عليه ، فمن علبة يجرها خلفه إلى علبة بها عجلات تسير عليها ، إلى سيارة مجسمة كالنموذج الذي نراه اليوم " أسلاك ، إطارات ، تصميم مقدمة ومؤخرة السيارة ... إلخ " . بل لقد ابتدع صبيان الإمارات وبناتها ألعابًا تعتمد على الذكاء والفطنة " كالعبة " وغيرها وألعابًا تعتمد على قدرة التحمل " سيبت حي لو ميت " وألعابًا تعتمد على التوازن كالعبة " القراحيف " و " الكرابي " وغيرها . كما كانت هناك ألعاب تعتمد على القدرات التمثيلية والفنية مثل " أنا الذيب باكلكم " والعرائس " الحيا " ولعبة التعلب فات فات ، وكل هذا يعكس لنا ما وصلت إليه عقلية الطفل الإماراتي ودرجة التفكير والإبداع لديه(٦٧) .

وهناك بعض الألعاب الشعبية ولا سيما ألعاب البنات تكون مصحوبة بأغان وأهازيج موسيقية ترددها اللاعبات أثناء ممارستهن اللعب . وهذه الأهازيج تمثل شكلاً من أشكال أدب الأطفال، وبعضها توارثتها الأجيال وأضافت إليها . وكانت الجدات والأمهات يحفظن هذه الأناشيد لتحفظها الحفيدات أو البنات وهناك بعض الألعاب تبدأ بنشيد معين ولا تنتهي إلا مع انتهاء كلمات النشيد ، وعادة ما تكون هذه الألعاب جماعية حيث تشترك اللاعبات مع بعضهن البعض في ترديد الأناشيد . وخير مثال لهذه الألعاب " المراجيح " حيث تتضمن أناشيد موسيقية مستوحاة من التراث الشعبي في الإمارات(٦٨) ومن أناشيد " المراجيح " أو المريحان :

أمي أمي يا مايه	واعي البحر ما باه
أبا وليد عمي	بخنجره وارداه(٦٩)
فابض خطام المصفرا	وملوح بعصاه(٧٠)

* * *

أما عن الزواج فقد خضع في منطقة الخليج لأحكام العادات والتقاليد من حيث تحييد الزواج المبكر لكل من الفتى والفتاة ، ومن حيث أنه غالبًا يتم في نطاق الأسرة الواحدة ، فابن العم أحق من غيره بابنة عمه . ويتم الزواج دون مشورة الفتاة وربما رغم إرادتها في أغلب الأحيان . ووالد الفتاة هو صاحب الرأى الأول والأخير في الزواج ، ويعزى إليه الفضل الأكبر في تسهيل الزواج إذا أتاه من يرضى بأخلاقه ولو كان من ذوى الحالة المادية المتوسطة(٧١) .

ومن مظاهر الأعراس في عمان سبوح العرس وهو عبارة عن مسيرة كبيرة تردد فيها مجموعة من الفنون الغنائية ابتداءًا من غناء النساء " يوعين ليه " إلى الهمبل وهو احد أجزاء فن " المرزحة " الشهيرة أو المالد في بعض الأوقات .

وسبوح العرس يعنى أن يؤخذ العريس إلى مكان معين للاستحمام سواءًا كان فلجًا أو بئرًا ، ومن العادة أن يذهب العريس إلى الاستحمام وهو ممزق الملابس وهي عبارة عن لباس تقليدى عماني .

وعند نقش كفي وقدمي العروس والعريس قبل الزفاف يغنى النساء غناءًا يسمى " المثاني " . وغناء " المثاني " للعريس يختلف عن العروس ، ويصاحب الغناء تصفيق وزغاريد ، وقد يصاحبه طبل . ومن شعر غناء المثاني :

حنا الخضر يعلق يعلق بلا لومي
حنى وحيلاتش ما أحلى ملا قاتش(٧٢)

وعند زفة العروس إلى بيت العريس ، تذهب الفرقة الغنائية طالبة العروس في شلة غنائية وهي تردد :

عطونا بنيتنا بوعرب ما عندنا بنية بوعرب

ثم تؤخذ العروس في مسيرة نسائية غنائية " ويعين ليه " وهي تختلف عن "يوعين ليه" الخاصة بسبوح العريس ، اذ يأتى الإيقاع فيه بطيئًا فيستهلون الغناء عادة بهذه الشلة القصيرة .

يا سامع الصوت صلوا على النبي وعلى محمد وعلى عمه على

ثم تختم الفرقة غناءها في بيت العرس بفن آخر يسمى التويلك(٧٣) .

* * *

الواقع أن المرأة في الجزيرة العربية رغم الجهل المدقع الذى كانت غارقة فيه ورغم إهمال المجتمع لها وحرمانها من كثير من حقوقها الشرعية ، ومن حرية إبداء الرأى ، رغم كل هذا ، استطاعت بفطرتها السليمة وبصرينها النافذة أن تسهم في تاريخ شبه الجزيرة العربية .

أما في البادية فكان للمرأة دور كبير ، إذ نجد معظم الصناعات اليدوية في البادية كانت النساء يقمن بها مثل صناعة الخيام وبيوت الشعر والسجاد والخرج الذى يوضع على ظهر الإبل . وجميعها تصنع من شعر الحيوانات مثل الأغنام ، ومن الأعمال التى كانت تقوم بها المرأة في البادية جمع الحطب والعشب ورعى الأغنام وورود الآبار لإحضار الماء بالإضافة إلى أعمالها المنزلية(٧٤) .

وكانت زوجة الغواص تساهم بدور إيجابى فعال في حياة أسرتها ومجتمعها الصغير ، فهي بسبب حاجتها وندرة مصادر الدخل كانت تساعد زوجها في العمل وإلى جانب قيامها بأعمالها المنزلية تقوم ببعض الأعمال التى تدر عليها ربحًا كأن تقوم بخياطة الملابس لنساء الحى أو للتاجرة ببلع بسيطة أو تربية الماشية والأغنام . لقد كانت علاقات الإنتاج المختلفة في المنطقة كثيرًا ما تؤثر على وضعها فقد كانت عائلة البحار المشتغل بالغوص تعانى الكثير بسبب غيابه في موسم الغوص الذى يمتد لعدة أشهر فهي التى ترعى شؤون العائلة وتدبر أمورها المعاشية ثم تتحمل التضحية عندما يقع زوجها أو عائلتها في الديون(٧٥) .

أما وضع المرأة في المناطق الزراعية فلم يكن أقل شأنًا فقد كانت تعمل مع الرجل في الحقل وتشاركه في أعمال الفلاحة وغيرها ، عدا تلك النشاطات التى تتطلب قوة جسدية لا تتناسب مع طبيعتها كامرأة .

وقبل اكتشاف النفط كان القرويون العمانيون يهاجرون إلى المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين . أما النساء والأطفال فيظلون في القرى والقليل جدًا من يرافق أرباب أسرهم . غير أن رحيل رب الأسرة وغيره من رجالها البالغين يلقي على عاتق الزوجة مسؤوليات جديدة فكونها رب الأسرة المؤقت يجعلها تلتزم بمهام جديدة تنطوي على قدر كبير من مسؤولية اتخاذ القرارات التي كانت وقفًا على الرجل . وهذا يجعل الزوجة أثناء غياب زوجها في مرتبة اجتماعية متساوية على الأقل مع مرتبة الابن الأكبر في الأسرة من حيث السلطة ضمن العائلة(٧٦) .

المرأة الخليجية في مجتمع النفط :

وكان أن تفجر البترول وغمر المنطقة بالثروة ، وعندئذ تغير شكل الحياة . وكانت سنوات الحاجة والقهر والحرمان والجهل حافزًا للمرأة الخليجية لأن تبذل مزيدًا من الجهد لتعوض ما حرمت منه من علم وثقافة ومعرفة تكون عونًا لها على مواجهة متطلبات بناء مجتمعها الجديد . وبذلك شهد المجتمع الخليجي انطلاقات رائعة للمرأة . من ذلك أن المرأة أقبلت على العلم إلى حد كبير فاق إقبال البنين . ويؤيد هذا الإحصاء ، التربوي لشهر نوفمبر سنة ١٩٩٣ الصادر من وزارة التخطيط بوزارة التربية بالكويت إذ جاء في الإحصاء ما يلي :

مجموع التعليم العام :

طلبة ذكور كويتيين ٩٧,٢٣٢ طالبًا .

طالبات إناث كويتيات ٩٨,٩٣٤ طالبة .

وهذا مؤشر كبير يبين لنا مدى إقبال المرأة الخليجية على العلم ، مما أوصلها إلى أعلى الدرجات العلمية في مختلف التخصصات . كما تبوأت مناصب كبرى مثل منصب " مديرة جامعة الكويت " ، الذي تشغله اليوم أول سيدة تتولى منصب

مديرة جامعة ، علمًا بأن جامعة الكويت هي الجامعة الوحيدة في دولة الكويت . كذلك تقلدت المرأة الكويتية منصب وكيل وزارة ، سواء وزارة التربية أو وزارة التعليم العالي ، وعدا ذلك من المناصب مثل منصب سفيرة ، ورئاسة تحرير بعض الصحف اليومية ، إضافة إلى أنها أصبحت أستاذة جامعية وأديبة وشاعرة وكاتبة وناقدة(٧٧) . وهكذا بدأت المرأة الخليجية مسيرتها في الدولة الحديثة بنفض غبار الجهل والتخلف وبدأت بالتعليم . ومما حققته المرأة في دولة الإمارات قهرها للأمية ؛ إذ انخفضت الأمية بين الإناث من ٥٥,٣٪ في عام ١٩٧٥ إلى ٣٦,٩٧ في عام ١٩٨٠(٧٨) ، وما زالت الأمية في الإمارات تواصل الانخفاض خاصة بعد صدور قانون الزامية محو الأمية عام ٢٠٠٠م الذي أقرته وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٨٩م بتخليص البلد من كابوس الأمية (٧٩). وفي بداية عهدها بالعمل طرقت سلك التدريس ومع مرور الأيام تغيرت نظرة المجتمع إلى عمل المرأة ، خاصة وأن الدولة لم تدخر جهدًا في دفع المرأة إلى التقدم ورفع مستواها الثقافي والعلمي وإعطائها حقها في التدرج الوظيفي ، فازالت العوائق أمام ترقيتها حتى بلغت مناصب عليا في الدولة(٨٠).

وكذلك في عمان ، حيث شقت المرأة العمانية طريقها إلى العلم بجد وثبات ، حتى بلغت مكانة مرموقة في المجتمع ، وشاركت في صنع القرار السياسي ، وأصبحت عضوة في مجلس الشورة العماني(٨١) .

ولم تتخلف المرأة في قطر عن ركب التعليم بل كافحت وجاهدت في سبيل الحصول على فرص متكافئة مع الرجل في التحصيل العلمي . وكان عملها في البداية قاصرًا على وزارة التربية والتعليم ، ثم فتحت لها أبواب العمل الأخرى حتى أصبحت قوة العمل النسائية الوظيفية في قطر تشكل ٣٩,٢٦٪ حسب إحصائيات سنة ١٩٩٤م ، وذلك وفق ما جاء في التقرير السنوي القطري قسم الإحصاء بديوان الخدمة المدنية(٨٢) . وتحدثنا الأرقام أن عدد الخريجين من جامعة قطر من الذكور بلغ ١١٧ طالبًا بينما بلغ عدد الخريجات ٥٢٣ طالبة ، وذلك لعام ٩٢ - ٩٣م(٨٣) .

ولم تتخلف المرأة السعودية عن أختها الخليجية ؛ وكانت انطلاقتها التعليمية والعملية ولا تزال في كنف الحجاب بعيدة عن الاختلاط . والمرأة السعودية هي المرأة الوحيدة في العالم الملتزمة حتى الآن بغطاء الوجه وعدم الاختلاط ، إذ توجد للمرأة مدارس وجامعات خاصة بها . وانشئت هيئة وزارية تتولى شؤون تعليم البنات العام والعالي ، ممثلة في الرئاسة العامة لتعليم البنات ، ووكالة الرئاسة العامة للتعليم العالي ، كما فتحت جامعات الملك سعود والإمام محمد بن سعود بالرياض، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الملك فيصل بالدمام ، وبفروعها المنتشرة في مدن المملكة ، فتحت هذه الجامعات أبوابها للطالبات ، وأنشأت لهن كليات خاصة بهن تشمل جميع التخصصات باستثناء الهندسة في معظم فروعها ، إذ سمح للفتاة بالتخصص في هندسة الديكور . كما أفتحت لها أقسامًا للدراسات العليا في جميع هذه التخصصات.

وقد وفرت المملكة للمرأة العمل بعيدًا عن الاختلاط في مجالات التعليم والخدمة الإجتماعية والبنكية والخدمة المدنية وكذلك في مجال الصحافة . ويرى في المستشفيات كثير من الطبيبات والممرضات والصيدلانيات السعوديات مرتديات الزي الطويل الساتر(٨٤) .

ونتيجة لرغبة المرأة السعودية في العلم استطاعت أن تقهر الأمية(٨٥) ، فأخذ عدد الأميات السعوديات يتناقص حتى بلغ سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ ، ٢,٢٢٧ ٥ طالبة(٨٦)وهذا العدد يتضاءل أمام عدد طالبات التعليم العام والجامعي.

كما برزت المرأة السعودية في مجال الفن التشكيلي وشاركت الفنانات السعوديات بلوحاتهن في معارض دولية .

ولم يتوقف مجال مساهمات المرأة على المشاركة في قوة العمل بل شاركت في الأنشطة الاقتصادية والاستثمارية والصناعية الأخرى(٨٧) .

ثانيا : ملامح الحياة الاجتماعية في عصر النفط :

لاشك في إن اكتشاف البترول وتزايد مردود النفط في مجتمعات شرق الجزيرة العربية مع قلة السكان وصغر المساحة أثر بشكل واضح على هذه المجتمعات في نواح كثيرة أهمها :

١ - اعتماد هذه المجتمعات على النفط اعتمادًا رئيسيًا في صادراتها ، ثم توجيه اهتمامها بعد ذلك إلى الزراعة والصناعة والتعدين ، إضافة إلى قيام نهضتين- عمرانية وتعليمية كبيرتين ، وترتب على هذا استقدام الأيدي العاملة الماهرة عربية وأجنبية . وللعمالة مردود اجتماعي أوضحته فيما سبق .

٢ - تزايدت أطماع الدول الاستعمارية في المنطقة مما جعلها تلقى بثقلها الثقافي والاقتصادي والسياسي لتعزيز وجودها وخدمة مصالحها ، بل تجدها تقوم بنشاط تنصيري ملحوظ وخاصة في الكويت . ويحدثنا عن هذا النشاط الأستاذ أحمد النعدي الدوسري فيقول :

" تتعرض منطقة الخليج إلى غزو تبشيري استفحل شره يومًا بعد يوم . ولقد آلينا على أنفسنا أن نسبر غوره ونهتك أسراره . ولهذا قمنا قبل عام بالتحديث عن الكويت ، وأثبتنا بالأرقام أن فيها عشرين كنيسة قامت بدون ترخيص في أماكن رئيسية ، وهذه الكنائس مزودة بإرساليات تبشيرية وقسس متفرغين لهذا الغرض . وعشرون كنيسة أقيمت خلال مدة قصيرة في بلد ليس فيه مواطن نصراني واحد ، وفي الجزيرة لا يجتمع دينان(٨٨) ... ثم يقول : وتتحدث الآن عن دور المدارس التبشيرية في الكويت : المدارس التبشيرية في الكويت عددها ثلاث عشرة مدرسة - تقوم عليها بعثات تبشيرية كاثوليكية باستثناء مدرسة واحدة للروم الأرثوذكس. وترتبط هذه المدارس بالفاتيكان . وليس هذا الكلام ظنًا ، إنما هو ما يصرح به القائمون على هذه المدارس بأن الأموال والتعليمات يأخذونها من بابا روما ومن مصادر أخرى(٨٩) . ثم يقول : يبلغ مجموع الطلاب المسلمين الذين ينتسبون إلى

هذه المدارس ٦٧,٣٢ طالبًا(٩٠) . أما في البحرين فيوجد بها خمس كنائس ، ومدرستان تنصيريتان . ويجد في عمان ثلاث كنائس وثلاث مستشفيات تدار بواسطة البعثات التنصيرية ، ومكتبة مسيحية . وكذلك يوجد في الإمارات عدد من المدارس والمستشفيات التي تدار من البعثات التنصيرية . أما قطر والمملكة العربية السعودية فلا يوجد بهما مدارس ولا مستشفيات تنصيرية ولا كنائس إلا أنه توجد في قطر ثلاث كنائس غير رسمية تتبع شركات البترول الأجنبية(٩١) .

٣ - تزايد هجرة أهل الريف والبادية إلى المدن مما أدى إلى ارتفاع عدد سكان المدن وانخفاض سكان الأرياف لتوفر فرص العمل والمال ، مما أحدث تغيرًا سريعًا ترتب عليه ظهور طبقات جديدة في المجتمع مثل طبقة العمال والطبقات المتوسطة وغيرها .

٤ - انتشار المراكز الحضارية ذات التقاليد التي هي مزيج بين القديم والحديث أدى إلى تغير في بعض القيم والتقاليد ، مما دفع رجال القبائل إلى الالتحاق بالأعمال التي وفرتها الحكومات ، إذ أدركوا أن ذلك يحقق لهم ضمانًا أكثر ويوفر لهم ولأبنائهم امتيازات في الوضع المادي والتعليمي والرعاية الصحية .

٥ - ازدياد نمو الوعي نتيجة التعليم والاحتكاك أكثر بالعالم الخارجي .

٦ - تمكن المرأة من تحقيق كثير من الإنجازات والمكاسب بإتاحة فرص العلم والعمل لها - وقد أوضحت ذلك سابقًا - وأصبحت تؤدي دورها بأكثر إيجابية لأنها أصبحت ذات كيان يحس به المجتمع ويهتم به ، إلا أنها لا تزال تعاني من رواسب الماضي المتمثلة في نظرة الرجل إليها على أنها مخلوق أدنى بسبب عدم فهمه معنى القوامة . على أنه كان هناك مردود سلبي على خروج المرأة الخليجية إلى العمل وهو تنظيم النسل ، والاقتصار على أنجاب طفلين على الأكثر في وقت تعاني فيه مجتمعات هذه الدول من نقص في السكان(٩٢) .

٧ - تغير أنماط الحياة من حيث تخطيط المدن والشوارع وتصميم المنازل ، ونوعية أثاثها بما يتلاءم مع روح العصر الحديث .

٨ - اختلاف مظاهر الاحتفال بالزواج والأعياد ، والمناسبات الأخرى . وأن كان لاتزال تحتفظ بالأصول والجذور . وهناك محاولات من الفئات المثقفة بالدعوة إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة في الثقافة والأدب ومختلف أساليب الحياة، وعدم الانحراف في تيارات التغريب . وهناك هيئات حكومية انبثقت من الوزارات المعنية بالتعليم والشئون الدينية والثقافية تهتم بالتراث : جمعه وإحيائه . ويضاف إلى ذلك الإصدارات الثقافية الخاصة بهذا الشأن ، وكذلك إقامة المهرجانات التي تهتم بإحياء التراث مثل مهرجان الجنادرية الذي يقيمه الحرس الوطني سنويًا في الرياض في قرية الجنادرية التي تعبر عن تراث الآباء والأجداء وأنماط حياتهم بصورة حية ملموسة ، كما نلاحظ هذا في طرز بعض العمائر في الرياض ، مثل مباني مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ، وهي عبارة عن مدينة سكنية متكاملة المرافق بنيت في شكلها الخارجي على الطراز القديم لمباني الرياض ومن الداخل فيها لمسات من الطراز المعماري الإسلامي من حيث الفناء الداخلي الذي تشرف عليه غرف المبنى مع إدخال وسائل التقنية الحديثة في هذه المباني .

٩ - لم يعد الترابط الأسري كما كان في عصر ما قبل النفط ، وهذه ظاهرة خطيرة لا يقتصر وجودها على مجتمع النفط الخليجي وحده ، وإنما هي ظاهرة موجودة في كثير من المجتمعات العربية ، وهذا ناتج عن طبيعة ظروف هذا العصر ، وسطرة الماديات .

١٠ - تشهد مجتمعات الساحل الغربي الخليجي نهضة أدبية وفكرية تتميز بالطابع الإسلامي وإن كانت لم تخل من التأثير السلبي لبعض التيارات الفكرية الغربية الذي جرف بعض الأدباء الشبان ، إلا أن بعض الأقلام الواعية تصدت لهم . هذا وتعتبر الإصدارات الثقافية الخليجية من دوريات ومجلات ثقافية من أهم الروافد الثقافية على مستوى العالم العربي ؛ إذ لا يستغني عنها المثقف العربي بوجه عام .

الخاتمـــــة :

وبعد هذه الرحلة الطويلة التي حينا خلالها الساحل الغربي للخليج العربي ، ونرى أننا توصلنا إلى الآتي :

١ - أن هذا الساحل يتمتع بعمق حضاري ترجع جذوره إلى ماقبل الألف الثالث قبل الميلاد :

إذ قامت فيه حضارات معاصرة للحضارة السومرية والأكادية ، بل أن الهجرات التي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت في بلاد وادي الرافدين والشام هي تلك الهجرات التي شيد أصحابها الحضارات الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية والفينيقية وغيرها من الحضارات القديمة .

والجزيرة العربية مهد الإسلام والحضارة الإسلامية ، وسكان الساحل الغربي من أوائل الذين دخلوا في الإسلام . ودخلت جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية الإسلام، فكان لهم دور فعال وإيجابي في تشييد الحضارة الإسلامية التي تعد أعظم حضارة إنسانية شهدتها البشرية في العصور الوسطى .

٢ - إن الخليج " عربي " بسواحله الثلاثة الغربية والشمالية والشرقية فالعنصر العربي هو المكون للنسيج الثلاثي به ، ونسبة البدو تشكل خمس السكان وليس الأغلبية كما يعتقد البعض .

٣ - إن الإنسان الخليجي إنسان مؤمن قوي الإيمان بالله ، فرغم قسوة الحياة على الساحل الغربي لم يتطلع إلى غزو أي من الساحلين الشمالي أو الشرقي حيث ينعمان بالخير الوفير ، ولا سيما الساحل الشمالي " العراق " ، إنما اتجه إلى البحر - لصيد السمك أو السفر في سبيل التجارة أو الغوص في الأعماق بحثًا عن اللؤلؤ . ورغم هذا الجهاد والكفاح في سبيل لقمة العيش ، فإنه كان يعيش عيشة الكفاف ، وطعامه عبارة عن الخبز والتمر واللبن والسمك

المجفف المملح في معظم أيام السنة . وهكذا حتى من الله عليه باكتشاف البترول عصب الحياة العصرية ، فتحول من الفقر إلى الثراء . وتمكن بهذه الثروة أن يشيد نهضة حضارية شملت جميع نواحي الحياة تحت مظلة الإسلام ، كما مكنته هذه الثروة من أن يكون دعمًا ماديًا لاخوانه المسلمين في كل ركن من أركان العالم .

٤ - كان للغوص أثر عميق في حياة الإنسان الخليجي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية والفنية والنفسية ، بل امتد هذا التأثير إلى الطفل الخليجي الذي عبر عن تأثره بالبحر والغوص بما ابتدعه وابتكره من ألعاب ، والتي تكشف لنا مدى تميزه وتمتعه بعقلية ابتكارية إبداعية .

٥ - قامت المرأة الخليجية قبل اكتشاف النفط في الساحل والريف والبادية بدور إيجابي وفعال في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، رغم إهمال المجتمع لها ، وسلبها الكثير من حقوقها ، إلا أنها تعمل في صمت وصبر وثبات .

وظلت المرأة الخليجية تنهض بهذا الدور الشاق حتى حان الوقت لوثبتها فنفضت غبار الجهل عنها وعوضت عن حرمانها من العلم طوال القرون الماضية بإقبال شديد يفوق كل التوقعات ، وقفزت قفزات سريعة حتى وصلت إلى أعلى درجات العلم والمعرفة ، تاهرة الأمية التي ضيعت على حياتها قرونا عديدة - وارتقت أعلى المناصب ، كل ذلك تم في وقت قياسي لا يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا .

٦ - يتعرض الساحل الغربي للخليج العربي لمخاطر كثيرة كثير تتمثل في أطماع الدول الاستعمارية وبعض الدول المجاورة له في إقليم الخليج نفسه .

٧ - يعاني الساحل الغربي من مشكلة قلة السكان التي ترتب عليها قلة عدد أفراد جيوشه ، كما ترتب عليها استقدام العمالة الأجنبية لتغطية احتياجات النهضة التعليمية والعمرانية والزراعية والصناعية من الأيدي العاملة . ولهذين العاملين خطورتهما القصوى .

الهوامش

(١) د. محمد رياض ، الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠ ص٢١٧

(٢) د. جمال زكريا ، عليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ص٢

(٣) د. محمد رياض ، مصدر سابق ص٢٢٧ - ٢٢٩

(٤) المصدر السابق ص٢٢٩

(٥) المصدر السابق ص٢١٩

(٦) المصدر السابق ص٢٢٩

(٧) المصدر السابق ص٢٣٠

(٨) المصدر السابق ص٢٣١ - ٢٣٥

(٩) المصدر السابق ص٢٣٢

(١٠) أصل التسمية العربية " الخولة " حولها الأعاجم إلى المولة ، لأنهم ينطقون "الخاء" هاءًا .

(١١) د. محمد رياض ، مصدر سابق ص٢٣٨ ، ٢٣٩

(١٢) د. محمد حسين العيدروس ، تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ص٣٥٧

(١٣) المصدر السابق ص٣٥٧

(١٤) المصدر السابق ص٣٥٧

(١٥) ترجع كلمة عتوب إلى الأصل الثلاثى " عتب " وهو فعل معناه الإكثار من الترحال من مكان إلى آخر ، وسمى العتوب بهذا الاسم بعد ارتحالهم من منطقة الهدار فى نجد موطنهم الأصلى أتى من الجنوب شمالاً إلى الكويت فهو معتبرا بذلك إلى الشمال " د. ميمونة الصباح ، نشأة الكويت - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٤٦ ص١٤

(١٦) د. ميمونة الصباح أستاذة تاريخ بجامعة الكويت .

(١٧) المصدر السابق ص١٦

(١٨) المصدر السابق ص١٦ ، ١٧

(١٩) المصدر السابق ص١٦ ، ١٧

(٢٠) د. محمد حسين العيدروس ، تاريخ العربى الحديث والمعاصر ص٣٥٨

(٢١) د. محمد رياض ، الخليج والخليجيون ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٣٦ ص٢٤١

(٢٢) المصدر السابق ص٢٤٣

(٢٣) المصدر السابق ص٢٤٤ ، ٢٤٥

(٢٤) د. منصور الرفاعى وآخرون ، نحو استخدام أمثل للقوى العاملة الوطنية بالدول الخليجية ص٢٤

(٢٥) د. محمد حسن العيدروس ، مصدر سابق ص٣٧٦

(٢٦) المجموعة الإحصائية السنوية للكويت عدد ٣١ لسنة ١٩٩٤م ص٢٦

(٢٧) سعود بن سالم العنسى ، السكان وإرادة التنمية ومقوماتها فى عمان ص١٥٥

(٢٨) فالح حنظل ، معجم الغوص واللؤلؤ فى الخليج العربى ص٣

(٢٩) أنجلا كلارك ، جزر البحرين ، ترجمة د. محمد الخزاعى ص٨٣

(٣٠) المصدر السابق ص٨٣

(٣١) د. محمد حسن العيدروس ، مصدر سابق ص٢٠٧

(٣٢) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى الجزء الأول ص٢٦٢

(٣٣) المصدر السابق ص٢٦٣

(٣٤) د. محمد حسن عبد الله ، الحركة الأدبية والفكرية فى الكويت جـ١ ص٤٩

(٣٥) عبد المجيد مصطفى ، عثمان فيظ الله ، دراسات عن الكويت والخليج العربى ص٢٦٩ - ٢٧١

(٣٦) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ جـ١ ص٢٨٠

(٣٧) عبد المجيد مصطفى ، عثمان فيظ الله ، مصدر سابق ص٢٧١

(٣٨) أنجلا كلارك ، جزر البحرين دليل مصور لتراثها ترجمة د. محمد الخزاعى ص ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨

(٣٩) الكلمات التى بين قوسين صغيرين هى مصطلحات الغوص باللهجة الخليجية .

(٤٠) فالح حنظل ، معجم الغوص واللؤلؤ فى الخليج العربى ص١٧ - ٢٠

(٤١) سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغـــوص على اللـــؤلؤ فى الكويت والخليج جـ٢ ص٢١٩

(٤٢) فالح حنظل ص١٠ ، ١١ ، ١٢

(٤٣) المصدر السابق ص١٢ ، ١٣

(٤٤) " فلهام " بلغة أهل الخليج أى القطوب البحرى وجمعها " الفّهامة " (بتشديد الفاء والفاء) ، و " الفّهمة " (بتشديد النون وإسكان الفاء) أى القطوب البحرى وهى قد تكون مشتقة من النهم زجر الإبل تصيح بها لتجد فى سيرها . سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ جـ٢ ص٢٤٨

(٤٥) نبذة عن الفنون الشعبية فى المملكة العربية السعودية من إعداد التحرير ، التراث الشعبى من إعداد الجمعية العربية للثقافة والفنون ص٦٩ - ٧١

(٤٦) علها تقصد بـ " أربعة والخامس دخل " أربعة أشهر وهى مدة موسم الغوص الكبير والشهر الخامس دخل أى بدأ .

(٤٧) إبراهيم الشكرى ، الرقصات الشعبية الكويتية ص٦٢

(٤٨) د. محمد العيدروس ، مصدر سابق ص٣٥٨ ، ٣٥٩

(٤٩) المصدر السابق ص٣٦٢

(٥٠) د. محمد العيدروس ، مصدر سابق ص٣٦٤من النماذج الموزونة للفنون الشعبية العمانية جـ٢ ص١٠٣

(٥١) من النماذج الموزونة للفنون الشعبية العمانية جـ٢ ص١٠٣

(٥٢) د. محمد العيدروس ، مصدر سابق ص٣٦٤

(٥٣) محمد جابر الأنصارى ، لمحات من الخليج العربى ص١٠٢

(٥٤) من النماذج الموزونة للفنون الشعبية العمانية جـ٢ ص١٠٣

(٥٥) أنجلا كلارك ، جزر البحرين ، ترجمة محمد الخزاعى ص١٢٨

(٥٦) المصدر السابق ص١٣١

(٥٧) عبد المجيد مصطفى ، عثمان فيظ الله ، دراسات عن الكويت والخليج ص٢٨٥

(٥٨) المصدر السابق ص٣١٥ ، ٣١٧

(٥٩) سعود بن سالم العنسى،السكان وإرادة التنمية ومقوماتها فى عمان ص٥٨ ، ٥٩

(٦٠) أنجلا كلارك ، جزر البحرين ، ترجمة د. محمد الخزاعى ص٩٤ - ٩٨

(٦١) محمد جابر الأنصارى ، لمحات من الخليج العربى ص٩٣ ، ٩٤

(٦٢) فهد عبد العزيز الكليب ، الرياض ماض تليد وحاضر مجيد ص١٣١ ، ١٣٢

(٦٣) المصدر السابق ص١٣٢ ، ١٣٣

(٦٤) المصدر السابق ص١٣٥

(٦٥) عبد المجيد مصطفى وعثمان فيظ الله ، مصدر سابق ص٢٨٥

(٦٦) نجيب عبد الله الشامى ، الألعاب والألغاز الشعبية فى الإمارات ص١٢ ، ١٣

(٦٧) المصدر السابق ص١٣ ، ١٤

(٦٨) المصدر السابق ص١٤

(٦٩) إردافه أى رداءه .

(٧٠) العفرا : كناية عن الجمل (البحر) .

(٧١) أحمد يوسف عيدان ، الأمثال الشعبية فى قطر ص٣٣

(٧٢) من النماذج الموزونة للفنون الشعبية جـ٢ ص٧١

(٧٣) المصدر السابق ص٧١

(٧٤) نورة خليفة النعيمى ، تعليم وعمالة المرأة فى قطر "رسالة ماجستير" ص٧٧

(٧٥) د. محمد العيدروس ، المصدر السابق ص٣١٦

(٧٦) سالى آى بعيش . د. سيمس بوركس . المرأة فى الريف العمانى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة عدد ١٠ سنة ١٩٧٧ ص١٠١ - ١٠٦

(٧٧) أسماء بعض النساء المشهورات بالكويت من إعداد المكتب الخاص بالملحق الثقافى لدولة الكويت ، اعد خصيصًا لهذا البحث .

(٧٨) أحمد سعد ، المرأة والرياضة فى الإمارات ص١٩

(٧٩) سيف كمال نايل ، سامح عبـــد الحميـــد ، التعليم فى الإمارات أمس واليوم وغدًا ص٢٠

(٨٠) محمد ياسر شرف ، الحياة الاجتماعية فى الإمارات ص٨٩ ، ٩٠

(٨١) عمان ٩٦ ، إصدار وزارة الإعلام ، سلطنة عمان ص٦٠

(٨٢) غلاء حاسم عبد الرحمن العثمان فخرو ، التخطيط لمتابعة برامج ومشروعات خطة التنمية الثورية بدولة قطر " رسالة ماجستير " ص٣٩

(٨٣) قطر حقائق وأرقام ، وزارة الإعلام والثقافة ، دولة قطر ص٧

(٨٤) التقرير السنوى للرئاسة العامة لتعليم البنات للعام الدراسى ١٤١٤هـ ص٤٤

(٨٥) إحصاءات التعليم العالى فى المملكة عدد ١٨ سنة ١٤١٦هـ ، وزارة التعليم العالى ص٢٧٤ ، ٢٧٥

(٨٦) التقرير السنوى للرئاسة العامة لتعليم البنات ، مصدر سابق ص٤٤

(٨٧) مشاعل محمد الشملان ، تعليم المرأة والتنمية فى المملكة العربية السعودية " رسالة ماجستير " ص١٤٢

(٨٨) أحمد النجدى الدوسرى ، الغزو العشيرى النصرانى فى الكويت ص٣٢٦

(٨٩) المصدر السابق ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٩٠) المصدر السابق ص٣٢٧

(٩١) د. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، التنصير ومحاولاته فى بلاد الخليج العربى ص٥٥ - ٦٤ باختصار شديد .

(٩٢) سهيلة زين العابدين حماد ، مسيرة المرأة السعودية إلى أين ص٨٢ ، ٨٣

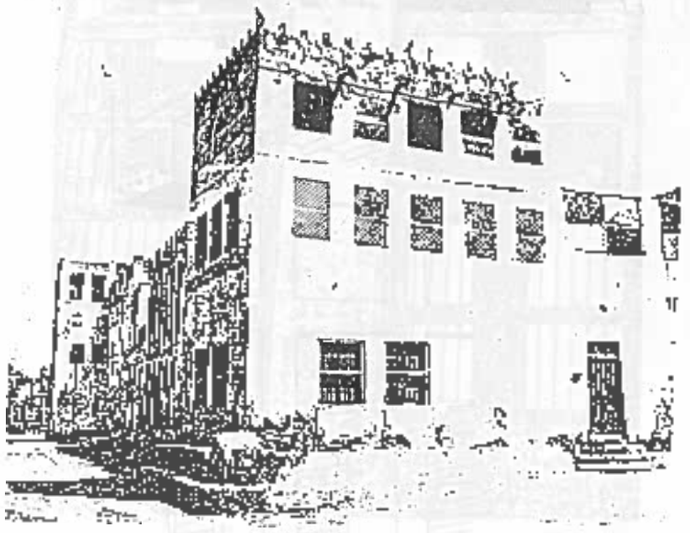

بيت تقليدى فى البحرين

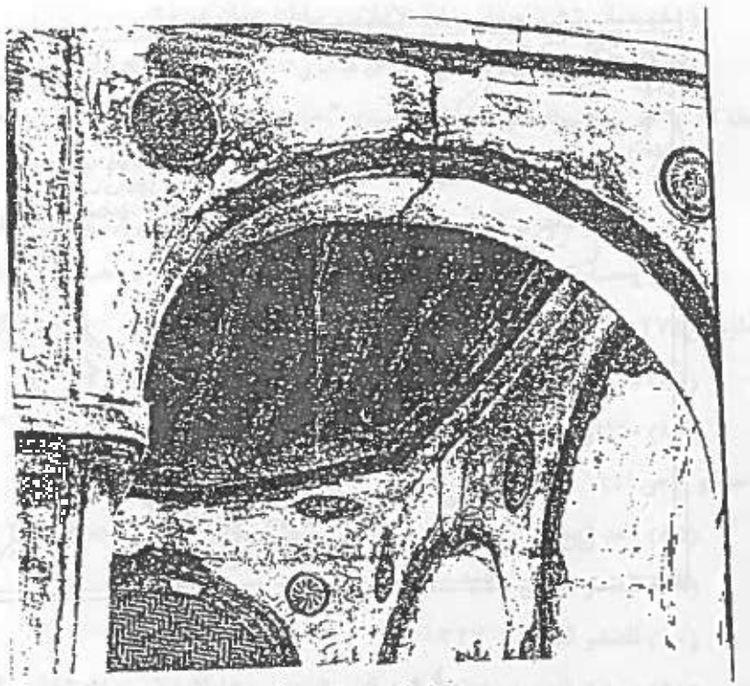

تفاصيل لسقف فى منزل

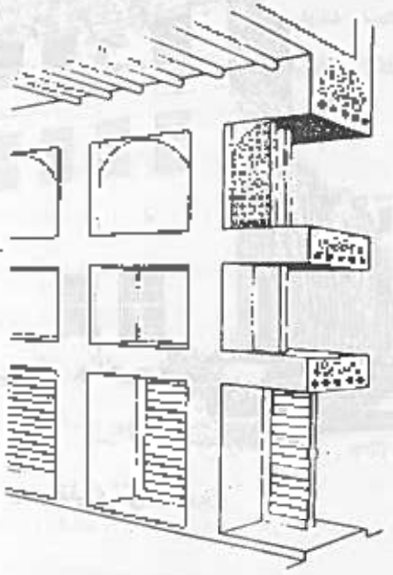

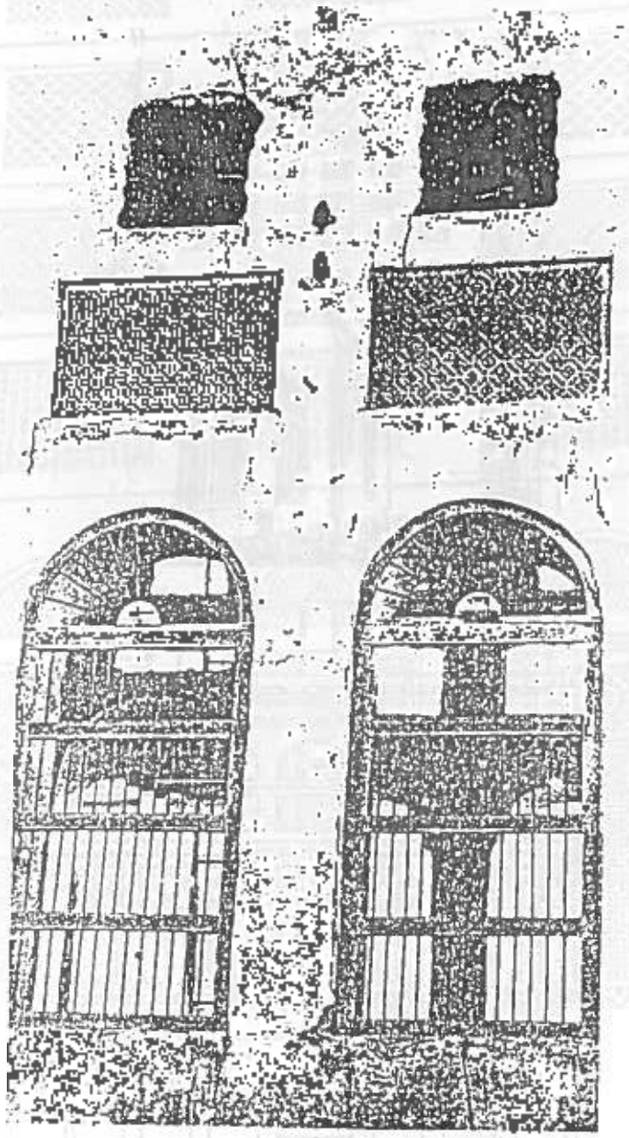

نوافذ ذات قضبان حديدية

بيت سيادى

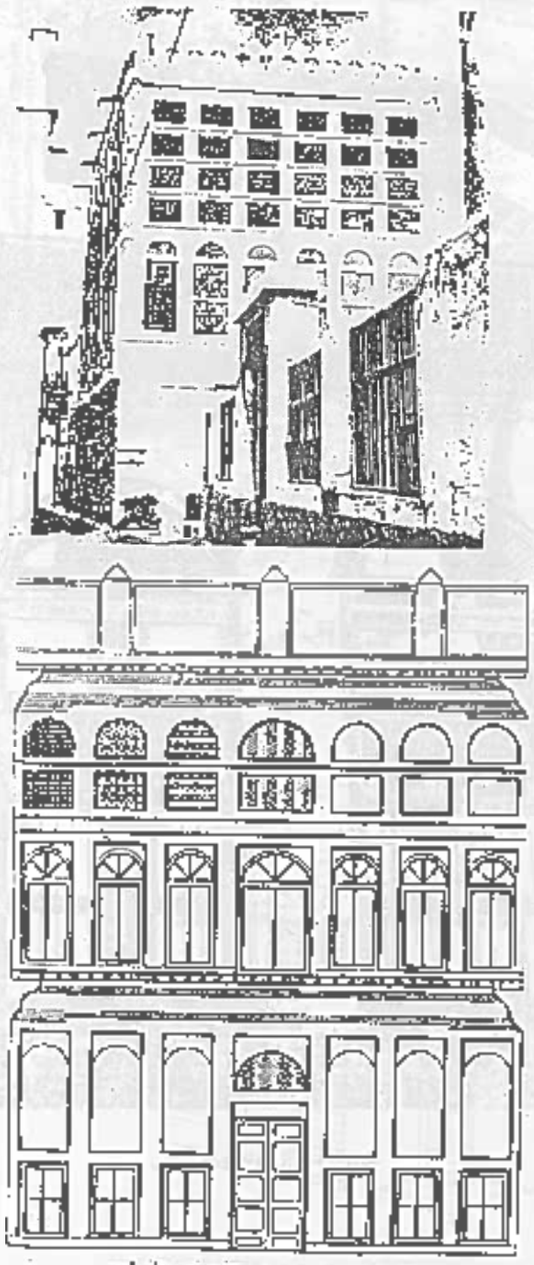

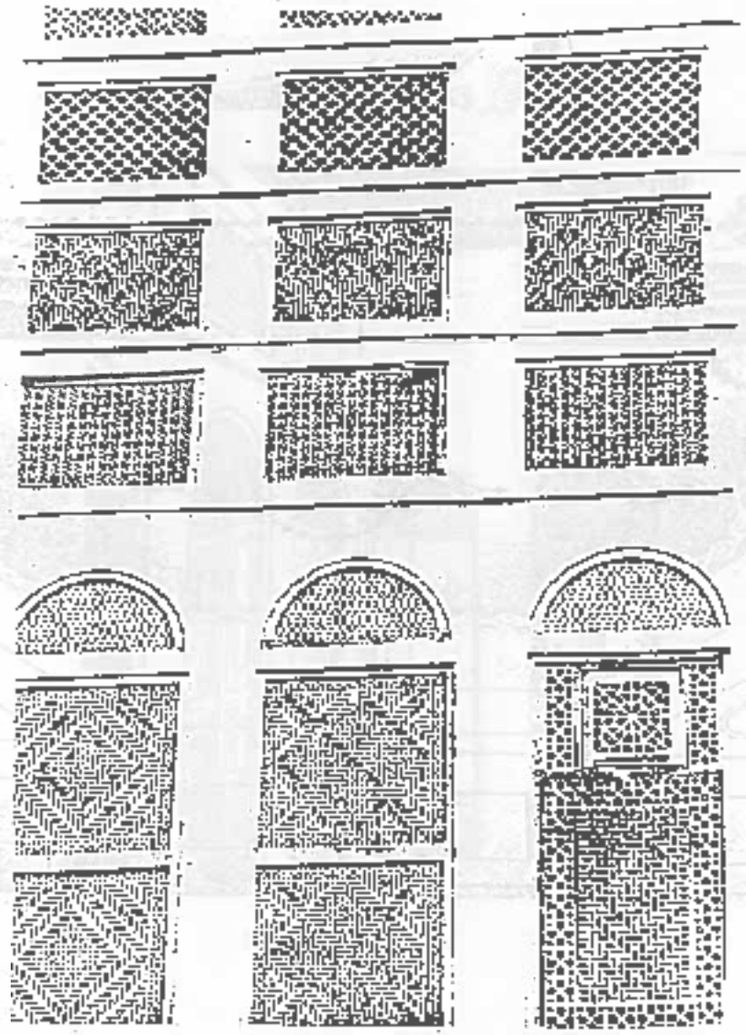

الصفوف السفلى والوسطى والعليا لزعارف حائطية

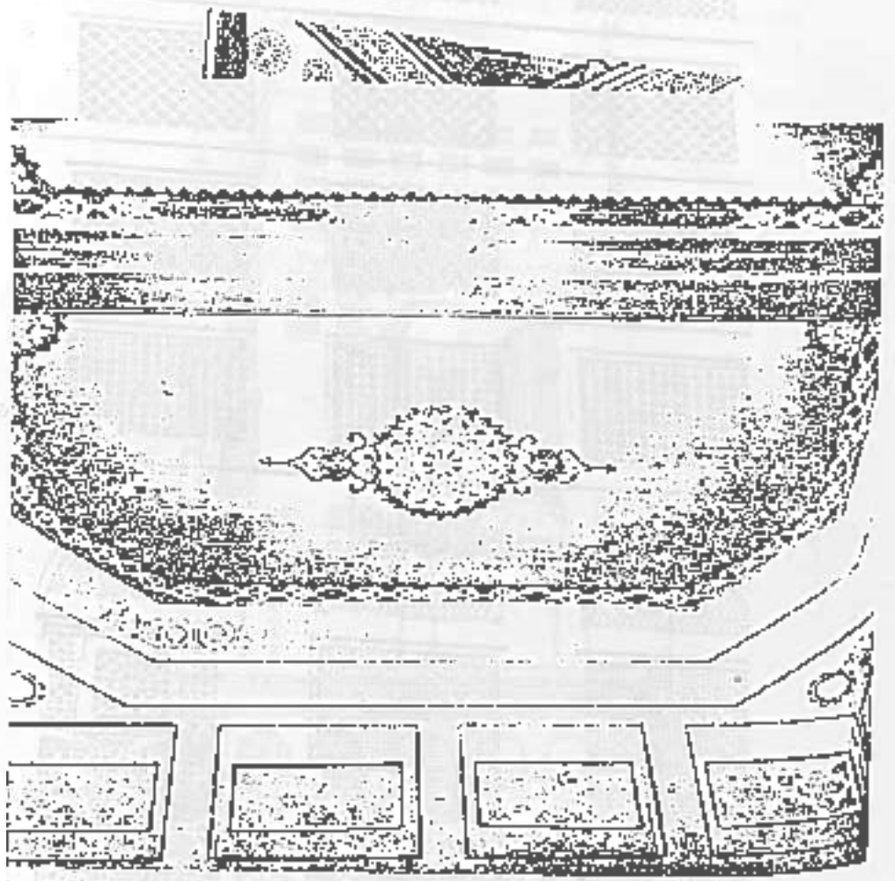

نقوش فى السقف

غرفة صغيرة بالطابق السفلى فى بيت سبادى

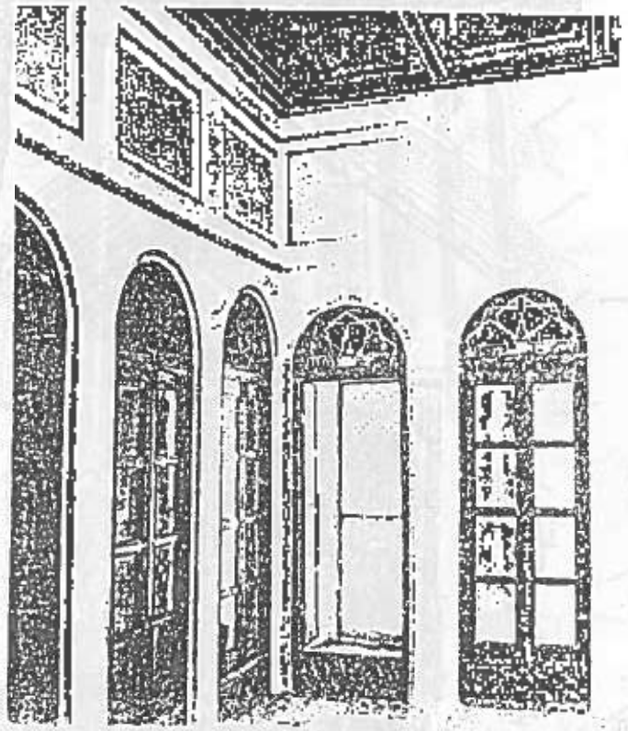

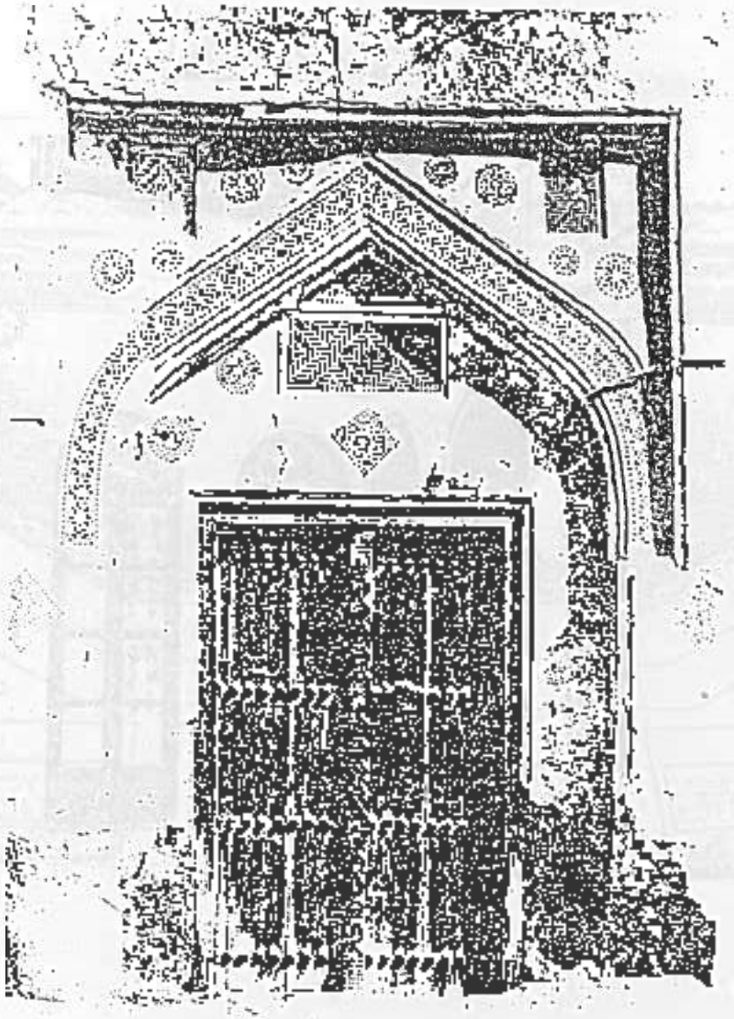

باب خشبي مزخرف

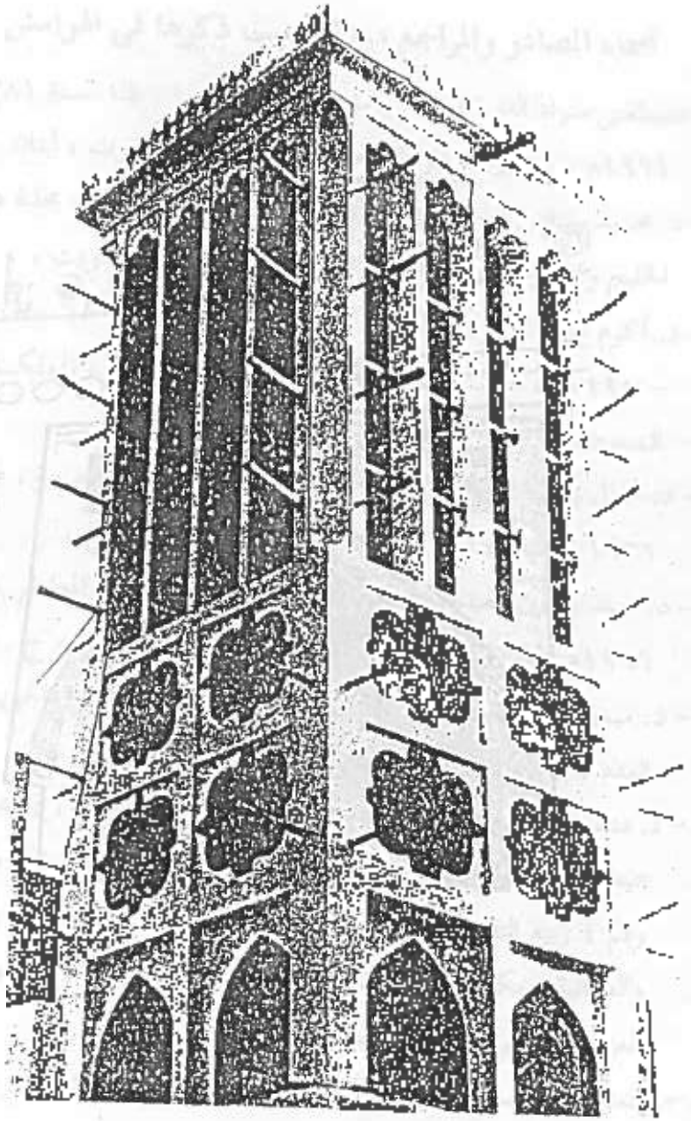

برج هواء ١

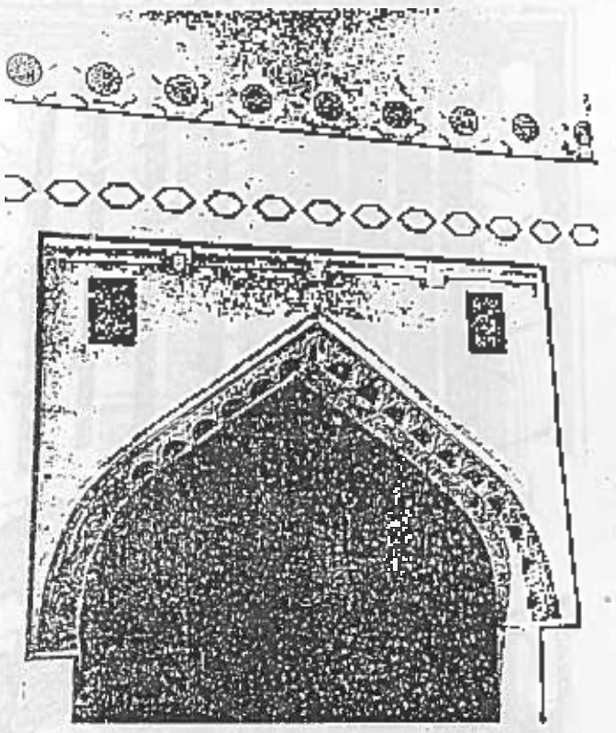

أسماء المصادر والمراجع مرتبة حسب ذكرها في الهوامش

١ - مصطفى مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ، ط١ سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م ، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٢ - د. محمد رياض : الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٩٠م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ٣٦ ، جامعة الكويت - الكويت .

٣ - د. أكرم ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة حـ ٢ ، ط٦ سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية .

٤ - د. جمال زكريا ، الخليج العربى ودراسة لتاريخ الإمارات العربية ، طبعة سنة ١٩٦٦م مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ، ج . م . ع .

٥ - د. محمد حسين العيتوس ، تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ، ط١ سنة ١٩٩٦م ، عين للدرسات والبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، ج . م . ع.

٦ - د. ميمونة الصباح ، نشأة الكويت ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤٦ ، جامعة الكويت ، الكويت .

٧ - د. منصور الراوى ، د. خالد حسين أحمد ، د. باقر النجار ، د. محمود عبده عيسى ، نحو استخدام أمثل للقوى الوطنية بالدول الخليجية ، ط١ ، عدد رقم ٤ ربيع الثانى ١٤٠٥هـ يناير ١٩٨٥م ، سلسلة الدراسات الاجتماعية والعمالية ، مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشئون الاجتماعية بالدول العربية الخليجية ، المنامة ، البحرين .

٨ - المجموعة الإحصائية السنوية للكويت عدد ٣١ سنة ١٩٩٤م وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية ، الكويت .

٩ - سعود بن سالم العنسى ، السكان وإرادة التنمية ومقوماتها فى عمان ، ط٢ إبريل سنة ١٩٩٤ ، سلطنة عمان .

١٠ - فالح حنظل ، معجم الغوص واللؤلؤ فى الخليج العربى .
١١ - أنجلا كلارك ، جزر البحرين دليل مصور لتراثها ، ترجمة د. محمد الخزاعى، طبعة سنة ١٩٨٥م ، جمعية تاريخ وآثار البحرين ، المنامة ، البحرين .
١٢ - سيف مرزوق الشملان ، تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى الجزءان الأول والثانى ط١ ، سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٥م .
١٣ - د. محمد حسن عبد الله ، الحركة الأدبية الفكرية فى الكويت جـ١، طبعة سنة ١٩٧٣م ، رابطة أدباء الكويت ، الكويت .
١٤ - عبد المجيد مصطفى ، عثمان فيظ الله ، دراسات عن الكويت والخليج العربى ، جـ١ ، بدون تاريخ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بالفجالة ، القاهرة ، ج . م- ع .
١٥ - التراث الشعبى ، من إعداد الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٠م .
١٦ - إبراهيم الشكرى ، الرقصات الشعبية الكويتية ، دارسة فنية .
١٧ - أمين الريحانى ، نجد وملحقاته ، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨١م ، ومنشورات الفاخرية ودار الكاتب العربى ، الرياض ، بيروت .
١٨ - حسين بن غنام ، تاريخ نجد ، تحقيق د. ناصر الدين الأسد ط٤ سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، دار الشروق القاهرة ، بيروت .
١٩ - من النماذج الموروثة للفنون الشعبية العمانية جـ٢ ، ط١ ، مايو سنة ١٩٩١م ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان .
٢٠ - محمد جابر الأنصارى ، لمحات من الخليج العربى ، ط١ إبريل ١٩٧٠م ، الشركة العربية للوكالات والتوزيع وأسرة الأدباء والكتاب ، البحرين .
٢١ - دخيل الله الحيدرى ، التعليم الأهلى فى المدينة المنورة .
٢٢ - فهد عبد العزيز الكليب ، الرياض ماض تليد وحاضر مجيد .
٢٣ - نجيب عبد الله الشامى ، الألعاب والألغاز الشعبية فى الإمارات .

٢٤ - أحمد يوسف عبيدان ، الأمثال الشعبية فى قطر ، رسالة ماجستير إشراف أ. د. عبد الحميد يونس ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .
٢٥ - نورة خليفة السبيعى ، تعليم وعمالة المرأة ف قطر " رسالة ماجستير" إشراف : أ . د . فتحية حسن ليمان ، أ . د . صلاح الدين جوهر ، قسم أصول التربية - كلية البنات - جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٤م .
٢٦ - صالى أى ليتس ، د. صينس بيركس ، المرأة فى الريف العمانى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة عدد ١٠ سنة ١٩٧٧م جامعة الكويت-الكويت.
٢٧ - أحمد سعد ، المرأة والرياضة فى الإمارات .
٢٨ - سيف كمال نايل وسامح عبد الحميد ، التعليم فى الإمارات أمس واليوم ... وغداً ، طبعة سنة ١٩٩١م ، وزارة التربية والتعليم ، دولة الإمارات العربية المتحدة .
٢٩ - محمد ياسر شرف ، الحياة الاجتماعية فى الإمارات ، مركز البحوث والدراسات الأمنية والاجتماعية ، الإدارة العامة بشرطة ابى ظبى - الإمارات العربية المتحدة .
٣٠ - عمان ٩٦ ، إصدار وزارة الإعلام ، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، مسقط - سلطنة عمان .
٣١ - نجلاء حاسم عبد الرحمن العثمان فخرو - التخطيط لمتابعة برامج ومشروعات خطة التنمية التربوية بدولة قطر " رسالة ماجستير " إشراف أ. د. حامد مصطفى عمار ، د. محمود السعيد عبد المقصود ، كلية التربية - جامعة عين شمس ، سنة ١٩٩٥م .
٣٢ - قطر حقائق وأرقام ، وزارة الإعلام والثقافة ، دولة قطر .
٣٣ - التقرير السنوى للرئاسة العامة لتعليم البنات للعام الدراسى ١٤١٤هـ.

٣٤ - إحصاءات التعليم العالى فى المملكة العربية السعودية عدد ١٨ سنة ١٤١٦هـ ، وزارة التعليم العالى ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٣٥ - مشاعل محمد شعلان ، تعليم المرأة والتنمية فى المملكة العربية السعودية " رسالة ماجستير " - جامعة المنوفية - كلية الآداب - قسم اجتماع سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٣٦ - أحمد النجدى الدوسرى ، الغزو التبشيرى النصرانى فى الكويت .

٣٧ - د. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، التنصير ومحاولاته فى بلاد الخليج العربى ط١ سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م . مكتبة العبيكان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٣٨ - سهيلة زين العابدين حماد ، مسيرة المرأة السعودية ... إلى أين ؟ ط٢ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، الدار السعودية للنشر ، جدة - المملكة العربية السعودية .

دور البرتغال الاستعمارى فى إقليم الخليج

أ. د. شوقى الجمل*

افتتح البرتغال صفحة الاستعمار الأوربى فى إفريقيا على ساحل بلاد المغرب (مراكش) واحتلالهم مدينة سبته Ceuta المغربية فى جمادى الثانية عام ٨١٨هـ (أغسطس سنة ١٤١٥م)(١) .

وكان الدافع الدينى من أقوى الدوافع وراء هذا النشاط الكشفى والاستعمارى البرتغالى ، بهدف تعقب القوى الإسلامية التى كانت قد استقرت فى شبه جزيرة أيبريا لمدة ثمان قرون ، قبل أن يبدأ البرتغاليون والأسبان حملاتهم العسكرية لطرد العرب ثم تعقبهم فى المناطق التى استقروا بها فى إفريقيا ، ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل استمروا فى حملاتهم الكشفية والاستعمارية . وكان من أهدافهم الوصول إلى مملكة الحبشة المسيحية والاتفاق على حملات مشتركة ضد القوى الإسلامية ، كما كان من أهدافهم الوصول إلى تجارة الشرق التى كان يتحكم فيها المسلمون ، ودولة المماليك فى مصر والحجاز بالذات(٢).

والدليل على أن الدافع الدينى كان يقف وراء حركات البرتغال الاستعمارية المبكرة فى ذلك الوقت أن البابوية باركت هذه الحركات ، بل بادرت بالتدخل لفض النزاع بين الدولتين الاستعماريتين البرتغال وأسبانيا بعقد معاهدة بينهما فى عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م عُرفت بمعاهدة توردسيلاسى Tordesillas(٣) .

وقد تتابعت حملات البرتغال الكشفية والاستعمارية بعد فتح سبته ، فاحتلت جيوشهم جزر كناريا عام ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م ، وجزر ماديرا عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م وازوروس فى عام ٨٤١ هـ/١٤٣٧م والرأس الأبيض

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة .

فى عام ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م ، ووصلوا إلى ساحل سيراليون فى عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م .

ونجح الكابتن ديجوكام Diego Cam فى عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م فى الوصول إلى مصب الكنغو ، وأعقب ذلك رحلات بارتليمو دياز Bartholemeu Diaz الذى قام برحلة عام ٨٩١هـ / ١٤٨٦م فوصل لأول مرة إلى الطرف الجنوبى من القارة . وقام فاسكودا جاما فى عام ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م برحلته المشهورة فى أربع سفن فوصل إلى نهاية جنوب القارة ، وعبر رأس الرجاء الصالح للساحل الشرقى للقارة . وبعد ذلك وصل كليكت Calicut على الساحل الغربى للهند فى عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م .

واتجه البرتغاليون بعد وصولهم إلى شرق أفريقيا إلى مهاجمة الإمارات العربية بشرق القارة .

ففى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م غادر لشبونه أسطول برتغالى كبير من ثلاثة وعشرين سفينة تحت قيادة فرانسسكو دى الميدا Francisco De Almeida بقصد تثبيت أقدام البرتغال فى المناطق التجارية والاستراتيجية فى السواحل الإفريقية - خاصة المناطق التى تتحكم فى الطريق التجارى الجديد - طريق رأس الرجاء الصالح - والقضاء على نفوذ العرب الذين كانت لهم السيادة التامة على الطريق التجارى ، ويعلمون كوسطاء ينقلون منتجات الهند والشرق الأدنى بل والشرق الأقصى إلى أفريقيا ، فقد وصلت سفنهم إلى الصين ، وكانوا لقرون عدة يحتكرون هذا النشاط التجارى .

ولتحقيق هذا الهدف قرر البرتغاليون الاستلاء على القواعد العربية فى شرق أفريقيا ، فأرسل القائد البرتغالى قوة استولت على سفالة ، وحاصرت كلوه ، واستولت عليها بعد قتال عنيف ، وتعرضت المدينة لأعمال النهب والسلب ،

وأشعل البرتغاليون فيها النار إنتقامًا من أهلها الذين قاوموا الغزو البرتغالى ببسالة ، وأقام البرتغاليون حصنًا بالميناء تركوا به حامية لهم .

ثم تقدموا صوب ممبسة - فقاوم سكانها من العرب السواحيلية - القوى الغازية مقاومة عنيفة ، ودافعوا عن كل شبر من أرض بلادهم حتى انتقل القتال إلى الطرقات الضيقة ، وداخل الدور - لكن اضطر الأبطال المدافعون أخيرًا للتقهقر ، تاركين مدينتهم التى أشعل الغدر فيها النار انتقامًا من بطولة أهلها . وساعدت شدة الرياح فى ذلك الوقت على سرعة انتشار اللهب - فأتت على كل شئ حتى أن شيخ المدينة المنكوبة كتب إلى زميله حاكم ماليندى يصف كيف وجدوا المدينة بعد عودتهم إليها ، بعد أن نهبها الغزاة البرتغاليون - وتركوها طعمة للنيران فقال : " لم يتركوا فيها أى كائن ، لا رجل ولا امرأة ، ولا صغير ، ولا كبير حتى الأطفال - كل الذين لم يتمكنوا من الهرب قتلوا أو احرقوا " ... وختم خطابه بتحذيره من هذا الخطر الزاحف(٤) .

وبسقوط كلوه ، وممبسة سقط عمودان من أهم الأعمدة التى كانت ترتكز عليها السيادة العربية فى شرق أفريقيا .

وفى سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م أرسل أسطول برتغالى آخر من أربعين سفينة لشرق أفريقيا تحت قيادة البوكرك Albuquerque فاستولى على لامو ، وبراوة ، وعلى جزيرة سوقطرة وبنى عليها البرتغاليون حصنًا ليكون قاعدة دائمة لعملياتهم البحرية فى المحيط الهندى .

وفى سنة ١٥٥٧ م سقطت موزمبيق فى يد القائد البرتغالى دوارت أميللو Duarte De Mello ، واهتم البرتغاليون بتحصينها ، وبنوا فيها مستشفى وكنيسة - وامتد نفوذهم على الساحل الشرقى حتى سفالة جنوبًا . أما فى الشمال فقد اعتمدوا فى بسط نفوذهم على صداقة شيوخ ماليندى الذين استطاعوا استمالتهم

إلى جانبهم مستغلين روح العداء التي كانت بين هؤلاء الشيوخ وشيوخ ممبسة .
وأقام البرتغاليون في ممبسة بعد سقوطها في أيديهم قلعة حصينة كانت بمثابة العين الحارسة للنفوذ البرتغالي في هذه الجهات . وكان لقائد هذه القلعة وكلاء في المدن المجاورة مثل كلوة ، وبمبا ، وزنجبار(*) .

وهكذا حقق البرتغاليون في أقل من عشر سنوات حلمهم في شرق أفريقيا وسقطت في أيديهم معظم الإمارات العربية على الساحل - وبعد ذلك اتجهوا لسواحل شبه الجزيرة العربية فهاجموا مسقط ، وهرمز ، وعدن .

وتلقب ملوك البرتغال منذ ذلك الوقت باسم " سادة الفتح والملاحة والتجارة ، في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس " .

وقد صدق البابا على هذا اللقب(٦) .

فرانسسكو دى الميدا نائبًا للملك عما نويل الأول في الهند في عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م:

عين الملك عمانويل الأول ملك البرتغال القائد البحري فرانسسكودى الميدا Francisco De Almeida نائبًا عنه لحكم المستعمرات البرتغالية في الشرق فاتخذ من (كوشين) مقرًا له(٧) .

وقد رسم الميدا سياسته على أسس أهمها :

١ - بسط النفوذ البرتغالي على كافة المراكز العربية في شرق أفريقيا .

٢ - الاتفاق مع الحبشة - للقيام بعمل مشترك ضد القوى الإسلامية .

٣ - السيطرة على البحر الأحمر ومنافذه وموانيه .

٤ - الهيمنة على هرمز ذات الموقع الإستراتيجي الهام في مدخل الخليج العربي .

٥ - تحويل تجارة الشرق - تجارة آسيا - للطريق الجديد الذي سيطر عليه البرتغال وهو طريق رأس الرجاء الصالح .

٦ - العمل لأن تكون (لشبونة) المركز الرئيسي لتصريف بضائع الشرق إلى أوربا .

وقد حقق البرتغاليون أهدافهم هذه إلى حد كبير .

فاستطاعوا - كما ذكرنا سابقًا - بسط نفوذهم على أغلب المراكز العربية بشرق القارة كما نجحوا في الاتصال بالحبشة المسيحية ، وقاموا بحملات مشتركة ضد القوى الإسلامية .

وفي عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م استولى البرتغاليون على جزيرة (سوقطرة) بموقعها الاستراتيجي الهام في مدخل البحر الأحمر فتحقق لهم بذلك غرضهم في التحكم في هذا البحر والتجارة المارة به .

وتطلعت انظار البرتغاليين - بعد سيطرتهم على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر - إلى ميناء جدة . وقد أدرك المماليك أهمية حماية هذا الثغر وذلك لحماية الأراضي المقدسة الإسلامية من أطماع البرتغاليين - فأرسلوا حملة بحرية على رأسها الأمير (حسين الكردي) - وحددت مهمة هذه الحملة في(٨) :

١ - بناء سور ضخم ذي أبراج عالية حول جدة ، لصد أي عدوان تتعرض له من البرتغاليين أو غيرهم ، وحفر خندق يحيط بالمدينة من جميع جهاتها .

٢ - الاطمئنان على ثغور البحر الأحمر الأخرى ، وفي مقدمتها (سواكن) على الساحل الإفريقي ، و(عدن) على الشاطئ الآسيوي لمواجهة أي خطر تتعرض له .

٣ - التوجه إلى الهند لمحاربة البرتغاليين وإجلائهم عن المراكز التي نزلوا بها في الشواطئ الهندية ، والتي يتخذون منها قواعد لمواجهة المراكز العربية .

وكان أن حققت حملة الأمير حسين الكردي أهدافها ، فأحرزت عملية تحصين جدة وغيرها من ثغور البحر الأحمر ، كما قامت بمعاينة ثغور جيزان ، وكمران وزبد ، وعدن - وزودتها بحاجتها من المؤن وغيرها .

ثم اتجه البرتغاليون إلى منطقة الخليج لإكمال سيطرتهم على الطرق التي كانت تسلكها تجارة الشرق . والمعروف أن هذه التجارة كانت تسلك طريق الخليج ، وتعبر نهر الفرات إلى الموانئ المطلة على البحر المتوسط ، أو طريق البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها برًا إلى الإسكندرية ، وتتكفل سفن جنوة والبندقية بعد ذلك بنقل البضائع إلى البلاد الأوربية .

وفي عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧ نجح البرتغاليون أيضًا في احتلال جزيرة هرمز ، بموقعها الاستراتيجي الهام في مدخل الخليج العربي وأنشأوا بها قلعة حصينة أقامت بها حامية برتغالية(٩) .

ونشير إلى أنه عاصر قدوم البرتغاليين إلى الخليج وجود الدولة الصفوية في إيران ، وبلوغها في ذلك الوقت درجة عظيمة من القوة بحيث أن هرمز وغيرها كانت تدفع الخراج للصفويين وتعترف بتبعيتها لهم . وكان من المتوقع أن تتصدى دولة الصفويين للغزو الأجنبي - قبل غيرها من الدول المحلية ، لكنها لم تلعب دورًا هامًا عند بدء وصول البرتغاليين إلى المنطقة . ولعل ذلك يرجع إلى إنشغال الدولة بمناطق شمال إيران أكثر من جنوبها ، وإن كان الوضع سيؤدي فيما بعد لمواجهة بين الصفويين والبرتغاليين(١٠) .

وبعد احتلال البرتغاليين لجزيرة هرمز في عام ٩١٣هـ - أرسل الشاه إسماعيل الصفوي - إلى أمير الجزيرة طالبًا منه دفع الخراج المعتاد دفعة لفارس . فما كان من هذا الأمير إلا أن سلم رسالة الشاه إلى قائد القلعة البرتغالية الذي رد عليه بأن هرمز " أخذت بقوة رجال البرتغال - وإنها خاضعة للعرش البرتغالي "(١١) .

ولا شك في أن للمماليك في مصر والحجاز ، وكذلك الأتراك والصفويين ، وعرب شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج ، قد أدركوا جميعًا الخطر الذي أخذ يهدد بلادهم ، والذي أصبح يهدد النفوذ الذي كانوا يتمتعون به في البحار الشرقية لسنوات طويلة دون أن تتطاول قوة أخرى على منافستهم في هذا المجال .

لكن للأسف حالت الخلافات الذهبية والأطماع التوسعية دون أن تتجمع كل القوى الإسلامية في مواجهة هذا الخطر البرتغالي .

وفي عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨ التقى الأسطول المملوكي بالقرب من ميناء (شول) الصغير بأسطول برتغالي يتألف من ثمان سفن . وساهم الأسطول الكجراتي إلى جانب الأسطول المملوكي فنشبت بين الطرفين معركة بحرية - انتصر فيها الأسطول المملوكي . وقد أشار ابن إياس إلى هذه المعركة فقال " جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه صحبة الأمير حسين - قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يعيثون في البحر ، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسر السلطان لهذا الخبر ، وأمر بدق الكوسات ، فدقت ثلاثة أيام متوالية ؛ ثم أرسل يطلب عسكرًا ثانيًا حتى يتقوى بهم على من بقي من الفرنج"(١٢) .

معركة ديو البحرية ٩١٥هـ/١٥٠٩م Dio وأثرها على النفوذ البرتغالي :

في المحيط الهندي ومنافذه :

قبل أن نتحدث عن معركة ديو البحرية - وهي معركة فاصلة في تاريخ الصراع العربي البرتغالي - نشير إلى الوضع في العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، وكذلك وضع البرتغال بعد أن وصلت إلى المحيط الهندي والمنافذ البحرية المؤدية إليه.

أما فيما يتعلق بالعالم الإسلامي فكانت دولة المماليك تبسط نفوذها على الشام ومصر والحجاز ، وكانت هذه الدولة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على ما يدخل خزينتها من (مكوس) على تجارة الشرق المارة بموانيها في الشام ومصر قبل نقلها إلى أوربا . لكن هذه الدولة كانت قد وصلت عندئذ إلى درجة كبيرة من الإعياء .

وأما في إيران فقد كانت الدولة الصفوية في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) قد بلغت درجة كبيرة من القوة خاصة في عهد الشاه إسماعيل الصفوي الذي حكم إيران (٩٠٦ - ٩٣١ / ١٥٠٠ - ١٥٢٤ م)

وعمل على خلق دولة شيعية موحدة فيها ، واستولى على تبريز ، واتخذها عاصمة لدولته ، واتجه بأنظاره للعراق مركز الشيعة وذات الموقع التجارى الهام لأنها تطل على الخليج العربى ، وفتحها فى سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨ - ودخل فى نزاع مع الدولة العثمانية السنية(١٣) .

أما الدولة العثمانية فكانت منذ القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) قد بدأت تستقر فى آسيا الصغرى ثم اتجهت للتوسع فى أوربا . وفى عهد سليم الأول أى فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) اتجه العثمانيون شرقًا إلى دول الشرق العربى .

وتعطينا صورة العلاقات بين الأسر الحاكمة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت (القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى) فكرة عن القوة الإسلامية فى مواجهة موجة الغزو البرتغالى للمراكز الهامة فى المحيط الهندى والخليج العربى .

فالخلاف بين العثمانيين والصفويين وصل إلى درجة الحرب بين الطرفين ، وخرج السلطان سليم العثمانى إلى فارس - وكان يتوقع أن يناصره السلطان المملوكى الغورى - فى صراعه ضد الصفويين ؛ لكن الغورى لم يتخذ موقفًا صريحًا إلى جانب أحد الفريقين المتحاربين .

وعلى الرغم من أن القاهرة كانت تظهر مظاهر الابتهاج بانتصارات العثمانيين فى أوربا - فإن ترحيب الغورى بالأمراء العثمانيين الفارين من المذبحة التقليدية التى كانت تتم عند تولى سلطان جديد ، ورد العثمانيين على ذلك بإغلاق أسواق الرقيق فى وجه المماليك مما حرمهم من مورد هام لتموين جيشهم، كل هذا مهد لجو من الجفاء بين الدولتين .

وفى وسط هذا التشتت والخلاف بين القوى الإسلامية ، ظهر للعيان خطر البرتغاليين فى البحار العربية - فاستنجد المماليك فى مصر بالسلطان بايزيد الثانى

العثمانى سلطان العثمانيين - كما استنجد بالبندقية التى كانت مصالحها الاقتصادية تقتضى استمرار الطرق التجارية القديمة السابقة على اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

وقد قدمت الدولة العثمانية فعلاً لمصر المملوكية من الآلات والأسلحة النارية - وحتى الحبال اللازمة للسفن - معونة هامة كهدية رغم المنافسة والخلافات التى كانت بين الدولتين ، كما أرسلت البندقية الصناع والمهندسين وغيرهم للمساهمة فى صنع السفن لمواجهة الخطر البرتغالى(١٤) .

واستعدادًا للمعركة المرتقبة أنشأ الغورى ترسانة بحرية ضخمة فى السويس ، بالإضافة إلى دور الصناعة فى كل من الروضة وبولاق ، لسد احتياجات السفن .

وفى عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م التقى الأسطولان المملوكى والبرتغالى عند (ديو) فى معركة فاصلة - هزم فيها الأسطول المملوكى . وترتبت على هذه الهزيمة نتائج خطيرة ، فقد أنهت هذه المعركة عهد السيطرة الإسلامية على طرق التجارة فى المحيط الهندى ، ونجح البرتغاليين فى السيطرة على هذه التجارة وحولوا مساراتها . ثم حاولوا العبث فى مياه البحر الأحمر ، وفكروا فى غلق هذا البحر أمام حركة الملاحة النشطة التى كانت فيه ليصبح بحيرة راكدة ، كما دعموا وجودهم وسيطرتهم فى مياه الخليج العربى .

على أن دى الميدا - قائد الأسطول البرتغالى ارتكب بعد هذا النصر الذى حققه أسطوله - فظائع تتنافى مع مبادئ الحرب والقتال ، بل مع أبسط المبادئ الإنسانية - فقد عامل الأسرى بمنتهى الفظاعة ، فعذب وقتل وأعدم من لم يصبحوا موضع خطر بالنسبة له - حتى أن سياسته هذه - تعرضت لنقد الكتاب البرتغاليين أنفسهم .

وقد لقى دى الميدا مصرعه بعد ذلك - وهو فى طريقه إلى لشبونة مزهوًا بنصره ، وخلفه كنائب للملك البرتغالى فى الهند - الفونسو دى البوكيرك Alfonso De Buacrgue .

وعن أسباب الهزيمة تعددت آراء الباحثين :

١ - فقد علقها البعض بأن البرتغاليين كانوا في عنفوان قوتهم وفي قمة مجدهم العسكري والبحري ، وكانت لهم مدارسهم البحرية التي أسهمت في تطوير نظامهم البحري والعسكري ، وأنهم كانوا مدفوعين بدوافع دينية واقتصادية عنيفة .

٢ - وعللها البعض بأن دولة المماليك كانت قد أصبحت دولة هرمة أنهكتها الصراعات المتعددة في أنحاء مختلفة من الدولة .

٣ - أن قوة أساطيل المماليك التي جمعوها لمواجهة هذا الخطر البرتغالي كانت من عدة جهات ، ولم يكن قد مضى وقت كاف لخلق التجانس الضروري بين هذه القوات التي ستخوض معركة واحدة .

٤ - وأرجع البعض هزيمة القوات الإسلامية إلى أنه على الرغم من أن المسلمين كان لهم النفوذ لسنوات طويلة في مياه المحيط الهندي والبحار المحيطة به - إلا أن هذه المعركة حدثت في وقت كان العالم الإسلامي - كما شرحنا من قبل - يعاني من الانقسام والتطاحن . فعلى الرغم من الدعم الذي حصل عليه المماليك من القوى الإسلامية الأخرى - فإن هذا الدعم لم يصل إلى مستوى الأحداث وخطورتها .

ومن النتائج المباشرة التي ترتبت على انتصار البرتغاليين على الأسطول المملوكي في معركة ديو البحرية - أن حكام الإمارات الهندية الذين كانوا قد أبدوا تعاطفًا مع المسلمين في نضالهم ضد الدخلاء البرتغاليين والذين كانوا يتطلعون لانتصار القوى الإسلامية المملوكية ، اضطروا لإبداء استعدادهم للتصالح مع البرتغاليين وتقديم العون لهم . وقد رحب البرتغاليون بذلك لأنه يتيح لهم الفرصة لتقوية نفوذهم في مياه المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي والساحل

العماني التي تركزت عليها أنظارهم ، باعتبارها تمثل التوأم لمنطقة البحر الأحمر التي تتحكم في التجارة الشرقية المتوجهة إلى أوربا .

على أن البرتغال لم تكتف بنقل التوابل وغيرها من بضائع الشرق التي كان العرب يمارسون نشاطهم في تبادلها - فقد تحول الأمر إلى أن أصبحت السلعة المتداولة بكثرة والتي تتحكم في المراكز والحصون البرتغالية وفي سياستهم الاستعمارية هي (العاج الأسود) أي الرقيق ، بالإضافة إلى البضائع الإفريقية كالذهب والعاج الأبيض .

ومنذ أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي - أخذ البرتغاليون يرسلون شحنات متتالية من الرقيق - حتى قدر عدد الرقيق الذين بيعوا في سوق لشبونة عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م بحوالي ١٠,٠٠٠ عبد .

واحتكر البرتغاليون ولعدة قرون هذه التجارة - فأصبحوا يزودون الدول الأوروبية الأخرى بالرقيق . وتكونت شركات برتغالية بقصد الإتجار في الرقيق . وحصلت هذه الشركات على مراسيم بمزاولة هذا النشاط التجاري من البلاط الملكي البرتغالي .

دور البوكيرك في الصراع البرتغالي الإسلامي في المحيط الهندي والخليج :

تعتبر فترة قيام البوكرك بمهامه كنائب عن ملك البرتغال في الهند ، والتي امتدت من سنة ٩١٥ / ١٥٠٩م حتى أواخر عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م - من أهم المراحل في تاريخ هذه المنطقة .

فقد حقق البرتغاليون في هذه الفترة أحلامهم الخاصة بتثبيت نفوذهم في الثغور التي استولوا عليها على الساحل الغربي للهند ، كما نجحوا في السيطرة على منافذ الخليج العربي ، والبحر الأحمر ، وعلى ساحل أفريقيا الشرقي .

وقد اهتم البوكيرك في البداية باحتلال جزيرة جوا (Goa) لأهميتها للبرتغال ، للتحكم في باقي المراكز على الساحل الغربي للهند ، وتبع ذلك موافقة سلطان (كحوارت) للبرتغاليين على إقامة محطة تجارية ، وحصن لهم فن دبو . وبالفعل عقد البوكيرك اتفاقاً مع سلطان (كاليكوت) سمح للبرتغال بموجبه باقامة حصن فيها ، وبعد استيلاء البوكيرك على جوا نقل مركز إدارته في الهند إليها - لتوسط موقعها على ساحل الهند الغربي . وهكذا ثبت البوكيرك نفوذ البرتغال على الساحل الهندي وأخذ يوجه جهوده لتحقيق باقي أحلام البرتغال في المحيط الهندي والبحار المؤدية إليه(١٥) .

ولتحقيق هذه الأحلام اتجه البوكيرك بنظره صوب الحبشة واتصل بالإمبراطورة هيلينا الوصية على العرش ، وحثها على إرسال مندوب عنها لمقابلة ملك البرتغال (دون عما نويل) للاتفاق على عمل ضد الاقطار الإسلامية . وفعلاً أوفدت الملكة عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م أحد اتباعها ويدعى (ماتيوس) إلى الهند لمقابلة البوكيرك . وقد زود ماتيوس البوكيرك بمعلومات قيمة عن الإمارات العربية على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وفي السهول المحيطة بهضبة الحبشة . وسهل البوكيرك مهمة سفر ممثل ملكة الحبشة إلى البرتغال . لكن هذا المندوب الحبشي لم يعد للحبشة إلا في عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠ م بسبب العقبات التي صادفته في الطريق .

وكان الهدف الرئيسي من رحلته الحصول على موافقة الملك البرتغالي على تقديم المساعدة الحربية للحبشة لمواجهة النشاط الإسلامي في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، ولموازرة الحبشة في حروبها ضد الممالك الإسلامية في السهول المحيطة بهضبة الحبشة .

وأشير إلى أن هذه الممالك الإسلامية في شرق هضبة الحبشة والتي أطلق عليها المقريزي (ممالك الطراز الإسلامي) كانت لها علاقات وطيدة مع حكام المسلمين وسلاطينهم ، خاصة في اليمن ومصر ، ومع إشراف مكة ، ومع

السلطات الحاكمة في الخليج . وهذا التأييد من حكام المسلمين وسلاطينهم كان من العوامل التي جعلت الحبشة تسعى للاتصال بالبابوية في أوربا لتقديم المساعدة الحربية لها ، وللاتفاق على خطة لتطويق العالم الإسلامي . وكان وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي فرصة لتحقيق هذه الأحلام الحبشية(١٦) .

وقد أدرك البوكيرك أهمية عدن بالذات لتحكمها في الملاحة في هذه البحار الشرقية - فأرسل في عام ٩٨هـ / ١٥١٢م رسالة إلى الملك دون مانويل يستأذن في مهاجمة عدن والسواحل اليمنية ، ثم الإبحار بعد ذلك في البحر الأحمر للاستيلاء على الموانئ الهامة المطلة على هذا البحر .

وفي خطابه للملك أشار البوكيرك إلى الشائعات التي تتردد عن قرب عودة الأسطول المملوكي والأساطيل الإسلامية الأخرى للبحر الأحمر والمحيط الهندي ، للانتقام مما لحق بالأسطول المملوكي من هزيمة في موقعة ديو البحرية وذكر أن هذه الشائعات أدت إلى انتشار الاضطرابات في الهند ضد النفوذ البرتغالي . كذلك أشار البوكيرك في خطابه إلى أهمية الاتفاق مع الحبشة على تيسير استخدام الأسطول البرتغالي لموانئ مصوع وغيرها من الموانئ الحبشية الصالحة لرسو السفن، وذلك للاستفادة منها في الحملات الموجهة ضد جدة والموانئ الإسلامية الأخرى في شبه الجزيرة العربية(١٧) .

وبمجرد تسلم البوكيرك رد الملك البرتغالي بالتصريح له بالقيام بحملته هذه في البحر الأحمر وموانيه - غادر في عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م - ملقاً على رأس أسطول كبير من ٢٤ سفينة ، على ظهرها ١,٧٠٠ مقاتل برتغالي ، ١,٠٠٠ من الهنود متجهاً إلى عدن والسواحل اليمنية ، بهدف الاستيلاء عليها وغلق باب المندب في وجه السفن الإسلامية .

وفي ١٦ محرم ٩١٩هـ / ٢٤ مارس ١٥١٣م بدأ الأسطول البرتغالي هجومه على ميناء عدن - بعد أن قام بعملية تخريب ونهب للسفن الراسية في الميناء . ولم

يستطيع البوكيرك البقاء فى البناء - لأن حاكم المدينة استمد بباقى مراكب ومدن شبه الجزيرة العربية واستمسل فى مقاومة الغزاة .

وبعد أن قام البرتغاليون بتخريب وتدمير ما وصلت إليه أيديهم - تقدموا فى البحر الأحمر إلى جزيرة (كمران) فاحتلوها ، وقضوا على مظاهر الحياة بها وتركوها خرابًا . لكن البوكيرك لم يتمكن من الإبحار شمالاً فى اتجاه جدة بسبب الرياح فعاد إلى الهند .

واتجه البوكيرك بأنظاره إلى جزيرة هرمز - ذات الأهمية الاستراتيجية فى الخليج العربى . وكان حاكم الجزيرة يدين بالولاء للشاه إسماعيل الصفوى ، لكن البرتغاليين ألزموه بتوقيع معاهدة سمح لهم بمقتضاها بإقامة قلعة بالجزيرة رفعوا عليها العلم البرتغالى .

وقد أثار هذا التصرف الضباط والجنود الوطنيين فى الجزيرة ، واستطاع أحدهم (الريس حامد)أسر الحاكم، وتسلم الأمور بالجزيرة.ولأطمئنان حاكم هرمز الجديد لمساعدة الشاه إسماعيل له ضد البرتغاليين-أعلن تبعيته من جديد لفارس(١٨) .

وقد كان البوكيرك يدرك أهمية موقع هرمز الاستراتيجى وتحكمها فى الملاحة فى بالخليج العربى - فلما وصلته فى (جوا) بالهند - أخبار الثورة التى حدثت بالجزيرة ، وكيف أن الحاكم الجديد للجزيرة نقض تبعيتها للبرتغال ، خرج من (جوا) فى عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م على رأس أسطول من ٢٦ قطعة بحرية عليها ٥٠٠ مقاتل برتغالى ، ٧٠٠ هندى متجهًا إلى هرمز .

هرمز تعود للإعتراف بسيادة البرتغال :

لما وصلت السفن البرتغالية على مشارف هرمز أطلقت مدافعها على المدينة، مما دعا حاكمها (الريس حامد) لأن يطلب من القائد البرتغالى وقف إطلاق النار لإتاحة الفرصة للتفاوض .

وقد قبل حاكم هرمز أن يعود البرتغاليون لاحتلال القلعة القائمة بالمياه وأن يرفعوا عليها وعلى قصر الحاكم العلم البرتغالى .

ووصل مندوب من الشاه إسماعيل من إيران ليشارك فى التفاوض مع البرتغال . ولما كان الشاه إسماعيل الصفوى يعانى من حركات تمرد فى بلاده - فقد خضع لجميع شروط البوكيرك ، وسعى لمعاونة البرتغال له فى تجميع حركات التمرد فى بلاده وعقد صلحًا تقرر بموجبه(١٩) :

١ - تتعاون البحرية البرتغالية مع القوات الإيرانية فى الاستيلاء على البحرين والقطيف ، وهو هدف كانت إيران تسعى لتحقيقه من زمن .

٢ - تساعد البحرية البرتغالية - الشاه فى قمع الحركات الانفصالية التى اشتدت ضد الدولة فى إقليم مكران. ولتحقيق ذلك يسمح للبرتغال باحتلال(جوادر).

٣ - يقوم تحالف عسكرى بين الطرفين لمواجهة العثمانيين باعتبارهم عدوًا مشتركًا للطرفين.

٤ - يعين البرتغال نائبًا عن الملك البرتغالى ، يقيم فى القلعة البرتغالية فى هرمز .

وقد عين البوكيرك ابن أخيه بيرو (Berro) قائدًا لحرفة هرمز وأصدر تعليمات بإصلاح القلعة البرتغالية فى هرمز وزيادة تحصينها .

وهكذا نرى أن الصفويين فى إيران - فى سبيل تحقيق أطماعهم ، وكسب حليف لهم ضد العثمانيين الذين كانوا قد اخذوا يظهرون كقوة إسلامية كبرى فى العالم الإسلامى - أرغموا فى أحضان البرتغال وسلموا بتبعية هرمز للبرتغاليين ، وعقدوا معهم تحالفًا ضد القوى الإسلامية المناوئة لهم .

وفيما يتعلق بهرمز ، فعلى الرغم من موقعها الاستراتيجى والتجارى الهام ، فقد عانت اقتصاديًا منذ خضوعها للبرتغال ، وتعهد حاكمها بالمساهمة فى تحصين القلعة البرتغالية بها وفى نفقات حاميتها . وقد أصبحت القلعة البرتغالية بهرمز ، أقوى القلاع البرتغالية فى الطريق التجارى الهام بين الشرق وأوربا .

وبعد أن نجح البوكيرك في توطيد نفوذ بلاده في شبه جزيرة هرمز ، ترك ابن أخيه لينفذ تعليماته الخاصة بإتمام تحصين القلعة بها حسب الاتفاق الذى عقده مع الإيرانيين ، وقفل عائدًا إلى الهند على السفينة فلوردا روسا (Flor Da Rosa). وكانت حالته الصحية قد تدهورت نتيجة الجهد الذى بذله منذ أن عين نائبًا للملك في الهند .

وبعد وصوله إلى (جوا) مات في عام ٩٢١هـ ديسمبر ١٥١٥م بعد أن الفت السفينة التى كانت تقله مراسيها في الميناء .

وهكذا أسدل الستار على حياة هذا البحار البرتغالى والإدارى الذى يعتبر المؤسس الرئيسى للإمبراطورية البرتغالية في آسيا .

تقييم الدور الذى لعبه البوكيرك في البحر الأحمر والخليج العربى :

يعتبر البوكيرك المخطط الحقيقى لسياسة البرتغال الاستعمارية فى البحر الأحمر والخليج العربى . ودراسة الخطابات المتبادلة بينه وبين الملك عمانويل منذ أن أبحر إلى المشرق فى عام ٩١٢هـ / ١٥٠٦ وقبل أن يصبح فى عام ٩١٥هـ/ نوفمبر ١٥٠٩ م نائبًا للملك فى الهند ، وحتى وفاته فى عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م - تعطى صورة واضحة وكاملة لسياسته التى رسمها لنشاط البرتغال فى البحار الشرقية ، والتى حاولت البرتغال تنفيذها بدقة ، رغم العقبات التى اعترضت طريق التنفيذ . وأهم خطوط سياسته(٢٠) هى :

١ - تقوية قبضة البرتغال على المواقع الهامة فى البحر الأحمر ، والخليج العربى ، وفى مقدمتها عدن عند مدخل البحر الأحمر وهرمز فى مدخل الخليج العربى.

٢ - خطط البوكيرك للاستيلاء على عدن ، والإبحار فى البحر الأحمر لمهاجمة الموانى الهامة وفى مقدمتها ميناء جدة ، لكن هذا الحلم لم يمكن تحقيقه ، فقد نجحت القوى الإسلامية فى تأمين عدن ، كما نجحت فى حماية مداخل البحر الأحمر ، وفى تقوية الدفاعات فى ميناء جدة بالذات .

٣ - أبرز أهمية القضاء على ما تبقى من قوة المماليك البحرية- فأشار فى خطاباته وتقاريره إلى إنه رغم هزيمتهم فى موقعة ديو البحرية - فإن الشائعات تتردد فى الهند بالذات عن حملات مملوكية جديدة - يجرى الإعداد لها لمواجهة البرتغال ، وأن هذه الشائعات تشجع المتمردين على النفوذ البرتغالى سواء فى الهند أو غيرها من المناطق التى استولى عليها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى .

٤ - أشار إلى أهمية التعاون مع الحبشة للاتفاق على خطة موحدة ضد المسلمين . وفى هذا المجال أشار إلى أهمية ميناء مصوع التابع للحبشة ، وأهمية جزر (دهلك) التابعة لها أيضًا خاصة إنها مواجهة .

٥ - نبه إلى أهمية مؤازرة الحبشة فى حربها ضد القوى الإسلامية المتمركزة فى السهول المحيطة بالحبشة .

٦ - أشار إلى إمكانية مساندة البحرية البرتغالية للقوات الإيرانية لتثبيت أقدامها فى هرمز ، والاستيلاء على البحرين ، والقطيف والقضاء على الحركات الانفصالية فى إقليم مكران .

على أن يكون ذلك فى مقابل قيام تحالف بين الطرفين - البرتغال والإيرانيين- على أن يسلم الشاه للبرتغاليين بحقهم فى تدعيم وجودهم فى القلعة القائمة وأن يدفع حاكم هرمز مبالغًا من المال للبرتغاليين إعترافًا بالتبعية لهم .

٧ - أوضح أهمية الربط بين النفوذ البرتغالى فى موانى ساحل الهند والنشاط فى الخليج العربى والبحر الأحمر ، بما يحقق للبرتغال السيطرة على الملاحة فى هذه المنطقة ، وبمكنهم من التحكم فى تجارة الشرق ، وإنهاء الاحتكار الذى كان المماليك يمارسونه .

وبذلك يمكن توجيه هذه التجارة إلى لشبونه أو غيرها من الموانى البرتغالية ، لتصبح المركز الرئيسى لتخزين هذه البضائع ونقلها بعد ذلك إلى الدول الأوربية التى تحتاج إليها .

هكذا رسم البوكيرك الخطوط العريضة لليساسية البرتغالية والنشاط البرتغالى فى منطقة البحر الأحمر والخليج العربى .

وبموته تطوى صفحة من صفحات هـذا الصراع الاستعمارى بين القوى الإسلامية التى كان لها النفوذ لسنوات طويلة فى هذه الشرايين الملاحية الحيوية وبين القوى الصليبية الجديدة فى البرتغال .

وإذا كانت الضربات البرتغالية الموجهة للبحرية المملوكية وحلفائها قد نجحت إلى حد كبير فى أضعاف دولة المماليك ، وحرمانها مما كانت تحصل عليه من مكوس على بضائع الشرق المارة بموانيها - فإن الدولة العثمانية التى حلت محل المماليك فى الشام ومصر والحجاز وغيرها من البلاد الإسلامية ، كان عليها أن تواجه هذا الخطر المهدد للعالم العربى والإسلامى .

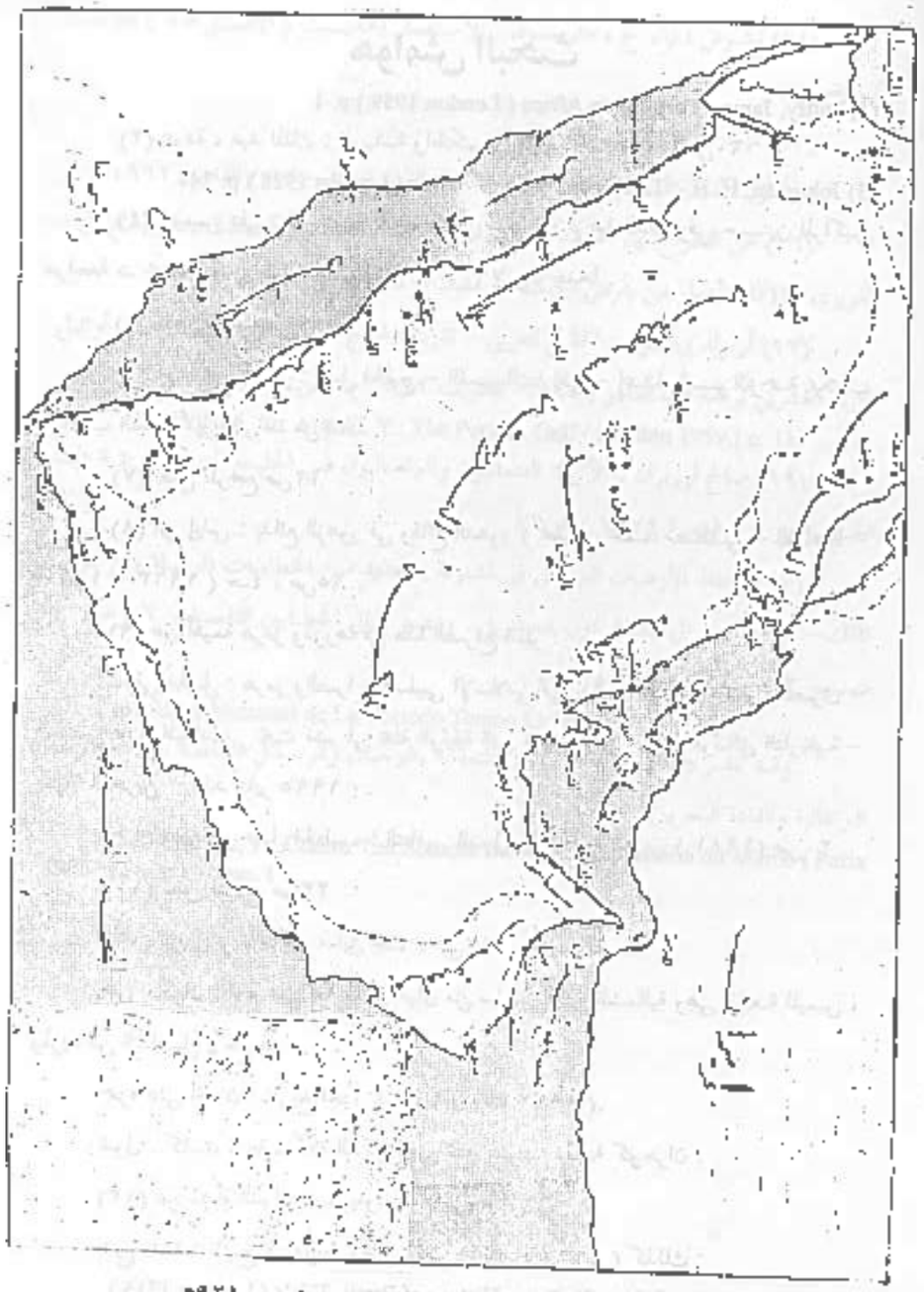

نشاط البرتغال فى البحر الأحمر والخليج العربى ٩١٣هـ - ٩٢١هـ

هوامش البحث

(1) Duffy, James: Portuguese Africa (London 1959) p. 1

(٢) عودة ، عبد الملك : السياسة والحكم فى أفريقيا (١٩٥٩) ص٦٠

(3) Johnston, H. H. : The Opening up of Africa (London 1928) p. 244

(٤) جيمس دفى : الاستعمار البرتغالى فى أفريقية (ترجمة الدسوقى حسنين المراكبى مراجعة د. محمد صبحى عبد الحكيم ١٩٦٣) ص ٧٩ وما بعدها .

(٥) نفس المرجع ص٨١

(٦) ج . ج ، لوريمر : دليل الخليج – القسم التاريخى – إعداد قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير قطر جـ ص١١

(٧) نفس المرجع ص١٢

(٨) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى – القاهرة – ١٩٦٠ – ١٩٦٣) جـ٤ ، ص٨٥ .

(٩) عن أهمية هرمز ودورها فى هذا الصراع انظر :

شوقى الجمل : هرمز والصراع الصليبى الإسلامى فى بداية القرن العاشر الهجرى – السادس عشر الميلادى _ بحث نشر فى مجلة الوثيقة التى تصدر عن مركز الوثائق التاريخية – بدولة البحرين – عدد يناير ١٩٩٥) .

(١٠) مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولى فى الخليج العربى (١٩٨١) ص٣٠

(١١) نفس المرجع ص٢٣

(١٢) ابن إياس : مرجع سابق جـ٤ ، ص١٤٢

جزر كوحران : تقع على بعد ثلاثة أميال من ساحل اليمن الشمالية وهى تابعة لليمن ، ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

حمزة على لقمان : تاريخ الجزر اليمنية (بيروت ١٩٧٢).

شول : كانت تابعة لمملكة الدكن وهى تقع جنوب سلطنة كوحران .

(١٣) عن نشأة الدولة الصفوية وتطورها يرجع إلى :

بديع جمعة : تاريخ الصفويين وحضارتهم (القاهرة ١٩٦٧) كذلك :

Sykes, Sir Percy History of Persia 2Vols (London 1715) .

(١٤) تشرش ، ر . ج ، هاريسون : الاستعمار الحديث (الأصل ٩٥) الترجمة العربية ص ٧

(١٥) لمزيد من التفاصيل يرجع إلى :

بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية (ترجمة عبد العزيز توفيق حامد) القاهرة ١٩٦٢ .

(١٦) عن الصراع بين الحبشة ، والممالك الإسلامية بالسهول المحيطة بها يرجع إلى :

المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٣٠

(١٧) أرنولد ويلسون : الخليج العربى – تاريخ الخليج من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ترجمة عبد القادر يوسف – الكويت ١٩٧٩ م ، ص٢١٢

(18) Wilson, Sir Arnold, T.: The Persian Gulf (London 1959) p. 113

(١٩) صالح أوزبراى : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ترجمة عبد الجبار ناجى – (البصرة ١٩٧٩) ص٧٩

(٢٠) يحتفظ الأرشيف البرتغالى فى لشبونة بالعديد من الخطابات المرسلة من نائب الملك – البوكرك – إلى الملك دون عمانويل . ونشير إلى الخطابين التفصيليين المؤرخين ٢ ديسمبر ١٥١٢ ، ١٢ أكتوبر ١٥١٤م .

Archives National de La Torredo Tombo Lisbonne

وقد نشر De Castres الوثائق المتعلقة بالبرتغال والرسائل المتبادلة بين الحكومة البرتغالية والقادة البحريين .

De Castries, La Comte: Les Sources Inedites de L'Histoire du Maroc (Paris 1905 et Suite) Tome. 1

المقاومة العربية للبرتغاليين فى الخليج

أ. د. محمد محمود السروجى *

اندفع البرتغاليون فى موجات صليبية متتابعة عقب طرد المسلمين من الأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر ، يتعقبونهم فى شمال أفريقية للانتقام منهم والقضاء عليهم حتى لا يفكروا فى العودة مرة ثانية . وبلغت بهم الحمية الدينية التى فاضت بروح التعصب إلى محاولات تتبعهم فى عقر دارهم فى شبه الجزيرة العربية . ومن ثم بدأ الدوران حول القارة الأفريقية للوصول إلى الهند وانتزاع تجارة الأفاوية من يد المسلمين ، وذلك عن طريق السيطرة على مياه المحيط الهندى وبحر العرب ، والثغور المطلة عليهما ، فهى فى نظرهم الطريقة المثلى لإضعاف المسلمين والقضاء عليهم عن طريق(١) " محاولة الالتفاف حول قوة الإسلام الحربة الجارفة فى الشرق الأوسط "(٢) والإحاطة بالجناح الغربى للعالم الإسلامى الذى يمتد فى شمال أفريقية ويسد كل الطرق الموصلة بين أوربا والهند .

وبعبارة أخرى فإن أهداف البرتغاليين كانت اقتصادية فى المقام الأول وهى ضرب الاقتصاد العربى الإسلامى ، مما يؤدى بدوره إلى نتائج سياسية تتمثل فى إضعاف العرب ، والسيطرة عليهم ، وإنشاء إمبراطورية برتغالية(٣) . واصطبغت هذه الأهداف بالصبغة الدينية المتعصبة تعصبًا صارخًا(٤) ، الأمر الذى يتضح فى التفويض الذى حصل عليه هنرى الملاح من البابا نقولا الخامس فى عام ١٤٥٤ يضم جميع الأراضى التى يكتشفها حتى بلاد الهند ، وقد جاء فى هذا التفويض "إن سرورنا لعظيم إذ نعلم أن ولدنا هنرى أمير البرتغال ، أخذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا تلهمه الغيرة التى تملأ الأنفس كجندى باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم العرب إلى أقصى البلاد

(*) أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة الأسكندرية .

وأبعدها عن محال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله ، وأعداء المسيح ، مثل العرب والكفرة "(٥) .

كذلك جاء في رسالة الملك عمانويل ملك البرتغال إلى البابا بوليوس الثاني عام ١٥٠٥ " إنه ليس عازمًا على المضي في قتل التجارة المملوكية فقط ، بل أنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفًا لمدافعه وجنوده ."(٦) .

وهكذا صار فاسكو داجاما على سياسية الشدة والبطش إزاء المسلمين لإلقاء الرعب في قلوبهم وشل حركتهم . فكان يهاجم كل سفينة عربية ، ويقوم بتدميرها دون إنذار . بل ذهبت به الوحشية إلى حد أنه كان إذا استولى على سفينة عربية ، يأمر بتفريغ حمولتها من البضائع ، ثم يقوم بإحراقها بمن فيها من تجارة ومسافرين .

وعندما وصل البرتغاليون إلى الهند نزلوا في مدينة قاليقوت ، وهي المركز الرئيسي لتجارة الأفاوية ، سواء الصادرة من الهند أو الوافدة إليها من جزر المحيط الهادي ، ومنها يقوم التجار العرب بنقلها عن طريق الخليج العربي إلى ميناء البصرة، ثم إلى موانئ الشام فأوربا ؛ أو عن طريق البحر الأحمر ، فميناء السويس ، ومنها إلى الإسكندرية ودمياط ومنها تنقلها سفن البندقية وجنوة إلى أوربا .

وكانت القوى العربية التجارية تتحكم في تلك التجارة ، ومن ثم كان لها علاقة خاصة بملك قاليقوت . كما كان لتجار قاليقوت العرب مستودعات لتجارتهم بالقاهرة والإسكندرية ، بل امتدت إلى مدينة فاس بالمغرب(٧) ولذا كان اختيار البرتغاليين ميناء قاليقوت هدفًا للاستيلاء عليه أمرًا مقصودًا لذاته ، ليتمكنوا من ضرب التجار العرب والقضاء على تجارتهم .

والواقع إن الهند كانت على علاقة وثيقة بالعرب في الجزيرة العربية بعامة ، والخليج العربي بخاصة ، قبل مجيء البرتغاليين بأماد طويلة . ثم جاء انتشار الإسلام

في جنوب ، وجنوب شرق آسيا على يد التجار العرب المسلمين الذين وجد فيهم أهالي تلك البلاد الخلق الإسلامي القويم ، فكانوا خير دعاة للإسلام .

وبعد وصول البرتغاليين إلى الهند أخذوا يدرسون طبيعة المنطقة المطلة على بحر العرب والمحيط الهندي ، ووضعوا استراتيجية تقوم على تطويق شبه الجزيرة العربية عن طريق ذراعيها الممتلين في الخليج العربي والبحر الأحمر ، فكلا الطريقين استخدمه التجار العرب لنقل تجارة الشرق إلى أوربا . ومعنى هذا أن السيطرة عليهما ، والاستيلاء على الموانئ المطلة على شواطئها يمكنان البرتغاليين من سد طرق التجارة ومنافذها في وجوههم .

أما الشطر الثاني من المخطط البرتغالي فكان السيطرة على منافذ تجارة الشرق الأقصى ، وذلك ببسط سلطانهم على ملقا والجزر الأندونيسية ، لحرمان التجار العرب المسلمين من تلك الأسواق بعد حرمانهم من تجارتهم مع الهند ، وبذلك يحكمون سد جميع المنافذ أمامهم ، فتخلوا لهم وحدهم تجارة الشرق والهند(٨) . وتتضح هذه السياسة في خطاب البوكيرك لجنوده في ملقا ، حيث يقول : " إن إبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هو الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام ."(٩) .

وفي حقيقة الأمر فإن ظهور البرتغاليين في البحار العربية في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كان ملائمًا لهم . فالدول الإسلامية كانت عندئذ في حالة تفكك وانقسام . أما الهند فكانت منقسمة على نفسها ، إذ وقع شلوك (فيجايا ناجار) الهندوكيين في عداء مستمر وحروب لا تنقطع مع حكام الدكن المسلمين ، فانتهز البرتغاليون الفرصة وارتبطوا بصلات مودة مع الهندوكيين ، وذلك لاجتماعهم على هدف واحد ألا وهو كراهيتهم للعرب والإسلام .

وأما إمارات الخليج العربي فكانت مفككة ، لا حول لها ولا قوة . هذا في حين كانت الدول الإسلامية الكبرى وهي دولة المماليك في مصر ، والدولة العثمانية في الأناضول ، والدولة الصفوية في فارس ، لكل منها مشكلاته الخاصة، فدولة المماليك كانت تشغلها الانقسامات الداخلية بين كبار الأمراء ، فضلاً عن نقص مواردها المالية نتيجة تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح . أما الدولتان الإسلاميتان الأخريتان ، فكانت بينهما علاقات عدائية أدت إلى قيام حروب بينهما ، بسبب اختلاف المذهب الديني ، وتعارض المصالح .

* * *

وفي بداية تحول البرتغاليين في ١٠ فبراير ١٥٠٢ في طريقهم إلى المحيط الهندي ، كان عليهم في هذه الرحلة أن يبقوا خمس سفن من أسطولهم في مياه المحيط لحماية المحطات البرتغالية في الهند ، ولمحاولة غلق مدخل البحر الأحمر الجنوبي عند باب المندب في وجه التجار العرب(١٠) .

ومما يلفت النظر أن محاولة الاستيلاء على الموانئ العربية في الخليج وفي البحر الأحمر تمت في وقت واحد ، لأن نشاط البرتغاليين في البحر الأحمر جاء مرتبطًا بنشاطهم في الخليج من ناحية الهدف . وقد أوضحنا من قبل أن الاستراتيجية البرتغالية قامت على أساس الإحاطة بشبه الجزيرة العربية ، وشل ذراعيها في الخليج العربي والبحر الأحمر بهدف إضعاف العرب والقضاء عليهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن ضرب القوى العربية في البحر الأحمر ومحاولة غلقه من الجنوب ، يخدم الأهداف البرتغالية في منع الامدادات الآتية من مصر ومن الدولة العثمانية لمساعدة أخواتهم في الخليج العربي .

لذلك حاول الفونسو البوكيرك Alfonso Albuquerque الاستيلاء على عدن ، وعندما عجز عن ذلك لقوة تحصيناتها ، ولدفاع أهلها الجيد ، يمم وجهه

شطر الخليج العربي - وهو كما ذكرنا أحد الطريقين اللذين كانت تسلكهما تجارة الهند والملايو إلى موانئ الشام - وذلك لضرب القوى العربية وإضعافها ، خصوصًا عمان التي كان لها التفوق البحري والتجاري(١١) في المحيط الهندي(١٢).

كذلك أدرك البرتغاليون أهمية موانئ شرق أفريقية كمحطات لتموين سفنهم ، وتدعيم وجودهم ، فاستولوا على موزنبيق وزنجبار وبراوة(١٣) .

وكان على البوكيرك قبل أن يقتحم الخليج العربي أن يحتل جزيرة هرمز في عام ١٥٠٧ وهي الجزيرة التي تتحكم في مدخل الخليج لتخريبها والقضاء على التجارة العربية الإسلامية فيها(١٤) . وكانت الجزيرة وقتذاك خاضعة لحكم صبي عربي يدعى سيف الدين ، يبلغ من العمر الثانية عشر ويتولى الوصاية عليه خوجه عطار(١٥) . وهذا الرجل كان يتمتع بقدر كبير من الحنكة ، فقاومت الجزيرة مقاومة شديدة رغم عدم تكافؤ القوى(١٦) حتى اضطرات في نهاية الأمر إلى الاستسلام ، والخضوع لسيادة البرتغال ، فتعهدت بدفع ضريبة سنوية للسلطات البرتغالية(١٧) . ويرجع السبب في سقوطها إلى تقاعس البلدان الإسلامية المجاورة عن نجدتها ، وذلك للأسباب التي أشرنا إليها آنفًا من تفكك العالم الإسلامي وضعفه . وبهذا تمكن البرتغاليون من إغلاق الخليج العربي ، والقضاء على التجارة العربية مع الهند والملايو(١٨) وإخضاع الحكام الوطنيين لسيطرتهم(١٩) .

على أن البوكيرك تخوف من غضب الشاه إسماعيل الصفوي لضياع جزيرة هرمز بعد استيلاء البرتغاليين عليها ، لما لها من موقع إستراتيجي يمكنها من التحكم في الملاحة في الخليج ، لا سيما وأن حاكم الجزيرة كانت تربطه علاقات ودية بالشاه . ولذا حاول البوكيرك أن يخطب ود الشاه ، وأن يتقرب إليه ليأمن جانبه ، وليخيف بهذا التقرب القوى العربية في الخليج ، فأرسل إليه مبعوثًا من لدنه برسالة يقول فيها : " إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند . وإذا أردت أن

تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة ، فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين ، أو في القطيف ، أو في البصرة سيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي ، وسأنفذ له كل ما يريد "(٢٠) .

ولكن حدث بالفعل ما كان يخشاه البوكيرك ، ففي عام ١٥٠٨ اعترفت هرمز بالسيادة الفارسية تخلصًا من البرتغاليين ، ورفضت دفع الضريبة السنوية لهم(٢١) . فعاود البوكيرك غزو الجزيرة مرة ثانية ، وقضى على سيطرة حكامها على مياه المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وهي السيطرة التي استمرت زهاء قرنين ونصف من الزمان(٢٢) . وبذلك فشل مشروع الحلف الذي أراد أن يعقده البوكيرك مع الشاه . وبعد الاستيلاء على هرمز والتحكم في مدخل الخليج العربي ، اتجه البرتغاليون لمهاجمة سائر المدن العمانية مثل صور ، وقلهات ، ومسقط ، وصحار ، فضلاً عن البحرين ، والقطيف ، والبصرة(٢٣) . وقد تم الاستيلاء على صحار بمساعدة الشيخ عمير بن حميد ، مستغلاً ضعف النبهانيين وقتذاك . وسقطت جميع منطقة عمان فكان في أيديهم(٢٤) ثم أخذ البرتغاليون في تحصين البلاد بإقامة سلسلة من القلاع والحصون التي ما زال بعضها قائمًا حتى اليوم .

وعند احتلال البرتغاليين مسقط ، قبضوا على عدد كبير من أعيان المدينة ووجهائها ، فجدعوا أنوفهم ، وقطعوا آذانهم ، ونهبوا المدينة وحرقوها بالنار ، كما أحرقوا قلها (قلهات) وطيوى ، ودارسيت(٢٥) . ومدينة حلفار(٢٦) .

وقد اشتد تسلط البرتغاليين على جزيرة هرمز في عهد الحاكم محمود بن سيف الدين ، فأرغموه على توقيع معاهدة تخول لهم حكم الجزيرة ، وأن تظل خاضعة لسيادتهم مدة قرن من الزمان(٢٧) . وهكذا واصل البرتغاليون تقدمهم على الساحل العربي للخليج العربي حيث تم لهم التعرف على البحرين في عام ١٥١٤ ، ولكنهم لم يقدموا على غزوها إلا بعد سبع سنين ، بعد أن أعدوا لها قوة بحرية كبيرة بقيادة أنطونيو كوريا Antonio Correa مكنته من إخضاعها(٢٨) . وقد

تطلع البرتغاليون إلى السيطرة على الطرق البرية والبحرية القديمة ليحكموا قبضتهم على جميع مسالك التجارة . من ذلك محاولة البوكيرك إيجاد طريق تجاري عبر نهر الفرات ؛ ولكنه فشل(٢٩) .

* * *

ويمكننا القول بأن الاحتلال البرتغالي للبلدان العربية ظل يعاني من الانتفاضات التي قامت ضده في مختلف المناطق(٣٠) . إلا إنه مما يثير الدهشة أن المؤرخين العمانيين لم يهتموا بذكر تفصيلات حركات المقاومة العمانية للاحتلال البرتغالي ، في الوقت الذي نجد هؤلاء المؤرخين يهتمون بذكر تفصيلات المعارك القبلية المحلية بكل عناية ودقة . ولو وجدت حركة المقاومة العربية الاهتمام نفسه من هؤلاء المؤرخين ، لتوفرت لدينا مادة علمية غزيرة في هذا المجال ، توضح لنا ما بذله الأجداد من جهد دفاعًا عن ديارهم وحماية لأعراضهم وأموالهم .

والواقع أن البرتغاليين وجدوا مقاومة من قبل السكان المحليين ، رغم تفاوت القوى من ناحية الأعداد والتسليح والتدريب . ولم يتم طرد البرتغاليين من عمان فجأة ، وإنما تم بناء على جهود متواصلة من قبل المجاهدين العمانيين إلى أن حققوا ذلك . ولكن إذا كانت الأمور قد سارت وفق هوى البرتغاليين في الخليج رغم المقاومة التي أشرنا إليها ، إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو بالنسبة للذراع الثاني لشبه الجزيرة العربية ، ألا وهو البحر الأحمر . وكانت السيطرة عليه واحتواء موانيه هدفًا استراتيجيًا للبرتغاليين لإكمال السيطرة والقضاء على التجارة العربية ، ولمنع أية مساعدة تأتي من دولة المماليك ، وهي أكبر دولة تطل بسواحلها الطويلة على هذا البحر ، ومن بعدها تأتي الدولة العثمانية .

وقد حدث في عام ١٥٠٥ أن تمكن البرتغاليون من دخول البحر الأحمر وتهديد ميناء جدة ، بل استطاع نفر منهم التسلل إلى مكة(٣١) ولهذا السبب ،

- إضافة إلى ما لحق بالمماليك من أضرار اقتصادية - واستنجاد أهل الخليج بهم قاموا بإعداد حملة مكونة من سبع عشرة سفينة ، تقل ألفًا وخمسمائة محارب ، تحت قيادة حسين الكردى ، التقت بالبرتغاليين في شمال Chaul بالقرب من الساحل الغربي للهند في عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م وانتصروا عليهم . ولكن حسين الكردى لم يعزز انتصاره هذا بملاحقة الأسطول البرتغالى الذى تمكن من لم شتاته ، وتعزيز قوته ، وإنزال الهزيمة بالأسطول المملوكي في معركة ديو البحرية في عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م(٣٢) .

وبهذا النصر تمكن البرتغاليون من تضييق الخناق على التجارة العربية ، ومنع السفن المحملة بالبضائع من الوصول إلى ميناء البصرة ، مما كان له أكبر الأثر في إلحاق الضرر بالطريق التجارى البرى عبر العراق والشام(٣٣) .

وعندما حاول المماليك الاستعانة بالبنادقة لتعزيز قوتهم البحرية لمعاودة الكرة مرة ثانية ، فشلت تلك المحاولة فيمموا وجوههم شطر الدولة العثمانية التي أبدت استعدادها لتقديم العون لهم(٣٤) .

وبالرغم من عدم وصول هذا العون ، فإن السلطان الغورى أرسل في عام ٩١٦هـ/١٥١٤م حملة ثانية تحت قيادة مشتركة من حسين الكردى وسليمان العثماني ، واتجهت هذه الحملة إلى جدة ، ومنها إلى اليمن فالهند . ولكنها أخفقت في أداء مهمتها فنشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك ، وسقوط مصر في قبضة العثمانيين في عام ٩١٧هـ/١٥١٧م .

أما عدن فقد حاول البرتغاليون الاستيلاء عليها أكثر من مرة ، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا ، وإن كانوا قد نجحوا في احتلال جزيرة سقطرى عام ١٥٠٦ ، التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب ، وبذلك قطعوا الطريق البحرى المباشر بين مصر والهند(٣٥) .

وفي عام ١٥١٣ حاول البوكيرك غزو عدن ، فامتنعت عليه لقوة تحصيناتها، ولمساعدة آل طاهر والمماليك ، فتركها واتجه شمالاً لغزو مينائى مخا والحديدة ، ولكنه قوبل بمقاومة شديدة ردته على أعقابه إلى جزيرة كمران ، ومنها أعاد الكرة مرة أخرى على عدن ، ولكنه فشل في هذه المحاولة أيضًا ، فتقفل راجعًا إلى الهند(٣٦) .

أما العثمانيون الذين احتلوا مصر فقد وجدوا أنفسهم يسيرون في الطريق نفسه الذى رسمه المماليك من قبل في كفاحهم ضد البرتغاليين ، ألا وهو تحصين سواحل البحر الأحمر، ولا سيما سواحل الحجاز،وإغلاق هذا البحر فيوجه السفن البرتغالية ، حماية للأراضي المقدسة المستهدفة . ومع أنهم نجحوا في ذلك إلى حد بعيد إلا أنهم لم يوفقوا في تحرير البلدان العربية في الخليج من الحكم البرتغالى .

ورغم استلاء العثمانيين على العراق بعد انتصارهم على الفرس حلفاء البرتغاليين وقتذاك(٣٧) ، ووصولهم إلى مياه الخليج العربى في يوليو ١٥٣٤ ، واقترابهم من قواعد البرتغاليين في الخليج والمحيط الهندى ، مما كان يتيح لهم اتخاذ قواعد عسكرية في الخليج لتكون مراكز انطلاق ضدهم، إلا أن العثمانيين لم يغيروا من استراتيجيتهم الثابتة التي ورثوها عن المماليك ، وهي اتخاذ ميناء السويس قاعدة سياسية لعملياتهم الحربية ضد البرتغاليين ، بالإضافة إلى القواعد العسكرية المساعدة في الطور(٣٨)، والعقبة ، والقصير ، وجدة ، وزيلع ، وسواكن ومصوع ، وعدن.

* * *

أما الخطوة الثالثة التي أقدم عليها البرتغاليون - طبقًا لاستراتيجيتهم في ضرب التجارة العربية الإسلامية ، فهي إغلاق آخر منفذ لها في الشرق الأقصى ، وذلك بالاستيلاء على ملقا في عام ١٥١١، والسيطرة على الملايو والجزر الأندونيسية ، حيث كان التجار العرب يحملون تجارة تلك المناطق إلى موانئ

الخليج العربي ، ولا سيما البصرة ، أو إلى البحر الأحمر لإنزالها في ميناءي جدة والسويس ، " ولم يكن في الإمكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندي ، ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا "(٣٩) .

وقد خطب البوكيرك ممتدحًا جنوده على القتال قائلاً : الخدمة الجليلة التي ستقدمها للرب هي طرد العرب من هذه البلاد وإطفاء شعلة أتباع محمد ، بحيث لا يتدلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وذلك أنني على يقين من أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم ، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرًا بعد عين "(٤٠).

وعندما تمكن البرتغاليون من السيطرة على تجارة أندونيسيا ، بفضل الصراع المرير ، والعداوة المستحكمة ، والحروب التي لا تنقطع بين حكام جاوة وهم حديثو عهد بالإسلام، وبين الممالك الهندوكية القديمة، لم يتعرض البرتغاليون للتجار الصينيين والهنود،ولكنهم تعقبوا التجار العرب والمسلمين حتى خلت الساحة منهم.

على أن الحروب المتالية(٤١) وحركات المقاومة العربية للاحتلال البرتغالي ، أفقدت البرتغاليين قوتهم .يضاف إلى ذلك دخول قوى أوربية جديدة هذا الميدان ، مما أدى إلى أفول نجم البرتغاليين في الخليج ، وذلك بخروج هرمز من أيديهم عام ١٦٢٤ .وفقد البرتغاليون بذلك أهم وأقوى نقطة استراتيجية لهم في الخليج(٤٢).

وقد استغل العمانيون المقيمون بجزيرة هرمز فرصة خروج الجزيرة من قبضة البرتغاليين وأعلنوا استقلالهم عن البرتغال(٤٣) وأخذوا يعدون العدة لطردهم أيضًا من عمان. وكانت هذه مهمة دولة اليعاربة(٤٤) . (١٠٣٤ - ١٥١١هـ/١٦٢٤-١٦٤٩م) التي كانت قبلية صغيرة ، ولكنها غدت قوة يحسب لها كل حساب(٤٥) ولا سيما في عهد الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان (١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ/١٦٢٤ - ١٦٤٩م) الذي أدرك أن تخليص عمان من الحكم البرتغالي البغيض لن يتم إلا بعد توحيد بلاده بعد أن فرقتها صراعات الحكام على السلطة وكان أن تم له ما أراد .

هذا من الناحية الداخلية ، أما من الناحية الخارجية ،فقد أخذت الأوضاع الدولية في الخليج تتجه لصالحه ، فظهر الهولنديون كمنافس خطير للبرتغاليين في الخليج ، ثم لحق بهم البريطانيون ، مما خلق مجالاً للمنافسة الشديدة بين القوى الأوربية الثلاث للسيطرة على الخليج(٤٦) وشغل البرتغاليون بهذا التنافس عن التفرغ لمواجهة حركة التحرير في عمان .

وكان أن أدرك الإمام ناصر بن مرشد منذ البداية أن الصراع بينه وبين البرتغاليين هو صراع بحري في المقام الأول(٤٧) ومن ثم أخذ في بناء أسطول جديد ، يعتبر أول أسطول عربي منظم في المنطقة ، أصبح في نهاية القرن السابع عشر القوة البحرية الأولى في مياه الخليج والمحيط الهندي(٤٨) .

وبدأ الإمام ناصر خطته العسكرية باستعادة صحار ، وخلفار من أيدي البرتغاليين(٤٩) ثم اتجه بعد ذلك إلى مسقط في عام ١٦٤٣ ، وهي تعد من أقوى المعاقل المنيعة ، فاستعصت عليه ، نظرًا لقوة حصونها ولإمداد الأسطول البرتغالي لها بالمؤن والذخائر عن طريق البحر ، وكذلك الحال بالنسبة لمدينة مطرح .

وبالرغم من عدم استطاعة العمانيين استرجاع المدينتين ، إلا أن البرتغاليين اضطروا إلى طلب الصلح ، وقبول دفع جزية سنوية للإمام ، مع التزامهم بهدم الحصون التي شيدوها في قريات ، وسمد ، وتعهدهم بعدم التعرض للنشاط التجاري العماني . وكان التسليم بهذا الشرط الأخير أول انهيار للهدف الأساسي الذي جاء البرتغاليون من أجله إلى البحار العربية ، ألا وهو القضاء على النشاط التجاري العربي الإسلامي .

ولم يقتصر صراع الإمام ناصر بن مرشد على البرتغاليين وحدهم ، بل تصدى أيضًا للفرس الذين أرادوا أن يحلوا محل البرتغاليين ، وأن يرثوهم في البلاد التي طردوا منها(٥٠) .

وفى عهد خلفه الإمام سلطان بن سيف تم له تحرير مسقط من الحكم البرتغالى فى عام ١٦٥٨ ، لتنطوى بذلك صفحة من صفحات أول موجة استعمارية شرسة فى التاريخ الحديث ، وتبدأ صفحة أخرى مليئة بتنافس قوى أوربية أكبر وأشد قوة، ممثلة فى هولندة ، وبريطانيا وفرنسا .

* * *

وإذا أمعنا النظر فى الأسباب التى عجلت بنهاية النفوذ البرتغالى فى الخليج ، أمكننا إرجاعها إلى عوامل داخلية ، وأخرى خارجية .

فمن العوامل الداخلية ، قيام أسرة اليعاربة ، وعلى رأسها الإمام ناصر بن مرشد بتوحيد البلاد التى مزقتها صراعات الحكام على السلطة ، فخلق من هذه الوحدات المشتتة دولة قوية ، وضعت فى مقدمة أولوياتها تخليص البلاد من الاحتلال البرتغالى .

أضف إلى ذلك إدراك العثمانيين منذ البداية مدى قدرة البرتغاليين ، فهم أمة بحرية لها باع طويل فى هذا الميدان . وحينما تحقق لهم ذلك ، أمكنهم أن يتغلبوا على أهم نقاط القوة لدى عدوهم .

هذا إلى أن سياسة الشدة والبطش التى سار عليها البرتغاليون فى حكم الشعوب التى خضعت لحكمهم ، واستنزاف مواردهم الطبيعية والبشرية ، زادت من كراهيتهم لهم ، مما ترتب عليه كثرة الانتفاضات التى قامت ضدهم ، ومحاولة اغتنام كل الفرص المواتية للانقضاض عليهم والتخلص منهم .

أما عن العوامل الخارجية ، فإن التنافس الذى استعر بين البرتغاليين من ناحية، وبين الفرس والهولنديين من ناحية أخرى مكن العثمانيين من اختيار الأوضاع الدولية الملائمة لإنزال ضربتهم القاضية بالوجود البرتغالى فى عمان .

هذا إلى أن طبيعة الإمبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف ، مع قلة عدد البرتغاليين ، جعل تلك الأمبراطورية ذات طبيعة خاصة ، ترتكز على سلسلة من القواعد العسكرية البحرية ، دون التعمق فى الداخل . ولما كان بقاء تلك الإمبراطورية مرهوناً بمدى قوتهم البحرية ، فعندما تعرضت هذه القوة البحرية للضعف ، نتيجة دخول حلبة المنافسة قوى بحرية أخرى ، أعظم شأناً ، وأكثر خطراً ، انهارت تلك الإمبراطورية و لم تقم لها قائمة .

وكان أن أتاح زوال الوجود البرتغالى من الخليج العربى الفرصة للقوى العربية لأن تؤكد لنفسها زعامة الخليج وهذا ما نلاحظه بشكل واضح فى القرن الثامن عشر .

الهوامش

(١) بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٠

(٢) نفسه ص١٥

(٣) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا – دراسة وثائقية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٢ ، ص٣٥

(٤) زين الدين ، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، نشر ديفيد لوبيز Davis Lopes ، لشبونة ١٨٩٨ ، ص٤٥

(٥) بانيكار ، المرجع السابق ص٢٥

(٦) محمد مصطفى زيادة ، مصر والحرب الصليبية ص١٦

(٧) بانيكار ، المرجع السابق ص٣٧

(8) Fisher, S. N., The Middle East - AHistory, N. Y. Alfred A. Knop, Inc, 2nd ed, 1968, p. 148

(٩) بانيكار ، المرجع السابق ص١٠

(10) Strand, J., Portuguese Period in East Africa, p39

(11) Philips, Wendell, Oman, Ahistory, London, 1979

(١٢) جمال زكريا قاسم ، الإدعاءات الإيرانية في الخليج العربي – أصول المشكلة وتطورها التاريخي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد العشرون ١٩٧٣

(١٣) جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد وشرق أفريقيا ١٧٤١ – ١٨٦١ ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص١٨

(١٤) عبد العزيز عبد الغني ، المرجع السابق ص٢٥

(١٥) ويلسون أرنولد ، الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسف فهد للمرزوق الصحفية ، الكويت ص٢٠٨

(١٦) نفسه .

(١٧) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ط٢ ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٤٢

(١٨) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص١٦

(١٩) ويلسون أرنولد ، المرجع السابق ص١٠٤

(٢٠) صلاح العقاد ، المرجع السابق ص١٧

(٢١) ويلسون أرنولد ، المرجع السابق ص٣١٣

(٢٢) سيد نوفل ، المرجع السابق ص٤٢

(٢٣) نوال صيرفي ، التغلغل البرتغالي في الخليج العربي ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ ص١١٨

(٢٤) محمود علي الداود ، محاضرات عن التطور السياسي الحديث لقضية عمان ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص١٨

(٢٥) صحتها (ريسوت) كما وردت بكتاب محمد السالمي ، رئاسي عساف (عمان تاريخ بتكلم) ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ص٨٨

(٢٦) عبد الله بن صالح للطوع ، عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان ، (مخطوط) ورقة ١٧

(٢٧) ويلسون أرنولد ، المرجع السابق ص٣١٨

(٢٨) سيد نوفل ، المرجع السابق ص٤٢

(29) Bent Theodore, Southern Arabia, London 1905. 50

(٣٠) سيد نوفل ، المرجع السابق ص٤٢

(٣١) ابن اياس ، محمد بن أحمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ ، ٤/١٩١

(٣٢) نفسه ٤/٣٠٨

(٣٣) عبد المنعم الراقد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الأسكندرية ١٩٦٨ ، ص١٢٢

(34) Kammerer, La Mer Rauge, L'Abyssinie et L'Arabie Depuis L'Antiquite, 2 vols, La Caire 1920, 2/144

(35) Stripling, The Ottoman Turks and the Urbana Oford, 1942, p. 28

(٣٦) غسان محمد الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، مطابع دار العلم ، جدة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ ص ١٤٢

(٣٧) صلاح العقاد ، المرجع السابق ص١٨

(٣٨) وثائق دير سانت كاترين بسيناء ، وثيقة رقم ١٧٠ بتاريخ ٢٠ رجب ١١١٢هـ/١٧٠٨م .

(٣٩) يانيكار ، المرجع السابق ص٤٨

(٤٠) نفسه .

(٤١) محمود علي الداود ، المرجع السابق ص١٩

(42) Foster, England's Question in the Eastern Trade, London, 1933, p. 79

(٤٣) جمال زكريا قاسم ، الإدعاءات الإيرانية ص١٦٥

(٤٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين للرهن سيرة البوسعيديين تحقيق عبد المنعم عامر محمد مرسي ، ص٢٥٠

(٤٥) جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد ص٢٠

(٤٦) لوريمر ، دليل الخليج ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ١/١٦

(٤٧) جمال زكريا ، الإدعاءات ص١٦٥

(٤٨) محمود علي الداود ، المرجع السابق ص ص ١٨ ، ١٩

(49) Badger, G. P., History of the Imams and Seyyids of Oman, by Silf Bin Razik (from A. D. 661-1856) Translated from the Original Arabic, and edited with an Introduction Continuing the History down to 1870 London, 1971, pp. 23f 24.

(٥٠) جمال زكريا ، الإدعاءات ص١٦٨

الوجود المصرى فى الخليج العربى
فى عهد محمد على
وأثره فى السياسة البريطانية
١٨١٩ - ١٨٤٠

أ.د. عبد الحميد البطريق *

يتألف الوجود المصرى فى الجزيرة العربية من فترتين : فترة عثمانية مصرية من عام ١٨١٣ حتى عام ١٨١٩ ، وهى فترة الغزو والحروب وعدم الاستقرار ، والفترة الثانية من عام ١٨٢٠ حتى عام ١٨٤٠ ، وهى الفترة التى بدأت منذ تدمير العاصمة السعودية (الدرعية) التى حاول محمد على أتباعها أن يثبت أقدامه ويعدّ العدّة للإنفراد بحكم الأرض التى خضعت لسلطانه فى الجزيرة العربية بعيدًا عن الارتباط بالسلطان العثمانى ، وهذه رغبة قديمة كان يتطلع إليها منذ أن نجح فى الانتصار على الدولة السعودية الأولى . وقد تجلت تلك الرغبة فى الرسالة التى بعث بها إلى ابن أخته " أحمد باشا يكن " الذى عينه حاكمًا على الأقطار الحجازية بعد مغادرة ابنه إبراهيم باشا الكبير أرض الجزيرة العربية بعد أن أنهى مهمته هناك .

وفى تلك الرسالة التى سماها بالمرسوم (٨ نوفمبر ١٨٢١) وضع للحاكم الجديد أحمد باشا يكن الخطة المثلى التى رآها تصلح للحكم . وكان أخطر ما جاء فى هذه الخطة التى سبقت نزاعه مع السلطان بأحد عشر عامًا ما جاء فى نهاية رسالته (إن مرادى من تحرير هذه الأصول إليك قائم على رغبتى فى التصرف فى الأقطار الحجازية تصرف المستقبل)[1] .

---

* أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

أما الفترة الأولى التى وصلت أثناءها القوات المصرية إلى ساحل الخليج ، فقد جاءت بعد تدمير " الدرعية " عندما وصلت التعليمات من محمد على إلى قائد الجيوش (إبراهيم باشا) بغزو جميع البلاد المجاورة لنجد ، والتى تسمى الآن بالمنطقة الشرقية . وعندئذ بدأ إبراهيم بغزو منطقة الحسا والقطيف(٢) ، وهى المنطقة الممتدة على ساحل الخليج من حدود الكويت الجنوبية إلى حدود قطر وعمان ، وذلك بقصد القضاء على كل أثر لنفوذ الدولة السعودية التى كان سلطانها يشمل الحسا والقطيف والبحرين وجزءًا من أرض عمان ، بمعنى أن سيادتها كانت مبسوطة على الساحل العربى للخليج الفارسى .

وكان لوصول القوات المصرية إلى ساحل الخليج أثران سياسيان هامان :

أولهما : أن السلطان العثمانى حز فى نفسه ذلك النجاح الكبير الذى بلغه محمد على فى الجزيرة العربية ، لأنه كان دائم الأرتياب فى أهداف محمد على ولا يطمئن إليه ، بل يلغ به الشك فى سوء نية محمد على أن اعتقد بعد وصول القوات المصرية إلى موقع قريب من خليج البصرة أنه ربما تصل به أطماعه الشخصية إلى التطلع للوصول إلى بغداد .

ثانيهما : اهتمام الإنجليز بوصول قوات محمد على إلى إقليم الخليج ، إذ بدأت حكومة الهند البريطانية تنظر إلى حركات محمد على فى تلك المناطق نظرة الشك والحذر ، لأن التقارير التى كانت تصل إليها من مندوبيها فى إقليم الخليج تثير القلق والشك فى الخطوات القادمة لتلك القوات(٣) .

وكان الإنجليز يعملون منذ سنين على بسط نفوذهم على المنطقة بحجة محاربة القرصنة التى تعترض الملاحة التجارية ، ففرضوا صداقتهم وأملوا إرادتهم على إمام مسقط . ولما سيطر السعوديون على منطقة الحسا ، حاول الإنجليز الاتصال بهم لتوثيق روابط الود ، وضمان عدم الإعتداء على السفن الإنجليزية .

ولما شرعت القوات المصرية تتقدم فى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية وتصل إلى منطقة الحسا فى طريقها إلى ساحل الخليج إزدادت رقابة حكومة الهند البريطانية على أنباء تطور الأحداث بعد وصول قوات محمد على إلى تلك الجهات(٤).

وفى الوقت الذى كان الإنجليز يشعرون بالمرارة من نجاح القوات المصرية فى التقدم عن " نجد " إلى الخليج ، كان هذا الشعور يخالطه شعور آخر بالارتياح لأن وجود الجيش المصرى هناك قد يقضى على حركات قراصنة الخليج . وفعلاً لوحظ أن السفن الإنجليزية بدأت فى الفترة التى ساد فيها الوجود المصرى فى تلك الجهات تمخر عباب الخليج فى أمان واطمئنان(٥) ، حتى أن سولت قنصل إنجلترا فى مصر كتب إلى وزارة الخارجية البريطانية يشرح رأيه فى أن محمد على يطمع فى صداقة الإنجليز ، ويرى سولت أن قواته وسيادته هناك " خير من سيادة أولئك الوهابيين "(٦) .

ورجحت الحكومة البريطانية أن تلك الجهات العربية التى فتحتها قوات إبراهيم باشا بشق النفس وأقصى الجهد ، لا يمكن أن تنسحب منها بعد ذلك ، وأن " نجد " و " الحسا " قد تصبحان فى القريب . ولايزين تابعتين لمصر ، فرأوا من الخير أن يتفاهموا مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى مناطق الخليج ، أولاً لكى يسبروا غور أهداف محمد على ، وثانيًا لكى يتصرفوا فى ضوء تلك الاتصالات .

وفى صيف عام ١٨١٩ أبحرت من بومباى سفينة حربية إلى الخليج تحمل رسولاً خاصًا لمقابلة قائد الحملة إبراهيم ، وكان ذلك الرسول هو الكابتن " جورج فروستر سادلير " (SADLIER) الذى اختاره السير إيفان نيبين حاكم بومباى فى شهر إبريل ، لكى يبحر إلى ميناء القطيف أو العقير على ساحل الحسا ، ومن هناك يتوجه براً إلى " الدرعية " حيث كانت حكومة الهند البريطانية تظن أن قائد الحملة المصرية يعسكر هناك ، وأن الحرب بين القوات المصرية والسعوديين لن تضع أوزارها فى وقت وجيز ، وقد زوده (السير إيفان نيبين) ببعض الهدايا إلى إبراهيم مع رسالة كتبت بلغة عربية وكيكه ، يهنئه فيها باسمه واسم الحاكم العام للهند على انتصارات الحملة المصرية على (الوهابيين) . وكان على سادلير أن يمر فى طريقه بسلطان مسقط " سيد سعيد " لكى يطمئنه ويزيل مخاوفه من ناحية

الوجود المصرى فى المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ، ذلك لأن إبراهيم يدرك تمام الإدراك تلك العلاقة الوثيقة التى تربط بريطانيا بمسقط(٨) .

ولم يكن اهتمام الإنجليز بتحركات القوات المصرية على سواحل الخليج العربى بأقل من اهتمام محمد على بتحركات الإنجليز هناك ، فقد كان يخشى اتصال حكومة الهند البريطانية بإمام مسقط ، وكلف حكومته فى جدة بالتجسس على أخبار تلك العلاقات(٩) ، وأوصى إبراهيم بالعمل على إضعاف نفوذ هذا الإمام ثم استمالته بعد ذلك . وكان الإنجليز من جانبهم يخشون اتصال محمد على بإمام مسقط وبغيره من حكام الجهات المواجهة على الخليج .

وكان أن غادر " سادلير " مسقط فى طريقة إلى القطيف فوصلها فى ٢١ يونيه سنة ١٨١٩ ، وهناك علم بأن الدولة السعودية الأولى قد دالت وأن عاصمتها (الدرعيه) أصبحت أثرا بعد عين ، وأن قائد الحملة المصرية قد تصله الأوامر من القاهرة بالإنسحاب من البلاد التى فتحها على ساحل الخليج مع ترك حاميات صغيرة فى المواقع المهمة ، وتسليم مهمة الحكم فى تلك المناطق لأسرة ابن عريعر من بنى خالد الموالين للحكم المصرى .

وقرر " سادلير " أن يواصل بعثته حتى يقابل إبراهيم ويقف منه فى جلاء على مستقبل الوجود المصرى فى الخليج ، فقصد بلدة الهفوف قاعدة الحسا حيث وجد أن الضابط الذى كان يرأس حامية الهفوف يستعد للانسحاب ، ففضل " سادلير " أن ينتظر ليرافق القوات المصرية ويكون فى حمايتها أثناء الطريق . وفى ٢١ يوليو تحركت القافلة الحربية الكبيرة من الهفوف بالحسا إلى نجد ، وكان سادلير يهتم أشد الاهتمام بدراسة كل موقع يمر به ، ويطلب من أدلائه تفاصيل وافيه عن الحاصلات والغلات والموارد وحالة البلاد العامة ومزايا الاقتصادية ، ويضع خرائط لتوزيع البدو فى قلب الجزيرة العربية . ولكنه اضطر إلى الإسراع عندما علم بأن إبراهيم فى طريقه إلى المدينة المنورة .

وفى سبتمبر سنة ١٨١٩ علم إبراهيم ، برغبة الكابتن " سادلير " فى مقابلته. ولما لم يكن مصرحًا لأى مسيحى بدخول المدينة فقد استقبلة إبراهيم فى موقع خارجها اسمه (بير على) . وهناك سلمه " سادلير " رسالة حاكم بومباى وعرض عليه طبيعة بعثته ، وأخبره ان حكومة الهند البريطانية قد سأمها تكرار العدوان من القراصنة الوهابيين الذى يقيمون على ساحل الحسا على السفن التى تمر فى الخليج وبأنها تنوى ارسال أسطول حربى لتخريب أوكار القراصنة فى سبخ مرافئ على الخليج الفارسى ، وأن حكومة الهند البريطانية تأمل أن تشاركها القوات المصرية بحملة من البر وأن يكون العمل مشتركًا على سواحل الخليج"(١٠).

وقد رد إبراهيم بأنه ليس مخولاً بالبت فى مثل هذه الأمور إذ أنه إنما ينفذ رغبات أبيه كما هى . ولذا فليس فى وسعه أن يعد بشئ قبل أن يبعث بالمقترحات الإنجليزية إلى القاهرة . واقترح على " سادلير " أن يذهب إلى جدة فى انتظار الرد النهائى على تلك المقترحات(١١) . ولكن طال انتظار " سادلير " فى جدة إلى أن وصل الأمر إلى إبراهيم بأن (يرد طلب سادلير فى حكمة وتلطف وأن يتعلل بأنه قد وعد بأن يستريح هو وجنوده بعد فتح الدرعية إزالة للتعب واستجمامًا للراحة)(١٢) . ولما تحقق سادلير من فشل بعثته إبحر إلى بومباى فى ٢٣ يناير ١٩٢٠ فى الوقت الذى عاد إبراهيم إلى القاهرة بعد أن نظم شئون الحكم فى المناطق المجاورة لساحل الخليج بحيث يصبح الحكم عمليًا فى أيدى (ابن عريعر) وهو أحد الموالين لمحمد على .

* * *

وعند قيام الدولة السعودية الثانية التى أسسها " تركى بن عبد الله "ثم ولده " فيصل بن تركى " وقعت الحسا فى قبضة السعوديين . وهنا يبدأ الدور الثانى لظهور القوات المصرية مرة أخرى على سواحل الخليج ، بقيادة القائد العظيم خورشيد باشا . وكانت مهمته فى أول الأمر أن يقوم من المدينة المنورة على رأس حملة لغزو نجد والمنطقة الشرقية حتى ساحل الخليج وذلك بقصد القضاء على الدول السعودية الثانية التى استضحل أمرها هناك .

وكان خورشيد باشا قبل أن يقوم بحملته على نجد والخليج قد اتخذ المدينة مقرًا لقيادته عندما كان مكلفًا بإخضاع قبائل بني حرب التي تسكن تلك المنطقة. وفي إبريل عام ١٨٣٨ تحرك خورشيد باشا بقواته المصرية إلى إقليم القصيم بنجد واتخذ (عنيزة) مقرًا لقيادته(١٤) .

ومنذ أن استقر في عنيزه لم تنقطع وفود مشايخ القبائل الذين كانوا قد انضموا إلى " فيصل بن تركي آل سعود " . ولسنا الآن بسبيل الحديث عن تفاصيل تلك الحملة ، ولكن يكفي أن نذكر أنها تغلبت على الدولة السعودية الثانية ، وشرع خورشيد في تنظيم الحكم الجديد في تلك المناطق رغم كل العراقيل التي كانت تركيا ورجال السلطان العثماني يضعونها في طريق استقرار القوات المصرية هناك ، وذلك عن طريق الاتصال بفيصل بن تركي وتشجيعه على المقاومة . وكان والي بغداد العثماني هو المكلف من الباب العالي بذلك الاتصال ، وهو الذي كان يدعو " فيصل بن تركي " إلى الثبات ويبلغه رضا الباب العالي عنه ، ويعده بإرسال المدد إليه ، إن كان في حاجة إلى رجال أو مال أو عتاد(١٥).

والواقع أن الدعاية التركية كانت في ذلك الوقت تعمل على وضع العراقيل في طريق تثبيت حكم محمد علي في الجزيرة العربية ، بعد النزعة الاستقلالية التي أثارت الحرب بين السلطان ومحمد علي . وبعد أن كان الدولة العثمانية تعمل على تحطيم الحركة الوهابية أصبحت تتصل بالدولة السعودية الثانية لتتحالف معها على إخراج القوات المصرية من الجزيرة العربية .

ومما هو جدير بالذكر أن أفراد القوات التي بحثت في غزو المنطقة الشرقية ووصلت إلى ساحل الخليج كانوا من الجنود المصريين الذين تلقوا تدريباتهم العسكرية وفق (النظام الجديد) الذي استحدثه محمد علي عندما عزم على تكوين جيش حديث من المجندين المصريين . وكان قائدهم " خورشيد باشا " قد تلقى دراسته العسكرية على أحدث النظم التي أدخلت في مصر(١٦) . وأن الباحث

ليعجب أشد الإعجاب ببطولة هذا القائد الكبير عندما يستعرض الظروف السيئة التي واجهت القوات المصرية في (نجد) وعلى الأخص في المنطقة الشرقية ، أهمها :

أولاً : تحالف عليه أعداء زاد عددهم بكثير عن عدد جنوده . وكانت المؤن تنفد منه تمامًا حتى اضطر الجند إلى أن يقتاتوا بلباب النخيل . وكان خورشيد يضطر إلى أن يأمر بذبح الجمال التي اشتراها من قبل لحمل أثقال الجيش من مؤونة وعتاد ، لتكون طعامًا للجنود . وأضف إلى ذلك ما أصاب الخيول من الهزال نتيجة إنعدام العليق حتى اضطر الفرسان إلى تركها ترعى الحشائش بعد أن نفد البرسيم المتزرع في الأرض .

ثانيًا : كان بعض أهالي نجد ممن دخلوا الطاعة قد تعهدوا لخورشيد باشا أن يقدموا له ما يطلبه من الخدمات إلا أنهم لم يكونوا مخلصين له بل كانوا يميلون إلى نصرة فيصل ضد الحكم المصري .

ثالثًا : صعوبة القيام بالحرب على الطريقة الحديثة في نجد ، إذ أن " جدران المنازل والأبراج مصنوعة من الطين المصبوب في عرض ثلاثة أو أربعة أذرع ، فإذا صوبت إليها المدافع لا تهدم القذيفه أي مكان من الجدار الذي أمامها ، وإنما تخرق الموضع الذي تصيبه وتنفذ منه الوجه الآخر ، ولا يمكن هدم الجدار إلا بعد إطلاق المدافع عدة مرات "(١٧) .

رابعًا : لا يبرز أهالي القرى في نجد للحرب مواجهة ، وإنما يختبئون في الأبراج والبساتين التي بداخل البلدة ، ثم يطلقون البنادق وهم مختفون في كل مكان ، ولا يقل عدد الأبراج في كل قرية عن خمسة وعشرين برجا . وحين تقوم القوات المصرية بالهجوم تجد القرية كلها قد تحولت إلى ميدان متسع الجوانب تخرج النيران فيه من كل مكان(١٨) .

ومع كل هذه الصعوبات استطاع خورشيد باشا بما اتصف به من قوة العزيمة وسعة الحيلة أن يجعل قواته تضيق الخناق على فيصل حتى اضطره إلى التسليم هو ومن معه من الأمراء السعوديين ، وأرسلهم إلى المدينة المنورة تمهيدًا لترحيلهم إلى مصر .

وبانتهاء دولة فيصل بن تركي آل سعود ، بدأ عهد جديد في تاريخ الحكم المصري في تلك الأقطار التحديه بما فيها المناطق الواقعة على ساحل الخليج ، حيث تبين محمد على خطأ ترك هذه البلاد بغير تنظيم أو حاميات كبيرة ، وذلك بعد أن عانت القوات المصرية فيها ما عانت في سبيل الانتصار على الدولة السعودية الثانية . ولذلك رأى أن يعهد إلى خورشيد باشا بتنظيم أمر هذه البلاد ومحاولة استغلال مواردها في إنشاء حكومة صالحة وسد حاجة جيش الاحتلال .

وكانت المهمة التالية هي العمل على مد النفوذ المصري حتى ساحل الخليج. وفي أواخر عام ١٨٣٨ أخذت الفرق المصرية تتدفق نحو الخليج مبتدئة بإخضاع " الحسا " أقرب مناطق الخليج إلى نجد . ورأى خورشيد أن يستدعي أميرهم القديم (ابن عريعر) الذي فر من وجه السعوديين وعينه أميرًا من جديد ، بعد أن هزم (عمر بن عفيصان) الذي كان فيصل قد عينه أمير للحسا ثم فر منها إلى البحرين.

وهكذا تم فتح منطقة الحسا واحتلال موانئ القطيف والعقير ، حيث وضعت بكل منها حاميات مصرية . أما القطيف فقد وجد " خورشيد " أنها في حاجة إلى عناية كبيرة إذ أن مياه الميناء لا تستقر على حال واحدة بل تقل تارة وتكثر تارة أخرى ، وليس بالميناء فرضة مناسبة لدخول السفن ، ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء الحسا والقطيف(٢٠) .

وكانت الحكومة البريطانية تتبع تطورات القتال الذي دار في نجد ومناطق الساحل ، فأرسل المقيم البريطاني في بغداد " روبرت تيلور " إلى حكومته في

لندن يقول إن المعلومات التي تجمعت لديه هي أن القوات المصرية تتدفق على ساحل الخليج ، وربما تكون البحرين هي الهدف(٢١) .

والواقع أن (تيلور) كان مصيبًا في تكهناته ، لأن خورشيد باشا كان يتطلع إلى بسط السيطرة المصرية على البحرين . وهي خطوة شاقة تحتاج إلى سياسة حكيمة ، وكفاية حربية دقيقة ، ولكنه كان مصممًا على احتلالها لعدة أسباب :

أولاً : مركزها الجغرافي الذي جعل منها ميناء للمنطقة التي احتلتها الجيوش المصرية في الحسا والقطيف ، وترد إليها السفن من الهند والبصرة وعمان " فاحتلالها تحت الحكم المصري يساعد على رواج التجارة المصرية ويبعث الحركة والنشاط في المنطقة المصرية على ساحل الخليج الفارسي "(٢٢) .

ثانيا : أصبحت جزيرة البحرين مأوى أعداء الحكم المصري الذين فروا إليها تباعًا من نجد والحسا . وهناك في البحرين يعملون على تدبير المؤامرات ضد الحكم المصري ، فهناك يقيم عمر بن عفيصان حاكم الحسا السابق " ومحمد بن سيف العجاجي " حاكم القطيف السابق وكثير من الزعماء الوهابيين ، وجماعة من جنود فيصل بن تركي ممن تمكنوا من الفرار أثناء المواقع الحربية بين المصريين وفيصل(٢٣) .

ثالثًا : يتوارد على البحرين عدد من طوائف البدو الذين منعهم خورشيد باشا من دخول القرى في نجد والحسا ، حتى يقدموا الجمال المطلوبة منهم للجيش المصري . وهؤلاء البدو اعتادوا أن يعرجوا على تلك القرى مرة في السنة لأخذ ما يحتاجون إليه من تمر وطعام ثم يعودون إلى الصحراء . فلما منعوا من دخول الحسا والقطيف وقرى المنطقة الشرقية في نجد ، وجدوا بغيتهم في جزيرة البحرين يأخذون منها ما يحتاجون إليه ، أصبحوا في غنى عن تلك القرى ، فلا يضطرون إلى تقديم الجمال المطلوبة لقوات محمد على "(٢٤) .

وصل المندوب المصرى (محمد رفعت) إلى ساحل الخليج لكى يدرس أحوال الموانى الواقعة فى تلك المنطقة ويمهد الطريق أمام القوات المصرية للتحرك نحو البحرين فى الوقت المناسب. ثم انتقل إلى البحرين لمفاوضة أميرها (عبد الله بن أحمد آل خليفة) بطريقة ودية للانضواء بطريقة أو بأخرى تحت لواء الحكم المصرى.

وكان وصول المندوب المصرى " محمد رفعت " فى ٧ مايو سنة ١٨٣٩ إلى (خوية حسان) على ساحل قطر حيث كان أمير البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة فى انتظاره . وأرسل المندوب له قبطان السفينة يخطره بحضوره مندوبًا عن خورشيد باشا للمفاوضة ، فأرسل إليه أمير البحرين رسولاً لكى يرحب به ، ويدعوه إلى الإقامة فى القلعة التى يقيم فيها .

وكان الجو ملائمًا للمفاوضة ، فقد كان الأمير إذا ذاك حائرًا بين سلطتين أخريين تحيطان به وتتبادلان اجتذابه ومحاولة الاتفاق معه ؛ فشاه فارس (إيران) يدعوه إلى الانضمام إلى دولته ، ويتعهد له بحمايته من القوات المصرية التى وصلت إلى الخليج(٢٥) ، ومن جهة أخرى اتصلت الحكومة البريطانية به ودعته إلى التخلى عن الاتصال بالمصريين وأخذت تعرض عليه عروضًا مغريه(٢٦) . أضف إلى هذا وصول مندوب آخر يمثل والى العراق العثمانى يحذره باسم حكومة الباب العالى من الاستسلام لحكومة محمد على .

أما الإنجليز الذين كانوا يراقبون حركات القوات المصرية فى حذر وقلق ، فكلفت حكومة الهند البريطانية مندوبها فى (بوشر) بالاتصال بأمير البحرين ليحثه على عدم الاستسلام لخورشيد باشا لو فكر فى مهاجمته أو الاتفاق معه، وأن يعده بحماية بريطانيا له إذا هاجمه.ولفت نظره إلى أن" أى اتفاق بينه وبين المصريين يكون مخالفًا لما سبق الاتفاق عليه بينه وبين الحكومة البريطانية منذ سنين ".

والواقع أن أمير البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة كان فعلاً يطمع فى حماية الإنجليز له منذ أن استولت القوات المصرية على منطقة (الحسا) وأخذت

تهاجم قلعة (الدمام) لذلك أرسل إلى قنصل بريطانيا فى " بوشير " يخبره بأن " المصريين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من غزو البحرين . وأنهم يستطيعون بكل سهولة الاستيلاء عليها فى ليلة واحده " .وأضاف إلى ذلك قوله (فإن كان عندكم ما يعاوننا الآن ، فأرسلوا مقدارًا من الجند فى سفنكم ، وإن لم ترسلوا من يعاوننا فإننا مضطرون إلى الارتباط مع خورشيد باشا وفق قوانيننا وقواعدنا القديمة)(٢٦) .

ويظهر أن القنصل الإنجليزى لم يكن مخولاً بإعطاء جواب قاطع فى مسألة المساعدة العسكرية لأمير البحرين ، ولذلك رأى الأخير أن يستقبل المندوب المصرى محمد رفعت ويعقد معه اتفاقًا يصون به إمارته .

ومع أن أمير البحرين كان يخشى السيطرة المصرية على الجزيرة ، إلا أنه لم يجد بدًا من التسليم بالأمر الواقع ، فهو يسمع أخبارًا فيها كثير من المبالغة عن القوات النظامية المصرية المرابطة على ساحل الخليج ، وهو فى الوقت نفسه يخشى من ادعاء الفرس ملكية الجزيرة ، وقد تؤدى مساعدتهم له إلى فرض سيطرتهم عليها . ثم أن الإنجليز يتراخون فى مد يد المساعدة العسكرية ضد القوات المصرية.

لهذا كله قرر استقبال المندوب المصرى (محمد رفعت) ومفاوضته . وقد انصح للمندوب عما يجول بخاطره فى مبدأ الأمر ؛ عندما كانت الدعاية تصف القوات المصرية فى (نجد) بالوحشية ، وتصورهم غزاة همجا لاهم لهم غير السلب والنهب ، وأنه تحقق بعد ذلك من كذب تلك الإدعاءات . ولذلك فهو يرحب بالاتفاق مع حكومة محمد على على الرغم من تهديد الإنجليز والفرس . ثم أضاف إلى ذلك قوله " لقد رأينا تبعيتنا لكم مأمون العاقبة بسبب معاملتكم لغيرنا بالإنصاف ، ولا سيما أن المعجم على مذهب الشيعة الروافض ، والإنجليز على غير الملة الإسلامية "(٢٧) .

ولكنه قبل أن تبدأ المفاوضة طلب عهدًا يؤمنه فيه خورشيد باشا باسم حكومة مصر على إمارته أملاكه . وقد استصدر له المندوب المصرى من خورشيد باشا العهد الآتى نصه :

" من خورشيد باشا سر عسكر نجد إلى جناب المكرم عبد الله بن أحمد آل خليفة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، الذى تعرفك به أننا أعطيناك أمانًا من طرفنا أمان الله وأمان أفندينا محمد على باشا على أموالك وحلالك ورعيانك ، وأن يكون أمر البحرين فى يدك على الاتفاق والعهد الذى يصير بينك وبين محمد أفندى رفعت معاونتنا ووكيلنا ، ومن حيث أنه وكيل مفوض من طرفنا فى ربط الأمر معك ، فما اتفقت أنت وهو عليه وعاهدته عليه فهو ما عندنا ، وعلى هذا عهد وميثاق ، والله على ما نقول وكيل "(٢٨) .

وكان أمير البحرين فى الوقت نفسه يخشى الخضوع للنفوذ المصرى فى عهد محمد على ، ولكنه كان يسمع أخبارًا فيها كثير من المبالغة عن قوات خورشيد باشا المرابطة على ساحل الخليج . ولذلك عندما وصل المندوب المصرى محمد رفعت استقبله بالرحب والسعة ، وقبل أن يفتح باب المفاوضة معه عن طيب خاطر . " وبعد ذلك تمت المفاوضة ووقع الطرفان على الشروط الآتية :

أولاً : يكون أمير البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة خليفًا لمحمد على ويقدم كافة المساعدات التى يطلبها منه محمد على على قدر استطاعته .

ثانيًا : يدفع أمير البحرين سنويًا لحكومة محمد على زكاة البحرين وهى التى كان يدفعها من قبل لآل سعود .

ثالثًا : يستمر أمر البحرين فى يد الأمير وليس لأحد غيره أن يتسلط على رعاياه فى البحرين .

رابعًا : يقدم عبد الله بن أحمد أمير البحرين للمراكب والسفن لحكومة محمد على فى حالة تسيير جيوش مصرية إلى أى جهة من مناطق الخليج .

خامسًا : أن يسلم أمير البحرين إلى حكومة محمد على كل من يهرب إلى بلاده من (نجد) أو توابعها ، أو من أى بلد من البلاد التى دخلت تحت الحكم

المصرى ، فإذا طلب إليه تسليم أى شخص من هؤلاء فعليه أن يسلمه فى الحال أو تخليص ما عليه لمن كان هاربًا من دفع ما عليه من خراج أو ما شابه ذلك .

سادسًا : أن يقيم بالبحرين وكيل من طرف الحكومة المصرية يشرف على المصالح المصرية هناك .

سابعًا : ليس لأمير البحرين أن يأخذ عوائد من الغواصين الذين يصطادون اللؤلؤ من القطيف ، وله أن يأخذ من غواصى البحرين فقط(٢٩) .

وبعد أن تم الاتفاق ووقعه أمير البحرين ومحمد رفعت المندوب المصرى ، طلب الأمير أن تعفو حكومة مصر عن كبار النجديين الذين كانوا قد لجأوا إلى البحرين ، أمثال " عمر بن عفيصان " حاكم الحسا الموالى للسعوديين ، وغيره ممن فروا إليها أثناء العمليات الحربية التى قام بها خورشيد فى المنطقة الشرقية من نجد . وقد قبل خورشيد باشا شفاعة " عبد الله بن أحمد آل خليفة " فيهم ، وأرسل إليهم كتب الأمان . ورأى خورشيد أيضًا أن يظهر له حسن نية الحكومة المصرية نحوه ، ويؤكد له أنها لم ترغب فى زيادة الضريبة التى كان يدفعها لآل سعود ، ويزيل من ذهنه الخوف والرهبة من ناحية الإنجليز أو فارس أو " سيد سعيد بن سلطان " إمام مسقط وصديق بريطانيا ، فكتب إليه يقول : " جاء فى الاتفاق الذى تم بينكم وبين محمد أفندى أنكم ستدفعون ثلاثة آلاف ريال ، وهو المبلغ الذى كنتم تدفعونه لتركى بن سعود ، والذى نعرفكم به أن الدراهم إن قلت وإن كثرت فلم يكن لها عندنا حساب . والآن نحن لم نرد منكم زيادة عن الذى كان بينكم وبين (تركى) ولا مرامنا نأخذ منكم نقودًا خلاف ما يستوجبه الإصلاح وتمشية السبل والمساعدة على الأشغال ، ونكون نحن وأنتم على حال واحدة تجاه العجم والإنجليز ، فهم لا يتدخلون فى الأمر الذى نحن فيه . وأما من جهة سعيد بن سلطان إمام مسقط فإنه من سابق صديق لأفندينا ولى النعم ، وإذا بلغه اتفاقنا معكم فلا يحط يده ، وهذه الأمور لا تحملوا همها "(٣٠) .

والواقع أن خورشيد باشا قد غاب عنه أن الإنجليز قدماهم ذلك الوجود الخطير للقوات المصرية على الخليج ، واشتداد قلقهم عندما علموا باستسلام أمير البحرين فى اتفاقية تجعل لمصر السيطرة على تلك الجزيرة ، وتخالف ما سبق الاتفاق عليه بينه وبين الإنجليز بدفع أى خطر عربى أو غير عربى على الجزيرة . ولم يكن اهتمام الإنجليز بالبحرين قاصرًا بالنسبة لهم على أهميتها العسكرية والسياسية ، بل أهميتها الاقتصادية أيضًا لأن حكومة الهند البريطانية تهتم بتجارة اللؤلؤ(٣١) وبحركة الملاحة الإنجليزية فى تلك الجهات ، ومما أيد قلق الإنجليز من حركات القوات المصرية على شواطئ الخليج أن المصريين منذ أن وصلوا إلى تلك الجهات فى محاربتهم للدولة السعودية الثانية ١٨٣٨ - ١٨٣٩ أقامت حكومة مصر مندوبًا سياسيًا لها فى الكويت ، وكان أمير الكويت إذ ذاك هو الشيخ الصباح الذى كان على صلات طيبة بالحكومة البريطانية(٣٢) .

ثم ازداد جزعهم عندما علموا بتحركات أخرى يقوم بها ربيب محمد على (خالد بن سعود) الذى اصطفاه من بين أبناء سعود الصغار وأنشأه ، فى مصر منذ صغره على طاعته والولاء له ، ثم عينه أميرًا على نجد ونائبًا لسياسته ، وتركه يعمل ، تساعده بعض القوات المصرية ، على استعادة حدود الدولة السعودية القديمة . واعتقد الإنجليز أن "خالد بن سعود" ما هو إلا آلة فى يد محمد على يحركه كيف شاء ، ولذلك أخذوا يراقبون تحركاته وعلى الأخص عندما كلف خالد مساعده (سعد بن مطلق) بأن يعمل على الأراضى المجاورة لحدود (عمان) . ثم يبعث برسالة باسم خالد بن سعود يطالب إمام مسقط (سيد سعيد) بالمبلغ السنوى الذى كان يدفعه سنويًا من قبل لأجداده آل سعود(٣٣) .

ومن الواضح الذى تؤكده الوثائق أن حكومة القاهرة لم تكن على علم سابق بتلك الخطوة التى كانت سببًا فى زيادة قلق الإنجليز من جهة وإغضاب سلطان مسقط من جهة أخرى ، ولم يكن يخفى على محمد على مدى اهتمام الإنجليز بساحل عمان ، وما عقدوه من قبل مع (سيد سعيد) من اتفاقات ومعاهدات ، فما كادت شكوى الإمام تصل إلى محمد على من تحركات خالد بن سعود ومندوبه (سعد بن مطلق) حتى كتب إلى أحمد باشا يكتب محافظ مكة وحاكم الحجاز أن " يكتب إلى خالد بك بعدم المضى فى كسر خاطر الإمام "نظرًا لما بينهما من المودة والحقوق " . وأن يكتب إلى إمام مسقط قائلاً له " إن الخطاب الذى أرسله خالد يحمل على صغر سنه ، وأنه كتب إليه بالكف عن ذلك "(٣٤).

وكان فى ذلك ترضيه كافية لسلطان مسقط . أما حكومة الهند البريطانية التى كانت تراقب حركات القوات المصرية على الخليج ، فقد كان لها شأن آخر فمنذ تواجدت تلك القوات على سواحل الحسا والقطيف ، وأصبحت المخابرات تجرى بين حكومة الهند وقنصلها المقيم بإحدى جزر الخليج ، وقنصل بريطانيا بالقاهرة (الكولونيل كامبل) و (اللورد بلمرستون) وزير الخارجية البريطانية لاتخاذ الإجراءات الحاسمة لوقف الزحف المصرى على سواحل الخليج الفارسى . وكان اللورد بلمرستون يفضل أن تظل الطرق الموصلة إلى الهند تحت السيادة العثمانية الضعيفة لا أن تقع فى يد القوات المصرية . أما وقد تزحزت تركيا عن تلك المناطق ، وتحطمت قواها تحت ضربات القوات المصرية فى الشام والأناضول، فإن انتشار الجيوش المصرية النظامية فى الجزيرة العربية ، وتحكمها فى شواطئ الخليج وشواطئ البحر الأحمر يؤدى إلى تدمير المصالح البريطانية فى تلك المناطق الحساسة . ولا يسع الحكومة البريطانية أن تترك أمبراطورية مصرية عربية واسعة تمتد من جبال طوروس إلى أقاصى السودان ، وتتحكم فى الطريقين الهامين الموصلين إلى الهند .

وقد بدأ التدخل الإنجليزى يأخذ طابع التهديد منذ نوفمبر ١٨٣٨ عندما كلف اللورد بلمرستون " الكولونيل كامبل " الممثل البريطانى فى مصر بأن يستفسر من محمد على رسميًا عن مدى تفكيره فى مد سلطانه فى مناطق الخليج الفارسى " . وقام " كامبل " بمهمته ، ثم أرسل إلى بالمرستون ينبئه أن الباشا قد أكد له أن ليس لديه أى تفكير فى مد سلطانه على الخليج وأن ليس لديه أى نية لاتيان أى عمل يتعارض مع المصالح البريطانية . والواقع أن هذا الجواب كان ردًا دبلوماسيا ولا يمثل الحقيقة ، فقد كانت تحركات القوات المصرية فى الحسا والقطيف والاتصالات الدائرة بين قائد هذه القوات خورشيد باشا وأمير البحرين تبين بوضوح أن النية كانت متجهة إلى السيطرة على البحرين . وقد تأكدت هذه النية من تقارير ممثلى الهند البريطانية ، بل وانتشرت الإشاعات التى بلغت أسماع الحكومة البريطانية فى تقرير أرسله اللورد بونسنبى سفيرها فى الآستانة يقول فيه إن تقدم القوات المصرية فى الخليج يهدد ولاية بغداد ذاتها ، لأن ظروف تلك الولاية تساعد على الاستيلاء عليها بسهولة ، حيث يستطيع محمد على تحقيق حلمه فى نهرى دجلة والفرات والخليج الفارسى ، مما يؤثر تأثيرًا مباشرًا على المصالح البريطانية فى الهند ، وهو " يخفى أطماعه فى ولاية العراق فى الوقت الحاضر ، ولذلك تتجه قواته نحو الجنوب فى نجد . وقد استطاع أن يفرق بين السعوديين لتسود قوته فى الجزيرة العربية بتعيينه أحد أمرائهم - خالد بن سعود - من قبله حاكمًا على نجد " .

لذلك كله رأى بلمرستون أن يبدأ بإنذار محمد على ، فكتب إلى كامبل يكلفه بمقابلته ويخبره " إن الأنباء التى تلقتها حكومة جلالة الملكة من بغداد تقول أن القوات المصرية على وشك تجاوز الجزيرة العربية من الحسا والقطيف بقصد الاستيلاء على جزيرة البحرين الواقعة على الخليج الفارسى ، إنى أطلب منك أن تسأل محمد على إن كان هذا صحيحًا ، وأن حكومة جلالة المملكة ترجو بل وتعتقد أنه لاعتبارات قوية يجب أن يبعد الباشا عن ذهنه أى اتجاه نحو تدعيم نفوذه

فى الخليج الفارسى لأن هذه الخطة من جانبه - كما سبق لك أن بينت له - لن تنظر إليها الحكومة البريطانية بعدم المبالاة"(٣٥) .

وفى الوقت نفسه قام الكابتن هنل القنصل الإنجليزى المقيم فى الخليج من جزيرة " خارك " ميمما شطر جزيرة البحرين (٥ يونيو ١٨٣٩) حيث اجتمع بالأمير عبد الله آل خليفة ، وسأله عن الأسباب التى جعلته يتعاقد مع المندوب المصرى محمد رفعت ويقبل السيادة المصرية ، ويدفع الإتاوة السنوية لمصر . فأجاب أمير البحرين بأنه تعاقد مع حكومة محمد على لأسباب ثلاثة هى :

١ - لقد تم استيلاء المصريين على الساحل العربى للخليج الفارسى المواجه لجزيرة البحرين وأنه لا غنى له عن ذلك الساحل .

٢ - ليست له مقدرة على عدائهم ولا الوقوف فى وجوههم .

٣ - لم يفهم المصريون بأى عمل يضر بمصالح البلاد التى حكموها . ثم أضاف قائلاً للكابتن هنل " إن صرتم اصدقاء للمصريين فأنا تابع لهم وصديق لكم ، وأن صارت بينكم وبينهم عداوة فأنتم وهم ملوك "(٣٦) .

فأخذ المندوب الإنجليزى يشجعه على فسخ الاتفاق مع حكومة مصر ، ووعده بأن يرسل إليه بعض الجنود البريطانيين يقيمون فى قلعة البحرين للمحافظة عليها ، ويضع سفينتين حربيتين أمام البحرين لحمايتها ، وأن " يمنحه الحماية من طرف الحاكم العام فى الهند ، وإلا يجبى منه زكاة ولا جمركا وأن تبقى حكومة البحرين كما هى بيد آل خليفة "(٣٧) .

ولما كان أمير البحرين قد سبق له أن طلب حماية الإنجليز ضد هجوم القوات المصرية ، فقد ظن " هنل " أن باستطاعته أن يقنعه بقبول تلك الحماية . ولكن عبد الله آل خليفة رفضها هذه المرة قائلاً " إنى وأن كنت طلبت منكم الحماية من قبل ، ولكنى لم أقل إنى أكون من جملة رعايا الإنجليز . وثانيا كان طلبى الحماية

من خوفى من عسكر محمد على باشا ، أما اليوم فقد تصالحنا و لله الحمد مع خورشيد باشا وربطنا الصلح بشروط وأننا منذ القديم مشتركون مع أهل نجد جيراننا فى التجارة فلا يمكن أيضا أن نفترق عن مالنا وملكنا "(٣٨) .

ولم يجد الكابتن " هنل " بدا من لغة التهديد وحذره من التمادى فى سياسة الاستسلام للمصريين ، وأنه سوف يبلغ رده غير المرضى إلى الحاكم العام فى الهند، ثم سلمه إنذارًا مكتوبًا ، جاء فيه أن اتفاقه مع المصريين " مخالف للقرار الكائن بين عبد الله بن أحمد وبين حضرة السركار من سنين مضت ، وأن ذلك مخالف أيضًا للكتاب الصادر من طرف سعادة محمد على باشا إلى أو منه إلى الحكومة الإنجليزية بأن عساكره لا تتعدى على بلاد العرب المتصله بالخليج الفارسى "(٣٩) .

وهكذا كانت السلطات البريطانية تعمل بكل ما وسعها من الجهد لمنع أمير البحرين من الرضوخ لمطالب خورشيد ، ومنع امتداد السيطرة المصرية على البحرين . وكان على رسولهم الكابتن هنل أن يمارس الضغط عليه لمنع الكارثة ، ولا سيما أن خورشيد لن تصل إليه تعليمات محمد على بشأن البحرين بعد الانذار الإنجليزى ، وفى وقت مناسب . ولذلك فضل " هنل " أن ترسل إلى خورشيد صورة الاحتجاج الذى أرسله "بلمرستون" إلى محمد على فى نوفمبر ١٨٣٩(٤٠).

وازداد نشاط الإنجليز فى الخليج لمراقبة القوات المصرية ، فإلى جانب المهمة التى كلف بها " هنل " ، أرسلت حكومة الهند البريطانية أحد القواد العظام وهو " سير فلاردريك ميتلاند Maitland " لإجراء اتصالات مكثفة مع مشايخ الخليج ، بمساعدة المقيم البريطانى المساعد هناك ، حيث رست سفينته الحربية خارج ميناء (المنامة) ، وجاء على ظهر السفينة اثنان من أبناء أمير البحرين وأخبراه أن والدهم متغيب فى قطر . وفى ٢٣ إبريل سنه ١٨٣٩ جاءه الشيخ " سلطان بن شخبوط " أخو حاكم أبو ظبى وأكد له الصداقة الوطيدة التى تربط بين البحرين وأبو ظبى . ثم شرع القائد الإنجليزى ميتلاند يتجول بسفينته على ساحل مشيخات الخليج

حتى تلك المشيخات التى اشتهرت عند الإنجليز بأنها أوكار القرصنة ، كالشارقة ورأس الخيمة . وأخبره شيخ القواسم " سلطان بن صقر " عندما قابله فى رأس الخيمة بأنه قلق على مصيره ، وأن عرب الخليج وحلفهم لا يستطيعون وقف الزحف المصرى الذى يتولاه القائد خورشيد باشا ، وأنهم يتطلعون نحو بريطانيا لتحميهم . وأجابه " ميتلاند " أن وزير الخارجية البريطانية (بلمرستون) قد أنذر محمد على بأن يرفع يده عن الخليج . ثم أردف يقول لسلطان بن صقر أن باستطاعة قبائل القواسم البحرية مقاومة خورشيد باشا إذا وجهوا جهودهم ضد القوات المصرية . ولكن " سلطان بن صقر " أوضح للقائد الإنجليزى أنه يشك فى إمكان تحقيق هذا الاتحاد إلا أذا انضمت إليهم قوات بريطانيه .

ومن جهة أخرى واصل الكابتن " هنل " مهمته فى تتبع تقدم القوات المصرية فى مناطق الخليج وتحرى ما كان يسمع عنه من وجود عدد من " عملاء " المصريين - كما كان يسميهم - ونشاطهم فى الساحل العربى من الخليج . فأرسل مبعوثين من قبله إلى الكويت ، والبصرة ، والشارقة ورأس الخيمة ، وقد تعمد أن يحمل رسوله (كليف Clive) خطابًا منه موجهًا إلى خورشيد باشا لتسليمه إلى أمير الكويت (جابر عبد الله) راجيًا منه إرساله إلى خورشيد . وقد تعمد "هنل" أن يرسل ذلك الخطاب مفتوحًا ليطلع عليه أمير الكويت ويدرك من خلاله أن الحكومة البريطانية ماضية فى منع خورشيد باشا من التقدم بعد الحسا(٤١) نحو إمارات الخليج ، وفى الوقت نفسه أعطيت الأوامر لجميع السفن الحربية التى كانت تنتشر فى مياه الخليج بأن تكون على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يصل إليها من تعليمات .

وانزعجت الحكومة البريطانية مما وصل إليها من أنباء ، وأرسل (بلمرستون) يستوضح الأمر من (كامبل Campell) قنصل بريطانيا فى مصر ، وأن عليه أن ينذر محمد على بأن الحكومة البريطانية لا تسمح أبدًا بتأسيس قوة بحرية أو حربية على سواحل الخليج الفارسى ، وأنه لو دأب على المضى فى مثل هذه المشروعات فإن بريطانيا سوف تجرده من أى موقع يحاول إقامته على الخليج "(٤٢) .

ولم تكن إنجلترا فى ذلك الوقت تراقب تقدم القوات المصرية فى مناطق الخليج فحسب ، بل إنهم كانوا يتابعون تحركات جيشين مصريين آخرين : أحدهما كان يعمل فى منطقة (عسير) وسواحل البحر الأحمر بقيادة أحمد باشا يكن ، والثانى - وهو الأخطر - قد نجح فى اكتساح اليمن بقيادة إبراهيم باشا يكن الذى اتخذ من مدينة تعز اليمنية قاعدة له ، ومن هناك بدأت المفاوضات مع أمام اليمن " عبد الله الناصر " للانضواء تحت لواء الحكم المصرى ، فى الوقت الذى كانت القوات تحت الجنوب العربى مما عجل باحتلال الإنجليز لميناء عدن فى يناير سنة ١٨٣٩(٤٣) .

واتهالت الانذارات البريطانية على " خورشيد باشا " مهددة باستعمال القوة ضد القوات المصرية . وتلقى محمد على عدة أنذارات من الحكومة البريطانية تنص على وجوب الانسحاب الكامل للقوات المصرية من مناطق الخليج . واعتقد الإنجليز أنهم إنما يسابقون الزمن لطرد تلك القوات ، فقد وصلتهم أنباء هزيمة الجيوش التركية أمام زحف قوات " إبراهيم باشا " نحو الآستانة ، وإبحار الأسطول التركى إلى الإسكندرية وإعلان استسلامه لحكومة محمد على . وأن تلك الأنباء تسربت إلى المشايخ من حكام إمارات الخليج . وفى الوقت نفسه كان المقيم الإنجليزى فى (الشارقة) قد استولى على خطابات أرسلها " خورشيد باشا " إلى (سلطان بن صقر) شيخ رأس الخيمة تفيد بأن خورشيد أرسل إلى (الشارقة) رسولاً من قبله اسمه (سعد بن مطلق) للدعاية والعمل على بسط النفوذ المصرى على منطقة الساحل الذى يسميه الإنجليز (ساحل القواسنة) . وأن سفينة مصرية محملة بالذخائر وصلت إلى (القطيف) لتسليمها إلى خورشيد باشا(٤٤) .

* * *

وفى يونيه ١٨٣٩ تغير الموقف فى الخليج رأسًا على عقب ، وانهارت آمال خورشيد باشا فى إتمام مشروعاته فى الخليج ، ومشروعه فى محاولة غزو العراق(٤٥) نتيجة الإنذارات الشديدة اللهجة التى تلقاها محمد على " من الحكومة

البريطانية . ثم تأزمت الأمور ، وتطور الصراع بين محمد على والسلطان إلى أزمة دولية كبرى بعد اندحار الجيش التركى أمام القوات المصرية فى معركة " نزيب " وتدفق القوات المصرية فى طريقها إلى الآستانة . وأدرك محمد على أنه قادم على حرب خطيرة تتحالف عليه فيها خمس دول أوربية كبرى ، وأدرك أنه مضطر لسحب قواته لا من الخليج فحسب ، بل من سائر الأنحاء التى سيطر عليها فى الجزيرة العربية كلها . فكتب إلى قائده خورشيد يقول ردًا على رسائله الحماسية : " إن الوقت ليس وقت المصلحة التى تصورها وأمل فيها ، وأن أساس مهمته فى الوقت الحاضر أن يهيئ السبيل لسحب قواته ، تاركًا البلاد لخالد بن سعود ، بشرط أن يترك له عددًا من الجند يكفونه ، ثم بعد ذلك يتوجه بقواته إلى مصر ، ويغلق باب المصروفات التى فتحت لمشروعاته "(٤٦) .

الهوامـــش

(١) من محمد على إلى أحمد باشا يكن : دار الوثائق القومية ، دفتر رقم ١٠ وثيقة ٨٤ غرة ربيع الثانى ١٢٣٧هـ .

(٢) من إبراهيم إلى محمد على : دار الوثائق محفظه رقم ٥ وثيقة ٩٤ ، ٢٩ رمضان ١٢٣٣هـ .

(3) Dodwell : The Founder of Modern Egypt . p. 56
(4) Perrin, N. : Relation de le Campagne d' Ibrahim Pasha contre les Wahhabis en 1819, p. 28
(5) IBID
(6) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt. p. 58
(7) D' Avril : L'Arabie Contemporaine. p. 35
(8) Kelly, J. B. : Britain and the Persian Gulf. p 143

(٩) الوثائق القومية : من محمد على إلى أمين جمرك حده . دفتر ٧ وثيقة رقم ١٧٥ معيه تركى .

(10) Sadlier Instructions, April 13, 1819.

(١١) الوثائق القومية : من إبراهيم إلى محمد على . محفظه ٦ بحر برًا وثيقة رقم ٩٥ جمادى الثانية ١٢٣٥

(١٢) من محمد على إلى إبراهيم : ملحق بالوثيقة السابقة .

(١٣) من محمد على إلى خورشيد باشا : محفظه ٢٦١ عابدين وثيقة رقم ٣٥٠ (١٤ رجب ١٢٥٣)

(١٤) من خورشيد إلى محمد على : محفظه ٢٦٤ عابدين وثيقة ٢٠٨

(١٥) من خورشيد إلى محمد على : وثيقة رقم ٣٨ محفظه ٣١ عابدين .

(١٦) فى عام ١٨٣٩ أرسل بريطانيا فى حده إلى حكومته إحصائية عن الجنود المصريين النظاميين الموجودين فى المنطقة الشرقية والخليج تحت قيادة خورشيد باشا وكذلك من كانوا تحت امرة أحمد باشا يكن حيث قدر عددهم بتسعة وعشرين الفًا .

(١٧) محفظ ٢٦٤ عابدين وثيقة ٦٤ (٦ شوال ١٢٥٤) .

(١٨) تقرير خورشيد باشا للقاهرة : محفظة ٢٦٤ وثيقة رقم ٢٦٠ (٢٢ ربيع الأول ١٢٥٤) .

(١٩) من خورشيد إلى محمد على : محفظة ٢٦٤ وثيقة رقم ٢٥ - ٥٥ (٢٣ رجب ١٢٥٤) .

(٢٠) من خورشيد إلى محمد على : محفظة ٢٦٧ مرفق بالوثيقة ٧ .

(21) F. O : 78L343 Palmerston to Campbell 29 No 1838

(٢٢) الوثائق القومية من محمد رفعت إلى خورشيد باشا : مرفق بالوثيقة ١٦٤ محفظة ٢٦٧ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة ١٢٥٤

(٢٣) البند السادس من تقرير محمد رفعت المرفق بالوثيقة ٧ بالمحفظة السابقة (٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٤) .

(٢٤) من محمد على إلى خورشيد باشا : محفظة ٢٦٧ عابدين مرفق بالوثيقة ٥٠٤

(٢٥) البند الثانى تقرير محمد رفعت إلى خورشيد : محفظة ٢٦٨ (٥ صفر ١٢٥٥) .

انظر أيضًا :

INDIA OFFICE : Persia and Persian Gulf vol. 64 Hennel to Sec. Committee, 24 Jan - 17 Feb., 1839

(٢٦) من خورشيد إلى محمد على : محفظة ٢٦٧ عابدين وثيقة رقم ٤٠ (٣ شعبان ١٢٥٥) .

(٢٧) البند الرابع من تقرير محمد رفعت إلى خورشيد . مرفق بمحفظة ٢٦٧ وثيقة ٣٧

(٢٨) التقرير السابق .

(٢٩) تقرير محمد رفعت وثيقة مرفقة بالوثيقة رقم ٣٧ محفظة ٢٦٧ عابدين أول رجب ١٢٥٥ (الوثائق القومية) .

(٣٠) من خورشيد إلى عبد الله بن أحمد آل خليفة : وثيقة ملحقة بالوثيقة رقم ٣٧ محفظة ٢٦٧ عابدين .

(31) KATTAWI : Les Archives Russes , Tome I .
(32) Wilson : The Persian Gulf.

(٣٣) من الإمام سيد سعيد بن سلطان إلى محمد على : محفظة ٢٦٦ عابدين وثيقة رقم ٤٣ بتاريخ ١٤ جمادى الأول ١٢٥٤

(٣٤) من محمد على إلى أحمد يكن : إفادة رقم ٢٥ ملحقة بالوثيقة السابقة.

(35) F. O. 78L306. Ponsonby To Palmerston, 30 Oct. 1837.
F. O. 78L343 Palmerston to Campbell, 29 Nov., 1839.

(٣٦) من محمد رفعت إلى خورشيد : ملحق بالوثيقة ٣٧ محفظة ٢٦٧ (رجب ١٢٥٥) .

(٣٧) من خورشيد إلى محمد علي : محفظ وثيقة رقم ٣٩ (٣ شعبان ١٢٥٥) .

(٣٨) من خورشيد إلى محمد علي : الوثيقة السابقة .

(٣٩) من محمد رفعت إلى خورشيد : ملحق بالوثيقة ٣٧ محفظة ٢٦٧ عابدين .

(40) I. O. Hennel to Willoughby, 10 April 1839 (No. 22). Enclosing Hennel to Khourshid Pasha, same date.

(41) I. O. Hennel to Willoughby, 29 April (No 37. 41) enclasing Hennel To Khurshid Pasha, 20 April 1939.

(42) F. O. 78L372 Palmerston to Campell, 15 June 1837.

(٤٣) لزيادة التفاصيل اقرأ كتاب (من تاريخ اليمن الحديث) للمؤلف وقد نشره معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ .

(44) India OFFice, Letter 5 of 31 January 1840.

(٤٥) اقرأ بحث " محمد علي ومشروع غزو العراق " بحث للمؤلف نشرته مجلة كلية الآداب بالجامعة الأردنية المجلد الأول يناير ١٩٦٩ .

(٤٦) إرادة رقم ٢٧ من محمد علي إلى خورشيد تاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ محفظه ٢٦٧ عابدين .

محمد علي والخليج العربي

١٨٣٨ - ١٨٤٠

أ.د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي*

تتناول هذه الدراسة آمال محمد علي وتطلعاته في الوصول إلى منطقة الخليج استكمالاً لتحقيق هدفه في السيطرة على الجزيرة العربية كلها ، ثم ما كان من موقف الحكومة البريطانية غير المودي من هذه الآمال والتطلعات .

ذلك أنه حدث بعد وصول قوات خورشيد باشا - سر عسكر نجد والمفوض من قبل محمد علي - إلى الإحساء والقطيف أن بدا والي مصر يتطلع إلى ضم البحرين وجعلها تابعة للسيادة المصرية ، خاصة وأن بها ميناءًا صالحًا للملاحة على الخليج يمكن أن يساعد في تحرك قواته بالسرعة اللازمة في هذه المنطقة .

وكان أن كلف محمد علي خورشيد باشا بالإعداد لذلك الأمر . وبعد أن درس خورشيد باشا الطرق المتعددة لتنفيذ أوامر سيده ، رأى أن الطريقة المثلى لذلك هي التفاوض مع شيخ البحرين عبد الله بن حمد آل خليفة . ومن هنا شرع في تكليف معاونة محمد رفعت لكي يكون وكيلاً مفوضًا من طرفه لهذا الغرض(١) .

وتبعًا لذلك قام محمد رفعت بزيارة سريعة إلى البحرين في ١٥ فبراير ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) للوقوف على أمورها وكتابة تقرير عنها . وفي هذا التقرير أوضح محمد رفعت الضرورة الحيوية لضم البحرين إلى حكومة محمد علي(٢) خاصة لما تتمتع به من رواج اقتصادي يتوقف عليه استقرار الأمور في الإحساء والقطيف(٣).

وإلى جانب ذلك أرسل شيخ البحرين رسالة إلى خورشيد باشا يطلب منه المساعدة ضد أبناء أسرته الثائرين عليه ، وقد رد عليه خورشيد بأن دخوله في

(*) أستاذ التاريخ الحديث ووكيل كلية التربية - جامعة القاهرة فرع الفيوم .

طاعة محمد علي سيساعده على إزالة الخطر الذى يهدده ، وأن هدفه ليس جمع المال منه بل أن كل ما يهمه هو تأمين الطرق والوقوف صفًا واحدًا معه ضد الفرس والإنجليز الطامعين فى بلاده ، كما ذكر له أنه سيرسل إليه محمد رفعت نائبًا عنه للإتفاق معه على ما يمكن التوصل إليه من أمور(٤) .

وبعد أن وصل محمد رفعت إلى البحرين للتفاوض مع شيخها ، وجد أن أفكاره قد تغيرت تجاه تعاونه معه ، نظرًا لمعارضة حكومة بغداد والإنجليز لأى إتفاق يعقده شيخ البحرين مع مندوبى محمد على .

وبعد جهود مضنية نجح محمد رفعت فى اقناع شيخ البحرين بتوقيع اتفاق فى مايو ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) يقضى بأن يكون شيخ البحرين حليفًا لمحمد على ، على أن يقدم له كافة المساعدات التى يطلبها كلما لزم الأمر ، وأن يقوم بدفع مبلغ ٢٢٠٠ ريال فرانسة(٥) كزكاة سنويًا(٦) مقابل أن تتعهد الحكومة المصرية بتأمينه على إمارته وأمواله وأملاكه ومساعدته ضد أعدائه(٧) .

ومن الملاحظ أن مصطلح زكاة الذى استخدم لوصف المبلغ الذى تقرر أن تدفعه البحرين لمصر يختلف عن مصطلح الجزية أو الضريبة . والزكاة عادة لاتجبى إلا من المسلمين ، ولا تصرف أموالها إلا فى شئون الدولة الإسلامية ، مما يدل على أن العلاقة بين الطرفين قامت على أساس الرضا المتبادل ، المنطلق أساسًا من روح الإسلام ، وتعاليمه ، أكثر من كونها تبعية سياسية أو فرض هيمنة(٨) وإلى جانب ذلك فإن المبلغ الذى أتفق عليه مع مندوب محمد على كان يفوق كثيرًا ما تفرضه الدول الأخرى التى تتطلع لفرض هيمنتها على البحرين مثل فارس ، مما يعنى أن الهدف من هذه المعاهدة كان تبادل المصالح المشتركة أكثر من كونه معاهدة حماية.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن الوثائق توضح لنا أن هذه الإتفاقية لم تستمر طويلاً و لم تنفذ بنودها(٩) خاصة وأن الحكومة الإنجليزية كانت ترى فى التوسع

المصرى على حساب المشيخات أو الإمارات الصغيرة فى الخليج خطرًا يهدد مصالحها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ومن هنا عملت بريطانيا على مواجهة مشروعات محمد على فى منطقة الخليج عن طريقين هما .

١ - التهديد والوعيد :

حيث أمرت الحكومة الإنجليزية القائد العام لأساطيل بريطانيا فى الشرق بالتوجه لمنطقة الخليج لإيقاف النفوذ المصرى هناك ، وتركت له مطلق الحرية لتحديد الحالات التى يمكنه أن يستخدم فيها القوة ، ومن بينها حالة إنزال قوات مصرية إلى البحرين(١٠) . وإلى جانب ذلك أرسلت إلى محمد على تحذره بأنه فى حالة محاولته السيطرة على البحرين أو مد سلطانه على الخليج فإن الحكومة البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدى بل ستمنع هذه المحاولة بكل الوسائل .

٢ - الوسائل الدبلوماسية :

حيث حاولت بريطانيا اقناع عبد الله بن أحمد آل خليفة بإلغاء هذا الاتفاق، لأنها لا ترضى به بأى حال من الأحوال ، حيث أنه يخالف ما بينهما من ارتباطات، كما حرضته على عدم الاستسلام لطلبات مندوبى محمد على ، ووعدته بالحماية فى حالة العدوان عليه(١١) ، وأنها لن تأخذ منه أموالاً ، ولا تفرض عليه حصارك لمدة ٢٥ سنة(١٢) .

ولما كان شيخ البحرين يعنيه تأمين سلطته ضد منافسيه والطامعين فى إمارته قبل أى شئ آخر ، فقد تراجع عن إتفاقه مع حاكم مصر ، وفضل الإعتماد على الإنجليز ، مما أضعف موقف محمد على الذى كان يخشى غضب إنجلترا وتحذيراتها له ، وجعله يصدر أوامر إلى خورشيد باشا بالكف عن التدخل فى شئون البحرين.

وعلى الرغم من ذلك فإن الوثائق توضح لنا مدى القلق الذى كان ينتاب الحومة الإنجليزية نتيجة محاولات محمد على الأخرى فى بسط نفوذه على الخليج

بادعائه أحقيته في أن يرث النفوذ السعودي في المناطق التي كان يمتد إليها هذا النفوذ قبل سقوط الدولة السعودية الأولى ، وفي استخدامه للحكام المحليين من أبناء الأسرة السعودية ، خاصة بعد المحاولات التي قام بها خالد بن سعود الذي عينه محمد علي أميرًا على نجد ، والذي نجح في التوغل تجاه اليمن وإمارات الساحل العماني ، حتى أنه طالب إمام مسقط بالجزية التي كان يدفعها من قبل لآل سعود(١٣) هذا إلى جانب ترحيب بعض مشيخات وإمارات الخليج كالشارقة ورأس الخيمة وأبو ظبي والكويت بمبعوثي محمد علي إليهم بصفته حاكمًا مسلمًا أخذ بأساليب الحضارة الحديثة ، وبصفته أيضًا وريث الدولة السعودية(١٤) .

ونتيجة لذلك حاول الإنجليز احتواء الموقف بعرقلة جهود محمد علي في منطقة الساحل العماني ، فاتصلوا بالقوى المحلية في المنطقة لإقامة تحالف ضد تدخل خورشيد باشا ، وطالبوهم بالمحافظة على استقلالهم ، ووعدوهم بالأسلحة والذخائر ، كما طالبوهم بعدم إقامة أي علاقات ودية مع مندوبي محمد علي ورفض مطالبه(١٥) وإلى جانب ذلك فقد طلب المقيم البريطاني في الخليج المستر "هينل" HENNEL من سعيد بن سلطان المطيري مندوب محمد علي في هذه المنطقة ضرورة مغادرتها فورًا(١٦) .

ونتيجة للتهديدات الواضحة لأي محاولة توسعية لمحمد علي في الخليج ، ونظرًا لأن محمد علي لم تكن لديه إمكانات للوقوف أمام هذا التحدي السافر ، خاصة أنه لم يكن يمتلك القوى البحرية اللازمة والقادرة على مواجهة سيدة البحار في ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى رغبته في ارضاء إنجلترا التي كان يحتاج إلى مؤازرتها خلال مشروعاته التوسعية في أملاك الدولة العثمانية بالشام . كل ذلك أدى إلى توقف النفوذ المصري تجاه الخليج العربي وإن بقيت تطلعات محمد علي تجاه دجلة والفرات والكويت قائمة ، خاصة وأن خورشيد باشا كان قد أرسل

مندوبًا من طرفه لشيخ الكويت ، وأن شيخ الكويت أبدى استعداده للتعاون مع هذا المندوب ، كما مد يد العون لخورشيد باشا(١٧) ولكن الإنجليز أفسدوا هذه المحاولة بالضغط على شيخ الكويت حتى تراجع عن موقفه الودي تجاه خطط محمد علي .

وبالنسبة لمحاولات محمد علي غزو العراق لإبعاد النفوذ العثماني هناك ، فقد وقفت لها بريطانيا بالمرصاد نظرًا لتأثيرها المباشر على مصالحها في الهند(١٨) ، حيث بدأت التحذيرات تتوالى على محمد علي محذرة إياه بأنها لن تقف مكتوفة الأيدي إذا تجاوز حدوده وأقدم على غزو العراق ، كما أرسلت الحكومة البريطانية بعض قواتها إلى البصرة حتى يكون تواجدها في تلك المناطق عائقًا أمام تحركات محمد علي .

* * *

وهكذا نظرت إنجلترا إلى تحركات محمد علي في الخليج نظرة الشك والإرتياب ولم يتزعزع موقفها في إقامة العوائق أمام تحركاته خشية أن يأتي وقت يتحكم فيه محمد علي في الساحل الغربي للخليج ، فيضر ذلك بمشروعاتها التي تخطط لها هناك ، وبسيادتها على مياه الخليج .

واستمرت مخاوف الإنجليز تجاه أطماع محمد علي في الخليج قائمة حتى تطور الخلاف بين محمد علي والسلطان العثماني إلى درجة الصدام ، حتى حدثت موقعة نزيب التي إندحر فيها الجيش العثماني أمام القوات المصرية فانتهى الموقف بأن سحب محمد علي قواته من الجزيرة العربية تنفيذًا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ .

وبذلك انتهى نفوذ محمد علي في الجزيرة العربية تمامًا ، وتخلى عن مشروعاته في شرق الجزيرة العربية .

الهوامش والمصادر

١ - انظر دار الوثائق القومية محافظ عابدين محفظة ٢٦٧ المرفق العربى للوثيقة ١٣٧ حمراء تحت عنوان "جرنال" متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها .

(2) KELLY, JB : BRITAIN & THE PERSIAN GULF 1795 1880, OXFORD 1968, P. 305.

٣ - دار الوثائق : محافظ عابدين ، محفظة ٢٦٧ وثيقة رقم (٧) بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥هـ

٤ - عبد الرحيم عبد الرحمن : محمد على وشبه الجزيرة العربية ج٢ ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص٣٢٦ - ٣٢٧

٥ - عملة أجنبية أكثرها يساوى عشرين قرشًا مصريًا .

٦ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٧ صورة المرفق العربى للوثيقة ١٣٧ حمراء .

٧ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٧ مرفق الوثيقة ١٣٧ من خورشيد باشا إلى شيخ البحرين .

٨ - عبد الفتاح أبو عليه : الدولة السعودية الثانية ، الرياض ، مؤسسة الأنوار ، ١٩٨٠ ص٥٨

٩ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٧ عابدين ، وثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ

١٠ - صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٧٤ ص١٣٧

١١ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٧ وثيقة رقم ٤٠ أصلية من خورشيد باشا إلى محمد على بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ .

١٢ - دار الوثائق : محفظة رقم ٢٦٧ وثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ

١٣ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٦ عابدين ، وثيقة رقم ١٨١/٤٣ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ

١٤ - صلاح العقاد : مرجع سابق ص١٣٨

(15) KELL, J.B: EASTERN ARABIAN FRONTIERS, LONDON, 1964, P3/3

١٦ - عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ص٣٥٦ - ٣٥٧ والجدير بالذكر أن سعد بن مطلق له سابق خبرة بهذه المنطقة حيث تولى إمارة البريمى فى عهد فيصل بن تركى المؤسس الحقيقى للدولة السعودية الثانية .

١٧ - ج . ج لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخى الدوحة ، الديوان الأميرى ج٣ ص١٥١٤

١٨ - دار الوثائق : محفظة ٢٦٧ عابدين ، وثيقة رقم (٢) بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٥هـ

دور بريطانيا فى التنافس الاستعمارى

فى الخليج العربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

أ. د عبد الله عبد الرازق أحمد*

مقـــدمة :

تأثر تاريخ الخليج العربى فى القرن التاسع عشر بتلك الموجة الاستعمارية التى أخذت تتكالب على المنطقة والتى بلغت ذروتها فى الربع الأخير من هذا القرن . وكانت بريطانيا صاحبة الإمبراطورية الواسعة فى الهند هى القوة الأوربية التى أنفردت بنصيب الأسد فى هذا التكالب المحموم من أجل السيطرة وبسط النفوذ والتحكم فى طرق المواصلات العالمية .

وكان أول اتصال للإنجليز بالخليج العربى فى عام ١٥٨١ حين قام الربان الإنجليزى جون روبرت نيوبرى برحلته من حلب إلى البصرة بالطريق البرى . ومن البصرة وصل إلى الخليج ، وأبحر إلى جزيرة هرمز التى كان يحتلها البرتغاليون . ثم انتقل إلى بندر عباس وأجتاز أراضى إيران إلى إستانبول . وأخيرًا عاد إلى إنجلترا عن طريق روما وبولونيا بعد أن استغرقت تلك الرحلة حوالى عامين .

وبعد أن انتصرت بريطانيا على أسبانيا فى حرب الأرمادا عام ١٥٨٨ ازداد اهتمامها بالشرق بصفة عامة وبالهند بصفة خاصة ، لا سيما بعد افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح أمام سفنها ، فازدادت أطماعها عندما نجح أحد جواسيسها فى السطو على جدول خاص بتجارة الشرق ، ومن هذا الجدول أمكن معرفة الأرباح التى كان البرتغاليون يحصلون عليها من المتاجرة مع الشرق .

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

وبعد طرد البرتغاليين من هرمز ومن عبدان أخذت شركة الهند الشرقية البريطانية تحتل مكانتهم في الخليج العربي ، فأقامت لها محطات في بندر عباس وأنشأت فروعًا في أصفهان وشوناز، وفي عام ١٧٦٤ أنشأت في البصرة فرعًا لها.

ولما اشتد التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا في العالمين القديم والجديد ، استطاعت بريطانيا أن تتغلب على خصمها في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، تلك الحرب التي أفقدت فرنسا مستعمرات كندا ولويزيانا ومعظم ممتلكاتها في الهند ، بحيث لم يبق لها سوى بعض الجزر ، من أهمها بوربون وموريشيوس التي كان الفرنسيون يحتلونها منذ عام ١٧١٥ بعد انسحاب الهولنديين من هناك عام ١٧١٢ . وبهذا الانتصار البريطاني خلا الميدان أمام بريطانيا لكي تبسط نفوذها في الخليج العربي ، واحتلت تجارتها في إيران والعراق مكانة كبرى .

وقد أدركت بريطانيا أن طريق الخليج هو أقصر الطرق بين أوربا والهند ، وأن الموقع الخطير الذي تحتله عمان في الوسط بين الشرق والغرب يؤمن لها السيطرة على خطوط الملاحة والتجارة ، ويعطيها فرصة الانطلاق والوثوب على البلاد العربية والشرق الأوسط . ولهذا حالت بخاطر البريطانيين فكرة السيطرة على هذا الإقليم الواسع من أقاليم الخليج وتفتيت قوته التي تمتد إلى ساحل أفريقيا الشرقية ، بعد أن نجحت دولة البوسعيد في تأسيس سلطنة في زنجبار بل ونقل عاصمة الدولة من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ .

وكان ولبم مالكولم الذي وجه سياسة بريطانيا في الخليج عدة سنوات قد وقع أول معاهدة سياسية مع فارس عام ١٨٠٠ ، وتقضي بالتحالف ضد أية قوة ثالثة تغزو الهند ، وتقديم الأسلحة إلى فارس في حالة الاعتداء عليها من أي طرف آخر .

وابتداء من القرن التاسع عشر ، اتخذت بريطانيا عدة وسائل لتقوية نفوذها في الخليج العربي وكان اعتمادها الأساسي على ثلاثة أشكال تمثلت في : مقاومة

القرصنة البحرية ثم محاربة الرقيق وأخيرًا فرض السيطرة على مشيخات الخليج العربي ، وخصوصًا على الشيوخ القواسم في مركزهم في الشارقة ورأس الخيمة .

واتخذت بريطانيا من الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ فرصة لبسط نفوذها على أجزاء من هذه المناطق البحرية ، فأسرعت باحتلال جزيرة بريم عند باب المندب جنوب البحر الأحمر . ثم انتقلت الحامية البريطانية إلى ثغر عدن بسبب صعوبة تموين الجزيرة . وفي عام ١٨٠٣ وقعت بريطانيا معاهدة مع لحج ، كانت بداية سلسلة من المعاهدات بين بريطانيا ومشيخات الجنوب العربي .

وسوف نحاول في هذا البحث دراسة المحاور التي أدت إلى الصراع بين مختلف القوى الأجنبية التي حاولت بسط نفوذها على مناطق الخليج العربي .

وحيث أن بريطانيا كانت صاحبة السبق الأكبر في هذا التسابق المحموم ، والتكالب على حماية طرق موصلاتها إلى الهند ، فإننا نجد من الأسلم دراسة موقف بريطانيا من القوى الأخرى المنافسة لها في هذه المنطقة، وذلك في ضوء العناصر التالية:

أولاً : موقف بريطانيا من محاولات العثمانيين في الخليج .

ثانيًا : موقف بريطانيا من محاولات الروس مد نفوذهم إلى الخليج .

ثالثًا : بريطانيا والتنافس مع فرنسا في المنطقة .

رابعًا : بريطانيا وسعي الألمان للتوغل للمنطقة .

خامسًا : الآثار التي ترتبت على هذا التنافس الاستعماري .

أولاً : موقف بريطانيا من محاولات الدولة العثمانية لتقوية قبضتها في الخليج العربي

بالرغم من أن الدولة العثمانية مدت نفوذها وبسطت سيطرتها على أجزاء من الخليج العربي وشرق أفريقيا ابتداء من القرن السادس عشر إلا أن هذه السيطرة

كانت اسمية فى ذلك الوقت . ولكن مع ازدياد التكالب الاستعمارى على المنطقتين فى أوائل القرن التاسع عشر بدأت تركيا إحكام قبضتها هناك . غير أن الدول صاحبة المصالح والتى كانت تحافظ دائمًا على أملاك الدولة العثمانية أخذت تعرقل محاولاتها من أجل تقوية نفوذها . ووقفت دول مثل إنجلترا بالمرصاد لمحاولات العثمانين إعادة كل من الخليج العربى وشرق أفريقيا إلى حظيرة الدولة العثمانية .

فبعد أن استولى العثمانيون على بغداد عام ١٥٣٤ حاولوا أنشأ قاعدة بحرية لهم فى البصرة ، لكن الأتراك واجهوا مقاومة عنيفة من جانب القوى والعصابات المحلية بل ومن جانب الإيرانيين(١) .

واتجه العثمانيون بعد ذلك إلى الأحساء واحتلوها ، لكن هذه السيطرة انهارت عام ١٦٧٠ بسبب مقاومة قبيلة آل حميد من بنى خالد . وظل الحكم العثمانى للأحساء اسميًا ، و لم تساند باشواتها الذين تولوا الحكم هناك ، كما لم تدعمهم بأية قوة عسكرية(٢) .

وساعد هذا الضعف العثمانى وعجز الدولة العثمانية عن بسط نفوذها على هذه المناطق بسبب المقاومة المحلية وانشغال تركيا فى حروب اشتعلت فى جبهات أخرى من دولتها ، أن أخذت بريطانيا تتسلل إلى الخليج ، فى الوقت الذى ظلت السيادة العثمانية اسمية حتى أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر . وعندما حاولت تركيا إرسال بعض السفن الحربية للمشاركة فى أعمال التفتيش على مراكب الرقيق ، عارضت حكومة الهند وأعرب هاميل المقيم السياسى فى الخليج عن مخاوفه من هذا الإجراء(٣) .

وفى عام ١٨٦٩ تغير الموقف تمامًا ، إذ تم افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية وهو حدث ساعد الأسطول العثمانى على الخروج للبحر الأحمر والخليج العربى(٤) .

وفى نفس العام أيضًا تولى مدحت باشا أمر باشوية بغداد (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وكان من فريق المصلحين العثمانيين الذين يرون ضرورة تثبيت السلطة الفعلية للدولة العثمانية فى جميع المناطق الأسيوية ، حتى تعوض الخسائر الفعلية فى البلقان . وبالفعل أخذت الدولة العثمانية تهتم مجددا ببسط نفوذها على سواحل الخليج العربى وشرق شبه الجزيرة العربية . وفى عام ١٨٧٠ استصدر مدحت باشا فرمانًا يقضى بإعلان الكويت سنجقية تابعة لمتصرفية الأحساء ، وقد قبل عبد الله بن صالح آل الصباح شيخ الكويت (١٨٦٦ - ١٨٩٢) لقب القائم مقام الممنوح له من الدولة العثمانية(٥) .

وتوسعت الدولة العثمانية فى الخليج عندما أرسل مدحت باشا حملة إلى الأحساء بناء على طلب عبد الله بن فيصل لمساعدته ضد أخيه سعود ، وإعادته إلى الحكم فى الرياض مقابل قبول التبعية للدولة العثمانية . وتحركت حملة عثمانية فى ٢٠ إبريل ١٨٧١ من البصرة ، ووصلت إلى رأس ثنورة والقطيف واحتلتهما بسهولة ، وتقدمت بعد ذلك واستولت على جميع الأحساء ، وقسمتها تركيا إلى ثلاثة أقضية (الهفوف - القطيف - قطر) وجعلت من الهفوف مقرًا للحاكم العثمانى(٦) .

واعتبر العثمانيون أنفسهم ورثة الدولة السعودية ، وطالبوا بالجزية التى كانوا يحصلون عليها من بعض إمارات الخليج كالبحرين . وقد أثار وجودهم فى قطر مشكلة الحدود بينهم وبين أبى ظبى . ومن أجل هذا كان التحرك البريطانى لوقف هذا التوسع العثمانى(٧) .

وفى عام ١٨٧٥ رفعت تركيا مدينة البصرة من درجة متصرفية إلى ولاية مستقلة عن ولاية بغداد ، وصارت تضم متصرفية الأحساء وامتد إلى مدينة البيضاء فى شبه جزيرة قطر .

وقد أزعج هذا التوسع العثمانى فى الخليج العربى حكومة الهند البريطانية ، التى أخذت تنظر إليه بعين الشك والريبة . وازداد قلقها حينما أخذ العثمانيون يدعمون نفوذهم العسكرى فى شبه جزيرة قطر . وسارعت بريطانيا بالاحتجاج باسم شيخ البحرين عيسى بن خليفة على اعتبار أن ميناء الزبارة يتبع البحرين ، وأن شيخها يتخذ من هذا الميناء مقرًا له خلال شهور الصيف . وفى ذات الوقت أرسلت بريطانيا إلى الباب العالى مذكرة أوضحت فيها عدم السماح بإيجاد أى مركز معاد فى الزبارة أو أية منطقة أخرى . وترتب على هذا ايقاف البناء فى الميناء المذكور .

وأحست بريطانيا أن الأتراك يتوسعون ويدعمون نفوذهم بين الحكام المحليين ، وأن الحراسة البريطانية للخليج العربى تقوم على أساس من الاتفاقيات ذات الطبيعة الهشة الواهية ، وأن لابد من الوصول إلى اتفاق مع الباب العالى لإيقاف هذا التوسع .

وأشار السكرتير السياسى لحكومة الهند فى مذكرته فى فبراير ١٨٧٦ إلى ضرورة تعديل الاتفاقيات التى تربطهم بالشيوخ المهادنين وغيرهم ، وأن تعاد بشكل يسمح لبريطانيا بالتدخل المباشر(٨) .

ولم يقتنع سالسبورى بهذه المقترحات خوفًا من التورط فى صراعات مع القوى الأوربية الأخرى . وأرسلت حكومة الهند إلى المقيم فى الخليج العربى لكى يعالج الموضوع بالشكل المناسب . وبناء على ذلك أرسل المقيم فى الخليج الكابتن كوثبرى قائد الاسطول البريطانى هناك بخطابين إلى شيخى الدوحة والعديد . هذا فى الوقت الذى أرسل فيه سالسبورى إلى سفيره فى الأستانة لكى يلفت نظر الباب العالى إلى أن بريطانيا لن تسمح باضطراب الأمن فى الخليج . وعلاوة على ذلك كتب نائب المقيم إلى شيخ أبو ظبى يفيد بأن حكومة الهند قررت إرجاع منطقة العديد إلى سيادته . وأرسلت حكومة الهند سفينة حربية تدعى تيسير إلى شيخ أبو ظبى الذى قام بتدمير ما تبقى من عشش العديد . وعندما احتجت تركيا ،

على أساس أن العديد تابعة لقطر وتحت السيادة العثمانية ، كان رد حكومة الهند أن العديد تتبع أبو ظبى وأن لبريطانيا معها علاقات تعاهدية منذ سنين مضت . وأضافت المذكرة البريطانية أن سيادة بريطانيا ستظل بلا منازع فى الخليج(٩) .

وعندما حددت تركيا سيطرتها على جزر البحرين عام ١٨٧٩ رأى روس المقيم البريطانى فى الخليج أن أفضل وسيلة لمنع العثمانيين من ضم جزر البحرين هو وضع هذه الجزر رسميًا تحت الحماية البريطانية .

وفى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٠ حصل روس على توقيع عيسى بن على شيخ البحرين على اتفاقية ، تعهد بمقتضاها بعدم الدخول فى مفاوضات أو عقد معاهدات مع الحكومات الأخرى إلا بموافقة الحكومة البريطانية . وصدقت بريطانيا على هذه الاتفاقية الانفرادية عام ١٨٨١(١٠) .

وفى عام ١٨٩٢ وقعت بريطانيا معاهدة مع الشيخ البحرين تعهد بمقتضاها بعدم التنازل أو البيع أو الرهن لأى جزء من أراضيه إلا للحكومة البريطانية . إلى جانب هذا تم توقيع معاهدة مع الشيوخ المتصالحين تعهدوا فيها بعدم الدخول فى مفاوضات مع أحدى الدول إلا بموافقة إنجلترا(١١) .

وواضح أن هذه المعاهدات والاتفاقيات مع شيخ البحرين والساحل المهادن ، أعطت بريطانيا سلطة كافية لمناوأة تحركات العثمانيين فى جزر البحرين ومنطقة الساحل المهادن ، ودعمت هذه السلطة فى عام ١٨٩٣ عندما أسست لها وكالة سياسية فى البحرين ، واتخذ الوكيل البريطانى من المنامة مقرًا له .

وهكذا نجحت بريطانيا بتوقيع هذه السلسلة من المعاهدات مع حكام الخليج العربى فى أن تغلق الباب أمام سعى تركيا لدعم نفوذها السياسى والعسكرى ، كما أنها سيطرت بموجب هذه الاتفاقيات على المنطقة تحت ستار الحماية المقنعة . وبالطبع أتاح هذا الوضع لبريطانيا فرصة التصرف والتحكم فى العلاقات الخارجية للمنطقة .

* * *

ثانيًا : موقف بريطانيا من محاولات الروس فى الخليج العربى

منذ عام ١٨٧٧ حاولت روسيا أن تجد لها منفذًا على الخليج العربى ، وذلك أبان الحرب العثمانية الروسية . وقام بعض الضباط الروس الذين يعملون فى خدمة الحكومة الإيرانية بزيارة أصفهان وشيراز . وفى عام ١٨٨١ عينت روسيا كروجلو قنصلاً لها فى بغداد . ومنذ ذلك التاريخ كان يبذل كل ما فى وسعه للحصول على محطة فحم لبلاده على الخليج جنبًا إلى جنب مع بسط النفوذ الروسى على الكويت(١٢) .

وأحست بريطانيا بخطورة هذا التوسع بعد إنشاء القنصلية الروسية فى بغداد ، وكانت تنظر قبل ذلك بعين القلق إلى هذا التسلل الروسى ، خصوصًا بعد تردد الروس على جنوب فارس وموانيها المتاخمة للخليج ، ثم تعيين قنصل روسى فى بغداد ، الأمر الذى دعا بريطانيا إلى إرسال اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند إلى الخليج . وكان قد عزم النية على الدفاع عن مركز بريطانيا ومصالحها مهما كلفه ذلك من عناء(١٣) .

وألف كيرزون كتابًا عن فارس والمسألة الفارسية فى عام ١٨٩٢ لخص فيه كل آرائه عن النشاط الروسى ، وأكد أن منطقة الخليج منطقة بريطانية مغلقة ، ولا يستطيع أن يسمح لأى دولة بأن تحصل على قاعدة بحارية أو بحرية على سواحلها . ووصل إلى خلاصة القول بأن التنازل عن ميناء على الخليج يعتبر إهانة موجهة إلى بريطانيا(١٤) .

وازداد قلق كيرزون عندما تقدم الكونت فلاد يمير كابنست – وهو من رجال الأعمال الروس – إلى السلطان عبد المجيد الثانى بمشروع لبناء خط حديدى من ميناء طرابلس السورى على البحر المتوسط إلى أحد موانى الخليج العربى ، على أن يمتد منه فرع إلى بغداد . وبالفعل أحال السلطان هذا المشروع إلى المسئولين لدراسته وتقديم تقرير عنه(١٥) .

وعارض كيرزون هذا المشروع بشدة ، لأنه يضر بالمصالح البريطانية فى الكويت . وكلف الكولونيل مالكولم جون ميد المقيم السياسى فى الخليج بالتوجه إلى الكويت لإجراء مفاوضات بهدف وضع الإمارة تحت الحماية البريطانية . وقد نجح ميد بالفعل فى عقد معاهدة فى ٢٣ إبريل ١٨٩٩ ، وهى المعاهدة التى أقر فيها شيخ الكويت بعدم استقبال أى ممثل لدولة أجنبية فى بلاده بدون إذن سابق من الحكومة البريطانية وألا يتنازل بالبيع أو الإيجار أو الرهن لأى جزء من أراضيه دون موافقة بريطانيا أيضًا .

وهكذا كان الخوف من امتداد النشاط الروسى إلى الخليج حازا وراء ارسال ميد لتوقيع معاهدة الحماية مع شيخ الكويت الذى كان قد قبل فرمان السلطان العثمانى بتعيينه قائم مقام على هذه الإمارة فى يناير عام ١٨٩٧

ولا تختلف هذه المعاهدة عن غيرها من المعاهدات التى وقعتها بريطانيا مع شيخ البحرين وسلطان مسقط عام ١٨٩١ حيث استندت جميعها إلى أساس واحد هو منع الشيوخ والسلاطين من عقد معاهدات أو السماح لأية قوى أخرى بالاستقرار فى أراضيها(١٦) .

ورغم أن هذا الاتفاق السرى مع شيوخ الكويت كان موجهًا أساسًا ضد المخططات الروسية فى منطقة الخليج العربى ، فإن من الأهداف الأساسية لإبرام الاتفاق سد الطريق أمام الدولة العثمانية التى كانت تسعى بصفة مستمرة لتقوية نفوذها وبسط سيطرتها على الكويت .

والجدير بالذكر أن هذا الاتفاق زاد من حدة الصراع حول هذه المنطقة ، لأنه لم يلق السيادة العثمانية ، على أساس أن بريطانيا لم تشجع فكرة انفصال الكويت تمامًا عن الدولة العثمانية ، واقترحت أن تستمر سفن الكويت فى حمل العلم العثمانى ، مع إضافة كلمة " كويت " فى وسط . واستمرت الأمور على هذا الوضع،

ولم تحاول بريطانيا فرض الحماية فعلاً إلا في عام ١٩١٤ عندما ازداد خطر الألمان ومحاولاتهم مد خط السكة الحديدية إلى هناك(١٧) .

وهكذا اضطر الحكام المحليون في منطقة الخليج في القرن التاسع عشر إزاء هذا التنافس الاستعماري ، لطلب الحماية من إحدى هذه القوى الاستعمارية . وحاولت بريطانيا صاحبة المصلحة في المنطقة المحافظة على مصالحها بأن تستميل المشايخ والسلاطين لعقد معاهدات الصداقة والحماية معها ، ووقفت بالمرصاد ضد محاولات كل من روسيا وتركيا لبسط نفوذها في الخليج العربي . وبالطبع أدى هذا السلوك البريطاني إلى المزيد من الصراعات بين مختلف القوى الأوربية وخصوصًا ألمانيا وفرنسا وهو ما سنعرضه بشكل مفصل .

ثالثًا : موقف بريطانيا من التوسع الفرنسي في الخليج

كان الفرنسيون في مقدمة القوى الأوربية التي نافست إنجلترا في منطقة الخليج العربي وشرق أفريقيا بالإضافة إلى الأمريكتين والهند وغيرها من المناطق . ولا نغالي إذا قلنا أن القرن التاسع عشر هو قرن الصراع بين القوتين . وسوف نحاول أن نعرض لهذا التنافس بينهما .

كانت فرنسا قد دخلت ميدان المنافسة في بحار الشرق ابتداء من ١٦٦٤ ، وهو العام الذي تأسست فيه شركة الهند الشرقية Campagnie des Indes Orientale إثر مبادرة قام بها وزير المالية الفرنسي كولبير Colbert . لكن هذه الشركة الفرنسية لم تمارس إلا أعمالاً تجارية بسيطة مع فارس ، ولم يقدر للفرنسيين أن يلعبوا دورًا محسوسًا في أحداث الخليج ، نتيجة للمنافسة القوية مع البريطانيين والهولنديين . ولم تتمكن فرنسا من مجاراة هذه القوى بسبب انغماسها في مشكلات القارة الأوربية، والحروب العديدة التي خاضتها في عهد لويس الرابع عشر ، الأمر الذي اضطرت معه إلى ترك مصالحها التجارية في الخليج في أيدي البعثات التبشيرية من طوائف الجزويت وغيرهم(١٨) .

لكن هذا لم يمنع فرنسا من القيام بعدة محاولات لإنشاء قاعدة بحرية في ميناء مسقط . وقد سعى ممثلوها في البلاط الفارسي إلى عقد تحالف فرنسي فارسي من أجل مساعدة فرنسا في السيطرة على مسقط ، وهو أمر عجب للفرس لقمع نشاط عمان البحري الذي كان يسبب ازعاجًا كبيرًا لهم(١٩) .

ونجحت فرنسا في تحقيق بعض المكاسب بعد استيلائها على جزيرة موريشس أو جزيرة فرنسا كما أطلقوا عليها Isle de France وذلك في يولية عام ١٧١٥ . وكانت البرتغال قد اكتشفت هذه الجزيرة عام ١٥٠٥ واحتلها الهولنديون عام ١٥٩٨ وأطلقوا عليها اسم جزيرة موريشيوس ، ثم خلفهم الفرنسيون بعد ذلك عام ١٧١٥(٢٠).

وفور احتلال الفرنسيين لهذه الجزيرة قامت شركة الهند الشرقية الفرنسية بإرسال وكلاء لها للإقامة بها . وامتد النشاط الفرنسي بعد ذلك إلى جزيرة بوربون Burbon في عام ١٧٣٥(٢١) .

وأثناء الصراع الفرنسي الإنجليزي – في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر – كانت هذه الجزيرة تمثل عقبة كبرى أمام المصالح الإنجليزية في الهند ، مما دفع بريطانيا إلى احتلال الجزيرة في عام ١٨١٠ مما مثل ضربة قاصمة للمصالح الفرنسية في الخليج العربي(٢٢) .

وكان الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٧ - ١٧٨٣) حاكم مسقط أول من أدرك أهمية إقامة علاقات تجارية مع حاكم جزيرة فرنسا وتبادل معه الهدايا . لكن نظرًا لموقع مسقط الجغرافي فإن الإمام لم يكن في وسعه تجنب الصراع الدائر بين بريطانيا وفرنسا ، خصوصًا أبان الحرب السنوات السبع وحروب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦ - ١٧٨٣) وحروب نابليون في الشرق (١٧٩٩ - ١٨٠١).

وفي عام ١٧٥٩ تم أول اتصال ذي صبغة سياسية بين فرنسا ومسقط ، وذلك عندما هاجم الكونت داستان Comte D'Estaing بعض السفن البريطانية

الراسية في ميناء مسقط ، ثم واصل نشاطه حتى وصل إلى بندر عباس ، وأطلق الفرنسيون مدافعهم على الوكالة البريطانية هناك . وكان هدف الفرنسيين استكشاف المؤسسات البريطانية في الخليج العربي . وفي أكتوبر ١٧٥٩ أرسل الوكيل البريطاني في بندر عباس إلى حكومة بومباي يؤكد استيلاء داستان على وكالة الشركة وتخريبها وأنه اضطر لتوقيع معاهدة استسلام مع الفرنسيين أقر فيها بتسليم الوكالة مقابل عدم معاملة الفرنسيين للإنجليز كأسرى حرب(٢٣) .

ونتيجة لهذا الانتصار الفرنسي أسرع حاكم مسقط بإرسال ابنه هلال إلى بندر عباس لمقابلة داستان ، وأكد له صداقة أبية للفرنسيين واستعداده لوضع مسقط تحت تصرفهم(٢٤) .

واستجابت فرنسا لهذه الصداقة . وظلت العلاقات قائمة حتى نهاية حرب السنوات السبع في عام ١٧٦٣ والتي اضطرت فرنسا بعدها للتنازل عن جميع مراكزها في شبه القارة الهندية باستثناء بوند شيري . هذا في الوقت الذي قامت بريطانيا بفتح خطوط المواصلات عبر الخليج العربي .

وتوطدت علاقات فرنسا من جديد مع حاكم مسقط أثناء حرب الاستقلال الأمريكية . وقامت بعثة الكونت روزيلي إلى مسقط عام ١٧٨٥ بعمل مسح هيدروغرافي في مناطق الخليج . وأعرب سلطان مسقط السيد حمد بن سعيد (١٧٨٣ - ١٧٨٩) عن استعداده للموافقة على إنشاء وكالة للفرنسيين في مسقط ، وأكد لرئيس البعثة استمرار صداقتهم للفرنسيين(٢٥) .

على أن نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وانشغال فرنسا بالمشكلات الداخلية ، جعلها تهمل إنشاء قنصلية في مسقط ، رغم عروض سلطان مسقط . وبعد إعلان الجمهورية في فرنسا بذلت محاولة أخرى لإنشاء قنصلية عام ١٧٩٥ وعين المسيو بوشامب Beauchamb أول قنصل فرنسي في مسقط . وسافر بالفعل

إلى تركيا قبل الذهاب إلى مقر عمله لإستئذان الأتراك ، لكن أنباء الحملة الفرنسية على مصر جعلت الأتراك يقبضون عليه ويلقون به في السجن .

و قد ترتب على الحملة الفرنسية ازدياد النشاط الاستعماري حول الخليج . وخشي البريطانيون جانب مسقط لمعرفتهم بوجود علاقات تجارية بين العمانيين وجزيرة موريشيس الفرنسية وقد كتب سميث Smith وكيل شركة الهند الشرقية في بوشهر إلى حكومة بومباي في مايو ١٧٩٨يفيد أن مسقط ستصبح وكرًا للجاسوسية الفرنسية على الهند ، لأن خمسًا أو ست سفن عربية تقوم بنقل التجارة بين موريشيس ومسقط وساحل مليبار . ومما لا شك فيه أن نقل الأنباء سيكون مصدر ربح للبحارة العرب(٢٦) .

وحاول نابليون ضرب السيطرة البريطانية عن طريق صداقة حكام ومشيخات وسلطانات الخليج والجزيرة العربية . لكن الجنرال ولسلي Wolsely بدأ يتخذ خطوات لحماية لتأمين سيادة بريطانيا في الهند والطرق الموصلة إليها منذ تولية منصب حاكم عام الهند في إبريل ١٧٩٨ . وأصدر ولسلي تعليماته إلى ميرزا مهدي علي خان ، وهو فارسي يعمل في شركة الهند الشرقية البريطانية ، لعقد إتفاقية مع السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط ، وعينه مقيمًا سياسيًا في بوشهر من قبل حكومة الهند(٢٧) .

ونجح ميرزا في عقد إتفاقيةمع سلطان مسقط في ١٢ أكتوبر ١٧٩٨ . وبهذه الطريقة أرست بريطانيا الود والصداقة بين شركة الهند الشرقية البريطانية وحكومة مسقط ، وحصلت على وعد بمنع الفرنسيين من تأسيس مراكز لهم في مسقط ، وكذلك منع السفن الفرنسية من دخول موانئ السلطان . ونجحت بريطانيا بهذه الإتفاقية في عرقلة النشاط الفرنسي ووثقت علاقتها مع سلطان مسقط وأتاحت لها فرصة تدعيم نفوذها ليس فقط في مسقط بل في كل منطقة الخليج العربي ، سواء من الناحية السياسية أو التجارية أو العسكرية(٢٨) .

ودعمت بريطانيا نفوذها فى سواحل عدن وجنوب الجزيرة العربية بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير ، وبعد أن نجحت فى عقد معاهدات مع سلطان لحج فى عام ١٨٠٣ . وتلتها معاهدات أخرى مع مشيخات الجنوب العربى . وهكذا اغلقت بريطانيا الباب أمام المحاولات الفرنسية لقطع الطريق على بريطانيا إلى الهند(٢٩) .

وبعد صلح أميان Amiens فى عام ١٨٠٢ حفت رقابة بريطانيا على موانى الخليج . وسرعان ما إتخذت فرنسا قرارات بتعيين كفيناك ممثلاً وقنصلاً لفرنسا فى مسقط . وما أن وصل إلى مقر عمله حتى قامت الحرب من جديد بين إنجلترا وفرنسا . ولهذا رفض سلطان مسقط استقبال كافيناك الذى عاد مرة ثانية إلى جزيرة موريشيس وذلك فى أكتوبر عام ١٨٠٣

والسؤال الآن : لماذا رفض سلطان مسقط استقبال كافيناك ؟

لعل هناك أسبابًا جديدة دفعت السلطان إلى اتخاذ هذا الموقف تجاه الممثل الفرنسى ، منها أن السلطان كان يخشى من غزو وهابى على أطراف بلاده بسبب الأزمة مع الوهابيين . ولذا كان فى حاجة إلى دعم بريطانى . ومنها أيضًا أنه كان للسلطان حوالى عشرين مركبًا فى البرتغال وأنه يمكن للإنجليز الاستيلاء عليها لو تحالف مع الفرنسيين . ويرى بعض المؤرخين أن البريطانيين هددوا السلطان بفرض حصار على موانيه(٣٠) .

وهكذا شاءت الأقدار أن تفشل بعثة كافيناك وأن تنسحب فرنسا من مسقط . ورأت بريطانيا دعم حياد مسقط حماية لها من فرنسا . لكن هذا الموقف البريطانى السلبى جعل سلطان مسقط يعاود الاتصال بالفرنسيين ، حيث كتب إلى ديكان Decan حاكم جزيرة فرنسا يذكره بالصداقة التقليدية بين فرنسا ومسقط ، كما استقبل السيد سعيد وكيلاً فرنسيًا ووقع معاهدة مع فرنسا فى عام ١٨٠٧ أقرت عودة العلاقات بين الطرفين .

وبهذه المعاهدة استعادت فرنسا نفوذها فى الخليج لكن لم تتم المصادقة على هذه المعاهدة بسبب مخالفتها لتشريعات نابليون بين عامى (١٨٠٦ - ١٨٠٧) . ويبدو أن السيد سعيد أخطأ فى اختيار فرنسا حليفًا له ، وذلك لأن بريطانيا فرضت حصارًا بحريًا حول جزيرتى موريشيس والبوربون . واضطر السيد سعيد إلى الاتصال بحاكم بومباى البريطانى ، وأعرب فى رسالة بعث بها إلى هذا الحاكم ويدعى دنكان Duncan فى أغسطس عام ١٨٠٨ بأنه سيظل ملتزمًا بالصداقة الوثيقة مع بريطانيا وأن كل المناطق الواقعة تحت تصرفه تعد ملكًا خاصًا للبريطانيين(٣١) .

وفى عام ١٨١٠ إتخذت علاقات بريطانيا بمسقط شكلاً جديدًا بعد استسلام الحاكم الفرنسى ديكان للبريطانيين وتسليم جزيرة فرنسا . ومنذ ذلك الحين صارت مسقط تابعة لبريطانيا حتى بعد أن استردت فرنسا جزيرة البوربون فى عام ١٨١٤(٣٢) .

وسارت الأمور على هذا المنوال ، وأصبحت بريطانيا صاحبة السيادة فى المنطقة طوال القرن التاسع عشر . ولكن قبل أن ينصرم العقد الأخير من هذا القرن بدأت فرنسا تقوى نفوذها فى الخليج من جديد ، وأقامت قنصلية لها بالفعل فى مسقط عام ١٨٩٣ . ولم تستطع بريطانيا أن تعترض على هذا الإجراء رغم وجود عقد سبق أن برمته مع سلطان مسقط يحرم عليه التنازل عن أى جزء من أملاكه لأى قوة أجنبية . وتولى أوتافى Ottavi أمر هذه القنصلية . وبدأت بعض السفن الفرنسية رحلاتها إلى الهند وسواحل الخليج العربى . وبدأت مشكلات جديدة بين بريطانيا وفرنسا ، انحصرت فى قضيتين أساسيتين أحداهما قضية رفع العلم الفرنسى والثانية قضية بنادر حصة .

أما القضية الأولى فقد بدأت عندما وزعت السلطات الفرنسية فى أوبوك Obok ومدغشقر وجزر القمر أعلامًا فرنسية لبعض السفن العمانية ، ومن ثم لم تستطع سفن الحرب البريطانية ايقافها . واحتجت حكومة بومباى على هذا الإجراء عام ١٨٩٣ بحجة أنه يساعد على انتشار تجارة الرقيق . ولم تقبل فرنسا

الاحتجاج ، واستمرت فى توزيع الأعلام على عدد كبير من السفن ، وخصوصًا سفن التجار الذين كانوا يناوئون السلطان . وحاول كوكس Cox المقيم البريطانى وضع حد لهذه المسألة مع السلطان . ورغم إصدار السلطان نداء إلى الأهالى بتسليم الأعلام الفرنسية إلا أن هذه المشكلة لم تحل .

أما قضية بندر حصة فقد تفجرت فى عام ١٨٩٩ عندما علمت حكومة بريطانيا أن فرنسا قد استأجرت مخزنًا للوقود من سيد مسقط . وقام السفير البريطانى فى باريس بالشكوى عن هذا الأمر ، ورفض دولكاسية وزير الخارجية الفرنسى الاعتراف بأية معلومات عن هذا الخلاف . وفى نفس الوقت اعترف سلطان مسقط بهذا الإجراء وتعلل بأنه لم يدرك أن استئجار الفرنسيين لبندر حصة يخالف إتفاق عام ١٨٩١ . وكان على بريطانيا أن تسعى لإلغاء هذا الإتفاق بين سلطان مسقط والفرنسيين(٣٤) .

ومن بين الاقتراحات التى قدمت فى هذا السبيل اقتراح اللورد كيرزن نائب الملك فى الهند بتوجيه انذار إلى السلطان لسلوكه المعادى للبريطانيين . وبالفعل أقرت حكومة الهند هذا الاقتراح ، ووجه الانذار إلى فيصل ، سلطان مسقط . وبعد انتهاء المدة المحددة للانذار أقلعت بعض السفن الحربية من بومباى فى فبراير ١٨٩٩ صوب مسقط . وتحت التهديد بقصف الميناء اضطر السلطان فى النهاية إلى التنازل عن إتفاقه السابق مع الفرنسيين(٣٥) .

وبالطبع احتج السفير الفرنسى فى لندن على هذا الإجراء ، وطلب سالسبورى من كيرزن إعادة النظر فى الموضوع . لكن كيرزن لم يغير من موقفه واعتبر أن أى إجراء يعد تطورًا خطيرًا فى السياسة الهندية . وخشيت بريطانيا أن تتفاقم الأزمة بين البلدين فى وقت كانت المفاوضات جارية لتسوية الخلاف الذى أثاره حادث فاشودة ١٨٩٨ فى أعالى النيل(٣٦) .

وقدمت بريطانيا اعتذارا رسميًا أعربت فيه عن عميق أسفها على ما قام به المقيم ميد Mole ، وأعلنت أنها لا تعارض إطلاقًا إقامة فرنسا لمخزن للوقود فى مسقط . وتلت ذلك مفاوضات أسفرت عن قبول بريطانيا إقامة هذا المخزن فى أى منطقة من سواحل المكلا . وانتهى الخلاف فى عام ١٩٠٠ عندما اختارت فرنسا إنشاء المحطة فى المكلا . وتعهدت بريطانيا بتقديم احتياجات الفرنسيين من الوقود من أى مستودع فحم بريطانى . وتقاسم الطرفان محطة فحم كان قد أنشأها البريطانيون فى مسقط عام ١٨٧٧ .

رابعًا : موقف بريطانيا من الأطماع الألمانية فى الخليج العربى

بعد الحرب السبعينية وانتصار ألمانيا على فرنسا ، صار بسمارك مستشار الرايخ الألمانى ، وصارت ألمانيا سيدة الموقف السياسى فى أوربا . وقد استمر بسمارك يتبع سياسة عدم التورط فى المجال الاستعمارى لأنه كان يرغب فى تحقيق الأمن للرايخ الألمانى فى أوربا . وكان يعتقد بأن توسع ألمانيا فيما وراء البحار سوف يبعدها عن شئون القارة الأوربية ، كما لم يكن مقتنعًا بقيمة المستعمرات بالنسبة للدولة ناشئة مثل ألمانيا . هذا فضلاً عن اعتقاده بأن الألمان لن يقدروا على منافسة الإنجليز فى الميدان الاستعمارى(٣٧) .

وبعد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ / ١٨٨٥ والذى دعى إليه بسمارك ليبحث أزمة الكونغو ، وبعد أن انتهى المؤتمر فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ الذى جاء فى مادته الـ (٣٤) أن مبدأ الاحتلال الفعلى أو السيادة الفعلية شرط أساسى لإعلان الحماية على أى جزء من القارة الأفريقية ، أخذت الدول الأوربية ترتكز على هذه المادة لاحتلال مختلف أجزاء القارة الأفريقية . وسوف ندرس محاولات ألمانيا لبسط نفوذها على منطقة الخليج العربى ، وموقف بريطانيا من هذا التوسع .

وفيما يتعلق بالخليج العربى فقد بدأ النشاط الألمانى فى الدولة العثمانية فى شكل بعثات عسكرية ألمانية لتدريب الجيش العثمانى . وبعد سقوط بسمارك عام ١٨٩٠

أخذ الإمبراطور وإلهلم الثاني Wilhelm II يوسع من محاولات ألمانيا الاستعمارية فيما وراء القارة الأوربية . وبدأت ألمانيا سياسة الزحف نحو الشرق ، والتي أيدها مجموعة من رجال الأعمال والرأسماليين الألمان . وكان مؤداها إدخال الدولة العثمانية في نطاق المخالفات الاقتصادية ، واستغلال موارد تركيا المعدنية والزراعية عن طريق شبكة ضخمة من الخطوط الحديدية تحت السيطرة الألمانية(٣٨) .

وفي خريف عام ١٨٧٢ دعا السلطان العثماني المهندس الألماني وإلهلم فون برسل Wilhelm Von, Pressel صاحب الشهرة الكبرى في بناء السكك الحديدية ، لوضع مشروعات تطوير طرق المواصلات في آسيا الصغرى . وبدأ فون برسل بناء شبكة من الخطوط الحديدية في البلقان . وفكر السلطان عبد الحميد الثاني في اقتراح المهندس فون برسل بشأن مد خط حديدي من البوسفور إلى بغداد والخليج العربي . وفي أكتوبر ١٨٨٨ حصلت ألمانيا على امتياز بناء خط من البسفور إلى أنقرة ، وتأسست شركة خط حديد الأناضول Le Societe du Chemin de fer D'Anatolie Ottomene وهي أول الشركات الألمانية التي تولت تنفيذ مشروعات السكك الحديدية في تركيا ، وبدأ تنفيذ الخط من البسفور إلى أنقرة .

وفي ٢٧ نوفمبر منح السلطان عبد الحميد الثاني شركة خط سكة حديد الأناضول امتياز مد خط حديدي من قونية إلى بغداد والبصرة . وثار البريطانيون عندما أحسوا أن الكويت هي نهاية هذا الخط وقرروا منع إنشاء هذا القسم من الخط الحديدي الذي سيمتد من البصرة إلى الكويت مهما كلفهم هذا من جهود . وأعلن كيرزن رأيه في هذا الخط ، وأنه سيقضي على التفوق التجاري لبريطانيا في المنطقة ، وإذا كان الخط سيقصر طريق الهند كثيرًا إلا أنه سيقصرها بالنسبة لبرلين وليس بالنسبة للندن(٤٠) .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرصة بتدعيم نفوذها في الكويت حتى انتهى الأمر بتوقيع شيخ الكويت إتفاقية يناير ١٨٩٩ مع الإنجليز ، وهي الإتفاقية التي وضعت

الكويت من الناحية العملية تحت الحماية البريطانية . وحاول السلطان عبد الحميد الثاني تحت الضغط الألماني إرغام شيخ الكويت على الاعتراف بتبعيته للدولة العثمانية . ووصلت سفينة حربية تركية إلى ميناء الكويت في ديسمبر ١٩٠١ ، ووجهت النذار إلى شيخ الكويت . وفي الحال إتخذت بريطانيا من قواتها البحرية في الخليج وسيلة للدفاع عن الكويت ، وأجبرت الأتراك على الإنسحاب إلى البصرة .

واستمر الضغط البريطاني من أجل وقف النفوذ الألماني في الخليج العربي عن طريق عرقلة خط حديد بغداد الذي بدأ الألمان العمل فيه منذ عام ١٩٠٣ ، وبذل الإنجليز ما في وسعهم لعرقلة وصول الخط إلى الكويت(٤١) .

ونجح البريطانيون في عقد إتفاق مع شيخ الكويت عام ١٩٠٧ وافق بمقتضاه على أن يؤجر قطعة من الأرض بصفة دائمة بين بندر الشويخ ومدينة الكويت لإقامة قاعدة بحرية . وبالطبع اعترفت بريطانيا مقابل هذا التسهيل بإمارة الكويت بحدودها القائمة للشيخ مبارك وخلفائه من بعده . واحتفظت بريطانيا بحق إنهاء إيجار منطقة بندر الشويخ في أي وقت تشاء(٤٢) .

وهكذا استمر الدعم البريطاني لإمارات الخليج لمنع أية قوة من بسط نفوذها على هذه المنطقة طوال القرن التاسع عشر . وتوجت هذه المحاولات البريطانية بعقد إتفاقين مع الدولة العثمانية في ٢٩ يولية و ١٢ أغسطس عام ١٩١٣ . ومن أبرز موادهما بخصوص منطقة الخليج وسكة حديد بغداد أن :

أولاً : تنازل الدولة العثمانية عن كل ماها من حقوق في جزيرة قطر والبحرين وسحب موظفيها من هناك .

ثانيًا : اعتراف العثمانيين بالإتفاقيات التي وقعتها بريطانيا مع شيخ الكويت وعدم التدخل في شئون الكويت الداخلية أو الخارجية ، مع رفع شيخ الكويت العلم العثماني ، وله أن يضيف إلى رايته كلمة " الكويت " .

ثالثًا : اعتراف بريطانيا بالسيادة العثمانية على الكويت وإلا تعلن الحماية على هذه الإمارة .

رابعًا : أن تكون البصرة هي نهاية خط حديد بغداد ولا يمد الخط إلى ما بعد البصرة إلا بعد إتفاق مع الحكومة البريطانية وبالشروط التي ترضى بها(٤٣) .

ويلاحظ على هذا الإتفاق عدة أمور نوجزها على النحو التالي :

١ - أن لهذا الإتفاق أهمية خاصة في تاريخ الخليج حيث أثار النقاش وفتح باب الجدل على الحدود بين السعودية وبريطانيا .

٢ - يوضح الإتفاق مدى التهاون الذي صبغ أعمال الدولة العثمانية للتخلي عن جزء حيوي وهام من الوطن العربي إلى بريطانيا .

٣ - أثبتت الإتفاق مدى العجز العثماني أمام التوسع البريطاني العنيد الذي يسعى بكل الطاقات لأن يجعل من منطقة الخليج بحيرة بريطانية(٤٤) .

٤ - تساهل العثمانيين في موضوع قطر ، بل إنهم تنازلوا عن جميع الإدعاءات السابقة في البحرين ، كما رفضت بريطانيا كل مقترحات تركيا بتضييق حدود الكويت أو الاعتراف بها كجزء من ولاية البصرة ، وكذلك لم توافق على أن تشرف الأستانة على شئون الكويت الخاصة أو على تنظيم الوراثة بها . على أن بريطانيا سلمت فقط بسيادة رمزية .

٥ - بقيت الإتفاقيتان دون تصديق بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية هذه الحرب إلى جانب دول الوسط ضد الإنجليز وحلفائهم .

وهكذا تبلور الصراع في الخليج العربي طوال القرن التاسع عشر بين القوى الأوربية على سعي بريطانيا لأن تحافظ على شريان الملاحة في الخليج العربي . ولم يتوقف الصراع بين ألمانيا وبريطانيا في الخليج العربي بل إمتد الصراع إلى شرق أفريقيا .

الخاتمة

هذه صورة سريعة للصراع الاستعماري في الخليج العربي في القرن التاسع عشر ، وهي صورة تعكس بكل جلاء ووضوح أن القوى الاستعمارية في تلك الفترة كانت تبحث عن المبررات والوسائل التي تؤيدها في صراعها المحموم من أجل الحفاظ على مصالحها . وقد إتخذت هذه الدول كل السبل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق أهدافها ، بصرف النظر عما يعود على سكان المناطق التي كانت مسرحًا لهذا التكالب . وكان القرن التاسع عشر قرن الصراع الأوربي على المنطقتين ، بعد أن خرجت أوربا إلى عالم ما وراء البحار وأسست مستعمرات لها في العالم الجديد وفي آسيا ، وبعد أن أدركت أن محور الاتصال بين هذا العالم التجاري وأوربا ، هو طريق الخليج العربي عبر قناة السويس فكان لا بد من الصراع والتكالب وبذل كافة المحاولات من أجل المحافظة على مراكزها ومحطات تموين للسفن على طول الطريق البحري . ونجم عن ذلك الصراع الطويل طوال القرن التاسع عشر عدة نتائج يمكن أن نوجزها على النحو التالي :

أولاً : دخلت منطقة الخليج العربي في حسابات القوى الإمبريالية التي راحت تدعم نفوذها بالتحالف أو عقد المعاهدات مع سلاطين وشيوخ هذه المناطق ؛ فكان المكر والدهاء والتهديد باستخدام القوة أو حصار الشواطئ من الوسائل التي شهدتها المنطقة ، والتي طوقتها بتلك المحاولات الاستعمارية من أجل كسب حليف أو صديق ، أو من أجل الحصول على قطعة من الأرض تكون أساسًا لتوسعات أخرى . كل هذا جعل منطقة الخليج تعيش أحداثًا متشابهة من الصراعات الأوربية ، وتعيش طوال القرن التاسع عشر في ظل سلسلة من المعاهدات أو الإتفاقيات الثنائية أو الجماعية من أجل كسب الحليف أو الصديق . ورأينا هذه المحاولات المستميتة من جانب القوى الأوربية لعقد المعاهدات مع سلاطين وأمراء وحكام المنطقة طوال القرن ، والتي انتهت في النهاية بوقوع المنطقة بأسرها تحت

السيطرة والحماية الاستعمارية . وكان الصراع على طريق الملاحة البحرية للقدمة الطبيعية لبسط وإعلان الحماية على الخليج العربي .

ثانيًا : ترتب على هذا الصراع أن تدخلت القوى الأوربية في شئون المنطقة داخليًا ، وتبع هذا القضاء على المقاومة العربية . وقد رأينا كيف أرسلت بريطانيا باسم محاربة الرقيق والقرصنة البحرية حملات وأساطيل بحرية للقضاء على القوى المحلية في الخليج . وما صراع بريطانيا مع القواسم إلا مثالاً واضحًا لتلك الحملات المسعورة التي إتخذت منها بريطانيا وسيلة للقضاء على نفوذ القوى المحلية ، حتى يتفسح المجال أمامها لتفرض ما تشاء من معاهدات وإتفاقيات ، هدفها النهائي ربط هذه المناطق بتحالفات أبدية معها . كذلك أدى هذا الصراع إلى القضاء على الكيانات القبلية المحلية وأعجزها عن القيام بدورها الريادي في هذه المناطق طوال عدة قرون مضت ، وكان الصراع الاستعماري عاملاً قويًا في تفتيت الكيانات المحلية ودخولها في صراعات فيما بينها انتهى إلى سقوطها تحت السيطرة الاستعمارية .

ثالثًا : أدى هذا الصراع الأوربي على الخليج العربي إلى سقوط المناطق الساحلية في أيدي القوى الاستعمارية ، وإلى المزيد من المساومات والتكالب على بسط النفوذ في الداخل . وتوجت هذه الجهود بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ / ١٨٨٥ باندفاع الأوربيين إلى كافة المناطق ، وخاصة في الخليج وشرق أفريقيا وداخلها ، وتقسيم هذه المناطق بين القوى الأوربية وبداية الاستعمار والاحتلال الفعلي لهذه المناطق . وكان الصراع بين القوى وجه الأنظار إلى أهمية تلك المناطق التي سقطت في النهاية تحت السيطرة الإمبريالية .

رابعًا : أدى صراع القوى الأوربية وسعيها لضرب بعضها الآخر في طرق مواصلاتها إلى إبراز أهمية هذه المنطقة . وما الحملة الفرنسية على مصر في ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر إلا حلقة في هذا الصراع ، أبرزت وسلطت الأضواء على موقع مصر والطريق البحري لشرق أفريقيا . فكان هذا بداية سلسلة

طويلة من الصراعات بين أكبر قوتين أوربيتين نجم عنه في النهاية سقوط مصر ومن حولها تحت السيطرة الاستعمارية . وكان الصراع الأوربي على طرق المواصلات كان سببًا أساسيًا في سقوط مصر في أيدي القوى الاستعمارية ، وأيضًا في دخول منطقة الخليج العربي في تلك الملحمة من الصراع .

خامسًا : ترتب على هذا الصراع الأوربي على الخليج العربي تقويض قوة مصر الفتية ونفوذها في الخليج العربي . ولو قدر لهذه القوة أن تعيش وأن تمارس حياتها السياسية كاملة في القرن التاسع عشر لربما تغير تاريخ المنطقة ولربما ظهر الدور المصري الفعال ، ولكن الدول الإمبريالية التي وجدت في توسعات محمد علي خطرًا على طرق مواصلاتها قاومته ، وعرقلت نشاطه ، ووضعت كافة العراقيل في طريقه ، بل استخدمت جيوشها وقواتها من أجل تقليص هذا الوجود المصري . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن هذه القوى ضربت بيد من حديد على كل محاولة توسعية أو وحدوية . وقد رأينا كيف وحدت دولة مثلا بريطانيا من المبررات ما جعلها تتدخل في شئون اليوسعيد وتسعى جاهدة لتعميق الخلافات بين أبناء اليوسعيد ، وفصل الإقليم الأفريقي عن إقليم مسقط في الخليج العربي .

سادسًا : أثبت هذا الصراع الأوربي أن الدول الأوربية لا يهمها إلا مصالحها الخاصة ، وأن الاستراتيجيات الاستعمارية تبنى حسب مصالح كل دولة ، وأنه من السهل تغيير هذه الاستراتيجيات عند ظهور عوامل جديدة أو ظهور أحداث يمكن أن تؤثر على الاستراتيجيات القائمة . وظهر هذا بشكل جلي حينما تحالفت بريطانيا مع إيطاليا واتخذت منها حارسًا لأملاك مصر في شرق أفريقيا ، حتى تقف أمام التوسع الفرنسي . ورأينا أن بريطانيا التي عارضت التوسع الألماني في كل من شرق أفريقيا والخليج العربي عادت وأيدت الألمان في مستعمراتهم في شرق القارة ، وأرغمت سلطان زنجبار على التنازل عن بعض ممتلكاته للألمان . ثم رأيناها بعد صراعها الطويل مع فرنسا طوال القرن التاسع عشر تجنح إلى المسالمة

بعد حادث فاشودة ، وسعى الدولتين إلى إقامة علاقات طيبة وتحالف ودى فى عام ١٩٠٤ للوقوف أمام قوة ألمانيا الناشئة ، والتى صارت خطرًا يهدد مصالح الدولتين. وفى نفس الوقت يؤثر على ممتلكات الدولتين . فكان تغيير السياسة بين كل من بريطانيا وفرنسا لمواجهة هذا الخطر الجديد .

* * *

هذه هى أهم النتائج التى نجمت عن هذا الصراع الاستعمارى فى الخليج العربى ، وهى نتائج فى غاية الخطورة على مستقبل المنطقة ، ولا زالت تؤثر فيها حتى بعد استقلال هذه الدول ، وقيام كيانات ودول ارتبطت بالمصالح الاستعمارية والتقسيم الإمبريالى الذى لم يعترف الحدود الطبيعية أو التوزيعات الإثنوغرافية . وأدى هذا فى النهاية إلى تفتيت سكان المناطق ودمجوها فى كيانات صغيرة بل إلى جعلها منطقة ميلقنة ، تحاول القوى الوطنية فيها أن تعيد أشكالاً مختلفة من الإتحاد والإندماج والتحالف الاقتصادى بعد هذه المحاولات الاستعمارية التى شتت وفتت القبائل العربية .

واليوم يقع العبء على كاهل السكان الوطنيين بعد أن حصلوا على استقلالهم ، لجمع الشمل وتوحيد كافة المناطق ، والدخول فى تحالس مشتركة أو إتحادات إقليمية ، ونبذ الخلافات والمشكلات التى خلفها الاستعمار الأوربى أثناء تكالبه على المنطقة فى القرن التاسع عشر .

مكتبة البحث

١ - أحمد عزت عبد الكريم : العلاقات بين الشرق العربى وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) ص٢٧٧ .

2 - Longrigg, S.H.: Four centuries of Modern Iraq, P. 38

٣ - صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى القاهرة ١٩٨٥، ص١٦٨

٤ - لمزيد من الدراسة عن الأسطول العثمانى انظر :
Kumer : India and the Persian Gulf Region, 1858 - 1907 (India 1965) PP. 117-125

5 - Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours London 1956 P. 136

٦ - السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية القاهرة ١٩٧ ، ص١٦٦ .

٧ - صلاح العقاد : مرجع سابق ص ١٧٥ .

8 - India Office Political and Secret Letters and Enclosures from India, Vol 7 Gov. in Councill to sec. of State for India (Feb. 1876)

9 - India Office : Pol, and Sec, Letters and Enclos. from India, Vol 22, Lytton'sdespatch on 22 , May 1879 on Turkish Jurisdiction on the Arabian Coast

١٠ - عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم (دكتور) بريطانيا وإمارات الساحل العمانى دراسة فى العلاقات التعاهدية ، بغداد ١٩٧٨ ص ٤٣٧

١١ - السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ص١٧٠

١٢ - السيد رجب حراز : الدولة العثمانية ص١٧٣

13 - Langer, W. L. : The Diplomacy of Imperialism N. Y. 1951, P. 642 .

14 - Curzon, G. N. : Persia and the Persian Question Vol II p. 465

15 - Earle, E. M. : Turkey, The Great Powers and Baghadad Railway p.58

16 - Wilson, A. T. : The Persian Gulf, pp. 234 - 252 .

(١٧) صلاح العقاد : مرجع سابق ص١٨٨

18 - Lockhart, L. : The Fall of the Safavi Dynasty and Afganistan Occpation to Persia (London 1936) p. 432 .

١٩ - صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠ ، بغداد ١٩٧٩ ص٢٨٠

20 - Coupland, R. : East Africa and its Invaders from the Earliest Times to the death of Seyyed Said in 1856 . (London 1938) p. 37

٢١ - جمال زكريا : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن - القاهرة ١٩٨٥ الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية .

22 - Coupland, R. : Op. Cit. P. 93 .

٢٣ - جمال زكريا : المرجع السابق ، ص١٧٨

24 - Auzoux, A. : La France et Mascateux XVIII et XIX Siecles. Extrais de la Revue de' Histoire Diplomatique (Paris 1910) p. 67

٢٥ - وثائق الحكومة السعودية ، التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية جـ١ ص١٠٨ (القاهرة ١٩٥٧).

٢٦ - صلاح العقاد : مرجع سابق ، ص٦٨

27 - Wilson Arnold : op . Cit., p. 232 .

٢٨ - صلاح العقاد : مرجع سابق ، ص٦٦ - ٦٨

29 - Hoskins, H. L. : OP. Cit., P. 65

30 - Wilson, A.: OP Cit. P. 232

٣١ - صالح محمد العابد : مرجع سابق ، ص٢٤٦

٣٢ جمال زكريا : المرجع السابق ، ص٢٠٤

٣٣ - عبد العزيز عبد الغني إبراهيم/ مرجع سابق ص٣٣٥

34 - Secret Policy of the Foreign Department, Government of India No. 182, Sayed Faisal to Political agent Masqut, 19 Jan. 1899

٣٥ - السيد رجب حراز : الدولة العثمانية ، ص١٨٢

٣٦ - عن هذه الأزمة انظر : محمد فؤاد شكري : مصر والسودان : تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر / القاهرة ١٩٥٧ ص٥١٨ - ٥٣٧ .

٣٧ - انظر شوقي الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها : القاهرة ١٩٨٠، وأيضًا السيد رجب حراز أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربي ص٢٧٨ - ٢٨١ .

٣٨ - السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية القاهرة ص١٩٧٠ .

39 - The Cambridge History of the British Empire, Vol. III P. 277

٤٠ - ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص١٦٦

41 - Newton, A.P. : A Hundred years of the British, Empire, London 1967 P. 75

42 - Dickson, H.R.P. : OP. Cit, P. 141

٤٣ - انظر نصوص هذه الإتفاقيات بالتفصيل في : ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٠٤ - ٢١٢ وأيضًا :

Dickson, H. R. P. : OP Cit PP . 47 - 8

٤٤ - صلاح العقاد : التيارات السياسية ، ص١٧٢ .

مشكلة الأعلام الفرنسية فى عمان

صورة من صور التنافس الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى فى الخليج

د. عبد اللطيف فهمى محمد*

ظهرت فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، مشكلة عرفت باسم " مشكلة الأعلام الفرنسية " . وهى الأعلام التى كانت تعطيها فرنسا للسفن العمانية ، خاصة سفن صورة أهل صورة ، لحمايتها من تفتيش السفن الإنجليزية لها فى عرض البحر . وتمثل هذه المشكلة صورة من صور التنافس بين بريطانيا وفرنسا ، ومحاولة كل منهما فرض سيطرتها على منطقة الخليج .

وترجع أصول هذه المشكلة إلى تغير بريطانيا إلى منطقة الخليج . فبعد أن كانت تنظر إليها كمنطقة تجارية منذ وصول الإنجليز إليها فى القرن السابع عشر الميلادى ، تغيرت نظرتها لتصبح استراتيجية فى المقام الأول منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادى . وكان لحروبها الاستعمارية مع فرنسا دور حاسم فى تغيير هذه النظرة إلى المنطقة . فقد أوضحت هذه الحروب القيمة الاستراتيجية لمنطقة الخليج ، سواء كطريق بحرى سريع إلى الهند ، أو كطريق برى أكثر سرعة وأمنًا فى الاتصال بين الهند وبريطانيا . وأصبحت بريطانيا تعتبرها خط الدفاع الأول عن أهم مستعمراتها- الهند -، ومحطة أساسية على طريق مواصلاتها الإمبراطورية[1] .

وتمشيًا مع هذه النظرة الاستراتيجية ، كان على بريطانيا إخضاع القوى المحلية فى المنطقة والسيطرة عليها من ناحية ، ومن ناحية أخرى إبعاد أية قوة أوربية أخرى تعمل على أن يكون لها وجود فى المنطقة وقد بلور اللورد لانسدون

(*) كلية الآداب - جامعة المنوفية .

Lansdowne – وزير خارجية بريطانيا – ذلك بتصريحه في مجلس اللوردات البريطاني ، في مايو سنة ١٩٠٣ ، إذ قال أن السياسة البريطانية في الخليج تهتم في المقام الأول بتشجيع وحماية التجارة البريطانية ، وفي نفس الوقت منع أية قوة أخرى من إقامة بحرية أو تحصين ميناء في الخليج ، لأن هذا العمل يشكل تهديدًا خطيرًا للمصالح البريطانية[٣] .

ولتحقيق الشق الأول من هذه النظرة الاستراتيجية – وهو إخضاع القوى المحلية في المنطقة والسيطرة عليها – وجهت بريطانيا عدة حملات بحرية ضد القواسم على ساحل عمان ، في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، بهدف إخضاعهم لسيطرتها بحجة مكافحة القرصنة . ونجحت في ذلك بحملتها البحرية ضدهم سنة ١٩ - ١٨٢٠[٤] ثم اتجهت بعد ذلك إلى السيطرة على الأسطول العماني ، الذي أصبح يشكل منافسًا محليا قويا للبحرية التجارية البريطانية في منطقة الخليج ، بعد تدمير أسطول القواسم .

وكان الأسطول العماني في بداية القرن التاسع عشر كبيرًا نسبيًا ، إذ كان في مدينة مسقط وحدها نحو ١٥ سفينة من الطراز الغربي المربع الهيكل ، وثلاث مراكب صغيرة ، ونحو ٢٥٠ سفينة شراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة . هذا إلى جانب مائة سفينة أخرى تزاول نشاطها الملاحي في ميناء صور . كذلك كانت هناك سفن أخرى في موانئ عمان الأخرى كميناء صحار . وكانت السفن العمانية تقوم برحلات تجارية إلى سواحل الهند الغربية واليمن والبحر الأحمر وأفريقيا الشرقية ، إضافة إلى موانئ الخليج الأخرى . وكانت السفن الكبيرة منها تصل في رحلاتها إلى كلكتا وملاكا وبتافيا (جاكرتا) . ولعبت السفن العمانية والتجار العمانيون دورًا هامًا في تجارة المحيط الهندي ، كموزعين ومنظمين للسلع التجارية التي ترد من تلك البلاد[٥] .

وكان طبيعيًا أن تبوأ مسقط مركزًا مهمًا في تجارة المحيط الهندي في ذلك الوقت ، إذ كان يجري فيها التبادل التجاري في السلع والمنتجات القادمة من أو

المتجهة إلى بلاد كثيرة في جنوب غرب آسيا وفي أفريقيا ، إضافة إلى تجارتها الداخلية . ولكنها بدأت تفقد أهميتها كمركز تجاري دولي تدريجيًا ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ويرجع ذلك إلى تركيز السيد سعيد بن سلطان حاكم عمان (١٨٠٤ - ١٨٥٦) ، اهتمامه على ممتلكاته في سواحل شرق أفريقيا ، ثم نقل عاصمته إلى زنجبار منذ سنة ١٨٣٢ . واعتماده على الهنود في تنفيذ سياسته الاقتصادية في شرق أفريقيا . وتعرض عمان للضغط الخارجي عليها[٦] .

وخلال تلك الفترة كانت بريطانيا قد انفردت بالهيمنة على منطقة الخليج ، معتمدة على قوتها البحرية والعسكرية . واستخدمت في ذلك أسلوب المعاهدات مع حكام المنطقة[٧] .

ومن المعاهدات التي عقدتها ، معاهدات مكافحة تجارة الرقيق[٨] . وكانت هذه المعاهدات هي وسيلتها للسيطرة على الأسطول التجاري العماني . من ذلك أنها وقعت مع السيد سعيد معاهدتين لمكافحة تجارة الرقيق سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٤٥ . وحصلت في المعاهدة الأخيرة على حق تفتيش السفن العمانية ومصادرتها ، إذا ما اشتبه في أنها تحمل رقيقًا من أفريقية . وفي أبريل سنة ١٨٧٣ ، عقدت معاهدة جديدة مع السيد تركي بن سعيد سلطان مسقط (١٨٧١ - ١٨٨٨) ، حرم بمقتضاها استيراد الرقيق من الخارج . وأعطيت للسفن الإنجليزية الحق في تفتيش ومصادرة السفن العمانية التي تحمل الرقيق[٩] .

وجدير بالذكر أن بعض الدول – خاصة فرنسا – عارضت حق بريطانيا في تفتيش السفن ، كما لم تستطع بريطانيا الحصول على حق تفتيش السفن الفارسية بصورة مطلقة في معاهداتها مع فارس سنة ١٨٥١ ، مثلما حصلت عليه من الإمارات العربية . ولم تنجح في عقد معاهدة مع الدولة العثمانية في هذا الخصوص ، وإنما توصلت إلى أن تصدر الدولة العثمانية تصريحًا بحظر تجارة الرقيق

بين ولاية بغداد وشرف أفريقية سنة ١٨٤٧ ، وعندما عقدت معاهدة سنة ١٨٨١ بين الطرفين ، نص فيها على أن يكون حق التفتيش ساريًا على الطرفين ، وأن تسلم السفن المخالفة لأقرب سلطة عثمانية لمحاكمتها . لذلك كان حق التفتيش والمصادرة منصبًا على السفن العربية فقط[٩] .

ولم تكن عمليات التفتيش ، التي تقوم بها السفن البريطانية للسفن العربية ، عادلة تمامًا ، خاصة وأنه قد صدر عام ١٨٤٨ مرسوم قضائي بريطاني ، يتضمن صرف مكافآت مالية للبحارة الإنجليز في حالة ضبطهم سفنًا تعمل بتجارة الرقيق. ونص على منح البحارة مكافآت معينة عن كل رأس تضبط من الرقيق ، أو عن كل طن من حمولة السفينة المصادرة . وترتب على ذلك ازدياد عمليات التفتيش ، لدرجة أنه كان هنالك شك كبير في سلامتها . وكانت السفن العربية تصادر أحيانًا لمجرد أن بحارتها من الزنوج[١٠] وقد أدى اعتراض السفن البريطانية المسلحة للسفن التجارية العربية ، وتفتيشها ، وتوقيع الغرامات على أصحابها أو مصادرتها ، إلى إضعاف نشاط هذه السفن التجاري لصالح السفن الإنجليزية .

وترتب على ذلك أن تعرضت مسقط وباقي السواحل العمانية للتدهور الاقتصادي والتجاري في نهايات القرن التاسع عشر . ولم ينج من هذا التدهور سوى مدينة صور[١١] التي اعتمد أصحاب السفن التجارية فيها على رفع الأعلام الفرنسية ، لحمايتهم من تفتيش أو اعتراض السفن الإنجليزية لسفنهم . خاصة وإن فرنسا كانت رافضة لجميع الإتفاقيات الخاصة بحق تفتيش السفن ، ولم توافق على قرارات مؤتمر بروكسل لسنة ١٨٩٠ ، الخاص بمكافحة تجارة الرقيق . وعندما وافقت على هذه الإجراءات في يناير سنة ١٨٩٢ ، كانت لها تحفظات فيما يختص بحجز السفن التي ترفع العلم الفرنسي بواسطة السفن الحربية الأجنبية[١٢].

وجدير بالذكر أن ترحيب أهل صور برفع العلم الفرنسي على سفنهم ، يرجع إضافة إلى محاولتهم التخلص من تفتيش سفن الأسطول الإنجليزي لسفنهم

- الذي كثيرًا ما كان الشك يكتنف إجراءاته - إلى شعور بالمرارة تجاه العداء الإنجليزي لهم منذ بداية القرن التاسع عشر . فقد ربط الإنجليز بينهم وبين القواسم في بداية ذلك القرن[١٣] ، وحرصوا في أول إتفاقية بينهم وبين القواسم سنة ١٨٠٦ - وهي التي أعقبت الحملة الإنجليزية الأولى ضد القواسم سنة ١٨٠٥ - على تخصيص المادة الثالثة منها لاستعادة الممتلكات البريطانية التي قد توجد على أسطول أهل صور[١٤] .

وبمجرد أن تمكن الإنجليز من القضاء على قوة القواسم البحرية بحملة ١٩ / ١٨٢٠ ، وجهوا حملة إلى صور للقضاء على قوة أهلها البحرية ، مستخدمين نفس الحجة التي استخدموها في القضاء على قوة القواسم البحرية ، وهي القضاء على القرصنة . ولكن هذه الحملة فشلت في تحقيق هدفها باحتلال المدينة ، بل تكبدت خسائر بشرية كبيرة اضطرتها إلى الانسحاب . وفي سنة ١٨٢١ ، وجهت بريطانيا حملة أخرى أكثر قوة إلى صور . وبعد معركة رهيبة اضطر أهل صور إلى الاستسلام ، حيث تم أسر بعضهم وإرسالهم إلى بومباي ، حتى تم الإفراج عنهم بعد حوالي سنتين[١٥] .

وفي سنة ١٨٦٦ ، تلقى المقيم البريطاني في الخليج بلي Pelly ، نبأ فشل حملة بريطانية ضد الوهابيين في القطيف ، فرأى ضرورة القيام بعملية ضخمة لاستعراض القوة البريطانية . ووجد ضالته في قبيلة الجنبة سكان جعلان ، وهي المنطقة التي تقع فيها مدينة صور . وعندما وصل بلي إلى صور ، في فبراير سنة ١٨٦٦ ، طالب قبيلة الجنبة بدفع مبلغ ٢٧ ألف ريال نمسوي عقابًا لهم لاعتدائهم على بعض الرعايا البريطانيين ، وهددهم بتدمير بلدتهم . وقد أذعن شيوخ الجنبة أمام القوة لمطالب بلي ، وطلبوا أمهالهم حتى فصل الربيع ، وهو الوقت الذي تعود فيه سفنهم التجارية من البحر الأحمر ، حتى يمكنهم دفع المبلغ المطلوب . ولكن بلي - الذي كان يهدف إلى استعراض القوة - رفض طلبهم . وبدأت سفنه في

إطلاق النار على معاقل البلدة ، حتى دكتها . وقامت زوارقه الحربية بتدمير السفن الشراعية الراسية فى ميناء صور[١٩] .

* * *

أمام هذا الموقف العدائى من الإنجليز تجاه أهل صور ، سواء بتوجيه الحملات البحرية ضدهم ، أو تدمير سفنهم ، واعتراض الموجود منها فى عرض البحر تحت حجة البحث عن الرقيق ، والذى أثر على مصدر رزقهم الأساسى ، وهو النقل التجارى[٢٠] ، لم يجد الصوريون أمامهم سوى الحصول على الأعلام الفرنسية ورفعها على سفنهم ، لحماية أنفسهم من مضايقات السفن الإنجليزية لهم.

وقد اعتمدت فرنسا فى منحها الأعلام الفرنسية لبعض السفن العمانية ، - خاصة سفن أهل صور - ، على نظام الامتيازات الذى كان يسمح للدول الأوربية بأن تمنح حمايتها لبعض رعايا الدول الآسيوية والأفريقية . وكان هذا الامتياز يمنح فى الأصل للأشخاص الذين يعملون فى القنصلية ، ويتيح لهم رفع العلم الفرنسى على سفنهم ، وبالتالى يتمتعون بجميع الامتيازات الأجنبية . ولكن كثيرًا ما كانت الدول الأوربية تسىء استخدام هذا الحق ، ومنها بريطانيا التى كانت تتصرف بنفس الطريقة مع بعض الحكام الوطنيين فى منطقة المحيط الهندى . ومع ذلك فقد احتجت بشدة على منح الفرنسيين أعلامًا لبعض أهالى صور ، عندما رأت فى ذلك تهديدًا لمصالحها فى المنطقة[٢١] .

وجدير بالذكر أن أقدم وثيقة متعلقة بظهور العلم الفرنسى على سفن عمانية ، يعود إلى سنة ١٨٤٥ . ويرجع ذلك إلى أنه منذ احتلال فرنسا لجزيرة " نوصى بيه " التى تقع شمالى مدغشقر ، سنة ١٨٤١ ، وجزيرة " مايوتا " - إحدى جزر القمر ، وجد الفرنسيون أصحاب سفن عمانية مستقرين فى تلك الجزر ، ويملكون عددًا من مزارع القصب والفانيليا والبن . وكانوا ينقلون البضائع على متن سفنهم لحسابهم الخاص ، ويرفعون العلم العمانى الأحمر اللون . ولتنظيم وضعهم وممارسة وقابة أشد عليهم ، تم إنشاء مكتب بحرى فى مايوتا ، مهمته

مراقبتهم وتحصيل بعض الرسوم منهم . وهكذا ظهر العلم لأول مرة فوق مؤخرة السفن العمانية[٢٢] .

كذلك يلاحظ أن تاريخ أقدم وثيقة متعلقة بظهور العلم الفرنسى على سفينة عمانية ، يأتى فى أعقاب معاهدة سنة ١٨٤٤ ، التى عقدتها فرنسا مع السيد سعيد سلطان مسقط ، والتى تنص مادتها الرابعة على أن رعايا سلطان مسقط الذين يدخلون فى الخدمة الفرنسية ، تكون لهم نفس الامتيازات التى يتمتع بها الفرنسيون ، مما يفسر أيضًا منح فرنسا أعلامها لبعض السفن العمانية[٢٣] .

وفى سنة ١٨٦٣ ، استرعت ظاهرة رفع السفن العمانية العلم الفرنسى نظر الحكومة البريطانية . واعتبرت أن مثل هذا الإجراء الذى تقوم به السلطات الفرنسية ، يقف حجر عثرة فى سبيل إلغاء تجارة الرق ، حيث أن السفن المصرح لها برفع العلم الفرنسى تعفى من تفتيش الطرادات البريطانية . وعلى الرغم من الاحتجاجات الرسمية التى قدمتها وزارة الخارجية البريطانية بلندن إلى حكومة باريس ، فقد استمر القناصل الفرنسيون يعملون على خلق المتاعب أمام السلطات البريطانية فى الخليج[٢٤] .

على أية حال لم تعط بريطانيا مسألة الأعلام الفرنسية للسفن العمانية أهمية كبيرة إلا منذ سنة ١٨٩١ . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء الأحداث الجارية فى القارة الأوربية ، وكذلك فى ضوء التطورات السياسية داخل فرنسا . ففى أغسطس سنة ١٨٩١ تم توقيع إتفاق تقارب بين فرنسا وروسيا ، وتأكد هذا التقارب بإتفاقية عسكرية بعد ذلك بعام (أغسطس ١٨٩٢)[٢٥] ورغم أن هذا التحالف الفرنسى الروسى كان موجهًا ضد ألمانيا وحدها ، فقد أثار قلق الحكومة البريطانية فيما يتعلق بظهور التضامن بين الدولتين خارج نطاق أوربا ، خاصة وأن روسيا نفسها كانت تنافس بريطانيا فى محاولات السيطرة على فارس[٢٦] .

وتعود أهمية التحالف بين فرنسا وروسيا ، إلى أن الرأى الذى ساد فرنسا فى ذلك الوقت كان ضرورة ضمان أمنها فى القارة الأوربية ، حتى يمكنها النجاح

في سياستها الاستعمارية . وأن التحالف مع روسيا يوفر لها الأمن في أوربا . وقد عبر عن ذلك السياسي الفرنسي الكلاسيكي في خطبة برلمانية سنة ١٨٩٣ ، بقوله " ألم يكن حقيقيًا أن إتمام عملنا الاستعماري يتوقف على نجاح سياستنا الأوربية؟". كما عبرت عنه مجلة أفريقية الفرنسية L'Afrique Francaise في سنة ١٨٩٨، بذكرها أن تحقيق المخططات الاستعمارية يجبر فرنسا على البحث في القارة الأوربية عن الأمن ، بل حتى عن التأييد . وأنه بدون ذلك يصبح العمل الذي قامت به في آسيا وأفريقيا ليس سوى مجموعة من المغامرات الخطرة . وأنه لا يمكن لفرنسا أن تواجه جبهتين في وقت واحد[٢٤] .

وتزامن عقد التحالف الروسي الفرنسي ، مع ازدهار حركة التوسع الاستعماري الفرنسية منذ سنة ١٨٩٠ ، وهي الحركة التي نالت تأييد نسبة كبيرة من رجال المال والصناعة الفرنسيين ، خاصة المهتمين منهم بالتصدير . وساعد على تدعيم هذه الحركة ، التحالف الفرنسي الروسي سنة ١٨٩١ ، وإنشاء جيش استعماري قائم على التطوع وليس على التجنيد الإجباري ، مما أدى إلى تقليل معارضة الفرنسيين الذين تخوفوا من إرسال أبنائهم المجندين إجباريًا للحروب خارج فرنسا . وقوى هذا الاتجاه وجود حزب استعماري نشيط للغاية . وكانت دعامة هذا الحزب ، لجنة أفريقية الفرنسية ، التي تكونت في نوفمبر سنة ١٨٩٠ من سياسيين ومثقفين وبعض رجال جيش المستعمرات . هذا عدا الإتحاد الاستعماري الذي أنشئ سنة ١٨٩٥ ، وضم بعض رجال الأعمال والاقتصاديين الفرنسيين في المستعمرات . وكان الحزب الاستعماري يجد مساندة في الأوساط العسكرية والبحرية الفرنسية ، وكذلك لدى البعثات الدينية . كما كان له متحدثون أقوياء باسمه في مجلس النواب . وكان لكبار المستعمرين صلات شخصية دائمة مع الوزراء ، وحتى مع رئيس الجمهورية[٢٥] .

وقد استغل الفريق الاستعماري الفرنسي العلاقة بين فرنسا وروسيا ، ضمن عملية التنافس الفرنسي الإنجليزي في مختلف ميادين الصدام في العالم . وانفجر

الصراع بين الطرفين في سيام (١٨٩٣ - ١٨٩٦) ، والسودان (١٨٩٦ - ١٨٩٨) ، وغرب أفريقية (١٨٩٧ - ١٨٩٨) ، كما انفجر الصراع في منطقة الخليج أيضًا[٢٦] . وكانت منطقة الخليج قد شغلت حيزًا كبيرًا من اهتمامات كبار الاستعماريين الفرنسيين . ففي نوفمبر سنة ١٨٩٢ ، صرح المسيو ديلونكل أحد نواب الحزب الاستعماري – في اجتماع الجمعية الوطنية الفرنسية ، بأن كرامة فرنسا تحتم أن يكون لها وكيل قنصلي في مسقط لتسجيل أسماء المواطنين المتمتعين بالحماية الفرنسية . وأنها ستكون في وضع يسمح لها بالتعاون مع روسيا ، وتثبيت وجودها كحليف قوي لها ، إذا ما تمكنت من تثبيت أقدامها في الخليج[٢٧] .

وفي أوائل سنة ١٨٩٣ ، طالب المسيو ديلونكل – خلال مناقشة للميزانية الفرنسية العامة – باعتماد مبلغ إضافي قدره سبعة آلاف فرنك ، لإنشاء قنصلية في مسقط . ووعد وزير الخارجية الفرنسية في ذلك الوقت ، أثناء المناقشة بإنشاء القنصلية المذكورة . وتنفيذًا لذلك تم اختيار دبلوماسي فرنسي يجيد التحدث باللغة العربية هو المسيو أوتافي Ottavi ، الذي سبق له العمل في زنجبار ، كما شغل مناصب أخرى في منطقة المحيط الهندي . ووصل أوتافي إلى مسقط في ٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ، لتسلم عمله كنائب قنصل لفرنسا فيها[٢٨] .

وجدير بالذكر أنه لم تكن لفرنسا تجارة رائجة في مسقط والبلاد المجاورة لها في ذلك الوقت . لذا فإن إنشاء قنصلية فرنسية في مسقط كان في حقيقته أمرًا سياسيًا أكثر من كونه هدفًا اقتصاديًا . وربما كان هذا ما قدرته السلطات البريطانية على الأقل[٢٩] ، خاصة وأن هذه السلطات رأت أن أوتافي عندما باشر عمله في مسقط إتخذ سبيلين اثنين لنشاطه ، هما : الانقضاض من نفوذ الممثل البريطاني عند السلطان ومن حوله ، والعمل على تشجيع أصحاب السفن العمانيين على رفع العلم الفرنسي على سفنهم[٣٠] .

ولم تكن مهمة أوتافي في البداية سهلة ، إذ تخوف السلطان من أن يكون مجيئه محاولة من فرنسا لتأكيد حمايتها على العمانيين الذين يرفعون العلم الفرنسي

على سفنهم ، أو فصل ميناء صور عن بقية أجزاء مملكته[٣١] لذلك لم يتمكن أوتافى من مقابلة السلطان إلا بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى مسقط . وقد برر السلطان هذا التصرف – حسبما جاء فى تقرير لوزارة الخارجية الفرنسية – بأن أوتافى لم يصل على سفينة حربية كما هو الحال مع الإنجليز ، ولم يحضر معه رسالة شخصية من الحكومة الفرنسية[٣٢] .

وسرعان ما اكتسب أوتافى ثقة فيصل بن تركى ، سلطان عمان . وساعده على ذلك موقف الإنجليز السلبى من السلطان ، عندما تمردت عليه بعض القبائل ، وتمكنت من السيطرة على مسقط خلال شهرى فبراير ومارس سنة ١٨٩٥[٣٣] وكان ذلك فى الوقت الذى عرض أوتافى المساعدة العسكرية على السلطان ، وأرسل فى طلب حضور السفينة الفرنسية تورود Troud .ورغم أنه لم يتمكن من مساعدة السلطان بشكل فعال ، فوصول السفينة المذكورة متأخرة ، إلا أن موقفه هذا أكد للسلطان حسن نية الحكومة الفرنسية والامكانيات التى تحت تصرفها[٣٤] .

وقد عبر السلطان عن ميله للفرنسيين وثقته فى أوتافى ، بأن عرض عليه واحدا من أجمل منازل مسقط ليكون سكنًا له ، وهو ما يعرف اليوم بـ " بيت فرنسا " ، مما جعله على قدم المساواة مع الإنجليز ، الذين كانت مساكنهم من أحسن مساكن مسقط[٣٥] وتحت إحساسه بضغط الإنجليز عليه ، بدأ السلطان يميل إلى أحاديث أوتافى معه . وكانت هذه الأحاديث تدور حول سيادة دولته وحريته فى إدارة شئونه الخارجية حسب القانون الأوربى .وأنه المسئول الأول عن إدارة دفة الحكم فى بلاده . كما كان أوتافى يعرضه على تأكيد استقلاله عن السيطرة البريطانية[٣٦] .

ومن دلائل تزايد النفوذ الفرنسى لدى السلطان ، أنه إتخذ مترجم أوتافى ، الشيخ عبد العزيز – الذى ينتمى إلى مدينة صور – سكرتيرًا خاصًا له . وكان عبد العزيز قبل وصوله إلى مسقط سنة ١٨٩٣ ، يعمل سكرتيرًا خاصًا لسلطان زنجبار،

وتم طرده منها بتحريض من الإنجليز ، مما جعله معارضًا للنفوذ البريطانى . ومن مهامه كسكرتير للسلطان ، تولى أمر مراسلات السلطان مع الإنجليز ، وبالتالى صار أوتافى على علم بها . ولم يكن عبد العزيز فقط هو المعارض الوحيد للنفوذ البريطانى فى بلاط السلطان ، إذ بدأ السلطان يقرب إليه العمانيين المناهضين للإنجليز ، فقام سنة ١٨٩٨ بعزل وزيره محمد بن سعيد المؤيد للنفوذ الإنجليزى ، وعين بدلاً منه محمد بن عزان المؤيد للنفوذ الفرنسى[٣٧] .

وجدير بالذكر أنه منذ وصول أوتافى إلى مسقط ، تزايد عدد السفن العمانية التى ترفع العلم الفرنسى . فيذكر لوريمر أنه فى سنة ١٨٩٤ (سنة وصول أوتافى إلى مسقط) ، كان عدد السفن التى ترفع العلم الفرنسى ٢٣ سفينة ، كلها من صور . وفى سنة ١٨٩٧ بلغت ٣٨ سفينة . وقد تسلم بعضها الأعلام من مدغشقر ، البعض الآخر من أبوك ، أو من شرق أفريقية . وكان العلم الفرنسى يسلم ومعه شهادة تجدد سنويًا تعرف باسم " ترخيص الملاحة " ، إما بضمانة عقار غير منقول فى إحدى المستعمرات الفرنسية ،أو بضمان كفيل يعمل للعلم الفرنسى. وكان هذا الامتياز خاصًا بالسفينة نفسها وليس بصاحبها . أى أنه يمكن تغيير مالك السفينة وبحارتها ، وتظل متمتعة بالامتياز[٣٨] .

وقد جرت مراسلات طويلة بين المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط ونائب القنصل الفرنسى فيها ، حول العلاقات الفرنسية البريطانية فى مسقط . وأوضح أوتافى فى هذه المراسلات أن رفع الأعلام الفرنسية على سفن صور ، والسفن الأخرى التابعة لرعايا السلطان ، كان أمرًا جاريًا منذ فترة طويلة . وأن السلطان كان موافقًا على ذلك . كما أوضح أوتافى للسلطان أن إيقاف رفع الأعلام الفرنسية على سفن صور سوف يلحق به أضرارًا جسيمة ، وكذلك بتجارة مسقط ، وسوف يؤدى إلى ثورة أهل صور ضد السلطان[٣٩] .

والملاحظ أن الموظفين الفرنسيين دأبوا على تفنيد إتهام الإنجليز للسفن العمانية التى تحمل أعلامًا فرنسية ، بأنها تعمل فى نقل الرقيق وتهريب السلاح .

ففي سنة ١٨٩٥ ، كتب أوتافي إلى وزير المستعمرات الفرنسي ، قائلاً : " إنني واثق من أن مالكي سفن صور لا يسعون للحصول على العلم الفرنسي إلا لما يحققه ذلك من تسهيلات لهم بالموانئ الفرنسية بالمحيط الهندي ، الذي شهدت علاقاته التجارية مع عمان والساحل الشرقي لأفريقية تطوراً كبيراً . ولدى أسباب مقنعة للاعتقاد بأن من حصل منهم على أوراق فرنسية ، يستوفي بالتالي شروط حسن السير والسلوك التي يقتضيها الحصول على تلك الأوراق ، فإتساع حجم التجارة في صور يفتح أمامهم مجالاً كافياً أنشطتهم الشريفة "[٤٠] .

وكانت السلطات القنصلية الفرنسية تتأكد من عدم قيام تلك السفن بممارسة أنشطة ممنوعة . فكان نائب القنصل يتوجه كل عام إلى صور ، تصاحبه سفينة تابعة للبحرية الفرنسية ، للاشراف على هذه السفن عند وصولها من الساحل الشرقي لأفريقيا . ورغم تلك الاحتياطات ، فإنه حدثت بعض المخالفات[٤١] من ذلك أن السفن البريطانية قبضت على سفينتين صوريتين سنة ١٨٩٦ ، ووجدت عليها شحنة من الرقيق . وتسليم السفينتين إلى القنصل الفرنسي ليحث الأمر حسب طلبه ، ولمحوكم ربانا السفينتين أمام محكمة فرنسية في بوربون ، وحكم عليهما بالسجن الذي تم تنفيذه في مسقط[٤٢] .

وفي شهر يونيو سنة ١٨٩٧ ، زار نائب القنصل الفرنسي في مسقط مدينة صور ، لتفقد السفن التي ترفع العلم الفرنسي . ولم يجد أية مخالفة للنظم الفرنسية . وقد أثار هذه الزيارة المعتمد البريطاني في مسقط ، الذي ضغط على السلطان ليطلب من نائب القنصل الفرنسي إنهاء الحماية الفرنسية على السفن التابعة لأهل صور . وذكر السلطان لنائب القنصل الفرنسي أنه كتب الخطاب تحت ضغط البريطانيين ، الذين هددوه بإيقاف معونة زنجبار ، إذا لم يعمل ضد الفرنسيين . ولمح نائب القنصل الفرنسي للسلطان بأنه لا يمكن لفرنسا أن تتخلى عمن يحتمي بها . وطلب في بداية فبراير سنة ١٨٩٨ من وزارة الخارجية الفرنسية ، أن ترسل

له باخرة حربية فرنسية لتدعيم مركزه . ووصلت بالفعل السفينة جابيس Gabes إلى مسقط في مارس سنة ١٨٩٨ ، ثم قامت بزيارة إلى صور . وبعد وصول السفينة جابيس ، أصبح موقف السلطان تجاه الفرنسيين أكثر مرونة[٤٣] .

* * *

وقد بلغ النفوذ الفرنسي في مسقط ذروته سنة ١٨٩٨ . ففي تلك السنة تمكن أوتافي من الحصول على امتياز تأجير بندر جصة - وهو ميناء صغير يقع جنوبي مسقط - من السلطان ، بهدف إنشاء محطة للفحم الحجري لتموين السفن الفرنسية ، أسوة بالمحطة التي كان يستخدمها البريطانيون في مسقط منذ عام ١٨٥٤ . وتم ذلك خلال زيارة السفينة الحربية الفرنسية جابيس لمسقط . وفي نفس العام زارت السفينة الحربية الفرنسية سكوربيون مسقط ، وخلال هذه الزيارة تم تبادل الهدايا بين السلطان والفرنسيين . ويبدو أن تشجيع السلطان للمصالح الفرنسية في عمان ، كان محاولة منه لإقامة توازن بينها وبين إنجلترا ، وبذلك تستطيع عمان أن تتمتع بقسط أكبر من الاستقلال[٤٤] .

والملاحظ أن نجاح أوتافي في مهمته ، وزيادة النفوذ الفرنسي في مسقط ، يرجع إلى عاملين ، الأول : هو ضعف المسئولين الإنجليز الذين تولوا أمر شئون الخليج في الفترة من ١٨٩٢ حتى ١٨٩٩ . والثاني : هو محاولة السلطان استغلال التنافس الإنجليزي الفرنسي في المنطقة ، لتخفيف الضغط الإنجليزي عليه من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحقيق أكبرقدر من الاستقلال بحكم بلاده .

وجدير بالذكر أنه عند مغادرة السير أدوارد تشارلز روس E.C. Ross منطقة الخليج ، بعد نهاية عمله بها كمقيم سياسي بريطاني ، والتي إمتدت منذ سنة ١٨٧٢ حتى سنة ١٨٩٢ ، كانت بريطانيا قد أحكمت سيطرتها على الشئون الخارجية للإمارات العربية فيها . ولكن هذه السيطرة تعرضت بعد ذلك للاهتزاز حتى نهاية القرن . ويرجع هذا الاهتزاز إلى سببين ، الأول : تجدد منافسات الدول الأوربية لبريطانيا في الخليج . والثاني : تدني مستوى الكفاءة بين

المقيمين البريطانيين الذين أعقبوا روس فى الخليج . وساعد على تدنى مستواهم عدم تقديم حكومة لندن أو حكومة كلكتا الدعم اللازم لهم فى مواجهة المنافسات الأوربية والاضطرابات المحلية فى المنطقة ، لانشغال الحكومتين بمشاكل أخرى أكثر إلحاحًا[٤٦] .

ولم يكن حال المعتمدين السياسيين فى مسقط ، بأفضل من حال المقيمين السياسيين فى الخليج . إذ تولى هذا المنصب ، فيما بين سنتى ١٨٩٢ و ١٨٩٩ ، خمسة معتمدين سياسيين وقد انعكس هذا التغير فى أشخاص الممثلين البريطانيين فى منطقة الخليج ، على كفاءة الجهاز الإدارى للاشراف البريطانى فيها . وكان لعدم إجادتهم اللغة العربية ، وعدم خبرتهم السابقة بالأوضاع المحلية ، وتعاملهم مع السلطان بصورة غير لائقة ، أثره فى وصول العلاقات الإنجليزية العمانية إلى أدنى مستوى لها ، حتى أن السلطان حاول استبدال الحماية الإنجليزية بالحماية الفرنسية سنة ١٨٩٩[٤٧] .

أما بالنسبة لفيصل بن تركى - سلطان عمان - فلم يكن راضيًا عن الإنجليز، ولم يكن الإنجليز راضين عنه[٤٨] وكانت العلاقات بينه وبين الإنجليز سيئة منذ توليه السلطة ، عقب وفاة والده سنة ١٨٨٨ . فرغم أنه أعرب بمجرد الحكم عن أمله فى أن تستمر صداقة البريطانيين معه ، وتعهد بحماية رعاياهم وتحقيق مطالبهم ، فإن اعتراف بريطانيا به تأخر حتى سنة ١٨٩٠ . ومع ذلك وقع معها إتفاقية تجارية فى ١٩ مارس سنة ١٨٩١ ، تعتبر بديلاً للإتفاقية التى تمت مع جده - سعيد بن سلطان - سنة ١٨٣٩ . وأضيف إلى الإتفاقية الجديدة نص يحظر على السلطان منع تصدير أو استيراد أية سلعة ، وعدم فرض ضرائب على الصادرات ، دون موافقة بريطانيا . وفى اليوم التالى عقد معها إتفاقية على تعهده عن نفسه وعن خلفائه ، بعدم التصرف بالتنازل أو الرهن أو البيع أو السماح باحتلال جزء من بلاده ، إلا للحكومة البريطانية[٤٩] .

ورغم استسلام السلطان الكامل للإنجليز ، وخضوعه لضغوطهم الخاصة بتعويضات لرعاياهم من الهنود فى السلطنة[٥٠] ، فإنهم لم يقدموا له يد المساعدة عندما ثار عليه بعض أتباعه سنة ١٨٩٥ بل حاول المعتمد السياسى فى مسقط إرغامه على قبول الصلح مع الثائرين . ومنعت حكومة الهند تصدير الأرز - وهو الغذاء الرئيسى لأهل المنطقة - إلى مسقط خلال تلك الثورة ، فى محاولة للضغط عليه .وطالبته بتعويضات باهظة عن الأضرار التى لحقت برعايا بريطانيا خلالها[٥١] .

والملاحظ أنه فى الوقت الذى إتخذت بريطانيا موقفًا سلبيًا تجاه السلطان خلال ثورة سنة ١٨٩٥ ، ورغم استسلامه لكل ضغوطها السابقة عليه ، فإن القنصل الفرنسى عرض عليه المساعدة ، وأرسل فى طلب سفينة عسكرية فرنسية لتعضيد مركز السلطان ، ووصلت السفينة فعلاً إلى مسقط بعد انتهاء الثورة . كما وقف أهل صور إلى جانب السلطان ، ولعبوا دورًا حاسمًا فى القضاء على الثورة[٥٢] . لذلك كان طبيعيًا أن يميل السلطان إلى ناحية الفرنسيين فى ذلك الوقت. ويرفض طلب المعتمد فى أواخر عام ١٨٩٦ ، بسحب الأعلام الفرنسية من سفن أهل صور ، ومعاقبة أصحابها[٥٣] .

ويبدو أن موقف السلطان فيصل بن تركى ، برفضه طلب المعتمد البريطانى سحب الأعلام الفرنسية من سفن أهل صور ، قد لقى ترحيبًا من أهل عمان ، إذ أرسل أحد العمانيين مقالة إلى صحيفة " المحروسة " القاهرية ، نشرت فى نفس العام ١٨٩٦ ، تستنكر المحاولات الإنجليزية للسيطرة على السلطنة ، وتؤيد موقف السلطان من مقاومتها ، وتمتدح مناقبه ومزاياه وحبه لرعاياه ، وتثنى على علاقاته الطيبة مع الفرنسيين فى ذلك الوقت[٥٤] .

وكان من مظاهر ابتعاد السلطان عن الإنجليز ، تعمده عدم تحية المعتمد البريطانى عند رحيله من مسقط متوجهًا إلى بوشهر ، كما جرت العادة من قبل . وفى أول يناير سنة ١٨٩٨ (ويوافق ذكرى إعلان ملكة بريطانيا إمبراطورة على

افندى) ، تم إطلاق مدفعية السلطان طلقات تحية كما جرت العادة . ولكن السلطان امتنع عن رفع العلم البريطانى فى ذلك اليوم ، رغم وجود المقيم السياسى البريطانى والمعتمد السياسى فى مدينة مسقط . وبرر السلطان عدم رفع العلم ، بأن التحية مقصود بها تحية لجميع الدول المسيحية ، وليس مجرد تهنئة للملكة بريطانيا . وتحت ضغط المقيم اضطر السلطان إلى تقديم اعتذار خطى ، وتم رفع العلم وإطلاق المدفعية مرة أخرى فى ٣ يناير . فى نهاية الشهر تعرض أحد جنود السفينة البريطانية " كوزاك " للإعتداء من قبل بعض عبيد السلطان ، وتعرض ضابطان من السفينة لمعاملة مهينة . ورغم أوامر السلطان بعقاب المخطئين ، فإن هذه الحادثة كشفت عن الاتجاه المعادى للإنجليز فى دوائر القصر السلطانى[٥٥] .

* * *

وفى الوقت الذى أصبح واضحًا تفوق النفوذ الفرنسى على النفوذ الإنجليزى فى عمان ، حدث تغير فى السياسة الإنجليزية فى المنطقة . إذ تولى اللورد كيرزون Curzon منصب نائب الملك وحاكم عام الهند فى يناير سنة ١٨٩٩ . وكان كيرزون على دراية كاملة بشئون الخليج ، وله مؤلف ضخم يتضمن آراءه ، نشره فى سنة ١٨٩٢ . وتتخلص هذه الآراء فى ضرورة سيطرة بريطانيا سيطرة كاملة على منطقة الخليج ، وإبعاد الدول الأوربية المنافسة عنها . إضافة إلى أنه كانت له شخصية عنيفة فى مواجهة المشاكل التى تعترضه ، ويتخذ حيالها إجراءات سريعة وحازمة[٥٦] .

ومن المشكلات التى واجهها كيرزون ، ازدياد النفوذ الفرنسى فى عمان على حساب النفوذ الإنجليزى فيها . لذلك أصدر تعليماته إلى المقيم السياسى لطلب إلغاء امتياز محطة الفحم الممنوحة للفرنسيين فى بندر جصة ، باعتبار أن هذا الامتياز يعتبر خرقًا لمعاهدة عدم التنازل المعقودة سنة ١٨٩١ . ورد السلطان على ذلك بأنه لا يمكنه سحب وعده للفرنسيين ، وأنه إذا كان لدى الإنجليز اعتراض على هذه المسألة فليسووا المشكلة بينهم وبين الفرنسيين مباشرة . وعندما علم

كيرزون برد السلطان ، أصدر تعليماته برفع العلم البريطانى على بندر جصة عند ظهور أية سفينة فرنسية فى ذلك المكان[٥٧] وبالفعل توجهت السفينة البريطانية سفنكس إلى بندر جصة لرفع العلم البريطانى ، ولكن اعترضتها مدمرة فرنسية ، وهددت بإطلاق النار إذا هى قامت بمحاولة إنزال العلم الفرنسى عن الميناء ، تمامًا كما فعل الإنجليز بالنسبة للفرنسيين فى حادث فاشودة[٥٨] .

وفى ٩ فبراير سنة ١٨٩٩ ، وصل المقيم البريطانى ميد Meade إلى مسقط ، حاملاً انذارًا إلى السلطان ، متضمنًا مطالبته بإلغاء الامتيازات التى منحها لفرنسا لمخالفتها لمعاهدة سنة ١٨٩١ ، وأن يطرد الشيخ عبد العزيز من خدمته ، وأن يخفض الضرائب على الصادرات والواردات إلى نسبة ٥٪ ، وألا يفرض على رعايا بريطانيا ضرائب أكثر مما يفرضه على العمانيين . وهدده بقطع معونة زنجبار التى تدفعها بريطانيا . وأبدى السلطان رغبته فى الموافقة على كل المطالب ، ما عدا مطالبته بإلغاء الامتيازات الفرنسية ، وطلب مهلة من الوقت لمناقشتها . ولكن رفض مبدأ المناقشة ، وأمهله ٤٨ ساعة فقط لتسليم رده[٥٩] .

وكان أن قام السلطان بإرسال نسخة من إتفاقية سنة ١٨٩١ إلى المسيو أوتانى ، الذى رد عليه خطيًا فى اليوم التالى بتعارض الإتفاقية مع نصوص التصريح الإنجليزى الفرنسى المشترك سنة ١٨٦٢ ، وبالتالى فهو لا يعترف بها[٦٠] . وأضاف بأن السلطان لا يستطيع التراجع عن امتياز محطة الفحم الحجرى ، الذى منحه للفرنسيين بكامل إرادته . وفى ١١ فبراير أرسل السلطان ردًا إلى المقيم السياسى البريطانى ، يتضمن وجهة النظر التى عبر عنها أوتانى فى خطابه . وأرفق صورة من خطاب أوتانى مع رده ، وطلب أن يعامله الإنجليز برفق . ولكن المقيم البريطانى أعاد إليه خطاب نائب القنصل الفرنسى ، متذكرًا حقه فى مناقشة معاهدة سنة ١٨٩١[٦١] .

وأمام اصرار المقيم السياسى البريطانى ، ووجود سفينة حربية بريطانية فى ميناء مسقط ، عرض السلطان إلغاء امتياز محطة الفحم الممنوح للفرنسيين ، وطلب

حمايته منهم إذا ما تدخلوا ضده نتيجة لإلغاء الامتياز . ولكن ذلك لم يكن كافيًا من وجهة نظر الإنجليز . وكان الأدميرال دوجلاس ، القائد العام للبحرية الهندية ، قد وصل إلى مسقط في ١٤ فبراير ، وطلب من السلطان إلغاء الامتياز الممنوح لفرنسا رسميًا ، وهدد بضرب المدينة بمدافع السفن . وأمام هذا التهديد الإنجليزي الصارم ، وعدم وجود قوة فرنسية تحقق التوازن ، اضطر السلطان إلى الرضوخ لكل طلبات الإنجليز . وأعلن رسميًا في مجلس عام ، إلغاء امتياز بندر حصة الذي سبق منحه لفرنسا[٦٤] .

وقد أدى إجبار السلطان على إلغاء الامتياز الفرنسي في مجلس عام - كما طلب منه المقيم السياسي البريطاني - ، إلى استياء فرنسا من ناحية ، واللورد سالسبوري - رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها في ذلك الوقت - من ناحية أخرى . ووصف اللورد سالسبوري عمل المقيم ، بأنه غلطة قد تؤدي إلى كثير من من المشاكل . وعندما اطلع على تقرير حكومة الهند في هذا الخصوص ، دون رأيه بألا يقوم المقيم البريطاني بالتصرف تلقائيًا من نفسه في مسألة قائمة بين الحكومتين البريطانية والفرنسية دون تخويله السلطة اللازمة . كما انتقد أن تأتي أول معرفته بهذا الموضوع من السفير الفرنسي في لندن[٦٥] .

وجدير بالذكر أن سالسبوري كان يرى ضرورة تهدئة العلاقات بين بريطانيا وفرنسا ، لإبعاد فرنسا عن روسيا . ومن ناحية أخرى كانت هنالك مشاكل أهم تتطلب ضرورة حلها أولاً مع فرنسا . وهذه المشاكل خاصة بتقسيم مناطق النفوذ في أفريقيا الوسطى ، وقضية النزاع حول حقوق الصيد في نيوزيلاندة ، والنزاع حول الهند الصينية . ولا يعني ذلك أن حكومة لندن كانت تتجاوز عما لبريطانيا من نفوذ في سلطنة مسقط ، وإنما كانت تعمل في الواقع على مجرد تهدئة الموقف بينها وبين فرنسا[٦٦] . وفي هذا الإطار عرضت بريطانيا إقامة محطة فرنسية للفحم في ميناء مسقط نفسه ، وبعد عدة اعتراضات وافقت فرنسا على العرض البريطاني[٦٧] .

على أي حال أراد اللورد كيرزون تدعيم السيطرة البريطانية في عمان ، بتعيين معتمد جديد في مسقط تتوفر فيه صفات الحزم والحيوية . ووقع اختياره على يوسي كوكس Percy Z. Cox ، الذي كان وجوده في مسقط - منذ أكتوبر سنة ١٨٩٩ - بداية عهد طويل من نشاطه الاستعماري في البلاد العربية . وأوضح كيرزون لكوكس وجهة نظره في علاقة مسقط ببريطانيا ، وهي أن بريطانيا تمد حاكمها بالإعانة وتملي سياستها ، وأن عليه ألا يسمح بأي تدخل آخر في شئونها . ونصحه بأن عليه أن يجعل السلطان يفهم أن مصالحة مرتبطة بولائه لبريطانيا[٦٨] وكان كوكس عند حسن ظن كيرزون به ، إذ يرجع إليه الفضل الأكبر في ازدياد النفوذ البريطاني في مسقط . ونجح في الإبقاء بين القنصل الفرنسي - أوتافي - والسلطان والشيخ عبد العزيز . وشجع عبد العزيز على ترك السياسة والتفرغ للتجارة في الهند[٦٩] .

وعندما علم كوكس أن أوتافي توجه إلى صور سنة ١٩٠٠ ، في محاولة لفرض الحماية الفرنسية عليها ، قام بزيارة المدينة في يونيو من نفس العام ، مصطحبًا السلطان معه[٧٠] . وفي هذه الزيارة حاول السلطان - تأييد من كوكس - انتزاع تعهد جماعي من أصحاب السفن الصورية ، بإعادة تصاريح الملاحة الخاصة بهم إلى السلطات الفرنسية . وطلب أن يتم تسليم هذه التصاريح بشكل مؤقت إليه شخصيًا . ولكن لم يسلم إليه التصاريح إلا ثلاثة فقط من أصحاب السفن ، أما البقية فقد وقعوا على تعهد بإعادة التصاريح إلى السلطات الفرنسية خوفًا من الإنجليز . وعند وصولهم إلى مسقط تعهدوا لنائب القنصل الفرنسي بتمسكهم بالحماية الفرنسية[٧١] .

وفي ١٥ يونيو سنة ١٩٠٠ ، أصدر السلطان إعلانًا يحظر فيه على رعاياه ، اعتبارًا من ذلك التاريخ ، استلام الأعلام وتصاريح الحماية الأجنبية بدون تصريح كتابي منه . ووزع هذا الإعلان على ممثلي الدول الأجنبية في مسقط بنفس

التاريخ . ولكنه لم يعلنه إلا في السادس من أغسطس[٧٠] وكان الدافع لهذا الإعلان تخوف السلطان من الحكومة البريطانية ، ولم يكن قد مضى إلا أيام قليلة على صدور الانذار البريطاني الخاص بمستودع الفحم . وثبت فيما بعد أن هذا الإعلان لم تكن له آثار مجدية ، رغم شدة تمسك السلطان بعدم الاعتراف بالأوراق الفرنسية ، على أساس أن ما يقوم به الفرنسيون مخالف لتصريح مارس سنة ١٨٦٢ الخاص باستقلال السلطنة[٧١] .

ولم تكن الإجراءات التي تمت في مسقط وصور مقبولة من الحكومة الفرنسية . فقد ألمح السفير الفرنسي في لندن إلى اللورد سالسبوري ، أن حكومته تصر على ضرورة إعادة تسليم الأوراق إلى أصحابها مع تقديم اعتذار كاف . وبينما كانت ألمانية متجهة إلى أن ينحني السلطان للمطالب الفرنسية ، خاصة وأن بريطانيا كانت مشغولة في ذلك الوقت بحرب البوير (١٨٩٨ - ١٩٠٢) ، أصر اللورد هاملتون - وزير الهند - على لفت نظر الحكومة الفرنسية للمساوئ التي ترتكب من جراء رفع الأعلام الفرنسية على السفن الوطنية . وأصدر أوامره بعدم تسليم هذه الأوراق[٧٢] .

وكرد فعل لهذه الأحداث ، أرسلت الحكومة الفرنسية السفينة " دروم " إلى مسقط في أغسطس سنة ١٩٠٠ لتبحث الأمر رسميًا وتتحرى مسألة تجارة الرقيق في السفن التي ترفع العلم الفرنسي . ولكن تحرياتها في مسقط وصور كانت سريعة ، وحاول قادتها إغراء السلطان بتسليمهم تصاريح الملاحة التي أخذها من أصحاب السفن في صور ، وإعادة الشيخ عبد العزيز إلى خدمته مرة أخرى . ولكن هذه المحاولة فشلت ، كما فشلت محاولة في نوفمبر من نفس العام ، عندما وصلت السفينة الحربية الفرنسية " كاتينات "[٧٣] وإن كان يبدو أن السلطان أعطى وعدًا لقائد البحرية الفرنسية ، الذي كان على ظهر السفينة كاتينات ، بعدم الاستمرار في إزعاج حاملي التصاريح الفرنسية[٧٤] .

والملاحظ أن السلطان فيصل بن تركي أراد عدم قطع علاقاته مع الفرنسيين، حتى يمكنه الحفاظ على استقلال بلاده بالتوازن بين الإنجليز والفرنسيين . والواقع أن موقفه كان حرجًا . وقد كتب المستر كافنين - عضو الإرسالية الأمريكية في مسقط في ذلك الوقت - مقالة يؤكد فيها حرج مركز السلطان . فذكر أنه لو اغضب بريطانيا فسيفقد راتبه السنوي (المترتب على إتفاق عام ١٨٦١ الخاص بفصل زنجبار عن عمان) ، وهو أمر مهم بالنسبة إليه . ولو أتبع النصيحة من الحكومة البريطانية ونمادى في علاقاته معها ، فسوف يؤدي ذلك حتمًا إلى حدوث عداءات بينه وبين شيوخ عمان ، مما قد يؤدي إلى ثورة كبيرة عليه[٧٥] ولكنه في النهاية اضطر إلى إتخاذ جانب البريطانيين ، بعد التهديد الحاسم له من السلطات البريطانية .

وجدير بالذكر أنه في ذلك الوقت قامت وزارة الخارجية الفرنسية ، بناء على طلب من وزارة الخارجية الإنجليزية ، باستدعاء أوتافي إلى فرنسا بحجة التباحث معه وجهًا لوجه حول شئون الخليج . وتم تعيين المسيو لارونس Laronce مكانه في مسقط . ولم يتمكن لارونس من استلام مهام وظيفته إلا في أول يوليو سنة ١٩٠١ ، بعد عودة أوتافي من صور ، التي توجه إليها لمراقبة السفن التي تصل إليها من الفترة من ١٥ إبريل حتى ١٥ يونيو من كل عام . ولم يكن لارونس - الذي تمت ترقيته إلى درجة قنصل في سبتمبر سنة ١٩٠٢ - في كفاءة أوتافي ، الذي أعطى وزنًا للوجود الفرنسي في مسقط . وقد استحق لوما شديدًا من وزارة الخارجية الفرنسية ، نتيجة لتقاعسه عندما استبدل أحد البحارة العلم الفرنسي الذي تمزق بعلم آخر إنجليزي . وكان ذلك يمثل حدثًا مهمًا للسلطات الفرنسية ، في ظل التنافس الإنجليزي الفرنسي المحتدم في المنطقة[٧٦] .

وفي سنة ١٩٠٣ ، بلغ التنافس الأوربي في منطقة الخليج درجة كبيرة ، دفعت بريطانيا إلى أن تعلن موقفها من هذا التنافس بتصريح اللورد لانسداون -

وزير الخارجية البريطانية في ذلك الوقت - في مايو سنة ١٩٠٣ . وفي نوفمبر من نفس العام ، قام اللورد كيرزون - نائب الملك في الهند - بزيارة المنطقة في مظاهرة بحرية ، تأكيدًا لنفوذ بريطانيا المتزايد فيها[٧٧] .

وفي نفس العام بلغ التنافس الإنجليزي الفرنسي في عمان ذروته بحادثتين ، الأولى وقعت لسفينة ترفع العلم الفرنسي ، احتجزها شيخ بني بو علي في صور . الثانية ، اعتقال السلطان لخمسة من أهالي صور حاولوا خرق قوانين الحجر الصحي . ولما كان ثلاثة منهم لهم قوارب ترفع العلم الفرنسي ، اعتبرهم القنصل الفرنسي في حمايته . وعندما توتر الأمر ووصلت الأمور بين الدولتين إلى احتمال الأشتباك المسلح بين سفنهما في عمان ، إتخذ السلطان موقفًا حياديًا ، بأن أعلن موافقته على القرار الذي تتخذه لجنة مشتركة من الإنجليز والفرنسيين[٧٨] .

وفي الوقت الذي توترت فيه الأمور بين ممثلي الدولتين في عمان ، كانت ظروف السياسة في القارة الأوربية تدفع الدولتين إلى التقارب ، بعكس ما كان سائدًا في بداية التسعينات من القرن التاسع عشر . ففي سنة ١٩٠٢ وضحت أهداف السياسة الخارجية الفرنسية ، والتي تلخصت في تدعيم موقف فرنسا في أوربا بزعزعة التحالف الثلاثي[٧٩] ، والقضاء على الخلافات الاستعمارية الفرنسية الإنجليزية . ولقيت هذه السياسة تأييد معظم الصحف الفرنسية ، التي كانت تخشى حدوث تقارب إنجليزي ألماني على حساب فرنسا . كذلك أيد رجال الأعمال الفرنسيون التقارب الإنجليزي الفرنسي ، حتى لا تضار مصالحهم في إنجلترا ، في حالة تنفيذ برنامج الحماية الجمركية الإنجليزية الذي وضعه تشمبرلين سنة ١٩٠٢ . ولقي هذا الاتجاه ترحيبًا من الحزب الاستعماري الفرنسي أيضًا[٨٠] .

ومن ناحية أخرى كانت إنجلترا ، التي أقلقها إعلان ألمانيا سنة ١٨٩٨ - ١٩٠٠ عن خططها لكي تصبح دولة بحرية عظمى ، قد تخوفت من إنشاء ألمانيا بحرية حربية كبيرة إلى درجة تمكنها من تهديد حرية المواصلات الإمبراطورية ، بل

حتى أمن الجزر البريطانية نفسها[٨١] وحتى يمكنها القضاء على مخاوفها هذه ، حاولت التحالف مع ألمانيا . إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، فاتجهت للتحالف مع فرنسا حتى تتخلص من عزلتها في القارة الأوربية . وقد شجع على التحالف مع فرنسا ، أن الرأي العام البريطاني كان ضد ألمانيا ، إذ أصرت الصحف الإنجليزية على توضيح المنافسة التجارية بين البلدين ، وأظهرت قلقها بشأن مشروع سكة حديد بغداد ، واتهمت ألمانيا بالتسبب في إحداث خصام إنجليزي أمريكي بسبب حوادث فنزويلا[٨٢] .

* * *

وهكذا أدت الظروف التي مرت بها كلتا الدولتين - بريطانيا وفرنسا - في أوربا إلى التقارب بينهما ، وتم عقد ما عرف بالوفاق الودي بين الدولتين في ٤ إبريل سنة ١٩٠٤ . ومع أن هذا الوفاق كان متعلقًا بسياسة الدولتين في كل من مصر ومراكش ، إلا أنه انعكس على كل المشاكل المعلقة بينهما[٨٣] ومن هذه المشاكل ، تلك التي ترتبت على منح الأعلام الفرنسية لبعض سفن أهل صور في سلطنة عمان ، والتي كادت أن تؤدي إلى صدام مسلح بين سفنيهما في مسقط سنة ١٩٠٣ ، إذ تم الإتفاق بين الدولتين على رفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي . كما تم الإتفاق على أن يطلق السلطان سراح المسجونين الخمسة من أهل صور ، وأن تنسحب السفن الحربية من مسقط[٨٤] .

وفي ١٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، اتفقت الدولتان على قواعد إحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي . كما اتفقتا على ضرورة إشراك إيطاليا في التحكيم[٨٥] وعينت إنجلترا ميفيل فولر - رئيس قضاة الولايات المتحدة - كقاض من جانبها . بينما اختارت فرنسا القاضي الهولندي يونجمر دوسافوران لومان ، كقاض من جانبها . وعندما اختلفت الدولتان على اختيار قاضي ترجيح خلال المهلة القانونية ، قام ملك إيطاليا - وهو يمثل السلطة المختصة لهذا الغرض بموجب اتفاق سنة ١٩٠٤ - بتعيين القاضي النمساوي هنري لامانس كقاضي ترجيح[٨٦] .

واستغرقت إجراءات البت في القضية لمدة أشهر . وقد اعترضت فرنسا خلالها على إشراك سلطان مسقط في القضية ، الذي حاولت إنجلترا إشراكه كطرف فيها ، واعتمدت فرنسا في اعتراضها على أن السلطان مرتبط مع بريطانيا بمعاهدة حماية سنة ١٨٩١ . وأحست المحكمة بهذا الاعتراض[٨٧] . وبعد تقديم مذكرات ومذكرات مضادة من الطرفين ، صدر حكم المحكمة في الثامن من أغسطس سنة ١٩٠٥[٨٨] .

وقد نص الحكم على أن يحتفظ أصحاب السفن ، الذين حصلوا على الأعلام الفرنسية قبل ٢ يناير سنة ١٨٩٢ (تاريخ توقيع فرنسا على قرارات مؤتمر بروكسل سنة ١٨٩٠ الخاص بمكافحة تجارة الرقيق) بهذه الأعلام ، طالما يتم تجديد تصاريحها من قبل السلطات الفرنسية لصالح الممنوحة لهم . أما بعد ذلك (٢ يناير سنة ١٨٩٢) فليس من حق فرنسا منح أعلامها للسفن التابعة لسلطان مسقط . وتضمن الحكم أنه لا يجوز نقل حق رفع العلم الفرنسي من سفينة إلى أخرى ، حتى ولو كان صاحبها هو نفس الشخص . كما لا يحق نقل هذا الحق ، إذا انتقلت ملكية السفينة من شخص إلى آخر . وتضمن الحكم ، حق سلطان مسقط في ممارسة القضاء على مياهه الإقليمية ، حتى ولو كان رعاياه يحملون الأوراق الفرنسية . كما نص على عدم التعرض لأية سفينة عمانية تقوم برفع العلم الفرنسي ، حتى في المياه الإقليمية للسلطنة ، وذلك طبقًا لمعاهدة ١٨٤٤ بين فرنسا ومسقط[٨٩] .

وقد اتفقت الدولتان على إجراءات تنفيذ قرار المحكمة ، الذي جاء في مجمله لصالح الإدعاءات البريطانية . وتم تكليف المعتمد البريطاني في مسقط ، المستر جراي ، وكذلك المسيو لارونس نائب القنصل الفرنسي فيها ، بالتعاون معًا لتنفيذه . وتم الإتفاق على أن يصدر سلطان مسقط إعلانًا إلى رعاياه ، يخطرهم فيه بقرارات المحكمة[٩٠] وبالفعل أصدر السلطان الإعلان المطلوب ، والذي تضمن

أسماء أصحاب السفن من رعاياه الذين لهم حق رفع العلم الفرنسي ، وعددهم ثلاثة عشر شخصًا ، وكذا السفن التي يملكونها وعددها ثلاث وعشرون سفينة[٩١] .

وجدير بالذكر أنه في الوقت الذي كانت مشكلة الأعلام معروضة للنظر في المحكمة الدولية ، في إطار الوفاق بين الدولتين ، كانت الأمور في مسقط تأخذ شكلاً آخر . إذ عندما علم المعتمد البريطاني في مسقط بقرب وصول بارجة فرنسية إلى الميناء ، طالب حكومته بضرورة تواجد سفينة حربية بريطانية في نفس التوقيت . ورغم إنشغال السفن الحربية البريطانية في المنطقة في مهام أخرى ، إلا أنه تم إرسال سفينة فلنت في مسقط حتى غادرتها السفينة الفرنسية في ١٦ مايو سنة ١٩٠٥[٩٢] .

وفي يونيو سنة ١٩٠٥ ، توجه نائب القنصل الفرنسي إلى صور ، حيث جمع الأعلام الفرنسية القديمة من أصحاب السفن فيها ، وأعطاهم أعلامًا جديدة بدلاً منها . ورغم أنه لم يقم بتسليم أعلام لأشخاص جدد لم تكن لديهم أعلام من قبل ، فإن هذا الموضوع كان له تأثير كبير عند المقيم السياسي البريطاني في الخليج وحكومة الهند[٩٣] . وحتى لا تؤثر مثل هذه الأعمال على مجريات التحكيم ونتائجه ، صدرت التعليمات المشددة من الحكومتين لموظفيهما في مسقط ، بضرورة تحسين العلاقات بينهما والتعاون لتنفيذ حكم المحكمة[٩٤] .

* * *

والواقع أن مشكلة الأعلام الفرنسية في عمان ، يمكن النظر إليها في إطار التنافس الاستعماري الإنجليزي الفرنسي ، والعلاقات بين الدولتين في أوربا . فالأعلام الفرنسية كان يتم منحها لسفن أهل صور – وهي سفن شراعية لم تزد عن ٢٣ سفينة ، لا يمكنها منافسة السفن البخارية الأوربية – منذ سنة ١٨٤٥ ، دون أن تتخذ بريطانيا موقفًا جديًا منها . ولم تأخذ هذه المشكلة أهمية إلا عندما

أصبح هنالك تناقضًا واضحًا في مواقف الدولتين . وكانت بدايته في سنة ١٨٩١، عندما بدأ التحالف الفرنسي الروسي في أوربا ، والذي اعتبرته بريطانيا موجهًا ضدها . وتزامن ذلك مع بداية النشاط الروسي في الخليج ، ثم افتتاح فرنسا قنصلية لها في مسقط سنة ١٨٩٤ ، دون أن تكون لها مصالح تجارية في المنطقة تتطلب ذلك ، مما يشكل تهديدًا لوضع بريطانيا في منطقة الخليج واحتمال امتداد هذا التهديد إلى الهند .

وكان طبيعيًا أن يحاول سلطان مسقط استغلال التنافس الإنجليزي الفرنسي في بلاده – الذي لم يكن يدرك أبعاده الأوربية – لمحاولة المحافظة على استقلاله ، خاصة وأنه في الوقت الذي كان الموظفون الإنجليز دائمي التهديد له ، كان نائب القنصل الفرنسي يحدثه عن ضرورة استقلاله ومساعدة فرنسا له للحفاظ على هذا الاستقلال . ورأى البحارة من أهل صور في هذا التنافس فرصة للتخلص من سيطرة السفن الإنجليزية على سفنهم الشراعية ، وتفتيش هذه السفن ومصادرتها سواء بحق أو بدون حق .

وعندما تلاشى التناقض بين الدولتين ، نتيجة لتغير ظروف العلاقات بينهما، والتي أدت إلى الوفاق الودي بينهما سنة ١٩٠٤ ، تم الاتفاق على إنهاء مشكلة الأعلام الفرنسية في عمان ، دون النظر إلى مصالح الأطراف المحلية التي انعكست عليها تسوية المشكلة بصورة سلبية ، إذ ازداد خضوع عمان لبريطانيا ، وتأثر النشاط التجاري البحري لأهل صور إلى الدرجة التي فقدت معها مكانتها كمركز تجاري هام في المنطقة في ذلك الوقت[٩٥] .

هوامش البحث

1. Tuson ; Penelope, The Records Of The British Residdency And Agencies In The Persian Gulf, India Office Library And Records, London, 1979, P. 2.

2. India Office Records (L. O. R.),L /P+S/10/1288, London Lansdowne's Declaration On Policy In The Persian Gulf (House Of Lords, 5.5. 1903)

(٣) لمعلومات أكثر عن هذه الحملات ، انظر : عبد القوي فهمي محمد ، القواسم – نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية (١٧٤٧ - ١٨٥٣) ، رأس الخيمة ، ١٩٨٣

(٤) لانذن (روبرت جيران) ، عمان منذ ١٨٥٦ – مسيرًا ومصيرًا ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، صحافيا ، لبنان ، ١٩٧٠ ، ص٥٧

(٥) انظر : جمال زكريا قاسم (دكتور) ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ - ١٨٦١) ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٢٠٧ - ٢١٠ وانظر أيضًا : لانذن ، المرجع السابق ، ص٥٧ وكان سبب نقل السيد سعيد عاصمته إلى زنجبار يرجع إلى ما يحققه له ذلك من فوائد اقتصادية ، إضافة إلى ابتعاده عن مؤامرات أفراد أسرته الطامعين في السلطة من ناحية ، والثورات الداخلية في عمان والضغط الوهابي والإنجليزي عليها من ناحية أخرى .

(٦) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص١٦٣

(٧) تبنت بريطانيا قضية منع الإتجار في الرقيق في بدايات القرن التاسع عشر . وكانت دوافعها إلى ذلك اقتصادية وسياسية واستعمارية واضحة . فتحول المجتمع البريطاني من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي يعتمد على الآلة ، كان له أثره في زوال حاجته إلى الرقيق للعمل في المزارع . وكانت ترغب – تبنيها هذه السياسة – ضرب الاقتصاد الأمريكي ، خاصة اقتصاد الولايات الجنوبية الزراعية التي تعتمد على الأيدي العاملة من الرقيق ، بعد ثورة الاستقلال الأمريكية سنة ١٧٨١ والاستفادة من الأيدي العاملة الرخيصة في أماكن وجودها في المستعمرات ، مع تأهيلها فنيا للعمل في المصانع التابعة لرجال الأعمال البريطانيين في أفريقيا . وإبعاد القوى المنافسة لها – كفرنسا – عن التجارة الأفريقية ، وعن المناطق ذات

الأهمية الاستراتيجية لبريطانيا . واستغلال مكافحة تجارة الرق للتدخل السياسي في أفريقيا . إضافة إلى اكتسابها تعاطف قطاعات كبيرة من الشعب البريطاني ، الذي تأثر بأفكار الإنسانيين المطالبين بمنع تجارة الرقيق .

ورغم تبني بريطانيا لقضية منع تجارة الرقيق ، وتمكنها من إقرار هذا المنع في الاتفاقيات الدولية ، كمؤتمر فيينا سنة ١٨٣١ ، وإصدار مجلس العموم البريطاني قرارًا في سنة ١٨٣٣ بإلغاء الرق في المستعمرات البريطانية ، فإن رئيس الوزراء البريطاني بالمرستون Palmerstone أبدى الولايات الأمريكية الجنوبية في معارضتها لقرار الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن بإصدار وثيقة تحرير الرقيق في الولايات المتحدة في يناير سنة ١٨٦٣ ، حتى لا تتأثر زراعة القطن في ولايات الجنوب التي تستورد منها بريطانيا – في ذلك الوقت – أربع أخماس احتياجات مصانع نسيجها منه والذي قد يؤثر على قطاع كبير من الشعب البريطاني . لمزيد من المعلومات ، انظر :

– عبد السلام التزماتيني ، الرق – ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة(٢٣) ، الكويت ، نوفمبر ١٩٧٩ ، ص١٦٨ – ١٦٩ و ١٨٨ – ١٩٩

وانظر أيضًا : ميثان سعود تركي (دكتور) ، إلغاء الصفة القانونية للرق في سلطنة زنجبار العربية ١٨٩٧ – دراسة تاريخية ، حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت ، الحولية (١٣) ، ١٩٩٢/٩٣ ، ص١٤ – ١٥

(٨) للتفصيلات أكثر ، انظر :

لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٦ ، ترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر ، ص ص٣٥٧٤ – ٣٥٨٠

وانظر أيضًا : جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ص ٢٤٩

(٩) للتفصيلات أكثر ، انظر :

– لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٣٥٨٤ – ٣٥٩٠

وجمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ص ص٢٥٠ – ٢٥١

وصلاح العقاد (دكتور) ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ص١٦٤ – ١٦٥

(١٠) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٣٥٧٨

وانظر أيضًا : صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص١٦٣

(١١) لاندن ، المرجع السابق ، ص١١٤

(١٢) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٣٥٩٠

وانظر أيضًا : صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص٢٠٨

(١٣) انظر I. O. R., F/4/190, Coll. 4155, Extract Letter From The Resident At Muscat, Dated 16 th. October, 1805

حيث يذكر فيه انضمام جزء من أهل صور للقواسم .

(١٤) انظر نص الإتفاقية في : Aitchison, A Collection Of Treaties, Engagments And Sunnuds Relating To And Neighbouring Countries, Vol. VII, Containing The Treaties & C. Relating To Turkish Arabia, The Persian Gulf, Arabia, And Africa ; Calcutta, 1878, P.P. 53 - 54

(١٥) للتفصيلات أكثر : انظر : لوريمر ، دليل الخليج ، ج١ ، ص ص٣١٩ – ٣٢٠

وانظر أيضًا : Kelly, J. B., Britain And The Persian Gulf (1795 - 1880), Oxford Univ. Press, Oxford, 1968, P.P 171 - 180

(١٦) انظر : Kelly, Op. Cit., P. 649

(١٧) كان أهل صور يعملون أكثر ما يعملون في التجارة والمهن البحرية ، ومن بينهم تجار كانوا يملكون مخازن كبيرة ويتجرون مع بومباي وزنجبار والبحر الأحمر . انظر : شركة الزيت العربية الأمريكية ، عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص١٣٤

(١٨) صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص٢٠٨

(١٩) انظر : Wilson, Sir Arnold: The Persian Gulf, 2nd Ed, London, 1954, P.24

وانظر أيضًا : سلطان بن محمد القاسمي (دكتور) ، العلاقة العمانية الفرنسية (١٧١٥–١٩٠٥) دار الغرير للطباعة والنشر ، دبي ، ١٩٩٣ ، ط١ ، ص١٦١

(٢٠) جمال زكريا قاسم (دكتور) ، الخليج العربي – دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ – ١٩١٤) ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص٣٧٢

وانظر نص الإتفاقية في : سلطان بن محمد القاسمي (دكتور) تقسيم الإمبراطورية العمانية (١٨٥٦ - ١٨٦٢) ، مطابع البيان التجارية ، دبي ، ط١ ، ١٩٨٩ ملحق رقم٧ ، ص ص٣٤٠ - ٣٤٦

(٢١) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٧١

(٢٢) لتفصيلات أكثر عن هذين الاتفاقين ، انظر : رونوفان (بيير) ، تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥ - ١٩١٤) ، تعريب الدكتور جلال يحيى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ص٦٠٩ - ٦١٣

(٢٣) نفسه ، ص٦١٩ ، ص٦٢١ وكانت حكومة الشاه قد حصلت على عروض بالمساعدة المالية سنة ١٨٩٠ من البنك الروسي والبنك الإنجليزي . وكان كلا من البنكين يأمل في الحصول على امتيازات في المناجم وفي السكك الحديدية الفارسية ، نظير هذه المساعدة . وكانت روسيا عند محاولتها إقامة نفوذ لها في طهران ، تفكر في إمكانية التوغل صوب الخليج. وعارضت بريطانيا المحاولات الروسية ، لحماية الحدود الاستراتيجية للهند . ولتفصيلات أكثر عن النشاط الروسي في الخليج ، انظر : مصطفى عبد القادر النجار (دكتور) ، دراسات في تاريخ الخليج العربي المعاصر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨، ص ص٦٩ - ١٠٦

(٢٤) رونوفان ، المرجع السابق ، ص٦٦٨

(٢٥) نفسه ، ص ص٦٦٤ - ٦٦٥

(٢٦) لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٤

(٢٧) نفسه ، ص٢٥١

(٢٨) لوريمر ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص ص٨٣٩ - ٨٤٠

وانظر أيضًا : لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٢

(٢٩) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٥٧

وانظر أيضًا : عبد الغني إبراهيم (دكتور) ، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي (١٢٧٥ - ١٣٢٢هـ / ١٨٥٨ - ١٩١٤م) - دراسة وثائقية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز الرياض ، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ص٢٧٦

(٣٠) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٤٠

(٣١) نفسه ، ص٨٤١ - ٨٤٢

وانظر أيضًا : لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٢

(٣٢) انظر : دونوماي (موتيك بوجيه) التفاصيل الأوائل لفرنسا في مسقط ، ضمن كتاب " وقائع ندوة لحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس (٣٠ - ٣١ أكتوبر ١٩٩٤) ، وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٥ ، ص١٩

(٣٣) لتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع، لوريمر، المرجع السابق ، ص ص٨٣٤ - ٨٣٤

(٣٤) لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٢ - ٢٢٣

(٣٥) دونومازي ، المرجع السابق ، ص١٨

(٣٦) لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٣

وانظر أيضًا : محمد رضا باقر (دكتور) ، عمان ومنافسة الدول الغربية لها في منطقة المحيط الهندي، ضمن " وقائع ندوة لحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا "،ص ص٦٣ - ٦٤

(٣٧) لتفصيلات أكثر عن هذا الموضوع ، انظر : عرض المملكة العربية السعودية في التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ، مجلد١، الأساس ، ١٩٥٥ ، ص١٧١

ولوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٥٢ - ٨٥٣

ولاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٣

وجمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، ص ص٣٦٠ - ٣٦١

وصلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص٢٠٦

(٣٨) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٤٢ - ٨٤٤

(٣٩) انظر : إلهام محمد علي ذهني (دكتورة) ، فرنسا والخليج - من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن العشرين ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص١٦٧

وعن موافقة السلطان على رفع الأعلام الفرنسية على سفن صور ، انظر أيضا : سالم بن علي بن حبيب بن عمان وفرنسا منذ القرن السابع عشر ، ضمن " وقائع ندوة لحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، ص١٣

(٤٠) انظر : لافون (حاك) ، الجوانب القانونية للحماية الفرنسية لسفن الشراعية التي تحمل العلم الفرنسي، ضمن"وقائع ندوة لحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا" ، ص٣٧

(٤١) نفس المكان .

(٤٢) لوريمر ، دليل الخليج ، ج٦ ، ص ص ٣٦١٣ - ٣٦١٤

(٤٣) معونة زنجبار ، هي المبلغ الذي نص على أن تدفعه زنجبار لسلطان مسقط ، وقدره أربعون ألف ريال ستويًا ، طبقًا لتحكيم كانتج حاكم عام الهند سنة ١٨٦١ ، الذي ترتب عليه انفصال الجزء الأفريقي (زنجبار) عن الإمبراطورية العمانية . وقد استمرت زنجبار في دفع هذا المبلغ حتى سنة ١٨٧٣ ، عندما أخذت بريطانيا على عاتقها دفعه للسلطان مقابل موافقة سلطان زنجبار على القضاء على تجارة الرقيق في بلاده والتي كانت تدر عليه دخلاً كبيرًا . انظر : جمال زكريا القاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، ص٢٦٧

(٤٤) سلطان بن محمد القاسمي ، العلاقة العمانية الفرنسية ، ص ص١٦٣ - ١٦٤

(٤٥) انظر : عرض المملكة العربية السعودية ، ص ص٢٧١ - ٢٧٢

وانظر أيضًا : لوريمر ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص ص٨٥٣ - ٨٥٤

ولاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٣

(٤٦) لاندن ، المرجع السابق ، ص ص٢١٠ - ٢١٢ وكانت حكومة الهند مشغولة في ذلك الوقت بمشاكل الحدود الشمالية الغربية للهند نفسها . انظر نفس المرجع ، ص٢١٦

(٤٧) نفسه ، ص ص٢١٢ - ٢١٤

ولمعلومات أكثر عن حصر المقيمين البريطانيين في الخليج والمعتمدين البريطانيين في مسقط ، وسنوات شغلهم لوظائفهم ، انظر : Tuson, Op Cit , P.P 184 - 186

(٤٨) عرض المملكة العربية السعودية ، مجلد ١ ، الأساس ، ص٢٧٠

(٤٩) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨١٩ - ٨٢٢

وانظر أيضًا : شركة الزيت العربية الأمريكية ، المرجع السابق ، ص ص٦٠

(٥٠) عن هذه الضغوط ، انظر : لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٢٢ - ٨٢٣

(٥١) للتفصيلات أكثر عن هذه الثورة ، انظر : نور الدين عبد الله بن حميد السالمي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، مسقط ، ١٩٩٣ ، ج٢ ، ص ص٢٩٤ - ٢٩٦

وانظر أيضًا : لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٢٤ - ٨٣٤

وشركة الزيت العربية الأمريكية ، المرجع السابق ، ص ص٦١ - ٦٢

وجمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، ص٣٦٠

(٥٢) انظر : لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٢٨ وص٨٣٠ وص٨٣٣

(٥٣) انظر نص خطاب السلطان إلى كرنل مكلير المنشورة في ص٢٧٣ من كتاب الدكتور سلطان بن محمد القاسمي (جمع وتحقيق) ، الوثائق العربية العمانية في مراكز الأرشيف الفرنسية ، ١٩٩٣

(٥٤) انظر صورة زنكغرافية للمقالة في : سلطان بن محمد القاسمي ، العلاقة العمانية الفرنسية ، ص١٦٨

(٥٥) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٥١ - ٨٥٢

(٥٦) انظر : لوريمر ، دليل الخليج ، ج١ ، ص ص٥١١ - ٥١٤

وكتاب كيرزون بعنوان : Persia And The Question

(٥٧) لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٧

(٥٨) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ص٣٦٣ - ٣٦٤

(٥٩) لوريمر ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص٨٥٥

وانظر أيضًا : سلطان بن محمد القاسمي ، المرجع السابق ، ص ص١٦٤ - ١٦٥

(٦٠) تضمن هذا التصريح الذي صدر في ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ ، إعلان إنجلترا وفرنسا مع استقلال سلطنة زنجبار ومسقط . للتفصيلات أكثر : انظر : جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، ص٢٦٨

(٦١) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٥٥ - ٨٥٦

(٦٢) نفسه ، ص ص٨٥٧ - ٨٥٨

وانظر أيضًا : عرض المملكة العربية السعودية ، ص٢٧٢

ولاندن ، المرجع السابق ، ص ص٢٢٧ - ٢٢٨

(٦٣) عرض المملكة العربية السعودية ، ص٢٧٢

وانظر أيضًا : جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ، ص٣٦٥

(٦٤) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٦٦

(٦٥) لوريمر ، المرجع السابق ، ص ص٨٥٩ - ٨٦٠

وانظر أيضًا : لاندن ، المرجع السابق ، ص٢٢٩

(٦٦) شركة الزيت العربية الأمريكية ، المرجع السابق ، ص ص٦٦ - ٦٧

وانظر أيضًا : صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص٢٠٧

(٦٧) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٦٨

(٦٨) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ص٣٧٢ - ٣٧٣

(٦٩) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٦١

وانظر أيضًا : جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٧٣

وسلطان بن محمد القاسمي ، العلاقة العمانية الفرنسية ، ص ص١٦٥ - ١٦٦

وانظر تعهدات بعض أصحاب السفن المصريين بتمسكهم بالحماية الفرنسية في : سلطان بن محمد القاسمي ، الوثائق العربية في مراكز الأرشيف الفرنسية ، ص ص٢٧٩ - ٢٩٣

(٧٠) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٦٢

وانظر نص الإعلان في : سلطان بن محمد القاسمي ، الوثائق العربية العمانية ، ص ص٢٧٥ - ٢٧٧

(٧١) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص ص٣٧٣ - ٣٧٤

وانظر أيضًا : Wilson, Op. Cit., P. 242

(٧٢) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٧٤

(٧٣) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٦٢

وانظر أيضًا : جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٧٤

(٧٤) انظر : سلطان بن محمد القاسمي ، العلاقة العمانية الفرنسية ، ص١٦٦

(٧٥) جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٣٧٥

(٧٦) دونوماري ، المرجع السابق ، ص ص٢١ - ٢٢

(٧٧) عن تصريح اللورد لانسداون ، انظر : I. O. R., L/P+S/10/1268 وعن تفاصيل رحلة اللورد كيرزون في الخليج ، انظر : لوريمر ، دليل الخليج ، ج٧ ، ص ص٣٨٢٣ - ٣٨٧٧

(٧٨) لوريمر ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص ص٨٦٤ - ٨٦٥

(٧٩) عقد التحالف الثلاثي بين كل من ألمانيا-وإيطاليا ، والنمسا والمجر ، سنة ١٨٨٢

للتفصيلات أكثر عن هذا التحالف ، انظر : بيير رونوفان ، المرجع السابق ، ص ص٥٩٠ - ٥٩٣

(٨٠) نفسه ، ص ص٧١٨ - ٧١٩

(٨١) نفسه ، ص ص٦٥٦ - ٦٥٧

(٨٢) نفسه ، ص٧٢٠

(٨٣) عن نص الوفاق الودي في ١٩٠٤/٤/٨ ، انظر :

Hurewitz, J.C., Diplomacy In The Near And Middle East, Vol. 1., ADocumentary Record : 1535 - 1914, London, 1956, P.P. 263 - 265

(٨٤) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٦٩

وجدير بالذكر أنه في سنة ١٨٩٩ عقد في لاهاي - بدعوة من قيصر روسيا - مؤتمر سمي باسم

" مؤتمر السلام " للأمم التي ترغب في الحد من مخاطر الحرب ، والقضاء على الصراع بين الدول ومن بين القرارات التي اتخذها هذا المؤتمر ، إنشاء محكمة للتحكيم الدائم تختص بتسوية الصراع سلميًا وفقًا لقواعد القانون الدولي ، بين الدول التي تقرر اللجوء إليها . انظر : لافون، المرجع السابق ، ص٣٣

(٨٥) إلهام محمد علي ذهني ، المرجع السابق ، ص ص١٧٠ - ١٧١

ويرجع حرص الدولتين على اشتراك إيطاليا في التحكيم إلى أنه كان هناك تقارب سياسي بين الدول الثلاث في أوربا في ذلك الوقت . لتفصيلات أكثر عن هذا التقارب ، انظر : بيير رونوفان ، المرجع السابق ، ص ص٧٢٢ - ٧٢٣

(٨٦) لافون ، المرجع السابق ، ص٣٣

(٨٧) انظر :

Foreign Office (F. O.) 406 / 23, Enclosures To Letter No. 31, From Mr. Graham To Marquees Of Lansdowne, Dated 1. 8. 1905

(88) Ibid, Enclosure To Letter No. 44, From Mr Graham To Marquees Of Lansdowne, Dated 8. 8. 1905

(89) Loc. Cit .

(٩٠) لوريمر ، المرجع السابق ، ص٨٧٠

(٩١) انظر نص الإعلان في : سلطان بن محمد القاسمي ، الوثائق العربية العمانية ، ص ص٢٩٥ - ٣٠٣

(92) F. O., 406 / 23, Enclosures No. 1 + 2 + 3 + 4 +5 In Letter No. 5.
(93) Ibid, Enclosure In Letter No. 32
(94) Ibid, Letters No. 75 + 78 + 84 + 85

ومن الطريف أنه عندما كان نائب القنصل الفرنسي في صور ومعه زوجته، حاول أن يستعير سفينة السلطان " نور البحار " للعودة بها إلى مسقط ، وعندما لم يتمكن من ذلك ، عاد يأخذ القوارب المحلية (داوة) رغم مشقة ذلك على زوجته ، وعندما سأله المعتمد البريطاني عن عدم استخدامه القارب البريطاني لابونج Lapwing وكان موجودًا في صور ، رد عليه بأنه لم يكن ليستخدم قاربًا إنجليزيًا ، في وقت مازال التحكيم لم يبت فيه : انظر :

Ibid Enclosure In Letter No. 86

(٩٥) دونوماري ، المرجع السابق ، ص ص٢٦ - ٢٧

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصـــادر :

(أ) وثائق غير منشورة :

١ - Foreign Office (F. O.), 406 / 23

٢ - India Office Records (I. O. R.), F / 4 / 19 /Coll . 4155

٣ - I. O. R., L / P+S / 10 / 1288

(ب) وثائق منشورة :

١ - عرض المملكة العربية السعودية في التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ، مجلد١ ، الأسلس ، ١٩٩٥

٢ - Aitchison, ACollections Of Treaties, Engagments And Sunnuds Relating To India and Neighbouring Countries, Vol. VIII, Containing The Treaties & C. Relating To Turkish Arabia, The Persian Gulf, Arabia And Africa, Calcutta, 1878

ثانيًا : المراجـع :

(أ) مراجع باللغة العربية :

١ - إلهام محمد علي ذهني (دكتورة) ، فرنسا والخليج - من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن العشرين ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ١٩٩٣

٢ - بيير رونوفان ، تاريخ العلاقات الدولية (١٨١٥ - ١٩١٤) ، تعريب الدكتور جلال يحيى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٨

٣ - جمال زكريا قاسم (دكتور) ، الخليج العربي - دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٦٦

٤ - جمال زكريا قاسم (دكتور) ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ - ١٨٦١) ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهة ، ١٩٦٨

٥ - دونومازى(مونيك بيرجية) ، الفتاصل الأوائل لفرنسا فى مسقط ، ضمن كتاب " وقائع ندوة لمحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس (٣٠ - ٣١ أكتوبر ١٩٩٤) ، ووزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٥

٦ - سلطان بن محمد القاسمى (دكتور) ، تقسيم الإمبراطورية العمانية (١٨٥٦ - ١٨٦٢) ، مطبعة البيان التجارية ، دبى ، ط١ ، ١٩٨٩

٧ - سلطان بن محمد القاسمى (دكتور) ، العلاقة العمانية الفرنسية (١٧١٥ - ١٩٠٥) دار العزيز للطباعة والنشر ، دبى ، ١٩٩٣ ، ط١

٨ - سلطان بن محمد القاسمى (دكتور) ، " جمع وتحقيق " ، الوثائق العربية العمانية فى مراكز الأرشيف الفرنسية ، ١٩٩٣

٩ - شركة الزيت العربية الأمريكية (إدارة العلاقات - شعبة البحث) ، عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢

١٠ - صلاح العقاد (دكتور) ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤

١١ - عبد السلام الترمانينى ، الترق - ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة (٢٣) ، الكويت ، نوفمبر سنة ١٩٧٩

١٢ - عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم (دكتور) ، سياسة الأمن الحكومة الهند فى الخليج العربى (١٢٧٥ - ١٣٣٣هـ / ١٨٥٨ - ١٩١٤م) - دراسة وثائقية ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ن الرياض ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

١٣ - عبد القوى فهمى محمد ، القواسم - نشاطهم البحرى وعلاقاتهم بالقوى الداخلية والخارجية (١٧٤٧ - ١٨٥٣) ، رأس الخيمة ، ١٨٩٣

١٤ - لافون (جاك) ، الجوانب القانونية للحماية الفرنسية لسفن صور الشراعية التى تحمل العلم الفرنسى ، ضمن كتاب " وقائع ندوة لمحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس (٣٠ - ٣١ أكتوبر ١٩٩٤) ، ووزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٥

١٥ - لاندن (روبرت جوان) ، عمان منذ ١٨٥٦ - مسوحًا ومصورًا ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، لبنان ، ١٩٧٠

١٦ - لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ترجمة قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر .

١٧ - مال الله بن على بن حبيب ، الروابط بين عمان وفرنسا منذ القرن السابع عشر ، ضمن كتاب " وقائع ندوة لمحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس (٣٠ - ٣١ أكتوبر ١٩٩٤) ، ووزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٥

١٨ - محمد رضا بافر (دكتور) ، عمان ومنافسة الدول الغربية لها فى منطقة المحيط الهندى ، ضمن كتاب " وقائع ندوة لمحات تاريخية وثقافية بين عمان وفرنسا " ، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس ٣٠ - ٣١ أكتوبر ١٩٩٤) ، وزارة التراث القومى والثقافة ، مسقط ، ١٩٩٥

١٩ - مصطفى عبد القادر النجار (دكتور) ، دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨

٢٠ - ميثان سعود تركى (دكتور) ، إلغاء الصفة القانونية للرق فى سلطنة زنجبار العربية ١٨٩٧ - دراسة تاريخية ، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت ، الحولية (١٣) ، ٩٢ / ١٩٩٣

٢١ - نور الدين عبد الله بن حميد السالمى ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، مسقط ، ١٩٩٣ ، جزئين .

(ب) مراجع باللغة الإنجليزية :

1. Hurewitz; J. C. Deplomacy In The Near And Middle East, 2Vols. A Documentary Record, London, 1956

2. Kelly; J. B., Britain And The Persian Gulf (1795 - 1880), Oxford Univ. Press, Oxford, 1968.

3. Tuson; Penelope, The Records Of The British Residency And Agencies In The Persian Gulf, India Office Library And Records, London, 1979

4. Wilson; Sir Arnold T., The Persian Gulf 2nd Ed., London, 1954

القواسم ومواجهة الأطماع الأوربية
في الخليج العربي في القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر

د. عبد الوهاب بن صالم *

تتمتع منطقة الخليج العربي منذ القدم بأهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية ، فضلاً عن كونها تتمتع بموقع مميز استراتيجي وجغرافي . وهذه الأهمية التي تمتاز بها تلك المنطقة كانت عامل جذب في استقطاب القوى العالمية للسيطرة عليها ، على امتداد القرون الغابرة وحتى وقتنا الحاضر .

أما عن الأهمية الجغرافية لهذه المنطقة فتأتي من كونها حلقة اتصال مباشر بين الشرق الأقصى من جهة ، والشرق الأوسط وأوربا من جهة أخرى . وهذا مما جعلها طريقًا مائيًا لنقل التجارة بين هاتين المنطقتين . وهذه الأهمية ، فضلاً عما حبتها به الطبيعة من إمكانات تجارية وملاحية ومعدنية ، هي السبب الأساسي في عناية الكتاب القدامى والمحدثين ، الرحالة منهم والجغرافيين ، بها ، بحيث لا نجد كتابًا من كتبهم يخلو من وصف لمدن الخليج ومياهه ، وطرق التجارة والملاحة المتبعة فيه ، ودور قبائل المنطقة المتعاظم في هذه المجالات . وهذه النواحي هي موضوع بحثنا الذي سوف نركز تركيزًا هامًا على الدور التاريخي على واحدة من أهم قبائل تلك المنطقة ، وهي قبيلة القواسم .

أما الأهمية الاستراتيجية للمنطقة فقد نبعت من وقوع الخليج بين القارات الثلاث القديمة (آسيا ، أفريقيا ، أوربا) مما جعل له أهمية بالغة كطريق حيوي للتجارة الشرقية ، بالإضافة إلى كثرة موارده الاقتصادية الطبيعية مثل : (اللؤلؤ ،

(*) عميد كلية التربية – جامعة الملك سعود – فرع أبها .

المرجان ، السمك ...) وأخيرًا النفط . وكان أن هيمن عرب المنطقة ولفترة طويلة على التجارة المرتبطة بالمحيط الهندي وشرق أفريقيا ، ومن هاتين المنطقتين إلى الخليج ، ثم جاء اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي في هذا القرن ليغطي على الأهمية التقليدية التي كان يتمتع بها الخليج في السابق ، فاشتد تسابق الدول الكبرى للتوغل في هذا الشريان الذي غدا أمرًا ملحًا يرتبط بمستقبل صناعتها ، التي اعتمدت على النفط اعتمادًا أساسيًا . ولا شك في أن الموقع هو الذي جذب الدول الغربية ، وجعلها توجه أنظارها إليه من أجل بسط سيطرتها عليه لثرواته وهكذا ، برز الخليج على ساحة الصراع الدولي بين القوى الأجنبية بدءًا بالبرتغاليين وانتهاءً بالبريطانيين ثم الأمريكيين . أما بالنسبة للبريطانيين فقد مثل لهم الخليج – إضافة إلى ما سبق – طريقًا حيويًا للوصول إلى الهند ، درة التاج البريطاني ، فضلاً على أن احتلال المنطقة اعتبر كذلك وسيلة فعالة لضمان سيطرة بريطانيا على الهند . وبناءً على ذلك حاولت بريطانيا سلسلة من المحاولات لفرض سيطرتها على الخليج ، لكنها لم تجد الأمر سهلاً كما توقعت ، حيث أظهرت شعوب المنطقة إصرارًا ومقاومة لكافة المحاولات الأجنبية . ومن أبرز القوى المحلية التي وقفت ضد بريطانيا ، قوة القواسم البحرية ، التي اتخذ صراعها مع بريطانيا ومع القوى الأخرى المؤيدة لها بعدًا آخر ، بعد أن أيد القواسم مبادئ الدعوة السلفية . وقد عالجت موضوع الصراع بين القواسم وبريطانيا في بحث منفرد ، حتى انتهى ذلك الصراع بعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقيات ، ارتكزت عليه السياسة البريطانية في الخليج حتى النصف الأول من القرن العشرين .

على أنه كان للقواسم دور عظيم آخر قاموا به في منطقة الخليج العربي ضد القوى البحرية المختلفة في تلك المنطقة(١) .

وقد حظي امتداد الخليج العربي وموقعه المتاز بأهمية عظمى عند الباحثين ورجال الفكر والجغرافيين والمؤرخين وأهل السياسة ،(٢) فالخليج يتغلغل في قلب العالم القديم مشكلاً امتدادًا عميقًا للمحيط الهندي .(٣) وحيث أنه لا يمكن تجاهل

هذه الأهمية من أجل فهم مسببات وطبيعة الأحداث التاريخية الواقعة عليه ، فإنه من الضروري أن نركز على عاملين اثنين ساهما في ترسيخ مفهوم الأهمية الاستراتيجية التي تتمتع به المنطقة :

١ - الموقع الجغرافي .

٢ - الطبيعة الجغرافية .

أما من ناحية الموقع فيعتبر الخليج العربي ، الطريق المائي الحيوي الذي يربط العراق وشرق الجزيرة العربية بالهند وجنوب آسيا وحوض البحر المتوسط والأناضول ، وكان في نظر أوربا المفتاح الذي يفتح أبواب الشرق .(٤) وقد ظل الخليج العربي منذ أقدم العصور يحظى بالاهتمام بحكم مالـه من موقع استراتيجي مميز ، فهو " ... نقطة اتصال تجاري بين بلدان كانت منذ فجر التاريخ مهد حضارات جعلتها في مقدمة الأمم تجاريًا وعمرانيًا " .(٥) ومما يؤكد هذه الأهمية التنافس حوله بين الفرس واليونان في القرن الرابع قبل الميلاد ، مما شد انتباه الإسكندر المقدوني إلى تلك الأهمية العظمى التي تتمتع بها المنطقة ، فحرص على احتلالها لتأمين امبراطوريته .

واستمر موقع الخليج العربي يزداد أهمية عبر العصور ، حتى جاء العصر الإسلامي ، ليبرز الخليج في أسمى حالات الازدهار والحضارة ، لتتطور المشروعات الملاحية فيه مواكبة لنشاط العمانيين البحري المميز(٦) . ونظرًا لما أبدته بعض المواقع في إقليم الخليج من نشاط فكري اتسم بطابع الاستقلالية والمبادرة في إطار حرية الفكر ، فإن الإقليم ازدادت أهميته حتى غدا في صراع مستمر مع حواضر الخلافة(٧) . وفي مطلع العصر الحديث برز الخليج أيضًا كمركز وسيط للتجارة ، خاصة تجارة المرور(٨) ولفت ذلك أنظار الدول الأوربية التي اتخذت حركة الكشوف الجغرافية سبيلاً لاحتلال المناطق التي تكتشفها ، ونشر الديانة النصرانية بها . وبإدراك أهمية موقعه دعا البرتغاليون إلى الاهتمام بالخليج والتحكم في

أرضه ، الأمر الذي دفعهم إلى إقامة القلاع والحصون على سواحله لحماية سفنهم . كذلك كانت هذه الأهمية حافزًا قويًا لبريطانيا لبسط نفوذها على الخليج العربي فيما بعد(٩) .

ولم يكن موقع الخليج العربي وحده - كما أسلفنا - هو الذي أعطاه تلك المكانة المميزة ، بل أسهمت الطبيعة الجغرافية أيضًا في هذا الأمر . ومن المعلوم أن البنية الجغرافية لأي إقليم لها أهمية كبرى ، لأنها تؤثر تأثيرًا مباشرًا في تكييف نشاط الإنسان على سطح الأرض(١٠) .

ومن ذلك أن عمان الذي يشكل ركنًا أساسيًا في إقليم الخليج في الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية من حدود شبه قطر على ساحل الخليج العربي حتى حدود حضر موت ، لعب دورًا كبيرًا في التاريخ(١١) ، إذ قام بدور الحارس لمدخل الخليج ، كما أن مهمة الدفاع عن الخليج العربي تحمل أغلبها عرب هذه المنطقة ، مؤيدين بعرب الداخل .

وفي خلال الخمسين سنة الأولى من القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) ، كانت أهم أحداث التاريخ العربي تتلخص فيما يلي :

١ - الصراع الفارسي ، العماني ، وزوال حكم اليعاربة ، وتولي البوسعيديين .

٢ - بروز قوة فارس البحرية .

٣ - تبلور الصراع الدولي بين الأوربيين الخليج العربي .

لقد شكل الصراع الفارسي - العماني الذي حدث خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) القضية التاريخية الكبرى التي شغلت بأحداثها التاريخ العماني ، سواء بالإشارة إلى مسبباتها وأحداثها ، أو نتائجها التي امتدت زمنًا ومكانًا . فمن حيث الزمن لا يمكن إغفال أن تاريخ عمان السياسي في تلك الحقبة تأثر بأحداث الصراع الفارسي - العماني - الذي

لم تقتصر تأثيراته على الأراضي العمانية ، بل امتدت نتائجه لتوحد فجوة في ميزان القوى في الخليج . وقد استغل بعضهم تلك الفرصة لتحقيق طموحاتهم ، كما حدث بالنسبة لنادر شاه الذي حاول أن يجعل من فارس المهيمن الأول على الخليج ، وكما حدث لبعض القبائل العربية على الشاطئ الشرقي أو الغربي للخليج ، وهي التي حاولت أن تعزز نفوذها بزوال دولة اليعاربة(١٢) . والخلاف الغافري - الهناوي - خلاف قبلي مذهبي . نشأ بين القبائل اليمنية (القحطانية) التي ينتمي لها النهاويون ، والقبائل النزارية (العدنانية) التي ينتمي إليها الغافريون. ولا شك في أن هذا الصراع كان بلورة للخلاف القديم بينهما ، إذ يعتقد اليمنيون أنهم أولى بأرض عمان من النزاريين(١٣) وأنهم أصحابها بحكم السبق في الهجرة إليها . وزداد هذا الخلاف لكون أغلب الهناوية ينتمون إلى فرقة الإباضية ، بينما أغلب الغافرية ينتمون إلى أهل السنة . ويؤيد أصحاب هذا الرأي قولهم بانضمام الغافرية إلى الدعوة السلفية حينما وصلت إلى عمان في حين عارضها الطرف الهناوي(١٤) .

والواقع أنه منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي انقسمت عمان إلى كتلتين كبيرتين سياسيتين ، هما الكتلة الهناوية ، والكتلة الغافرية . ولم يعد الأمر مجرد تعصب تقليدي بين القبائل والطوائف ، وإنما تشابكت المصالح السياسية والاقتصادية مما كان له أثر كبير في إثارة الكثير من النزعات القبلية والمذهبية . ذلك أن هذه التكتلات اتخذت طابعًا سياسيًا مذهبيًا ، إذ صار صلب المشكلة التي دار الخلاف حولها هي مسألة الإمامة(١٥) .

وكان لهذا الصراع نتائج هامة بعيدة المدى من أهمها :

١ - إن هذا الصراع القبلي كان سببًا في ضعف القوى المحلية ، الأمر الذي أدى إلى أن ترسل فارس عدة حملات اقتحمت البلاد ، وبذلك نجحت فارس في إخضاع عمان لسيطرتها بعض الوقت .

٢ - إن طول فترة الانقسام التي عاشتها عمان وانتشار المعارك في طول البلاد وعرضها أديا إلى إضعاف دولة اليعاربة اقتصاديًا وسياسيًا وبالتالي سقوطها ، وانتقال الأمر إلى أسر البوسعيد(١٦) .

٣ - أتاح هذا الانقسام الفرصة لبعض القبائل لأن تفرض نفوذها ، ومن ثم أعلنت الاستقلال ، كما حدث بالنسبة للقواسم ، إذ حدث بعد انتهاء أسرة اليعاربة ، أن أعلنوا الانفصال عن حكم آل بوسعيديين .

وهكذا تضافرت عدة عوامل لتساعد على ظهور القواسم - كقوة عربية - أصبح لها وزنها السياسي والاقتصادي في منطقة الخليج العربي ، ومن ثم فقد قامت بدور عظيم في تاريخ المنطقة السياسي والاقتصادي . وكان للتنظيم القاسمي ، الذي برز في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الأثر الكبير في انهيار القوى البرتغالية أولاً ، ثم مختلف القوى الأوربية الأخرى ثانيًا .

وكانت البرتغال ، من أوائل الدول الأوربية التي وصلت إلى منطقة الخليج العربي . وقد تمكنت من فرض سيطرتها على مضيق هرمز في عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م، واستمرت تفرض سيطرتها وقدراتها الاستعمارية على الخليج حتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السابع عشر الميلادي(١٧) .

ومن المفيد أن نذكر أن اعتماد البرتغاليين في نشاطهم الاستعماري هذا كان قائمًا على أجهزة الدولة المباشرة مثل القادة العسكريين وملك البرتغال نفسه . على أن نجم البرتغال سرعان ما بدأ في الأفول نتيجة للأسباب الآتية :(١٨) .

١ - نمو قوى عمان البحرية .

٢ - بروز قوة الصفويين في إيران .

٣ - ظهور الهولنديين والإنجليز على مسرح الخليج كقوة أوربية منافسة للبرتغال .

٤ - الوضع الدولي في أوربا إذ خضعت البرتغال في ٩٨٩هـ/١٥٨٨م للعرش الأسباني ، وكان أن سخرت أسبانيا موارد البرتغال لصالحها ، وهذا الأمر أضر بوضع مستعمرات البرتغال فيما وراء البحار(١٩) .

٥ - اعتماد التجارة البرتغالية على الحكومة ذاتها دون الاعتماد على الشركات الأهلية مثلما فعلت بريطانيا، وهولندا، وفرنسا ، بحيث تساهم هذه الشركات في الحفاظ على الصالح العام في حالة ضعف مركز الدولة في أوربا(٢٠) .

٦ - ضعف الأساس العسكري الذي اعتمدت عليه البرتغال لحماية التجارة بسبب فقدان النظام والافتقار إلى الحصافة المهنية ، وكذا اعتمادهم على الجنود المرتزقة(٢١) .

٧ - تصاعد الهجمات العسكرية التركية على المواقع البرتغالية واحتلال الأتراك للبحرين واستعادتهم للبصرة(٢٢) .

ونتيجة لهذه الأسباب دب الوهن في النفوذ البرتغالي في الخليج وبدأ البرتغاليون يفقدون مراكزهم على ساحل الخليج سواء الشرقي أو الغربي . وكان آخر معقل لهم تحصنوا فيه هو (مسقط) الذي فقدوه على يد سيف بن سلطان الأول ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م .

على أن البرتغاليين حاولوا استرجاع نفوذهم في الخليج ، وذلك عن طريق مد يد المساعدة لفارس ضد عرب عمان في ١١٣٢هـ /١٧١٩م ، حتى أنزلوا الهزيمة بالأسطول العماني وأجبروه على الانسحاب إلى رأس الخيمة . ولكن البرتغاليين لم يحاولوا الاستفادة من أمرين .

أولاً : انسحاب العمانيين .

ثانيًا : ظهور النزعات المحلية القبلية في عمان حول منصب الإمامة(٢٣) وهكذا كانت بداية القرن الثامن عشر الميلادي نهاية الآمال البرتغالية في منطقة

الخليج ، إلا أنها لم تكن نهاية المطامع الأوربية فيه . بل أن التنافس الأوربي على تجارة الشرق كان من ضمن الأسباب التي أطاحت بالنفوذ البرتغالي .

وقد تمخض الوضع بعد انتهاء أمر البرتغاليين في الخليج عن وجود قوتين أجنبيتين إلى جانب القوى الوطنية هما : قوة هولندا ، وقوة إنجلترا(٢٤) وتميزت العلاقة الهولندية – البريطانية في بدايتها بنوع من الصداقة القائمة على المصالح لكلا الطرفين . ذلك أنهما تعاونتا معًا ضد البرتغاليين ، وبعد أن انتهى النفوذ البرتغالي في الخليج ، انقلبت هذه الصداقة إلى عداء وصراع من أجل بسط النفوذ في المنطقة(٢٥) . وقد سجلت هولندا انتصارًا كبيرًا في القرن السابع عشر على التجارة الإنجليزية ، وذلك لعدة أسباب :

(أ) اعتماد الهولنديين على أسطول بحري قوي .

(ب) الحصول على اعتمادات مالية ضخمة من الحكومة الهولندية لصالح الشركة التجارية .

(جـ) الامتيازات التي حصل عليها الهولنديون من الشاه صفي ، خليفة الشاه عباس(٢٦).

(د) سياستهم في بيع السلع التجارية بأسعار منخفضة(٢٧) .

(هـ) تمتعت الشركة الهولندية باحتكار كامل بعكس الشركة البريطانية التي تعرضت للمنافسة من قبل أفراد أو شركات أخرى(٢٨) .

(و) تقديم هولندا المساعدات لفارس بينما رفض الإنجليز ذلك خوفًا على مصالحهم(٢٩) .

على أن الفترة من ١١٠٧ - ١١١٧ هـ/ ١٦٩٥ - ١٧٠٥م والتي شهدت منافسة حادة بين الطرفين الهولندي والإنجليزي ، أسفرت عن مزيد من الخسائر بهولندا لصالح بريطانيا . وعلى هذا الأساس تحول ميزان القوى منذ نهاية القرن السابع عشر ، وبداية القرن الثامن عشر ، فسجل هبوطًا في النفوذ الهولندي لصالح

بريطانيا . وعلى الرغم من أن هولندا حاولت أن تساعد إيران بحريًا لقمع حركات التمرد ، سواء ضد البلوش أو العرب على الساحل الشرقي أو الغربي للخليج ، إلا أن ميزان القوى مال لصالح بريطانيا(٣٠) .

وخلال تلك الفترة ، ظهر النشاط الفرنسي أيضًا في منطقة الخليج ، إلا أنه جاء متأخرًا عن النشاط البريطاني والهولندي(٣١) ورغم ذلك فإن فرنسا استطاعت أن تحقق لنفسها كسبًا استعماريًا في المحيط الهندي وذلك باستيلائها ١١٢٨هـ/١٧١٥م على جزيرة موريشيوس والتي عرفت باسم Isle de France ، ثم على جزيرة بوربون عام ١٧٣٥م(٣٢) .

وهكذا شهد الوضع الدولي في منطقة الخليج في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) صراعًا بين الدول الأوربية ، بل بينها وبين القوى المحلية ، والتي كان من أبرزها القواسم .

* * *

وكان ظهور القواسم على مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية ، كقوة مؤثرة وفعالة يتزايد نفوذها وسيطرتها على منطقة الخليج ، نتيجة لعوامل عديدة ، يمكن أن نجملها فيما يلي :

أولاً : انهيار القوة البرتغالية :

مارس البرتغاليون إبان فترة وجودهم في منطقة الخليج أسلوبًا عسكريًا قام على البطش والقمع ، وهو أمر عانت منه القبائل العربية المستقرة في منطقة الخليج. لهذا كان تحرير المنطقة من البرتغاليين هدفًا شغل اليعاربة حكام المنطقة العمانية ، ومن ساعدهم من القبائل العربية(٣٣) . ولم يبأت عام ١٠٦١هـ/١٦٥١م إلا وكان آخر معقل للبرتغاليين في منطقة الخليج قد سقط نتيجة لسقوط مسقط في يد سلطان بن سيف ، وبذلك لم يبق للبرتغاليين موطأ

قدم في المنطقة ، فانهار وجودهم ، وهيأ ذلك فرصة للقوى الأخرى ، عربية وأجنبية للبروز في الفراغ الذي خلفه الانهيار البرتغالي .

ثانيًا : سقوط دولة اليعاربة :

شهدت عمان في بداية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) صراعًا قبليًا (الغافرية - الهنارية) كان من نتيجته - سقوط دولة اليعاربة، وازدياد قوة القواسم الذين تجمعوا في الشمال(٣٤) . ومع أن بعض المؤرخين يعتبر سقوط اليعاربة سببًا في قيام حلف القواسم ، إلا أننا نلاحظ أن سقوط هذه الدولة كان دافعًا لزيادة عمر الحلف وليس لوجوده ، فالحلف موجود منذ عهد الدولة اليعربية ، وقد ساند الحلف الغربق الغافري في الصراع الأهلي الذي كان قائمًا في نهاية الدولة اليعربية . وقد ذكر المؤرخون لهذا الصراع ، أن القواسم كانوا موجودين كحلف وقوة مؤثرة يعتمد عليها حتى قبل سقوط اليعاربة وقبل نادر شاه ، وأن عدد أفراد التحالف القاسمي كان يتزايد باستمرار(٣٥) .

ثالثًا : الفوضى في بلاد فارس :

انتهز القواسم فرصة الغزو الأفغاني لفارس سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م ، فتمكنوا من السيطرة على باسيدو(٣٦) في جزيرة قشم ، ومن هناك استطاعوا زعزعة التجارة البريطانية في بندر عباس ، فوجهت بريطانيا ضدهم حملة سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٧م(٣٧) . كذلك برزوا في مجال القوى في الفترة التي أعقبت اغتيال نادر شاه(٣٨) سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٧م عندما عمت الفوضى فارس ، ووقع بعض قطع الأسطول الفارسي في أيدي القواسم(٣٩)،لو كانوا سيطرتهم على جزء من الساحل الشرقي عبر التحالفات التي عقدوها مع الحكام المحليين هناك(٤٠) .

رابعًا : ضعف الوجود العثماني في الخليج :

واجه العثمانيون منافسة قوية من الفرس وحلفائهم من الدول الأوربية التي كانت تتنافس مع بعضها من أجل السيطرة على طريق الهند . ولم يبد العثمانيون

اهتمامًا كبيرًا ببناء الأساطيل وتحسين الموانئ في الخليج العربي ، كما أن الاهتمام بجنوب مضيق هرمز لم يكن واضحًا ، بل كان محدودًا ، الأمر الذي ساعد على إضعاف نفوذهم في الخليج العربي عمومًا ، وإن استطاعوا الاحتفاظ بمراكز نفوذهم في بعض أجزاء المنطقة (العراق – الكويت – الإحساء – القطيف وقطر) حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

ونتيجة لحدة المنافسات الأوربية وضعف الأسطول العثماني في الخليج ، ترك العثمانيون مياه الخليج لأساطيل الدول الأوربية التي تمكنت من السيطرة على طريق الهند(٤١) . كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن الدولة العثمانية أولت إقليم غرب الجزيرة العربية اهتمامًا عظيمًا ، نظرًا لوجود الحجاز في ذلك الإقليم وبخاصة المدن المقدسة (مكة المكرمة – المدينة المنورة) التي كان العثمانيون يعتبرون وجودها في دولتهم رمزًا له دلالة دينية بالغة الأهمية ، له علاقة مباشرة بالخلافة والشعائر الإسلامية وولاء عامة المسلمين للخلافة الإسلامية في أستامبول(٤٢) .

خامسًا : الاتجاه التجاري ثم السياسي للقوى الأوربية :

وجهت الدول الأوربية التي حلت محل البرتغال في منطقة الخليج (بريطانيا – هولندة – فرنسا) اهتمامًا إلى الأمور التجارية عن طريق فرض السيطرة العسكرية وكان ذلك في بداية أمرها مما جعل المجال مفتوحًا أمام القوى العربية للنمو ، وتوسيع دائرة نفوذها(٤٣) . وبعد ذلك حولت هذه القوى الأوربية نشاطها التجاري إلى مظاهرة سياسية عسكرية ، لفرض السيطرة . وهذا التحول كان سببًا في الاصطدام بالقوى العربية التي استفادت من هذا الصدام عن طريق كسب السفن والمعدات ، وبذلك زادت قواتها .

سادسًا : الدعوة السلفية :

كان وصول الدعوة السلفية إلى الساحل العماني ، ووقوف القواسم وحلفائهم منها موقف المؤيد ، سببًا في تزايد قوى الحلف القاسمي . فمن الملاحظ

تزايد قوة القواسم وسطوتهم تجاه السفن المعادية في الخليج ، واتخاذ صراعهم ضد القوى الأخرى الداخلية الشكل (الجهادي) . ثم أن بريطانيا كانت تحسب ألف حساب قبل أن تنزل ضربتها بالموانئ القاسمية ، مخافة أن يجرها ذلك إلى حرب في داخل الجزيرة العربية . كل ذلك يثبت أن تأييد القواسم لمبادئ الدعوة السلفية كان عاملاً رئيسيًا في بروزهم على ساحة الأحداث في الخليج بشكل أكثر فعالية ومن خلال منظور جديد هو (الجهاد) .

سابعًا : الفتن الداخلية في عمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد :

عانت عمان فتنًا داخلية شغلت أحمد بن سعيد مؤسس الدولة . وكانت هذه الفتن والانشغال بها ، فرصة لبروز القواسم وتأكيد استقلالهم في الجزء الشمالي من عمان ، ومن هذه المشاكل :

(أ) خروج سيف وسلطان ابني الإمام أحمد عدة مرات على أبيهما(٤٤).

(ب) ثورة اليعاربة ضد الإمام أحمد بن سعيد(٤٥) .

(جـ) ثورة محمد بن ناصر بن محمد الفاخري ضد الإمام أحمد بن سعيد(٤٦).

ساعدت كل هذه العوامل على ظهور القواسم كقوة سياسية واقتصادية مؤثرة ، تلعب دورًا هامًا وبارزًا في مجرى الأحداث المختلفة في منطقة الخليج العربي ، وتناضل بشتى الوسائل والسبل ضد التدخل الأجنبي ، المتمثل في محاولة القوى الأوربية فرض نفوذها في المنطقة ، وعلى الأخص ، النفوذ البريطاني .

أما القواسم من ناحية الأصل القبلي والمكاني ، فيمكن القول ، أن مصطلح القواسم Joasmee يتسع مدلوله ، ليشكل بمعناه العام كل رعايا وإتباع الشيخ القاسمي في منطقة الشارقة ورأس الخيمة ، بغض النظر عن الأصل القبلي للقبائل التي ينتمون إليها(٤٧) . وفي معناه الخاص ، يعني أسرة القواسم التي تحكم التحالف القاسمي . أما تسمية القواسم أو الجواسم ، فقد ظهرت إلى حيز الوجود ، وأصبحت معروفة في منطقة الخليج منذ القرن الثامن عشر الميلادي(٤٨) .

وقد تعددت الآراء والروايات التى تبناها المؤرخون لتحديد أصل أو نسب القواسم ، ويمكن أن نجمل هذه الآراء فيما يلى :

١ - رأى يذكر أنهم عرب أقحاح .

٢ - الرأى الثانى يميل إلى أنهم فرس .

٣ - أما الرأى الثالث فيقول أنهم من الأشراف من سلالة الرسول محمد ﷺ .

٤ - وهناك آراء أخرى كثيرة ، وروايات تتضارب فى هذا الشأن ، فمنهم من يقول أنهم من ظفير ، ومنهم من يقول أنهم من النزارية ، أو بنى غافر أو بنى ناصر ... إلا أن الأغلبية تركز على عروبتهم ، أما من عرب المولة أو من قبيلة المعازل أو أنهم ينتمون إلى قبيلة سبيع .

ويتبنى رأى النسب القرشى بصورة مؤكدة أحمد الساعاتى ، إذ يقول " يعتبر القواسم من القبائل العربية العريقة بالقدم ، مسكنهم الأصلى الجزيرة العربية وهم من قريش ، ومن سلالة الرسول ﷺ "(٤٩) ومن المؤرخين من يرى أن القواسم عرب عدنانيون يرجعون بالأخص إلى قبيلة الظفير(٥٠) . إلا أن الثابت أن معظم المؤرخين استبعدوا الأصل الفارسى ، واتفقوا تمامًا على أنهم عرب عدنانيون(٥١).

أما عن الأصل المكانى للقواسم ،فهناك اختلاف سببه يرجع إلى صعوبة تحديد أصل القواسم . ذلك أن الذين ارجعوا القواسم إلى أصول عربية حددوا أصل القواسم المكانى بجزيرة العرب أو العراق ، بينما الذين قالوا بأصل القواسم الفارسى ، حددوا أصلهم المكانى ببلاد فارس أو الساحل الشرقى للخليج العربى . وبين هذين الرأيين من قال بأن القواسم عرب يرجعون فى أصلهم المكانى إلى الساحل الشرقى للخليج العربى .

أما الأطار الجغرافى للحلف القاسمى ، فإنه فى دوره الأول لم يتجاوز حلفاء أو رأس الخيمة التى قامت على أنقاضها . على أن هذا الحلف سرعان ما توسع فى

نطاقه الجغرافى ، لتمتد سيطرة القواسم على طول الساحل من رأس مسندم حتى البحرين . وفى الداخل من حد الباطنة إلى قطر . وقد حدث ذلك فى الفترة التى أخضع فيه القواسم بنى ياس الذين كانوا يستقرون فى المنطقة من خور العديد حتى دبى . وفى فترة زمنية أخرى من تاريخ القواسم توسعوا فى خليج عمان(٥٢) ليكون من نصيبهم شيناص وخور فكان وغيرهما(٥٣) .

ولم يقتصر النطاق الجغرافى لحلف القواسم على الساحل الغربى للخليج بل امتد نفوذهم على الساحل الشرقى فامتلكوا لنجه ، وجزيرة قشم ، وجزيرة لارك... وكنجون ، وكان لهم أيضًا بندر مسلم وبندر بستان ... وبندر مغو ... وبندر دوان ، بندر بلوه ... وبندر شناص ، بندر جشه ، بندر كنك . كذلك امتدت سيطرتهم على هرمز فى سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ، ثم فى سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م . وكانت سيطرتهم على تلك الأجزاء من الساحل الفارسى منذ زمن ميكر . ويتميز الساحل الذى سيطر عليه القواسم بأنه ساحل منخفض ورملى ، ويمتد على التقريب ١٥٠ ميلاً جنوب غرب رأس مسندم نحو جزيرة قطر ، والشاطئ ملئ بالأخوار الضحلة والشعاب المرجانية(٥٤).

وقد ساعدت كل تلك العوامل ، قبائل القواسم وتحالفهم - حتى تمكنوا من فرض سيطرتهم على تلك المنطقة ، وساهموا فى ازدهارها من كافة الجوانب بشريًا وعمرانيًا ، بل لقد تأثرت المراكز العمرانية - سواء التى أوجدها القواسم مثل رأس الخيمة أو التى كانت موجودة سابقًا - بطبيعة الأنشطة البحرية والعسكرية للقواسم ، نظهر ذلك واضحًا على الأنماط العمرانية لتلك المراكز .

ولم يكن الطابع العسكرى هو الطابع المميز للقواسم فى الفترة التى سبقت اصطدامهم بالقوى الأجنبية ، بل أن القواسم كانوا يمارسون أنشطة سلمية عديدة لفت أنظار العديد من الرحالة الأوربيين ، الذين زاروا المنطقة وقدموا صورة حية لنشاط القواسم فى كافة المجالات(٥٥) . وقد برع القواسم فى النشاط الاقتصادى بصورة ممتازة ، فمارسوا الصيد واستخراج اللؤلؤ ، كما برعوا فى التجارة بصورة

كبيرة . وتدل الوثائق الهولندية المكتشفة حديثًا - وتؤيدها الوثائق البريطانية - على أهمية الدور التجاري الذي مارسه القواسم في منطقة الخليج والمحيط الهندي . وفي إطار هذه المعركة التي مارسها القواسم ، استطاعوا أن يجعلوا من رأس الخيمة مركزًا تجاريًا مرموقًا . كذلك برزت الشارقة ضمن أهم ثلاثة مراكز بارزة على الساحل الغربي للخليج ، وكان يجلب إليها الأرز والتمر من البصرة ليباع لغواصي اللؤلؤ وعرب الصحراء . هذا كله فضلاً عن أن القواسم استطاعوا أن يؤسسوا في جزيرة قشم قوة تجارية فعالة ، تمكنت من انتزاع الأهمية التجارية من بندر عباس فترة من الزمن ، وبذلك تمكنوا من توجيه ضربة حزئية للتجارة البريطانية(٥٦) .

وهكذا نجحت تلك العوامل الاقتصادية والتجارية والمحاولات البحرية الجزئية للهيمنة والنفوذ ، وصد محاولات القوى الأجنبية للتغلغل إلى الداخل ، نجحت كلها في تمكين القواسم من التحكم في تجارة الخليج ، كما أقاموا قواعد في باسيدو في جزيرة قشم وغيرها ، الأمر الذي أزعج بريطانيا ، فحاولت بشتى السبل سلب القواسم هذه المكانة التجارية والبحرية التي حققوها ، وكان ذلك سببًا من أسباب الصراع بين الطرفين(٥٧) . على أن اهتمام القواسم بهذه المعاوسة الاقتصادية ، والبحرية ، كان محور المفاوضات التي جرت بين القواسم وبين بريطانيا وهي المفاوضات التي قادت إلى معاهدة سنة ١٢٢١هـ /١٨٠٦م . وقد قمنا بعلاج الصراع وتلك المفاوضات التي كانت تدور باستمرار بين الطرفين حتى مطلع القرن العشرين ، في بحث آخر مفصل في هذا الشأن(٥٨) .

وخلاصة القول أن ممارسة القواسم للتجارة والنشاط البحري بكثافة هائلة ، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى صراعهم مع القوى الأخرى التي حاولت هي الأخرة انتزاع تلك التجارة . وكان إن اتحد القواسم مع ابن سعود ، وقاموا بتأييد مبادئ الدعوة السلفية ، ورفع راية الجهاد ضد من حاول سلبهم معيشتهم ، مما أدى إلى انزعاج الإنجليز طيلة القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين . ذلك أن إنجلترا كانت قد وجهت اهتمامها كما سبق القول إلى الخليج العربي ،

والبحر الأحمر باستعمارها للهند ، واستطاعت أن تحتل مكان الصدارة في البحار الشرقية بعد الهولنديين ، فأسس الإنجليز شركة الهند الشرقية (East India Comp.) في أواخر عام ١٦٠٠م ، وقامت على أكتاف هذه الشركة دعائم الإمبراطورية في الهند . منذ ذلك الحين أخذت شركة الهند الشرقية تتطلع بنظرتها إلى الخليج العربي لتخضعه لنفوذها ، نظرًا لأهميته الاقتصادية كمحطة على طريق مواصلاتها إلى الشرق ، وتأمينًا لوجودها الاستعماري في الهند . على أن ذلك لم يكن سهل المنال ، إذ ظلت القبائل العربية البحرية في الخليج العربي تشكل حجر عثرة في هذا السبيل . وعلى رأس هذه القبائل كان القواسم ، الذين أصبحوا يشكلون قوة بحرية كبيرة ويعملون في نقل التجارة ، وعندما ظهرت شركة الهند الشرقية الإنجليزية على المسرح هددت هذا النشاط . ولم يستطع القواسم منافسة الشركة تجاريًا ، لذلك تصدوا لسفن هذه الشركة ، ونشب صراع طويل بين الطرفين امتد من الربع الأخير للقرن الثامن عشر إلى مطلع القرن العشرين (١٧٧٨-١٨١٩م/١١٩٢-١٢٣٤هـ).

ومن الثابت أن اهتمام بريطانيا بمنطقة الخليج ازداد بشكل بالغ منذ القرن الثامن عشر ، وذلك لدوافع اقتصادية وسياسية وعسكرية واستراتيجية ، وهي عوامل متفاعلة ومتلازمة فيما بينها ، وتدرجت تلك المراحل التي مرت بها أهمية الخليج ، حيثًا إلى جنب مع ازدياد النفوذ البريطاني وترسيخ أقدامه . وتم ذلك عبر سلسلة من الإجراءات التي عمدت بريطانيا إلى تنفيذها لفرض سيطرتها على الخليج العربي . وتطلب ذلك منها أن تخوض صراعًا مع الدول التي كانت تمارس نشاطها في تلك المنطقة . وفي نفس الوقت كانت تعمل من جهة أخرى لدعم سيطرتها على أهالي المنطقة وحملهم على الانصياع لإرادتها . ولأجل تحقيق ذلك حاولت بريطانيا ربط شيوخ المنطقة بعدة معاهدات تضمن من خلالها الحفاظ على أمن المنطقة والإمتناع عما يضر بمصالحها التجارية ، وإخضاع علاقاتهم الخارجية لسياستها . ولجأت بريطانيا أيضًا إلى استخدام القوة ضد مقاومة القبائل العربية التي رفضت الرضوخ للسيطرة البريطانية . ولعل أبرز دليل على ذلك تلك المعارك

التي خاضتها قبائل القواسم على ساحل عمان ، ضد السيطرة البريطانية منذ مطلع القرن التاسع عشر(٩) وقد تصدى القواسم بشكل عنيف لمحاولات بريطانيا احتكار النفوذ وبسط السيطرة على منطقة الخليج لتأمين احتياجات إمبراطوريتها في تلك البحار الممتدة إلى الهند .

وكان القواسم قد اشتهروا بالمهارة في ركوب البحر منذ وقت مبكر . وبسبب هذا النشاط البحري الذي مارسه القواسم أطلق الأوربيون على الساحل الشمالي للخليج الممتد من رمس جنوبًا اسم " ساحل القرصنة " .

وكان القواسم قد اتخذوا على مواجهة النفوذ البريطاني المتمثل في شركة الهند الشرقية الإنجليزية بشتى الوسائل . ولأنهم لم يستطيعوا منافسة الشركة تجاريًا فأنهم تصدوا لسفنها ، ونشب صراع طويل بين الطرفين امتد من عام ١٧٧٨ إلى عام ١٨١٩م - وكان يتخلل هذا الصراع سلسلة من المعاهدات تعقد بين الطرفين من وقت لآخر ، كان من أهمها معاهدة عام ١٨٠٦م / ١٠٠٩هـ . وكان من أبرز أهدافها أن يلتزم الطرفان الهدوء ، حتى يسود الأمان والاستقرار ، وضمان استمرار السفن التجارية في ممارسة نشاطها . على أن هذا الهدوء كان يشوبه الحذر والتحوط ، فظل القواسم من جانبهم يعملون على تكثيف استعداداتهم البحرية . كذلك كانت بريطانيا هي الأخرى ترقب الموقف بحذر وتعمل على تطوير نشاطها البحري في منطقة الخليج لعوامل محلية وأخرى دولية ، متمثلة في نشاط فرنسا والدولة العثمانية . هذا بالإضافة إلى تطور العلاقات المتميزة بين ابن سعود والقواسم والتقارب الشديد بينهما ، وكان أن تجددت الحروب بين القواسم وبريطانيا، وكان أهمها حروب عام ١٨٠٩م-١٢٢٤هـ،١٨١٥م-١٢٣١هـ،١٨١٨م-١٢٣٤هـ.

ورغم أن هذه الحروب أضعفت من قدرات القواسم العسكرية التي كانت تفتقر أيضًا إلى القدرة السياسية التي تسندها ، إلا أن القواسم استطاعوا ولفترة طويلة أن يتحدوا السيطرة البريطانية ، ويكبدوها الكثير من الخسائر البشرية والمادية ، كما عملوا على إعاقة تقدمها ردحًا من الزمن .

الهوامش

(١) أرنولد ، ت . ويلسون : الخليج العربي بجمل تاريخي منذ أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ، ترجمة عبد القادر يوسف ، مكتبة الأمل الكويت . د . ت ص ٣٢٠

(٢) محمد متولي : حوض الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ت ، ٢٤ / المرجع السابق ، ص٣١

(٣) أحمد خليل العطوي : دولة الإمارات العربية المتحدة نشأتها وتطورها ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١ م ص٨٠

(٤) حسان هانو : إتحاد الإمارات العربية ، دار الإعلام للطباعة ، والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص١٧

(٥) أحمد خليل العطوي ، المرجع السابق ، ص٨٧ ./حسان هانو : نفس المرجع ، ص١٧

(٦) أرنولد ، ويلسون ، الخليج العربي ، ص٣٤ - ٣٦ أحمد خليل العطوي نفس المرجع ، ص٨٧- ٨٩

(٧) س . ب . مايلز : الخليج العربي ، بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٨١

(٨) محمود الدادو : الخليج العربي والعمل العربي المشترك ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٨٠، ص٢٧

(٩) جمال قاسم ، دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ - ١٨٦١) مكتبة القاهرة الحديثة ، ص٦

(١٠) محمد متولي ، مرجع سابق ٢/٤٦٤ ./ انظر أيضًا : عبد الفتاح أبو علية محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى ، دار المريخ للنشر ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م ، ص٨٨

(١١) محمد متولي ، مرجع سابق ، ص٣٣

(١٢) زكي الميمان ومحمد خير حضيرية ، عمان ، إعداد مكتب سلسلة البحوث العربية للصحافة والنشر والإعلان ، دمشق ، الطبعة الثانية د . ت ، ص ١٣/ شاكر حضياك : دولة الإمارات العربية المتحدة ، دراسة في الجغرافية الاجتماعية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ ، ص١١٠ / محمد متولي مرجع سابق ، ١/٣٦- ٤٠

(١٣) حون كيلى ، بريطانيا والخليج (١٧٩٥ - ١٨٧٠) ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومى والثقافة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، د . ت . ١ / ٢١ ، ٨/ أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرق إفريقيا ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومى والثقافة ، د. ت ، ص٢٤

(١٤) حون كيلى ، نفس المرجع ، ص٩ - ٢١

(١٥) الفرقة الإباضية ، هى أحد فرق الخوارج الخمس ، إلا أن الإباضية يتبرؤن عن أنفسهم وصفهم بالخوارج . انظر : أحمد محمد سامى :دراسة عن الفرق فى تاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة " ، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ ، ص٦٢ - ٧٨ انظر أيضًا : جمال قاسم ، دراسات لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص١٢٣٠

(١٦) جمال قاسم ، الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات ، مرجع سابق ص١٢٣٠/ نور الدين عبد الله السالمى ، تحفة الأعيان بسير أهل عمان مطابع دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م /٢/١٢٥ أيضًا : محمد موسى عبد الله ، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص١٢١٠

(١٧) محمد مرسى ، مرجع سابق ، ص١٢١/ أيضًا : محمد على الزرقا : عمان قديمًا وحديثًا ، دمشق ١٩٥٩م ، ص١٣٨

(١٨) محمود على الدواد ، محاضرة أضواء جديدة على تاريخ الخليج العربى الحديث ، مستل من بحوث التجارب الوحدوية المعاصرة ، تجربة وحدة الإمارات العربية المتحدة ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية .انظر أيضًا : عبد العزيز عبد الغنى / علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، ص١٨- انظر أيضًا : نوال حمزة حسن صوفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ، الرياض ١٤٠٣هـ . وانظر : سمير أبو ياسين، العلاقات العمانية البريطانية (١٧٩٨- ١٨٥٦) منشورات مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة (٤٨) ، مطبعة جامعة البصرة ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص١٨

(١٩) عبد الأمير محمد أمين ، بحث مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربى للتغلغل الاستعمارى الأوربى ١٥٠٠ - ١٨٢٠م ، مستل من بحوث التجارب الوحدوية

المعاصرة تجربة وحدة الإمارات العربية المتحدة - مرجع سابق ، ص٥٤/ انظرأيضًا : مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولى فى الخليج العربى (١٦٢٢ - ١٧٦٣) ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، د. ت ، ص١٢٩

(٢٠) عبد الأمير محمد أمين ، نفس المرجع ، ص٥٤ - ٥٥

(٢١) ثورة القعيطى، الصراع البريطانى العثمانى حول الكويت ١٦٤هـ ١٣٢٢هـ (١٧٥٠ - ١٩١٤م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب الرياض ، ص١٦

(٢٢) لوريمر ، دليل الخليج ، ١/٦٧ - ٦٨ :

Gazetter of the Persian Gulf , Oman and Central Arabia.

(٢٣) محمود على الدواد ، الخليج العربى والعمل العربى المشترك ، ص٣١- ٣٢

(٢٤) عبد العزيز عبد الغنى : علاقة ساحل عمان ببريطانيا " دراسة وثائقية " مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، انظر أيضًا : حميد بن رزيق، الفتح المبين الموهن سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، محمد محمد موسى عبد الله ، ص٢٨٤ - ٢٩١/ العمارى ، تاريخ عمان ، مخطوط غير منشور - الرياض ص٦٨

(٢٥) مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولى فى الخليج العربى (١٦٢٢ - ١٧٦٣م) ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، د. ت ، ص ٢٧١/ عبد العزيز عبد الغنى ، مرجع سابق ، ص٦٠

(٢٦) من الأسباب التى أدت إلى التحالف الهولندى - الإنجليزى ضد البرتغال هو الاتحاد المذهبى إذ ينتمى كل من الهولنديين والبريطانيين إلى مذهب البروتستانت بخلاف البرتغال الكاثوليك ، انظر : سمير أبو ياسين ، العلاقات العمانية - البريطانية (١٧٩٨ - ١٨٥٦) منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة (٤٨) مطبعة جامعة البصرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص١٨

(٢٧) جمال قاسم ، الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات ، ص١٦٤

(٢٨) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ١٩٧٤ م ، ص٣١

(٢٩) صلاح العقاد ، ص٣٣٠

(٣٠) لوريمر ، مرجع سابق ١/١١١/ العقاد ص٣٩/ محمد علي الزرقا ، عمان قديمًا وحديثًا ، دمشق ١٩٥٩ ، ص٢٦

(٣١) لوريمر ، مرجع سابق ، ١/١١١/ انظر أيضًا ، مصطفى عقيل الخطيب ، مرجع سابق ، ص٢٣٤ - ٢٣٥

(٣٢) مصطفى عقيل مرجع سابق ، ص٢٤٤

(٣٣) جمال قاسم ، الخليج العربي ، مرجع سابق ، ص١٧٥

(٣٤) غانم محمد وميض ، معركة تحرير مسقط ، بحث مسئل من أبحاث الندوة التاريخية للقاسمي في رأس الخيمة من الخليج ، ج١ (الاستعمار البرتغالي في الخليج) ، ٢٠٧ - ٢٠٨/ انظر أيضًا ، الأزكوي ، ص١٠٤ - ١٠٥

(٣٥) جمال قاسم ، الخليج العربي دراسة تاريخ الإمارات العربية،مرجع سابقًا ص٢٤١

(٣٦) الأزكوي ، ص١٢٤٠ انظر أيضًا : السالمي ، تحفة الأعيان ، ٢/١٢٤

(٣٧) بامبدو : ميناء يقع في الطرف الغربي من جزيرة قشم على مسافة حوالي ٢٥ميل إلى الشرق من ناحية الشمال لمدينة لنجة . انظر : لوريمر ، مرجع سابقًا ، القسم الجغرافي /٣٣٧

(٣٨) أحمد قاسم اليوريني ، الإمارات السبع على الساحل الأخضر ، دار الحكمة ، د . ت ، ص١

(٣٩) جمال قاسم : الخليج العربي ،نفس المرجع ، ص٢٤٦

(٤٠) جمال قاسم ، المرجع نفسه ، ص٢٤١٠

(٤١) عبد القوي فهمي : القواسم نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية (١٧٤٧ - ١٨٥٣م) مطبعة رأس الخيمة الوطنية ، ص٨٦

(٤٢) محمود علي الداود ، عوامل الوحدة والتجزئة وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية (١٧٤٧ - ١٨٥٣) ، مطبعة رأس الخيمة الوطنية ، ص٣٤- ٣٥

(٤٣) المرجع السابق ، ص٣٥

(٤٤) الحازمي ، مرجع سابق ، ص١٦٣

(٤٥) محمد بن رزيق ، مصدر سابق ، ص ٣٧٢ - ٣٧٩٠

(٤٦) محمد بن رزيق ، المصدر نفسه ، ص ص ٣٦٧ - ٣٧٠

(٤٧) المصدر السابق - ص ص ٣٨٣ - ٣٨٥

(٤٨) زهدي صمر : تاريخ ساحل الصلح البحري في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ج١، منشورات ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأول ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ - ص٦٣

(٤٩) محمد العيدروس : التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص٢٩ - ٣٠

(٥٠) أحمد السامرائي ، القواسم والخليج العربي وعربستان ، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ١٩٧٣ ، ص ٢٣ - ١٢٤

(٥١) حمد الخليل : كنز الأنساب وتجمع الآداب ، الطبعة الخامسة عشر ، مطابع الفرزدق - الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ ، ص١٥٥ / ابن عثام ، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام - حققه ناصر الدين الأسد ، مطابع شركات الصفحات الذهبية ، الطبعة الثالثة ١٠٤٣ - ص ١٨٨ - ١٨٩

(٥٢) حمد الجاسر ، معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١/٩٧ / حمد الجاسر : جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة - الرياض ، مطبعة مصر ، القاهرة ، د . ت ، ص ٧٢/ حمد بن لعبون ، الناشر مكتبة العرف ، الطائف ، مطبعة المدني ، القاهرة / الطبعة الثانية هـ / كيلي ، بريطانيا والخليج ، مرجع سابق ، ١/٣٥ انظر أيضًا :

الغافري : الأحبار النعمية ، تحقيق عبد الله بن يوسف الشبيل ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر ، د. ت ، هامش ص١٢٣ وانظر أيضًا :

جمال قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، مرجع سابق ، ص٢٤٥

(٥٣) محمد السالم التميمي النجدي : كتاب الدرر النادرة في أخبار العرب الأواخر (قبائل العرب) ، تحقيق ونشر سعود بن غالم الحدران العجمي ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١/ العيدروس ، مرجع سابق ، ص ١٧/ مايلز ، مرجع سابق ، ص٣٠٤

(٥٤) شناص ، مدينة هامة على ساحل الباطنة في سلطنة عمان تقع على بعد ٣٠ميل غرب مدينة صحار ، انظر : لوريمر ، مرجع سابق ، القسم الجغرافي /٧/٢٣٦٣/ أما حور فكان ، تقع في وسط ساحل الشمالية على بعد حوالى ٢٣ ميل شمال حور كلبا ، و٢٠ ميل شمال حور كلبا ، و٢٠ إلى جنوب الجنوب الشرقي من دبا ، تحيط بها الجبال ومدخلها ضيقة بين جبلين . انظر : للاكر، القسم الجغرافي ٤/٢١٧٠، عبد الله المطوع، مرجع سابق ، ص٦٠

٥٥ - محمود مرسي عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجوارنيا ، ص١٢٤ / انظر أيضًا / لوريمر ، مرجع سابق ، القسم الجغرافي ٤٢٣٦٥ / انظر كذلك: السامرائي، مرجع سابق، ص١٢٦/وأيضًا :عبد الأمير محمد أمين: القوى البحرية في الخليج العربي /ص٣٣

(٥٦) من أمثال كارستن نيبور Carsten Niebu bur الذى زار المنطقة سنة ١٧٦٥ م وبكنجهام Barkingham الذى زارها في أوائل القرن ١٣هـ - ١٩م انظر : جمال قاسم ، الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، مرجع سابق / ص٢٥١ - ٢٥٢ / حول كيلي ، بريطانيا والخليج ،مرجع سابق ٢/٤٢

(٥٧) محمد مراد ، صراع القوى في المحيط الهندى ، الخليج العربي ، جذوره التاريخية وأبعاده ، دار دمشق للنشر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ص ٢٤٧ / انظر أيضا : أحمد جلال التدمري ، مرجع سابق ، ص٧٤

(٥٨) انظر للباحث موضوع : الصراع بين القواسم وبريطانيا (١٤٩٨ - ١٧٩٨)- منشورات إتحاد المؤرخين العرب - القاهرة (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) تحت موضوع : الصراع بين العرب والاستعمار في عصر التوسع الأوربي الأول ، ص١٦١

(٥٩) الباحث ، الصراع بين القواسم وبريطانيا ، ص١٦٢ - ١٦٣

القضايا المعاصرة حول الحدود السياسية السعودية على الساحل الغربي للخليج

أ.د. فاروق عثمان أباظة*

يرجع الأساس التاريخي لحدود الدولة السعودية إلى بداية نشأتها فى نجد[1] التى تتوسط شبه الجزيرة العربية ، وذلك بعد اللقاء الذى تم فى عاصمتها الدرعية بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة السلفية والأمير محمد بن سعود بن مقرن أمير الدرعية[2] فى عام (١١٥٨هـ/١٧٤٥م) وكان هذا اللقاء " عهدا وميثاقًا وبيعة "[3] إذ شكل نقطة الانطلاق لنشأة الدولة السعودية[4] . كذلك كانت الدعوة السلفية - التى تعد من أضخم الدعوات التى شهدها العالم الإسلامي ، والتى أثرت تأثيرًا إيجابيًا[5] على الكثير من أرجائه[6] - تشكل الأساس الذى قامت عليه الدولة السعودية[7] فى أدوارها الثلاثة ، الأول بين عامى (١١٥٨ - ١٢١٣هـ) (١٧٤٥ - ١٨١٨م)[8] والثانى بين عامى (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ) (١٨٤٠ - ١٨٩١م)[9] ، والثالث منذ قيام الأمير عبد العزيز آل سعود بعث دولة أجداده فى عام (١٣١٩هـ - ١٩٠٢م) وتعهدها بالرعاية طوال حياته ، وعلى أيدى أبنائه حتى وقتنا الحاضر . وتميزت الدعوة السلفية ودولتها السعودية بقدرتها على الصمود[10] ، وبدليل توالى قيام الدولة عبر أدوارها الثلاثة ، واستمرار بقائها مع استمرار نهضتها حتى وقتنا الحاضر .

والواقع إن انتشار الدعوة السلفية ، وما صاحبه من توسع للدولة السعودية منذ بداية دورها الأول فى أرجاء الجزيرة العربية[11] يشكل العامل الأساسى فى رسم حدود هذه الدولة فى وقت كانت الدولة العثمانية تحرص على استبقاء أملاكها التى آلت إليها بحق الفتح ، ليس فقط فى الجزيرة العربية التى كانت لها

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل كلية الآداب بجامعة الإسكندرية .

مكانتها الخاصة لدى الدولة ، بل في الرقعة الفسيحة من الأرض المترامية الأطراف التي كانت تابعة لها في كل من آسيا وأوربا وأفريقية ، وذلك في أعصب الأوقات التي مرت بها الدولة وأشدها حرجًا . وقد بلغت الدولة السعودية بدعوتها السريعة الانتشار في عهد الأمام سعود بن عبد العزيز (الكبير) فيما بين عامي (١٢١٨ - ١٢٢٩هـ / ١٨٠٣ - ١٨١٤م) حدود العراق ومسقط ، وما بينهما من المناطق المطلة على الخليج العربي ناحية الشرق ، كما بلغت الحجاز وتهامة وعسير من ناحية الغرب والجنوب الغربي ، هذا فضلاً عن مخاليف اليمن جنوبًا[١٢] ، ومشارف الشام شمالاً[١٣] . مما جعل البريطانيين أصحاب المصالح والنفوذ المتميز في البحار المحيطة بالجزيرة آنذاك يخطبون ود السعوديين ويتشدون صداقتهم[١٤] ، بعدما بلغت دولتهم من الاتساع في الجزيرة العربية ما بلغته آنذاك.

ورغم ما تعرضت له الدولة السعودية فيما بعد من ضربات[١٥] ، وما واجهته من مشكلات[١٦] ،في دوريها الأول والثاني[١٧] ، مما عرضها للتقلص تارة، والانهيار تارة أخرى ، فإن ذلك لم يؤثر في رغبة الأمير عبد العزيز آل سعود ، وهو يخطو الخطوات الأولى[١٨] نحو بناء الدولة السعودية في دورها الثالث ، في أن يستعيد كافة المناطق التي أمتد إليها ملك أجداده من قبل . وكانت هذه المناطق قد ارتبطت بالانتماء إلى دعوة السعوديين وملكهم بحيث شكلت ما يمكن أن تنطلق عليه قاعدة شعبية سلفية ، لها وزنها المؤثر في تقرير الأمور . وهذا يفسر بوضوح ظاهرة سرعة إعلان الولاء من قبل القاعدة الشعبية السلفية للحكم السعودي المتمركز أساسًا في نجد ، والمنتشر في المناطق التي أشرنا إليها آنفا ، بمجرد الإعلان عن عودة هذا الحكم إلى تلك المناطق[١٩] ، رغم جهود التعويق التي بذلت من قبل القائمين على حكمها ، حفاظًا على كيانهم الشخصي ، والمستند في أحيان كثيرة إلى انتماءات خارجية . ولا شك في أن هذا الأمر مهد السبيل أمام الأمير عبد العزيز آل سعود لاستعادة ملك أجداده في جزيرة العرب ، والوصول إلى الحدود السياسية التي بلغتها الدولة السعودية في دوريها السابقين . وقد تركزت جهوده

بشكل واضح لتحقيق تلك الغاية في الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ، وهي الفترة التي شهدت في بدايتها انسحاب الاتراك العثمانيين من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها في الجزيرة العربية آنذاك[٢٠] . فكان عليه بدعوته ودولته أن يملأ الفراغ الذي تركوه حتى لاتسعى القوى الأجنبية الطامعة إلى سبقه في ملء هذا الفراغ ، الذي كان يمكن أن يشكل أكبر الأخطار على مقدرات الجزيرة العربية ومستقبلها .

وكان من أبرز النتائج التي ترتبت على انتهاء الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة " مدروس Mondrus " في عام ١٣٣٧هـ (في اليوم الثلاثين من أكتوبر سنة ١٩١٨م) انسحاب القوات العثمانية من الجزيرة العربية[٢١] . وقد أملت دول الوفاق على العثمانيين فتح الدردنيل والبسفور ، ونزع سلاح الجيش العثماني وتسليم البوارج الحربية ، واستعمال الحلفاء للموانئ العثمانية ، واستسلام الحاميات العثمانية في الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق ، واستسلام الموانئ العثمانية في شمال أفريقية . وقد أسفر هذا الانسحاب عن وجود كيانات متعددة في أرجاء الجزيرة العربية سبق أن ظهرت معالم بعضها قبل العهد العثماني الذي استمر قرابة أربعة قرون متتالية ، بينما ظهرت معالم البعض الآخر أثناء ذلك العهد، ثم برزت بشكل واضح في أعقابه . وقد أخذت هذه الكيانات تعمل بحرية وانطلاق لتحقيق مصالحها الخاصة في البقاء والنمو بعد انحسار السيادة العثمانية عن الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى .

وكانت بريطانيا في مقدمة دول الوفاق المنتصرة في الحرب العالمية الأولى ، وكانت مصالحها في الجزيرة العربية قد فاقت مصالح حليفاتها ، بحيث أصبح الخليج العربي من ناحية الشرق ، أقرب ما يكون إلى بحيرة مغلقة على النفوذ الإنجليزي وحده فيما بين الحربين العالميتين[٢٢] . كذلك كان لبريطانيا سيطرة واضحة في نفس الفترة على البحر الأحمر من ناحية الغرب . وقد تمكنت بريطانيا عن طريق سيطرتها على عدن في الجنوب الغربي للجزيرة العربية ، وعن طريق سلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي عقدتها مع كثير من القيادات المحلية في الجزيرة

العربية قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها[٢٢] أن تقضي على القوى المنافسة التي نازعتها النفوذ في الجزيرة العربية ، وإن كانت قد تعرضت لمنافسة من نوع آخر ، أعني به نجاح الأمير عبد العزيز آل سعود في بعث الدولة السعودية في دورها الثالث ، والوصول بها إلى الحدود التي بلغتها بين الحربين العالميتين .

ورغم حرص بريطانيا على أضعاف القوى المحلية الجديدة التي ظهرت في الجزيرة العربية عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بما يحافظ على الأوضاع الراهنة لصالحها آنذاك ، فإن دخول الشركات الأمريكية إلى المنطقة بثقلها الاقتصادي والسياسي بين الحربين العالميتين نتيجة مؤازرة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لها ، إلى زعزعة النفوذ البريطاني في المنطقة وإن لم تصل إلى حد تقويضه تمامًا[٢٤] .

وقد تمثلت الكيانات المحلية في الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى في إمارة الكويت وعمان ومشيخات الخليج العربي في شرقي الجزيرة العربية، وفي إمارة نجد في وسط الجزيرة ، وإمارة شمر في شمالها ، ودولة الحجاز في الغرب ، وإمارة عسير ، والمملكة اليمنية المتوكلية ، ومحمية عدن ، والنواحي التسع المجاورة لها في الجنوب الغربي والجنوب[٢٥] . هذا بالإضافة إلى إمارتين صغيرتين أولهما في الجوف في جنوب الشام أي في الشمال الغربي للجزيرة العربية ويسيطر عليها آل الشعلان ، وكانت في الأصل تابعة لآل الرشيد في حائل ، فلما ضعف شأنهم جاهرت هذه الإمارة بالانفصال عنهم . والثانية إمارة آل عائض في أبها الواقعة غربي إمارة عسير . وقد تسلم آل عائض مقاليد الأمور في أبها بعد انسحاب العثمانيين من الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى[٢٦] .

ولم تكن هذه الكيانات على وفاق مع بعضها البعض لأنها تنازعت فيما بينها السيادة . وكانت مملكة الحجاز قد لعبت دورًا هامًا إلى جانب دول الوفاق وعلى رأسها بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما كانت تشرف على رعاية الحرمين الشريفين ، مما جعل حاكمها الشريف حسين يأمل - بعد أن أرهقته

الأحداث التاريخية السابقة لإعلانه ملكًا على الحجاز[٢٧] - ومنها وعود بريطانيا بجعله ملكًا على العرب[٢٨] بل وخليفة على المسلمين - أن يلعب دورًا بين نظرائه من أمراء الجزيرة بالثورة ضد الإشراك لصالح دول الوفاق[٢٩] . ولكن الحسين لم يستطع أن يمارس أي سيادة - كما كان يأمل - على الأمام عبد العزيز آل سعود في نجد[٣٠] أو الإمام يحيى أمام اليمن[٣١] ، أو الأدريسي في عسير ، بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد ترتب على ذلك ظهور تنافس حاد بين الحسين وباقي الأمراء- بل بين الأمراء جميعًا بعضهم وبعض ، حيث كانت لكل منهم وجهة نظره الخاصة، وطموحاته الشخصية .

ذلك أن الشريف حسين كان ينفر من وجود الإمارة الأدريسية على حدوده الجنوبية ، ويرى أن الأدريسي مغتصب لعسير ، التي تعتبر من وجهة نظره جزءًا لا يتجزأ عن الحجاز . وكان ذلك يتعارض من جهة أخرى مع رغبة الإمام يحيى في ضم عسير لليمن ، نظرًا لأن حكامها كانوا يدينون بالولاء لإحدى الأئمة الزيديين قبيل العهد العثماني ، كما أنها كانت تابعة في ذلك العهد لولاية اليمن العثمانية[٣٢] . لهذا كان الادريسي في عسير يتوجس خيفة من علويين قويين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب ، وكل منهما يتربص به ويتحين الفرصة للانقضاض عليه .

أما في شمال الجزيرة العربية فكان العداء مستحكمًا بين الإمام عبد العزيز آل سعود في نجد ، وآل الرشيد في شمر[٣٣] . هذا فضلاً عن العداء الذي أخذ يتوادد تدريجيًا بين الشريف حسين والإمام عبد العزيز آل سعود حتى أن الشريف حسين كان لا يتوانى عن أن يصب جام غضبه بين الآونة والأخرى على الإمام عبد العزيز آل سعود لتفوقه من تفوق أي أمير عربي عليه .وقد عمر ابنا الحسين ، وهما فيصل وعبد الله ، عن وجهة نظر أبيهما فكان فيصل يرغب في أن يوحد أهل الجزيرة تحت راية أبية ، ويرى أن خطته هذه إذا فشلت فإن كل انتصاراتهم ضد الأشراك العثمانيين من شأنها أن تذهب هباء . أما شقيقه الآخر عبد الله بن الحسين فإنه

كان يكره امتداد الأدريسي نحو الحديدة ، كما كان يشك أيضًا في أغراض الإمام يحيى ، مما جعله ينظر شزرا إلى ناحية اليمن . بل أن فيصل بن الحسين كان يعتقد أنه ما دامت إنجلترا لم تعقد مع الإمام يحيى أية معاهدة ، فإن عليها ألا تظهر أي اعتراض أمام أبيه في الهجوم على الإمام إذا أظهر أي تمرد . أما بالنسبة للإمام يحيى فإنه كان لا يعتبر الشريف حسين بطلاً تاريخيًا ، فقد سبقه في القيام بالثورة ضد الأتراك ، كما كان يرى أن لقب أمير المؤمنين خاص به وحده باعتباره إمامًا للزيديين[٣٥] .

ولم تقف هذه التناقضات التي سادت الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى عند هذا الحد ، بل زاد من تصعيدها وجود النفوذ البريطاني هناك بصورتين مختلفتين ، أولاهما عن طريق الوجود الفعلي المتمثل في الاحتلال البريطاني والإدارة البريطانية في عدن من جهة ، كذلك في إمارات الخليج العربي من جهة أخرى[٣٥] أما الصورة الثانية فتتمثل في عقد المعاهدات الثنائية مع سلاطين وأمراء وشيوخ النواحي المحيطة بعدن في جنوب الجزيرة العربية من جهة[٣٦] ، وفي نواحي الجزيرة المختلفة من جهة أخرى ، وأن اختلفت طبيعة المعاهدات وشروطها[٣٧] . ومن أهم هذه المعاهدات التي بريطانيا على يد معتمدها في الخليج العربي " سير بيرسي كوكس Sir Percy Cox " مع الإمام عبد العزيز آل سعود وعرفت " بمعاهدة العقير " في ١٣٣٤هـ الثامن عشر من صفر الموافق السادس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١٥[٣٨] واعترفت فيها بريطانيا بأن " نجد " و"الحسا" و " القطيف " و " جبيل " وتوابعها هي بلاد تابعة له ولآبائه من قبل ، كما اعترفت به حاكمًا مستقلاً ورئيسًا مطلقًا على قبائلها وتعهدت له بالمساعدة[٣٩] . كذلك تعهد الإمام عبد العزيز آل سعود بأن يتحاشى الاعتداء على أقطار الكويت والبحرين ومشايخ قطر وسواحل عمان التي هي تحت الحماية البريطانية[٤٠] ، وتخوم الأقطار الخاصة بهؤلاء ستعين فيما بعد[٤١] . كما أتفقت الحكومة البريطانية مع عبد العزيز آل سعود على عقد معاهدة أكثر تفصيلاً ، وهو

ما حدث بالفعل في معاهدة حدة بعد قيام الإمام عبد العزيز آل سعود بفتح الحجاز ، والتي أبرمت في (١٨ من ذي القعدة سنة ١٣٤٥هـ / ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧م)[٤٢] وإلى جانب ذلك عقدت بريطانيا معاهدة التحالف مع محمد الأدريسي حاكم عسير في (اليوم الخامس عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٣٣هـ الموافق الثلاثين من أبريل سنة ١٩١٥م) ، ونجحت في استقطابه إلى جانبها بضرب العثمانيين في الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى[٤٣] . هذا بالإضافة إلى المعاهدة الثالثة التي عقدتها بريطانيا مع إمارة الإشراف في مكة ، وهي التي انضمت إلى دول الوفاق في سنة ١٩١٦ أثناء الحرب العالمية الأولى ، تحية للمحادثات المعروفة بمحادثات " الحسين - مكماهون "[٤٤] . وقد اعترفت بريطانيا ودول الوفاق بالحسين ملكًا على الحجاز آنذاك . وبالإضافة إلى ذلك وعد الإنجليز الشريف حسين بالاعتراف به خليفة على للمسلمين عندما ينادى به المسلمون لهذا المنصب . وفي (٩ شعبان ١٣٣٤هـ / ٢ يونيه ١٩١٦م) أعلن شريف مكة الثورة على الدولة العثمانية[٤٥] .

وكان من دواعي زيادة حدة التناقضات في الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى ، قيام بريطانيا بمنح المعونات المالية والسلاح لكل من تعاهد معها من الأمراء المحليين في الجزيرة العربية تحقيقًا لمصالحها ، مما أدى إلى اتجاه كل منهم لتحقيق مصالحه الخاصة . وهذا ما نتج عنه أثارة المنافسة الحادة والعسكرية بين القوى المحلية هناك . وقد بلغت هذه المنافسة ذروتها بين الشريف حسين وعبد العزيز آل سعود في غرب الجزيرة العربية ووسطها ، وبين الإمام يحيى والادريسي في جنوبها الغربي ، وذلك عقب نهاية الحرب العالمية الأولى . وهذا يعني وجود عامل خارجي إلى جانب العامل الداخلي ، وعملاً معًا على تنمية حدة التناقضات في الجزيرة العربية ، تلك التناقضات التي حددت مجرى أحداث قضايا الحدود السياسية للدولة السعودية في الفترة التالية .

قضايا الحدود السياسية الشرقية للدولة السعودية :

ترتبط قضايا الحدود الشرقية للدولة السعودية بطبيعة النظم القائمة في الدول الخليجية العربية ، والعلاقات بين هذه الدول بعضها ببعض ، فضلاً عن العلاقات بين هذه الدول وبين الدول الخليجية غير العربية ، كما ترتبط باستراتيجيات الدول الكبرى التي تولي المنطقة اهتمامًا خاصًا تحت تأثير دوافع أو مصالح متباينة ومتعارضة . وفي هذا الأطار تتميز قضايا الحدود في منطقة الخليج بخصوصية ترتبط بالجانب الجغرافي والسياسي الاقتصادي الديموجرافي . وقد تفجرت قضايا الحدود مع تفجر البترول[١٦] ، الذي كان ظهوره أسبق من نشأة وتكون بعض الدول في منطقة الخليج . وهذا ما جعل أساليب القانون الدولي المعروفة عاجزة ، في كثير من الأحيان ، عن تقديم الحلول في بعض المنازعات التي ثارت . على أن قيام أشكال معينة من التقارب ، وخاصة في السنوات الأخيرة كما حدث مع دول مجلس التعاون الخليجي[١٧] ، أدى إلى الإسراع بتسوية منازعات الحدود في الجانب الشرقي للحدود السياسية للدولة السعودية ، وخاصة بعد أن أعيد تشكيل جوانب منها تحت تأثير تطورات داخلية وخارجية بعيدة المدى[١٨] . وقد أحتلت منازعات الحدود مكانًا مرموقًا في دراسة العلاقات الدولية ، خاصة أن الأقليم السياسي يرتبط في تخطيط حدوده بجوانب سياسية واستراتيجية واقتصادية ونفسية ، تبعًا لاختلاف الدول المعنية به ، والظروف المرتبطة بتحديده ، وتباين درجة تقدم الجماعات السياسية التي تقطن الأقليم ، ومدى وعيها بهذه الأبعاد . ويزيد الأمر تعقيدًا في حالات كثيرة أنه لم تكن هناك معايير مستقرة لتخطيط الحدود أو تبعية الأقاليم ، وهي أمور بدت واضحة في قضايا الحدود في الجزيرة العربية .

وتجدر الأشارة إلى أن منطقة الخليج العربي لم تظهر فيها أية حدود ثابتة على الخرائط قبل القرن العشرين[١٩] ، وكانت اتفاقية عام ١٩١٣ بين الدولة

العثمانية وبريطانيا أول محاولة لتعيين الحدود هناك ، والتي تحدد بموجبها خط الحدود السياسية بين المناطق الخاضعة لكل من الدولتين في شرق الجزيرة العربية .

والواقع أن حكام المنطقة لم يولوا مسألة الحدود في الماضي أية أهمية ، إذ لم يكن مفهوم السيادة الإقليمية السياسية بمعناه المعاصر معروفًا لديهم ، كما لم يكن هناك مبدأ ثابت لتقرير السيادة . فتارة تقرر على أساس إعلان الولاء من زعيم القبيلة ، وتارة أخرى على أساس التبعية لتوجه ديني معين كالأباضية أو السلفية . وفي بعض الأحيان يتبنى على أساس الملكية العقارية كما كانت أسرة البوفلاح تملك بعض بساتين واحة البوريمي ، أو على دفع الضريبة أو زكاة . وكان للحاكم صلاحياته على أية أرض نتيجة نفوذه على القبائل المستقرة فيها . وكان الولاء له وليس للمشيخة أو الإمارة نفسها .

هذا إلى أن القبائل كانت في حركة مستمرة من التداخل وعدم الاستقرار – مما أثار الكثير من المشاكل ، خاصة وأن حركة القبائل وولاءها تتقلب لاعتبارات طبيعية ، وكذلك وفق علاقاتها مع الحاكم . فإذا تحول ولاء قبيلة من حاكم إلى آخر أدعى الحاكم الآخر حقوقًا على الأقليم الذي به القبيلة . ويرفض الحاكم الأول الاعتراف بخروج القبيلة عن طاعته ، وبذلك تصبح المنطقة التي تجوب فيها القبيلة موضعًا للنزاع بين الحاكمين .

ومما لا شك فيه أن الحدود بين القبائل كان معترفًا بها ، إذ كان لكل قبيلة منطقة تقليدية تتحرك إليها في الفصول المختلفة ، ولكنها لم تكن حدودًا واضحة وثابتة . وكان وضع القبائل في الصحراء أشبه بوضع الدول في أعالي البحار فكل دولة لها مياهها الأقليمية التي تقررت حتى الآن بإعلان منفرد من جانبها ، ولكن تبقى هناك مساحة من المياه الدولية تتكافأ فيها الدول والتزاماتها .

ومن تقاليد العيش في الصحراء أن يعترف عمومًا بحق القبائل في الارتواء من الآبار ، والرعي في مناطق المراعي الطبيعية . إلا أنه في سنوات الجفاف كانت

هذه الحقوق تتحول في بعض الحالات إلى شجار بين القبائل رغم شيوع ملكية الصحراء والماء والكلأ ، أو وفقا لما ورد في الحديث الشريف " الناس شركاء في ثلاثة ، الماء ، والنار ، والكلأ " . ورغم شيوع ملكية هذه العناصر الحيوية في الصحراء فقد ثارت الخلافات حول التسابق إلى تملكها ، ولذا نشأت فكرة إقامة مناطق محايدة بين القبائل . غير أن محاولة تخطيط الحدود في المناطق الصحراوية كانت تكتنفها صعوبات كثيرة نظرًا لعدم توفر حدود طبيعية يسهل الاهتداء إليها يتبع مظاهر معينة على السطح . لذلك لا مفر من قبول حدود تحكميه ، وهو الأمر الذي أملته رغبة القوى الخارجية في القرنين الأخيرين لضبط طرق الاتصال . ولذلك خططت الحدود وفق مصالح القوى ومناطق نفوذها ، خصوصًا في ضوء الأهتداء إلى المعايير الطبيعية ، أو التاريخية ، أو الرضا والاتفاق ، أو معيار ولاء القبائل ، رغم صعوبة الاستدلال على مفهوم دقيق له ، أو دلائل ثبوته أو انقضائه . لذلك فإن وسائل تخطيط الحدود في المناطق الصحراوية الخليجية ، والمعايير التي طبقت في هذا الصدد اتجهت إلى الأخذ بالاعتبارات العملية ، إلى جانب الرضا والاتفاق بين الأطراف المعنية . وقد لوحظ أن دراسي تخطيط الحدود وضروراته تعاظمت مع تعاظم دور بريطانيا في الخليج وحاجتها إليه ، الأمر الذي ترتب عليه حرص بريطانيا على عدم تحول منازعات الحدود إلى صدامات بين الحكام بوجه عام . ذلك أن سياستها العامة اتسمت بالمحافظة على الوضع الراهن حتى يمكنها أن تتفرغ إلى استثمار هذا الهدوء لصالحها إلى أبعد مدى[٥٠] .

أولاً : الحدود السعودية العراقية :

منذ قام الأمير عبد العزيز آل سعود ببعث الدولة السعودية في دورها الثالث في نجد عام (١٣١٩هـ/١٩٠٢ م) لم تكن تعرف حدود دولية معينة بين نجد والعراق ، نظرًا لأن القبائل بين البلدين كانت دائمة التنقل ، حتى أن أكثر العشائر المعروفة في العراق عشائر نجدية ، وحلت إلى العراق وسوريا ، مثل قبائل عنزه ،

وبعضها يسكن العراق وشمال نجد مثل شمر . وكانت الحدود التقليدية تمتد حسب قوة الحاكم وامتداد سلطته بين القبائل والعشائر . وقد تم التوصل إلى تخطيط الحدود السعودية العراقية في اتفاقية المحمرة التي عقدت عام (١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، وأرفق بهذه الاتفاقية بروتوكول إنشاء منطقة محايدة مساحتها ٢٥٠٠ ميل مربع ، تجاور الجزء الغربي من الحدود مع الكويت . وفي هذه المنطقة المحايدة اتفق الجانبان على عدم إقامة منشآت عسكرية أو دائمة ، ويباح للقبائل الرحل من كلا البلدين أن تجوب المنطقة بحثًا عن الماء والكلأ[٥١] .

وقد بدأت القبائل الموالية لفيصل الدويشي تقوم بالغارات على الأراضي السعودية في نجد ، في الوقت الذي كان يقوم الملك عبد العزيز آل سعود بتأسيس دولته وجمع شتات أقاليمها خلال ربع قرن منذ قيام الدولة السعودية في دورها الثالث . لهذا اضطر الملك عبد العزيز آل سعود في عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م) إلى تحسين علاقاته مع العراق فوضع حدًا لهذا النشاط المعادي وأمكن في هذه الظروف أن يتوصل الجانبان السعودي والعراقي في عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) إلى اتفاقية للصداقة وحسن الجوار ، واتفاقية أخرى للتحكيم فيما يختلف عليه بينهما من أمور ، ولتبادل المجرمين[٥٢] .

وعندما فاضت عيون البترول بعد ذلك في المملكة العربية السعودية وفي العراق ، أخذت المملكة تجري الترتيبات المختلفة مع الكويت والبحرين والعراق لتنظيم استغلال البترول على الحدود المشتركة . وقد عززت العلاقات بين المملكة العربية السعودية والعراق بعقد معاهدة الأخوة العربية والتحالف بين الجانبين في عام (١٣٥٥هـ/ أبريل ١٩٣٦م) . وانضم اليمن إلى هذه المعاهدة في العام التالي[٥٣]، بل إن إدارة المنطقة المحايدة تم تنظيمها باتفاقية وقعها الجانبان في عام (١٣٥٧هـ/مايو ١٩٣٨م) . وجدير بالذكر أن الوثائق البريطانية أشارت إلى تعليلات للأسباب التي أدت إلى تفضيل عبد العزيز آل سعود للشركات الأمريكية – لاستغلال النفط في بلاده – عن الشركات البريطانية ، خاصة بعد تخلصه من

القيود التي فرضت عليه في معاهدة ١٩١٥ بتوقيعه إتفاقية جدة في عام ١٩٢٧ مع بريطانيا . ومن بين هذه التعقيدات توتر العلاقات بينه وبين الإنجليز بسبب مناصرتهم للهاشميين في العراق والأردن عند تخطيط الحدود بين السعودية وبينهما. هذا بالأضافة إلى القروض المالية الكثيرة إلى قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لعبد العزيز آل سعود في الوقت الذي كان يعاني فيه ضائقة مالية شديدة الوطأة بعد خروجه منهكًا من حروبه في الجزيرة العربية ، وبتأثير الأزمة الاقتصادية العالمية التي أدت إلى إنكماش مواسم الحج ، واحجام الشركات البريطانية عن استغلال النفط في بلاده ، أو لتقديمهم عروضًا أقل إغراء من العروض الأمريكية[٥٤] . وتجدر الأشارة إلى أن عبد العزيز آل سعود وفض في عام (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م) عرضًا مغريًا للغاية من جانب اليابان للتنقيب عن البترول في بلاده إذا اعتقد أن من ورائه دوافع سياسية آنذاك . كذلك كانت للنازيين في نفس الوقت خطط تتصل بالنفط السعودي ، ففي نفس العام زار جدة " الدكتور فريتز جروبا " الوزير المفوض الألماني في العراق والسعودية ، ولكن عبد العزيز آل سعود آثر مواصلة الارتباط بالإمريكيين حتى يضمن بذلك تطوير بلاده دون الالتزام بمسئوليات سياسية "[٥٥] .

وقد ازدهرت العلاقات العراقية السعودية بعد تسوية الأمور ، وكان آخرها في هذا الصدد ما أعلنه الرياض في عام (١٣٩٥هـ/٢يوليو ١٩٧٥) من توصل الجانبين السعودي والعراقي إلى اتفاقية تنص على تقسيم المنطقة المحايدة الفاصلة بين البلدين بالتساوي عن طريق خط مستقيم بقدر الإمكان ، وهو الأمر الذي أدخل بعض التعديلات على الحدود العراقية وأوصلها إلى ما هي عليه في وضعها الحالي[٥٦] .

ثانيا : الحدود السعودية – الكويتية :

يشكل تخطيط الحدود السعودية الكويتية نموذجًا يحتذى في منطقة الخليج ، نظرًا للعلاقات الأسرية القديمة بين السعوديين والكويتيين من جهة ، فضلاً عن تماثل الأوضاع السياسية السائدة في كلا البلدين من جهة أخرى . وقد بحث

موضوع تخطيط الحدود السعودية الكويتية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكذلك تخطيط الحدود العراقية السعودية ، بين ممثلي الأطراف المعنية وبحضور إنجلترا التي كانت تعنى بشئون العراق في إطار نظام الانتداب ، وفي اجتماع عقد في بلدة المحمرة في رمضان ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م[٥٧] .

وكان أن توصل الجانبان السعودي برئاسة السلطان عبد العزيز آل سعود والبريطاني برئاسة " سير برسي كوكس Sir Percy Cox " المقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى عقد اتفاقية العقير في الثاني عشر من ربيع الثاني (١٣٤١هـ / اليوم الثاني من ديسمبر عام ١٩٢٢م) وتضمنت هذه الاتفاقية قسمًا خاصًا بالحدود السعودية الكويتية ، يقضي بإقامة منطقة محايدة مساحتها ٢٠٠٠ ميل مربع[٥٨] . وفي نفس هذا التاريخ أبرمت اتفاقية المحمرة الخاصة بالحدود السعودية العراقية التي قضت هي الأخرى بانشاء منطقة محايدة كما ذكرنا آنفا .

وتجدر الأشارة إلى أن اتفاقية العقير أشارت إلى أن ثمة اتفاقية منفصلة أخرى ستلوها بصدد الحدود السعودية الكويتية ، أي أن تلك الاتفاقية كانت بمثابة تسوية مؤقتة لمسألة الحدود، كي يتسنى للدولتين استغلال موارد المنطقة المحايدة إلى أن تتم التسوية النهائية لوضع الحدود .ولهذا بقيت اتفاقية العقير تشكل الوثيقة الوحيدة التي تحدد المركز القانوني للسعودية والكويت في المنطقة المحايدة . على أن هذه الاتفاقية ابتدعت أسلوبًا صار مثالاً ناجحًا لتخطيط الحدود في الحالات المماثلة ، إذ أنها لم ترسم نظامًا معينًا أو إدارة معينة للمنطقة ، نظرًا لأن هذه المساحة الشاسعة لم تكن آهلة بالسكان وقت تخطيطها ، إذ لم يكن البترول قد تدفق فيها بعد ، وبالتالي لم تكن هناك حاجة عملية لضبط نظام إدارة المنطقة والتدقيق في علاقات الدولتين بها . وهكذا ظلت سيادة الدولتين في المنطقة المحايدة دون تحديد دقيق ، مع التسليم بأن حقوقهما فيها متساوية ، فلم تحدد الاتفاقية طريقة معينة لممارسة تلك السيادة ، وكانت بذلك أشبه بنظام السيادة

المشتركة . وقد قام الملك عبد العزيز آل سعود بزيارة الكويت في عام (١٣٥٤هـ/ يناير ١٩٣٦م) مما عزز العلاقات بين الجانبين[٩٩] .

ثالثًا : الحدود بين الدولة السعودية والإمارات العربية وعمان :

تعد قضايا الحدود السياسية بين الدولة السعودية والإمارات العربية في حقيقتها منازعات سعودية بريطانية بالدرجة الأولى ، حيث كانت بريطانيا ترصد نمو الدول السعودية عبر أدوارها الثلاثة ، وخاصة عندما قام عبد العزيز آل سعود ببعث الدولة في دورها الثالث عام (١٣١٩هـ/١٩٠٢م) .

وكانت بريطانيا تهدف إلى الحفاظ على الوضع القائم في الخليج ، ومنع أي قوة خليجية أو أجنبية من المساس به . ولا أدل على ذلك من حرصها على عقد حلف بين عرب الساحل المهادن في عام (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م) في محاولة لاقصاء السلفيين السعوديين عن المنطقة ، عندما كانوا يقومون بغارات مستمرة على قطر في نطاق جهودهم المناهضة لبني خالد ، حتى أمكنهم عام (١٢٢٥هـ/١٨١٠م) توحيد البحرين وقطر والقطيف في مقاطعة واحدة . وكانت البحرين في فترات متقطعة تخضع لسيطرة السعوديين وتدفع الجزية لهم ، مقابل حمايتها من هجمات الفرس ومسقط عليها ، لذلك حرص الإنجليز على استخلاص تعهد من السعوديين في عام (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م) بعدم الأضرار أو الاعتداء على الإمارات العربية المتحالفة مع الحكومة البريطانية وخاصة مسقط . كذلك ضمنت بريطانيا معاهدة دارين التي عقدتها مع عبد العزيز آل سعود في عام (١٣٣٤هـ/١٩١٥م) والتي اعترفت فيها باستقلاله وتعهدت له بالحماية والزامه بألا يعتدي على تلك الإمارات، وكررت ذلك أيضًا في معاهدة جدة لعام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)[١٠٠] .

وفي عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م) أعلنت المملكة العربية السعودية تبعية المنطقة الفاصلة بينها وبين الإمارات ضمن حدودها السياسية ، وهي الساحل الجنوبي للخليج غربًا من نقطة تقع بين المغيرة والمرفأ على شاطئ الظفرة ، حتى

نقطة تقع على الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة قطر . لذلك ثارت المشاكل حول الحدود العامة بين المملكة العربية السعودية والإمارات ، كما ثارت حول مشاكل بذاتها ، وتعنى بها على وجه التحديد قضية البوريمي ، التي تمس المملكة العربية السعودية من ناحية وكلا من " أبو ظبي " و " عمان " من ناحية أخرى . ذلك أن المملكة العربية السعودية ترى أن سيادتها تمتد من شبه جزيرة قطر عبر مدينة الدوحة وأراضي الرعي المتاخمة لها مباشرة . ولهذا بدأت حكومة المملكة العربية السعودية منذ عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م) وهو تاريخ منح امتياز التنقيب لشركة النفط الإنجليزية الفارسية ، تثير مسألة الحدود مع المعتمد البريطاني في " بوشهر ". وفشلت المفاوضات السعودية - البريطانية في عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) لتخطيط الحدود السعودية - القطرية نظرًا لتمسك الجانب السعودي بمطالبه الإقليمية التي شملت أربعة أخماس أراضي أبو ظبي بما فيها واحة ليوا الموطن الأصلي لأسرتها الحاكمة .

أما بالنسبة للخلافات حول الحدود العامة بين المملكة العربية السعودية وأبو ظبي فقد جرت محادثات سعودية - بريطانية بشأنها في جدة في عام (١٣٥٦هـ/١٩ مارس ١٩٣٧م) ولم ينته الجانبان إلى اتفاق محدد في هذا الصدد . وكان الجانب السعودي قد اقترح خطًا بين المملكة العربية السعودية والإمارات المجاورة عام (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) ، ورفضته بريطانيا التي تقدمت باقتراح آخر مضاد يعطي قطر مزيدًا من الأراضي ويؤكد تبعية خور العديد " لأبو ظبي " . وفي عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) انعقد بالدمام مؤتمر مائدة مستديرة لبحث الحدود العامة بين المملكة العربية السعودية وكل من قطر وأبو ظبي . وقدمت أبو ظبي وبريطانيا مذكرات بشأن حدود الامارتين مؤكدة سيطرة أبو ظبي على شاطئ الظاهرة وانتماء قبائل بني ياس[١٠١] والمناصير لأبو ظبي ، وتبعية واحة ليوا وخور العديد لأبو ظبي وكذلك الظفرة . ولم يسفر هذا المؤتمر عن أية نتيجة ، وبقيت الحدود معلقة وغير مرسومة[١٠٢] حتى تم حلها نهائيًا عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)

مع كل من عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة بشأن البوريمى والحدود بينهما . أما الحدود بين المملكة العربية السعودية وقطر فقد أبرم اتفاق بينهما بشأن تحديد الحدود البرية والبحرية فى عام (١٣٨٥هـ/ديسمبر سنة ١٩٦٥م)[١٤٥] .

وسوف نلقى فيما يلى مزيدًا من الضوء على النزاع حول واحة البوريمى ، الذى أثر كثيرًا على العلاقات بين المملكة العربية السعودية من جهة ، وكل من أبو ظبى ، وعمان من جهة أخرى ، بل أدى إلى وصول العلاقات بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا إلى درجة الصدام المسلح أثناء الفترة موضع الدراسة بين الحربين العالميتين ، وذلك باعتبار بريطانيا صاحبة المصلحة فى مساندة أبو ظبى وعمان فى نزاعهما مع المملكة العربية السعودية ، التى ارتبطت مع شركات أمريكية للتنقيب عن البترول فيها . وهذا يظهر أن النزاع كانت وراءه الشركات الإنجليزية من جهة، والأمريكية من جهة أخرى . وقد ثار أول خلاف بسبب عدم تحديد المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية حين أعطت المملكة فى عام (١٣٥٢هـ/٢٩مايو ١٩٣٣م) امتياز " لشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا The Standard Oil Company of California "[١٤٦] للتنقيب عن النفط هناك . ومع أن النفط لم يتم استخراجه إلا فى عام (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م) إلا أن شروط الامتياز وفرت للخزانة السعودية مبالغ كبيرة . وازداد حجم المشكلة حين أعطى حكام قطر وعمان وإمارات الساحل المهادن امتيازات لصالح شركة بترول العراق الإنجليزية فى أراضيهم[١٤٧] .

وقد إتضحت مشكلة الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية فى عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) حين سألت الحكومة الأمريكية بريطانيا عن مركزها القانونى هناك ، فأرسلت بريطانيا ونيقتين فى هذا الصدد هما الاتفاقية الإنجليزية العثمانية الموقعة فى عام (١٣٣١هـ/٢٩ يوليو ١٩١٣م) ولم يصدق عليها ، واتفاقية عام (١٣٣٢هـ/٩ مارس ١٩١٤م) ، كأساس لتحديد الحدود الشرقية وكان قد ثار خلاف بين الدولة السعودية وبريطانيا حين أبلغت الأخيرة الأولى فى عام

(١٣٣٢هـ/٢٨ إبريل ١٩١٤م) باتصالاتها مع الولايات المتحدة بشأن الحدود الشرقية[١٤٨] . وسارعت المملكة العربية السعودية بإبلاغ بريطانيا أنها ليست ملزمة بالاتفاقيتين المذكورتين . كما أثار منح عبد العزيز آل سعود امتياز التنقيب عن النفط فى المنطقة المحايدة فى عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) " لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا " اعتراضات الحكومة البريطانية ، وعدت ذلك حينذاك انتهاكا لقرارات مؤتمر العقير عام (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) الخاصة بأوضاع المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية من جهة أخرى . ودارت لهذا الغرض جولتان من المفاوضات الأولى من (١٣٥٣ - ١٣٥٧هـ/١٩٣٤ - ١٩٣٨م) والثانية من (١٣٦٩ - ١٣٧٢هـ/١٩٤٩ - ١٩٥٢م) وانعقد خلالهما مؤتمران ، لندن عام (١٣٧١هـ - ١٩٥١م) ، والدمام عام (١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م) دون أن يصل الطرفان إلى حل نهائى . وأثناء المرحلة الأولى من المباحثات قدمت المملكة العربية السعودية فى عام (١٣٥٣هـ/٣ أبريل ١٩٣٥م) أول اقتراح لحدودها الشرقية مع قطر وأبو ظبى ، عرف باسم خط فؤاد[١٤٩] .

وكان أن ردت إنجلترا بمشروع مضاد فى عام (١٣٥٤هـ - ٢٥ نوفمبر ١٩٣٥م) عرف باسم خط ريان ، ورفضته الحكومة السعودية[١٥٠] . على أنه فى نفس السنة قام الأمير سعود وفيصل آل سعود بزيارة إنجلترا ، وفى عام (١٣٥٦هـ/ مارس ١٩٣٧م) قام " السير جورج رندل Sir George Rundle " برد الزيارة - وكان آنذاك رئيسًا للقسم الشرقى فى وزارة الخارجية البريطانية . وفى المحادثات الخاصة تمت تسوية معظم المسائل البارزة فى العلاقات الأنجلو - سعودية وتبودلت تعهدات الصداقة بين الجانبين[١٥١] . أما بالنسبة للمرحلة الثانية من المفاوضات فقد بدأت عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) حين أحتج المندوب السامى البريطانى فى أبو ظبى ، على عمليات الكشف عن البترول الذى كانت تقوم به " أرامكو " فى منطقة اعتبرت ضمن أراضى أبو ظبى . وخلال المفاوضات قدمت المملكة العربية السعودية اقتراحا لرسم الحدود بينها وبين كل من أبو ظبى وقطر

في (١٤ أكتوبر ١٩٤٩م) . غير أن بريطانيا رفضت التصور السعودي لحدودها مع أبو ظبي وقطر ، وذلك في مذكرة قدمتها في ٣ نوفمبر ١٩٤٩م) وأشارت إلى أن حكومتي أبو ظبي ومسقط تحولاها التفاوض باسمهما في المناطق المحيطة بالبوريمي . تذلك اتفق على استئناف التفاوض في مؤتمر يعقد في لندن . وخرج هذا المؤتمر الذي استمر من (٨ - ٢٤ أغسطس ١٩٥١) بنتيجة واحدة هي الاتفاق على عقد مؤتمر مائدة مستديرة في الدمام عام (١٣٧١هـ / ١٩٥٢م) تحضره السعودية وبريطانيا بالإضافة إلى المشيخات المعنية . وفي هذا المؤتمر أبدى الجانبان تشددًا كبيرًا في مقترحاتهما ، حيث تجاوز الجانب البريطاني خط ريان لعام (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) . وقد انفض المؤتمر دون التوصل إلى اتفاق في عام (١٣٧١هـ/ أغسطس ١٩٥٢م)[٧٠] ، مما جعل المملكة العربية السعودية ترسل حاكمًا للبوريمي وبعض المدنيين[٧١] فيما اعتبرته إنجلترا غزوا مسلحًا للبوريمي . ودارت مفاوضات بشأن هذا الوضع الجديد وأبرمت اتفاقية التوقف في عام (١٣٧٢هـ/٢٦ أكتوبر ١٩٥٢م) اتفق فيها على تجميد الوضع الراهن لحين استئناف المفاوضات والتوصل إلى اتفاق . ولما استؤنفت المفاوضات في عام (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م) اتفق فيها على إحالة النزاع إلى محكمة تحكيم للفصل بين الجانبين[٧٢] .

وتجدر الأشارة إلى أنه وقعت صدامات مسلحة على الحدود السعودية - العمانية في (١٣٧٢ - ١٣٧٣هـ/ نوفمبر ١٩٥٢ - يوليو ١٩٥٤م) رغم اتفاقية التوقف بين القوات البريطانية وقوة كشاف عمان من جهة ، وبين السعوديين في الواحة من جهة أخرى ، وقطعت على أثرها العلاقات الدبلوماسية السعودية البريطانية . ومن الملاحظ أن المحادثات والاتفاقات والمقترحات التي تمت بين الجانبين السعودي والبريطاني منذ إثارة النزاع في أوائل الأربعينات لم تركز بصفة أساسية على واحة البوريمي وحقوق الأطراف فيها ، وأنما تناولت أيضًا الحدود العامة بين كل من المملكة العربية السعودية وقطر وأبو ظبي ، بينما لم تظهر مسقط خلال تطورات الموضوع كله . والذي طلب التحكيم بشأنه هو

نزاع الواحة وتخطيط الحدود بين المملكة العربية السعودية وأبو ظبي . وقد أحال الطرفان النزاع إلى هيئة تحكيم بموجب اتفاقية تحكيم عام (١٣٧٣هـ/ ٣٠ يوليو ١٩٥٤م) ، وتشكلت هيئة التحكيم من أربعة أعضاء ورئيس ، حيث أختار ممثلا السعودية وبريطانيا عضوين ، واختار الأربعة رئيسهم وهو الأستاذ " شارل دي فيشر " أستاذ القانون الدولي في بلجيكا والرئيس السابق لمحكمة العدل الدولية . واجتمعت الهيئة بشكل تمهيدي في " نيس " في جنوب فرنسا في عام (١٣٧٤هـ/ سبتمبر ١٩٥٥م) ولكن الهيئة تحللت منذ هذا الاجتماع ، حيث استقال المندوب البريطاني ورئيس الهيئة ، لأن الممثل البريطاني إدعى أن المندوب السعودي الشيخ يوسف ياسين كان تابعًا لوزير الخارجية مما يجعل تحيزه واردًا . وعلى أثر ذلك قامت قوة حرس عمان بإبعاد البوليس السعودي من البوريمي وتوترت العلاقات من جديد[٧٣] .

وكان جوهر نزاع البوريمي يتلخص في أن أبو ظبي تدعي السيادة على ست قرى ، وتطالب مسقط بالثلاث الأخرى . بينما ترى المملكة العربية السعودية أن الواحة كلها ملك لها . وكانت بريطانيا باعتبارها حامية لمصالح أبو ظبي تقف في مواجهة السعودية ، على أساس تفويض من سلطان عمان لها في ذلك . ومن ناحية أخرى ، يشمل النزاع أيضًا على تحديد الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية الفاصلة بينها وبين قطر وأبو ظبي . فترى الحكومة البريطانية أن الاتفاق العثماني - الإنجليزي لعام (١٣٣٢ هـ/ ١٩١٣م) الذي وضع ما يعرف بالخط الأزرق ، هو أساس تخطيط الحدود ، ولم يحدث تغير في شرق السعودية منذ ذلك التاريخ ، بينما ترفض السعودية الخط الأزرق ، وخط ريان لعام (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) وتتمسك بأن يتم تخطيط حدودها الشرقية وفقًا لأوضاع عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) . أما فيما يتعلق بمدى صحة الأسس التي استندت إليها كل من المملكة العربية السعودية ومسقط وأبو ظبي فقد حاول كل طرف أن يثبت سيطرته على الواحة وخضوع قبائلها له أطول فترة ممكنة ،

وممارسته السيادة عليها[٧٦] . وتشير المستندات التاريخية إلى أن الأطراف الثلاثة اختلفت على الواحة في فترات متعاقبة في ظروف تاريخية معينة ، ومارست عليها أقدارًا متفاوتة تاريخيًا وموضوعيًا من السيطرة . غير أنه يلاحظ أن الجانب السعودي أكثر أقدامًا في هذا الصدد من الجانبين الآخرين كما سبق أن أشرنا[٧٧] إذ سيطر السعوديون على الواحة مدى أطول من غيرهم سيطرة مستمرة، قرابة ثمانين عامًا . وكانت قبائل الواحة فيما عدا هذه الفترة أقرب إلى الاستقلال منها إلى الخضوع بنفس الدرجة لطرفي النزاع الآخرين . ومع ذلك فلكل من الأطراف الثلاثة ما يثبت وجود كل منهم فيها في فترة زمنية معينة ، وهذه النتيجة جعلت من المستحيل تلمس حل النزاع بالوسائل القانونية[٧٨] .

ونظرًا لتعثر التوصل إلى حل عن طريق التحكيم فقد ظل النزاع قائمًا بشكل بؤرة توتر في العلاقات السعودية البريطانية . وازداد شدة بالمؤازرة السعودية لمصر[٧٩] خلال أحداث السويس عام (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م)[٨٠] . ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد استقرار الأوضاع في هذه المنطقة حرصًا على مصالحها[٨١] ، فقد ضغطت على الحكومة الإنجليزية بضرورة العودة إلى التحكيم مراعاة لمركز المملكة العربية السعودية في الجزيرة[٨٢] العربية من جهة وللمصالح الأمريكية من جهة أخرى . ولهذا أعلن في عام (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) أنه قد تم الاتفاق على اختيار أمين عام الأمم المتحدة مراقبًا محايدًا يشرف على بعثة لتقصي الحقائق في البوريمي . وكانت البعثة برئاسة سفير السويد لدى إسبانيا . غير أن المملكة العربية السعودية اشترطت للبدء في تسوية النزاع بهذا الأسلوب ، أن تقوم بريطانيا بإعادة السكان القاطنين من البوريمي إلى الواحة . وهكذا تعثر عمل البعثة . غير أن العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا استؤنفت في عام (١٣٨٢هـ/ ١٦ يناير ١٩٦٣) واستؤنفت معها الجهود لتسوية النزاع تحت الإشراف الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة . وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود قام السلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان بزيارة المملكة العربية

السعودية لتوطيد العلاقات بين البلدين وصدر بيان مشترك عقب الزيارة (في ١٣٩١هـ/أكتوبر ١٩٧١م) يتضمن اعتراف المملكة العربية السعودية بالقرى الثلاث من واحة البوريمي التي ضمت إلى سلطنة عمان[٨٣] .

وعقب إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في عام (١٣٩١هـ/٢ ديسمبر ١٩٧١م)[٨٤] اعترفت المملكة العربية السعودية بها مع بعض التحفظات المتعلقة بتسوية الحدود . ثم جاء إلغاء بريطانيا للمعاهدات القديمة التي فرضتها على مشيخات الخليج إبعادًا للبريطانيين عن مشكلة البوريمي ، مما جعل المشكلة تأخذ الطابع المحلي العربي[٨٥] . ولهذا حلت المشكلة في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود حلا أخويًا أرضى جميع الأطراف . ففي عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) حلت مشكلة الحدود بين المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة باتفاق تضمن تنازل المملكة عن واحات البوريمي الست لدولة الإمارات ، مقابل تنازلها للمملكة عن مثلث أرض غربي " أبو ظبي " وجنوب شرقي قطر وهو المعروف باسم " سبخة مطي " . كذلك تضمن الاتفاق إنشاء ممر يؤدي إلى المملكة العربية السعودية يصل إلى محور العديد على الساحل الغربي لدولة الإمارات ومقابل ذلك تتنازل المملكة العربية السعودية عن آبار النفط التابعة والمستثمرة حاليًا من قبل دولة الإمارات والواقعة في الجزء القاري المقابل لخور العديد للإمارات العربية المتحدة كدولة - وليس " لأبو ظبي " كإمارة - وتعطي " أبو ظبي " ممرا بريًا إلى خور العديد ، ومن هناك إلى حدودها الجنوبية الشرقية . وقد حققت المملكة العربية السعودية بهذا الاتفاق كل مطالبها في غرب " أبو ظبي " ، حيث حصلت على سبخة مطي الغنية بالبترول ، وخور العديد ، مقابل تنازلها عن مطالبها بواحة البوريمي . أما الحدود الجنوبية " لأبو ظبي " فقد تم إعادة تخطيطها وضم المثلث الجنوبي منها إلى المملكة العربية السعودية[٨٦] . وبذلك تم حسم الخلاف في قضايا الحدود بين المملكة العربية السعودية من جهة ، ودولتي عمان والإمارات العربية المتحدة من جهة أخرى .

هذه هي قضايا الحدود السياسية السعودية المعاصرة على الساحل الغربي للخليج العربي ، التي تظهر مدى الجهود[٨٥] التي بذلها الملك عبد العزيز آل سعود - واستكملها أبناؤه من بعده - للوصول بدولتهم إلى الحدود السياسية التي بلغتها في تاريخها المعاصر ، والتي توضح مدى ما تميز به من مقدرة سياسية ودراية بتوازن القوى في توجيه دفة علاقاته الدولية ، ليس فقط مع القوى المحلية في الجزيرة العربية ، بل أيضًا مع القوى الأجنبية[٨٦] ذات المصالح المختلفة في منطقة الشرق الأوسط المتميزة بأهميتها الحيوية في عالمنا المعاصر .

رابعًا : الحدود السعودية القطرية :

يرجع أول مشروع لتخطيط الحدود بين السعودية وقطر إلى عام ١٩٣٥ عندما تقدمت الحكومة السعودية بمذكرة إلى الحكومة البريطانية في ٣ إبريل تذكر فيها أن الحدود بين البلدين تسير على النحو التالي : (يبدأ الخط الفاصل بين البلدين عند نقطة على الساحل اسمها دوحة سلوى ، ويسير بامتداد نقطة التقاء جبل دخان مع الأقليم المتاخم له من الناحية الغربية ، تاركًا للمملكة العربية السعودية نقطة التقاء جبل دخان وجبل الدخس ، وتسيطر قطر على جبل دخان والمنطقة الممتدة إلى الشرق منه ، ثم يمر الخط بأماكن على الشاطئ المحاذي للخليج جاعلاً نقسيان قطر من نصيب قطر وحوالي العديد من نصيب المملكة العربية السعودية)[٨٧] .

وردت الحكومة البريطانية على الحكومة السعودية بمذكرة في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وتعارض هذا المشروع السعودي لتخطيط الحدود ، وتعارض أن يكون حوالي العديد من نصيب السعودية . ودارت مفاوضات بين بريطانيا - بالنيابة عن قطر - وبين السعودية بشكل متقطع حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

وفي عام ١٩٤٩ عندما أعطت الحكومة السعودية امتيازًا لشركة أرامكو للتنقيب عن النفط داخل المناطق التي حددتها سابقًا ، احتجت الحكومة البريطانية

على ذلك ، وأكدت أن الحكومة السعودية خرقت مناطق النفوذ البريطانية في قطر ، وأوضحت أنه إذا كان هناك التباس بشأن الحقوق الأقليمية لمناطق الحدود في المنطقة ، فإن ذلك يمكن بحثه عن طريق المفاوضات بين الحكومتين[٨٨] .

وكان أن بدأت المفاوضات البريطانية السعودية في الرياض في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤٩ ، والتي أكدت فيها الحكومة السعودية تمسكها بخط الحدود الذي رسمته عام ١٩٣٥ ، وأصرت على بحث المناطق القبلية ، وانتهت المفاوضات دون أي نجاح يذكر .

وكان هذا في الوقت الذي طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة السعودية أن تذكر بدقة المناطق التي تطالب بها . فردت الأخيرة بمذكرة في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٩ وضحت فيها أنه بعد دراسة عميقة لمنازل القبائل وتتبع الأمر الواقع هناك فإن الحكومة السعودية ترى أن الحدود بينها وبين قطر كما يأتي :

(أ) يبدأ خط الحدود بين المملكة العربية السعودية وقطر من نقطة على ساحل دوحة سلوى عند خط العرض ٢٤ درجة و٥٦ دقيقة [نقطة (أ)] .

(ب) من نقطة (أ) يتجه خط إلى الشرق رأسا حتى يصل نقطة تقاطع خط العرض ٢٤ درجة و ٥٦ دقيقة مع خط الطول ٥١ [نقطة (ب)] .

(جـ) من نقطة (ب) يتجه خط إلى الشرق رأسًا حتى يصل نقطة تقاطع خط العرض ٢٤ درجة و ٥٦دقيقة مع خط الطول ٥١ [نقطة (ب)] .

(د) من نقطة (ب) يتجه الخط اتجاهًا مستقيمًا حتى يصل ساحل البحر عند خط العرض ٢٤ درجة و ٤٨دقيقة [نقطة (ج)] تاركًا عامرة للمملكة العربية السعودية ، وبهذا ينتهي الحد بين قطر والمملكة العربية السعودية[٨٩] .

غير أن الحكومة البريطانية لم تقبل هذه المطالب السعودية بشأن الحدود مع قطر ، وأوضحت في مذكرتها المؤرخة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٩ أنه ليس أمامها

إلا التمسك بموقفها المستند على الخط الأزرق والخط البنفسجي ، كما جرى تحديدهما طبقًا للاتفاقيات الإنجليزية التركية بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩١٣ و ٩ مارس سنة ١٩١٤ . وأشارت إلى أن الحكومة السعودية على (علم تام أيضًا بوجهة نظر حكومة صاحب الجلالة عن مدى امتداد أراضي قطر ومطالبة الحكومة العربية السعودية بمنطقة كبيرة من تلك الأراضي التي حددت بخط وضعي ، لا تتفق والرغبة التي أعربت عنها تلك الحكومة في بيانها المؤرخ ١١ سبتمبر بعمل كل تضحية معقولة في سبيل إزالة كل ما يمكن من سوء تفاهم مع حكومة صاحب الجلالة)[٩٠] .

وفي ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ أرسلت الحكومة السعودية مذكرة إلى السفارة البريطانية في جدة ، تتضمن ردها على مذكرة الحكومة البريطانية السابقة. وجاء في المذكرة أن الحكومة السعودية لا يمكن أن تقر العودة للتمسك بما سمي "الخط الأزرق" و " الخط البنفسجي " ، وأن مطالبها تستند على حق تصرفها المشروع المؤيد باستمرار استعمال سلطتها ونفوذها . وأبدت الحكومة السعودية في النهاية (رغبة صادقة في التعاون على تحديد الحدود بطريق العدل والإنصاف . وهي لا تطالب ولا ترغب أن يدخل في حوزتها إلا ما هو لها وتحت سلطانها . وعلى هذا الأساس فهي على استعداد أن توافق على القيام بدراسة مشتركة عن حقيقة الواقع ، فما ثبت من الأماكن تابعًا لسلطان المملكة العربية السعودية بقي لها وما ثبت أنه تحت سلطان غيرها فهو لمن ثبت له)[٩١] .

كان هذا في الوقت الذي منح فيه شيخ قطر امتيازًا للتنقيب عن البترول داخل إمارته لشركة بريطانية . فكتب إليه الملك عبد العزيز بن سعود مشيرًا إلى أن الحدود السعودية القطرية لم يتفق عليها بعد . بيد أن بريطانيا احتجت على هذا الاتصال المباشر بين حاكمين عربيين[٩٢] مدعية لنفسها دورًا ومسئولية في ترسيم وتخطيط الحدود بين السعودية وجيرانها . ونتيجة لهذا الاختلاف البريطاني السعودي ، اتفق الطرفان على عقد مؤتمر في الدمام لمناقشة قضايا الحدود بين

السعودية وإمارات الخليج العربي . وافتتح المؤتمر في ٢٨ يناير ١٩٥٢ ، وكان يرأس الوفد السعودي الأمير فيصل ، ويرأس الوفد البريطاني السير روبرت هاي R. Hay المقيم البريطاني في الخليج ، وحضر الاجتماع الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حاكم قطر . وتناولت المباحثات الحدود البرية بين السعودية وقطر ، وطالب السير روبرت هاي باعتباره نائبًا عن حاكم قطر بأن يبدأ خط الحدود من غار البريد في درجة سلوى ثم يتجه شرقًا عبر ثلاث نقاط إلى حزام سواد تبيل وعقلة المناصير ونقطة تقع على الساحل الغربي لخور العديد[٩٣] .

غير أن الأمير فيصل أصر على عدم الاعتراف بأحقية بريطانيا في التفاوض عن الحكام المحليين ، خاصة بعد أن أعلن الشيخ عبد الله بن ثاني حاكم قطر (أنه كان دائمًا يعتبر ملك السعودية والده ، وأن أي قرار يتخذه جلالته بخصوص حدود قطر سوف يلتزم به بثقته التامة به ، وضرب مثلاً على ذلك أنه في النزاع الذي وقع بين اليمن والسعودية في عام ١٩٣٢ حول ملكية جبل العرو أعلن الإمام يحيى ملك اليمن أنه يترك الفصل في ذلك للملك عبد العزيز ، وفي ظرف أربعة أيام أعلن الملك ابن سعود قراره الذي كان في صالح اليمن وضد مصلحة السعودية)[٩٤] .

وبالإضافة إلى أنه كانت هناك عقبة أخرى تمثلت في أن المطلب البريطاني المذكور بشأن الحدود السعودية القطرية من شأنه أن يحول دون وصول أراضي السعودية إلى الساحل الواقع شرقي قطر ، وهو ما كانت ترفضه الحكومة السعودية.

وعلقت مسألة الحدود القطرية مؤقتًا نظرًا للتطورات التي حدثت في منطقة البريمي وما نشب من صراع بريطاني سعودي هناك فلم تكن مسألة الحدود السعودية القطرية بنفس الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لواحات البريمي .

وفي عام ١٩٥٩ ، وتوثيقًا للعلاقات والروابط الأخوية بين السعودية وقطر، قام الملك سعود بن عبد العزيز بزيارة شيخ قطر . وتبودلت الزيارات والمشاورات

بين البلدين ، الأمر الذى أدى إلى عقد اتفاقية لتحديد الحدود البرية والبحرية بين البلدين فى ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، مثل السعودية فيها الشيخ أحمد زكى يمانى وزير البترول والثروة المعدنية ، ومثل قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى ولى العهد . ونصت هذه المعاهدة فى مادتها الأولى على تقسيم دوحة السلوى بين البلدين . والمادة الثانية تناولت ترسيم الحدود البرية . وتناولت المواد الثالثة والرابعة والخامسة الشئون الفنية المتمثلة فى المسح وتحديد نقط وخطوط الحدود بين البلدين على الطبيعة وتكاليف عملية المسح وغيرها من المسائل الفنية . وتعتبر المادة السادسة أن هذه الاتفاقية سارية المفعول بعد تبادل وثائق التصديق عليها من قبل الحكومتين . وقد اتسمت هذه الاتفاقية بالسرية التامة وعدم إعلان بنودها لأنها عقدت بدون علم الحكومة البريطانية ، وهى المسئولة عن العلاقات الخارجية لقطر بموجب اتفاقية الحماية لعام ١٩١٦ . وتعتبر هذه الاتفاقية تتويجًا للعلاقات الودية والأخوية القوية بين السعودية وقطر ، وهى خطوة هامة وموفقة لإنهاء كافة العراقيل التى تقف فى وجه العلاقات الطيبة بينهما .

خامسًا : الحدود السعودية البحرينية :

ليس بين السعودية والبحرين أية حدود أرضية ، وإنما يفصلهما عن بعضهما مياه الخليج التى يبلغ عرضها فى هذه المنطقة حوالى ١٥ ميلاً ، وهى منطقة ضحلة تسمى فاشت أبو سعفه ، وتقع بها جزيرتا لبينة الكبيرة ولبينة الصغيرة . ولم تكن هذه الجزر أية أهمية تذكر قبل تدفق النفط فى مياه الخليج ، بعد أن تدفق وبدأ انتاجه فى اليابسة . وهذه الجزر كثيرة ومتناثرة فى مياه الخليج من مدخله إلى منتهاه ، وتعتبر مالاً مشاعًا للجميع يرتادها غواصو اللؤلؤ وصيادو الأسماك من وقت الآخر ، فلم تحدد ملكيتها لأحد ، وخاصة الجزر الصغيرة منها والخالية من السكان . ولكن ظهور البترول فى مياه الخليج جاء عاملاً من عوامل إثارة مشكلة ملكية هذه الجزر وارتباطها بالدول المجاورة لها .

ويرجع النزاع بين السعودية والبحرين حول الجزر التى تقع بينهما إلى عام ١٩٤١ ، عندما منحت حكومة البحرين امتيازًا لشركة نفط البحرين المحدودة ، وهى إحدى شركات مجموعة كالتلكس Caltex ، لتقوم بعمليات الكشف والاستغلال فى فاشت أبو سعفة ، فاعترضت السعودية بشدة على منح هذا الامتياز . وكان أن توقف العمل فى المنطقة ، بعد أن كانت الشركة قد بدأته منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وذلك انتظارًا لتسوية مسألة السيادة عليها[٩٥] .

وقد سعت كل من السعودية والبحرين ، وكذلك باقى دول الخليج ، لتحديد المياه الساحلية التابعة لها والبحر الإقليمى الخاص بها . فصدر المرسوم الملكى السعودى رقم ٣٧١١/٤/٥/٦ بشأن المياه الإقليمية للمملكة العربية السعودية وتحديدها بستة أميال بحرية . وصدر مرسوم ملكى آخر بشأن تعريف المياه الأقليمية بجعل رقم ٣٧١١/٥/٤/٦ جاء فيه (أن المياه الإقليمية للمملكة العربية السعودية ، وكذا الفضاء الجوى الذى فوقها والأرض التى تحتها من باطن الأرض ، خاضعة لسيادة المملكة مع احترام أحكام القانون الدولى الخاصة بالمرور السلمى لمراكب الأمم الأخرى فى البحر الساحلى) .

واتجه الجانبان السعودى والبحرينى إلى مائدة المفاوضات التى عقدت فى لندن فى الفترة من ٨ - ٢٤ أغسطس سنة ١٩٥١ لتسوية مشاكل الحدود بينهما . وحضرها عن الجانب السعودى فيصل بن عبد العزيز وزير الخارجية ، وحضرها السير موريسون Moreson وزير خارجية بريطانيا ممثلاً عن حكومة البحرين . وناقش الجانبان الموضوعات المتعلقة بالمياه الساحلية والجزر والخلجان والضحاضيح الواقعة بين السعودية والبحرين[٩٦] .

وتم الاتفاق فى نهاية المباحثات على ما يلى :

(أ) اتفق على قسمة المناطق المغمورة بين المملكة العربية السعودية والبحرين فى خط رسم منتصف بين البلدين . وكمثال تقدم الوفد البريطانى

بخريطة تمثل وجهة نظره في كيفية تعيين الخط ، وتقدم الوفد السعودي بخريطة خاصة تبين وجهة نظره في رسم الخط .

(ب) تقدم الوفد البريطاني بتوصية من شأنها أن تعتبر لبينة الكبيرة ولبينة الصغيرة وفشت أبو سعفة للبحرين .

(جـ) تقدم الوفد السعودي بتوصية اعتبر فيها لبينة الصغيرة تابعة للبحرين ولبينة الكبيرة تابعة للمملكة العربية السعودية وفشت أبو سعفة تتبع المملكة العربية السعودية وضحضاح رنى يتبع البحرين .

(د) اتفق على أنه بعد الموافقة على تبعية لبينة الكبيرة والصغيرة وتبعية فشت أبو سعفه وضحضاح رنى ، وبعد رسم الخط ، يعتبر ما كان على جانب الخط مما يلي البحرين مناطق مغمورة وفشوت وضحاضيح وجزر تابعًا للبحرين ، وما كان على الجانب الثاني للخط مما يلي المملكة العربية السعودية من مناطق مغمورة وفشوت وضحاضيح وجزر تابعًا للمملكة العربية السعودية .

واتفق على أن القرار النهائي حول السيادة على الجزر والضحاضيح التي يدور البحث حولها لن يكون له أثر في استعمالها العادي من قبل رعايا أي من الطرفين لصيد السمك واللؤلؤ والملاحة وغيرها من الأغراض .

وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥١ بعث بيلي Pelly ، المعتمد السياسي البريطاني في البحرين ، رسالة إلى الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة حاكم البحرين يعلم فيها الشيخ سلمان بأنه قد جرت محادثات في لندن بين ممثلي الحكومة البريطانية وبين ممثلي الحكومة السعودية . وأن هذه المحادثات تناولت المشاكل التي تهم الامارات العربية في الخليج والحكومة البريطانية . وفيما يخص البحرين تناولت المحادثات ملكية الجزر والفشوت التالية :

١ - جزائر لبينة . ٢ - فشت الجارم .

٣ - فشت أبو سعفة . ٤ - ليوة عراقي .

وذكر له أن الحكومة البريطانية مستعدة (للتنازل عن نصف فشت بوسعفة إلى المملكة العربية السعودية إذا كان هذا سيهيئ حسمًا نهائيًا . أما بخصوص لبينة الكبيرة ، ولو أن الجزيرة ليست ذات قيمة تجارية للبحرين ، فإن حكومة صاحب الجلالة غير ميالة للتنازل عنها إلى المملكة العربية السعودية إلا إذا كان سموكم ميال إلى ذلك رغبة في حسم ودي مع تلك البلاد ومما يقدر أن سموكم تحمل صلات عاطفية قوية هذه الجزيرة)[٢٧] .

وفي ٢٥ سنة ١٩٥١ اجتمع بيلي مع الشيخ سلمان بن حمد شيخ البحرين وتباحثا حول الجزر والفشوت التي تطالب بها كل من السعودية والبحرين . وكان موقف الشيخ سلمان في تسوية ودية لهذه المشكلة أن يكون هناك أحد أمرين : الأول هو التنازل عن جزيرة لبينة الكبيرة بأكملها إلى المملكة العربية السعودية لتكون لها السيادة التامة عليها . والثاني هو التنازل عن النصف الغربي من جزيرة لبينة الكبيرة إلى السعودية وتحتفظ البحرين بالنصف الشرقي منها ، وأن يكون الانتفاع بالجزيرة بأكملها مشاعًا لكلا الطرفين باستثمار موارد البترول ، ففي هذه الحالة تكون حقول كل من الطرفين محدودة بالنصف الذي له من الجزيرة[٢٨] . وفي حالة قبول الأمر الأول سيكون حاكم البحرين مستعدًا لقبول الحل التالي :

أن تحتفظ البحرين بما يلي :

(أ) جزيرة لبينة الصغيرة . (ب) فشت الجارم .

(جـ) النصف الشرقي من فشت أبو سعفة .

(د) ليوة عراقي .

وان تحتفظ السعودية بما يلي :

(أ) جزيرة لبينة الكبيرة .

(ب) النصف الغربي من فشت أبو سعفة .

وفي حالة قبول الأمر الثاني سيكون حاكم البحرين مستعدًا لقبول الحل التالي:

أن تحتفظ البحرين بما يلي :

(أ) النصف الشرقي من جزيرة لبينة الكبيرة مع حقوق استثمار البترول محدودة به لكن مع حقوق الانتفاع على كل الجزيرة .

(ب) فشت الجارم . (جـ) النصف الشرقي من فشت أبو سعفة .

(د) لبوه عراقي .

وأن تحتفظ السعودية بما يلي :

(أ) النصف الغربي من جزيرة لبينة الكبيرة مع حقوق استثمار البترول محدود به ، ولكن مع حقوق الانتفاع على كل الجزيرة .

(ب) النصف الغربي من فشت أبو سعفة .

وفي ٩ أكتوبر سنة ١٩٥١ كتب الشيخ سلمان بن حمد إلى المعتمد البريطاني في البحرين يطلب منه توضيح بعض النقاط التي تحتاج النظر فيها فيقول (إذا وافقنا على التخلي عن جميع لبينة الكبيرة أو النصف الغربي من الجزيرة للمملكة العربية السعودية فمن الضروري أن لا تحتفظ المملكة العربية السعودية في نفس الوقت بحقوق حدود البحر وهو ثلاثة أميال حول جزيرة لبينة الكبيرة أو حول ذلك القسم من الجزيرة الذي ربما تحصل عليه . فلا يمكننا قبول تسوية تمتد بها سيطرة المملكة السعودية بثلاثة أميال من البحر في حدود البحرين . أننا نقدر معلومية من سعادتكم عما إذا قد أمعن النظر في هذه النقطة . أما من خصوص فشت أبو سعفة فإننا نود أن نعلم بالضبط عن الموضع الذي اعتبر وسط الفشت)[٩٩] .

وفي ٨ يناير سنة ١٩٥٢ أحاب مستر لفر Laver ، المعتمد السياسي البريطاني الجديد في البحرين ، على رسالة الشيخ سلمان بن خليفة بشأن تقسيم

قاع البحر بين البحرين والسعودية بعد تفويض من المقيم البريطاني في الخليج . وأوضح ليفر في إجابته أنه (إذا صار النصف الغربي من جزيرة لبينة الكبيرة إلى المملكة العربية السعودية والنصف الشرقي إلى البحرين ، فمن الممكن أن خط المناصفة سيمر وسط الجزيرة ، ولذلك فإن كل بلد ستكون لها مياه إقليمية في جانبها من الجزيرة فقط . وإذا صارت جزيرة لبينة الكبيرة بأجمعها للمملكة العربية السعودية فستقترح حكومة جلالته مد خط وسط بين جزيرتي لبينة الكبيرة ولبينة الصغيرة . وعندئذ سيقع هذا الخط تقريبًا ميلاً ونصف إلى الغرب من الصغيرة وميلاً ونصف إلى الشرق من الكبيرة . على أن أضيف إن ما ذكر اعلاه إنما هو بصفة مقترحات لحل ممكن فقط وليس بالإمكان اعطاء تعهد في هذا الدور الحالي)[١٠٠] .

واستؤنفت المباحثات السعودية البحرينية المباشرة مرة أخرى في عام ١٩٥٤ . وفي هذه المباحثات قدم شيخ البحرين تنازله عن لبينة الكبيرة للسعودية . أما بالنسبة لفشت أبو سعفة فقد اقترح تقسيمها إلى قسمين ، القسم الغربي يؤول للسعودية ، وتحصل البحرين على القسم الشرقي المواجه لساحلها الغربي . ووافقت السعودية على مبدأ تقسيم فشت أبو سعفة ، غير أن الطرفين لم يتفقا على طريقة التقسيم ، فقد طرح تقسيم المنطقة جغرافيًا بين البلدين ، إلا أن هذه الفكرة رفضت من كلا الجانبين لعدم اتفاقهما على خطوط التقسيم . وفي جولة لاحقة ، نظرًا لأن هذه المنطقة غنية بالبترول ، فقد تم الاتفاق على فكرة توزيع المستخرج من أبو سعفة مناصفة دون حاجة إلى تقسيم الحقل نفسه من الوجهة الجغرافية[١٠١] .

كما اتفق الجانبان على تنازل البحرين عن مطالبها الخاص بالسيادة على فشت أبو سعفة مقابل التزام السعودية بمنح البحرين نصف العائد الصافي من البترول الذي تستخرجه السعودية من الحقل الذي يقع في نطاق اختصاصها المطلق . وبالنسبة لجزيرتي لبينة فقد اتفق على أن تمنح السعودية لبينة الكبيرة وتحصل البحرين على لبينة الصغيرة دون أن يكون لأيهما مياه إقليمية ، رغم أن حرمانهما من المياه الإقليمية اتفق عليه شفاهة ولم يرد في الاتفاق الملزم بعد ذلك[١٠٢] .

وكان تداخل المصالح والامتيازات البترولية في المنطقة مثاراً لظهور مشاكل الحدود البرية والبحرية ، كما كانت الشركات البترولية العاملة في المنطقة سبباً في ظهور هذه المشاكل ، وأيضاً عاملاً في تشجيع الدول على حلها ، خاصة مشكلات الجرف القاري[١٠٣] نظراً لما تحتويه هذه المنطقة المغمورة من كميات كبيرة من البترول .

وتم التوقيع على اتفاقية لتحديد الجرف القاري بين المملكة العربية السعودية والبحرين في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ ، وتم تبادل وثائق التصديق في ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٨ . وقعها في الرياض عن السعودية الملك سعود بن عبد العزيز ، وعن البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة . وتعتبر هذه الاتفاقية أول الاتفاقيات الثنائية التي أبرمت في المنطقة لتحديد الجرف القاري ، وقد تبعتها سلسلة من الاتفاقيات الثنائية بين دول الخليج العربي الأخرى .

وتتكون هذه الاتفاقية من ديباجة وستة مواد ، تشمل المادة الأولى بياناً بالنقاط وخطوط الطول والعرض التي توضح سير خط الوسط الذي اتفق عليه الطرفان ، فما يقع على يمينه يتبع البحرين وما يقع على يساره يتبع السعودية . واتفق في المادة الثانية على أن تكون منطقة فاشت أبو سعفة في الجانب المخصص للسعودية وفقاً لرغبة حاكم البحرين وموافقة الملك سعود ، وأن يعطى لحكومة البحرين نصف ما يخص الحكومة السعودية من الإيراد الصافي في الناتج عن استغلال موارد البترول فيها .

وقد عثر على النفط بكميات تجارية في فاشت أبو سعفة عام ١٩٦٥ ، وبدأت شركة أرامكو انتاجه في ديسمبر ١٩٦٥ بكمية تصل إلى ٣٠ ألف برميل يومياً ، تؤول نصف الأرباح الصافية إلى أرامكو ، أما النصف الآخر فيقسم بين البحرين والسعودية مناصفة . واستمر انتاج أبو سعفة في ازدياد حتى أصبح في السنوات الأخيرة يشكل ثلاثة أرباع دخل البحرين من البترول بعد أن نضبت معظم الآبار داخل جزرها[١٠٤] .

سادساً : الحدود السعودية — الإيرانية :

من المعروف أن إيران هي الدولة الوحيدة غير العربية التي لها حدود مع السعودية . ومع ذلك كانت مشكلة الحدود بينهما أقل حدة وإثارة من غيرها بالنسبة للسعودية . ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن لكل منهما وضعه السياسي والاقتصادي والاستراتيجي في المنطقة ، بالإضافة إلى علاقاتهما الخارجية .

ويرجع الاهتمام السعودي الإيراني بمشكلة الحدود في الخليج إلى إدخال الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ جديداً في مفهوم المياه الإقليمية يقوم على أساس أن كل دولة تعتبر مسئولة عن أمن البحار الواقعة أمام شواطئها إلى منتصف المسافة بينها وبين الشاطئ الآخر . فأعلنت السعودية استناداً إلى هذا المبدأ عن امتداد حقوقها في مياه الخليج إلى خط وهمي يقع في منتصف المسافة بين شاطئيه الغربي والشرقي . كذلك طالبت إيران ببسط نفوذها على كل الجزء الشرقي من مياه الخليج .

غير أن الإعلان من جانب السعودية ، كذلك المطلب الإيراني ، واجهها صعوبة في التطبيق من الناحية العملية ، نظراً لأن الخليج ملئ بالجزر ، ولا يوجد اتفاق حول الأساس الذي يقاس منه خط الوسط لتحديد الجزء الشرقي والجزء الغربي من المياه .

وقد منحت السعودية شركة أرامكو امتيازاً عام ١٩٤٨ للتنقيب عن النفط في الجزء المواجه لكل سواحل المملكة على الخليج . أما إيران فقد أصدرت قانون البترول في ٣١ يوليو سنة ١٩٥٧ ، الذي منحت بموجبه امتياز التنقيب في المناطق المغمورة في الخليج إلى عدة شركات منها (أجيب) التابعة (لأيني) الإيطالية و(سافير) الكندية ، بالإضافة إلى خمس مجموعات من الشركات العالمية من جنسيات مختلفة .

وبدأت المباحثات فى عام ١٩٦٣ ، لتحديد مناطق الجرف القارى فى الخليج بين إيران من ناحية والسعودية والكويت والعراق من ناحية أخرى . وفى الوقت الذى لم تسفر فيه هذه المباحثات عن شئ بالنسبة للكويت والعراق ، كان هناك تقدمًا ملموسًا بالنسبة للجانب السعودى الإيرانى ، وذلك فيما تم الاتفاق عليه فى عام ١٩٦٥ بين الأمير فيصل وزير الخارجية السعودية ومحمد رضا بهلوى وزير الخارجية الإيرانى على أهمية وضع الحلول الفنية للمنطقة المغمورة بين الدولتين وتعيين الحدود الفاصلة بينهما[١٠٣] .

ويرجع السبب فى تقدم المباحثات السعودية الإيرانية إلى اكتشاف شركة أرامكو لحقل مرجان الغنى بالبترول على الجانب السعودى ، واكتشاف شركة أمياك الإيرانية الأمريكية لحقل فودون على الجانب الإيرانى ، وهو فى حقيقته امتداد لحقل مرجان ، وبذلك صار لكل من الدولتين عمليات متجاورة فى تركيب حقلى واحد . وتم فى هذا الاتفاق الأخذ بنظرية التقسيم على أساس الخط المستقيم . وهذا الخط يرسم عند أدنى انحسار للمياه . ولما كانت (جزيرة خارج) الإيرانية تبعد عن الشاطئ الإيرانى بأكثر من ١٢ ميل بحرى فقد رسم لها خطان ، أحدهما يفصل الشاطئ السعودى عن إيران ، والثانى يتوسط المسافة بين خارج والسعودية ويرسم عند أدنى انحسار للمياه . وقرر الاتفاق بحرًا إقليميًا بلغ ١٢ ميلاً بحريًا لكل من جزيرتى عربى وفارسى ، ثم قضى الاتفاق بتشكيل لجنة فنية مشتركة تضم اربعة أفراد مهمتها تحديد معالم المناطق التى تصدى الاتفاق لتنظيم أوضاعها . وأن يتم تشكيل هذه اللجنة خلال شهرين من بدء تنفيذ الاتفاق .

غير أن هذا الاتفاق لم يطبق ، وبدأت مفاوضات جديدة بين الجانبين أبدى فيها الجانب السعودى بعض التساهل ، مما أدى إلى عقد اتفاقية جديدة لتسوية الحدود السعودية الإيرانية فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٦٨ جاء فيها :

(أ) اعتراف بتبعية جزيرة فارسى لإيران مقابل حصول السعودية على جزيرة عربى .

(ب) اعتراف لكل جزيرة بمياه إقليمية تبلغ ١٢ ميلاً بحريًا . ولما كانت المسافة بينهما تقل عن هذه المسافة بحيث تتداخل مياههما الإقليمية ، فقد رسم خط وسط وهمى تحكمى بينهما . وحظر على الطرفين القيام بأعمال التنقيب عن النفط لمسافة ٥٠٠ متر من خط الوسط التحكمى ، إلا إذ اتفق الطرفان على أن التنقيب ضرورى للحصول على بيانات فنية . وتم تبادل خطابات أرفقت بالمعاهدة تتضمن تعهد الطرفين بعدم إجراء الحفر فى هذه المنطقة .

(جـ) أنشأت الاتفاقية منطقة حاجزة بمسافة كيلو متر لتخفيف مساوئ التقسيم الجغرافى ، وتوحيد البحرين وهما مرجان على الجانب السعودى ، وفيرودون على الجانب الإيرانى .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الاتفاقية تم الاسترشاد فيها بما جاء فى اتفاقية الحدود بين البحرين والسعودية ، خاصة فيما يتعلق بتوزيع الجزر دون تقسيمها ، والمحافظة على وحدة بئر النفط من الناحية الجغرافية . وقد اهتدت إيران بهذه الاتفاقية فى اتفاقاتها اللاحقة المشابهة مع دول الخليج الأخرى .

الهوامـــش

(١) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص١٢

(٢) عبد الله بن محمد بن خميس : الدرعية العاصمة الأولى ، ص١٦٤ .

(٣) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، ص٨١

(٤) الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، أصدرته دارة الملك عبد العزيز بالرياض عام (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) تحت رقم (١١) ويوضح مادته التاريخية وخطط رسومه وأشكاله وخرائطه إبراهيم جمعه ، ص٧٢

(٥) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ، ص٢٠

(٦) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ص٢١

- محمد عبد الله السمان : أثر الدعوة السلفية في العالم الإسلامي ص٤٦٠-٤٦١

(٧) صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ، ص٧

(٨) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى (١١٥٨-١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥ - ١٨١٨م) ، ط٢ ، ص٥٥

(٩) عبد الفتاح أبو علية : الدولة السعودية الثانية (١٢٥٩ - ١٣٠٩هـ/١٨٤٠ - ١٨٩١م) ، ص٢٤

(١٠) جمال الدين الشيال : الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي، جـ١ ، ص٥٦

(١١) محمد بن عمر الطاهري : الأعمار النجدية ، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ص١٣٨ - ١٣٩

(١٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلي : الدولة السعودية الأولى في جنوب الجزيرة، بحث نشر في مجلة العرب التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، جـ٩ ، ١٠ص١٦ - الربيعان ١٤٠٢هـ / يناير - فبراير ١٩٨٢م ، ص٦٧٦

(١٣) الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، ص٩٧

(١٤) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ١ ص١٠٣ ، ١٠٤

(١٥) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، ص٢٠٧

عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جـ٤ ، ص٢٩٩

(١٦) حافظ وهبه : خمسون عامًا في جزيرة العرب ، ص٢٦

(١٧) عبد الفتاح أبو علية : المرجع السابق ، ص١٨٩

(18) Sheean, V. : Faisal, The King and his Kingdom, King Abd El Aziz, pp. 52, 54,.

(١٩) موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود : الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت، (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣ - ١٩٢٤م) ص١٧

(20) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 84.

(٢١) فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية ، ص٩

(٢٢)جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ، ص٤٢ - ٤٣

(٢٣) فاروق عثمان أباظه : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ - ١٩١٨ ، ص٦٠٦

(24) Sheean, V. : Op. Cit., p. 73.

(٢٥) أحمد فضل بن علي محسن العبدلي : هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ، ص٢٤١

(٢٦) محمد بن أحمد عيسى العقيلي : تاريخ الخلافات السليمانية أو الجنوب العربي في التاريخ ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣

(٢٧) فاتن بكر الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وأقليم الحجاز في الفترة ما بين (١٢٩٣ - ١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦ - ١٩١٦م) ، ص٣٤٣

(28) sheean, V. : Op. Cit., p. 63.

(29) Jacob, H. : Kings of Arabia, p.227.

(30) Rihani, A. : Arabian Peak and Desert, p. 228 .

(٣١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ، اليمن والأمام يحيى (١٣٢٢ - ١٣٦٨هـ/١٩٠٤ - ١٩٤٨م) ص٢٢٧

(٣٢) فاروق عثمان أباظه : الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ - ١٩١٨م) ، ٢٦١

(٣٣) محمد عرابي نخله : تاريخ الإحساء السياسي (١٨١٨ - ١٩١٣م) ، ص٢٢٧

(34) Jacob. H. F. : Op. Cit., pp. 228 - 230.

(٣٥) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ، ص١٩

(٣٦) حاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ١٧٩٨ - ١٩١٤ ، ص١٧٩

(٣٧) حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط٢ ، ص٣٠٨ - ٣٠٩

(38) Aitchison, C. U. : A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads Relating to India and the Neighbouring Countries, XI, p. 42 .

(39) Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. 2, p. 12.

(40) Lenczowski, G. : The Middle East in World Affairs, p. 541.

(٤١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ص٣٨٠ - ٣٨١

(٤٢) موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود : المرجع السابق ، ص٩٦.

(٤٣) فاروق عثمان أباظه: سياسة بريطانيا في عسير أثناء الحرب العالمية الأولى، ص٤٠

(44) Correspondence between Sir Henry Macmahon, his Majesty's High Commissioner at Cairo and The Sherif Hussein of Meca, July 1915 (Cmd, 5951, Mis No 3, 1939) .

(45) Correspondence with the Grand sherif of Mecca, from 25th Septembre 1914 to 10th March 1916.

(46) Gros, M. : Feisal of Arabia, p. 18.

(٤٧) بدريه عبد الله العوضي : دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية، ص٥٣

(٤٨) فالح حنظل : المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، جـ٢ ، ص٧٤٠

(49) Lorimer, J. G. : Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, Calcutta, 1908. pp. 1124 - 1156 - 1176.

(٥٠) عبد الله الأشعل : قضية الحدود في الخليج العربي ، ص٢٤

(٥١) حافظ وهبه : خمسون عاماً في جزيرة العرب ، ص١١٧

(٥٢) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٣٦

(٥٣) جمال زكريا قاسم : مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي ، ص٢٩

(54) Journal of Central Asian Society, April 1963, " The Foreign Policy of Ibn Saud, 1936 - 1939 " by D. D. Watt., p. 153

(٥٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتحدة والشرق العربي ، عالم المعرفة : الكويت ، ربيع الآخر – جمادى الأول ١٣٩٨هـ – أبريل ١٩٧٨م ، ص٢٧

(٥٦) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٣٨

(٥٧) موضي بنت منصور بن العزيز آل سعود ، المرجع السابق ص١٢٢ - ١٢٥

(٥٨) أمين الريحاني : ملوك العرب ، جـ٢ ، ص٥٥

راشد عبد الله الفرحان : مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية ، ص١٣٤

(59) Journal of Central Asian Society, April 1963), " The Foreign Policy of Ibn Saud, 1936 - 1939 " , by D. D. Watt., p. 153 - 154.

(٦٠) وزارة الخارجية ، مكتبة المكرمة ، مجموعة المعاهدات من عام ١٣٤١ - ١٣٥٠هـ/ ١٩٢٢ - ١٩٣١م ، ص٣٣ - ٣٥ .

حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص٣٣١ - ٣٣٢

(٦١) مايلز ، ص.ب ، الخليج ، بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد امين عبد الله ، ص٢٧٣. وقد أشار إلى أن قبيلة " بني يس " هي قبيلة كبيرة نشأت حديثًا في عمان عددها خمس آلاف من البدو الحضر ، ومعظمهم من صيادي اللؤلؤ ، وتكمن قوة القبيلة في اثني عشر قبيلة أخرى تتبعها ، لها مدينتان أساسيتان هما أبو ظبي ودبي على الساحل وتمتد حتى البريمي.

(٦٢) محمد حسن العيدروس : التطورات السياسية في دولة الامارات العربية المتحدة ، مراجعة الدكتور إسماعيل صبري مقلد ، مجلد دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الواحد والأربعون السنة الحادية عشرة ، ربيع الآخر ١٤٠٥هـ/يناير ١٩٨٥م ، ص١٧٦ .

(٦٣) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٥١

(64) Lenczowski, G. : Op. Cit., p. 548.

(65) Journal of Central Asian Society, April 1963 " The Foreign Policy of Ibn Saud 1936 - 1939 ", By D. C. Watt, pp. 153, 154.

(66) Lenczowski, G. : Op. Cit., pp. 548, 549.

(٦٧) جمال زكريا قاسم : مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي ، ص٣٨

(٦٨) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٥٢

(69) Journal of Central Asian Society, 1963, The Foreign Policy of Ibn Saud, 1936 - 1939, by D. C. Watt., p154 .

(٧٠) قدمت حكومة المملكة العربية السعودية في المؤتمر "عرض حكومة المملكة العربية السعودية " وتقدمت بريطانيا بعرض مضاد يمثل وجهة نظر أبو ظبي وسلطنة عمان آنذاك :

Memorial Submitted by the Government of the United of Great Britain and North Ireland, 2 Vols., " Arabitration Concerning Buraimi and the Common Frontiers Between Abu Dhabi and Saudi Arabia ".

وقدمت حكومة المملكة العربية السعودية ضمن عرضها مخطوط كتبه عبد الله بن صالح المطوع من أهالي امارة الشارقة بعنوان " عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان " كوثيقة لاثبات حقها في البوريمي . وقد قامت بتحقيق هذا المخطوط ودراسته أميمة صابر البغدادي في رسالتها للدكتوراه التي قدمت لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ولم تنشر بعد . وقد أشار صاحب المخطوط إلى أمراء آل سعود في البوريمي في عهد الدولة السعودية في دوريها الأول والثاني وعددهم ٢٤ أميرًا فيما بين عامي (١٢١٠ - ١٢٩١هـ/ ١٧٩٥ - ١٨٧٤م) ص١٤٩ - ١٥٥ بالمخطوط ، ص٣٠٨ - ٣١٦ بالرسالة المشار إليها . كما ورد بالمخطوط أنه بوصول الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى الرياض استبشر أهل عمان خيرًا وازدادوا بشرًا عندما سيطر عبد العزيز على الإحساء ، واقترب بذلك من عمان . وظل أهل عمان " ينتظرون قدوم الأمير شهرًا بعد شهر وعام (عامًا) بعد عام ، ومع ذلك فالرسل والوفود لم تنقطع بارسال الأمير إلى البريمي ، والملك يعلمهم ويتحين الفرصة، وهو مع ذلك لم يغفل عن عمان ويعلم الكبير والصغير من أمرها " . المخطوط ورقة ١٦٠ .

(٧١) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص١٢١

وقد أشار إلى أن الملك عبد العزيز لم يرسل أميرًا على البوريمي إلا في ١٠ ذي الحجة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م نتيجة لالحاح الوفود عليه ، فاعتذر الأمير تركي بن عبد الله من عطيشان وهو من خيرة الرجال البارزين في الدولة . وبذلك يعود النفوذ السعودي إلى البوريمي في عهد الدولة السعودية في دورها الثالث مرة أخرى .

(٧٢) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٥٣

(73) Lenczowski, G. : Op. Cit., PP. 550, 551.

(٧٤) صلاح العقاد : " استخدام الوثائق في منازعات الحدود بمنطقة الخليج تطبيق على النزاع حول واحات البوريمي " ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثالث والأربعون ، والسنة الحادية عشر يوليو ١٩٨٥م - شوال ١٤٠٥هـ ، ١٤٢ - ١٤٣

(٧٥) عبد الله بن صالح المطوع : " عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان " ص١٤٩ - ١٥٥ بالمخطوط .

(٧٦) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٥٤ - ٥٥

(٧٧) أمين سعيد : الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، ص١٦٢ - ١٦٣

(78) Lenczowski, G. : Op. Cit., p. 563
(79) Marlowe, J. : The Persian Gulf in the 20 th Century, pp. 130 - 132.
(80) Kelly, J. B. : Eastern Arabian Frontiers, p. 163.

(٨١) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص٣١٩

(٨٢) محمد مرسي عبد الله : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ، ص٢٧

(٨٣) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ، ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، ص٢٦٥ ، ٢٦٦

(٨٤) عبد الله الأشعل : المرجع السابق ، ص٥٥ - ٥٦

(85) Lacey, R. : The Kingdom, p. 219.

(٨٦) أشار " وات " في مقاله عن السياسة الخارجية لعبد العزيز آل سعود " إلى أن الملك عبد العزيز آل سعود " يبدو أنه كان الزعيم المتميز بين الزعماء السياسيين العرب في عصره في تفهمه لتوازن القوى في الشرق الأوسط .

" He seems to have been unique among Arab political leaders in his understanding of the balance of power in the Middle East ".
Journal of Central Asian Society, April 1963 . Ibn Saud," 1936 - 1939, by d. c. Watt, p. 160.

(٨٧) مذكرة من حكومة المملكة العربية السعودية إلى حكومة المملكة المتحدة . الوثائق السعودية جـ١ ص٧٥

(٨٨) أمين ساعاتي : المرجع المذكور ، ص٨٤

(٨٩) مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية إلى حكومة المملكة المتحدة . الوثائق السعودية ، جـ٢ ، ص٧١

(٩٠) مذكرة حكومة المملكة المتحدة إلى حكومة العربية السعودية . نفسه ، جـ٢ ، ص٧٣ - ٧٥

(٩١) مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية إلى حكومة المملكة المتحدة نفسه جـ٢ ص٧٧ - ٧٩

(٩٢) قدري قلعجي : الخليج العربي . دار الكتاب العربي ، بيروت سنة ١٩٦٥ ، ص٥٨٨.

(93) Anglo - Saudi Frontier Conference Dammam, 28th January - 14th February, 1952 see Richard Schofield and Gerald Blak : Op. Cit. Vol 19. p. 673 - 674. see also Kelly : Op. Cit. p153.

(٩٤) جمال زكريا : المرجع المذكور . ص٢٤٢

(٩٥) عبد الله الأشعل : المرجع المذكور . ص٤٠

(٩٦) يقصد باصطلاح - (جزيرة) أو شعب أو صخرة أو قطعة أو خشبة بناء صناعي دائم لا تغمره المياه في ادنى مستوى يصل إليه الجزر المنخفض . يقصد باصطلاح (خليج) غور أو دوحة أو شرم أو لسان من البحر . يقصد باصطلاح (صحضاح) منطقة مغطاه بماء بحر يبقى منها جزء غير مغمور في ادنى مستوى يصل إليه الجزر المنخفض .

(97) F. O. 1916/71 : Bahrain - Saudi Boundary Confidential, Mr. C. J. Pelly Political Agent Bahrain to Shaikh Salman Bin Hamad Al - Khlisa, Ruler of Bahrains, 17 Septemeber 1951. See Richard Scho Feled : O. Cit. p. 93 - 95.

(98) F. O. 19916L71 Confideptial , Mr C. J. Pelly, political Agent Bahrain to Shaikh Salman Bin Hamad Al - Khlifa Ruler of Bahrain, 25 Septemeber 1951 . Ubid : Vol 10 p. 99 - 101.

(99) F. O. 1016/71 : From Sulman Bin Hamad Alkhalifah, Bahrain to H. B's Political Agent Bahrain October 9 , 1951: Ibid : p 103 - 104 .

(100) F. O. 1016/186 : Political Agent Bahrain to Shaikh Salgman Bin Hamad Alkhalifah Ruler of Bahrain, 8th January 1952 Ibid : P123 - 124.

(١٠١) عبد الله الأشعل : المرجع المذكور . ص٤٠

(١٠٢) عبد الله الأشعل : نفسه . ص٤١

(١٠٣) الجرف القاري : حظي باهتمام الدول والمنظمات الدولية لما تحتويه هذه المنطقة من ثروات طبيعية هائلة . فقد أثيرت مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين مشاكل عديدة تتعلق بسيادة الدول على مساحات من البحر أبعد من نطاق البحر الإقليمي - السابق تعريفه منذ قليل - اصطلاح الجرف القاري عرفته لجنة القانون الدولي التابعة للأمم التابعة المتحدة في عام ١٩٥٨ ، بانه يشمل قاع البحر وباطن الأرض تحته والمناطق المغمورة للساحل والتي تقع فيما وراء البحر الإقليمي الى عمق ٢٠٠ متر . كما عرفته اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار بان يشمل الجرف القاري لأية دولة ساحلية قاع وباطن أرض المساحات المغمورة التي تمتد إلى

ما وراء بحرها الإقليمي في جميع إتجاه الامتداد الطبيعي لإقليم تلك الدول البري حتى الطرف الخارجي للحافة القارية أو إلى مسافة ٢٠٠ ميل بحري من خطوط الأساس التي يقاس منها عرض البحر الإقليمي إذا لم يكن الطرف الخارجي للحافة القارية يمتد إلى تلك المسافة . انظر الأمم المتحدة : قانون البحار النص الرسمي لاتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار مع مرفقاتها وفهرس لها ، والوثيقة الختامية لمؤتمر الأمم المتحدة الثالث لقانون البحار ، نيويورك سنة ١٩٨٨، ص٤٣ - ٤٧

(١٠٤) عبد الله الأشعل : المرجع المذكور ، ص٤٦

(١٠٥) عبد الله الأشعل : المرجع المذكور ، ص٨٦

المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية :

(أ) الوثائق :

- وزارة الخارجية السعودية ، مكة المكرمة ، مجموعة المعاهدات من عام (١٣٤١ - ١٣٥٠هـ/١٩٢٢ - ١٩٣١م) .

- وزارة الخارجية السعودية ، مكة المكرمة ، بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية ، والإمام يحيى حميد الدين (الكتاب الأخضر السعودي) مطبعة أم القرى (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) .

- التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ، جـ١ (الأساس) جـ٢ ، ٣ (الوثائق) القاهرة ١٩٥٥ .

(ب) الكتب :

- أحمد أمين :

زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

- أحمد عبد الغفور عطار :

صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة ١٣٨٤هـ .

- أحمد فضل العبلي :

- هداية الزمن في أخبار ملوك حج وعدن ، المطبعة السلفية ، القاهرة (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م) .

- أمين الريحاني :

ملوك العرب ، أو رحلة في البلاد العربية ، جزءان ، بيروت ١٩٢٤ .

تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، المطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥١ .

- أمين سعيد :

اليمن تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٩م .

تاريخ المملكة العربية السعودية ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ١٩٦٤ .

الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته المعاصرة ، بيروت ١٩٦٥م .

- جاد طه (دكتور) :

سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، دار الفكر العربي ، القاهرة ٦٩ .

- جمال زكريا قاسم (دكتور) :

إمارات الخليج العربي ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٦٦ .

دولة اليوسعيد ، القاهرة ١٩٦٨ .

مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي (المحفوظة في دور المحفوظات البريطانية) ، مطبوعات جامعة الكويت ، سلسلة رقم ٨ ، الكويت ١٩٧٢ .

الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٣ .

الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٧٤ .

- جمال الدين الشيال (دكتور) :

- الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي ، جزءان ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، جـ١ ، عام ١٩٥٧ - جـ٢ ، عام ٥٨ .

- حافظ وهبة :

جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ .

خمسون عامًا في جزيرة العرب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

- حسين بن غنام :

" روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الأمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام " المسمى " تاريخ نجد " ، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

- خير الدين الزركلي :

شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) .

- راشد عبد الله الفرحان :

مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية القاهرة ١٩٦٠ .

- سيون وليمز :

بريطانيا والدول العربية ، عرض للعلاقات الإنجليزية العربية ١٩٢١ - ١٩٤٨ ، ترجمة وتعليق الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢ .

- سيد محمد إبراهيم :

تاريخ المملكة العربية السعودية ، مكتبة الرياض الحديثة ، البطحاء بالرياض، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

- السيد عبد الرزاق الحسني :

تاريخ الوزارات العراقية ، صيدا ١٩٤٠ .

- السيد مصطفى سالم (دكتور) :

تكوين اليمن الحديث ، اليمن والأمام يحيى ١٩٠٤ - ١٩٤٨ ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٣ .

- صلاح الدين المختار :

تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (١٣٧٦هـ/١٩٧٢م) .

- صلاح العقاد (دكتور) :

التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

جزيرة العرب في العصر الحديث ، السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الشعبية ، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٣٨٨ / ١٩٦٩م .

- عبد الرحمن الجبرتي :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٢هـ/ ١٨١٨م) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٦ .

- عبد الفتاح أبو عليه (دكتور) :

الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ/١٨٤٠ - ١٨٩١م) ، مؤسسة الأنوار ، الرياض .

- عبد الله العلي المنصور الزامل :

أصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود ، المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ، بيروت ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

- عبد الله بن صالح المطوع :

" عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان " مخطوط قامت بتحقيقه ودراسته الدكتورة أميمه صابر البغدادي - رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر قدمت لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ولم تنشر بعد .

- عبد الله بن محمد بن خميس :

الدرعية العاصمة الأولى ، مطابع الفرزدق التجارية بالملز ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- عثمان بن بشر النجدي الحنبلي :

" عنوان المجد في تاريخ نجد " ، جزءان ، مكتبة الرياضة الحديثة بالرياض .

- عمر الفاروق السيد رجب :

دراسة في جغرافية المملكة العربية السعودية ، دار الشروق ، جدة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) .

– فالق بكر الصواف (دكتور) :

العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، في الفترة ما بين ١٢٩٣ – ١٣٣٤هـ (١٨٧٦ – ١٩١٦م) ، مطابع سجل العرب بمكة ، (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) .

– فاروق عثمان آباظه (دكتور) :

الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥ .

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .

سياسة بريطانيا في عسير أثناء الحرب العالمية الأولى ، دار المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠ .

العلاقات البريطانية اليمنية بين الحربين العالميتين ، دار المعارف بالإسكندرية ١٩٨٢ .

– فاضل حسين (دكتور) :

محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية – ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٥٨ .

– فالح حنظل :

المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ، جزءان ، نشرته لجنة التراث والتاريخ بالامارات العربية المتحدة .

– فؤاد حمزة :

قلب جزيرة العرب ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

– فايلز ، س. ، ليدي :

الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، وزارة التراث القومي والثقافي بسلطنة عمان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

– محمد أنيس (دكتور) :

الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ – ١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .

– محمد بن أحمد عيسى العقيلي :

تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ، جزءان ، الجزء الأول طبع بمطابع الرياض (١٣٨٧هـ / ١٩٥٨م) ، الجزء الثاني ، طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة (١٣٨٠هـ/١٩٦١م) .

– محمد بن عمر الفاخري :

" الأخبار النعدية " ، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر(١٠) ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

– محمد عبد الله ماضي (دكتور) :

النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، القاهرة ، ١٩٥١ .

– محمد عرابي الخلة (دكتور) :

تاريخ الاحساء السياسي (١٨١٨ – ١٩١٣) ، منشورات ذات السلاسل بالكويت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية مطبوعات دارة الملك عبد العزيز تحت رقم (٧) الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

– محمد مرسي عبد الله (دكتور) :

دولة الامارات العربية المتحدة وجوارها ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

– مديحة احمد درويش (دكتور) :

تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، دار الشروق للتوزيع والطباعة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود :

الملك عبد العزيز ومؤسس الكويت ، ١٣٤٢هـ (١٩٢٣ – ١٩٢٤م) ، مؤسسة نهامة بجدة ، ١٤٢ (١٩٨٢م) .

– نزيه مؤيد العظم :

رحلة في بلاد العربية السعيدة ، مطبعة الحلبي بالقاهرة (لم يذكر تاريخ الطبعة) .

(جـ) الدوريات :

– دورية " عالم المعرفة " التي يصدرها شهريًا المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ربيع الآخر – جمادى الأولى ١٣٩٨هـ/إبريل ١٩٧٨م ، بحث بعنوان " الولايات المتحدة والمشرق العربي " للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

– دورية " عالم المعرفة " التي يصدرها شهريًا المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ربيع الآخرة ١٤٠٥هـ – يناير ١٩٨٥م ، بحث بعنوان "دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية" للدكتورة بدرية عبد الله العوضي .

– مجلة " دارة الملك عبد العزيز بالرياض " العدد الأول ، السنة الحادية عشرة ، شوال ١٤٠٥ هـ/يونيو ١٩٨٥ بحث بعنوان " الآثار السلبية للسياسة العربية في شمال شبه الجزيرة العربية " للدكتور جمال محمود حجر .

– مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثالث والأربعون ، السنة الحادية عشرة ، يوليو ١٩٨٥/شوال ١٤٠٥هـ ، بحث بعنوان " استخدام الوثائق في منازعات الحدود بمنطقة الخليج العربي ، تطبيق على النزاع حول واحات البوريمي " للدكتور صلاح العقاد .

– مجلة " دراسات الخليج والجزيرة العربية " العدد الواحد والأربعون ، السنة الحادية عشرة ربيع الآخرة ١٤٠٥هـ/يناير ١٩٨٥م ، " تطورات السياسية في

دولة الإمارات العربية " لمحمد حسن العيدروس ، مراجعة الدكتور إسماعيل صبري مقلد .

– مجلة " العرب " التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض جـ٩ ، ١٠ ، س١٦ (الربيعان ١٤٠٢هـ/يناير – فبراير ١٩٨٢م) بحث عن " الدولة السعودية الأولى في جنوب الجزيرة العربية " لمحمد بن أحمد عيسى العقيلي .

– مجلة كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الأول (١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م) بحث بعنوان " أثر الدعوة السلفية في العالم الإسلامي " لمحمد عبد الله السمان .

– منشورات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (٢٨) سبتمبر ١٩٧٨ ، بحث بعنوان " قضية الحدود في الخليج العربي " للكتور عبد الله الأشعل .

– صحيفة الأهرام القاهرية في عامي (١٣٥٣ – ١٣٥٤هـ) ، (١٩٣٤ – ١٩٣٥م) .

(د) المعاجم والأطالس :

– المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، ثلاثة مجلدات ، وضع حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض (١٣٩٧هـ /١٩٧٧م) .

– الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، أصدرته دارة الملك عبد العزيز بالرياض عام (١٣٩٢م / ١٩٧٢م) تحت رقم (١١) وضع مادته التاريخية وخطط رسومه وأشكاله وخرائطه الدكتور إبراهيم جمعه بتكليف من معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم السعودي .

- British Documents on the Origins of the War, 1898 - 1914, ed. By : G. P. Gooch and H. Temperley, London, 1938.
- Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939. Medli coit, D. Dakin and M. E. Lambert (London 1966 - 1075).
- Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East Two Vols. New York 1956 .
- Saudi Arabia, Memorial of the Government of Saudi-Arabia : Arabitration for Settlement of Territorial Dispute between Muscat and Abu Dhabi on one side and Saudi Arabia on the other. 3 Vols. (Cairo 1955) .

Texts

- Antonius, G. : The Arab Awakening, London, H. Hamilton, 1038.
- Brémond, E. : Yemen et Saudia, Paris, 1937 .
- Gros, M. : Feisal of Arabia, The ten years of a reign, Published by Emge-Sepix, London , Paris, Roma.
- Jacob, H. : kings of Arabia, Mills and Boon, London, 1923.
- Kelly, J. B. : Eastern Arabian Frontiers, London, 1954.
- Lacey, R. : The Kingdom, Hutchinson, London, 1981 .
- Lenczowski, G. : The Middle East in World Affairs, U. S. A (Cornell) Second Edition, 1959. Oman & Central Arabia, .
- Lorimer, J. G. : Gazetteer of the Persian Gulf, Calcutta, 1908.
- Marlowe, J. . Persian Gulf in the 20th Century, London, 1962.
- Philby, H, St. J B. :
Arabia, Ernest Benn Ltd., London, 1930.

Documents

- Pubic Record Office, London. Foreign Office Records :
- F. O. 371 (Arabia 1923 - 30, Hejaz - Nagd 1931 - 32, Saudi - Arabia 1933 - 37) .
- F. O., Cmd 2351, Treaty Between His Majesty of Great Britain and His Majesty the King of the Hejaz and of Najd and its Dependencies 1927 (Treaty of Jedda).
- F. O., Cmd 4380 Notes Exchanged for the Modification of the Treaty of Jedda, May 1927, October 1927.
- F. O., Memorial Dubmitted by the Government of United Kingdom of Great Britian and North Ireland 2 Vols. " Arabitration Concerning Buraimi and the Common Frontiers Between Abu Dhabi and Saudi Arabia" .

- India Office Library :
- Correspondence wih the Grand Sherif of Mecca, from 24th September 1914 to 10the March 1916.
- Correspondence between Sir Henry Mac- Mahon, his Majesty's Hish Commissioner at Cairo to the Sherif Hussein of Mecca, July, 1915 (Cmd. 5951; No. 3 1939).
- School of Oriental Studies, Durham . Papers of Sir Gilbert Clayton .
- Middle East Centre St. Antony's College, Oxford. Papers of St. J. B. Philby Papers of Sir Andrew Ryan .

- Published Documents :
- Aitchison, C. U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, 12 Vols. Calcutta 1892.

Arabian Jubille, Robert Hale Ltd. London 1952.

Saudi Arabia, Ernest Benn Ltd., London, 1955.

Rihani, Ameen : Arabian Peak and Desert, Travels in Yemen, Constable and Co. Ltd., London, 1930

- Shecan, V. : Faisal, The King and his Kingdom, University Press of Arabia, 1975.

Periodicals

- Toynbee, A., Survey of International Affairs 1930, (London, 1931).
- Toynbee, A., ., Survey of International Affairs 1934, (London, 1935.
- Toynbee, A., ., Survey of International Affairs 1936, (London, 1937
- Watt, D. C. " The Foreign Policy of Ibn Saud, 1936 ", Journal of Central Asian Society, April 1963 .

موقف الأعراف السائدة في منطقة الإحساء من الأنظمة العثمانية

خلال الفترة من ١٩٠٧ - ١٩١٣م

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعيل*

تمهيد :

يتفق علماء الاجتماع والسكان على أن الأعراف في المجتمعات تتشكل مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال قوة ونفوذًا وارتباطًا لا تختلف في بعض الأحيان عن قوة وصرامة القوانين والأنظمة التي تسنها الحكومات لتنظيم الشعوب ، بل أحيانًا يكون لأعراف الناس من النفوذ النفسي الداخلي وغير المرئي ما يزيد عن فعل القوانين والانضباط بموجبها . ولعل التاريخ يحدثنا طويلاً عما كانت عليه الأعراف - ولا زالت إلى يومنا في المجتمعات العربية - سواء قبل الإسلام ، أو بعد انتشاره وامتداده على قارات العالم . ومن الطبيعي أن تأخذ الأعراف أبعادها المتنوعة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، عندما تبدأ الإدارة المركزية في الضعف والدخول في صراع خارجي أو فتن داخلية ، ويترتب على ذلك غالبًا ضعف وتخلف الناحية التعليمية والتوجيه الديني ، وضعف الصلات الاجتماعية بين الشعوب والمناطق .

ومن هنا يمكننا القول : إن الفترة منذ عام ١٩٠٧ م شهدت في إقليم الخليج تغيرات دولية وتغيرات عثمانية خاصة ، فالتغير الدولي تمثل في ولادة التطبيق الاستعماري في منطقة الخليج العربي وذلك بعد المؤتمرات الدولية لاقتسام تركة الدولة العثمانية وبشكل خاص مؤتمر الوفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا

(*) عضو عامل باتحاد المؤرخين العرب، ومدير عام المهرجان الوطني للتراث والثقافة- الرياض.

١٩٠٤م ، والمؤتمر الاستعماري الذي رعاه رئيس الوزراء البريطاني - كامبل بانرمان عام ١٩٠٧ والذي أطلق يد التسعمر الأوربي في مختلف أنحاء ممتلكات الرجل المريض، ليجهز عليها ويتقاسمها ، كل حسب قدراته وطاقاته[١] ، وقد تحققت التنبؤات الاقتصادية للمنطقة خاصة بعد اكتشاف النفط في إيران ، وبداية تنافس الدول الاستعمارية كفرنسا وألمانيا وبريطانيا وروسيا على المنطقة ، ودخول الدولة العثمانية في مرحلة الضعف السياسي لانشغالها في حرب ضد روسيا وحروب في منطقة البلقان ، وتطلع بعض المناطق إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية[٢] ، وطموح فارس ورغبتها في أن تكون الدولة الأقوى في المنطقة ، وخاصة بعد توقيع كل من البحرين وعمان والكويت اتفاقيات حماية مع بريطانيا ، لرغبة التشكيلات السياسية في المنطقة الاعتماد على قوة سياسية تحقق لها الأمن السياسي والاقتصادي . هذا فضلاً عن اتجاه بريطانيا إلى إيقاف مشاريع الدولة العثمانية الاستراتيجية ، والمتمثلة في مشروع سكة حديد بغداد ، حيث عارضت بريطانيا بأي شكل من الأشكال امتداده إلى الخليج العربي ، ثم بداية التمهيد للحرب العالمية الأولى التي كانت المواجهة العسكرية في أوربا بين القوى السياسية وخاصة مع الدولة العثمانية[٣] .

أما المتغيرات العثمانية الخاصة فتمثلت في فشل محاولات الإصلاح التي حاولت الدولة العثمانية عن طريقها استعادة توازنها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية . وقد استمرت تجارب المحاولات أكثر من ١٥٠ عامًا ، حيث بدأت بإصلاحات الشئون العسكرية في عهد السلطان مصطفى الثالث ١٧٥٧م . أما الإصلاحات الإدارية وأساليب الحكم فقد بدأت في عهد السلطان عبد المجيد ١٨٣٩م وسميت باسم التنظيمات ، تلاها مرحلة المشروطية التي بدأت في عام ١٨٧٦م ، وانتهت ببدء عهد المشروطية الثانية عام ١٩٠٨م ، واستمرت حتى قيام الحركة الكمالية وإعلان الجمهورية التركية في ١٩٢٣م[٤] . فالرغم من طول مدة تجارب الإصلاح التي تجاوزت أكثر من أربعة

أجيال وشملت معظم النواحي السياسية الاقتصادية والاجتماعية ، والعسكرية ، إلا أن هذه لم تأت بالثمار المرجوة منها ، نتيجة لتضافر أسباب الضعف الخارجي العامة ، والتي تمثلت في الغزو الخارجي الفكري والاستعماري ، ومحاولات كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا اقتناص أجزاء مهمة من جسم الدولة العثمانية[٣] . لقد أثرت كل المظاهر السياسية للدولة على ولاياتها ، خاصة البعيدة عن مركز الحكم في أستانبول ، ومنها الإحساء التي تعد من مناطق المنافسة في تلك الفترة ، مما أعطى القوى المحلية فيها دورًا هامًا في توجيهها للمحافظة على قدراتها الذاتية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وكان أن تنافست القبائل المحلية في المنطقة فحاولت الاتصال بدول ذات قوة ونفوذ كبريطانيا ، لخلق بناء سياسي واجتماعي يعبر عما تعانيه الدولة العثمانية من ضعف ، مما أتاح تنفيذ خطة نفوذ دولية في ظل ضعف السلطة المركزية ورغبة القبائل في التحرر من القيادة الاسمية التي أضحت عقبة في سبيل استقرار المنطقة وتطورها مما أدى إلى تدهور أوضاعها[٥] وهكذا برز نفوذ محلي في المنطقة معارضًا للنفوذ الأجنبي حينًا ومعتمدًا على النفس والمواجهة أحيانًا ، ومتحديًا السلطة المركزية ممثلة في الدولة العثمانية في كثير من الأحيان ، مما ميز المنطقة في بنائها السياسي والاقتصادي والاجتماعي عن بقية مناطق الخليج العربي المجاورة[٦] .

وكان للحرب العالمية الأولى دورها في أن تجعل المنطقة ذات خصوصية وملامح اجتماعية واضحة ، سبقها ببعض الوقت تفكك السلطة المحلية المتمثل في الخلاف السعودي أثناء صراع الإمام فيصل بن تركي ، إلى أن وصل الملك عبد العزيز إلى المنطقة عام ١٩١٣م[٨] كل هذه المظاهر السياسية المحلية والدولية أسهمت في نشوء نسيج اجتماعي لمنطقة الإحساء ظل يعيش في مرحلة النشأة على الأنظمة المحلية ، يمزجها بعض الأنظمة والقواعد التي سبق أن طبقتها الدولة العثمانية في مرحلة قوتها ، وبقدرة بعض قوادها الأقوياء وخاصة بعد مجيء حملة مدحت باشا واستقرارها في الإحساء ، وذلك قبل عام ١٩٠٨م عندما طبقت

الدولة نظم المشروطية الثانية[٩] . ومنطقة الإحساء - التي يطلق عليها واحة الإحساء ، والتي اخترناها موضوعًا لهذه الدراسة الجديدة ، لها خصوصيتها التي تتمثل فيما يلي :

١ - التركيب السكاني الذي تشكل فيه البادية نسبة كبيرة .

٢ - البيئة الزراعية التي تعتمد على الإنتاج الزراعي الذي لا يكاد يفي بالاستهلاك المحلي[١٠] .

٣ - قيام العلاقات المباشرة بين السكان ودول أخرى كالهند وإيران والعراق على أساس المصالح الذاتية والجوار.و لم يكن هناك رعاية قوية ورسمية لهذا التعامل[١١] .

٤ - عدم وجود الوعي الوطني الذي أسهمت الأحداث المتتالية في تفتيت هذا المفهوم.

٥ - عدم وجود نقلة حضارية تسهم في الاهتمام بالتفوق الحضاري للمجتمع مما جعل الاهتمام بالموروث البيئي الخاص والاعتماد عليه كأحد المظاهر ذات الأهمية.

٦ - التباين في النسيج الاجتماعي لأهالي الإحساء فهناك الوافدون والبادية والحضر والسكان غير الأصليين[١١] .

٧ - المذهب الشيعي ودوره في جعل هذه الأقلية تحاول إثبات وجودها على حساب البناء الاجتماعي للوحدة[١٢] .

٨ - عدم الاستقرار السياسي والأمني خلال فترة التأهب لترتيب الأوضاع السياسية العالمية مما خلق لدى الناس فقد الأمل والتردد في الإنتماء السياسي[١١] .

٩ - عدم قيام أو استمرار حكومة متمكنة قادرة على تنفيذ التنظيمات الاجتماعية، قادرة على حمايتها[١٥] .

١٠ - عدم قيام علاقات إقليمية متقاربة متماثلة في المصالح الاقتصادية تستدعي الحرص على إقامة قوانين تنظيمية إيجابية النتائج يمكن تجربتها وتطبيقها.

١١ - نظرًا للاضطرابات والضعف السياسي ظهرت هناك تكتلات اجتماعية متمثلة في عائلات يجمعها النسب القبلي أو المجال المكاني أو الحي أو المهنة ، مما أدى إلى رهبة هذه التكتلات في الحفاظ على أنماط وتنظيمات عرفية تسهم في تنظيم العلاقات بين هذه المجموعات وتحفظ حقوقها في ظل غياب الحكومة القوية[١٦] .

١٢ - خلو الساحة الاقتصادية من رءوس الأموال غير المحلية التي تحتاج إلى قوانين ونظم والتزامات تعاقدية تقوم بحمايتها الحكومة المركزية ، بل اقتصر الاعتماد على رأس المال المحلي الذي ارتبط بالنسيج الاجتماعي السكاني والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والذي من السهل تحريكه في أي وقت وبأي قدر[١٧] .

١٣ - سعي الحكومة البريطانية إلى إفشال مشروع إعادة السيطرة على المنطقة بعزل الجزيرة العربية عن الدولة العثمانية ، وذلك بالتعامل المباشر مع السكان وشيوخ القبائل إضافة إلى تأكيد التواجد البريطاني في مصر والهند[١٨] .

من هنا جاءت أهمية دراسة أو تقديم بعض ملامح أو موقف العرف المحلي من الأنظمة العثمانية والتي تعد جزءًا مهمًا وسببًا من الأسباب الرئيسية في تكييف الوجود السياسي في منطقة الإحساء وكيفية هذا الوجود ، وبالتالي يوضح ذلك الملامح الأساسية للمجتمع الإحسائي ومدى قدرته على مقاومة سلبيات السياسة المطبقة في المنطقة .

موقف العرف من الأنظمة الاقتصادية :

تعرضت منطقة الخليج العربي مع نهايات القرن التاسع عشر لمواجهة متغيرات اقتصادية خرجت عن مألوفات السيطرة من قبل القوى في المنطقة فأصبح الصراع السياسي موجهًا لأنماط التفاعل الاقتصادي . من ذلك أن منطقة الإحساء

ساهمت ظروفها الاجتماعية ووضعها السياسي وتركيبها السكاني في قيام نظام اقتصادي خاص بها التزم بالعسرف أحيانًا وحاكاة الأوضاع الأخرى المجاورة أحيانًا أخرى[١٦].

وهذا النظام وإن حاول التكيف مع الأنظمة الحكومية المركزية التي صدرت لتنظيم شئون الاقتصاد من : قوانين تجارية وعملات وأنظمة جمركية ومكاييل وموازين وقوانين تنظيم التعامل التجاري ، إلا إن الأنظمة العثمانية لم تكن ذات قدرة فعلية لمواجهة هذا الوضع الاقتصادي الخاص بمنطقة الإحساء. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الأنظمة والقوانين - وخاصة التجارية - بحاجة إلى متابعة مستمرة لضمان كفاءة وفاعلية تطبيقها[١٧] ؛ وهذا يتطلب نفوذًا وقوة وقدرة سياسية وهو ما كانت تفتقده الدولة العثمانية في ذلك الحين . هذا إلى أن النشاط الاقتصادي يعتمد على حركة رءوس الأموال وليس على رأس المال الثابت المرتبط بتوابت تجارية كالمصانع وإنتاج المواد الخام ، مما يسهل سرعة انتقاله بخفة مخترقًا كافة القيود والأنظمة التجارية العثمانية .وبالرغم من تعدد أوجه التعامل الاقتصادي المحلي إلا أن هناك مظاهر اقتصادية ارتبطت بشكل مباشر بحياة العامة. ويبدو من خلال استعراض بعض ملامح هذه المصادر موقف العرف في منطقة الإحساء من النظام الاقتصادي[١٨].

أولاً : النقـــود :

تنوعت النقود في منطقة الإحساء ، ولها حساباتها المحلية الخاصة والخاضعة للمتغيرات الاقتصادية ، بحيث تختلف قيمتها في كثير من الأحيان عن قيمتها المتعارف عليها ، بل وعن قيمتها الرسمية ، يضاف إلى ذلك أن قيمتها في تغير مستمر لارتباطها بالأوضاع الاقتصادية للدول المجاورة ، وتبعًا لتوفر أو قدرة المسكوكات الذهبية والفضية في السوق[١٩]. ذلك أن العلاقة بين ما هو مطروح في السوق من عملات ، والعملة الرسمية العثمانية " الليرة " كانت متفاوتة بشكل

مستمر ولا علاقة لها بالقدرة الاقتصادية وقوة الليرة أو ضعفها ، ويجدر بالذكر أن دائرتي الجمرك في الهفوف وميناء العقير كان التعامل الرسمي فيهما بموجب الليرة العثمانية ؛ إلا أن التجارة كانت تعتمد على الروبية الهندية . لهذا كانت الحسابات تتم بموجب الروبية ويتم التسجيل في الدفاتر بالليرة العثمانية والقرش وأجزائها ، وحسب سعر الصرف الرسمي[٢٠] . أما التعامل التجاري المحلي فلم يكن بالقرش ، إنما كانت للأسواق أعرافها الخاصة في عالم التجارة ، وهذا دليل ملموس على التفاهم العرفي حول عالم النقود . كذلك كانت قيمة العملات الرسمية تقل عن قيمتها في السوق ، ولكن المشتري في النهاية كان يدفع حسابه بالعملات المحلية المستخدمة محليًا بعد أن تتم عملية التحويل التي تمت الصفقة بموجبها ، وفق جداول خاصة يمتلكها الدلالون والصرافون والباعة . وكان ذلك مصدر معرفة للبائعين بأسعار تمورهم بعيدًا عن تذبذب العملات المختلفة . وقد أولت السلطة المركزية هذا الموضوع أهمية خاصة ، حيث احتوت نصوص الدستور العثماني عدة مواد صريحة بخصوص فتح محلات الصيرفة ، وعمل ترخيص لها يجدد كل ستة أشهر[٢١] إلا أن العديد من هذه المحلات في الإحساء كان تزوال هذه المهنة بطريقة خاصة وبدون ترخيص . وقد صدر في ١١ رمضان ١٣٣٢هـ قانون يلزم الناس بتداول العملات النقدية الورقية التي يصدرها للصرف العثماني كنقود بلا فرق ، وجرى تداول هذه العملات بين الناس وبين الدولة . وحرصت الدولة على ضمان هذه العملات وأصدرت عملة " البانكنوت " الورقية في صورة نصف ليرة ، وليرة . وفي ١٨ رمضان سنة ١٣٣٢ هـ أصدرت مقدارًا آخر بموجب قانون ٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٣ هـ . وكذا أصدرت قانونًا في ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤هـ الزمت التداول به كنقد بلا فرق[٢٢] .

أما النقود العثمانية بأنواعها : الذهبي والفضي فقد مرت بمراحل مراجعة وتقويم لأسعارها منذ أن تم إصدار فرمان بضربها عام ١٢٥٦هـ ، حدد فيه الهدف من ضرب النقود وطريقة التأدية بها وتعيين عقوبات على المخالفين . وكانت أول

عملية ذهبية قد ضربت سنة ١٢٥٩ هـ وسميت " المجيدى " نسبة إلى السلطان عبد المجيد . ثم سمى المجيدى بالليرة العثمانية فى عهد السلطان عبد العزيز عام ١٢٧٧هـ وشاعت بهذا الأسم ، فى حين استمر اسم المجيدى يطلق على الفضة . وتساوى الليرة الذهبية خمس مجيدى . وإثر ذلك كانت الدولة تعلن بين حين وآخر قيمة وأسعار النقود القديمة . وقد لحق ذلك تغيرات عدة على النقود المتداولة إلى الحرب العالمية الأولى ، فمنها ما أندثر ومنها ما ظل يستخدم حتى بعد الحرب ، وألزمت السلطة المتعاملين رسميًا بالقيمة المحددة فى قوائمها ، كما عينت أوزان النقود الذهبية والفضية وعيارها . ولكن سعر الذهب والفضة خضع لظروف السوق والعرض والطلب ، واضطرت الدولة إلى إبقاء العملات المغشوشة والقديمة وغير الفضية والذهبية ، وكانت أسعارها متغيرة من منطقة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر . ولم يجد نفعًا إعلان الدولة أو التعليمات بخصوص استعمالها . ومن أهم هذه القوانين الخاصة بالنقود والقريب من فترة البحث :

- قانون النقود الذى سمى - قرار المسكوكات - " صدر فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٩٧هـ وقد حدد فى القانون تعيين سعر النقود المغشوشة .

- قانون ١١ جماد الأولى عام ١٣٣٢هـ والذى نص على رفع ضرب المتاليك وكذلك النقود القديمة المضروبة أيام السلطان محمود التى مددت سنة واحدة بموجب قانون سنة ١٣٣٣ .

- قانون ١٣٢٦هـ والذى نص على ضرب نقود من النيكل[٢٦] . وفى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت العملات النقدية فى الإحساء خليطًا من العملات ذات المصادر المختلفة ، كان أكثرها ريال ماريا تريزا الذى شاع استخدامه فى ذلك الوقت . وكانت أصغر عمله عثمانية فضة الخمس بارات وأجزاء أخرى من البارة ، والعشر والعشرين والأربعين بارة ، والليرة الحمراء العثمانية التى كانت تساوى عشر بارات[٢٧] . وهذا مما دفع إلى إصدار

توجيهات إلى المتصرفين بمتابعة فرض استخدام العملة العثمانية الرسمية فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية .

على أن العرف فى منطقة الإحساء التزم إلى حد ما باستخدام العملة الرسمية فى المعاملات والكشوفات ونماذج المعاملات المالية الحكومية . أما المعاملات العامة فقد استمر العرف والتعامل الخاص بين السكان هو الوسيلة الرائجة بين الناس والتجار[٢٨] .

وقد درج بين العامة أسلوب المقايضة بمكاييل نوعية من الإنتاج الزراعى ، إضافة إلى استخدام عملات أخرى ، بالرغم من ارتفاع قيمة الليرة العثمانية التى تساوى ١٠٠ قرش ذهبى . ولكن القرش - وهو جزء من الليرة - لم يكن متداولاً فى السوق . وكان العرف سائدًا باستخدام عملات مختلطة ومختلفة واستخدم الريال الفرنسى الفضى " ماريا تريزا " بصورة أكثر وبصفة شعبية "[٢٩] هذا فضلاً عن استخدم النقد الهندى على نطاق واسع ، مما جعل الروبية الهندية يتم تقويمها العرفى بسعر أكثر من التقويم الرسمى لها ، حيث قومت بصفة رسمية بـ ٥,٥ من القروش الذهبية بينما بلغت قيمتها فى السوق ٧/٥ من الريال . وكان الريال وحدة عرف محلى ، وليس جزءًا من العملة الرسمية " الليرة أو القرش " وإنما جزئت العملة المستخدمة عرفًا تداولها حيث بلغت قيمة القرش رسميًا ١٠/١ من الليرة[٣٠] أما عرفا فقد بلغت قيمته فى السوق حسب العملة المستخدمة فى السوق وحسب العرض والطلب . قد قبلت الحكومة العثمانية التعامل بهذه العملة عند جباية الضرائب ، كما قبلت الروبية الهندية على أساس صرفها الرسمى المعتمد ، إضافة إلى العملة الرسمية العثمانية . ولجأ الكثيرون إلى الاعتماد على دفع الضرائب بالعملات المحلية عند تسديد الضرائب ، وذلك لاختلاف قيمة صرف العملة المحلية المتداولة عرفًا مقابل العملة الرسمية المحدد قيمتها بسعر أعلى[٣١] .

والجدير ذكره هنا وجود عملات إيرانية وهندية وعملات محلية متوارثة ، كالطويلة ، التى قومت من الجهات الرسمية العثمانية فى المنطقة وقدرت قيمتها ١٢٤/١١ من القرش الذهبى ، وظل سعرها فى السوق ١٠/١ من الريال

وتتراوح مابين ٧٠/١ إلى ١٢٠/١ . وكانت تستخدم إلى بدايات القرن العشرين[٣٢] . وكدليل على تذبذب العملة واختلاف سعرها يذكر لوريمر أن الطويلة قيمتها ٢٤/١١ من الفرش الذهبي في حين يذكر فيلال أن سعرها حسب القائمة الرسمية ١٥٠ طويلة مقابل " ريال ماريا تريزا " . أما سعرها العرفي في السوق فكان ٧٥ طويلة مقابل الريال . ويعود حفظها إلى أن الدولة العثمانية سحبت الطويلة من التداول في السوق وصهرتها لتستفاد منها من محتوياتها الفضية . وقدرت قيمة عشر بارات بطويلة واحدة . ولذا عرفت الخمس والعشر بارات والأربعين بارة بربع طويله ونصف وهكذا . وكانت بيزة مسقط تساوى نصف طويلة . والواضح أن قيمتها متذبذبة . وكان التجار في البحرين يقبلون الطويلة بتردد وذلك لانخفاض قيمتها في أوقات متقاربة[٣٣] .

وقد ادى الوضع الاقتصادى في منطقة الخليج العربي واعتماد التجار على عملة ذات قيمة مشتركة كالعملات الذهبية والفضية ، ادى ذلك إلى ضعف العملات المحلية المتداولة عرفًا ، وهذا يعزى أيضًا إلى ضعف العرف التجارى الاقتصادى في المنطقة ويعود بطبيعة الحال إلى تكوين الاقتصاد في المنطقة بصورة عامة .

(ب) المكاييل والموازين والمقاييس :

اشتمل القانون العثماني وقانون المشروطية على تحديد الموازين والمكاييل المستخدمة في الولايات العثمانية . وبنهاية القرن التاسع عشر حاولت الدولة العثمانية توحيد الموازين بموجب النظام العشرى ، وأصدرت قوانين الأوزان الجديدة على أساس : أن الحقة تساوى غرام واحد وأن كل عشر حقق تساوى بطمانًا وكل عشر بطمات تساوى قنطارًا وكل عشرة قناطير تساوى طغارًا . ولكن السكان في منطقة الإحساء استمروا على استخدام وحدات أوزانهم العرفية ؛ كالمن الذى يختلف حسب نوعية الموزون[٣٤] . ومن الأوزان العرفية التي

استمرت حتى بعد فرض وحدات الوزن العثمانية الجديدة ، الربعة والثمين والحقة والقياسة والمثقال الشيرازى والتولا الهندية والموسمية والوزنة .

وفيما يلى جدول يمثل معادلات الأوزان للمبيعات بالجملة والمفرق .

١ ربعة = ٦٨ رطلاً	مَنّ = ٤ قلال
١ ثمين أو ١ حقة = ٤ ربعات	صاع ويساوى ٨ أو $\frac{1}{4}$ ٨ ربعة
١ قياسة ٨ ثمين أو ٨ حقة	٣٢ ربعة، حراب أو قلة صغيرة = ٦٤ ربعة
مَنّ الحسا = ٢٤ قياسة	قلة كبيرة(جالك) ٦ قياسات موسمية = ٢ قياسة

مثقال شيرازى = $\frac{2}{5}$ من التولا الهندية أو ٧٢ حبة لوزن الذهب والفضة

الموسمية . ١٠ قياسات وتستعمل محليًا لبيع الحبوب بالجملة .

الوزنة = $\frac{1}{7}$ قياسة وتستعمل لبيع التمور بالجملة .

ومن الأوزان المستخدمة في وزن التمور القلة وكانت تتم تجزئتها إلى $\frac{1}{2}$ قلة و $\frac{1}{4}$ قلة ، ويتم ذلك غالبًا عند التعامل التجارى في بعض التمور الغالية الثمن. إضافة إلى الوزن بالمن الذى لا يزال مستخدمًا إلى اليوم في المنطقة بالرغم من تطبيق الأوزان بالكيلو .

أما وحدة القياس المستخدمة وعلى مستوى نطاق واسع فهو الذراع وهو مساو لطول ذراع البحرين ، ويختلف عن الذراع العثماني . وقد حرصت الدولة العثمانية على إصدار توجيه بأن يكون الذراع هو القياس المعتمد المعمول به في المنطقة[٣٥] . على أن قوة العرف المحلى وعدم قدرة الإدارة على تطبيق قوانين تفرض استخدام العملات والأوزان إضافة إلى المقاييس ، أدت إلى أن يستعمل الناس قياسات يتعارفون عليها ويلتزمون بها . ولكن السجلات والمعاملات الشعبية ظلت متوارثة وحافظت على ملكيتها بموجب هذه المعاملات . كذلك استخدم في قياس

الأراضى الزراعية عرفًا المغرس الذى يتكون من خمسة عشر ذراعًا والذراع يساوى قدمًا ونصف القدم أى ما يقارب اثنتى عشرة خطوة قصوة من جانب واحد[٣٦] وكان النخيل يستحسن أن تزرع على مسافة خمسة عشر ذراعًا بين كل نخلة وأخرى . ويحدد المغرس بأربع نخلات تكون كل واحدة فى زاوية المغرس . ومن هنا كان يصعب على الإدارة العثمانية مقابلتها بالأوزان والمقاييس الجديدة ، مما يحتاج إلى قدرة وقوة إدارة ورأس مال لتطبيق التغيرات التى اشتملت عليها القوانين العثمانية . لذا ظل الوضع بالنسبة لهذه الأوزان والمقاييس مستمرًا عرفيًا ، واعترفت الدولة العثمانية بهذه المقاييس والموازين المستخدمة عند جبايتها للزكاة ، وإن ظلت سنداتها وسجلاتها مكتوبة بما يعادلها رسميًا ، خاصة بالنسبة للمكاييل والموازين والمقاييس[٣٧] .

أما بالنسبة للجمارك والضرائب فقد صدرت الأنظمة العثمانية بتحديد نسبة الجمارك والضرائب فى جميع الولايات . ومنذ أن دخل مدحت باشا إلى الإحساء حدد أسلوب التعامل الجمركى والضريبى الخاص بالإحساء ، وذلك لظروفها ، وهدف الدولة من التواجد بها[٣٨] ولكن التعامل الجمركى والضريبى فى المنطقة تأثر بمعطيات إدارية منها :

- عدم اهتمام الدولة بالإحساء وإطلاق يد المتصرفين والولاة فى الكسب من خلال الضريبة العامة على الأراضى والإدارة والجمارك[٣٩] .

- استطاع الإحسائيون ممارسة التعامل العرفى التجارى الخاص ، مما فوت على الإدارة العثمانية الاستفادة من الضرائب ، وذلك عن طريق الضغط عسكريًا على الولاة والمتصرفين فى سبيل إسقاط بعض الضرائب ورشوة بعض الولاة لتحقيق عدم دقة المعلومات التجارية .

- إخفاء المعلومات الخاصة بالأراضى والإنتاج الزراعى والتجارى . وقد استطاع الوسطاء الاستفادة من أسلوب التطبيق العرفى الجمركى والذى يتم

مصالحة بين الموظفين فى الجمارك والضرائب وبين الموطنين على أساس التقدير الإجماعى لهذه النسب وإهمال ما نصت عليه الأنظمة العثمانية[٤٠] .

المعاملات التجارية :

يتأثر المفهوم الاقتصادى العام بكل تعامل تجارى سواء كان ذلك الإجراء عبر نظم وقوانين أو من خلال تعامل غير منظم ، وجرت العادة على أن يطلق عرفًا على أى تعامل إذا أصبح سائدًا بين فئة وأخرى أو بين المستفيدين والتجار ، وقد أتاح الوضع الاقتصادى للسكان فى الإحساء الفرصة لأن يكون عملهم التجارى شبه متحرر فى معظم جوانبه . ويلعب نوع التجارة ونوع رأس المال دورًا هامًا فى تحديد نوعية المعاملات التجارية فيها . فمن هذه المعاملات التجارية صرف النقود الذى يتم من خلال المظاهر التالية :

١ - التبادل النقدى المختلف من خلال الصرافين غير المنتظمين حيث يتم صرف العملات وتغييرها من خلال معرفة البضاعة المطروحة فى السوق ، ومن حيث نوعها وكثافتها والمعلومات التى ترد للصيارفة ممن تربطهم بهم علاقة نوعية فى المناطق المجاورة وخاصة البحرين[٤١] .

٢ - التبادل السلعى والشراء بالنقود حيث يتم الشراء بعملات مختلفة ، فيقوم التاجر بتغيير العملات من خلال سعر الصرف فى السوق المحلى مع أخذه فى الاعتبار الحيطة من احتمال تذبذب سعر الصرف فى السوق المحلية أو من مصادر تجارية قيمت الصرف بموجب أقل سعر يتوقعه ليكون فى مأمن من الخسارة[٤٢] .

٣ - التبادل النقدى عن طريق أصحاب البضائع والتجار الذين يقومون بصرف العملة حسب حاجتهم لنوعية معينة من النقد ، فهم يقومون باستلام الريال الفرنسى إذا كانوا فى حاجة لهذه النوعية من النقد ، أو بالليرة التركية ، وغير ذلك مما يرونه مناسبًا لمصالحهم[٤٣] .

٤ - التحويل النقدى " الصرافة " عن طريق العرض " بأسلوب المحرج " الذى يقوم بعرض العملات المختلفة على زبائنه من تجار وغيرهم . وفى هذه الحالة يخضع سعر العملات للعرض والطلب المحلى . يضاف إلى ذلك أن الطرف الراغب فى الشراء هو الذى يحدد سعرها بناءًا على تبؤاته الاقتصادية أو حاجته ، وهذه عملية تحتاج إلى ذكاء وقدرة على معرفة التغيرات الاقتصادية للبضائع ونوعيتها وهى شبيهة بعملية الإتجار بالأسهم[٤٤] .

التعامل التجارى :

أما مظهر التعامل التجارى فهناك التعامل العرفى بطريقة المسابعة وهى : أن يقوم التاجر بتسليم أحد الموزعين جزءًا من البضاعة فيقوم بتسديد قيمتها أو جزء من قيمتها - حسب حركة البيع - بعد سبعة أيام ، علمًا بأن هذه التجارة كانت عرفًا خاصًا بالموزعين المعروفين والموثوقين[٤٥] أما الإقراض المؤجل فهو المعتمد على تسليم الراغب فى القرض نوعًا من السلع المتوفرة لدى التاجر ويقوم بشرائها ويتم تسديده لها إما أقساطًا شهرية أوسنوية . وغالبًا ما يكون للبيع على مواد استهلاكية كالتمر والسمن والقمح والأرز ، ليسهل بيعها فى السوق . وفى كثير من الحالات تحدد قيمتها من التاجر ، ويقوم هو بشرائها مرة أخرى بسعر أقل ، بعد ما يتم عرضها فى السوق لكل الراغبين .ثم يتم تسجيلها بإقرار عليه ، موقع بشهادة اثنين من الشهود يلتزم فيها بالتسديد . وغالبًا لايحتاج التاجر أوالمقرض إلى كفالة شخصية أو مادية من عقار وغيره .

يضاف إلى ذلك أن المسابلة كانت تعتبر نموذجًا عرفيًا ساد فى منطقة الإحساء ، لأن أطراف التجارة فيه محلية بين صاحب رأس المال فى المدينة أو القرية والبدوى المتحول فى الصحراء ، على أن يكون المقابل للبضاعة نقدًاجزئيًا أو ماديًا من حلود وأصواف تودع لدى التاجر الذى يحدد القيمة للبدوى بما يقابل ذلك نقدًا يحتفظ به فى سجلاته فى شكل ائتمان بين التاجر وصاحب البضاعة ، ويقوم

بالسحب منه على فترات بشكل نقد أو مواد تموينية يسلمها للبدوى[٤٦] . وقد أدى أسلوب السوق التبادلى سواء سلعيًا أو نقديًا إلى تذبذب الأسعار وإلى زيادة قدرة التعامل العرفى ، وارتباط الظواهر الاقتصادية بما يمارسه هذا المجتمع من عادات وتقاليد من حيث مستوى العلاقات وقوتها وكثافتها وقدرتها[٤٧] . كما تدخل عامل الرشوة التى يدفعها أصحاب التجارة للموظفين المشرفين على الموانى أو كانت أثراء لبعضهم فى قيمة السلعة وعرضها[٤٨] أما إتاوة الحماية فهى غير محددة يتم الاتفاق مع الأدلاء بخصوصها قبل سير القوافل التجارية[٤٩] .

ويمكن للمعنى بتاريخ المنطقة والتركيبة الاجتماعية التى سبقت الإشارة إليها - من بدو وحاضرة - أن يتلمس بوضوح اعتماد التجارة البدوية على الدورة الموسمية المرتبطة بدورة الغزو ودورة الرعى ودورة المسابلة . وقد أثر هذا بطبيعة الحال على المعطيات التجاريةوالاقتصادية فى المنطقة وأوجد كيانًا اقتصاديًا عرفيًا فى التعامل التجارى لمنطقة الإحساء اعتمد على اعتبارات هذه المواسم ، بغض النظر عن القوانين التجارية والأنظمة التجارية التى تعتمد على معدلات ثابتة فى الإيرادات . وقد مارس أهالى الإحساء بناء على هذه الاعتبارات أسلوبًا تجاريًا يتكيف مع هذه الدورات[٥٠] .

أما المناطق الساحلية فإن المواسم الطبيعية ، مثل هبوب الرياح المرتبطة بحركة السفن فى البحر ، وتضوج الثمور ، هى التى ارتبطت بها دورة التجارة العالمية وعلاقتها بالتجارة المحلية . فعندما يقرر التجار من خلال بورصة الثمور أو غيرها منتجة محليًا ، فإن هذا يعنى خروجًا عن القانون التجارى الحكومى . ويلعب العرف والعادات والتقاليد فى أسلوب التعامل وتحديد الأسعار . وتجارة المضاربة اعتمدت على البيع والشراء بكميات محدودة لمدة منظمة ومحكومة بالظاهرة الموسمية ، بحيث يتحكم الطرفان فى مساحة السوق المعينة على العرض والطلب وتوفر البدائل الاستعارية فى حالة نقص المعروض أو ارتفاع بعض السلع[٥١] .

لأنها فى الخليج العربى والجزيرة العربية تأثرت بارتفاع تكلفة الإتاوات العرفية التى يدفعها التجار لحماية تجارتهم فى البحر والبر بشكل يفوق كلفة النقل والرسوم .

وقد عرف الأهالى أسلوب الائتمان النقدى الذى يعتمد على قيام وكلاء معتمدين فى جميع المدن والمناطق الرئيسية للتجارة ، ولا يحمل المضارب مبالغ نقدية كبيرة ، بل يكتفى بالتحويل حيث يتم دفع المبلغ له نقدًا فى البلد الذى يصل إليه أو إلى التاجر المرسل للبضاعة عن طريق هذه الوكيل . ودوره فى كثافة التجارة استمرارية التمويل وتحديد أسعار التجارة . على أن هذا الأسلوب أدى إلى ظهور تعامل نقدى عرفى يحدد فيه المتعاملون أسعار العملات إضافة إلى أنه فرصة للتهرب من الضرائب التى حددتها الأنظمة والقوانين على التحويلات النقدية ، فتكون الضريبة مأخوذة على البضاعة الواردة فقط[٥٢] .

والملاحظ أن نسبة عمولة التأجيل تختلف من تاجر إلى آخر ومن مقترض إلى ثان حسب رؤية صاحب رأس المال ، وهو الذى يبقى بيده إقرار القرض أو عدم إقراره[٥٣] .

الزراعة :

حرصت الأنظمة العثمانية على تطبيق قواعد خاصة بالزراعة فى منطقة الإحساء ، وذلك لتحقيق الاستقرار والإفادة من الواردات ، بالرغم من صدور أوامر استثنائية للصرف على الإحساء من واردات ولاية البصرة ، بعد أن أصدرت الحكومة العثمانية قانونًا يقضى بعدم الصرف من واردات ولاية إلى ولاية أخرى ، إضافة إلى الاستفادة مما صدر من أنظمة وقوانين تخص مديريات الزراعة التى أشارت إلى أن يكون هناك وكيل لكل مدير زراعة فى كل ولاية أو سنجق أو قائمقاميه فى النواحى والقرى ، يختار من أفراد الأهالى . وهؤلاء الوكلاء لا يدفع لهم رواتب . كذلك عدم جواز إيضاف المزارع لمطالبات مالية سواء للأفراد أو

الدولة ولا يجوز حبسهم فى القضايا . ويتم الفصل فى القضايا الزراعية فى نفس المديرية للزراعة . وهذه الأنظمة أدت بالتالى إلى استغلال الأهالى فى الإحساء سواء من مزارعين أو تجار فى التحويل فى التعامل ، وذلك لفقد الرقابة المخلصة . فوكلاء مديرى الزراعة فى النواحى أصبحوا أصحاب مصالح خاصة بالإمكان رشوتهم . وأصحاب رؤوس الأموال أصبح التعامل المالى بخصوص الزراعة خاصًا بهم ، حيث يضطر أصحاب رؤوس الأموال إلى الاستيلاء على الأراضى عرفًا لعجز المزارعين عن تسديد مستحقاتهم وعدم سماح القانون لهم بأخذ مستحقاتهم. كذلك أدى القانون الزراعى إلى زيادة المشاكل الخاصة بين الأهالى حيث يأمن المزارع من السجن بمقتضى القانون[٥٤] . وقد استطاع أهل الإحساء بفرض أنظمته العرفية فى التعامل الزراعى والصناعى الإفادة من هذا الاستثناء وذلك عن الطرق التالية :

- عدم رجوع الأهالى إلى المتصرف عند نشوب خلاف على السقيا الزراعية وتنظيمها .وقد حدد الأهالى -فيما بينهم عرفًا- أسلوب الرى الخاص بهم[٥٥] .
- استخدام الأوزان المحلية عند وزن المنتجات الزراعية ، خاصة الأرز والقمح والتمور،وهذا يظهر الاختلاف فى كمية الوزن المراد دفع الضريبة عليه[٥٦] .
- عدم تسجيل الأراضى الزراعية لدى المحاكم الشرعية سواء عند الإرث أو البيع أو التنازل وغيرها[٥٧] .

موقف العرف من أنظمة الحكم والإدارة :

النظام السياسى :

أدى أسلوب الحكم والإدارة فى منطقة الإحساء إلى قيام تكتلات سياسية ، زاد من قوة تأثيرها : انصراف السياسة العثمانية عن المنطقة وانشغالها بأمور أخرى فى قلب الدولة ، فضلاً عن عدم قدرة التنظيمات المحلية على القيام بتدابير سياسية

ذات فاعلية على المنهج السياسي العثماني في المنطقة ، مما ساعد على تمحور التجمعات المحلية حول نفسها وأخذها لذاتها منهجًا إداريًا وسياسيًا خاصًا منعزلاً عن أساليب المواجهة المباشرة أو إجراء الاتصالات السياسية بدول أخرى . ورغم تعرض الحكم المحلي للمنطقة لعوائق ذاتية بسبب تأثير الخلافات السياسية التي امتدت منذ وفاة الإمام فيصل بن تركي إلى قبيل الحرب العالمية الأولى[٥٨] ، ثم فقد أن عنصر القيادة القادرة وتأثير التركيب السكاني للمنطقة على قيام قيادة موحدة تنقذ المنطقة من المساوئ ، إلا أن هذا لا يعني عدم وجود محاولات اتخذت من الأعراف في سلوكها السياسي منهجًا ، لمحاولة التخلص من الحكم العثماني[٥٩] . ولكن هذه المحاولات لم تظهر في شكل نزعة سياسية أو منهج واضح إنما اكتفت بردود فعل محلية ذات مظهر عرفي ضد المظاهر أو الأنظمة العثمانية التي طبقت على المنطقة . وقد عين طالب النقيب لإنقاذ متصرفية الإحساء ، ولكن لم يتغير في عهده من أسلوب الحكم أو الإدارة شيء ، بل استمرت الأوضاع في التدهور . لذا أخذت تتوالى ردود الفعل العرفية المعارضة للحكم مباشرة وغير مباشرة ، وكان لها أسبابها ومدلولاتها[٦٠] التي منها :

- عدم تعامل الناس مع الأتراك لخشية اختلاطهم بهم مما يؤدي إلى كشف المعلومات الخاصة بأعرافهم الدفاعية[٦١] .

- عدم قبول الناس بقانون التجنيد الإجباري ورفعهم الشكوى إلى ولاية البصرة بعدم قبول ذلك ، إضافة إلى تحرير ١٤ مظلمة ذهب بها الشيخ عبد العزيز بودي أحد أعيان الإحساء[٦٢] .

- إحساس الناس أن مجلس المبعوثان هو مجلس وضعي وأن الهدف من هذا المجلس تعطيل الشريعة الإسلامية مما جعل الناس ينصرفون عنه[٦٣] .

- معارضة الأهالي لقانون إحصاء النفوس ، وذلك عن طريق إخفاء المعلومات عن بعضهم البعض بالرغم من صدور نظام باستثنائهم من التجنيد . لما جاءت

المعلومات الإحصائية عن المنطقة تقديرية، مما انعكس على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية . وقد جاء في الدستور العثماني تفصيل خاص بالنسبة لقانون التجنيد يشتمل على عدة مواد هامة يلزم جميع سكان الولايات بتسجيل المواليد[٦٤] .

- تكون قوة من السواري غير متجانسة من بادية العراق وأهل الإحساء مما أتاح الفرصة للبادية لأن يكرروا إعتداءاتهم على الإحساء خاصة وأن هذه القوة لا تمت لهم بصلة قبلية[٦٥] .

- عدم إتاحة الفرصة لتوظيف أهالي المنطقة في مناصب إدارية عليا قيادية ، بل اقتصر الأمر على بعض العرب والعراقيين ، ومنهم محمد أفندي من الموصل وإبراهيم أفندي مسئول جباية الزكاة . وهذا جعل الحاضر يشكون من تواطؤ هؤلاء لتطبيق سياسة ليست في مصلحتهم ، فكان تعاونهم فيما بينهم من أجل مصالحهم المشتركة[٦٦] .

- عدم اهتمامهم بحل المشكلات عند لجوء الأهالي أحيانًا إليهم عند حدوث خلافات اجتماعية وغيرها مما اضطروا معه إلى حل مشكلاتهم عرفًا دون الذهاب للإدارة الحكومية لخشية الظلم أو يكون القصاص مباشرًا[٦٧] .

- عدم السماح لأهالي الإحساء بالاختلاط بالعثمانيين حتى أن دخول الناس لقصر إبراهيم باشا اقتصر على يوم الجمعة فقط ولا يسمح لكافة الناس والغرباء بدخول المسجد داخل القصر[٦٨] .

- قيام بعض الولاة بالاتصال ببعض القبائل ودفعهم إلى إثارة الفوضى في المنطقة ، كأسلوب من أساليب معرفة القبائل المناصر بعضها لبعض للقضاء عليها أو لتحريض قبيلة ضد أخرى لمواجهتها وإشغالها[٦٩] .

كل ذلك أدى إلى ظهور المعارضة لأنظمة الحكم والإدارة . وقد جاءت تلك في المعارضة شكل مظاهر عرفية منها :

- خروج بعض الأهالي عن النظام العثماني ومناصرة بعضهم لبعض . ومثال ذلك عندما رفض أهالي بلدة العيون دفع الزكاة ، وعندما قرر المتصرف سجنهم

فلم يرى أهل العيون سبيلاً إلا الاجتماع عرفًا والذهاب إلى القصر حتى اخرجوا المساجين[٧٠] .

- إجبار أهالي الإحساء وموظفي الجوازات على القبول بالكفالة للمسافرين عرفًا من قبل الأشخاص الثقات، وهذا مخالف للأنظمة والتعليمات والقوانين[٧١].

- استمرارهم في شراء السلاح وبيعه في المنطقة بشكل كبير وبطريقة الخفية ، إما مقابل المال أو التمر أو الأرز ، بالرغم من محاولة الدولة العثمانية عدم انتشار السلاح ، إلا أن العرف يقضي بالحرص على السلاح وجمعه حتى بلغ الحد بهم أن كل شخص في الإحساء كان يملك بندقية[٧٢] .

- قيام بعض القبائل بمحاولات الاتصال السياسي بقبائل أخرى في شكل تجمعات قبلية عرفية ، أو محاولة الاتصال الخارجي من أجل إثبات ذات القبيلة أمام القبائل الأخرى ، أو الحاجة إلى السلاح لاستخدامه في التدخل ضد الحكم العثماني الذي يناصر قبيلة ضد أخرى[٧٣] .

- ظهور مجموعات من الحاضرة مناصرة بعضها لبعض للقيام بأعمال التهريب للتجارة ، ثم تكوين مجموعات عمل في البحرين . وعندما هاجرت هذه المجموعة معترضة على الوضع استطاعت أن يكون لها تأثيرها على أسلوب الحكم . وعند محاولة الدولة العثمانية تخفيف أعمال المراقبة تمكن هؤلاء من العودة إلى الإحساء[٧٤] .

- عندما حدث خلاف بين أهالي الهفوف والعجمان قرر أهل الإحساء عدم دخول العجمان للهفوف ، بالرغم من صدور قانون لا يسمح بمنع أحد من الرعية دخول أي منطقة أو بلد أو مدينة . وقد تحامى أهالي الهفوف ضد العجمان . كما تناصر البادية مع العجمان والمناصير وغيرهم وسكان الحزم ضد أهالي الإحساء . وقاموا بأعمال إنتقامية ضد أهالي النخيل ، مما أدى إلى

إعلان الحرب ضد العجمان من قبل أهل الإحساء إلى أن تم الاتفاق بينهم على الصلح على أن تعود الأمور إلى سبق عهدها بأن يغادر العجمان من الإحساء[٧٥] .

- اجتماع أهل الإحساء ضد التصرف وقيامهم بالأضراب ورفعهم السلاح ضد الأتراك ، وذلك بعد أن قرر المتصرف الحرب ضدهم عندما قتل محمد الكردي من عسكر الدولة العثمانية ، وسجن للمشايخ والتجار . قد طلب العلماء في المبرز ثم المتصرف آنذاك " أبو سهيل " أن يفك المسجونين ، فلم يلتفت لقولهم،فاوعز العلماء للأهالي بالإضراب عن البيع والشراء . ولم يأبه المتصرف لذلك فثار الأهالي لمهاجمة المتصرف وسرعان ما طلب الصلح عن طريق العلماء وأمر بفك المسجونين وأسقط بعض الضرائب وخفف بعضًا منها[٧٦] .

- قام المتصرف محمود ماهر بمهاجمة أهل المبرز لشكوى أهل الهفوف من اللصوص على الطريق بين المبرز والهفوف . وعلم أهل المبرز بذلك فرصدوا للعسكر . وعند خروج مجموعة منهم هجم عليهم الأهالي ، واستخدم العسكر المدافع ضد الأهالي.واستطاع رجل من أهل المبرز أن يرمي العسكري قصر المبرز،وهزم العسكر ، ونهبهم الأهالي ، فقوض المتصرف الشيخ أبا بكر المتوسط لإخماد الفتنة . وتم عقد مجلس عرفي في المبرز وقرر الشيخ غرامة ثمانية وبال قيمة الأطعمة والذخيرة ، وضرب الرجل ضربًا صوريًا . وكتب محضر يتضمن بأن يذعن أهل المبرز للسمع والطاعة لأوامر الدولة . وغادروا رحلاً وأدوا الغرامة .

- لم يكن أهل المبرز راضين عن وضعهم وأراد المتصرف أن ينتقم من تجمعهم ضد الدولة فأخذ يوعز للبادية بقطع الطريق إلا إنهم تمكنوا في عام ١٣٢٧ هـ من قتل المتصرف[٧٧] .

المظهر الاجتماعي :

عندما سيطر العثمانيون على الإحساء لم تكن الغاية من هذه السيطرة واضحة الهدف لتنفذي الخطط السياسية ، بل كان الطموح لدى الدولة العثمانية ضم كامل نجد وساحل الخليج العربي . ولكن هذا الطموح اصطدم بالقوى

المسيطرة في الخليج[٧٨] ، مما أدى إلى عدم قيام مفهوم اجتماعي أو تخطيط لمفهوم اجتماعي واضح من قبل المنفذين لهذه السياسة . وزاد هذا من هوة الاختلاف بين الواقع التطبيقي للسياسة والخطط المرسومة . ولذا بقيت الساحة الاجتماعية في الإحساء تعاني من عدم وجود قيادة أو سلطة مركزية منظمة . وساعد كل ذلك على أن تكسب الأعراف الاجتماعية قوة وقدرة على توجيه السكان بمختلف فئاتهم ، وبالتالي تأثرت المظاهر الاجتماعية الأخرى كالتعليم والقضاء وقطاع الخدمات المتمثل في الخدمات البلدية . فبالرغم من صدور أنظمة لتنظيم شئون الحياة الاجتماعية ونصها صراحة على التنظيم ، إلا أن المجتمع الإحسائي لم يكن ليقبل هذه النظم ، خاصة بعدما ما أدرك عدم قدرة الدولة على حمايتها أو الاستمرار في متابعة تطبيقها[٧٩] . يضاف إلى ذلك عدم الاهتمام والإهمال من قبل الدولة . كل ذلك أظهر قدرة العرف على البروز وظهوره كظاهرة اجتماعية مألوفة غير قابلة للاعتراض أو خاضعة لفلسفة إبداء الرأى . وقد أدرك السكان أن الأنظمة والقوانين في عصر التنظيمات أواخر القرن التاسع عشر مأخوذة من القانون الغربي ، كل ولاية بحسب ما تختص به من مفهوم أقوى[٨٠] . فمثلاً القضاء العثماني حددت واجباته وصنفت أعمال منسوبيه وصدرت أنظمة ولوائح كافة شئونه ، خاصة أن التشريع الإسلامي المعتمد عليه القضاء هو منهج الحكم العثماني . وقد اهتمت الدولة العثمانية بهذا الشأن اهتمامًا جعل هذه الوظيفة ذات أولوية في الولايات والمتصرفيات العثمانية . إلا أنه يمكننا القول : إن الإحساء ، فقدت حرص واهتمام الدولة بعد صدور نظام المشروطية ١٩٠٨م وخاصة أن التجربة الاجتماعية العثمانية في المنطقة فقدت قيمتها وقدرتها بعد ضعف الإدارة وظهور مساوئها . لذلك أخذ الأهالي ينظمون شئونهم القضائية من تلقائهم دون أن يكون هناك أثر للأنظمة والقوانين . ومن ذلك :

- تسجيل القضايا الشرعية لدى قضاة العرف دون الرجوع إلى السلطة المركزية ، وبذلك كسب أصحاب الرأى وكبار العائلات والأعيان دورًا في

الترجيه لقضاة العرف بتسجيل هذه المعاملات وتوثيقها ، مما فوت على الدولة فرصة معرفة ورصد المتغيرات الاجتماعية السكانية وغيرها[٨١] .

- تسجيل الوكالات الشرعية والبيوع والصلح سواء كان عرفيًا أو غير عرفي ، شخصيًا أو قبليًا أو اجتماعيًا أو فرديًا لدى أهل الرأى ، ثم يتم توثيقها لدى القضاة والعلماء غير المعينين[٨٢] .

- عدم حرص أصحاب المعاملات القضائية على استعمال الأوراق الرسمية المسجلة نظامًا من قبل الدولة العثمانية . فقد جرى التصديق عليها من العلماء والقضاة، فأخذت الصفة الرسمية عن طريق أسلوب العرف المحلي الخاص[٨٣] .

- اعتماد صلح القضاء الشرعي في النزعات المحلية على مفهوم الشرف والعرف والالتزام الشفهي ، وذلك لرغبة الأهالي في الاعتماد على منهجهم العرفي في إدارة شئونهم الخاصة[٨٤] .

- ازدواجية العمل القضائي في منطقة الإحساء ، فالعلماء والقضاة يتعاملون مع الدولة العثمانية حسب الأنظمة والتعليمات التي ترد إليهم لتنفيذها ، كما يقومون بإعمال القضاء العرفي الخاص بشئون تنظيم الحياة العامة كالبيع والشراء والصلح القبلي والمشاكل الاجتماعية . وغالبًا ما كان يرجح أهل الإحساء خاصة في أوائل القرن العشرين التعامل القضائي العرفي عن الرسمي وذلك لعدم رغبتهم في استمرار الحكم العثماني[٨٥] .

- مما يؤكد رغبة الأهالي في استمرار التعامل القضائي العرفي(غير الرسمي)أن الدولة العثمانية رغبت في تعيين مفتين وقضاة في الإحساء فلم تجد من يرغب في هذه الوظيفة، فكتبوا إلى الشيخ عبد اللطيف أفندي بالبحث عن مفت لشغل الوظيفة[٨٦] .

- لم يأخذ العثمانيون جانب الاختلاف المذهبي بعين الاعتبار والأهمية ، فتركو للشيعة حرية التعامل المذهبي القضائي والإفتاء حسب مذهبهم ، واختا

الشيعة القاضي الخاص بهم ، واعترفت الدولة العثمانية به . كذلك تم تعيين القاضي والمفتي السني من قبل الدولة مما جعل السنة يطمحون في تعامل الدولة معهم كالشيعة ، بل عينوا قضاة من العلماء ومفتين من علمائهم واعترفوا بهم دون الرجوع إلى الإدارة العثمانية[٨٧] .

- بروز طبقة الأعيان في المنطقة كأصحاب رأى وأصحاب سلطة اجتماعية من السهولة بمكان الاتصال بهم ، وقدرتهم على حل المشكلات بسرعة وبطريقة مرضية للطرفين ، وفيها التزام ، وقدراتهم على المتابعة وخاصة أنهم من أصحاب رأس المال . وقد اعترفت الدولة العثمانية بهم وخاطبتهم في وثائقها الرسمية ، مما أعطى العرف فرصة في أن يأخذ مكانته في المنطقة[٨٨] .

التعليـــم :

استمرت الحياة العلمية في الإحساء منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين وخروج العثمانيين منها على وتيرة واحدة . فالخلل الإدارى والضعف الاقتصادى وغيرهما ، أدى إلى الإنصراف عن الاهتمام بشئون الحياة ومنها التعليم . وبالرغم من أن المصادر تحدثنا عن وجود مدرسة المانية[٨٩] بالقرب من قصر إبراهيم باشا ، إضافة إلى مدرسة رشيدية واحدة عثمانية ، ومدرسة ابتدائية واحدة أيضًا[٩٠] ، إلا أن المصادر لم تذكر مدارس أخرى في المنطقة نفسها. والواقع أن الأهالي احجموا عن التعليم النظامي " التركي " الذى خشى الناس أن يكون بداية لإرغامهم على تعلم اللغة التركية التي لم يتقبلها أهل المنطقة بالرغم من أنها لغة التعامل الضريبي والمحاسبي الحكومي ولغة الحكم المسيطر . يضاف إلى ذلك ظهور معالم قومية على الساحة السياسية جعلت بعض الناس يظنون ذلك الظن ، كل هذا أدى إلى قيام نظام تعليمي خاص تميز بالمنافسة والتسابق العرفي بين العلماء والمهتمين بالأدب والتاريخ . وقد حظى الفقه باهتمام خاص من قبل العلماء والمهتمين بالأدب والتاريخ ، وذلك لوجود المذهبين السني والشيعي في

مجتمع واحد . فعلماء الشيعة حرصوا على أساليب التعليم الخفية الخاصة بهم ، وذلك لعدم اعتراف الإدارة العثمانية بهم ، وخشية من أن تحدث المواجهة بين علمائهم وعلماء السنة فيتضح الكثير من الأمور الشرعية الخفية عن بسطاء الناس ، وهذا مدعاة للتخلي أو التشكيك في المذهب . أما علماء السنة فقد بذلوا جهودًا خاصة في إيجاد نظام تعليمي خاص بهم بعيدًا عن سياسة الدولة العثمانية وخططها التعليمية[٩١] هذا فضلاً عن أن الناس كانوا يفضلون إخفاء المعلومات عن أبنائهم خشية تحييدهم عن طريق فصول التعليم . وكان نظام الكتاتيب هو الشائع في مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية ، وهو الأسلوب التعليمي المتعارف عليه في منطقة الإحساء . واستطاع السنة أن يؤسسوا مدارس في القرى الكبيرة وبنفس الأسلوب التعليمي الذى يطبق في مدرسة الهفوف الخاصة بهم . بينما انتشرت المدارس للشيعة على مدينة الهفوف في ذلك الوقت .وقد حرصت الأنظمة العثمانية على تحديد مناهج التعليم ومواد الدراسة ، وأكدت على كل الولايات بضرورة تطبيق هذا النظام . ولكن المناهج التي كان يتعلمها أهالي الإحساء كانت لا تمت بأي صلة لهذه المناهج التعليمية ، بل هي مجموعة من المناهج المعتمدة على الجهود الشخصية من خلال الاتصالات بالمناطق المجاورة أو زيارات العلماء لمراكز العلم في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية . حيث توجد مراكز لتعليم الدراسات الشرعية في كل من المدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد والبصرة . هذا في حين نقل العلماء والمهتمون المناهج التعليمية الأخرى كالحساب وغيره من العلوم الدنيوية من الهند، وذلك عن طريق البحرين[٩٢] . ومما تقدم يتضح أنه حتى التعليم لم تكن له قواعد وأنظمة مركزية محدودة يتم تطبيقها وتنفيذها على أرض الواقع وإنما غالبًا ما كان للظروف الاجتماعية والحاجات الخاصة والأعراف المتبعة أثر كبير في نشر ذلك وتحديده . وهذا يعطي صورة جلية عن الأعراف ومدى تغلغلها في نفوس الناس وحياتهم الاجتماعية .

النظام البلدى والخدمات :

نصت الأنظمة العثمانية على تحديد مسئوليات إدارة البلديات وحددت مهام كل وظيفة فى البلديات وعلاقتها بالتشكيل الإدارى فى الولايات . وقد تضمن الدستور تعليمات خاصة بترتيب مجالس الدوائر فى المدن والقصبات داخل الولايات ، وتم تعديلها حسب القانون الذى يتضمن تسعة بنود تحدد العلاقة بين إدارة الولاية ومسئولى البلديات ، إضافة إلى ستة عشر بنداً بالوظائف البلدية[٩٣].

كذلك صدر نظام الطرق والأبنية ويتضمن تعليمات خاصة بتوسعة الأزقة واستقامتها وما يكون عليها من نوافذ على رحبة الأبنية ، وارتفاعها ، وأسماء الشوارع والأحياء ، وأرقامها ، وتعليمات الإنشاء . وقد جاءت مواد الدستور مكونة من تسعة وأربعين مادة شملت كافة التنظيمات البلدية[٩٤] .

أما رسوم المبانى فقد تعددت وتنوعت . وشمل الدستور عدداً من التنظيمات الخاصة بها ، ثم وضع نظام خاص للخبازين وغيرهم من أصحاب المهن[٩٥] .

على أن التطبيق العملى لقطاع البلديات والخدمات العامة لم يكن ساريًا فى عموم مدن وقرى الإحساء ، وإنما اقتصر على مدينة الطفوف والمبرز فقط ، وذلك لوجود الكثافة السكانية والكثافة العسكرية العثمانية فى هاتين المدينتين . وكان التطبيق لهذه الأنظمة شكليًا فى كثير من الأحيان لاعتماد مصروفات النشاطات البلدية على ما يمكن تحصيله من السكان سواء فى شكل ضرائب أو زكوات أو إتاوات[٩٦] . لذا أصبح رد الفعل من قبل السكان مباشرًا ضد الإجراءات البلدية والخدمات التعقيبية للسكان ، إيمانًا منهم بعدم أهمية هذه الخدمات ، فضلاً عن إنها تلقى على كاهلهم ضرائب إضافية . لذا لجأ العديد من السكان سواء التجار أو الصناع إلى ممارسة مهامهم التجارية والصناعية فى منازلهم وإجراء المبايعات الخاصة فى المساكن، مما فوت على الدولة الكثير من الضرائب الجمركية على المبيعات[٩٧] .

أما نظافة الطرق وتخطيطها فقد لجأ السكان إلى النظام العرفى الذى يعتمد على

المصالحة فى تحديد طرق ومداخل المزارع وتغيير مساحاتها ؛ إما استمرارًا لوضع سابق أو صلح خاص فيما بينهم . أما النظافة فقد عمد السكان إلى إهمال الممرات والطرق وذلك بقصد إعاقة لجان التفتيش وجباة الزكاة والضرائب من الوصول إلى كافة المناطق الزراعية[٩٨] .

أما الاحتساب فقد نشأ من مبدأ إسلامى يعنى بالنظر فى الآداب العامة فى الأسواق ومراقبة الأوزان والأسعار والمواد المعروضة للبيع ومدى جودتها . على أنها فى الفترة المتأخرة من العهد العثمانى اقتصرت على مراقبة الأسعار والأوزان ، وتخلى المحتسب عن بقية مهام الحسبة ، فى حين حرص المحتسب على جمع الرسوم المفروضة على الحوانيت بجميع رواتبه وروواتب معاونيه . وهكذا تحولت وظيفة الحسبة فى القرن التاسع عشر إلى نوع من الوظائف التى تشترى بالرشوة من أجل الحصول عليها حيث يحصل المحتسب على وثيقة شرط نامه[٩٩] .

وقد عانت الإحساء من مشكلات الفوضى الخاصة بالتنظيم البلدى ، وخاصة فيما يدخل ضمن نظام ومهام المحتسب ، الذى تداخلت مهامه مع أصحاب الوظائف الإدارية الأخرى ، فلم يكن هناك نظام بلدى خاص بالمدن وخاصة الطفوف التى يلعب المختار - الذى هو من الأهالى - دوره فى تنظيم هذه الشئون دون الرجوع إلى التعليمات البلدية الصادرة إليه ، بل أنه يتجاهل الكثير من المخالفات البلدية ، خاصة فى البناء . وغالبًا ما يوعز فى الخلاف الخاص بالبلدية والبناء إلى أهل الرأى وأعيان الحى لانهاء المشكلة حسب مصالحهم وأعرافهم[١٠٠] .

الخاتمة :

لعل العادات والأعراف والتقاليد ، من أهم المجموعات المؤثرة فى النشاط الإنسانى ، وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد آخر بزيادة أو نقص . وقد زخر التاريخ العربى قبل الإسلام وبعده ، بعادات وتقاليد وأعراف استقر الإجماع عليها ،

وبقيت فعالياتها ونفوذها قائمًا على طول التاريخ العربي الإسلامي وإن كان ذلك بنسب متفاوتة .

وفي عهد الدولة العثمانية ، الذي دام ما يزيد على ٤٠٠ عام في البلاد العربية بصورة عامة ، كان نصيب الخليج العربي الذي نحن بصدد الحديث عنه يتفاوت في هذه المدة بين السيطرة العثمانية والخروج منها ، ويمكن القول : إن الأعراف والعادات كان لها دورها الفعال في المجتمعات العربية والإسلامية التي كانت تحت الحكم العثماني . ذلك أن الإدارة العثمانية درجت أحيانًا على أتباع سياسة مشاركة الأهالي في الإدارة المحلية كأحد أساليب السيطرة والاجتماعية ، زيادة على أنها دولة ليست بغريبة عن تركيبة الجسم الإسلامي في مجمل معطياته وحضارته .

وقد تأكد أن مجموعة هذه الأعراف والعادات تمشي ومصالح الناس وتدبير أمورهم فيما بينهم ، إذ تلبي الكثير من حاجاتهم وتساعد على حل الكثير من مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية ، حتى الأمنية والسياسية ، وذلك دون الحاجة كثيرًا إلى الرجوع إلى القوانين والأنظمة والسلطة المركزية ، التي تقوم على وضع وتطبيق وتنفيذ هذه القوانين .

ونستطيع أن نؤكد أن هذه العادات والأعراف بمجموعها الكلي ، لم يكن هناك بينها وبين مبادئ الأمة الإسلامية أي تعارض أو تناقض واضح ، بل أن بعض الأصوات المعارضة للسلطة المركزية والمؤيدة لمثل هذه الأعراف والعادات كانت تجد لنفسها مبررًا في الثبات على ما هي عليه ، وذلك لاعتقادها أن الكثير من الأنظمة والقوانين العثمانية – وخاصة بعد حركة ما سمي بالإصلاحات الدستورية – كان مصدرها القوانين والأنظمة الغربية وثقافتها . ولذا كان الناس ينظرون إلى هذه الأعراف والتقاليد وكأنها منبثقة من ذلك الكم الكبير من تراث وموروث الآباء والأجداد ، ولذا وجبت المحافظة عليها والتأسي بها ، مع محاولة

التجديد بعض الشيء أو المرجعة لبعضه الآخر تبعًا لظروف الزمان والمكان الذي يعيشه الإنسان العربي . ومن هنا نخلص إلى القول إن الأعراف والعادات المتداولة بين الناس هي نتاج عمل عقلي اجتماعي حضاري ترثه الأجيال وتورثه واحدًا تلو الآخر . وهذا ما لمسناه حين وقوفنا على العديد من المراجع والمرسلات وكذلك من خلال اللقاءات والأحاديث الشخصية التي قمنا بإجرائها مع كبار السن من أهل المنطقة – والذين هم أحد الأعمدة الهامة في معرفة الأعراف والعادات – وقد كشفوا عما لا يدع مجالاً للشك عن الآثار الإيجابية – غالبًا – والبعيدة المدى ، التي تركتها الأعراف والتقاليد على السلوك والنشاط المحلي بصورة خاصة .

وثائق توضيحية

وثيقة رقم (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الموجب لتحريره هو أنه لما كان العقار المسمى بالمفضلي وتابعه ضاحية أبو نعليه الواقع ذلك بطرف الحقل ساقية نهر البدن من الحقل الفني ذلك بشهرته عن تحبيده وصية لأحمد بن محمد الغاشمي على طعم واضحية وقتهما وقد خرب ذلك وتعطلت منافعه وانعدم ريعه بالكلية وكان استبدال الوصية إذا خربت بما هو انفع لجهتها وأكثر لغلتها جائز في مذهبي الإمامين المعظمين الموصوفين بالخشية والخفية الإمام أحمد والإمام أبي حنيفة برحمهما الله تعالى بشرط إذن صاحب " النظر في المصالح " للمتولي الناظر وقد حصل ما ذكر من الأحضية والغيطة والأذن من صاحب النظر للوقع اسمه وختمه اعلا الكتاب عامله الله بلطفه وإحسانه يوم المآب ، فحينئذ حضر الرجل عبد الرحمن بن أبي بكر بن غنام واشترى لنفسه ولإخوانه عبد الوهاب وصالح وعبد العزيز وعبد الله بينهم بالسوية من جناب الرجل أحمد بن حسين الغاشمي البايع بولايته على وصية جده أحمد السابق ذكرها بتوابع ذلك ولواحقه الأرض والماء وكل حدّ وحق لذلك داخلاً أو خارجًا .....

وهو الرابع المشاع من عامة القرافة المسماة بالجفيرة الواقعة بطرف أم خريسان على سافيتها مع تابع ذلك وهو عشرين سهم من أصل سبعة وستين سهم ونصف سهم عبارة عن الثلث زائدًا تسعة مشاعًا ذلك عامة العقار المسمى جبر بن مزرع الأرز .....

وجرى ما ذكر وحرر في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ هجرية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

شهد بما فيه — شهد بما فيه

شهد بما فيه — شهد بما فيه

وثيقة رقم (٢) المجموعة الخاصة :

الوثيقة تدل على رؤية أهل الرأى والعلماء فى إصلاح وقف مهمل وجواز التصرف فيه ، يلاحظ ذكر رأى المذاهب فى الرأى شهادة أصحاب الرأى .

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لانبى بعده أما بعد فقد افتيت بصحة وجواز هذا الاستبدال لكونه انفع لجهة الوقف بشرطه المسوغ وللمصلحة الراجحة فى ذلك كتبه الآمل عبد الله بن سعد بن حماد عفى الله عنهم بمنه وكرمه آمين

الختـــم

نلت لأن ماذكر على الوجه المحرر وصدر منى الإملاء وامضيت الفتوى به فصح حرره الآمل (.....) على بن محمد العبد القادر لطف الله به .

ختـــم

الحمد لله وحده

ما نسب مذهب الإمام أحمد رحمه الله من جواز بيع الوقف إذا خرب ولم يكن عمارته صحيح فبموجبه صح ما ذكر من النقل كتبه عبد الرحمن بن عبد الله الوهيبى (.....) بالله وعفى عنه بمنه

ختـــم

وثيقة رقم (٣) المجموعة الخاصة :

تبين هذه الوثيقة أسلوب السقيا العرفي كما يحدد قيمة البيع بريال الفضة الفرنسي .

فموجب تحريره إنه قد اشترى سعد بن محمد بن رشود من حسين بن محمد آل إبراهيم جميع وجملة السهم ... من العارض المعلوم لديهما محلاً وجهد الكائن بطرف البطالية على ساقيه نهر المغمور من عين الجوهرية بحد المبيع قبلة مستقى المعامرة وشمالاً الغراقة وعند السهم الآخر من العارض وشرقًا المعامرة الوسطى من البابة وجنوبًا ومعامرة بوسيت بكافة ما للبيع المذكور من حد وحق وتابع ولاحق الأرض والنخل والفسيل والشجر والثمر والطريق والماء وبحراه ومرمساه وكل حد وحق لذلك ..... بثمن شرعي علمه وبينه ستت عشر ريالاً فضة فرنسية قبضة البائع تامًا من يد المشتري .....

حرر في ذي القعدة الحرام من سنة ١٣٢٨ وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا شهد به عبد الله بو عثمان وعلى آل فضل وعلى إلى يحن وكفى الله شهيدًا .

وثيقة رقم (٤) المجموعة الخاصة :

توضح التسجيل الحكومي الخاص بالمعاملات الخاصة بالمبيعات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الموجب لتحرير هذه الحجة الشرعية وبعد قرر هوانه قد اشترى الرجل عبد اللطيف بن علي المشتري ذلك لنفسه من الرجل سلطان المشهد لي البائع بنفسه منه ذلك جميع وجملة بيت سكناه الكاين بطريق بجانب من الكوت المحروس انشاء الله تعالى المحدود قبله بيت آل بن نهار وشمالها وشرق الطريق وجنوبًا بيت بن خرز المعلوم ذلك لديهما جهته وحلاً مع ماله من حد وحق وتابع ولاحق من أرض وبنا وسقوف وأبواب حيطان وطريق ولمو وشجر وماء والنخل وكل حق له ذكر داخل فيه وخارج عنه أو يضاف أو يحد منه شرعًا وعرفًا بثمن شرعي معلوم لهما قدره وعدة نصابه مئة قرش وعشرة قروش قام البائع المذكور بقبضة إقرارًا دعى الصدق فيه بيعًا صحيحًا شرعيًا وشراء محرزًا مرعيًا بإيجاب وقبول .....

حرر نهار الجمعة لعشر يقين من شوال سنة الحادية والثلاثون بعد المائتين والألف هجرية بمحضر الأخ المكرم عبد الرحمن بن درويش ومحرره عبد الله بن درويش العدساني .

وثيقة رقم (٥)

نماذج من قواعد الحاسبة الخاصة المنقولة من الهند

بيان بالرموز المستخدمة في الحسابات

سعر التصرف

نصف

ربع

طولبه

القيمة الفردية

ثلاثة أرباع

الهوامش

(١) ساطع الحصري . البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين بيروت ، ط٣ ، ١٩٦٥ م ، ص١١٣ - ١١٧

(٢) د. عبد اللطيف محمد الحميد . سقوط الدولة العثمانية ، دراسة تاريخية في العوامل والأسباب ، مكتبة العبيكان - الرياض ١٤١٦هـ ، ص ٦٥ ، ٦٨

(٣) حميد أحمد حمدان التميمي ، دراسة في تطور الأوضاع السياسية في البصرة من ١٩٠٨ - ١٩١٤م ، جامعة البصرة - سلسلة تراث البصرة (٨) ، ١٩٩٠م ، ص٢٧

(٤) ساطع الحصري . البلاد العربية والدولة العثمانية . سبق ذكره ، ط٣ ، ١٩٦٥م ، ص٧٥

(٥) د. عبد اللطيف محمد الحميد .سقوط الدولة العثمانية دراسة تاريخية في العوامل والأسباب ، سبق ذكره ، ص٥٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥

(٦) عبد العزيز عبد الغني ، امراء وغزاة ، دار الساقي لندن ، طبعة ثانية م ، ص٢٤٦ ، وكذلك جاء في وثيقة رقم ٦٠٢/١٥ من الوالي للقنصلية رقم ١٥٦ وتاريخ ١٩٠٢/٨/٢١م وتتضمن الآتي : ردًا على كتاب القنصلية رقم ٩٤ المؤرخ في ١٩ مايو ١٩٠٢م لدى استلامنا برقية وزارة الداخلية بخصوص موضوع أحمد بن سليمان وضرورة استرداد الممتلكات التي نهبت واتخاذ الإجراءات القانونية بحقه فلقد أرسلت التعليمات اللازمة في هذا الخصوص الى المتصرف في لحج إلا أنه لم يصلنا منه رد حتى الآن . ولقد تم إرسال استعجال له حول الموضوع وسنحيطكم علمًا بالنتائج التي يتم التوصل إليها أولاً بأول .

(٧) بعد العزيز عبد الغني : امراء وغزاة سبق ذكره ، من ص١٢٦ - ١٣٠ .

(٨) مقبل الذكير ، تاريخ الذكير ، مخطوط الدفتر الرابع ، ص٢٨ ، ٢٩

(٩) عبد الله الحضور ، ولاية الأتراك الثانية للإحساء مذكرات غير منشورة ، القسم الثاني ، ص٢٠٦

(١٠) علي حيدر مدحت ، مدحت باشا حياته السياسية . تبصرت عبرت ، استانبول ، ١٣٢٥ هـ ، ص١١٧

(١١) لوريمر . دليل الخليج ج٢ سبق ذكره ، ص٨٤٨

(١٢) لوريمر ، دليل الخليج ، ج٢ ، سبق ذكره ، ص ٨٢١

(١٣) تقرير مدحت باشا ، سبق ذكره ، ص٥

(١٤) عبد العزيز الشعيل ، الوجود العثماني في الإحساء ، رسالة ماجستير غير منشورة ج . الزقازيق كلية الآداب ص٨٧ ، ٨٨

(١٥) عبد العزيز عبد الغني ، المراق وغزاة ، سبق ذكره ص١٢٧

(١٦) المرجع السابق ، ص١٣٠

(١٧) د. خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ م ، ص٨٨

(١٨) الصراع بين السياسيين العثمانيين والبريطانيين حول شبه الجزيرة العربية ١٨٩٧ ١٩٠٦م . ص٢٠١

(١٩) في بعض السجلات الخاصة بالمعاملات التجارية في الإحساء طبق النظام المحاسبي في الهند انظر الملاحق، وثيقة رقم(٥) ومقابلة الشيخ حليفة الملحم.

(٢٠) لقد صدرت عدة توجيهات خاصة بالمعاملات التجارية ، ضرورة التعامل بالعملات العثمانية والمكاييل انظر الدكتور عباس العزاوي تاريخ النقود العراقية ، بغداد ، ١٩٥٨م ، ص١٦٤ ، ١٦٥ وأيضًا دليل الخليج ، لوريمر سبق ذكره ص٨٤٩

(٢١) خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية من منظور مختلف ، سبق ذكره ، ص٨٨

(٢٢) خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، سبق ذكره،ص٤٢

(٢٣) لوريمر : دليل الخليج . القسم الجغرافي . الجزء ، سبق ذكره ص٨٥١

(٢٤) الدستور العثماني الجزء الثاني ، ص٣٤٩ ، ٣٥١

(٢٥) عباس العزاوي - تاريخ النقود العراقية ، مرجع سابق ، ص١٥٩ ، ١٦٠

(٢٦) المرجع السابق ، ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٧) ف . ص . فيدال ، واحة الإحساء ، ترجمة د. عبد الله ناصر السبيعي ، مطابع الجمعة - الرياض طبعة أولى ١٩٩١ ص٢١٨

(٢٨) انظر العزاوي ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٥ انظر الملحق صورة سند حدد فيه المبلغ بالعملة الرسمية ، وثيقة رقم (١) .

(٢٩) مقابلة الشيخ حماد ناصر الحماد . وأيضًا دليل الخليج ، سبق ذكره ، ص٧٥٠ . انظر أيضًا الملاحق وثيقة رقم (٣) .

(٣٠) لقد تم التعامل بالقرش العثماني بصفة محدودة ، انظر وثيقة رقم (٤)

(٣١) يلاحظ في مستندات الواردات الحكومية ترضيح المعادلة للقرش العثماني ويتم التحويل للعملة المقبوضة على السند نفسه ولكن الإجمالي يسجل بالعملة العثمانية . انظر الملاحق وثيقة رقم (١) .

(٣٢) فيدال : واحة الإحساء ، سبق ذكره ، ص٢١٨ ، ٢١٩

(٣٣) المرجع السابق ، ص٢١٩

(٣٤) دليل الخليج سبق ذكره ص٨٤٩ وانظر فيدال ، سبق ذكره ، ص٢١٨

(٣٥) هناك ذراع المطيفي ويبلغ طوله ١٩,٧٥ وذراع إحسائي ويبلغ طوله ١٨,٧٥ انش وقد حدد المتعامل بالذراع العثماني والأصبع في بعض التوجيهات الخاصة بالبناء . انظر الدستور ج٢ ، ص٤٤٦ . وأيضًا عبد العزيز الشعيل ، الوجود العثماني في الإحساء ماجستير غير منشورة ، ج . الزقازيق ١٩٨٨ م ، ص١٣١ ، ١٣٢

(٣٦) انظر فيدال ، سبق ذكره ، ص٢١٧

(٣٧) انظر الملاحق وثيقة رقم (١) سند تحصيل واردات سجل بالعملة العثمانية .

(٣٨) علي حيدر ،مذكرات مدحت باشا ، سبق ذكره ، ص١٠٦

(٣٩) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي .

(٤٠) محمد بن عبد الله الإحسائي ، تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، الرياض ، ١٩٨٢م ، ص١٩٠

(٤١) مقابلة الشيخ حماد بن ناصر الحماد .

(٤٢) مقابلة الشيخ مبارك أبو غنوم .

(٤٣) مقابلة الشيخ مبارك أبو غنوم .

(٤٤) مقابلة الشيخ مبارك أبو غنوم .

(٤٥) مقابلة الشيخ حماد ناصر الحماد .

(٤٦) د. خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة ، سبق ذكره ص٣٩

(٤٧) المرجع السابق ص٤٢

(٤٨) المرجع السابق ص٣٦

(٤٩) المرجع السابق ص٣٧

(٥٠) د. خلدون حسن النقيب ، سبق ذكره ص٤٣ - ٤٥

(٥١) تجارة المضاربة هي أشبه بالتجارة المنحولة . وهي أن يدفع شخص ما ، وغالبًا ما يكون تاجرًا رئيسًا إلى تاجر المضاربة مالاً يتجر به على أن يقتسم الربح بعد تسديد رأس المال أو البضاعة .

(٥٢) د. خلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة ، سبق ذكره ، ص٤٢

(٥٣) مقابلة الشيخ عبد العزيز عبد الله السليم .

(٥٤) الدستور ، ج٢ ، سبق ذكره ، ص٢٨١ - ٢٨٣

(٥٥) انظر الملاحق صايغة خاصة بتحديد السقيا دون توثيقها ، وثيقة رقم(٣) .

(٥٦) انظر الفقرة الخاصة بالموزانين في هذا البحث .

(٥٧) انظر الملاحق صورة من المعاملات الخاصة بالبيع تم توثيقها عرفًا، وثيقة رقم (٤).

(٥٨) محمد عرابي الخلة - تاريخ الإحساء السياسي ، الكويت ، دار السلاسل ، ١٩٨٠ م ، ص١٩٩

(٥٩) حمد المغلوث . الشاعرية والعنعنة ، جمع د. فهد حمد أحمد المغلوث ، ط١ ، ١٤٠٦هـ مطابع الفرزدق التجارية الرياض ص٨١ ، ٨٢

(٦٠) محمد عبد الله الإحسائي . تحفة المستفيد ، مرجع سابق ، ص١٩٠

(٦١) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي .

(٦٢) الكستدر أدموف ، ولاية البصرة ، سبق ذكره ص١٢٩ وكذلك مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي .

(٦٣) سليمان الدستاني، عمرة وذكرى، دار الطليعة بيروت، ط١ ، ١٩٧٨م ، ص٢٤٠

(٦٤) الدستور العثماني ، ص١٢٤ انظر بشكل خاص المادة ١ ، ٣

(٦٥) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي . وعبد الله الخنضر مذكرات غير منشورة ص١٢١ ، وانظر الكستدر ادموف ، ولاية البصرة ، سبق ذكره ، ص١٢٩

(٦٦) أمراء وغزاة عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص١٢٦

(٦٧) مذكرات عبد الله الخنضر ولاية الأتراك الثانية ، ص٤ ، ٥

(٦٨) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي ، وانظر أيضًا امراء وغزاة ، عبد العزيز عبد الغني . سبق ذكره ، ص١٢٧

(٦٩) مذكرات عبد الله الخنضر ، ولاية الأتراك الثانية ، القسم الثاني ، ص١

(٧٠) مقابلة الشيخ عبد العزيز عبد الله السليم .

(٧١) مقابلة الشيخ حماد ناصر الحماد .

(٧٢) مقابلة الشيخ عبد العزيز عبد الله السليم ولوريمر دليل الخليج ، ج٢ ، سبق ذكره ، ص٨٢١

(٧٣) لوريمر دليل الخليج، ج٢،القسم الجغرافي،ص٨٢١، ومقابلة الشيخ مبارك أبو غنوم.

(٧٤) محمد بن عبد الله الإحسائي تحفة المستفيد ، سبق كتفره . ص١٨٩ . وأيضًا حمد المغلوث ، الشاعرية والعنعنة جمع د. فهد ذكره ، ص٨٦ ، ٨٧

(٧٥) تحفة المستفيد . سبق ذكره ، ص١٨٩

(٧٧) محمد عبد الله الإحسائي ، تحفة المستفيد . سبق ذكره ، ص١٩٠ - ١٩١

(٧٨) عبد العزيز عبد الغني ، أمراء وغزاة ، سبق ذكره ص١٣٠

(٧٩) عبد الرحيم عبد الرحمن . النظم الإدارية العثمانية في البلدان العربية ، دارة الملك عبد العزيز السنة التاسعة العدد الأول ، يوليو ١٩٨٣م ، ص١١٢ ، ١١٣

(٨٠) كما أدرك السكان أن النظام الإداري قد انتبس من الفرس والروم والسلاجقة فهو تشكيل عبر مفاهيمهم معقد المتصنيفات والتدرج الهرمي في كل سلطة . وكان الوالي في رأس قمة الهرم الإداري بالنسبة للولاية ويجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . انظر زين نور الدين زين ، نشوء القومية ، دار النهار للنشر - بيروت لبنان ، ط٤ ، ١٩٨٦ م ، ص٣٧

(٨١) ربما يعود ذلك إلى كثرة الرسوم التي تفرض للقاضي بموجب الأنظمة العثمانية فهناك رسم القسمة على مال المتوفى ورسم للمتحولات وقد تحايل القضاة في زيادة هذه

الرسوم مثل رسم التكساح ورسم الحصة وغيرها من الرسوم . انظر تاريخ العراق الإداري والاقتصادي ، ص٢٤٠ - ٢٤٤

ولذا كان من أهل الإحساء وأصحاب الرأي من يقوم بأعمال القضاة وهم غير رسميين ويرجع إليهم أكثر أهل البلاد في حل قضاياهم والتوقيع على معاملاتهم " الصكوك " فمن البلدة كبعض آل ملا في الكويت وآل مبارك في الزفرة والصالحية وآل عمير في التعاشل وآل عبد القادر في المبرز ومن علماء الشيعة والشيخ موسى أبو حمسين وهو مرجع الشيعة وكذلك ابن عيشان في الهفوف . انظر ولاية الأتراك الثانية ص٣

(٨٢) انظر الملاحق صورة مبايعة تم توقيعها بعد تسجيلها ، وثيقة رقم (٢) .

(٨٣) وثيقة وجاء فيها : المعروض إلى حضرة صاحب الفضيلة نائب لواء نجد المشرفي على بن موسى الشايع بنفسه لنفسه من الرجل السيد هاشم بن السيد أحمد بوكالته عن الرجل عبد الله آل عبد العظيم وذلك للبيع جميع وجملة النصف الشائع من عامة البيت الكائن موقعه في فريق الرفاعة تابع الرفعة المحدودة قبلة بيت حريد وشمالاً بيت بنات أحمد آل علي وشرقاً ملك المشترى وجنوبًا بيت عبد العزيز آل صفية وثمن المذكور أربعين ريال قبضها البايع من يد المشترى في مجلس البيع وشهود الوكالة عبد الله آل عويل وحسن بن مسلم وقد حررنا هذا للعلم واختير ، جمادى أولاً سنة ١٣١٨هـ ختم ختم طابع .

(٨٤) مقابلة الشيخ عبد العزيز السليم .

(٨٥) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي .

(٨٦) يأتي منصبه للمفتي بعد منصب القاضي ويتولى النيابة عن القاضي في بعض الأحيان ولم يكن يتناول راتبًا معينًا من الدولة ويعين لمدة طويلة وأحيانًا يكون المنصب وراثيًا ، انظر تاريخ العراق الإداري ، والاقتصادي في العهد العثماني الثاني . رسالة ماجستير ، ج بغداد ، غير منشورة ١٩٧٥ م ، ص٢٧٩ ، ٢٨٠

(٨٧) عبد الله الخضير ، انظر ولاية الأتراك الثانية ، الجزء الثاني - سبق ذكره ، ص٣

(٨٨) لقد برز دور الأعيان في الولايات العثمانية من خلال أسلوب الحكم الذي هيأ لهذه الطبقة فرصة لأخذ مكانتهم في التشكيل الإداري وذلك من منطلق رغبة الدولة في إعطاء الأهالي فرصة المشاركة في الحكم كما أن الدولة قد استعانت بالأعيان عندما اقتضت منهم أثناء أزمة الحروب مع روسيا وقد أصدرت الدولة نظامًا خاصًا بالأعيان عن طريق منحهم وثيقة

الأعيانية ومبلغ من المال وهم يتكونون من ضمن أعضاء المجلس الاستشاري للولاية . انظر تاريخ العراق الإداري ، سبق ذكره ، ص ١٢٢ - ١٢٦

(٨٩) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي ، سبق ذكره .

(٩٠) لكسندر ادموف ، سبق ذكره ، ولاية البصرة ، ص٩١

* سيقتصر عرضنا لقانون أو نظام المدارس الرشيدية أو المدارس الصيانية ، وذلك لعدم ذكر المصادر لغير هذين النوعين من المدارس في الإحساء فقد نص الدستور في نظام المعارف العمومية في مواده من الأولى إلى المادة الثانية والثلاثين على قوانين التعليم العام . أما ما يخص تفاصيل وأنظمة التعليم العام والخاص فيمكن الرجوع للدستور ، المجلد الثاني ، ترجمة نوفل أفندي نعمة الله نوفل ص١٥٦ ، ٢٦٠

(٩١) لقد نص نظام المعارف على شرط الحصول على رخصة خاصة من إدارة المعارف للولاية وأن تكون شهادة المعلمين مصدقة من إدارة المعارف وعرض حداول المدارس والكتب على إدارة المعارف ، وهذا لم يتم تطبيقه في الإحساء . انظر الدستور ، ج٢ ، ص٢٥٧

(٩٢) عبد الفتاح أبو علية ، الدولة السعودية الثانية ، مكتبة الأنوار ، ط١ الرياض ، ص٢٧٠

(٩٣) الدستور ج٢ ، سبق ذكره ، ص٤٣٣ ، ٤٣٨

(٩٤) الدستور ج٢ ، سبق ذكره ، ص٤٣١ ، ٤٥٦

(٩٥) بالإمكان الرجوع إلى المواد التنظيمية لجميع الأعمال البلدية في الولايات في الدستور الجزء الثاني من ص ٤٥٧ - ٤٩٠

(٩٦) عبد الله الخضير ولاية الأتراك الثانية ، سبق ذكره ، القسم الأول ، ص٤

(٩٧) مقابلة الشيخ مبارك أبو خنوم والشيخ حماد ناصر الحماد .

(٩٨) مقابلة الشيخ حماد بن ناصر الحماد وانظر أيضًا الملاحق تحديد الطرق والحدود حسب العرف ، وثيقة رقم (٥)

(٩٩) خليل علي مراد تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ، سبق ذكره ، من ٢٨٢ - ٢٨٥

(١٠٠) مقابلة الشيخ عبد اللطيف بودي .

المراجع

١ - أحمد علي حيدر / مذكرات مدحت باشا : تبصرة وعبرت . استانبول: باب علي جادة سنده هلال ، مطبعة سي ، ١٣٢٥ هـ .

٢ - ج . ج . لوريمر / دليل الخليج : القسم الجغرافي ، الجزء الثاني - طبعة جديدة - الدوحة ، قطر .

٣ - حسين محمد الفهراني / دور البصرة التجاري في الخليج العربي - البصرة : جامعة البصرة ، مركز دراسات الخليج العربي ، ١٩٨٠م

٤ - حميد المغلوث / الشاعرية والعذوبة ، جمعه ورتبه د. فهد أحمد المغلوث - ط ١ . الرياض : هـ ، ١٩٩٦م .

٥ - حميد أحمد حمدان التميمي / دراسة في تطور الأوضاع السياسية في البصرة ١٩٠٨ - ١٩١٤م - البصرة : جامعة البصرة ، ١٩٩٠م.

٦ - د. خلدون حسين النقيب / المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية ، من منظور مختلف-ط١-بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية.

٧ - خليل علي مراد / تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني١٦٤٨ - ١٧٥٠م ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، ١٩٧٠م .

٨ - الدستور العثماني : المجلد الثاني ، ترجمة نوفل أفندي نعمة الله نوفل ، مراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري .

٩ - ساطع الحصري / البلاد العربية السعودية، ط٣ .بيروت : دار العلم للملايين.

١٠ - الصراع بين السياسيين والبريطانيين حول شبه الجزيرة العربية .

١١ - عباس العزاوي / تاريخ النقود العراقية : لما بعد العهود العباسية : من سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م إلى سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م . - بغداد : شركة التجارة والطباعة ، ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨م .

١٢ - د. عبد الرحمن المسيبيت (وآخرون) / من وثائقنا الوطنية - الرياض : المهرجان الوطني للتراث والثقافة ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

١٣ - د. عبد العزيز الشعيل / الوجود العثماني في الإحساء ، رسالة ماجستير غير منشورة .

١٤ - عبد العزيز عبد الغني إبراهيم / أمراء وغزالة: قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج : دراسة وثائقية .- ط٢ .- بيروت : دار الساقي ، ١٩٩١م.

١٥ - د. عبد الفتاح حسن أبو علية/الدولة السعودية الثانية ١٢٥٦-١٣٠٩هـ ، ١٨٤٠ - ١٨٩١ م. ط٣ - الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م.

١٦ - د. عبد اللطيف محمد الحميد / سقوط الدولة العثمانية : دارسة تاريخية في العوامل والأسباب-ط١- الرياض : مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ ،١٩٩٦ م.

١٧ - عبد الله الخضير / ولاية الأتراك الثانية للإحساء : مذكرات غير منشورة .

١٨ - العديد من المقابلات مع عدد من كبار السن في الإحساء .

١٩ - ف . ش . فيدال / واحة الإحساء ؛ ترجمة د. عبد الله ناصر السبيعي .- ط١ - الرياض : المؤلف ، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

٢٠ - الكسندر ادموف / ولاية البصرة : حاضرها وماضيها ، الجزء الأول ؛ ترجمة هاشم صالح التكريتي .ط١ - البصرة : مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢م .

٢١ - محمد عبد الله الإحسائي/ تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء من القديم والجديد، ط٢. الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

شخصيات تمت معها المقابلات

الشيخ حماد الحماد

الشيخ عبد اللطيف عثمان بودي

الشيخ مبارك أبو غنوم

الشيخ خليفة عبد الله اللحم

الشيخ عبد العزيز عبد الله السليم

الانسحاب البريطانى
ومشكلات الأمن الإقليمى فى الخليج

أ.د. جمال زكريا قاسم*

ارتكز النفوذ البريطانى فى الخليج منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر على أساس أنه يشكل خطًا دفاعيًا وطريقًا حيويًا للمواصلات البريطانية إلى الهند ، ومن ثم حرصت بريطانيا على تحقيق ما اسمته بالسلام البريطانى Pax Britannica وهو السلام الذى كان قطعًا يخدم مصالحها الاستعمارية .

وبينما كان من المتوقع بعد استقلال الهند والباكستان فى عام ١٩٤٧ أن يتضاءل اهتمام بريطانيا بالاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الخليج إلا أن التطورات الاستراتيجية والاقتصادية التى شهدتها المنطقة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية أضفت عليها قدرًا كبيرًا من الأهمية مما زاد بريطانيا تشبثًا بالبقاء فيها[1] وإن كان عليها مواجهة العديد من التحديات التى كان من أبرزها نمو الوعى المحلى وانسياب تيار المد العربى فضلاً عن التطورات التى أدت إلى انهيار مركز بريطانيا فى الشرق الأوسط وخاصة بعد جلائها عن قاعدة قناة السويس فى عام ١٩٥٤ وفشل العدوان الثلاثى على مصر . وكلها أمور أثرت على وضعية بريطانيا فى الخليج . ولم يستطع وجودها العسكرى التقليدى فى المنطقة أن يقف رادعًا لقمع الاضطرابات والأحداث التى شهدتها خلال حقبتى الخمسينات والستينات .

وبالإضافة إلى التطورات التى شهدتها المنطقة والتى كان لها أثر فى إضعاف الوجود البريطانى ، كانت هناك عوامل خاصة ببريطانيا ذاتها دفعتها إلى التخلى عن التزاماتها العسكرية والدفاعية . ومن بين تلك العوامل تردى أوضاعها الاقتصادية، وتخفيض قيمة الجنيه الاسترلينى ، ومعارضة الرأى العام البريطانى فى

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب – جامعة عين شمس .

أن تستمر حكومته متحملة عبء الدفاع عن مصالح نفطية أصبحت غير قاصرة على بريطانيا وحدها[٢] . ومن ناحية أخرى كانت شركات النفط العاملة في المنطقة أقل اهتمامًا بالوجود العسكري البريطاني بعد أن أصبحت تبني علاقاتها بالمنطقة على عقود امتيازاتها بحيث غدا تعديل تلك العقود وتحسين أوضاع العمال هو الضمان الحقيقي للاستقرار بدلاً من الوجود العسكري البريطاني الذي يثير ثائرة الرأي العام العربي والمحلي[٣] . والأهم من ذلك أن تطور الأسلحة القتالية وإمكانية إقامة قواعد متحركة تنطلق منها الصواريخ بعيدة المدى أو حاملات الطائرات قضت على وسائل الدفاع التقليدية ، وذلك في حالة قيام مواجهة بين المعسكرين الكبيرين ، وبذلك تحولت منطقة الخليج من الاستراتيجية المحدودة إلى الاستراتيجية العالمية ، أو فيما تعرف اصطلاحًا بـ Global Strategy التي أتاحت للولايات المتحدة الأمريكية أن تكون عنصرًا فاعلاً فيها[٤] .

وقد أدت تكل العوامل التي أشرنا إليها بحكومة العمال البريطانية برئاسة هارولد ويلسن إلى أن تعلن في السادس عشر من يناير ١٩٦٨ عزمها على الانسحاب من الخليج ، وحددت نهاية عام ١٩٧١ ليكون موعدًا نهائيًا لإنهاء الوجود العسكري البريطاني بما يترتب على ذلك من تخلي الحكومة البريطانية عن جميع التزاماتها الدفاعية في المنطقة[٥] .

ومن المثير للانتباه أن قرار الانسحاب البريطاني لم يجد ترحيبًا لدى كثير من الدوائر الغربية والإقليمية والمحلية ، حتى في بريطانيا نفسها عارض كثير من السياسيين قرار الانسحاب ، وخاصة أن المبلغ الذي خصصته الحكومة البريطانية للإنفاق على وجودها العسكري في المنطقة – وهو لا يتعدى خمسة عشر مليونًا من الجنيهات – كان يعد مبلغًا زهيدًا بالقياس إلى المنافع المادية التي تستحوذ عليها بريطانيا من نفط الخليج ، ويمكن اعتباره تأمينًا لمنطقة نفوذ الاسترليني التي أصبحت دول الخليج العربية تحتل دورًا رئيسيًا فيها .

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت هي المستفيد الأول من الانسحاب البريطاني إلا أنها لم تكن على استعداد آنذاك لكي تمرث الوجود العسكري البريطاني في المنطقة ، مع التسليم بأنه قد ترتب على الانسحاب البريطاني زيادة ملموسة في الوجود الأمريكي ، سواء في المجال الاقتصادي أم العسكري ، وذلك بحصولها على بعض القواعد والتسهيلات من بعض دول المنطقة ومع ذلك لم تحبذ سياسة الانسحاب وأبدت قلقها من السرعة التي اتخذت بها بريطانيا هذا القرار ، وحاولت الضغط على الحكومة البريطانية كي تعدل عن قرارها أو أنها على الأقل سعت لإرجاء تنفيذه ، ودعا الرئيس الأمريكي ليندون جونسون الحكومة البريطانية إلى الإبقاء على بعض قواعدها العسكرية تحسبا للفراغ الذي سيخلفه انسحابها .

ثم إن دول الخليج العربية وخاصة المملكة العربية السعودية أبدت قلقها من القرار البريطاني لأنها كانت تخشى الهيمنة الإيرانية على الخليج . وكانت إمارات الخليج بدورها تخشى على كيانها في حالة تنفيذ بريطانيا قرارها الخاص بالانسحاب نتيجة الإدعاءات الإيرانية ، وخاصة أن إيران كانت تطالب بالسيطرة على جزر الخليج الواقعة على مقربة من مضيق هرمز ممرة ذلك بالحفاظ على أمن الخليج وخشيتها من سيطرة عناصر متطرفة وإمكانية انسياب التيارات اليسارية إلى المنطقة . وكان من الواضح أن إيران اتخذت من تسليمها باستقلال البحرين وحقها في تقرير مصيرها وسيلة للمساومة لوضع يدها على تلك الجزر . وليس سرًا أن بعض إمارات الخليج عرضت على الحكومة البريطانية ضعف ما تتكلفه من نفقات دفاعية مقابل استمرار وجودها العسكري في المنطقة[٦] .

وعلى العكس من ذلك رحبت إيران بقرار الانسحاب البريطاني إذ كانت تنظر إلى الخليج باعتباره بحيرة فارسية ومن ثم اتخذت تعد نفسها لكي تكون هي القوة المهيمنة عليه ، خاصة وأن قرار الانسحاب البريطاني اقترن بضجة سياسية

وإعلامية واسعة النطاق كما سوف يؤدى إليه الانسحاب من حدوث فراغ Vacuum يتعين ملؤه حتى لا تتاح للعناصر المتطرفة المعادية للأنظمة القائمة فرصة التغلغل فى المنطقة[٧] .

وفى خلال السنوات التالية من إعلان سياسة الانسحاب فى يناير ١٩٦٨ وحتى تنفيذ تلك السياسة فى نهاية عام ١٩٧١ اتخذت الحكومة البريطانية بالتنسيق مع الولايات الأمريكية العديد من الإجراءات التى كان من شأنها ضمان حالة الاستقرار فى المنطقة والمحافظة على الأنظمة القائمة بها ، وذلك حتى لا تتعرض منطقة الخليج لنفس النتائج التى ترتبت على انسحاب بريطانيا من الجنوب العربى فى عام ١٩٦٧ والذى اعتبره الكثيرون انسحابا غير ناضج ، لما أدى إليه من عزل السلاطين وإقامة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية باتجاهاتها اليسارية[٨] .

ويمكننا رصد أهم الأحداث التى شهدتها تلك السنوات القليلة على النحو التالى:

أولاً : وصول حكام أكثر استنارة إلى مقاليد السلطة وقيامهم بدفع حركة التنمية والتحديث لكى تفقد العناصر الراديكالية السند الذى كانت تعتمد عليه[٩].

ثانيًا : تخلى إيران عن إدعاءاتها الإقليمية على البحرين والتسليم باستقلالها وإن كانت قد حصلت فى مقابل ذلك على جزر الخليج الثلاث أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى[١٠] .

ثالثًا : قيام دولة الإمارات العربية المتحدة بهدف القضاء على أوضاع التفكك والتجزئة التى كانت تتميز بها منطقة الساحل الجنوبى للخليج .

رابعًا : التنسيق الأمنى بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . ووضح ذلك فى حلول الولايات المتحدة الأمريكية فى القواعد العسكرية التى أخلتها بريطانيا كما حدث فى قاعدة الجفير فى البحرين ، واقناع بريطانيا باستمرار البقاء فى قواعدها العسكرية فى جزيرة مصيرة وصلالة فى سلطنة

عمان نتيجة استمرار حركات المعارضة اليسارية فى إقليم ظفار . وبعد قمع هذه الحركات حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على أن تحل بدلاً من بريطانيا فى القواعد التى جلت عنها فى عام ١٩٧٧ .

وعلى الرغم من التطورات التى شهدتها المنطقة ، والإجراءات التى اتخذت للتنسيق بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلا أن تلك التطورات والإجراءات لم تكن كافية فى حد ذاتها لملئ الفراغ المترتب على الانسحاب البريطانى ، إذ لم تكن دول الخليج العربية رغم استقلالها وحصول بعض إماراتها على قدر من الوحدة السياسية فى وضع يمكنها من تحمل مسئولية الدفاع الذاتى عن المنطقة . ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية غير مستعدة فى ذلك الوقت لكى تحل مباشرة محل بريطانيا فى تحمل مسئوليات الدفاع ، نظرًا للآثار السيئة التى ترتبت على تورطها فى الحروب الفيتنامية ، فقد وجهت نظرها إلى القوى الإقليمية المحيطة بالخليج ، وأكدت على لسان دافيد روجرز Rogers - وهو أول مبعوث رسمى أو قدته من قبلها إلى المنطقة فى نهاية عام ١٩٧١ - أنها ليست عازمة على سد الفراغ الذى سينشأ نتيجة الانسحاب البريطانى ، ومن ثم فإنها ترحب بتحالف أمنى إقليمى يكون من شأنه المحافظة على الأمن والاستقرار فى المنطقة . وبصدد ذلك طرحت مشروعًا لتحالف إقليمى يتكون من تركيا وإيران وباكستان والمملكة العربية السعودية والكويت . وأكد يوجين روستو Rustow مستشار الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون للأمن القومى بأن هذا التحالف سيكون أساسًا يمكن أن ترتكز عليه تدابير الأمن والاستقرار فى المنطقة[١١] .

غير أن مشروع هذا التحالف الإقليمى أو الإسلامى الذى اقترحته الولايات المتحدة الأمريكية لم يجد استجابة من دول الخليج العربية ، خاصة الكويت والمملكة العربية السعودية اللتان أخذتا تركزان جهودهما على مقاومة فكرة الفراغ . وحتى إذا وجد ذلك الفراغ فإنه يتعين ملؤه من داخل المنطقة وليس من

خارجها . ومن الانصاف أن تنوه بالجهود التى بذلتها الدولتان من أجل التغلب على الصعوبات التى كانت تعترض سير المباحثات الاتحادية بين إمارات الخليج ، إلى جانب المساعى الحميدة التى بذلاها لتخليص البحرين من الادعاءات الإيرانية وحقها فى تقرير مصيرها ، مما مهد لظهورها كدولة عربية مستقلة .

ورغم تلك الجهود التى بذلت إلا أنها لم تكن كافية فى نظر الولايات المتحدة الأمريكية لحماية الأمن فى المنطقة أو بالأحرى لم تكن كافية لحماية مصالحها ، ومن ثم كان يتعين عليها البحث عن وسائل أكثر فعالية تستطيع بواسطتها تأمين مصالحها ومصالح حلفائها فى الخليج . وبصدد ذلك قام مجلس الأمن القومى الأمريكى - الذى كان يرأسه هنرى كيسنجر على عهد الرئيس الأمريكى رتشارد نيكسون فى بداية السبعينيات بوضع مشروع للأمن الخليجى . وكان هذا المشروع يقوم على خيارين :

أولهما : أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بنفس الدور الذى كانت تقوم به بريطانيا قبل انسحابها من الخليج ويقتضى ذلك تدخلها المباشر ونشر قواتها العسكرية لفرض السلام الأمريكى بدلاً من السلام البريطانى .

وثانيهما : الاعتماد على قوة أو عدة قوى إقليمية تكون بمثابة وكيل عنها لتأمين مصالحها فى المنطقة[١١] .

وقد استقر رأى الدوائر الأمريكية المعنية بعد دراسة هذين الخيارين على على استبعاد التدخل العسكرى المباشر ، إذ كانت الولايات المتحدة الأمريكية - كما سبقت الإشارة - لا تزال تعمل على تخليص نفسها من النتائج السيئة التى ترتبت على تورطها فى الحروب الفيتنامية وما عانته فيها من مقاومة مستميتة ، ومن سخط الرأى العام الأمريكى ، ومن ثم رأت الأخذ بالخيار الثانى ، وهو توظيف قوة إقليمية أو مجموعة من القوى لتقوم بالوكالة عنها ، على أن يكون ذلك بدعم منها وباستخدام السلاح الأمريكى .

وقد عرفت هذه السياسة بمبدأ نيكسون Nixon Doctrine ، وهو المبدأ الذى وضح فى الخطاب السنوى الذى ألقاه الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون فى الكونجرس الأمريكى فى ١٨ فبراير ١٩٧٠[١٢] . وعلى الرغم من أن مبدأ نيكسون لم يحدد صراحة الدولة أو الدول التى ستعتمد عليها الولايات المتحدة الأمريكية لحماية مصالحها الحيوية فى الخليج ، إذ اكتفى بالنص على أن أمن الخليج يقوم أساسًا على مسئولية دولة ، وإن الولايات المتحدة الأمريكية ستقتصر على منح أو بيع السلاح اللازم لتلك الدول ، وامدادها بالخبرات الفنية والتدريبات اللازمة ، إلا أنه كان من الواضح أن الولايات المتحدة كانت ترى إمكانية إشتراك كل من المملكة العربية السعودية وإيران فى الحفاظ على الأنظمة القائمة فى منطقة الخليج . أما العراق فقد استبعد بطبيعة الحال لانشغاله بأوضاعه الداخلية واتجاهه إلى توثيق علاقاته مع الأنظمة ذات النزعات الراديكالية للوقوف ضد التطلعات الإيرانية من ناحية وضد المصالح الغربية من ناحية أخرى[١٣] .

وقد حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على إيجاد تقارب بين إيران والمملكة العربية السعودية ، إذ كانت العلاقات السعودية الإيرانية قد وصلت إلى درجة كبيرة من التوتر نتيجة التصريحات الإيرانية التى كثفتها إيران على أثر قرار الإنسحاب البريطانى بأنها أصبحت هى القوة الوحيدة المهيمنة على الخليج .

غير أن الولايات المتحدة لم تلبث أن ركزت على إيران وأصبح واضحًا منذ بداية حقبة السبعينيات أن الإنجليز بشاركهم فى ذلك الأمريكيون أخذوا يكلون لشاه إيران أمر منطقة الخليج ، أو على وجه أكثر تحديدًا حماية المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للدول الغربية . وقبل الشاه أن توكل إليه تلك المهمة التى تحول على أثرها من إمبراطور إلى شرطى لحماية تلك المصالح[١٤] .

وكان من الواضح أن اعتماد الولايات المتحدة الأمريكية على إيران يرتكز على عدة عوامل من بينها :

أولاً : أن إيران بدت هي الجانب الأقوى في الهيمنة السياسية نتيجة لما وصلت إليه من قوة عسكرية .

ثانيًا : أن المملكة العربية السعودية كانت موضع شك من قبل السياسة الأمريكية في أن تقوم بتحويل الأسلحة والمعدات العسكرية التي تقدم إليها إلى دول المواجهة العربية في الصراع العربي الإسرائيلي .

ثالثًا : إن موقع إيران على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي يعطي المبرر لتسليحها من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبارها مهددة وبشكل مستمر . والأهم من ذلك كله عدم وجود مشكلات بينها وبين إسرائيل ، وبالتالي فلن تجد الولايات المتحدة معارضة في تسليحها من قبل جماعات الضغط الصهيونية.

لتلك الأسباب جميعها اتجهت الولايات المتحدة إلى إيران ، واستطاعت استغلال طموح الشاه في الهيمنة السياسية والعسكرية ، وتفوق بلاده البشري لكي يملأ الفرغ الناجم عن الإنسحاب البريطاني ، ولتأمين المصالح الغربية ، وعدم بروز العراق كقوة مهيمنة على المنطقة[١٦] .

غير أنه كان من الطبيعي أن تؤدي مساندة الولايات المتحدة الأمريكية لإيران إلى إثارة ثائرة العراق الذي كان يعتبر الخليج مجالاً حيويًا له . ومن ثم بدأ سباق التسلح بين العراق وإيران . وعلى حين اعتمدت إيران على الولايات المتحدة الأمريكية ، اعتمد العراق على الاتحاد السوفيتي وخاصة بعد توقيع معاهدة الصداقة والتعاون في عام ١٩٧٢ ، ومن ثم أخذت الحرب الباردة تشق طريقها إلى الخليج[١٧] .

وفي خلال حقبة السبعينيات أو على وجه أكثر تحديدًا منذ الإنسحاب البريطاني ١٩٧١ حتى قيام الثورة الإيرانية الإسلامية ١٩٧٩ ارتكز مفهوم الأمن الخليجي من منظور السياسة الأمريكية على تأمين موارد النفط ، وإبعاد السوفيت

عن التطلع إلى المنطقة ، ومنع العرب من استخدام النفط كسلاح سياسي أو اقتصادي يؤدي إلى التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية للعالم الغربي .

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية اعتمدت في خلال هذه الفترة على إيران ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى إلغاء الدور الأمريكي المباشر الذي وضح في توثيق علاقاتها الدبلوماسية بدول الخليج العربية حديثة الاستقلال ، وتعزيز مواقعها الاستراتيجية . وكان أن حرصت الولايات المتحدة الأمريكية على تطوير قاعدتها في دايجو جارسيا Diego Garcia ،وخصصت لها ملايين الدولارات لكي تصبح قاعدة متعددة الأغراض ، وحلقة اتصال مركزية في نطاق الاتصالات الدفاعية الأمريكية حول العالم عبر شبكة الأقمار الصناعية . كذلك أصبح لقوة دفاع الشرق الأوسط Mid East Force حق استخدام قاعدة الجفير في البحرين . وأتاحت القواعد الأمريكية في الخليج العربي والجزء الغربي من المحيط الهندي الفرصة للزيارات المتكررة لسفن الأسطول الأمريكي السابع ، وكانت تلك الزيارات تتكثف بصورة خاصة خلال نشوب الأزمات السياسية أو الاقتصادية ، كما حدث ، في حرب أكتوبر ١٩٧٣ واتجاه دول الخليج العربية إلى قطع الامدادات النفطية عن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين . ثم إن الولايات المتحدة عمدت إلى التهديد بالتدخل عسكريًا للسيطرة على منابع النفط . وكان ذلك ردًا على تهديد العرب بقطع موارد النفط ، واستخدام الاتحاد السوفيتي أداة للمساورة خلال الأزمات السياسية بين العرب وإسرائيل . وهكذا أخذت دول الخليج العربية تتحول منذ حقبة السبعينات إلى دول فاعلة في الصراع الإسرائيلي ولم تعد دولاً هامشية في ذلك الصراع كما كانت من قبل .

وعلى الرغم من الدور الأمريكي الذي وضح في الخليج خلال حقبة السبعينات إلا أن تلك الحقبة تميزت مع ذلك باعتماد الولايات المتحدة الأمريكية على إيران لتأمين مصالحها في الخليج . وكان أن أمدتها بترسانة ضخمة من

الأسلحة . وكان مما ساعد على ذلك وجود فوائض مالية في إيران بسبب الثورة السعرية التي طرأت على أسعار النفط خلال أزمة الطاقة العالمية . ومن المعروف أن زيادة حجم التسليح الإيراني أدى إلى إهدار إيران لجانب كبير من ثروتها التي لم يستفد منها سوى كبار الجنرالات عن طريق العمولات التي كانوا يحصلون عليها من صفقات الأسلحة ، وفي الوقت الذي أهملت المشروعات التنموية . وكان ذلك عاملا من العوامل التي أدت إلى زيادة السخط الشعبي بما نجم عنه من تفجير الثورة الإيرانية الإسلامية .

ومن الواضح أن نشوب الثورة الإيرانية الإسلامية والإطاحة بالنظام الشاهنشاهي كان له أثر في سقوط مبدأ نيكسون ، وفي قلب التنظيم الذي وضعته الولايات المتحدة الأمريكية رأسًا على عقب ، إذ إنه حدث على أثر نشوب تلك الثورة أن ساءت العلاقات بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية ، وأعلنت إيران إنسحابها من الحلف المركزي كما ألغت عقود التسليح . وما فتئ المسئولون في النظام الإيراني الجديد على التأكيد بأن إيران لم تعد شرطيًا للخليج كما أراد لها الأمريكيون على عهد النظام الشاهنشاهي السابق[١٨] .

غير أنه على الرغم من التصريحات الأولى التي صدرت عقب قيام الثورة الإيرانية واتجاه قادتها إلى إسقاط نظرية التوسع الإقليمي التي كان ينتهجها نظام الشاه ، إلا أنه لم تكد تمضي بضعة أشهر حتى عادت النزعة التوسعية الإيرانية بتكرار إدعاءاتها على البحرين والتمسك بالسيطرة على جزر الخليج الثلاث التي لم تعدها إيران إلى أصحابها العرب ، بل أعلنت ضمها إلى سيادتها الإقليمية . وهكذا بدا واضحًا أن الاتجاهات التوسعية الإيرانية لم تتبدل بالتغيير الذي حدث في نظامها السياسي ، إذ استمر التوسع الإقليمي في الخليج من الثوابت الرئيسية في السياسة الإيرانية ، وظلت إيران أسيرة تقاليد سياسية سيطرت على إدراك قادتها ، وفي مقدمتها عقدة التوسع على حساب السيادة العربية، في محاولة تحقيق

الهدف التاريخي والاستراتيجي ، وهو جعل الخليج بحيرة فارسية . ذلك على الرغم من اختلاف المصطلحات من الخليج الفارسي على عهد النظام الشاهنشاهي إلى الوحدة الإسلامية بهدف إخفاء المطامع الإيرانية العنصرية[١٩] .

والواقع أن نشوب الثورة الإيرانية بما صاحبها من نزعات توسعية أدى إلى احتدام مشكلة الأمن في الخليج إذ كان من شأن تلك التغيرات الضخمة التي حدثت في إيران تهديد الأنظمة الخليجية القائمة ، وذلك على عكس النظام الشاهنشاهي الذي كان حريصًا على حياة تلك الأنظمة واستقرارها . ويفهم من التصريحات العديدة التي صدرت عن قادة الثورة الإيرانية الإسلامية الاتجاه إلى تصدير الثورة والتناقض بين النظام الثوري الإيراني وبين الأنظمة الخليجية ، بما في ذلك المملكة العربية السعودية .

وهكذا يمكن القول أن الأمن الخليجي أصبح مهددًا في نهاية حقبة السبعينيات نتيجة نمو الاتجاهات السياسية الإسلامية التي حلت بدلاً من التيارات اليسارية . وكان مما ساعد على نمو الحركات الإسلامية أن الأنظمة السياسية في الخليج اعتمدت عليها للوقوف ضد التيارات اليسارية ، ولم تلبث تلك الحركات الإسلامية أن وجدت مساندة من الثورة الإيرانية الإسلامية التي أصبح لها تطلعاتها الواضحة في الخليج .

ومن ناحية أخرى فقد ترتب على نشوب الثورة الإيرانية الإسلامية سقوط مبدأ نيكسون ، فصار لابد للولايات المتحدة الأمريكية من أن تبحث عن بديل للقيام بنفس الدور الذي كان يقوم به الشاه . وحيث أنه لم تكن هناك بدائل متاحة ، أو بمعنى آخر لم تكن هناك قوى إقليمية يمكن الاعتماد عليها ، فإنه أصبح يتعين على الولايات المتحدة الأمريكية الاعتماد على نفسها في الحفاظ على أمن الخليج . ومن ثم تميزت حقبة الثمانينيات بالدور الأمريكي المباشر .

وليس من شك في أن الثورة الإيرانية والتدخل السوفيتي في أفغانستان قدما المبررات الكافية لكي تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بذلك الدور بحجة الحفاظ

على أمن الخليج . وفى ضوء تلك التصريحات أوضح الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى رسالته السنوية إلى الكونجرس الأمريكى فى ١٨ يناير ١٩٨٠ ارتباط أمن الخليج بالأمن القومى الأمريكى ، وأكد أن أية محاولة تقوم بها أية قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج سوف ينظر إليها باعتبارها انتهاكًا للمصالح الحيوية للولايات المتحدة ، ومثل ذلك الانتهاك سوف يقاوم بكل الوسائل اللازمة بما فى ذلك استخدام القوة العسكرية[٢٠] .

وقد عرف هذا التصريح بمبدأ كارتر Carter Doctrine الذى حل كما هو واضح بدلاً من مبدأ نيكسون ولكنه اختلف عنه بالتدخل الأمريكى المباشر إذا حدث تهديد لأمن الخليج . وتنفيذًا عمليًا لمبدأ كارتر أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية فى مارس ١٩٨٠ تشكيل ما عرف بقوة الانتشار السريع Rapid Deployment Force التى تكونت من مائة ألف مقاتل ثم تضاعف عددها بعد ذلك ووضعت تحت إشراف القيادة المركزية الأمريكية Centeral Command ، وحددت مهامها التى كانت تقضى بالتدخل العسكرى فى منطقة الخليج – أو فى المناطق المجاورة لها – إذا ما استدعت الضرورة ذلك .ولعل مما يلفت الانتباه أن هذه القوة كانت مدربة بصفة خاصة على حرب الصحراء ، مما أدى ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن تشكيل تلك القوة كان بمثابة إعداد بعيد المدى للتدخل العسكرى الأمريكى خلال أزمة الخليج ، أو بمعنى آخر أنه قد أعد لعملية عاصفة الصحراء قبل عشر سنوات من وقوعها . وبدا واضحًا أن تشكيل تلك القوة كان لمواجهة الأخطار الإقليمية أو الاضطرابات المحلية أكثر من كونها قد أنشئت لمواجهة التدخل السوفيتى فى أفغانستان[٢١] .

والواقع أن تركيز التوتر الأمريكية على خطر الوجود السوفيتى فى أفغانستان كان يحمل طابع المغالاة إلى حد كبير ، ولم يكن إلا محاولة متعمدة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية لترويع الأنظمة الخليجية بالخطر الذى يمكن أن

يتهددها . ويؤكد كثير من المحللين أنه ليس صحيحًا أن يكون التدخل السوفيتى فى أفغانستان قد استهدف وصول السوفيت للبحار الدافئة أو السيطرة على مضيق هرمز بحكم طول المسافة بين الحدود الجنوبية لأفغانستان ومضيق هرمز، أو أن يكون السوفيت يتطلعون إلى نفط الخليج[٢٢] .

وعلى الرغم مما وجه للاتحاد السوفيتى من انتقادات شديدة وصلت إلى حد العداء بسبب تدخله فى أفغانستان ، إلا أنه خرج مع ذلك بنصيب أفضل من نصيب الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك بصرف النظر عن عدم استجابة دول الخليج العربية للمبادئ التى دعا إليها بريجنيف فى ديسمبر ١٩٨٠ والتى كانت تقوم على عدة مرتكزات ، كان من أبرزها الدعوة إلى تحريم إقامة قواعد أجنبية ، واحترام وضعية دول الخليج وحقوقها فى مصادر ثرواتها ، والتأكيد على حرية الملاحة ، إذا فسرت تلك المبادئ باعتبارها تحركا سوفيتيا مضادًا للمبادئ التى طرحها الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى يناير من العام نفسه .

والواقع أن التحولات التى حدثت فى منطقة الخليج فى نهاية حقبة السبعينيات وبداية حقبة الثمانينيات أثرت تأثيرًا شديدًا على الأوضاع الأمنية فى منطقة الخليج ، فاختلف مفهوم الأمن طبقًا للمصالح الخاصة بالمعسكرين المتنافسين وعلى عكس ما كان متوقعًا لم تؤد الثورة الإيرانية الإسلامية إلى تحقيق تقدم ملموس لأى من المعسكرين إذ وقفت الثورة الإيرانية موقفًا عدائيًا من الطرفين . فبالنسبة للاتحاد السوفيتى بدأت الثورة حياتها بحظر حزب تودة الشيوعى وإعدام قادته بعد اتهامهم بالجاسوسية ، كما قامت بطرد الدبلوماسيين السوفيت ، فى الوقت الذى بات الاتحاد السوفيتى يخشى امتداد الثورة إلى المسلمين الذين يشكلون أغلبية فى كثير من جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية . وعلى الرغم من أن قادة النظام الإسلامى اتخذوا موقفًا مضادًا للاتحاد السوفيتى إلا أن موقف الثورة العدائى تجاه الولايات المتحدة الأمريكية وإطاحتها بالنظام الشاهنشاهى الذى كان معروفًا

بتحالفه مع الغرب كان يعد في حد ذاته كسبا للجانب السوفيتي . هذا بالإضافة إلى ما ترتب على نشوب الثورة الإيرانية من تدهور ملحوظ في العلاقات الأمريكية الإيرانية[٢٦] .

وكان مما يقوى وضع الاتحاد السوفيتي السياسة المتخاذلة التي اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي ، وانحيازها الواضح إلى إسرائيل ؛ وبالتالي فإنه طالما استمر موقف واشنطن يعترض الأهداف العربية الملحة فإن ذلك كان يترك المجال مفتوحًا للاتحاد السوفيتي لكي يكون في وضع سياسي أفضل . وعلى الرغم مما وجه للاتحاد السوفيتي من انتقادات شديدة، وصلت إلى حد العداء ، بسبب تدخله في أفغانستان ، إلا أنه خرج مع ذلك بنصيب أفضل من نصيب من الولايات المتحدة . غير أن الولايات المتحدة استطاعت مع ذلك الابقاء على مضيق هرمز مفتوحًا للملاحة الدولية ، واستفادت من نشوب الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠ - ١٩٨٨ في تعزيز مواقعها الدفاعية في الخليج . وبتطور أحداث الحرب أصبحت كل من العراق وإيران في حاجة إلى المعسكرين الشرقي والغربي وخاصة من حيث امدادها بالسلاح .

كان واضحًا خلال حقبتي السبعينيات والثمانينيات أن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على تأمين مصالحها ومصالح حلفائها في منطقة الخليج ، وهي المصالح التي كان النفط يأتي في مقدمتها . وقد وصل الأمر إلى الدرجة التي هددت فيها الولايات المتحدة أكثر من مرة باحتلال آبار النفط . ولتلك الأسباب المرتبطة بالنفط أصبح أمن الخليج يأتي في مقدمة الأولويات الأمريكية حتى وصل إلى الدرجة التي اعتبرته الولايات المتحدة يشكل جزءًا من أمنها القومي الذي لن يتحقق بحصولها على ما تحتاج إليه من موارد الطاقة النفطية فحسب ، وإنما في استغلال الموارد النفطية لدعم النظام النقدي العالمي ، وتحقيق الانتعاش الاقتصادي في الدول الصناعية الغربية ، فضلاً عن المنح والقروض التي تقدمها دول الخليج

النفطية إلى دول العالم الثالث مما يخفف الأعباء التي تتحملها الولايات المتحدة ، خاصة وأن تلك المنح والمساعدات كانت تتجه إلى الدول ذات الأنظمة المعتدلة[٢٤] .

ولعل ذلك كان مما جعل الولايات المتحدة تحرص على تحقيق أكبر قدر مما يمكن تسميته بالتوازن النفطي . واستغلت في تحقيق ذلك التوازن التناقضات السياسية في دول المنطقة ، فعندما اتجهت إيران على عهد حكومة الدكتور مصدق إلى تأميم شركة النفط الأنجلو إيرانية ، تم تعويض التوقف في الإنتاج الإيراني بزيادة الإنتاج في المملكة العربية السعودية والكويت . وقد بلغ الإنتاج النفطي في الكويت خلال وقوع الأزمة الإيرانية حدًا كاد يهدد بتدمير حقل البرقان الذي يعد من أكبر حقول النفط العالمية . وحين فرض العرب الحظر البترولي على الولايات المتحدة الأمريكية والدول المؤيدة لإسرائيل خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، زادت إيران من إنتاج نفطها لتعويض النقص في السوق العالمية ، ولكي تستفيد في الوقت نفسه من الثورة السعرية التي حدثت نتيجة أزمة الطاقة العالمية والتي ارتفع ثمن البرميل الواحد من النفط الخام ليتخطى حاجز الأربعين دولارًا[٢٥] .

وعندما أدت الاضطرابات الثورية الإيرانية إلى توقف تصدير النفط ، عوضت الكويت والمملكة العربية السعودية[٢٦] ذلك النقص حتى وصل الأمر إلى ما عرف بالتخمة النفطية Oil Surfeit . وتكررت تلك الظاهرة خلال الحرب العراقية الإيرانية حيث زادت دول الخليج العربية من انتاجها النفطي مما سوف يثير مشكلات حادة عقب نهاية الحرب بين العراق ودول الخليج خاصة الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة .

وقد ترتب على زيادة الإنتاج النفطي انهيار أسعار النفط حتى وصل سعر البرميل من النفط الخام إلى أقل من خمسة عشر دولارًا في بداية عام ١٨٩٦[٢٧] ويمكن القول أنه إذا كانت المقاطعة العربية النفطية في ١٩٧٣ / ١٩٧٤ اعتبرت

بداية للثورة السعرية فإن عام ١٩٨٢ كان يمثل اتجاه الأسعار النفطية إلى الانهيار ، حتى أصبح دخل دول الخليج العربية أقل من تكاليف الانفاق على الخدمات العامة أو البنية الأساسية . وبدأت ظاهرة التمويل بالعجز تظهر وتتسع ، واضطرت دول الخليج العربية إلى السحب من فوائضها واحتياطاتها المالية ، حتى أصبحت مهددة بألا تستمر كما كانت تمثل مجتمعات رفاهية . وقد حدث ذلك بالفعل حين بدأت تلك الدول تفرض رسومًا على الخدمات الاجتماعية التي كانت تؤديها بلا مقابل سواء لمواطنيها أو حتى للمقيمين فيها[٢٨] .

وفي مواجهة التصريحات المتضاربة عن أمن الخليج بالنسبة للمعسكرين المتصارعين ظهرت ردود فعل خليجية وعربية تركز على أن أمن الخليج يخص شعوبه ، وإن ما تردده الولايات المتحدة الأمريكية من أن نفط الخليج يشكل أهمية حيوية واستراتيجية للأمن القومي الأمريكي هو من قبيل التصريحات الخاطئة، لأن نفط الخليج ملك لدوله وشعوبه . كذلك ركزت دول المواجهة العربية مع إسرائيل على أن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من الأمن القومي العربي . ومع أن دول الخليج العربية كانت تركز مفهومها للأمن على حماية أنظمتها السياسية ، إلا أنها اختلفت فيما بينها في كيفية تحقيق ذلك الأمن . فبينما كانت قطر ترى أن أمن الخليج لن يتحقق إلا بتسوية مشكلات الحدود أو اصلاح البيت من الداخل على نحو ما صرحت به ، إذا بكل من الكويت والمملكة العربية السعودية تربط بين أمن الخليج وايجاد تسوية شاملة وعادلة للصراع العربي الإسرائيلي . ومن ثم كانت مبادرة الملك فهد في عام ١٩٨٢ بتسوية ذلك الصراع . غير أن نظرة الدولتين اختلفت فيما يتعلق بالوجود السوفيتي في أفغانستان ، فبينما اعتبرته المملكة العربية السعودية يشكل تهديدًا لأمن الخليج كانت الكويت ترى أن الأحداث التي وقعت في أفغانستان ليست لها أدنى صلة بأمن الخليج وأن تركيز الولايات المتحدة الأمريكية على تدعيم قواعدها العسكرية في الخليج والمحيط الهندي ليس له من هدف سوى الضغط على دول الخليج حتى لا تتحكم في موارد نفطها .

وبصرف النظر عن كل تلك الاعتبارات إلا أنه كان واضحًا أن دول الخليج العربية كانت ترى أن الأخطار الحقيقية التي تهددها إنما تأتي من الدول الإقليمية المجاورة لها . ومنذ بداية حقبة الثمانينات لاحت الفرصة لدول الخليج كي تعتمد على قدراتها الذاتية في حماية أمنها . وظهر ذلك واضحًا عقب نشوب الحرب العراقية الإيرانية التي تركت آثارًا سلبية على سلوك كل من العراق وإيران ، واسهمت بقدر كبير في عزلتها ، ومن ثم أخذ يتقلب النفوذ السياسي لدول الخليج العربية طوال سنوات الحرب العراقية الإيرانية على الساحة الخليجية . ولعل أبرز ما تحقق في هذا الصدد تلك المبادرة التي قامت بها الكويت والمملكة العربية السعودية في التنسيق مع دول الخليج العربية الأخرى ، وأسفرت عن تأسيس مجلس التعاون لدول الخليج الذي أعلن عن تأسيسه في مايو ١٩٨١[٢٩] .

وعلى الرغم مما جاء في النظام الأساسي لهذا المجلس من حرص الدول المؤسسة له في التأكيد على ما يجمع بينها من سمات متطابقة ورغبتها في ترفيع العلاقات القائمة فيما بينها على مستوى ثابت ، فإن هناك دوافع أخرى أدت إلى تأسيسه ، لعل من أهمها حماية الأنظمة السياسية في دول الخليج العربية ضد الحركات التي بدأت تجتاح المنطقة نتيجة نشوب الثورة الإيرانية ، وخاصة بعد أن تعرضت المملكة العربية السعودية لحادثة الحرم المكي في سبتمبر ١٩٧٩ ، كما تعرضت بعض دول الخليج العربية – خاصة الكويت والبحرين – لاضطرابات داخلية اتهمت إيران بتدبيرها . بل إن المملكة العربية السعودية وجهت اتهامها صراحة إلى إيران ، بأن ما تقوم به من احلال بأمن المنطقة يعد خرقًا صريحًا للإسلام . وصدرت تصريحات رسمية من بعض دول الخليج العربية بأن قادة النظام الإيراني رغم إعلانهم بعد خلع الشاه أن إيران لم تعد بمثابة شرطي للخليج إلا أنهم أصبحوا ارهابيين في الخليج .

والأمر الذي لا شك فيه أن الثورة الإيرانية كان لها أثر في دفع مسيرة المجتمع الخليجي ، حيث استمرت إيران في سياستها التوسعية في الخليج ، متخذة

بعدا قوميًا وإقليميًا ، تحت غطاء إسلامي . يضاف إلى ذلك نشوب الحرب العراقية الإيرانية ، وما ترتب عليها من تزايد المخاوف لدى دول الخليج العربية من احتمالات تعرضها لمخاطر أمنية بسبب محاورتها لمسرح العمليات العسكرية أو امتداد الحرب إلى أراضيها أو مياهها الإقليمية . ومن ثم كان لابد من التنسيق بين دول الخليج العربية لاعتبارات أمنية من ناحية ، وتحسبا لانتصار أى من القوتين وانعكاس ذلك على أوضاعها من ناحية ثانية ، حيث يتيح لها المجتمع القدرة على التعامل مع القوة المنتصرة من موقع القدية ، وعدم إتاحة الفرصة لأى من القوتين المتصارعتين – العراق وإيران – القيام بدور الهيمنة السياسية أو العسكرية ، خاصة وأن العراق يتحدد من النظام البعثى أيديولوجية له ، وإيران تطرح الأيديولوجية الثورية الإسلامية . وكلاهما يهدد الأنظمة السياسية المعتدلة فى الخليج[٣٠] .

وعلى الرغم من الاعتبارات الأمنية التى كانت دافعًا لتأسيس مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، إلا أن النظام الأساسى للمجلس لم يتطرق إلى الأوضاع الأمنية أو العسكرية ، أو إلى ميثاق أمن جماعى لما قد تفسره إيران بأنه بمثابة تحالف عربى خليجى موجه ضدها . ولعل صيغة " التعاون " كانت هى الصيغة المعتدلة التى أتاحت فرصة أكبر للقاء بين الدول العربية فى الخليج . غير أنه من المؤكد أن الأنظمة العربية الخليجية ، وهى أنظمة متماثلة فى أساسياتها قد حرصت على تحقيق استقرارها . ولذلك فإنه على الرغم من جميع الأردية التى ألبست لمجلس التعاون الخليجى لإظهاره بمظهر قومى أو وحدوى أو تعاون إقليمى أو تكامل اقتصادى أو تنموى ، إلا أنه كان يتركز فى التنسيق الأمنى وتوفير الضمانات الضرورية للحيلولة دون قيام حركات أو تنظيمات معارضة للأنظمة الحاكمة . وظهر ذلك واضحًا حين أخذ المجلس يتحول صراحة إلى معالجة الشئون الأمنية . ويمكن تحديد عام ١٩٨٢ بداية لذلك التحول نتيجة لما تكبدته العراق من هزائم أمام إيران ، ونتيجة للاضطرابات الداخلية التى تعرضت لها بعض دول الخليج العربية ، لا سيما الكويت والبحرين . ولذلك اتفق فى قمة البحرين التى انعقدت

فى ذلك العام التنسيق فى الخطط الدفاعية ، وإنشاء شبكة دفاع جوى تغطى المنطقة وتستخدم فيها أحدث وسائل الانذار المبكر ، إلى جانب توحيد الأنظمة العسكرية . على أن الأمر لم يصل إلى تشكيل قوة عسكرية موحدة وإن كان قد استعيض عن ذلك بقوة رمزية خليجية أطلق عليها درع الجزيرة تشارك فيها دول المجلس بنسب متفاوتة . وقد أشير إلى تلك القوة أحيانًا بقوة الانتشار السريع الخليجية على غرار قوة الانتشار السريع الأمريكية . وبعد ذلك بعدة سنوات تشكلت قوة جوية مشتركة باسم صقر الجزيرة فى عام ١٩٨٧[٣١] .

وفى تقديرنا أن الأسباب التى حالت دون توحيد القوات الدفاعية أو دون التوقيع على اتفاقية أمنية شاملة ، ترجع فى الدرجة الأولى إلى الخلافات والمنازعات الحدودية بين دول المجلس ، وخاصة أن المجلس وقف عاجزًا عن احتواء تلك المشكلات ، وذلك على الرغم مما ينص عليه النظام الأساسى من وجود هيئة لتسوية المنازعات بين الدول الأعضاء ، ولكن تلك الهيئة لم تر النور بعد[٣٢] .

وقد استعيض عن الاتفاقية الشاملة باتفاقيات أمنية ثنائية وقعتها المملكة العربية السعودية مع دول الخليج العربية باستثناء الكويت[٣٣] وفضلاً عن ذلك وثقت المملكة العربية السعودية علاقاتها بالبحرين حيث أقيم جسر يسرى Causeway بينها وبين البحرين تم افتتاحه فى نوفمبر ١٩٨٦ (جسر الملك فهد) وعلى الرغم مما يحققه ذلك الجسر من أهداف سياحية واقتصادية إلا أن الضرورات الأمنية كانت من وراء إنشائه ، وخاصة من حيث ربط البحرين بالمملكة العربية السعودية ، وبغيرها من دول المجلس التعاون الخليجى[٣٤] .

ولا يفوتنا أن نشير إلى المحاولات التى بذلتها الدول العربية فى الخليج من خلال مجلس التعاون للحفاظ على التوازن العسكرى بين العراق وإيران ، فى غمار الصراع الذى كان دائرًا فيما بينهما . ومن ثم اتجهت دول المجلس على أثر الانتصارات التى حققتها إيران على العراق فى عام ١٩٨٢ إلى دعم

العراق اقتصاديًا وعسكريًا لتحقيق التوازن الاستراتيجي بين طرفي الصراع ، إذ إن ذلك التوازن كان لمصلحة الأمن الخليجي . ويمكننا أن نعرض في ذلك السياق إلى ما توقعه أحد الباحثين في دراسة له بعنوان " أمن الخليج في الثمانينات " نشرت في عام ١٩٨٤ إذ قال أنه إذا انتصرت إيران فسوف تشكل خطرًا على البحرين وإذا انتصر العراق فسوف يشكل خطرًا على الكويت ، إذ إن هاتين الدولتين الإقليميتين - العراق وإيران - تتطلعان إلى تحقيق مجال حيوي لهما على حساب دول الخليج العربية[٣٥] . وفضلاً عن ذلك كان هناك اعتبار للمهوية القومية العربية للعراق التي كانت تفرض على دول الخليج تقديم دعمها ومساندتها للعراق . ويمكن القول أن الاتجاه العربي أو على الأقل المصالح الذاتية كانت أكثر وضوحًا من الاتجاه الإسلامي المساند لإيران . ومن ناحية أخرى كانت دول الخليج تفضل النظام العلماني في العراق في العراق عن النظام الثيوقراطي في إيران الذي كان لا يمكن التنبؤ باتجاهاته[٣٦] . ومن ثم اعتقد الرأي الجماعي لدول مجلس التعاون الخليجي بأن هزيمة العراق وانتصار إيران تعني خطر الهيمنة الإيرانية ، دون أن تضع في حسابها بأنه أن الأمر نفسه يمكن أن يحدث فيما لو انتصر العراق[٣٧] .

وكان أن أدت الحرب العراقية الإيرانية إلى تعريض أمن الخليج لأضرار عديدة ، من أبرزها التهديدات الإيرانية بإغلاق مضيق هرمز ، فضلاً عن الأخطار التي شهدتها دول المنطقة خاصة الكويت التي اضطرت في عام ١٩٨٧ إلى الاستعانة بأعلام الدول الكبرى ذات العضوية الدائمة في مجلس الأمن لرفعها على ناقلاتها النفطية ، نتيجة لاستمرار الاعتداءات الإيرانية عليها . وقد وافقت إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريجان في مايو ١٩٨٧ على رفع الأعلام الأمريكية على نصف الناقلات الكويتية ، كما استطاعت الكويت أن تحصل على موافقة

الاتحاد السوفيتي وبريطانيا على مثل ذلك بينما اعتذرت الصين واكتفت فرنسا بحرية الوقف .

وكان الهدف الرئيسي من مرفع الأعلام الأجنبية على الناقلات الكويتية محاولة من جانب الكويت لجذب اهتمام العالم بالحرب العراقية الإيرانية لما تشكله من خطر على أوضاعها الأمنية . ويؤكد ذلك أن الناقلات الكويتية التي هوجمت من قبل إيران لم تكن تتجاوز أكثر من ٢٪ من عدد الناقلات الكويتية . ومهما يكن من أمر الانتقادات التي وجهت إلى الكويت لاستخدامها الأعلام الأجنبية إلا أنها استطاعت بتلك الوسيلة أن تكون عاملاً حاسمًا في تدويل الحرب ، بل وفي إيقافها خلال عام واحد من استخدام تلك الأعلام[٣٨] ومن ناحية أخرى تعرضت الكويت نتيجة لذلك إلى ضغوط إيرانية شديدة إذ تعرضت بعض مرافقها الحيوية ومصفاة النفط في الأحمدي لعمليات القصف الجوي الإيراني ، كما اتهمت الكويت بدعوة الأمريكيين بدعوة الأمريكيين للتدخل في الخليج بعد أن نجحت الثورة الإيرانية في إبعادها عن المنطقة بضاف إلى ذلك العراق للكويت - بعد أن توقف الحرب - بأنها أفسحت المجال لتدخل الأمريكي في الخليج ، مما اعتبر مؤامرة إمبريالية من جانب الكويت ؛ في الوقت الذي يؤكد المصادر الكويتية بأن العراق هو الذي أشار على الكويت بأن تلجأ إلى رفع الأعلام الأمريكية[٣٩] .

ولم تكد تنقضي أكثر من سنتين على توقف الحرب العراقية الإيرانية حتى اندفع العراق إلى غزو الكويت . وكان لذلك الغزو نتائج بعيدة المدى من حيث أنه أعطى الولايات المتحدة الأمريكية مبررًا للتدخل العسكري في الخليج لتأمين مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية ، ولاحلال السلام الأمريكي في إطار من الشرعية الدولية . وبينما كانت دول الخليج العربية ترفض قبل الغزو العراقي للكويت إقامة قواعد عسكرية أجنبية أو على الأقل كانت تمنح بعض التسهيلات

البحرية بتكتم شديد ، أصبح التصريح بها علنًا وبدون حساسية . وأكثر من ذلك لم تتردد معظم دول الخليج في عقد معاهدات دفاعية ثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا .

وإثباتًا للحقيقة التاريخية ينبغي أن نؤكد في هذا المقام أنه إذا كانت هناك دوافع للنظام العراقي لغزو الكويت فقد كانت هناك دوافع للولايات المتحدة الأمريكية للتصدي لذلك الغزو ، كما كان للدول الغربية مصالحها أيضًا في تأمين مواردها النفطية ، والاستفادة من الفوائض المالية الكويتية . ويؤكد لنا هذه الحقيقة أن العراق لم يكن هو الدولة الأولى أو الوحيدة التي انتهكت السيادة الإقليمية أو المواثيق الدولية ، فقد حدث انتهاك لها في كثير من الدول في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وعلى مرأى ومسمع من الأمم المتحدة ، ومع ذلك لم تكن هناك ردود فعل قوية على غرار ما حدث بالنسبة للغزو العراقي للكويت . هذا مع الاعتراف في الوقت نفسه بأن ذلك الغزو كان حدثًا غير مسبوق في العلاقات الدولية بصفة عامة وفي العلاقات العربية – العربية بصفة خاصة من حيث أنه عدوان ابتلع دولة بكاملها وحاول إزالتها من الخريطة العالمية[١٠] .

وعلى الرغم مما ترتب على الغزو العراقي للكويت وما تبعه من حرب تحرير الكويت التي أدت إلى تحطيم جزء لا يستهان به من الآلة العسكرية العراقية ، وإتاحة الفرصة للحضور الأمني الغربي في الخليج ، والحد من مخاوف التهديدات الإقليمية، إلا أن عدم وجود ترابط نسبي أدت إلى ظهور عدة اتجاهات فيما يتعلق بالطرق المثلى لتحقيق الأمن الخليجي ، وقد يكون من المفيد تحليل تلك الاتجاهات على النحو التالي :

الاتجاه الأول : وهو الاتجاه الذي أعقب تحرير الكويت والذي ظهر واضحًا في عقد معظم دول الخليج العربية معاهدات دفاعية ثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الغربية . وكانت الكويت بطبيعة الحال أسبق دول الخليج

التي دخلت في نطاق تلك المعاهدات الدفاعية حيث تم التوقيع في واشنطن في ٢٠ سبتمبر ١٩٩١ على معاهدة دفاعية أتاحت للولايات المتحدة الأمريكية تخزين السلاح والمعدات العسكرية وإبقاء بعض خبراتها الفنيين في الكويت ، إلى جانب منح القوات الجوية والبحرية التسهيلات اللازمة ، فضلاً عن إجراء التدريبات والمناورات المشتركة . وقد تلت الكويت في توقيع تلك المعاهدات الدفاعية كل من البحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة[١١] .

وليس هناك من شك في أن الدور الذي دفع الكويت وغيرها من دول الخليج العربية إلى عقد معاهدات دفاعية مع دول الغرب ، إنما يرجع إلى مخاوف تلك الدول من تجدد الأخطار الإقليمية في الوقت الذي أظهر فيه الغزو العراقي للكويت ضعف قدراتها الذاتية وعدم فاعلية النظام العربي . وقد لا تكون الأنظمة الحاكمة وحدها هي التي رغبت في الاعتماد على تلك المعاهدات الدفاعية ، فباستثناء بعض الخاضعين للمشاعر القومية أو الدينية ، قضت مصالح طبقة رجال الأعمال والمواطنين العاديين أن يسيروا في نفس ذلك الاتجاه .

وفي تقديرنا أن السياسة التي اتبعتها دول الخليج العربية هي الاعتماد على المعاهدات الدفاعية وإن كانت تتفق مع مصالحها الآنية إلا أنها لا تصلح على المدى البعيد لأن تكون دعامة ثابتة لتعزيز الأمن الخليجي ، وذلك بحكم التغيرات التي يمكن أن تتعرض لها المنطقة، والتي قد تؤدي إلى تحولات في المصالح الإقليمية أو الدولية.

الاتجاه الثاني : ويقوم هذا الاتجاه على أساس وضع ترتيبات أمنية إقليمية . غير أنه يحول دون هذا الاتجاه اختلاف النظم السياسية والأيديولوجية بين دول المنطقة .

الاتجاه الثالث : يؤكد على استحالة قيام أمن خليجي بمعزل عن الأمن القومي العربي ، وبالتالي فإنه يتعين على دول الخليج العربية أن تتعاون مع الدول العربية الأخرى من خلال آلية عربية يكون بوسعها إيجاد حل للمشكلات الدفاعية

في المنطقة . ومن ثم يميل أصحاب هذا الاتجاه إلى ترجمة ميثاق دمشق إلى صيغة واقعية وتحويله من إطار نظري إلى واقع عملي .

ومما يجدر الإشارة إليه أن هذا الميثاق أعلن على أثر تحرير الكويت ، وفي ختام المؤتمر الذي عقد في دمشق في ٦ مارس ١٩٩١ والذي حضرته دول مجلس التعاون الخليجي ، إضافة إلى مصر وسوريا . وجاء صدور هذا الميثاق نتيجة للموقف الإيجابي الذي اتخذته كل من مصر وسوريا في إدانة الغزو العراقي للكويت ومساهمتها في حرب تحرير الكويت . ومن ثم كان الاتجاه هو أن تستعين دول الخليج العربية بقوات عسكرية من مصر وسوريا ، وخاصة من تلك القوات التي أسهمت في حرب تحرير الكويت ، والتي أصبح لديها خبرات قتالية في المنطقة ، وذلك بهدف التنسيق والتعاون لتأمين الأوضاع الأمنية عن طريق قيام قوة حفظ سلام عربية خليجية . وقد نص ميثاق دمشق صراحة على مشاركة قوات عسكرية من مصر وسوريا في قوات مجلس التعاون لدول الخليج العربية من أجل الدفاع عن المنطقة . غير أن الميثاق لم يحدد حجم تلك القوات أو نوع أسلحتها . ومن ناحية أخرى ركز الميثاق على أن تتوسع دول مجلس التعاون الخليجي في مقابل تلك المساعدة العسكرية في القروض والاستثمارات في كلتا الدولتين .

وعلى الرغم مما احتوى عليه ميثاق دمشق من إيجابيات إلا أنه لم يوضع موضع التنفيذ ، ويرجع السبب في ذلك إلى ما يأتي[٤٢] :

أولاً : أن بعض دول الخليج العربية لم تكن متحمسة لاشراك مصر وسوريا في مشروعات الأمن الإقليمي إذ من شأن ذلك التقليل من خصوصية مجلس التعاون الخليجي .

ثانيًا : إن التطبيق العملي لميثاق دمشق كان يعني تواجد قوات عربية بريـة ، على عكس المعاهدات الدفاعية الثنائية التي كانت تعتمد على القوة الجوية والبحرية في الدرجة الأولى .

ثالثًا : الموقف الإيراني المعارض لميثاق دمشق إذ احتجت إيران على اشتراك دول من خارج المنطقة في حماية الأمن . ومما يثير الانتباه أن دول الخليج العربية أعطت للاحتجاجات الإيرانية اعتبارًا خاصًا فيما يتعلق بوجود قوات عربية ، بينما لم تعر تلك الاحتجاجات أية أهمية فيما يتعلق بالمعاهدات الدفاعية الغربية ! .

ومهما يكن هناك من اتجاهات خاصة بالأمن الخليجي فإن أمن الخليج يتحقق بمنأى عن القوة الذاتية . غير أن ما يحول دون فاعليتها ظاهرة التخلخل السكاني الذي تعاني منه دول الخليج وافتقارها إلى القوى البشرية المؤهلة ، رغم ما أنفقته تلك الدول من مبالغ طائلة على شراء أحدث الأسلحة والمعدات العسكرية ، وإذ تؤكد بعض التقارير العسكرية أن نفقات التسليح وصلت في بعض دول الخليج العربية إلى الفين من الدولارات لكل فرد بينما لا تكاد تصل إلى ربع تلك النسبة في الولايات المتحدة ذاتها . ومع ذلك أثبتت أزمة الخليج أن الأسلحة وحدها ليست لها فاعلية ما لم تكن هناك قدرة على استخدامها واستيعابها .

* * *

وأخيرًا ، فإنه على الرغم مما ركزت عليه هذه الدراسة من دور التهديدات الإقليمية أو الدولية المؤثرة على أمن الخليج ، إلا أن هناك أخطارًا داخلية لها تأثيرها على الأمن الخليجي ، ويأتي في مقدمة تلك الأخطار ما يلي :

أولاً : نمو الحركات السياسية الإسلامية بشكل قد يؤدي إلى تهديد الأنظمة القائمة . وقد وضح ذلك في حادثة الحرم المكي ، وفي الاضطرابات الداخلية التي

شهدتها كل من الكويت والبحرين خلال حقبة الثمانينيات ، والتي وصلت إلى درجة التهديد لقلب أنظمة الحكم .

ثانيًا : الأخطار المرتبطة بالتنمية في دول الخليج . وعلى عكس المقولة الشائعة بأن التنمية هي جوهر الأمن على نحو ما ذهب إليه روبرت مكنمارا ، إلا أن التنمية في المجتمعات الخليجية أدت إلى أخطار هددت ولا تزال تهدد أمن تلك المجتمعات ، وذلك بسبب اعتمادها على العمالة الوافدة التي أصبحت تفوق في أعدادها أعداد المواطنين . ولعل خطورة العمالة الوافدة - خاصة الآسيوية - من الناحية الأمنية أنها تشكل خطوطًا متقدمة تسعى إلى تحقيق أهداف دولها ، كما هو الحال بالنسبة للعناصر الإيرانية . وقد وصل الأمر ببعض الدول إلى الاحتجاج ، أو حتى التدخل ، بحجة حماية أبنائها العاملين خارج حدودها . وربما تظهر أخطار تلك العمالة في المستقبل عندما تنشأ أجيال من الجاليات الأجنبية قد تطالب بمشاركة عرب الخليج قرارهم السياسي[٤٣] .

ثالثًا : الأخطار المترتبة على الاعتماد على النفط كمورد أحادي للدخل ، مما يتطلب ضرورة تعدد مصادر الاقتصاد ، فضلاً عن الحفاظ على الثروة النفطية واستغلالها ، بما يحقق التنمية الشاملة ، باعتبارها الصمام الحقيقي لأمن الخليج[٤٤] ونعني بالتنمية الشاملة ذلك النوع من التنمية الذي يتعدى القشرة السطحية إلى التغلغل في أعماق المجتمع ، ويصل إلى التنمية البشرية التي تحقق الانتماء الوطني .

وفي تقديرنا أن ذلك لن يتحقق إلا بالقضاء على ظاهرة التفكك والتشرذم وإيجاد تسويات لمشاكل الحدود السياسية وإبراز هيئة تسوية المنازعات الخليجية إلى حيز الوجود ، إلى جانب التركيز على توثيق الاتحادين الإماراتي والمشكلة للدولة الإمارات العربية وإصدار الدستور الدائم للدولة ... وتحويل مجلس التعاون لدول الخليج العربية إلى سلطة (فيدراليه) فاعلة ، مما يتطلب تنازل الدول المكونة للمجلس عن قدر من سلطاتها لصالح تجميع يكون له وزنه السياسي والاقتصادي والعسكري،

في عالم تسوده التكتلات والتجمعات الإقليمية . وإذا كان هذا مطلبه ملحًا بالنسبة للمؤسسات الخليجية ، فإنه أكثر ما يكون إلحاحًا بالنسبة للمؤسسات والمنظمات العربية على المستوى القومي . وبالتالي فإن التنسيق بين المؤسسات العربية والخليجية هو الضمان الحقيقي للأمن ، إذ إنه من المتعذر في تقديرنا قيام أمن خليجي بمعزل عن الأمن القومي العربي .

الهوامش

(1) Gilian King, Imperial Out- Post Aden, Sec: British Defence in The Indian Ocean and Persian Gulf, Oxford University Press 1964 p. 7 - see also Marlowe, John, the Persian Gulf in the 20 thCentury, London 1962 pp. 139 - 140

(2) Campbell, John, c., Defence of the Middle East, Problems of American Policy, New York 1953 p. 285

(3) Times, London 18- 1- 1968

(4) Woodhouse, C. M., publications de l. Institut Universitaire des Hautes Etudes Internationale No., 3, 1968 p. 37 so.

(5) Europa Publications, The Middle East and North Africa 1968- 1969, London1969, P. 29

(6) The Gulf , Implications of British With drawal, Center for Strategic and International Studies, Georgetown University, Washington D. C. Special Report Series No 8, 1968, pp. 7. 8

(7) Ibid .

(8) Rustow, Dankwart, Middle East Political Systems, New Jersey, 1971, p. 64

(٩) جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، المجلد الرابع ، التطور السياسي والاقتصادي في إمارات الخليج العربية ووصولها إلى الاستقلال ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٩٧ - ص ٢٦٧

(١٠) جمال زكريا قاسم : النزاع العربي الإيراني حول جزر أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الأول ، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، مارس ١٩٩٣

(11) Laquer, Walter, The Struggle for the Middle East. The Soviet Union and the Middle East. p.115

انظر أيضًا : هاليداى (فرد) : النفط والتحرر الوطنى فى الخليج العربى وإيران ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٢١ وما بعدها .

(١٢) خليل مراد : سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الخليج العربى والمحيط الهندى ١٩٦٨- ١٩٨٠ ، مجلة الخليج العربى جامعة البصرة ، المجلد السابع عشر ، العدد الأول ١٩٨٥

(١٣) انظر نص خطاب الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون الذى القاه فى الكونجرس الأمريكى فى ١٨ فبراير ١٩٧٠ فى :

Public Papers of the Presedint of the United States Richard Nixon, Washington D. C. 1970 P. 118FF

(14) Hanks, Robert, the United States POLICY to wards the Arabian Gulf, Center of Contemporary Arab Studies, London 1981, p. 4

(15) Dickson, Brainey, From Emperor to Policeman in Bershoeth, M. and Other (eds.), the Gulf War and the New Order, London 1991

انظر أيضًا ، مايكل كلير : الأسلحة والنفط ، صعود ، وسقوط استراتيجية التوكيل فى إيران ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٠

(16) Kissinger, Henry, The Years of Upheaval Boston 1982, p. 669 ff

(١٧) محمد إبراهيم الحلوة : حرب الخليج ، دراسة فى مسببات الصراع وعواقبه ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، العدد ٥٧ يناير ١٩٧٩ ، ص١٨٤

(18) Sitrriey, Hussein , Security and Stability in the Gulf, Center for Contemporary Arabic studies, London 1981 p. 48 See also, Halliday, Fred, the Iranian Revolution in Internatiotinal Affairs Programme and Practice. C.C. A. S. Washington D. C. 1984. P84 FF .

(١٩) لمزيد من التفصيل عن حركة الإسلام السياسى انظر :

جيمس بيكسانورى : الحركات الأصولية الإسلامية وأزمة الخليج – تعريب أحمد مبارك البغدادى – الكويت ١٩٩٢ ، انظر أيضًا جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر – المجلد الخامس – دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٥٠

(٢٠) جاء فى نص الرئيس الأمريكى جيمى كارتر مايلى :

" An attempt by any Outside force to Gain Control of Persian Gulf region Will be regardedas an assault on the Vital in terests of the United States of America and Such an assault will be repelled by any means necessary including Military fotce " see United States Congress. U. S. and Policies towards the Persian Gulf, Washington D. C. 1981, Mazher. Hamess Arabia Imperillied, the Security imperative of the Arab GULF States, M. E. Assessment Group, 1986, p. 29

(٢١) لمزيد من التفصيل عن قوة الانتشار السريع الأمريكية ، انظر حفرى ريكوود : قوة الانتشار السريع ، التدخل العسكرى الأمريكى فى الخليج العربى ، ترجمة مرتضى بافر ، مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة . انظر أيضًا :

Hanks, Robert, Op. pp. 49-51

(٢٢) عن أهمية مضيق هرمز وخطورة إعاقة الملاحة فيه انظر :

Rainazani, R., The Persian Gulf and Strait of Hormuz, Rijiln and Noordho ff 1979.

(23) Mazher, Hameed, Op., Cit., p. 29.

(24) Ibid. See Preface Xvi.

(25) Stanfer, Thomas, the political uses of Arab Research center, 1980, P. 30

(26) Andreasyan, Ruben, oil and Soviet Policy in the Arabian Gulf and the Indian Ocean Area see oil & Security in the Arab Gulf and the Indian Ocean, London 1981, PP. 57-58.

(27) Slugleit, Marian and Other (eds.), Iraq Since 1958, From Revolution to Dictatorship, London 1990, P. 270.

(٢٨) جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصرة ، المجلد الخامس دول الخليج العربية فى مرحلة إلى بعد الاستقلال القاهرة ١٩٩٦ ، ص ص ٣٤ – ٣٥

(29) Duke, Anthony, the Gulf Coopertion Council, Journal of South Asian and Middle Eastern Studies, vol. v No 4 Summer, 1982.

(30) Halliday, Fred, op. cit., P. 24 see also Bulloch, J, the Gulf, London 1984 PP. 57-61.

(31) Calvin, H., Allen, Omen, the Modernization of the Sultanate, West View Press, Croom-Helm London & Sydney 1984, PP. 115-116.

(٣٢) انظر المادة العاشرة من النظام الأساسى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية الصادر فى ٢٥ مايو ١٩٨١ والخاصة بجهة تسوية للنازعات .

(33) Asslri, Abdul Reda, Kuwait's Foreign Policy - City-State in world Politics, West View Press, San Francisco & London 1990, P. 77.

(٣٤) جمال زكريا قاسم : دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال من الانسحاب البريطانى إلى غزو وتحرير الكويت ، المجلد الخامس من تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصرة ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص١٢٦

(35) Darius, R. G., Gulf security in 1980 Stanford University, California, P. 121.

(36) Mazher, H., op. cit , P. 43.

(٣٧) عبد الفتاح النعيمى : العلاقات الكويتية العراقية ١٩٢١ – ١٩٩٠ من أعمال ندوة الغزو العراقى للكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مارس ١٩٩٤ ، نشر مجلة عالم المعرفة ، مارس ١٩٩٥ ص ص٥٧ – ٥٨

(٣٨) انظر تقرير بيريز دى كويلار حول مهمته فى طهران وبغداد لوقف الحرب العراقية الإيرانية وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٥٣ يناير ١٩٨٨ ص ص٢٤٨ – ٢٥٠ انظر أيضًا :

United Nations Official Records, Resolution 598/1987, Kuwait Crisis, Basic Documents, Cambridge International Document, vol 1. 1991, PP. 62-63.

(٣٩) جمال زكريا قاسم : دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، ص ٣٦٤

(40) Chomsky, N , the United states and the Gulf Crisis, In: Broshooth, H., the Gulf war and the new Order, London 1991, P. 26 see also, yuval, the Gulf and the New Oder, PP. 41 - 46.

(٤١) جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربى الحديث المعاصر ، المجلد الخامس ، دول الخليج العربية فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، من الانسحاب البريطانى إلى غزو وتحرير الكويت القاهرة ١٩٩٦ ، ص٩٩

(٤٢) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج منذ بداية العصور الحديثة إلى أزمة ١٩٩٠ – ١٩٩١ ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص٤٦١ – ٤٦٣

(٤٣) خليل مراد : سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الخليج العربى والمحيط الهندى ، مجلة الخليج العربى ، جامعة البصرة المجلد السابع عشر العدد الأول ، البصرة ١٩٨٥ ، ص٣٨

(٤٤) هاليداى ، فرد : النفط والتحرر الوطنى فى الخليج العربى وإيران ، ترجمة زهير ماجد ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٥ ، ص٨٥

العلاقات الكويتية المصرية

د. عبد الله سراج عمر منصور*

على الرغم من بعد الشقة بين مصر والكويت ، ورغم أن ظروف كلا البلدين لم تكن لتسمح بعلاقات سياسية أو تعليمية فى أوائل القرن الحالى ، حيث كانت الكويت تخضع للسيطرة البريطانية بمقتضى إتفاقية يناير ١٨٩٩ ، كما كانت مصر فى نفس المرحلة تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ ، إلا أنه كانت هناك علاقات تجارية بين البلدين فى ظل النشاط الفردى . من ذلك أنه فى عام ١٩٠٠ وجد شخص يدعى سليمان صالح الشبيلى - وهو تاجر من البصرة - كان له ابن يدعى سعود نزل بالكويت حيث قام بشراء إبل بهدف تصديرها إلى مصر[١] .

وقد ذكرت إحدى التقارير البريطانية أن تجارة الإبل بين الكويت ومصر كانت تجارة مربحة[٢] .

كذلك جاء فى أحد التقارير البريطانية الصادرة عن الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فى عام ١٩٣٧ أن شيخ الكويت يتراسل مع شخص مصرى يدعى محمد رفعت بك قام برعاية ممتلكات الشيخ فى مصر نيابة عنه ، كما أن عزت جعفر الذى كان سكرتيرًا خاصًا لشيخ الكويت أصبح وكيلاً للشيخ فى مصر وسوريا .

ويذكر هذا التقرير البريطانى أيضًا أنه من بين من يقومون بالاتصالات بين الكويت والقاهرة شخص يدعى محمد أحمد القائم وهو تاجر من الكويت ، ذهب فى ٥ أكتوبر ١٩٣٧ إلى القاهرة للقيام ببعض الأعمال هناك[٣] .

(*) أستاذ التاريخ الحديث المساعد - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

وازدهرت الروابط بين البلدين وخاصة في مجال التعليم ، حيث كانت مصر توفد المدرسين والمدرسات إلى الكويت للتدريس ، كما كانت الكويت توفد بعض طلبتها للتعلم في المدارس والمعاهد والجامعة المصرية .

الكويت والجامعة العربية[٥]

أذاعت محطة هيئة الإذاعة البريطانية B. B. C. في إذاعتها العربية في مساء الثاني والعشرين من أغسطس (آب) ١٩٤٤ أن الشيخ فهد السالم الصباح ابن عم سمو حاكم الكويت قد استقبله في الأسكندرية مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء المصري، ومن بين الأحاديث التي بحث بينهما كان موضوع " الوحدة العربية ".

وقد ذكر سموه أن زيارته لمصر غير رسمية تمامًا ، وأنه لم يكلف بالتعبير عن موقف رسمي لحكومة الكويت إزاء مسألة الوحدة العربية أو أي مسألة أخرى .

وعلق تقرير للوكيل السياسي البريطاني في الكويت إلى المقيم السياسي البريطاني (بوشهر) بأنه لما كانت هذه الإذاعة سوف يسمعها حكام العرب في بقية أنحاء العالم فإن سمو الشيخ فهد يرجو هيئة الإذاعة البريطانية أن توضح في بيان تال بأن الزيارة غير رسمية .

وجاء في التقرير البريطاني أن الشيخ فهد السالم أحد أفراد جماعة عبد الله السالم ، قد عهد إليه بالشئون المالية للإمارة وذلك وقت تكوين المجلس وأنه يقال بأن تصرفاته " خرجت من السيطرة "[٦] .

وكان أن أذاعت هيئة الإذاعة البريطانية في نشرة أخبارها العربية أنه سبق لها أن أعلنت أن الشيخ فهد السالم ابن عم سمو حاكم الكويت قد استقبله في الأسكندرية مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر ، وأن من بين ما بحثاه موضوع الوحدة العربية ، وأضافت أن شيخ الكويت طلب أن يوضح أن زيارة

الشيخ فهد إلى مصر غير رسمية ، وأنه لم يكلف بالتعبير عن الموقف الرسمي لحكومة الكويت نحو الوحدة العربية أو أي مسألة أخرى[٧] .

وعلى ذلك ، فإن المقيم السياسي البريطاني ، وكان يقيم آنذاك في معسكر في شيراز ، أرسل إلى السفير البريطاني في مصر يطلب منه تقديم ما يمكن من مساعدة إلى آل الصباح ، ولكنه حذره من أن الشيخ فهد السالم عضو في جبهة المعارضة في الكويت ، ولذا فإنه مصدر إزعاج ومغضوب عليه " ، وطلب المقيم السياسي البريطاني في شيراز من السفير البريطاني في مصر ألا يقدم بعد ذلك أية معونة يحتاجها الشيخ فهد[٨] .

وفي مساء يوم ٢٩ أغسطس (آب) أذاعت محطة الإذاعة البريطانية أنها علمت من مراسلها في الخليج أن الزيارة الأخيرة التي قام بها الشيخ فهد السالم الصباح ابن عم سمو حاكم الكويت لمصر والتي استقبله خلالها رئيس الوزراء المصري كانت زيارة غير رسمية ، وأن الشيخ فهد لم يكن يمثل حكومة الكويت ، وأضافت المحطة أن إعلامها الأول لم يكن دقيقًا إلى حد ما[٩] .

ولا شك في أن هذا التدخل البريطاني نيابة عن الكويت يدل على أن موافقة بريطانيا على دخول دول المشرق العربي في مباحثات فيما بينها لإقامة نوع من الوحدة أو الاتحاد لم يكن يعني موافقتها على أن تدخل الكويت في هذه المباحثات ، حيث كانت بريطانيا تريد أن تظل الكويت - خاضعة لنفوذها - بعيدة عن أي اتصال سياسي مع الدول العربية الأخرى .

ومع ذلك فإن مراسل جريدة الأهرام القاهرية في البحرين أجرى حديثًا مع شيخ الكويت أحمد الجابر الصباح ، عبر فيه عن الروابط القوية التي تربط مصر والكويت ، ومن بين أمور أخرى قال إنه لم يكن هناك دليل على المشاعر المتبادلة القائمة بين البلدين أقوى من زيارته لمصر التي حدثت في أكثر من مناسبة ، وقال إنه أعجب بفيض ونبل التعبير عن المشاعر التي أظهرها المصريون نحوه .

وقد تحدث سموه عن الوحدة العربية قائلاً " إن الحقيقة يجب أن تعلن بأنه لا يوجد خلاف بين الكويتيين والمصريين ، وأنه يكفي القول بأن الوحدة العربية القائمة بيننا وبين مصر ليست اسمية ، بل إنها سارت خطوات عملية مطردة نحو الأمام ، وأن هذا التعاون الثقافي بين مصر والكويت ليس إلا تحقيقًا عمليًا لبعض أهداف الوحدة العربية ، وأن فخرنا ينبع من أن مصر تتعاون أدبيًا وماديًا في تحقيق الأهداف الثقافية ، ويكفي القول أنها قد اختارتنا من بين الكثيرين للحصول على كثير من الامتيازات الثقافية " .

وبعد أن ذكر أن اليقظة التعليمية في بلده ترجع بدرجة كبيرة إلى اليد السخية التي مدتها مصر للكويت . قال سموه إنه " يتهز هذه الفرصة لكي يرسل إلى شعب مصر الكريم أطيب تمنياته من أجل الاستقلال الذي يستحقونه "[٥] .

مصر تطلب فتح قنصلية في الكويت :

وفي ١٩ يناير (كانون ثان) ١٩٥٥ زار سفير مصر في لندن وزارة الخارجية البريطانية ، وكانت معه صورة من مذكرة الوزارة بشأن رفض بريطانيا طلب مصر فتح قنصلية لها في الكويت ، وقال إنه لم يبلغ هذا القرار بعد إلى حكومته ، ويخشى أن تعتبر حكومته هذا القرار تعبيرًا عن عدم الثقة . وتساءل عما إذا كان من الممكن أن تعيد الخارجية البريطانية النظر في هذا الأمر . وقد أبلغه المسئول البريطاني بأنه ليست لديه معلومات كافية عن هذه المسألة " ولكنني أعتقد أننا نرفض فتح قنصليات لكل الدول ، وسبق أن رفضنا مؤخرًا فتح قنصلية إيرانية ، وأنه سوف يكون من الصعب الموافقة على فتح قنصلية مصرية ونرفض في الوقت نفسه فتح قنصلية إيرانية " .

وبعد ذلك أوضح المسئول البريطاني للسفير المصري الموقف في الكويت ، بأن الكويت في مرحلة تطور وتحول من نظام قبلي فقير إلى نظام ثري وعصري ،

وأنه لا شك سوف يكون هناك تمثيل قنصلي بمرور الأيام وعلى نطاق كبير " ولكننا نعتقد بأننا في هذه اللحظة سوف يكون ذلك أمرًا سابقًا لأوانه " .

ورد السفير بأن مصر دولة عربية وإيران ليست دولة عربية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن لمصر عددًا من المدرسين في الكويت ، كما أن أفرادًا من الأسرة الحاكمة قد تعلموا في مصر وأن كل ذلك يعطي مصر مركزًا خاصًا يبرر طلب معاملة أفضل من التي تقدم للإيرانيين " .

وقد أبلغ مسئول الخارجية البريطانية السفير " بأننا نرغب في أن يكون هناك علاقة طيبة مع مصر ، وعلى ذلك ننصح بأن يرسل وطنا إلى القاهرة ، مع إيضاح بأن ذلك ليس تعبيرًا عن عدم الثقة في مصر ، ولكن لأننا لا نرغب ببساطة في أن نوضع في مركز حرج ومثير للأستياء بأن نرفض لإيران ما منحناه لمصر ، وأنه إذا شعرت الحكومة المصرية بعد تفكير بأن المصريين يمثلون حالة خاصة ، وإذا عادوا إلى توجيه الطلب مرة أخرى ، فإنني سوف أكون مستعدًا لكي أنظر نظرة أخرى إلى الأمر ، وأن أستشير وزارة الخارجية "[٦] .

ولم تقف الحكومة المصرية موقفًا مترددًا إزاء الرفض البريطاني ، فرفعت السفارة المصرية في لندن مذكرة مؤرخة في ٤ مارس (آذار) ١٩٥٥ إلى وزارة الخارجية البريطانية ، ذكرت فيها أن الرغبة التي أبدتها الحكومة المصرية بشأن فتح قنصلية عامة في الكويت إنما كانت مدفوعة إليه بأهمية العلاقات الثقافية والعلاقات الاقتصادية النامية بين البلدين ، فضلاً عن العلاقات الروحية التي تشكل رابطة قوية بين مصر وبقية العالم العربي .

ولتأكيد على أهمية العلاقات بين البلدين ، أوردت السفارة المصرية بيانًا بالبعثات المصرية العديدة التي كانت توجد في ذلك الوقت في الكويت :

(أ) بعثة تعليمية يصل عددها إلى أكثر من مائتي مدرس (من الذكور والإناث) إلى جانب عائلاتهم ومن يعولونهم .

(ب) بعثة تتكون من ثمانية ضباط وثمانية صف ضابط من رجال الأمن مكلفة بمهمة إعادة تنظيم وزارة الداخلية في الكويت .

(جـ) بعثة تتكون من خبير مالي يصحبه خمسة وعشرون من المساعدين مكلفة إعادة تنظيم مالية الكويت .

(د) بعثة تتكون من عشرين مهندسًا مدنيًا وخمسة مهندسين زراعيين لتقديم العون الفني في الشئون المتصلة بمهنتهم .

(هـ) بعثة تتكون من مدير عام يصحبه خمسة من الطيارين ومساعدوهم للتفاوض بمطار الكويت ومدرسة الطيران فيها ، كما كان لشركة مصر للطيران في الكويت ورشة يديرها فنيون مصريون .

(و) أما شركة سينما الكويت فقد أسستها وساعدتها على القيام بنشاطها التجاري شركة مصر للسينما التي أوفدت مؤخرًا اثنين من مديريها من ستوديو مصر لتقديم مشورتهما الفنية حول هذه الأمور فضلاً عن تقديم خدمات بعض فنييها وموظفيها للمساعدة في إدراتها .

(ز) يوجد (في ذلك الوقت) أكثر من خمسمائة من العمال المصريين المهرة في الكويت وهم يعملون في أعمال البناء والميكانيكا والديكور والنجارة وفي بناء وتجديد المساجد .

(حـ) بعثة من قاض مصري من المحكمة العليا يعاونه خمسة قضاه آخرون تختارهم من وزارة العدل المصرية للمساعدة في إعادة تنظيم النظام القضائي في الكويت.

على أنه يلاحظ أن العلاقات بين الكويت ومصر لم تكن من جانب واحد ، إذ كان يوجد في ذلك الوقت عشرون من الطلبة الكويتيين يتابعون دراساتهم في جامعة القاهرة ، إلى جانب مائة وخمسين من الطلبة في المدارس الثانوية المصرية .

كذلك وجد في القاهرة مكتب تعليم كويتي مهمته الاشراف على مصالح الطلبة الكويتيين ورعايتهم ، وهذا المكتب يشكل حلقة الوصل بين وزارتي التعليم في الكويت ومصر فيما يختص باختيار المدرسين والفنيين .

أما فيما يختص بالعلاقات التجارية بين البلدين ، فإن رأس المال الذي تستثمره الكويت في مصر وصل إلى مليوني جنيه . وإلى جانب ذلك فإن قيمة الصادرات المصرية إلى الكويت بما في ذلك المنسوجات والمصنوعات الجلدية والقطن والفواكه وأفلام السينما بلغت مليوني جنيه في كل سنة .

وأخيرًا فإن عدد ناقلات البترول القادمة من الكويت والتي كانت تعبر قناة السويس في طريقها إلى الغرب يصل عددها إلى نحو ألف ناقلة كل سنة ، تنقل نحو عشرة ملايين طن من البترول[١٠] .

ومما تجدر ملاحظته ، أنه بعد عام تقريبًا من رفض بريطانيا طلب فتح قنصلية مصرية في الكويت ، رفضت الحكومة البريطانية طلبًا مماثلاً لسوريا ، وقد حدث عندما كرر رئيس الوزراء السوري للسفير البريطاني في دمشق طلب تعيين قنصل لسوريا في الكويت ، أن طلب السفير البريطاني من رئيس الوزراء السوري ألا يلح على الحكومة البريطانية من أجل هذا الطلب ، لأنه يعلم أن الرد سيكون غير ملائم . وقد حاول رئيس الوزارة السورية تبرير طلب فتح قنصلية سورية في الكويت استنادًا إلى عدد السوريين المقيمين هناك ، واحتج بأن للأمريكيين قنصلاً في الكويت ، ولكن السفير البريطاني رد على الحجة الأخيرة بأنه تم قبول تعيين قنصل أمريكي في الكويت لأن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك نصف الكويت . وأضاف السفير البريطاني أن رفض حكومته تعيين قنصل سوري في الكويت أمر لا مفر Inevitable منه وأن إلحاح سوريا في هذا الشأن سوف يسبب الحرج لكلتا الحكومتين السورية والبريطانية[١١] .

كذلك حدث في عام ١٩٥٨ أن طلبت الأردن من بريطانيا فتح قنصلية لها في الكويت ، فسردت الحكومة البريطانية أنه ليس لها اعتراض على فتح هذه القنصلية ، إذا نظر إلى هذه المسألة من وجهة نظر العلاقات البريطانية الأردنية ، " ولكن يجب على الأردنيين أن يدركوا النتيجة الحتمية لموافقة شيخ الكويت على فتح قنصلية أردنية / عراقية ، حيث أنه سيضطر لمنح تصريح مماثل للجمهورية العربية المتحدة ، وليس هناك أدنى فرصة في الظروف الحالية تسمح له بمقاومة نتيجة ذلك ، إنه لأمر بالغ الخطورة أن تكون هناك قنصلية مصرية في الكويت في الوقت الحالي "[١٢] .

وعندما تكون حلف بغداد وانضمت العراق إليه عام ١٩٥٥ ، كانت مصر تتزعم حركة المعارضة ضد هذا الحلف ، وضد انضمام أية دولة عربية إليه . لذلك شنت الإذاعة المصرية حملات إذاعية ضد العراق . ولما كانت بريطانيا عضوًا في الحلف وحليفة للعراق ، وتريد أن تضم أكبر عدد من الدول العربية إلى الحلف ، فقد أستاءت من الحملات الإذاعية المصرية ضد العراق ، وكان هذا أحد الأسباب الأخرى التي استندت إليها الحكومة البريطانية في عدم السماح بفتح قنصلية مصرية في الكويت . وقد قررت الحكومة البريطانية أن تبلغ مصر عن طريق السفير المصري في لندن بأنها بحثت هذا الموضوع بعناية (موضوع فتح قنصلية مصرية في الكويت) ، وأنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تغير موقفها أو قرارها السابق . ذلك أنه طبقًا أو استنادًا إلى علاقة بريطانيا الخاصة مع حاكم الكويت " فإنه يعهد إلى حكومة جلالة الملكة بإدارة شئونه الخارجية ، ولذلك فإنه ليس من المناسب ولا من الضروري فتح قنصليات أجنبية في الكويت . أما الحقيقة التي مؤداها أن عددًا من المصريين تستخدمهم الحكومة الكويتية فلا ينبغي أن تكون سببًا للعدول عن هذا المبدأ ، فهناك عدد من الإيرانيين في الكويت أكثر من عدد المصريين وقد سبق لنا أن رفضنا طلبًا إيرانيًا مماثلاً ، هذا هو موقفنا الطبيعي ،

ولا توجد لدينا أية تفرقة ضد مصر " أما عن أن الحكومة المصرية استخدمت فتح قنصلية للولايات المتحدة في الكويت كحجة لفتح قنصلية مصرية ، فقد ردت الحكومة البريطانية على ذلك بأنها قبلت فتح قنصلية أمريكية لأن للأمريكيين حصة قدرها نصف إنتاج الكويت من البترول ، وإذا أثار السفير المصري مسألة أن العراقيين سمح لهم في عام ١٩٥١ بفتح قنصلية في الكويت ، فيمكن إبلاغه أنه توجد ظروف استثنائية تتمثل في أن للبلدين (العراق والكويت) حدود مشتركة ، كما أن مشروع مياه العراق - الكويت يجري التفاوض بشأنه ، وهذا المشروع سيكون بمثابة فرصة لمزيد من توثيق الرابطة بين البلدين"[١٣] .

الكويت وتأميم قناة السويس والعدوان على مصر :

من المعروف أنه نتيجة لما قامت به الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي من سحب إسهامهم في تمويل مشروع السد العالي الذي فكرت مصر في بنائه ، قامت الحكومة المصرية بتأميم شركة قناة السويس في يوليو (تموز) ١٩٥٦ ، الأمر الذي جاء ضربة لكل من بريطانيا وفرنسا . وقد أدى ذلك إلى تفكير بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل لتوجيه ضربة إلى مصر ، التي كانت قد ازدادت قوتها العسكرية بصفقة الأسلحة التي أبرمتها مع الكتلة الشرقية ، بعد أن رفضت الكتلة الغربية تزويدها بالسلاح ، وفي ٢٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٦ زار الشيخ صباح الصباح " وهو أحد الأمراء الكويتيين " السفارة البريطانية في بيروت وتحدث مع السفير البريطاني بشأن أزمة السويس ، فانتقد السياسة الأمريكية التي كان يرى أنها تهدف إلى إضعاف النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط . واستطرد الشيخ صباح في حديثه مع السفير البريطاني في بيروت بقوله بأن " البريطانيين تذرعوا بالصبر وهذا الصبر في بعض الأحيان يفسر على أنه ضعف "[١٤] .

ويذكر نانتج Nutting الذي كان وزير دولة في بريطانيا إبان العدوان ، أن الدول العربية المنتجة للنفط وخاصة تلك التي لا تملك خطوط أنابيب إلى البحر

المتوسط ، أخذت تشعر بالخوف لأن قناة السويس كانت المنفذ الوحيد لصادراتهم النفطية إلى الغرب ، ولذلك فإنه مع بداية أكتوبر ١٩٥٦ حث شيوخ البترول فى الخليج حكومة القاهرة على التوصل لإتفاق أو قبول حل وسط مع الغرب[١٥] .

وهكذا فإن شيوخ الخليج - حفاظًا على مصالحهم - كانوا يريدون إنهاء تلك الأزمة بشكل أو بآخر حتى لا تضار مصالحهم ، وكان لشيوخ الخليج موقف أساسى من عبد الناصر ، لأنه كان دائمًا يطالب بضرورة توحيد الدول العربية الصغيرة لكى (تصبح إمبراطورية عربية متحدة)[١٦] .

ولكن إذا كان هذا موقف بعض الأفراد من شخص عبد الناصر ، فإن شعب الكويت العربى إتخذ موقفًا عكس ذلك تمامًا متطوعًا بحبه لشعب مصر العربى ، وموقفه الصامد فى مواجهة قوى الاستعمار والصهيونية .

ويتجلى هذا فيما نشرته الصحف عن انعقاد المؤتمر الشعبى فى الكويت فى ١٤ أغسطس (آب) ١٩٥٦ بمناسبة يوم مصر ، وتوجيه برقية تأييد إلى عبد الناصر " لموقفكم الباسل ضد الاستعمار مؤيدين خطواتكم العظيمة فى تأميم شركة قناة السويس المصرية، ووفقكم الله إلى تحقيق ما تصبو إليه هذه الأمة من وحدة وحرية "[١٧] .

ويذكر بعض الباحثين أنه عقب العدوان الثلاثى على مصر " فإن تلك الإمارة العربية الصغيرة التى زعم الغرب أن الثراء أبطرها وألهاها عن عروبتها ، يعم الهياج فى كل شبر من أراضيها، وتلغم آبار الزيت وينفجر الشعب كله سخطًا "[١٨] .

وتؤكد الشواهد ذلك ، فقد ترددت الأنباء بأن ألفى شاب كويتى (وفى بعض الأقوال ثلاث آلاف) طلبوا التطوع للنضال ضد بريطانيا ، وأن التجار فى الكويت منعوا الرعايا البريطانيين من دخول متاجرهم ، وتطوع شباب الكويت الموجودون فى مصر فى صفوف الحرس الوطنى ، وجمعت التبرعات من أجل دعم الكفاح المصرى ، وقد بلغ ما تم جمعه نحو مليون وربع مليون جنية .

وعندما اجتمعت لجنة أندية الكويت طالبت بوقف تصدير البترول إلى بريطانيا وفرنسا تضامنًا مع مصر ، كما طالبت فى بيان لها الشعب الكويتى بسحب إيداعاته من البنوك البريطانية ، وفعلاً سحب العديد من الكويتيين أموالهم كما قوطعت البضائع البريطانية والفرنسية[١٩] .

الكويت بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد الهاشمى :

وفى نفس الوقت الذى شهد قيام حلف بغداد ، فكرت كل من سوريا ومصر فى التعاون من أجل إنشاء قيادة عسكرية موحدة ، خصوصًا وأن سوريا كانت تشارك مصر فى موقفها المعارض للأحلاف . وقد شهدت المنطقة فى ذلك الوقت حشودًا تركية على الحدود السورية ، ووقوع العدوان الإسرائيلى على قطاع غزة فى فبراير (شباط) ١٩٥٥ . وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر بعد تأميم شركة قناة السويس ، وقفت سوريا إلى جانب مصر ، فقطعت علاقاتها السياسة بالدولتين الغربيتين المعتديتين - بريطانيا وفرنسا - ومنعت تدفق البترول فى الأنابيب من العراق والعربية السعودية إلى البحر المتوسط عبر الأراضى السورية، وكان هذا الإجراء من أقوى العوامل الاقتصادية التى أثرت على الدولتين المعتديتين. وقد أشاد جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٧ بالموقف السورى، كما أشار إلى أن سوريا منذ عام ١٩٥٦ أخذت تبدى رغبتها فى الاتحاد مع مصر كخطوة أولى للوحدة العربية ، ورحب عبد الناصر بهذا الاتجاه من جانب سوريا[٢٠] .

وكان أن شهد عام ١٩٥٧ ازدياد الضغوط الدولية على سوريا ، سواء من جانب العراق بمفرده أو بالاشتراك مع بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك اشتد الصراع الداخلى بين القطبات المتناحرة فى الجيش السورى ، كما تعرضت سوريا لمؤامرات خارجية لدرجة أن الولايات المتحدة أوفدت لورى هندرسون Loy Hendrson وكيل وزارة الخارجية - فى مهمة خاصة إلى الشرق الأوسط . وكان هندرسون خبيرًا فى شئون الإنقلابات ، فأوحست سوريا منه

خيفة ، ورأت استقدام كتيبتين مصريتين إلى اللاذقية في سرية تامة في أكتوبر (كانون أول) ١٩٥٧

واجتمع مجلس النواب السوري مع مجلس الأمة المصري في جلسة مشتركة في ١٧ نوفمبر (كانون ثان) ١٩٥٧ ، ودعوا الدولتين لإقامة اتحاد بين مصر وسوريا ، والدخول في مباحثات لتحقيق هذا الهدف . كذلك جرت مباحثات مصرية سورية ، انتهت بإعلان الوحدة رسميًا وتوقيع إعلان الوحدة في يوم أول فبراير (شباط) ١٩٥٨ ، وبذلك قامت دولة واحدة باسم الجمهورية العربية المتحدة.

وكرد فعل لقيام الجمهورية العربية المتحدة من إقليمي سوريا ومصر ، وخوفًا من انتشار التيار التحرري وامتداده إلى الأردن ، لم يجد الأردن سبيلاً لضمان مستقبله السياسي ، إلا بالتوجه إلى العراق ، والدخول معه في اتحاد سياسي ، لخلق نوع من التوازن مع الوحدة المصرية السورية . وفعلاً عقدت عدة اجتماعات بين الزعماء العراقيين والأردنيين توصل فيها الطرفان إلى عقد إتفاق وإنشاء " الاتحاد العربي بين العراق والأردن " اعتبارًا من ١٤ فبراير (شباط) ١٩٥٨ ، على أن يبقى هذا الاتحاد مفتوحًا أمام الدول العربية الأخرى التي ترغب في الإنضمام إليه.

وقد شجع النفوذ البريطاني هذا الاتحاد ، وتقبلته بريطانيا لتواجه به الوحدة بين مصر وسوريا ، وتحقق نوعًا من التوازن السياسي في الشرق الغربي ويلاحظ أنه إذا كان قيام الجمهورية العربية المتحدة قد صادف اعتراضًا من جانب إسرائيل ، فإن قيام الاتحاد العربي الهاشمي لم يصادف هذا الاعتراض ، لأن حصول الاتحاد العربي على مساعدات الغرب سيكون رهنًا بعدم التحرش بإسرائيل ، التي أحست بأن الجمهورية العربية المتحدة هي الخطر الحقيقي الذي يهدد إسرائيل ، ويضعها بين فكي الكماشة ، بينما لم يكن الاتحاد العربي الهاشمي يمثل أي خطر على إسرائيل[٢١].

وبعد قيام الاتحاد العربي الهاشمي حاول العراق ضم الكويت إلى الاتحاد ، واستعان في ذلك ببريطانيا لكي تستخدم نفوذها لاقناع الكويت بالإنضمام إلى الاتحاد . وكانت الخطة التي وضعها نوري السعيد رئيس وزراء العراق عندئذ - تتمثل في أن تقوم بريطانيا بإعلان استقلال الكويت ، حتى تستطيع الكويت الإنضمام إلى الاتحاد الهاشمي كعضو مستقل . وحرصًا على مصالح بريطانيا في الكويت اقترح نوري السعيد امكانية إبرام بريطانيا معاهدة دفاع مع الكويت ، تعطي لبريطانيا نفس المكانة التي تتمتع بها أصلاً في الكويت ، كما يمكن للكويتيين أن يعطوا لبريطانيا ضمانات بشأن استثمارات عائلات بترولهم في لندن. ولكن وزير الخارجية البريطانية رأى أن المسألة كما طرحها الوفد العراقي تبدو غير منطقية إلى حد ما ، إذ كيف يتم التوفيق بين أن تعلن بريطانيا استقلال الكويت ، وفي الوقت نفسه تلزمها بالدخول في الاتحاد العراقي الأردني . ولذا فإن الحكومة البريطانية كانت مترددة في قبول هذا الاقتراح، وعندئذ أخذ نوري السعيد يفكر في اقتراح بديل . وكان هذا الاقتراح يتضمن خيارين ، الأول أن تحول الحكومة البريطانية علاقاتها القائمة مع الكويت إلى معاهدة بين دولتين مستقلتين ، وعندئذ يمكن لحاكم الكويت أن يدخل في الاتحاد الهاشمي على قدم المساواة مع العراق والأردن . وحتى إذا أراد أن ينسحب من الاتحاد فسوف تستمر علاقته مع بريطانيا طبقًا للمعاهدة دون أن تتأثر أما الخيار الثاني فهو أن تظل الحماية البريطانية قائمة على الكويت ، ولكن تنضم إلى اللجنة الاقتصادية في الاتحاد الهاشمي وأن يعترف العراق بالحدود الحالية للكويت على أن تتنازل الكويت عن شريط أم قصر " وكان رد بريطانيا على اقتراح نوري السعيد قاطعًا " بأن التدخل لدى حاكم الكويت لا يمكن أن يأخذ صورة الضغط عليه " ، بل يجب التحدث معه عن تحسين العلاقات الكويتية العراقية أولاً . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بقيام العراق بمبادرة من جانبه بترسيم الحدود بين العراق والكويت ثم تتلوها محادثات كويتية عراقية عن الأحوال السياسية العامة في العالم العربي ، وعن أفضلية استثمار اقتصادي كويتي في

أراضي الاتحاد الهاشمي،مع ترك موضوع أم قصر حتى يتم ترسيم الحدود[٢٢]. وكان هدف بريطانيامن ذلك هو ضرورة إزالة شكوك الكويت في موقف العراق أولاً.

وكخطوة تمهيدية أرسلت الحكومة العراقية وفدًا إلى الرياض لسبر غور الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود في إنضمام الكويت للاتحـاد العـربي الهاشمي . ولم يبد الملك سعود معارضة وإن كان قد اقترح أن يتصل العراقيون ببريطانيا طالمـا أن الكويت تحت الحماية البريطانية . هـذا وإن كـان قـد نصح العراقيين بعدم الاهتمام بالشيخ فهد الصباح . ولكن العراقيين كانوا يقدرون مركز الشيخ فهـد ، وكانوا يرون أنهم إذا أرادوا تحقيق الهدف الذي يريدونه فلابد من الاتصال بالشيخ فهد بسبب نفوذه الكبير في الأسرة الحاكمة في الكويت ، وفي قطاعات معينة من مجتمع التجار الكويتيين . وكان العراقيون يرون أن الشيخ فهد يجمع حولـه قطاعًا واسعًا من الكويتيين ، وخصوصًا بين الشباب الذين كـانوا متعـاطفين مـع مصـر وسوريا ويستطيعون الوقوف في وجه أي تفاهم بين العراق والكويت[٢٣].

كذلك سعى نوري السعيد لدى السفير الأمريكي في بغداد لكي يوضح لـه مبررات الحكومة العراقية في اشتراك الكويت في الاتحاد . وتتمثل هذه الاعتبـارات في المساعدة المالية الكويتية للأردن ، وتوسيع الاتحاد بدخول عضو غير هـاشمي ممـا يجعل الاتحاد أكثر تقبلاً من جانب الدول العربية الأخرى ، إلى جانب الاستفادة من ميناء الكويت لتصدير النفط العراقي واستفادة الكويت في الحصـول علـى احتياجاتها من مياه العراق[٢٤].

وطلب نوري السعيد من السفير أن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها لـدى بريطانيا لمنح الكويت استقلالها حتى تستطيع الإنضمام إلى الاتحاد[٢٥].

وكان العراق يرى أنه إذا كانت السياسة الأمريكية تريد التخلص من عبـد الناصر فإن هذه السياسة يجب أن تتضمن خطوات ، منها :

(أ) إدخال الكويت في الاتحاد العربي الهاشمي .

(ب) استعادة سوريا بإخراجها من الوحدة المصرية السورية .

(جـ) تقديم مساعدة عسكرية لكميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية[٢٦] .

ولكن الحكومة البريطانية ظلت ترى أنه من الصعب إحراز تقدم فـي مسـألة إنضمام الكويت إلى الاتحاد الهاشمي . ورغم اقتناع وزير الخارجيـة البريطانيـة بقـوة الحجة العراقية القائمة بأن العائدات الكويتية سوف تكـون مفيـدة لإنعـاش الاتحـاد الهاشمي الجديد ، إلا أن الوزير البريطاني كان يرى أن الطريق الأكـثر فاعليـة يجـب أن يمهده العراقيون أنفسهم . ولذلك فإن أفضـل وسـيلة فـي رأيهـم هـي الاتصـال المباشر بين العراقيين والكويتيين لأن التدخل البريطاني لدى حاكم الكويت قد يأتي بنتيجة عكسية[٢٧] .

وكان أن اقترحت الحكومة البريطانية على العراق الاتصال بحـاكم الكويـت عند زيارته للبنان في مارس (آذار) ١٩٥٨ بشكل لا يلفت الأنظار . وأكد وزير الخارجية البريطانية لنوري السعيد بأنه يمكن للعراق أن يضمن المساندة البريطانيـة ، وذلك بالتأكيد على الخطر الذي قد يتعرض له الكويت من نفوذ عبد الناصر[٢٨] .

وفعلاً أرسلت الحكومـة العراقيـة توفيق السويدي نـائب الـوزراء إلى لبنـان للاجتماع بحاكم الكويت عبد الله السالم الصباح ، وإجراء مباحثات معه حول دخول الكويت الاتحاد العربي الهاشمي . وقد حدث في أثناء مباحثات السـويدي مع حاكم الكويت ، أن حاول السويدي إثارة مخاوف حـاكم الكويـت مـن عبـد الناصر ، بوصفه العدو اللدود للأنظمـة العربيـة القائمـة فـي الأردن والسـعودية والكويـت ، ولكـي يضع يده على عائدات البـلاد المنتجـة للنفـط واحتياطاتهـا لسـلطانه . كذلك نصح السويدي حاكم الكويت بـالتخلص مـن كـل المدرسين المصريين ومظاهر النفوذ المصري الأخرى ، ووعد بأن يقدم العراق المدرسين الذين يحلون مكان المدرسين المصريين . ولكن هذا اللقاء لم يسفر عن شيء محـدد . ولـذا

أرسل الملك فيصل الثاني دعوة لأمير الكويت عبد الله السالم الصباح لزيارة العراق لمزيد من المباحثات بشأن إنضمام الكويت إلى الاتحاد العربي الهاشمي . وتمت الزيارة في العاشر من مايو (آيار) ١٩٥٨ . وخلال هذه الزيارة حاول نوري السعيد اقناع حاكم الكويت بالإنضمام إلى الاتحاد العربي الهاشمي وإثارة مخاوفه على حكمه وعلى بلده من عبد الناصر والشيوعية ، وعرض نوري السعيد ترحيب العراق بإنضمام الكويت ، إلى الاتحاد الهاشمي على أساس المساواة والمساندة الكاملة لاستقلال الكويت والاعتراف بحدود الكويت القائمة ، والحفاظ على علاقة الكويت مع بريطانيا . كذلك حاول نوري السعيد أن يصرف نظر أمير الكويت عن الزيارة التي كان يزمع حاكم الكويت القيام بها لمصر على أساس أن مثل هذه الزيارة لن تحقق شيئًا ، بل على العكس قد يعتبرها عبد الناصر نصرًا له وتشجعه على الاعتقاد بأن هجماته ضد الأقطار العربية الشقيقة سوف تنجح . ولم يوافق نوري السعيد على أن يحمل أمير الكويت أية رسالة من الحكومة العراقية لعبد الناصر ، وكان حاكم الكويت يعتقد بأنه يستطيع اقناع عبد الناصر بوقف الحرب الإعلامية الموجهة ضد العراق . هذا وإن كان هناك رأي آخر بأن العراقيين سبق لهم وافقوا على ذلك بشرط ألا يذكر شيخ الكويت أن العراقيين هم الذين طلبوا منه ذلك[٢٩].

وكمحاولة من نوري السعيد للضغط من أجل إنضمام الكويت إلى الاتحاد الهاشمي فإنه رأى أنه إذا لم يرتبط الكويت بالاتحاد الهاشمي فلن يكون هناك مفر أمام العراق سوى إعادة ترسيم الحدود بين العراق والكويت لصالح العراق[٣٠].

وكان هذا معناه أن تفقد الكويت نصف أراضيها تقريبًا نتيجة تعديل الحدود العراقية الكويتية .

وكان أن رأى حاكم الكويت أنه لا حاجة به إلى الوقوف في جبهة واحدة مشتركة مع بعض إخوانه من الحكام العرب ضد الجمهورية العربية المتحدة لا سيما وأن شعور الرأي العام في الكويت كان في صف الجمهورية العربية المتحدة[٣١].

لذلك أكد حاكم الكويت أن الوحدة المصرية السورية هي وحدة شعبية حقيقية بينما الاتحاد الهاشمي ليس إلا مجرد إتفاق بين حكومات وحكام ، تنقصه المساندة الشعبية . لذلك نصح حاكم الكويت المستولين البريطانيين بأن الطريق الأكثر حكمة يكون بسعي الحكومة البريطانية من أجل الوصول إلى تفاهم مبكر مع عبد الناصر ، وأكد الحاكم أنه يعارض الشيوعية ، وأن عبد الناصر هو الحصن الرئيسي إن لم يكن الوحيد ضد الشيوعية في العالم العربي ، وأن سوريا اضطرت للوحدة مع مصر لإنقاذ شعبها ونفسها من الشيوعيين .

ومن ثم فإنه من الضروري أن توحد بريطانيا والولايات المتحدة سياستهما وأن يسعيا للتقارب مع عبد الناصر ، لأنه سيصير من الضروري إن آجلاً أو عاجلاً معالجة مشكلة إسرائيل . وإذا ظلت (هذه المشكلة) قائمة فإنها ستتيح فرصة للنفوذ الروسي . واستطرد حاكم الكويت بقوله إن بريطانيا على وجه الخصوص سوف تكسب بتحسين علاقاتها مع عبد الناصر ، وعليها أن تدخل في اعتبارها مركزها في الخليج . ففي الكويت كما في أي مكان آخر تزيد جموع الشعب عبد الناصر بشدة[٣٢] .

ويلاحظ أن حاكم الكويت ظل يؤيد عبد الناصر ويعمل لأن تصل الحكومة البريطانية إلى تفاهم معه ، مؤكدًا أنه ليس شيوعيًا . ومع ذلك استمر حاكم الكويت ينعت بحرب الدعاية التي كانت تجرى وقتذاك بين القاهرة وبغداد ووصفها بأنها كلها أكاذيب لا تخدم هدفًا طيبًا[٣٣] .

كذلك أكد حاكم الكويت أن هناك رد فعل شعبي حيدًا ، طيبًا ومؤيدًا في الكويت والبحرين والخليج بوجه عام لتكوين الجمهورية العربية المتحدة أكثر منه لتكوين الاتحاد العربي الهاشمي[٣٤] .

وقد اعترف المقيم البريطاني في البحرين بذلك ، مؤكدًا وجود تيار واسع جدًا في الرأي العام الكويتي يميل لعبد الناصر ، وأن هذا التيار لا يصل في ذلك

الوقت إلى درجة تهديد الحكم القائم فى الكويت ، ولكنه قد يصبح خطيرًا إذا انضمت الكويت فجأة إلى الاتحاد الهاشمى ، وأن الأضرار المترسبة فى أعماق الكويتيين ضد العراق قائمة وموجودة من قبل عبد الناصر لمدة طويلة(٣٥) .

فى ضوء هذا كله يمكن تلخيص موقف حاكم الكويت من الإنضمام إلى الاتحاد الهاشمى أنه كان يرى من الحكمة بالنسبة للكويت أن تبقى خارج كلتا الكتلتين العراقية الاردنية أو السورية المصرية وأن عليها أن تحاول التوسط وإصلاح ذات البين بينهما . ولذلك أراد حاكم الكويت أن يسهم إسهامًا إيجابيًا فى إنهاء الصراع بين القاهرة وبغداد ، لصالح الوحدة العربية ، ولصالح العرب بوجه عام والكويت بوجه خاص .

ولا شك فى أن حاكم الكويت كان ثاقب النظر وواقعيًا بموقفه هذا ، وقد أثبتت ذلك الأحداث التى حدثت بالعراق ؛ ففى يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ قامت الثورة العراقية مما أكد صحة رأى شيخ الكويت من أن الاتحاد الهاشمى لم يكن يستند إلى مساندة شعبية(٣٦) .

الهوامش

١ - رسالة رقم ٢٤٨ لعام ١٩٠٠ ، من المقيم السياسى فى البلاد العربية التركية (بغداد) ، إلى المقيم السياسى فى الخليج(بوشهر)، بتاريخ ٢٦ يونيو ١٩٠٠، R/15/1/473

٢ - رسالة رقم ٢٨١ سرى لعام ١٩٠٠ ، من المقيم السياسى فى البلاد العربية التركية (بغداد) ، إلى المقيم السياسى فى الخليج (بوشهر) ، بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٠٠ ، Ibid

٣ - رسالة رقم ٢٣٤ سرى ، من الوكيل السياسى فى الكويت ، إلى كارو Caroe القائم بأعمال المقيم السياسى فى الخليج (بوشهر)، بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣، R/15/5/203

(*) لم تتبلور فكرة إقامة تجمع عربى واحد إلا خلال الحرب العالمية الثانية ، التى أظهرت الأهمية البالغة للمنطقة العربية اقتصاديًا واستراتيجيًا ، وذلك بعد تصريحى أنتونى إيدن وزير خارجية بريطانيا فى ٢٩ مايو (أيار) ١٩٤١ و ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٣ . وكان التصريح الأخير بمثابة الضوء الأخضر للحكام العرب للعمل من أجل الوحدة ، فقد أعلن فيه الوزير البريطانى أن حكومته " تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية بينهم ، ولكن الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع يجب أن تأتى من جانب العرب أنفسهم " .

وعلى ذلك بدأت المباحثات الثنائية فى القاهرة بين مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر فى ذلك الحين من جهة ، وبين رؤساء الحكومات المستقلة الأخرى فى الشرق العربى من ناحية أخرى ، وذلك اعتبارًا من يوليو (تموز) ١٩٤٣ ، وحتى فبراير (شباط) ١٩٤٤ ،

وكان لمن تقدمت المباحثات الثنائية بدرجة سمحت الحكومة المصرية تخطو خطوة أخرى ، فدعت مندوبى الدول التى اشتركت فى المناورات التمهيدية إلى اجتماع على شكل لجنة تحضيرية لمؤتمر عربى عام . وعقدت هذه اللجنة ثمانى جلسات ابتداء من ٢٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٤ بقصر أنطونيادس بالأسكندرية ، وحتى أكتوبر(تشرين أول) . واستقر رأى الحاضرين على إقامة منظمة باسم (جامعة الدول العربية) . وقد أصدرت فى نهاية اجتماعاتها (بروتوكول الأسكندرية) ، الذى عهد إلى اللجنة السياسية الفرعية التى شكلت بإعداد ميثاق الجامعة الذى أقرته اللجنة التحضيرية . وفى ١٧ مارس (آذار) ١٩٤٥ بقصر الزعفران بالقاهرة، وفى ٢٢ مارس (آذار) ١٩٤٥ وقع مندوبو الدول على ميثاق جامعة الدول العربية.

لمزيد من التفاصيل ، انظر :

جامعة الدول العربية : ميثاقها وانجازاتها ، إعداد د. مفيد شهاب ، (القاهرة ،١٩٧٨)

٤ - برقية رقم ٦٤٣ ، من الوكيل السياسى فى الكويت ، إلى المقيم السياسى فى الخليج (بوشهر) بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٩٤٤ ، R / 15 / 5 / 217

٥ - برقية رقم ت/ ٣٥٨ ، من المقيم السياسى فى الخليج ، إلى وزارة الهند (لندن) ، بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٤٤ ، Ibid

٦ - برقية رقم ت/ ٤٦٥ ، من المقيم السياسى فى شيراز ، إلى السفير البريطانى فى مصر ، بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٤٤ ، Ibid

وكان الشيخ فهد قد طلب مساعدة السفير البريطانى فى القاهرة للحصول على تصريح بتصدير سيارتين إضافيتين من القاهرة لنقله وعائلته إلى الكويت على أن تصبحا بعد ذلك فى خدمة الحكومة الكويتية . وكان ذلك أمرًا متعذرًا نظرًا لمنع تصدير السيارات فى ظل ظروف الحرب .

برقية من السفير البريطانى فى القاهرة ، برقم ٣ ، بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩٤٤ ، إلى المقيم السياسى البريطانى فى شيراز ، Ibid

٧ - برقية وزير الهند (لندن) ، إلى المقيم السياسى فى شيراز ، برقم ١٩٨٣٠ ، بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٤٤ ، Ibid

٨ - R / 15 / 5 / 194

ملحوظة : على الأرجح أن هذا الحديث جرى فى عام ١٩٤٤ ، ولكن أن الوثيقة لم تذكر تاريخًا له

٩ - وثائق الخارجية البريطانية F. O. 371 / 114760

مذكرة عن رفض طلب مصر فتح قنصلية فى الكويت .

١٠ - وثائق الخارجية البريطانية .

F. O. 371 / 114760

Memorandum On Egyptian - Kuwait Relations, 4 March 1955

١١ - وثائق الخارجية البريطانية . F. O. 371 / 120564

رسالة من السفير البريطانى فى دمشق جاردنر ، إلى مستر روز مدير إدارة الليفانت بوزارة الخارجية البريطانية ، بتاريخ ٢١ مارس ١٩٥٦

١٢ - وثائق الخارجية البريطانية F. O. 371 / 132775.

مذكرة حول إنشاء قنصلية أردنية فى الكويت ، بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٥٨

١٣ - وثائق الخارجية البريطانية . F. O. 371 / 132775.

موجز للقاء بين كير كباتريك والسفير المصرى بشأن الكويت، بتاريخ ١٠ مايو ١٩٥٥

١٤ - وثائق الخارجية البريطانية . F. O. 371 / 132775.

من ميدلتون السفير البريطانى فى بيروت ، إلى سير برنارد بارورز المقيم البريطانى فى البحرين، سرى بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩٥٦

In : Rush (ed.) : Records Of Kuwait 1899 - 1961, Vol. VI .

١٥ - Nutting : Nasser, p. 160

١٦ - Shwardran, Benjamin : The Kuwiat in cident, (M. Eastern Affairs, Vol. 13, I, Jan 1962), p. 8

١٧ - جريدة الأهرام : القاهرة ، فى ١٩ / ٨ / ١٩٥٦ ، ص٣

١٨ - د . عبد الرحمن البزاز : بحوث فى القومية العربية ، (معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦١ - ٦٢) ، ص٤٢٥

١٩ - انظر :

- جريدة الأهرام : فى ١٣ / ١١ / ١٩٥٦ ، ص٥

- جريدة الأهرام : فى ٢٣ / ١١ / ١٩٥٦ ، ص٤

- د . نادر الصفار : العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا ، (مطبعة الإنشاء ، دمشق ، ١٩٦٢) ص٢٣٨

- د . نبيه بيومى عبد الله : تطور فكرة القومية العربية فى مصر ، (الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥) ، ص٢٣٥

٢٠ - د. محمد على حلة : الكويت بين الجمهورية العربية المتحدة والإتحاد العربى الهاشمى ١٩٥٨ ص٧

٢١ - د. محمد على حلة : المرجع السابق ، ص١٨

22 - F. O. No. 428, March 12, 1958, In :. From Wright (Baghdad) to Records of Kuwiat, Vol. VI, pp. 94, 95

23 - Ibid. : p. 94

24 - Waldemer, Gallman : Iraq under General Nuri, My recollections of Nuri al Said 1946 - 58, pp. 147, 148

٢٥ - د . محمد على حلة : المرجع السابق ، ص٢٦

٢٦ - Letter No. 10634 / 33 / 58, June 13, 1958, from Washington, in : Records of Kuwait, p. 126

(27) From Karachi to F. O. No. 69m, March 8, 1958, Records, p. 91

(28)Report by S. M. Wright to F. O. No. 361, in March 3, 1958: Ibid., p. 90

(29) From Wright (Baghdad) to F. O. No. 765, May 11, 18958, Records, pp. 112, 113

٣٠ - د. محمد على حلة : المرجع السابق ، ص٣٥

(31) Records, p. 87, Report from F. O. in March 3, 1958
Ibid., pp. 99 - 100, Tel. from Middleton (Beirut) to F. O. No. 332, April 8, 1958

٣٢ - جاء ذلك فى حديث بين حاكم الكويت وهالفورد Halford من الوكالة السياسية البريطانية فى الكويت وأبلغها الأخير إلى وزراء الخارجية البريطانية

(33)Records, p. 106, Tel. from Halford To F. O. No. 164, April 27, 1958
(34)Ibid., pp. 108, 109, from Wright to F. O No. 764, May 11, 1958
(35) Ibid., p. 122, From Burrows (Bahrain) to F. o. No. 622, June 2, 1958

٣٦ - د. محمد على حلة : المرجع السابق ، ص٥٧

الغزو العراقى للكويت

وأخيرًا نختتم هذه المجموعة من الدراسات التاريخية حول إقليم الخليج ، بعرض لكتاب صدر أخيرًا يعبر عن آراء وأفكار مبغوة من الأساتذة العرب ، حول موضوع ما زال يشكل جرحًا لم يندمل فى جسد إقليم الخليج ، بل فى جسد الأمة العربية جمعاء من المحيط إلى الخليج . والعرض مأخوذ عن نشرة خاصة أصدرها المركز الإعلامى الكويتى بالقاهرة فى شهر فبراير ١٩٩٦ ، وهى عبارة عن تعريف بكتاب صدر عن عالم المعرفة برقم ١٩٥ ، يحمل اسم " الغزو العراقى للكويت " .

يأتى هذا الكتاب بعد مرور وقت كاف على الحدث ، وهو أمر يتيح للباحث أن يتناول الغزو العراقى للكويت - الذى وقع فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ - بروح موضوعية وعلمية بعيدًا عن ضغط الأحداث وتأثيرها المباشر .

* * *

هذا الكتاب الصادر عن سلسلة " عالم المعرفة " هو تسجيل لوقائع الندوة العلمية ، التى تنظمها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت ، وشارك فيها مجموعة من المفكرين والباحثين العرب البارزين المشهود لهم بالجدية والموضوعية ، فقدموا الدراسات حول مختلف جوانب الموضوع وتباحثوا وتناقشوا فكان نقاشهم كما يتبين من محاضر الجلسات المنشورة فى الكتاب ، على درجة عالية من المسئولية والاجتهاد ، بحيث جاء الكتاب ، كما ورد فى المقدمة ، " ثمرة " تفاعل هذه العقول ، كتابًا ، يملأ فراغ المكتبة العربية فى هذا الموضوع الحيوى والمصيرى " " ص١٠ "

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور رئيسية :

المحور الأول : يتناول مقدمات الغزو والعدوان ، وهو ذو طابع تاريخى وسياسى ، شارك فيه عدد من المؤرخين والمتخصصين فى العلوم السياسية ، بحثًا

وتعقيبًا ، ومناقشة ، ويتضمن هذا المحور دراستين أساسيتين الأولى بعنوان " الكويت بين الصراعات الدولية وتوازناتها منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين " للدكتورة فتوح الخنزش ، والثانية " العلاقات الكويتية - العراقية ١٩٢١ - ١٩٩٠ " أعدها الدكتور عبد المالك التميمي .

وهو بذلك يشكل القاعدة التاريخية العلمية ، التي يتم بالاستناد إليها " بواسطة الوقائع التاريخية والوثائق " رفض كل الإدعاءات والمطامع العراقية بشأن الكويت فيتناول البحث الأول للمطامع التي تعرضت لها الكويت خلال الفترة من منتصف القرن ، التاسع عشر حتى مطلع هذا القرن ويبين أنها استطاعت في خضم صراعات تلك الفترة تأكيد كيانها والإحتفاظ باستقلالها ، فهي لم تكن خاضعة للسيادة العثمانية .

ويشير البحث الثاني إلى أنه قامت بين الكويت والعراق ، منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية ، وقد كانت العلاقات السياسية أكثرها تقلبًا وتوترًا وقلقًا ، وذلك بسبب إدعاءات العراق ومطامعه " المطالبة بمنفذ بحري على الخليج والتهديد بضم الكويت إلخ " ولم تكن الأزمات التي كان يمر بها العراق ومنها فترة الحرب العراقية - الإيرانية ، لأن العراق كان يحتاج في مثل الظروف إلى دعم الكويت ، ودول الخليج العربية ماديًا ومعنويًا .

ويؤكد الدكتور التميمي أن قضية النفط تكتسب أهمية بالغة في مسألة العلاقات الكويتية - العراقية فرغم أن العراق بلد منتج للنفط ومن أقدم الدول العربية التي اكتشف فيها النفط ، إلا أن معظم عائداته منه أهدرتها السلطات العراقية ، فلم توجه للتنمية والبناء بقدر ما وجهت للحروب والمغامرات وشراء الأسلحة ونهب الحكومات المتعاقبة ، لذا توجهت أطماع النظام العراقي نحو عائدات النفط الكويتي ، مدعيًا أنه حق من حقوق فقراء العرب ، علمًا بأنه هو

نفسه لم يقدم شيئًا من عائدات نفطه لفقراء العرب عندما كان غنيًا . ومن هنا فإن النفط كان هدفًا لتخريب النظام العراقي ، حين أقدم على حرق آبار النفط الكويتي ، بعد هزيمته في حرب تحرير الكويت .

وقائع الغزو وردود الفعل :

أما المحور الثاني من الكتاب فيدور حول وقائع الغزو بحد ذاتها ، ويبدأ هذا المحور بمعالجة الذرائع المتعددة والمتناقضة ، التي لجأ إليها النظام العراقي لتبرير جريمته ، والأساليب التي استعملتها أجهزة الدعاية العراقية ، من أجل استمالة الرأي العام العربي والإسلامي إلى جانبه . ثم يعرض تفاصيل عملية الغزو نفسها ، وما تخللها من ممارسات شائنة . ويقدم شهادة حية لما جرى في الكويت خلال أشهر الاحتلال . سواء من جانب الغزو أم من جانب الشعب الرافض للاحتلال ، ولما كان العامل الاقتصادي من أهم العوامل التي أدت إلى الغزو ، فضلاً عن أن الغزو أسفر عن نتائج اقتصادية بالغة الأثر على الصعيدين المحلي والخارجي ، فقد جرى تناول الأبعاد الاقتصادية بصورة مستقلة في هذا المحور . ثم تناول المحور في بحثين مستقلين ردود الفعل العربية والدولية إزاء الغزو .

في مقدمة البحث الأول حول الأسباب الموضوعية للغزو ومبرراته الأيديولوجية يؤكد تركي الحمد أن الاجتياح العراقي للكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ لم يكن مجرد عمل من أعمال العنف بين دولتين تتمتعان بالإعتراف الدولي ، بقدر ما شكل سقوطًا لنظام بأكمله وانهيار نمط في التفكير برمته . لقد كان سقوطًا للنظام العربي الذي حدده ميثاق الجامعة العربية ، وانهيارًا للنمط والتفكير السياسي العربي الذي يبيح أي شيء وكل شيء في المجال السياسي إلا أن تتوجه البنادق العربية إلى الصدور العربية .

ويتسم بأهمية كبيرة ، في رأينا العرض المفصل لما يسميه الباحث الأسباب الموضوعية للغزو ، وهي اقتصادية وسياسية واجتماعية وشخصية " أي نابعة من طبيعة الإنسان الذي وضعته الأقدار في مركز اتخاذ القرار في العراق " . لقد خرج

العراق مفلسًا من حربه الطويلة مع إيران ، ولأن العالم كان يمر آنذاك بمرحلة انعطافية تمثلت في انهيار المعسكر الإشتراكي وانتهاء الحرب الباردة ، وكانت تلك مرحلة انتقالية بين نظام قديم وآخر جديد لم تتضح معالمه بعد ، فقد تصورت القيادة العراقية آنذاك أنها قادرة على اقتناص الفرصة لتحقيق الحلم الذي راود كل الأنظمة والحكومات المتعاقبة على العراق ، دون أن يواجه صدًا عالميًا جديًا ... لقد أخطأت القيادة العراقية قراءة الواقع السياسي العالمي وتقدير المتغيرات العالمية ، وتصورت أن انشغال الولايات المتحدة بالتحولات في الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية سيجعلها توافق أو تغض النظر عن حدث خطير كاحتلال الكويت .

بين عسكرة المجتمع والمغامرات الخارجية :

لقد كان غزو الكويت محاولة من النظام العراقي لحل أزماته ، خاصة الاقتصادية والاجتماعية ، التي كان من الممكن أن تهدد استقراره وشرعيته . وحيث أن هذه الأزمات كانت قد وصلت إلى طريق مسدود ، بحيث لا يمكن حلها داخليًا إلا على حساب ذات النظام وبقيته ، فإن الاتجاه إلى الخارج كان شبه حتمي ، فثمة - كما يقول الباحث - علاقة فردية بين عسكرة المجتمع والمغامرات الخارجية التي تقوم بها السلطة في ذلك المجتمع وتحت مختلف التبريرات والأقنعة الأيديولوجية . فكلما كان المجتمع أكثر عسكرة كان أكثر ميلاً إلى الدخول في حروب ومعارك تهدف إلى إعطاء مبرر" شرعية " لذات المجتمع العسكري من ناحيةوحل أزمات ومشكلات المجتمع المدنية التي لا تجد حلاً داخليًا في ظل هيمنة " العسكرتاريا " من ناحية أخرى . وهذا هو حال العراق في ظل حكم الحزب الواحد والزعيم الأوحد ، صاحب الشخصية العنيفة الشاذة والرعناء .

مقاومة الاحتلال :

يقدم الكتاب وصفًا لمعاناة الكويتيين وعمق مأساتهم في ظروف الاحتلال ، وصورة مضيئة لرفضهم ومقاومتهم هذا الاحتلال بشتى الأساليب والوسائل المتاحة . لقد اتخذت المقاومة أشكالاً مختلفة أبرزها :

- العصيان الذي تمثل برفض الكويتيين المطلق منح الشرعية للاحتلال ومقاطعتهم التامة له ورفضهم الشامل التعامل معه .
- المقاومة المدنية التي - إلى جانب الأساليب المعروفة مثل كتابة الشعارات المعادية للاحتلال على الجدران وتضليل العدو وتوزيع المنشورات ... إلخ - اتخذت أشكالاً مبتكرة كالتكبير الجماعي من فوق السطوح . وكان لهذا الأسلوب تأثير نفسي كبير في جنود الاحتلال ، دفعهم إلى إطلاق النيران على مصادر التكبير بصورة هستيرية .
- المقاومة المسلحة التي نشطت بصورة خاصة في بداية الاحتلال ، وشاركت فيها فئات مختلفة من الشباب الكويتي ، رجالاً ونساء ، وألحقت أضرارًا كبيرة بالمحتلين خصوصًا في الشهرين الأولين .
- العمل على إقامة الخدمات الأساسية وتقديم المساعدات للأسر الصامدة ، الأمر الذي ساهم في دعم صمود السكان ، وكان لذلك كله نتيجة بالغة الأهمية تمثلت في أحياء روح التعاون والتكافل داخل المجتمع .

الأبعاد الاقتصادية للغزو :

قد يكون البعد الاقتصادي من أهم العوامل التي أدت إلى الغزو العراقي للكويت ، فقد تخيل النظام العراقي أن احتلال الكويت هو البديل الواقعي للأزمة الاقتصادية التي تعصف به . ويؤكد الدكتور عامر التميمي في دراسته حول هذا الموضوع أن الاحتلال ترك إنعكاسات خطيرة جدًا على اقتصاد الكويت واقتصادات العديد من البلدان العربية ... فقد تعرضت الكويت من جراء الغزو والاحتلال لدمار وخراب هائلين ، ولخسائر اقتصادية ربما يتطلب مرور سنوات أو عقد من الزمن قبل الوصول إلى تقدير حجمها النهائي والحقيقي . وقد تمثلت هذه الخسائر في تخريب حقول النفط وتعطيل قدرة البلاد على الإنتاج والتصدير ،

وإضعاف الامكانات المالية للبلاد وتخريب البنية التحتية والقطاعات وممتلكات الأفراد .

ويتبين من استعراض الآثار الاقتصادية للاحتلال أن النتائج كانت كارثية ، وما زالت مستمرة ، وسوف تظل عبئة للكثير من الآمال العربية على البعدين المنظور والبعيد ، ومن هذه النتائج كما يحددها الباحث ، ما يأتي :

١ - إنهاك الاقتصاد الكويتي إلى حد كبير وتراجع القدرات المالية وتضاعف العجز في الموازنة الحكومية ، وتراجع قدرة الكويت على تمويل المشاريع الأساسية والاستثمارية في العديد من البلدان العربية .

٢ - تدهور الاقتصاد العراقي المنهك أساسًا ، وازدياد حدة المديونية الخارجية ، وتوقف الإيرادات النفطية لفترة من الزمن ، وعزل العراق اقتصاديًا عن العالم الخارجي وفقدان القيمة الاقتصادية للبلاد .

٣ - تأثر العديد من الاقتصاديات العربية بالنتائج .

٤ - أصبح هاجس الأمن قضية محورية لدى دول الخليج ، مما أدى إلى ازدياد كبير في نفقات الدفاع . وهذا لابد أن ينعكس سلبيًا في ضوء تراجع الإيرادات النفطية على مخصصات التنمية في هذه البلدان والبلدان العربية الأخرى

٥ - أن ضعف الإمكانات المالية والاقتصادية في عدد من دول المنطقة سيدفعها إلى الانفتاح الاقتصادي على الشركات العالمية ، مع ما يمكن أن ينجم عن ذلك من احتمال عودة هيمنة هذه الشركات على المقدرات الاقتصادية في المنطقة .

كل ذلك يؤكد أن الجوانب الاقتصادية للغزو العراقي للكويت قد تكون من أهم النتائج وأن انعكاساتها على الاقتصاديات العربية ستدوم ، ولن تتجلى إلا بعد ردح طويل من الزمن .

ردود الفعل :

يقف القارئ باهتمام كبير عند الدراسة التي أعدها الدكتور محمد الرميحي حول ردود الفعل العربية حيال الغزو إذ يقول : إن اللاشعور السياسي قد يكون العنصر الأهم في دراسة ردود الفعل هذه - لدى الشارع غير المنظم بصورة خاصة - لأن هناك الكثير من ردود الفعل العربية ما يبدو محيرًا ويصعب استكانة عقله السياسي دون الوقوف على دقائق " لا شعوره السياسي " الذي هو عبارة عن بنية قوامها علاقات أخوية جمعية تمارس على الأفراد والجماعات ضغطًا لا يقاوم ، علاقات من نوع العلاقات القبلية ، العشائرية ، والطائفية لا تقاوم ، علاقات من نوع العلاقات القبلية العشائرية ، والطائفية والمذهبية والحزبية الضعيفة ... تعتقد أن هذه المسألة يمكن أن تشكل المفتاح لتفسير بعض ردود الفعل الشعبية العربية . فردود الفعل العربية كما يقول د. الرميحي ... كشفت عن توافق الفعل السياسي العربي وآليات تفاعله على مستوى الشعور واللاشعور السياسي الذي يتداخل أحدهما في الآخر ، كما أزاحت هذه التفاعلات كثيرًا من المسلمات القومية إلى أركان تجعلها في موضع تساؤل حقيقي حيال التفكير في المستقبل العربي . ويتابع الرميحي قائلاً : لكن الحقيقة التي تجعلنا أقل تشاؤمًا مستقبليًا هي أن الجسم العربي لم ينهار كله في قبضة التناقض ، فثمة تيار مناهض أصغى للغة العصر ولم ترهبه عمليات التلويح بالشعارات " القومية " المتقادمة ... ويضيف " لابد من عقل سياسي عربي جديد ونظام سياسي عربي جديد يتأسس على معطيات هذا العقل الذي ينبغي أن ينبذ همجية القبائل ومنطق الأسلاب ، وتقديس الفكرة الواحدة والأذعان لصنم " الزعيم " .

لقد وقع الغزو في فترة تحول في النظامين العالمي والإقليمي عجز النظام العراقي عن فهم طبيعته ، فمع انهيار المعسكر الإشتراكي أصبحت الولايات المتحدة حرة طليقة المركة لقيادة النظام العالمي ، ومنحها الغزو فرصة تأكيد

هيمنتها وتمكينها من وضع كل خيوط إدارة الأزمة في يدها وحدها ... أما النظام العربي فقد كان يمر بمرحلة تفاهة ، وأصابه الغزو بانتكاسة حادة شلت إرادته ... وأتاح ذلك الفرصة أمام دول إقليمية كإسرائيل وتركيا وإيران لتحقيق مكاسب على حساب النظام العربي لم تكن تحلم بها ... هذه بعض الأفكار الرئيسية التي وردت في البحث القيم والشامل الذي أعده الدكتور حسن نافع حول ردود الفعل الدولية إزاء الغزو ، والذي كان محور نقاش واسع وغني في الندوة .

الآثار والتداعيات :

وأما المحور الثالث من الكتاب فيتناول بعدًا بالغ الأهمية في هذا الموضوع ، هو النتائج المترتبة على الغزو ، فيتضمن دراسة في الآثار النفسية والاجتماعية للغزو أعدها الدكتور طلعت منصور ، بعضها يتعلق أساسًا بالإنسان الكويتي الذي وقع عليه الغزو وتعرض لـ " صدمة " العدوان ، وبعضها الآخر ، بما كشفت عنه ممارسات المعتدي من نزعات عدوانية تحتاج إلى تحليل وتفسير . لقد كان العدوان العراقي من المفاجأة والضراوة ، كما كان من فقدان العقلانية في منطقه وموضعه وهدفه وأسلوبه ، بحيث أنه ترك كل إنسان ، عربي وغير عربي ، في "حالة صدمة" ... إن ما حصل للكويت هو محصلة نوعة مرضية ، شريرة شرسة لتدمير الإنسان العربي من داخله .

أما النتائج السياسية والاقتصادية للغزو فهي بعيدة المدى . ولسوف تبقى آثاره ماثلة في الواقع العربي أمدًا طويلاً . وفي هذا السياق تتسم بأهمية بالغة الدراسة التي أعدها الدكتور محمد السيد سعيد حول النتائج العربية والدولية من منظور الاقتصاد السياسي .

وأخيرًا ... فإن الآثار التي أحدثها الغزو في طريقة تفكير الإنسان العربي تشكل موضوعًا بالغ الأهمية ، وهو موضوع البحث الأخير الذي وضعه الدكتور

منصور بو حسين حول الشرعية السياسية في الخطاب السياسي العربي والاحتلال العراقي للكويت .

فالخطاب العربي حول الشرعية الذي استقر في ذهن الأمة منذ منتصف هذا القرن تعرض لهزة أضعفت بنيته ومصداقيته إلى حد بعيد . إن هذا الموضوع ، كما جاء في افتتاحيه الكتاب ، سيظل يحتاج إلى تفكير وتحليل مستمرين ، نظرًا إلى ما كشف عنه الغزو من فجوات وثغرات غير متوقعة ، ليس فقط في تفكير الإنسان العربي العادي ، بل وفي تفكير الصفوة المثقفة أيضًا .

كلمة الختام

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الزملاء والزميلات :

والآن فى ختام هذه الندوة نحمد الله ونشكره على هذا النجاح الكبير الذى حققته على مدى ثلاثة أيام ، شهدت سبع جلسات طوال مليئة بالمحاضرات والتعليقات والمناقشات العلمية البناءة التى ألقت مزيدًا من الأضواء على تاريخ الخليج العربى .

وإذا كانت المناقشات العلمية قد حمى وطيسها فى بعض الأحيان ، فإن هذا علامة من علامات النجاح لأنه دليل على المتابعة وإعمال الفكر . قد تتباين الآراء فى التحليل للأحداث والظواهر التاريخية أو فى الاستنتاج وتصوير النتائج وربطها بالمقدمات ، ولكن تبقى الحقيقة التاريخية هى الهدف الذى يسعى إليه المؤرخ الواعى الذى يعرف كيف يعرض صورة التاريخ نقية صافية مجردة من الشوائب والميول والنزعات .

حضرات الزملاء والزميلات :

لعلنا نلمس جميعًا أنه من الظواهر المؤلمة فى أيامنا هذه أن التاريخ غدا مطية لبعض رجال السياسة والإعلام وغيرهم ممن يحاولون تسخير التاريخ لخدمة أغراض قد تكون خفية أو معلنة .

وفى هذا الاتجاه يلجأ بعضهم إلى تزوير الحقائق واختلاق الروايات دون علم أو وعى أو إدراك . وينسى هؤلاء أو يتناسون أن التاريخ ليس قصصًا يروى وإنما هو علم له منهجه وأركانه وأسسه التى يقوم عليها ، والتى تعتمد فى المقام الأول على الأمانة والصدق والتجرد من النزعات المغرضة أيا كانت .

حضرات الزملاء والزميلات :

إن هدفًا أساسيًا من الأهداف التي يسعى إليها إتحادنا - أعني اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة - هو خدمة التاريخ وتنقيته مما لحق به من شوائب ، والحفاظ عليه سليمًا صافيًا بعيدًا عن الأغراض السياسية أو العرقية أو الدينية أو المذهبية ، وهذا ما استهدفته هذه الندوة بالنسبة لإقليم ، الخليج العربي . ففي جو تسوده حرية الرأى وسلامة الفكر ، ناقش هذا الحشد الذى يزيد عن مائتين من صفوة علماء التاريخ في عالمنا العربي ، ناقشوا الحقائق التاريخية المرتبطة بهذا الإقليم وعملوا على غربلة مختلف الروايات التي أحاطت بتاريخه على مرّ العصور القديمة والوسطى والحديثة . وتمت مناقشة هذه الروايات في جو يتصف بالأمانة والصراحة والوضوح ، مما أدى إلى إزالة الكثير من القشور الزائفة التي التصقت بتاريخ الخليج العربي ، وإلقاء أضواء على عديد من الحقائق المستترة أو التائهة بين صفحات التاريخ .

حضرات الزملاء والزميلات :

إذا كنا نحمد الله عز وجل على هذا النجاح الكبير الذى حققته ندوتنا هذه ، فإننا نشكركم جميعًا على ما بذلتموه من جهد طويل على مدى ثلاثة أيام . إن إتحاد المؤرخين العرب الذى بدأ وليدًا في القاهرة أخذ الآن يشتد عوده لينهض بدوره كاملاً في خدمة الأمة العربية وتاريخها بفضل ما تقدمونه أنتم من عون وجهد وفكر .

والله يحمعنا دائمًا على طريق الخير ، وإلى لقاء قادم نسأل الله التوفيق والفلاح . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس الاتحاد

أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور